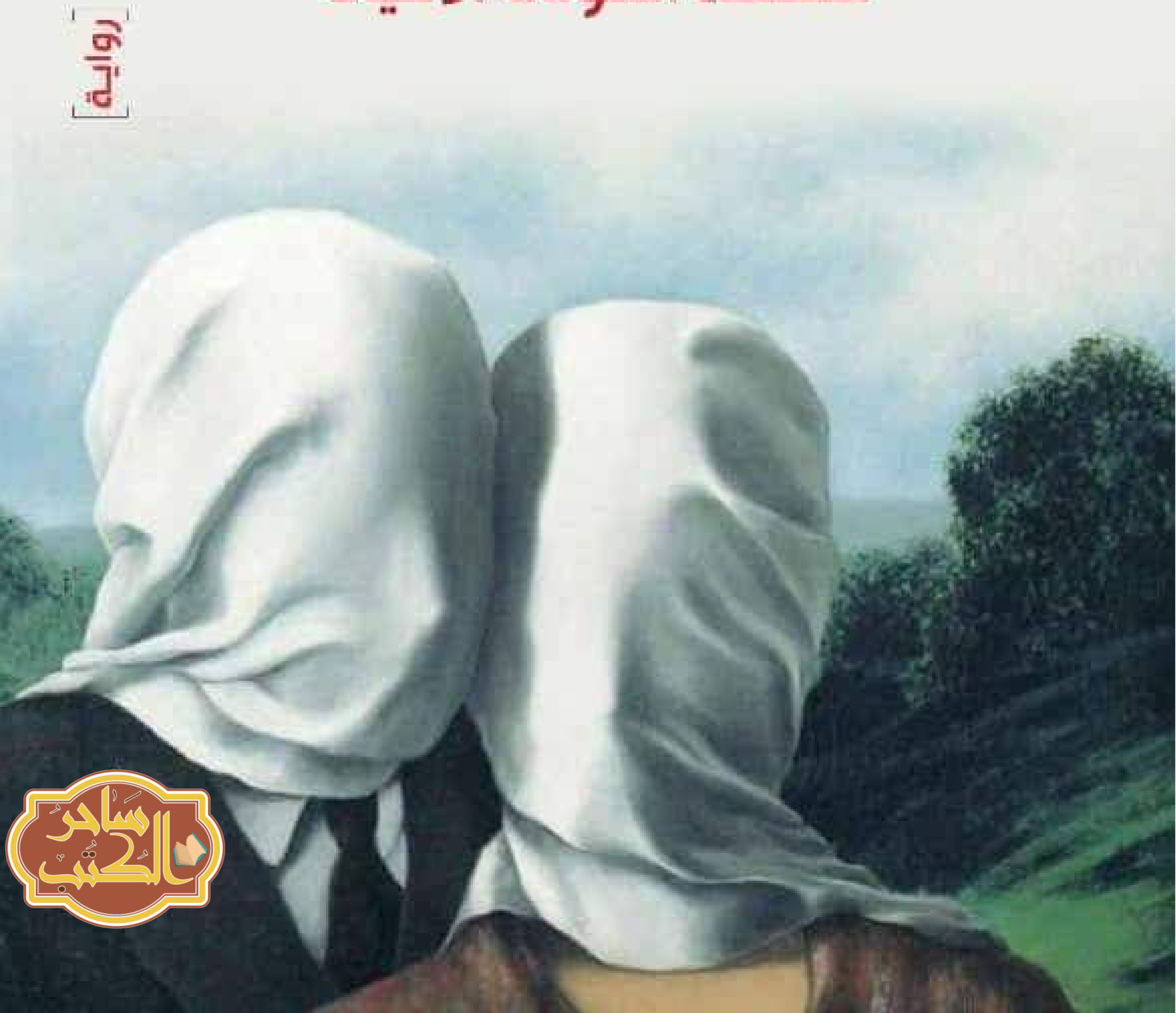
بُرهان شاوي

فندق باب السماء

الجزء الأول:

مملكة الموتى الأحياء

رواية



فندق باب السماء

فندق باب السماء
الجزء الأول
مملكة الموتى الأحياء
رواية

بُرهان شـاوي

الطبعة الأولى 2020



دار قنـــاديـــل
للنشر والتوزيع
بغداد – شارع المتنبي
+964 (0) 7801912445
+964 (0) 7711313929
ganadel.1986@gmail.com
srusru31@gmail.com

العراق – بغداد – مكتب بريد عدن، ص. ب 75021

ISBN: 978-9922-9163-2-3

فندق باب السماء

بُرهان شاوي

الجزء الأول
مملكة الموتى الأحياء

رواية



الإهـداء

إلى وطني الصغير..عائلتي

إلى زوجتي جميلة..رفيـقـة دربـي

لتفهمها العميق لتيهي وتوهاني وجنوني

وإلى ابنـي حسن – سامان

وابنتـي روناك

فرّ ظلي..

قلتُ ياظلي اتبعني أنتَ ظلي..!

قال ظلي: أنت يابُرهان ظلي

وأنا ظلُ العدمْ..!

أأنا ظلٌ لظلي..؟

أم كلانا عدمٌ مرّ كظلٍ في العدمْ..!

ب. ش من قصيدة « الظل»

الفصل الأول

ظِل الكائن الغامض

منذ ساعات الفجر الأولى أفاقت المدينة الغارقة في الضباب من نعاسها على خبر نشرته بعض الصحف التي تبحث عن الإثارة. خبر مفاده بأن ثمة شبح يطوف في العاصمة، وقد شوهد البارحة في شارع الرشيد.

انتشر الخبر بيسر ولهفة في كل شقة من شقق مباني ذلك الشارع الشهير الذي ارتبطت به الكثير من أحداث هذه المدينة عبر العصور، وكذلك في الأزقة الجانبية والمناطق السكنية التي تتفرع من جانبيه كلها، وفي المحلات والمقاهي، وبين جميع البسطات المنتشرة في إحدى الساحات التي يبدأ الشارع منها، كما انتشر بين موظفي المصارف وشركات التأمين كلها، مثلما انتشر في جميع دوائر المدينة العملاقة وأسواقها ومقاهيها وبيوتاتها وشققها، ومقرات أحزابها ومنظماتها ودوائرها الأمنية والاستخباراتية، بل إنه وصل إلى وكالات الأنباء العالمية.

وأصل الخبر أن شخصًا يُدعى آدم بهاء الدين، لا تُعرف له مهنة محددة فهو لا يعمل، لأن وضعه المالي المرفّه لا يدفعه إلى العمل، لكنه يكتب في الصحف والمجلات الثقافية من باب الهواية، وأنه بينما كان عائدًا في طريقه إلى البيت انتبه إلى وجود ظل كائن عند تمثال الشاعر الذي يتوسط الساحة التي هي ضمن ساحات شارع الحياة السعيدة، لكنه لم يرَ الشخص وإنما رأى ظله يسقط على قاعدة التمثال بوضوح.

كان يعتقد بأنه تعرض لزيغ بصري ووهم من أوهامه، لا سيما وأنه في عصر ذلك اليوم كان يتصفح مأساة «هاملت» لشكسبير في مكتبته البيتية، لذا أعاد النظر كرّة أخرى فوجد الظل موجودًا ولا وجود للكائن صاحب الظل.

ركّز بصره على الظل فانتبه إلى أنه بدأ يتحرك. إنه ظل كائن يشبه الإنسان..

وحين دقق النظر انتبه إلى أنه ليس ظلًا وإنما كائن شفاف جدًا وهلامي.. كائن يشبه الأشباح أو كائنات الفضاء التي تجسدها أفلام هوليوود الغامضة.

مشى الشبح في الشارع الطويل باتجاه الساحة الكبرى التي يبدأ منها شارع الحياة السعيدة. كائن شفاف يبدو للعين حين يمر من أمام مصدر ضوئي فيلمع ذلك الجزء الذي سقط عليه الضوء ليكشف ولو بشكل خاطف عن هيئة هذا الكائن الشبح.

من هول الصدمة والدهشة اتصل المدعو آدم بهاء الدين بزميلين صحافيين من قسم الأخبار والحوادث في الصحيفة التي ينشر فيها أحيانًا. ولأن هذين الزميلين كانا في مقهى بمنطقة ما تكثر فيها المطاعم والمقاهي مع زملاء آخرين لهم من صحف أخرى، لذا انتشر الخبر بين هؤلاء الصحافيين، فتوافد الجميع إلى ذلك الشارع الخالي من المارة في تلك الساعة من الليل، إلا من بعض السيارات.

جميع الإعلاميين انتبهوا لحركة الكائن الشفاف الشبحي، ورأوه ضمن انعكاسات الضوء الشاحبة التي تلقيها النوافذ أحيانًا على الشارع أو الإضاءة في بعض الفروع الجانبية للشارع، بل انتبهوا جميعًا كيف أن بعض السيارات مرت وصدمته، لكن السيارات مرت واخترقته بينما واصل هو مشيه..!

التقطوا له الصور بشكل مخاتل ظنًا منهم بأنه إذا ما انتبه فلربما سيختفي أو يؤذيهم، لكنه لم يكن منتبهًا لوجودهم أصلًا، فلم تبد منه أية إشارة أو حركة على ذلك، بل ظل ماشيًا، ثم فجأة توقف.

جاءت سيارة مسرعة تسبقها أصوات موسيقى هـادرة.. اخترقته.. لكنه ظل واقفًا..استغرب الجميع لغز هذا الكائن الذي لم يؤثر فيه هذا الاصطدام.. ثم انتبه المصورون بمعية المدعو آدم بهاء الدين إلى أن هذا الكائن رفع رأسه إلى تلك البناية المظلمة الطوابق إلا من طابق واحد كانت نوافذه مضاءة. ومباشرة صوروا تفاصيل المبنى الذي كانت واجهته تمتد عليها لوحة كبيرة بدت معتمة وغير واضحة الكتابة، لكن المصورين ركزوا على مضمونها كدليل له علاقة بهذا الكائن..

كانت اللوحة مليئة بالأخطاء الإملائية (وكالة الأرواح الميتة) في أسفل اللوحة

كُتبت مهمام هذه الوكالة السياحية: (إصدار تذاكر للسفر إلى الكواكب الأخرى- حج وعمرة في المريخ- سياحة داخلية لمجرة درب التبانة وسياحة خارجية لمجرة أندروميدا) .. فهمس المدعو آدم بهاء الدين لزميل كان قربه:

- صور كل التفاصيل في المبنى واللوحة الغريبة.. فأكيد ثمة سر يختفي وراء هذه الإلتفاتة من هذا الكائن الغامض إلى هذا المبنى وإلى ما وراء تلك النوافذ المضاءة.. ركّز على اللوحة فهي تشي بأشياء خارج المعقول.

توقف الكائن الغامض الشفاف لأكثر من دقيقة وهو رافع الرأس نحو الطابق الرابع ذي النوافذ المضاءة.. إلى أن جاءت سيارة ضخمة أخرى فاخترقته.. وحين مرت السيارة وجدوه قد تجاوز المبني ومكان الاصطدام بأمتار. تتبعه الجمع وهم يهاتفون جهات مختلفة، سواء كانت صحفهم أو محطات تلفزيونية إخبارية وفضائيات ذات برامج حوارية أو جهات أمنية.

استغرب الجميع بأن الكائن الغامض الشفاف ما إن وصل إلى تقاطع أحد الشوارع الجانبية حتى انعطف ماشيًا فيه، وانتبهوا إلى أنه عبر إلى الجهة الثانية، ثم توقف عند رأس زقاق جانبي يقود إلى حي شعبي.. اقترب من بوابة مفتوحة لفندق لم يتوقع أحد وجوده في ذلك الزقاق ودخله، فندق وكأنه انبثق من العدم.. فندق يحمل اسم ,,باب السماء".

ما أثار الغموض والتساؤلات والدهشة المشوبة بالخوف هو أن جميع من لاحقه من الصحفيين قد صوروا هذا الكائن الغامض اكتشفوا حين عادوا لصحفهم ومؤسساتهم أن لا كاميرات الموبايل ولا كاميرات الديجتال للمصورين ولا حتى كاميرات الفيديو قد التقطت شيئًا واضحًا لهذا الكائن الغامض، على الرغم من أنهم جميعهم صوروا الظل الماشي وسط الشارع بشكل لا بأس بوضوحه وبكثافة، وكانوا متأكدين حينها من وضع أجهزتهم من الناحية التقنية.

***

في حدود الساعة التاسعة صباحًا ازدحم شارع الحياة السعيدة ومدخل الزقاق

الذي يقع فيه فندق „باب السماء" بسيارات الشرطة والأمن والمخابرات إلى جانب بعض الصحافيين.

كان المسؤولون من مختلف الاختصاصات الأمنية يقفون بأعداد كبيرة عند مدخل المبنى الذي فيه الفندق وفي مقدمتهم الرائد آدم عبدالسميع. إذ حسب المعلومات الواردة للمؤسسات الأمنية فإن الكائن الغامض دخل إلى هذا المبنى، بينما صباحًا اتصلت إدارة الفندق بالجهات الأمنية أيضا لتبلغ بأن إحدى المنظفات طرقت باب الغرفة رقم ٤ كي تقوم بتغيير الملاءات والتنظيف فوجدت الباب غير مقفل من الداخل، وحينما فتحته وجدت النزيل الأجنبي على سريره. نادته أكثر من مرة وبصوت عال، فلمّا لم يجب ساورها الشك، فرجعت إلى إدارة الفندق التي جاءت معها إلى الغرفة ليكتشفوا وفاة النزيل الأجنبي.

ما أثار الجهات الأمنية ووترها هو أن الجثة تعود لرجل ذي ملامح شرقية جدًا. لا أحد يعرف عنه شيئًا. سوى أنه وصل المدينة قبل تسعة أيام بجواز سفر نمساوي واسمه آدم تسفايغ.. يبلغ الأربعين من العمر. وقد نزل في الغرفة رقم ٤، لكن العاملين في الفندق أكدوا أنه كان يتكلم العربية بشكل جيد جدًا مع لكنة خفيفة تشي بأنه عاش سنين طويلة دون أن يتكلم العربية خلالها. ولولا جوازه الأجنبي وسلوكه المهذب وأناقته البسيطة لظنوا أنه من أهل البلاد.

جاء فريق من الأطباء المختصين بهذه الحالات وفحصوا الجثة وأكدوا الوفاة، بينما أخذت الجهات الأمنية بتفحص كل الأشياء، من جواز سفر وحقيبة وبضع قطع من الملابس وبضعة أوراق مكتوبة بالعربية.

الفصل الثاني

تأملات الدكتور آدم السيد

هذا الفجر الغامض..

هذا الفجر الغامض والغارق في الضباب..

ليس هو الفجر الذي انتظرته.

وبينما كنتُ أحدّق في النجوم التائهة في براري المجرّة..

أنصتُّ لهدير أمواج الظلام تتدفع نحو ساحل اللانهاية.!

أيتها النجوم هل تنامين..؟

أيتها الكواكب الحائرة، أما تعبت من الدوران؟

أيها الظلام من أين أقبلتَ..؟

لا..

ليس هذا هو الفجر الذي انتظرته.

عند خلجان غريبة سترسو السفن..

عند خلجان وحشية..

لا نأمة تُسمع..

سوى صوت طائر نقّار الخشب يأتي من الغابة المطلة على الساحل..

سترسو السفن المهجورة التي لا أحد على ظهرها..

سترسو السفن التي تمردت على ملاّحيها فألقتْ بهم في البحر..

لكن لا خلجان هنا..

السفن التائهة حلمتْ بالخلجان الوحشية..!

ليس أمامها سوى أن تشق عبّاب بحر الظلام..

لا.لا. ليس هذا هو الفجر الذي انتظرته..

أنا هنا على ربوتي في أطراف المجرّة

انتظر الفجر..

انتظر الظلام الأبيض كالحليب..

انتظر النور..!

كان الخبير آدم السيد يجلس إلى مكتبه الذي يضيئه مصباح منضدي شديد الإضاءة، مع أن ضوء النهار يتسرب من فسحة في وسط النافذة العريضة التي تغطيها ستائر من القطيفة الحمراء من كلا الجانبين.

كان يتأمل بهدوء عميق وتفكّر في هذه الأوراق التي عُثر عليها بغرفة السائح الأجنبي آدم تسفايغ، لا سيما بعد أن قرأ هذا النص المكتوب بالعربية محاولًا غور هذه الشخصية التي تركت هذا النص مع نصوص أخرى قريبة منها وتتداخل معها في المزاج والطقس الروحي.

فكّر مع نفسه بأن الخط مكتوب بوضوح يصل إلى نسبة ٤,٥ ملليمتر وفق مقاسات علم الجرافولوجي، أي لا هي في نسبة ٦ ميللمتر التي تشير إلى شخصية كاتبها: موضوعي ومعتدل في آرائه ويجيد التحكم في انفعالاته، ولا هي ٣ ميللمتر التي تشي بشخصية شديدة التعقيد والأنانية. فهو هنا وجد نفسه أمام شخصية غامضة لا يمكن الوصول إليها من خلال خط يده فقط.

أعاد القراءة لأكثر من مرة. وسأل نفسه: كيف لهذا الرجل الذي يحمل اسمًا وجوازَ سفرٍ أجنبيين بينما هو يكتب بلغة عربية سليمة.!؟

شعر بدبيب الوحشة يسري في روحه. أحسّ بخوف بارد حينما حاول أن يجسّد

الصور الفنية التي وردت في أسطر النص. وسأل نفسه „من هو هذا الشخص؟ يا لعزلته وكأنه الكائن الوحيد في هذا الكون ينتظر فجر خلاصه، بل فجر مجيء مخلوقات أخرى تؤنس وحشته، أو ينتظر الله ليكشف له عن نوره!. لكن ما الذي جاء به من أوروبا إلى هنا؟ هل كان ينتظر فجره هنا وخاب ظنه أيضا؟..»

كان آدم السيد يعيد تفكيك تأملاته حين رنّ الهاتف النقال الذي قطع عليه تأملاته. أخذ الهاتف وضغط على زر التواصل فجاء صوت عرفَه فورًا، إنه الرائد آدم عبد السميع المكلّف بالتحقيق، وهو صديق طفولته منذ أيام الابتدائية والثانوية وقريب منه، ونقطة الارتباط الرسمية به فيما يخص تعاونه بجهاز الأمن في تدقيق الصكوك المزيفة وقضايا التزوير عبر الخطوط، وها هو يتابع معه سير التحقيق فأخبره بمعلومات أخرى ألقت به في حيرة جديدة:

- طاب نهارك يادكتور آدم. هل انتهيت من قراءة الأوراق التي وُجدت مع الجثة؟

أحس آدم السيد بشيء من الارتباك فقد كان يقرأ ببطئ ويتأمل كثيرًا، فقال:

- أهلا سيادة الرائد آدم.. لا... لم انته بعد.

فجاء صوت الرائد بنبرة حيوية:

- هذا جيد.. فلقد استجدّت أمور أخرى..

- خيرًا.. سأل آدم السيد.

تريثَ الرائد آدم للحظات وكأنه يريد أن يعلن معلوماته بوضوح أكثر وواصل:

- نحن في حيرة يا دكتور آدم.. فما إن انتشر الخبر عن الشبح والجثة في الصحف مع نشرنا لصورة الرجل الأجنبي حتى تقدّمت ثلاث نساء بمعلومات عن شخصيته، لكن الغريب أن كل هاتيك النساء لا يعرفن بعضهن البعض، ويسكنّ في أماكن متباعدة نسبيًا عن بعضهن لكنهن جميعًا يؤكدن معرفتهن بصاحب الصورة، وكلهن اتفقن على أنه كان نزيلًا في فندق „باب السماء".

- هذا جيد.. يعني صرنا نقترب من معرفة هويته..!

- لا أبدًا، على العكس تشتتنا أكثر، إذ أن كل واحدة منهن منحته اسمًا، وكل الأسماء لا تتطابق مع اسم آدم تسفايغ الذي في جواز سفره، بيد إنهن يتفقن على الاسم الأول آدم، لكنهن يختلفن في لقبه وجنسيته حتى بدأنا نشك بجواز سفره فربما يكون مزورًا، إلى جانب أن كل واحدة روت معلومات دقيقة عن تواجده في فندق „ باب السماء”.

- هذا أيضا جيد.. فمع أن هناك اختلافات في رواياتهن ومعلوماتهن لكن هذا يمنحنا فرصة لمقارنة المعلومات، فبالتأكيد ثمة رواية واحدة بينها تقترب من الحقيقة..!

علّق الخبير آدم السيد، فقاطعه الرائد آدم عبدالسميع قائلًا:

- ربما نعم وربما لا..!

- كيف.. ماذا تقصد؟ سأل آدم السيد.

- كل واحدة من هاتيك النساء ادّعت أنه ترك لديها دفترًا فيه سيرة ما وحكايات عن نساء وأشخاص آخرين. لكنهن اكتشفن بأن المكتوب في الدفاتر هو سيرتهن وسيرته، وكأن حياتهن كتبت في هذه الدفاتر حتى قبل أن يلتقينه، وقد سلمّن الدفاتر لنا. وهذا يعني بأن على حضرتك أن تلقي نظرة على تلك الدفاتر التي سأرسلها لك حالًا فربما ستحل لغز هذا الرجل.

صمت الخبير آدم السيد للحظات ثم قال:

- غريب هذا الأمر.. سأنتظر الدفاتر لكي أقارنها مع الأوراق التي لديّ.

- وهو كذلك! كما أننا ننتظر التقرير الطبي الذي يكشف سبب الوفاة.

هذا الاتصال الهاتفي شوش على آدم السيد تأملاته العميقة التي انبجست نتيجة قراءة النص، ووجد نفسه في حيرة وضيق في النفس وفي الوقت نفسه أمام تحدٍ وظيفي وفكري. ولم يطل الأمر فكما يبدو أن هذه القضية مهمة لأجهزة الدولة لا سيما وأنها تمس شخصًا أجنبيًا ربما سيُثار أمر موته على المستوى الدبلوماسي.

لم تمر سوى نصف ساعة حتى طُرق باب الشقة. ولما فتح بابها واجهه رجل

عرف أنه من رجال الأمن وهو يحمل ثلاثة دفاتر غير سميكة وسلمّها له. وما إن غادر رجل الأمن حتى عاد هو إلى مكتبه وفتح الصفحات الأولى من كل دفتر.

انتبه للخط وحجم الحروف فبدا هو نفسه. تأمل حركة كتابة بعض الحروف فوجد أنها تتطابق أحيانًا وتختلف أحيانًا، بل حتى صياغة الجمل تكاد تتطابق أحيانًا وتختلف أحيانًا، مع اختلاف موضوع الكتابة والشخصيات، لكنه لم يواصل القراءة وإنما غاص في تأملاته مجددًا.

فجأة أخذ هاتفه النقال واتصل بالرائد آدم عبد السميع وسأله بهدوء وحزم فيه رجاء مكتوم معتمدًا على طبيعة الصداقة التي بينهما:

- تحياتي حضرة الرائد آدم.. هذا أنا.. استلمت الدفاتر وألقيت عليها نظرة سريعة.. وانتبهت إلى الدفاتر متشابهة العنوان. لا معلوت شخصية واضحة عن أصحابها، لذا راودتني فكرة بأنه من الضروري أن التقي النساء الثلاث بنفسي، كي أعرف أية واحدة منهن الصادقة في روايتها عنه، ولكي يكون الأمر أكثر تلقائية أظن من الأفضل أن أزورهن في بيوتهن وأدعهن يكتبن شيئًا ما بطريقتي.. وأقارن بين الخطوط.. فربما هن من كتبن هذه الدفاتر..لاسيما وان لدينا بعض النصوص والأوراق بخط الرجل الأجنبي.. هل يمكنني ذلك؟

صمت الرائد آدم عبدالسميع للحظات، ثم جاء صوته قائلًا بنبرة فيها حيرة واستسلام:

- هذا الأمر لا يحبذ في التحقيق الذي نتابعه نحن، لكنني في وضع يمكنني أن أسمح به لك ما دام يخدم التحقيق ويوضح لنا هوية الجثة ونعرف عن شخصية المتوفي أكثر، فالجهات العُليا مهتمة بتوضيح الموقف وإيجاد الإجابة الصحيحة قبل أن تتدخل السفارات. أرجو ألّا يطول الأمر، وتبقى زيارتك لهنّ غير رسمية، وضمن جهدك في تفسير الأمر، ما دام ذلك يساعدك، لكن أرجوك أبقِ أمر زيارتك في كتمان شديد.

شعر آدم السيد بفرح غامر وتدفق نشاط غريب في كيانه فقال بنبرة تشي بالفرح:

- وهو كذلك.. أعدك بأن الأمر سيكون في سرية كاملة ولا يعرف به أحد غيرك.

- ومتى ستزورهن.. وكيف؟

- هذا المساء. أما كيف فعليك أن تزودني بأسمائهن وعناوين سكنهن.

- طيب.. سجل عندك.

سحب آدم السيد ورقة بيضاء من مخزن الورق على طابعة الكمبيوتر ودوّن المعلومات، لكنه انتبه إلى أن النساء يشتركن بالاسم الأول أيضا: حوّاء. ابتسم مع نفسه، إذ أدرك أنه دخل اللعبة الأزلية.. لعبة آدم وحوّاء.

***

لم يفكر آدم السيد بالوقت الذي قضاه وهو غارق في تأملاته بهذه القضية الغامضة، ولم يعرف هو لماذا أخذ الأمر بشكل شخصي، فقد أثارت حادثة موت شخص غريب في فندق ببلاد أخرى شجنًا خاصًا في نفسه. أثارت ذكريات موت أمه.

يبلغ آدم السيد الأربعين من العمر. هو أسمر البشرة، طويل القامة بشكل لافت، وسيم الوجه، كثيرًا ما مازحه الأصدقاء بإطلاق ألقاب لها علاقة بطوله الفارع وسمرته القاتمة نوعًا ما. وكثيرًا ما سأل آدم السيد نفسه في فترة مراهقته بل وحتى في عشرينيات عمره عن سر لونه الأسمر الداكن، فأبوه أبيض بل وجهه يميل إلى اللون الوردي، وأمه حنطية اللون، وأخته التي تصغره بعشرة أعوام بيضاء كالقطن، إلاّ هو فَقَدْ ولِدَ أسمر اللون، حتى أنه شك في أمه، فربما قد عاشت مغامرة جنسية ما، لكنه حين كان يتأملها ويرصد طريقة تفكيرها وسلوكها وفهمها للحياة وتمسكها بشعائرها الدينية وحبها لأبيه يقطع باستحالة ذلك، ويجد في البايولوجيا بعض الهدوء، لا سيما فيما يسمى بالطفرات الجينية الوراثية، كما أن تعامل والده معه بمحبة وفخر وكأنه من صلبه يبعد عنه الظنون، فكيف هو يشك بأمه بينما أبوه لا يشك فيها ولا في بنوته أبدًا.

يعمل آدم السيد أستاذًا جامعيًا زائـرًا بين عدد من الجامعات وخبيرًا في الجرافولوجي ويتعاون مع أجهزة الدولة الأمنية في فك الخطوط والتواقيع التي

كثيرًا ما تكون في قضايا جنائية تخص التوقيع لتزوير الوصايا بالميراث وتزوير التواقيع في الصكوك البنكية أو وكالات وصكوك ديون وما شابه، وكذلك خبيرًا في المحاكم الجنائية التي لها علاقة بذلك. لكن هذه أول مرة يواجه قضية جنائية مثل هذه، إذ عليه معرفة هوية جثة أجنبية تركت خلفها أوراقًا مكتوبة بالعربي.

هذا اليوم هو وحيد في شقته التي صارت ملكه بالكامل، بعد أن أعطى أخته التي تعيش في مدينة أخرى مع زوجها وأطفالها ما يعادل حصتها من الميراث فتم تسجيل الشقة ملكًا له. بيد إن القضية التي أحيلت إليه صدمته وفتحت على ذهنه وأعماقه رؤى وأفكار وخواطر وذكريات كانت في قاع لاوعيه.

تذكر موت أمه. حينها كان مشاركًا في مؤتمر علمي في النمسا عندما اتصل هو مساءً من هاتفه الشخصي بجيرانهم في الشقة المقابلة، حيث تقوم جارتهم حواء اللبّان برعاية أمه وتزورها يوميًا وتشربان القهوة معًا، وكان يتصل بهم مساء كل يوم من أول يوم وصوله إلى فيّنا حيث أن أمه ثقل سمعها كثيرًا بمرور السنين ولا يمكنه محادثتها هاتفيًا، لذا كان يتصل بجارته، لكن هذه المرة اختلف الأمر، فقد كان على الطرف الآخر من الهاتف صوت جاره آدم اللبّان وليس زوجته، وبعد أن سلّم عليها انتبه إلى أن صوت جاره كان مرتبكًا، إذ قال له بتوتر بأنهم أرادوا الاتصال به لكنهم ترددوا كثيرًا..!، فقد حدثت مصيبة، إذ أن زوجته حوّاء قد ذهبت إلى أمه عصر هذا اليوم كعادتها لتشرب القهوة معها، لكن الباب كان مقفلًا ولا أحد يفتحه، فاستعانت بمفتاح كانت والدته قد حفظته عندها للطوارئ، وحينما دخلت زوجته الشقة وجدت الأم مسجّاة على سريرها وقد فارقت الحياة.

في ذلك المساء شعر آدم السيد بصدمة هائلة وبفقدان لا يعوض، فطلب من الموظفين في استعلامات الفندق الذي نزل فيه بأن يجدوا له رحلة مباشرة إلى بلده، ومن حسن حظه أنهم وجدوا له رحلة كان يجب أن تقلع بعد منتصف الليل، فحجز فيها، وهكذا وصل في ساعات الفجر الأولى إلى مدينته وإلى شقته، وهناك كانت أخته الثلاثينية وأطفالها الثلاثة، ابنان وبنت في السابعة، وزوجها الميكانيكي في الشقة، إذ كان الجيران يعرفون رقم هاتفها فاتصلوا بها فجاءت مع عائلتها من المدينة القريبة.

في نهار يوم وصوله دفن أمه. وأقام لها مجلس العزاء، بل قاسمه الجيران في الشقة المقابلة تقبل التعازي حيث صار استقبال الرجال في شقته واستقبال النساء في شقة الجيران.

بعد ذلك الموقف من جيرانه في الشقة المقابلة تعمّقت علاقته بهم، لا سيما مع الزوجة حوّاء اللبّان، حتى صاروا كثيرًا ما يقضون السهرة عنده. وصارت جارته لا تتردد في زيارته صباحًا لتسأل عن هذا الأمر أو ذاك. ومع أنهم وجدوا له امرأة تقوم بتنظيف الشقة، وتعد له الطعام، إلّا إن جارته كانت لا تترك المرأة المساعدة في حالها، إذ كانت تشرف على كل التفاصيل، بل كثيرًا ما كانت تطلب منها أن تهتم بالطبخ وتقوم هي بتنظيف غرفة نوم الدكتور آدم وغرفة الضيوف وغرفة المكتب المليئة بالكتب، إلّا غرفة المرحومة الأم فبقيت مقفلة.

لا يعرف آدم السيد من أين تدفقت ذكريات يوم وفاة أمه ودفنها بتلك التفاصيل وانبثقت بشكل حي أمام عينه الداخلية.!؟ نعم..هو يدرك بأن ذلك اليوم كان منعطفًا في حياته وتوجهاته النفسية والفكرية، لكنه الآن يسأل نفسه عن علاقة ذلك بموت آدم تسفايغ الأجنبي.. لماذا تذكر يوم دفن أمه الآن؟

الآن يتذكّر بوضوح بأن يوم الدفن كان يومًا غائمًا. وحين أخذ حفّار القبور يشق التربة العطشى بمسحاته كانت الغيوم في السماء ترسل قطرات مطر قليلة جدًا. لكن بعد أن انتهت مراسيم الدفن وأُنزل الجثمان إلى القبر وسوّي بالتراب أخذت السماء ترعد وتبرق بحيث اهتزت المدينة الأرض قليلًا، وهبت عاصفة ترابية هوجاء، عاصفة غاضبة هبت بشكل مفاجئ، فتركوا المقبرة لائذين إلى سياراتهم كي يصلوا بيوتهم.

وفي تلك الليلة التي كانت أمه فيها تحت التراب لم يستطع النوم، لا سيما وقد رأى كيف تم دفنها وإنزالها إلى الحفرة. كان مرعوبًا من فكرة الموت لا سيما بعد رؤيته لمراسيم الدفن التي هو متصالح معها نظريًا. كان يسمع صوت هطول المطر المدرار والريح العاصفة، وتخيل المياه الجارفة تنزل الآن إلى أعماق تربة القبر وتلوث جثمان أمه العاجزة عن تحريك نفسها وهي ملفوفة بالكفن.

ومع أنه أستاذ جامعي ومرّ في شبابه بمرحلة كان فيها منتميًا لتنظيم ماركسي، لكن كوابيس الموت والدفن وما يجري في القبر هي كوابيس كانت سابقة على انتمائه السياسي، ولم تستطع تلك العقيدة الفكرية المادية أن تلغي وتمسح تلك الكوابيس من لا وعيه، حتى بعد أن كان متحمّسًا لحجج الإلحاد التي كان يتبجح بها في النقاشات مع زملائه في كافتيريا الجامعة.

يتذكر الآن أن مراسم العزاء كانت في شقته للرجال وفي شقة الجيران المقابلة للنساء، وأنه في اليومين الثاني والثالث من العزاء كان صامتًا ومنطويًا على نفسه ومذعورًا، حتى إن استقبال المعزّين وتوديعهم قام به زوج أخته آدم الميكانيكي وجاره آدم اللبّان.

كلاهما انتبه لحالته لكنهما فهما الأمر على أنه من هول صدمة الفقدان والحزن، فقد كان يعيش معها، لا سيما بعد أن تزوجت أخته منذ سنوات عديدة وانتقلت لمدينة أخرى ولم تكن تزورهما إلا في الأعياد الدينية.

بعد انتهاء مراسم العزاء سافرت أخته وأطفالها وزوجها، لكن حالته لم تتحسن إلاّ بعد الأربعين، بل كان الأمر الحاسم في خروجه من كوابيسه تلك هو جارته.

فبعد أسبوع سافر هو ليزور بلدين عربيين يحاضر فيهما ما اتفق عليه مع الجامعتين، واستغرقت سفرته ثلاثة اسابيع.. ثم عاد.. وفي الأسبوع الذي سبق أربعينية وفاة أمه كان عليه أن يحضر جلسة في محكمة الجزاء مع خبراء آخرين ليبتّوا في مصداقية فاتورات وصكوك يشك أنها مزورة قدمتها امرأة مدعىّ عليها في قضية تلاعبها بوكالة عامة أوكلها فيها رجل يعيش خارج البلاد ولا يستطيع الحضور بسبب وضعه الصحي، بينما استولت المرأة على أمواله التي في حسابه بالبنك وكذا باعت ملكًا له لاختها، وحينما أقام الدعوة عليها في المحاكم قدمت سندات ووصولات تحويل، طعن فيها محامي المدعي، لذا من أجل حسم الموضوع استدعت المحكمة خمسة خبراء في الخطوط وفي التحويلات البنكية ليبتوا فيها. ولأن جارته كانت تحضّر له الغذاء في الوجبات الثلاث، لذلك أخبرها بأنه سيتأخر ولن يعود إلا مساء، كي لا تكلّف نفسها بإعداد الطعام له.

لكن الذي حدث أن لجنة الخبراء لم يكتمل نصابها إذ لم يحضر ثلاثة منهم لأسباب مختلفة، حيث تهامس البعض بأن المدعى عليها قدمت لهم الرشاوى فتغيبوا عمدًا، فتم تأجيل الجلسة. وهكذا عاد آدم السيد إلى شقته في الطابق الرابع الذي لا يضم سوى شقتين متقابلتين.

حين وصل إلى باب شقته أدار المفتاح في القفل بهدوء كي لا تنتبه جارته لمجيئه المبكّر فتعمل على إعداد الطعام له، فهو يُحرَج من هذا الاهتمام بشخصه. لكنه حين صار في صالون الشقة سمع تأوهات تصدر من الغرفة المخصصة للضيوف.

لم يشك في أن الأصوات هي تلك التي تصدر عند الممارسة الجنسية. احتار.. هل يقتحم الغرفة؟.

لحظات مرت. لكن ثمة قرار داخلي دفعه للتريث وأخذ الاحتياطات. وبهدوء وعلى أطراف أصابع قدميه توجه إلى المطبخ، وبحرص شديد وكتمان للأصوات، فتح جارورًا وأخذ منه سكينًا كبير الحجم حاد النصل، ثم اقترب بهدوء لينصت قبل أن يقتحم الغرفة، لكن الذي شلّه في مكانه حين سمع حوارًا فاضحًا، ومن نبرة الصوت عرّف أنه صوت جارته حواء اللبّان، حيث كانت تتوسل الرجل الذي معها بأن يدخله فيها بقوة، وأن يضربها على مؤخرتها، إلاّ إن الرجل الذي معها كان عنيفًا بما فيه الكفاية ودونما طلب، إذ أخذ يطلب منها بصوت شبق محتقن وعنيف بأن ترسل ابنتها، الطالبة الجامعية، إليه في شقته.

صُدم آدم السيد بما سمع، وود لو يقتحم الغرفة ويذبح الرجل السافل. بدا لحظتها وكأنه نسي المفاجأة السخيفة التي واجهته بأن كل ذلك يجري في شقته ومن دون علمه، لكن استغرب من نفسه حينما انتبه لها، فقد راودته رغبة محمومة في أن يسمع ما ستقوله الجارة، وتخيلها وهي تصارع شبقها فترفض قائلة كيف لها أن تأتي بابنتها إليه فهي في بداية العشرينات وطالبة جامعية، ثم كيف ستقنع ابنتها؟؟، لكن لأن جارته لم تطفئ شبقها المتأجج بعد فإنها أخذت تتوسله بأن يطفئ لهيب جسدها وأخذت تطمئنه بأنها ستحاول، بينما الرجل يحاول أن يبتزها لأنها في ذروة الشبق.

انتبه آدم السيد إلى عجزه عن اتخاذ أية خطوة عنيفة ضد هذين الحيوانين اللاهثين. فكّر أن يتصل بصديقه آدم عبد السميع لكنه آثر ألآ يثير فضيحة، فهو يكن لحوّاء اللبّان استلطافًا ومودة خاصة ورغبة غامضة، كما لا ينسى أنها كانت قريبة من والدته وساعدتها كثيرًا كما اعتنت به شخصيًا، ومع ذلك كان مستاءً من استغلاها لثقته فاستخدمت شقته لمغامرتها الجنسية..!

أراد أن يقتحم الغرفة لكنه شعر بالشلل في ساقية. لم يستطع ذلك، لذا قرر عدم المواجهة العنيفة. فتراجع قليلًا إلى الخلف ووضع السكين من جهة الظهر وثبّتها في حزامه الخلفي. رجع إلى الخلف بهدوء واتجه إلى غرفة المكتب. وجلس على كرسيه حول الطاولة دون أن يشعل الضوء.

بعد أقل من عشرين دقيقة كان يسمع فيها آهات جارته المثيرة وتوسلاتها لعشيقها، انتبه إلى أنهما خرجا من الغرفة، وصارا في الصالة. كانت لديه رغبة في أن يرى هذا الشخص الذي استغل شقته لأطفاء رغبته الجنسية، لكن دافعه كان ليس انتقامًا وإنما غِيَرة خفية منه، فتأوهات جارته وتوسلاتها له كي يخترقها ويولجه فيها بقوة لا يزال يسمعها في أعماق ذهنه.

ومع أنه لم يمتلك الجرأة في اقتحام الغرفة حين وصل، ولم تكن في نيته مواجهتهما، لكنه لا يعرف من أين أتته تلك الخاطرة المجنونة بالخروج من الغرفة، إذ فتح باب غرفة المكتب على مصراعيها. ذهلت حوّاء اللبّان وعشيقها بهذه المفاجئة غير المتوقعة.

كان الثلاثة في لحظات الصدمة، لكن فجأة انطلق العشيق نحو الباب خارجًا وهاربًا من الموقف. غادر العشيق الشقة مصدومًا بينما بقيت الجارة مذهولة، محرجة، خجلة، ولا تعرف ماذا تقول وكيف تبرر الموقف.

كان آدم السيد محرجًا أيضًا. نظر إليها مركزًا على عينيها. كانت النظرات بينهما تحمل الكثير من الكلام والعتاب، لكنه لم يقل شيئًا وإنما استدار ليرجع إلى مكتبه ويجلس على كرسيه. كان ينتظر منها أن تأتي لتخبره بنفسها عما جرى.

بعد لحظات بهدوء مدّت رأسها لترى إن كان يريد رؤيتها أم لا. كانت في أعماقها

ترتعش ويغمرها شعور بالعار. رأته جالسًا على كرسيه. نظر إليها بارتباك وقال لها:

- تفضلي.. تعالي اجلسي؟

تقدّمتْ بخطوات مرتبكة..

- أنا.. أنا.. آسفة.. هل كنت هنا كل الوقت؟ قالت له والخجل يجللها.

- نعم..

- ألم تقل لي إنك ستأتي مساءً..؟ قالت بإنكسار.

- صحيح.. لقد ذهبت للمحكمة.. لكن زملائي لم يأتوا ولم يكتمل النصاب فعدت.

لم تكن قادرة على مواصلة الحديث من ارتباكها وخجلها وتداعيات ما جرى، لكنها مع ذلك سألت:

- منذ متى وأنت هنا..؟

حاول أن يلهي نفسه بأي شيء كي لا ينظر إليها، فقد كان استمرار هذا الحديث مُحرجًا له، لكن ذكورته الحاضرة اسيقظت فأجاب بنبرة فيها غِيرة خافتة لكن واضحة:

- منذ أن كنتِ مع الرجل الآخر في غرفة الضيوف..!

أطرقت برأسها إلى الأرض ونظرت لقدميها وقالت:

- وهل سمعتَ شيئًا؟

- سمعت كل شيء.. قال بنبرة فيها غضب مكتوم.

- يا لفضيحتي..

تمتمت حوّاء اللبّان بإنكسار، ثم واصلت:

- لكنك قلت بأنك ستتأخر..

- لقد أخبرتك، لم يكتمل نصاب لجنتنا.. ثم هل هذا هو المهم اللآن.. أم المهم هو استخدامك شقتي لنزواتك الجنسية.. ثم أخبريني منذ متى تستخدمين الشقة لممارسة الجنس؟ ولماذا شقتي وليس شقتك؟

ارتبكت وترقرقت الدموع في عينيها، ثم رفعت رأسها إليه وقالت بنبرة فيها توسل واستعطاف:

- هذه أول مرة. أقسم لك.. منذ شهرين يتوسلني هذا الخنزير بأن أذهب إليه في شقته والتقيه.. لكن صدقني لا أعرف كيف أغواني الشيطان، فحين اتصل بي وألح عليّ بالذهاب إليه طلبت منه هو أن يأتي.. لا أعرف ماذا أقول لك.. ولا كيف أعتذر، ولا كيف أبرّر فعلتي.. أنا الآن بين يديك.. حياتي وشرفي وعرضي بين يديك..؟

كانت تنظر إليه برجاء وتوسل بينما كان هو ينظر إليها مستمتعًا بضعفها وذلّها أمامه، فقال لها بنبرة فيها غل خفي وغيرة ذكورية:

- قبل قليل كنت تتوسلينه أن يخترقك ويولجه فيك بقوة.. ويضربك على مؤخرتك.. والآن تنعتينه بالخنزير.!؟ هل تحبين العنف في الفراش؟

ارتبكت وانتبهت إلى أنه يتعامل معها الآن كعاهرة وليست جارته المحترمة فوجدت في ذلك إشارة لارضاء نزوته فقالت بنبرة أنثوية:

- نعم أحب العنف.. أحب أن أشعر بأني عبدة للرجل الذي معي وأنني ملكه.. أحب أن أسعده حتى ولو على كرامتي كامرأة.

شعر بارتياح غامض لما في كلامها من إيحاء جنسي، لكنه تماسك فسألها:

- من هو هذا الرجل؟

بغريزتها الأنثوية أدركت حوّاء اللبّان بأنه يرغب بها وأنها تستطيع أن تسيّره بطريقتها وتستفيد من الموقف، فقالت:

- هذا صديق زوجي في العمل.. زارنا ثلاث مرات لأسباب مختلفة تخص عمل زوجي. ومنذ زيارته الأولى كان ينظر لي باشتهاء واضح.. ولا أنكر أن ذلك أعجبني، وأشعرني بأنوثتي وبأني امرأة مرغوبة.. وفي المرة الأخيرة كان قبل مجيئه قد كتب رقم تليفونه على ورقة صغيرة.. وحين قدمت الشاي غافل زوجي ورمى الورقة في الصينية.. وهكذا بدأت اتصل به.. وكان يلح بأن التقيه لكني لم أفعل.. بل ومرات كنت أهيء نفسي وأعده باللقاء لكن ما أن أصل باب شقتي كي أذهب إليه حتى استغفر

الله واتراجع.. واليوم وجدت في ذلك فرصة.. إذ لا يتطلب الأمر مني الذهاب ولا الغياب عن البيت... لكن أقسم لك هذه أول مرة يلمسني فيها، وستكون آخر مرة.

- وهل كنتم تفعلونها بالتليفون؟

أطرقت برأسها وقالت:

- نعم.. تقريبا كل يوم خلال النهار، بعد أن استيقظ وأكون في السرير أو بعدما أنهي الطبخ وتنظيف البيت، وطبعًا حين لا يكون هناك أحد في البيت..!

- وهل بينكما حب.. سأل بغيرة واضحة.

سحبت رأسها للوراء استنكارًا وقالت:

- حب..؟ أي حب..؟ هو أغواني بكلام الحب لا أكثر.. ومن أول لحظة كان واضحًا أنه ليس حبًا وإنما رغبة.

أحس أنها تحاول بوقاحتها أن تبرر لنفسها وتتقمص دور الضحية التي تم أغوائها، فسألها بنبرة غاضبة:

- وكيف هو عشيقك ويريد أن يضاجع ابنتك؟

فردّت بغضب:

- هذا الحقير يحلم بذلك؟

- وهل ستأخذين ابنتك اليه كما طلب منك؟

فردت بحزم وغضب مفتعل:

- مستحيل.. على جثتي.. ولن ألتقيه بعد الآن أبدًا.

نظر إليها للحظات برغبة مكتومة ثم قال لها ببطء لكن بوضوح وبصيغة الأمر:

- وأنا أيضًا لا أريدك أن تلتقيه مرة أخرى.

تألق وجهها وتوهجت عيناها وقالت بنبرة دافئة وحنونة مليئة بالمشاعر:

- سأكون خادمتك.. طوع يديك في كل شيء.. كل شيء..

فقال لها:

- لا أريدك أن تكوني خادمة لي..

فردت عليه بإندفاع وبنبرة مكتظة بالمشاعر:

- أنا يسعدني أن أكون خادمتك..أن أكون عبدتك بإرادتي..أن تكون أنت سيدي وسيد حياتي.. وسأقبل منك أي عقاب توجهه لي برضا وشكران.. أنا من الآن خادمتك وعبدتك حتى لو رفضت أنت ذلك تكرمًا منك.. وسأكون بين يديك في أية لحظة.. ليلًا أو نهارًا..

شعر بارتياح داخلي على الرغم من أنه يرفض استغلال وضعها المهين، لكنه كان يرغب بها.. بل إن كلامها ونبرة صوتها الشبقة المتوسلة بثت الحيوية في قضيبة الذي بدأ ينتعظ.. وخاف من نفسه، فقال لها:

- سنتحدث في ذلك لاحقًا.. اذهبي الآن إلى بيتك..

وقامت على خجل وارتباك ونظراتها تفيض حبًا وعرفانًا، وحين وصلت باب غرفة المكتب التفتت إليه وقالت:

- تذكر دائمًا أنني الآن ملكك وعبدتك وخادمتك.. وحتى لو نسيت أنت ذلك فأنا الآن أقر بذلك ولن أنساه.. وسأتصرف معك على أساس ذلك... هذا ما يسعدني.

وغادرت الغرفة.

تلك الليلة لم ينم آدم السيد. كانت آهات حوّاء اللبّان تهمس في أذنيه، واعترافاتها بأنها تحب العنف.. وأنها كانت تمارس عبر الهاتف.. وأنها خادمته وعبدته وملكه.. وهذا يسعدها.. وشعر برغبة قوية فيها، وتخيل أنها تتوسله كما توسلت عشيقها.

ومنذ اليوم التالي صارت حوّاء اللبّان أكثر قربًا وانفتاحا معه. فقد جاءته في اليوم الثاني حاملة صينية القهوة. وأعدت له الطعام.. ونظفت له الشقة وكنستها. لكنه طلب منها أن تجد له مساعدة منزل.. ازعجها الطلب لكنها وافقت لأنها لا تستطيع أن تكون في شقته الوقت كله، بيد إنها ظلت حريصة على بيته، وفعلًا

وجدت مساعدة منزل.. ومع مرور الأيام ترسخ في أعماقها الإحساس بأنها صارت تخصه، وتمنّت أن تصير عشيقته جنسيًا، كي تلغي من ذاكرته تفاصيل ذلك اليوم الفضائحي. أما بالنسبة له فقد كانت علاقته وسيلة مساعدة في الخروج من عزلته ومن كوابيس الموت.

يتذكّر آدم السيد أن ذلك كان في الأيام الأخيرة من أربعينية أمه. وأن ذلك اليوم كان منعطفًا جيدًا أخرجه من أفكار الموت والعزلة. وأسعده تعامل حوّاء اللبّان الحنون والصادق معه واهتمامها به أكثر مما تهتم ببيتها وزوجها. وكان يحلم ليليًا بأن يأخذها إلى السرير، لكن حينما تأتي إلى شقته فعلًا كان يحس بالعجز والارتباك، فيذهب ليمارس العادة السرية متخيلًا إياها وهي تصرخ به أن يضربها وأن يولجه فيها بقوة ومن كل الجهات.

وفي خضم هذه التداعيات عن جارته حوّاء اللبّان فقد شعر أنه محاصر في أعماقة ومقيد، ومشدود بالشاش، مثل المومياء.

***

مع أن آدم السيد في الأربعين من العمر إلآ إنه في أعمق أعماقه يقبع صبي خائف ومرعوب من الأفاعي والعقارب وكلّ شيء زاحف. إنه يشعر بعدوانية كل حيوان يقترب منه حتى لو كان عصفورًا، لكنه يخاف كل شيء زاحف، وبالتخصيص الأفاعي والعقارب، إذ أن شكلها يخيفه. عينا الأفعى الباردتان تخيفانه وكذا حركة لسانها الذرب، أما العقارب فيكره شكلها وطريقة رفعها لذنبها المعقوف.

وكثيرًا ما كانت شخصية صديقه الرائد آدم عبدالسميع تثير الغرابة في نفسه لاهتمام الآخر بالثعابين والأفاعي والعقارب، ويحتفظ في بيته بمجموعة من الثعابين لا سيما الكوبرا التي يقفل عليها في صناديق زجاجية، والعقارب السامة في قناني.

كان يفكر بالثعابين ويتخيل زحف الثعابين على جثة أمه، لكن ما كان يزيد رعبه هو أنه يتخيل الأموات أحياء يعون ما يجري معهم في ظلمة القبر لكنهم عاجزون عن

الحركة بحكم شدّ الوثاق والكفن. كان يتخيل كل ما يجري في القبر بوعي وحضور ذهني كامل فيشعر بالرعب..

لم يغادره ذلك الطفل. ومع أنه كان مراهقًا حين قرأ كتاب „أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور"، لكنه يحس أن الذي في أعماقه صبي وليس فتىً مراهقًا. وعلى الرغم من أنه درس في الجامعات ونال الدرجات الأكاديمية المرموقة وتعرف على الفلسفات العلمانية والملحدة، وتنقل بين البلدان، لكنه لا يستطيع أن يهدّئ الصبي الذي في داخله والذي أطلّ من أعماقه صارخًا مع هطول المطر المدرار والريح العاصفة ليلة دفن أمه.

الآن، وبعد مرور سنة على وفاة أمه، وهو في مكتبه قد استحضر كل تلك الأيام، لكنه لا يعرف لماذا!؟. وسأل نفسه عن علاقة كل هذه الذكريات والتداعيات مع حادثة العثور على جثة السائح الأجنبي آدم تسفايغ..؟

ومع أنه لا يخاف أن يواجه نفسه وأسئلته مهما كانت صريحة ومقلقة إلا إنه أحس بعدم ملائمة الوقت للتوغل في البحث عن إجابة سريعة وغير يقينية، إذ عليه أن يذهب إلى لقاء النساء الثلاث اللاتي يعرفن هذا الأجنبي. ووجد نفسه يلمّلم الدفاتر ليضعها جانبًا ويستعد للخروج. لكن في تلك اللحظة طُرق باب الشقة. وقبل أن يتوجه لفتح الباب ألقى نظرة على الورقة التي فيها أسماء وعناوين النساء الثلاث، وتوقف عند الأسماء الغريبة..

وهو في طريقه إلى فتح باب الشقة ظن أول الأمر أنها المرأة المنظفة، لكنه أجاب على ظنه بأن لديها مفتاحها الخاص بالشقة. ومع ذلك قام عن كرسيه واتجه ليفتح الباب. وكانت المفاجأة.

الفصل الثالث

في الذهاب إلى الظلام

أفاق آدم بهاء الدين على رنين هاتفه النقّال. تقلَّب وهو في الفراش قبل أن يمد يده ليأخذ الهاتف. وبعينين ناعستين نظر إلى شاشة الهاتف فلم يجد اسمًا وإنما رقمًا لا يعرفه يشير إلى أن الاتصال من هاتف أرضي.

من عادة آدم بهاء الدين ألاّ يجيب على أي اتصال بدون اسم المتصل. هو يعتقد أن جميع أصدقائه وزملائه مسجلين عنده والاتصال الذي لا يحمل اسمًا يعني أن المتصل غريب، وربما هذا اتصال جرى بالخطأ، ولهذا يعتقد بأن الاتصال إذا ما كان ضروريًا ومُهمًا فسيرسل صاحبه رسالة يُبين فيها من هو أو الغرض من الاتصال أو يعاود الاتصال، لكنه انتبه وقال لنفسه بأن الرقم يشير إلى أن الاتصال أرضي، أي لا يمكن إرسال رسالة نصية.

وبينما هو يفكر بهذه الاحتمالات رنّ الهاتف مرة أخرى ومن الرقم نفسه فضغط على زر الاستلام. وجاء صوت من الطرف المقابل يسأله:

- الأستاذ آدم بهاء الدين..؟

- نعم تفضل.. من معي لو سمحت؟

- صباح الخير أستاذ آدم بهاء الدين.. أنا الرائد آدم عبد السميع المكلَّف بمتابعة التحقيقات في الكشف عن هوية الأجنبي الذي وُجِدَ ميتًا في فندق ,,باب السماء". الحقيقة أنا اتصل بك بنفسي ولم أترك الأمر للضباط الذين يتابعون التحقيق معي أيضًا لما لهذه القضية من حساسية قد تؤثر إعلاميًا وتخلق شوشرة ضد بلدنا من حيث إن الميت سائح أجنبي.

صمت آدم بهاء الدين لثوان من وقع المفاجأة، وقال بهدوء وتجاوب:

- تفضل حضرة الرائد.. سيشرفني أن أكون مفيدًا في هذا الأمر.. وأنت محق

فالإعلام يعتمد على الشائعات والمبالغات لا سيما في بلادنا، وهذا ما يؤثر على سمعة بلادنا بالفعل.

- شكرًا لتفهمك.. سأدخل في الموضوع مباشرة.

- تفضل.. أنا أسمع حضرتك.

مرت لحظة صمت من طرف الرائد وكأنه يستعد للطريقة التي عليه ضخ معلوماته، ثم قال:

- لقد تجمّعت لدينا كمية من معلومات عن الكائن الهلامي الغامض الذي كتبتْ عنه الصحف كافة، بل وحتى الفضائيات تحدثت عنه، والتي جميعها قد أكّدت بأن حضرتك أول من رآه وأخبر بقية الصحافيين والإعلاميين، وتتبعتم هذا الكائن إلى لحظة دخوله إلى فندق „باب السماء".. أليس كذلك؟

- نعم هو كذلك حضرة الرائد.

- لكن الحقيقة إنه لم يدخل الفندق أي كائن هلامي وإنما وجِدَت جثة لسائح أجنبي في إحدى غرف الفندق.. نحن نحتاجك في فك ملابسات هذه القضية.. ما رأيك لو تتفضل وتأتي إلينا لنشرب فنجان قهوة ونستفسر أكثر، فربما ستفيدنا بمعلومات نكشف من خلالها هذا اللغز، وهوية الأجنبي الذي وُجِدَ ميّتًا في الفندق.

- وهو كذلك..

- الساعة الثانية عشرة تلائمك..؟

- تمامًا.

- أنت تعرف مقرنا عند ساحة الثورة.

- سأكون هناك في تمام الثانية عشرة.

- شكرًا لتعاونك..

- على الرحب.

ومع أن آدم بهاء الدين استغرب الاتصال لكن وجده أمرًا عاديًا ومنطقيًا، ولا

ضير أن يذهب ليقدم كل معلوماته عمّا جرى منذ لحظة رؤيته للكائن الهُلامي حتى لحظة دخوله إلى فندق „باب السماء“.

تمطّى بجسده متثائبًا في فراشه، لكنه لم يستطع النوم مجددًا. نهض بتكاسل واتجه نحو طاولة الكتابة القريبة وأخذ ورقة كانت قد دوّن فيها نصًا فيه تساؤلات يبدو أنه كتبها تحت تأثير أحداث تلك الليلة، وأخذ يقرأ بصمت:

متى وُلِدَ الموت؟

متى كان أول موت في كل تاريخ الكون والوجود ومنذ لحظة الخلق؟

هل هناك تأريخ للموت؟

هل للموت مكان؟

وإذا ما كانت المساجد والكنائس والمعابد بيوت الله.

فإن المقابر بيوت الموت..!

لم يعجبه ما كتبه فأخذ الورقة وألقى بها في جردل أسفل الطاولة مخصص للورق التالف، ثم فتح جارورًا جانبيًا في الطاولة وألقى نظرة على رزمة من الأوراق التي هي مذكرات ومشروع سيرة ذاتية كتب فصولًا منها، لكنه لا يذكر متى بدأ الكتابة فيها، بل ولم يستكملها لانشغالاته اليومية وفقدان الرغبة فيها.

إلى الآن لا يدري ما سِرّ تلك الحُمّى النفسية التي أصابته حينها والتي دفعته إلى الاعتكاف لأربعة أسابيع لم يخرج فيها من البيت ليكتب ليلًا ونهارًا جزءًا من سيرته التي أراد أن يكتشف فيها عن ذلك الإنسان الآخر المختفي في أعماقه، ثم فجأة، وكأنما اجتاحته عاصفة ثلجية جمّدت بل وشلّت رغبته في الكتابة فترك كل شيء، حتى إنه نسي كيف كتب كل تلك الفصول من مذكراته بذلك الحماس مستذكرًا أدق التفاصيل والحوارت التي عاشها في فترة ما.

أراد أن يسحب تلك الرزمة من الأوراق التي منحها اسمًا أوليًا هو: «بئر الرغبة الغامضة»، لكن ما إن مدّ يده إلى تلك الرزمة حتى غيّر رأيه فكأنما كان مترددًا من استرجاع ذكرياته.

ولكي يحسم تردده في قراءة تلك المذكرات والنزول إلى «بئر الرغبة الغامضة» أغلق الجارور، ثم قام عن كرسيه متجهًا إلى نافذة غرفته المُطلّة على شقة الجيران التي تقع في مبنى تفصله مسافة لا تتعدى المترين حيث يتشكل بينهما زقاق ضيق فيه بضعة دكاكين وسوبر ماركتات.

انتبه إلى الشقة المقابلة. كانت إحدى الغرف المواجهة له بالضبط، مفتوحة النوافذ على آخرها، بل رأى جارته الأربعينية، وهي بثوب النوم الشفاف الذي تبدو تحته عارية ألا من سروالها الداخلي الأسود، ترتب شراشف سرير النوم العريض.

نظرتْ الجارة الأربعينية إليه للحظات وبتركيز، دون ارتباك أو خجل وكأن الأمر لا يعنيها، وأخذت تدور في الغرفة وتتغنج وتتصرف وكأنها لم تره أو أنه غير موجود. ابتعد هو من عند حافة النافذة إلى الوراء قليلًا وظل يتابعها بحيث يمكنه أن يراها دون أن تراه، لكنها بغريزتها الأنثوية عرفت أنه ينظر إليها متخفيًا.

خرجت من الغرفة، وحين عادت ثانية رأته قد اقترب من حافة النافذة مرة أخرى، لكنها لم تأبه له. ذهبت إلى خزانة قريبة أخرجت ثوبًا بيتيًا، وبطريقة تلقائية، وكأنها لا تعلم بوجوده، نزعت عنها ثوب النوم فصارت عارية إلا من سروالها الداخلي. تحركت في الغرفة وعادت إلى السرير ترتبه مرة أخرى وتنحني مستعرضة جسدها المتناسق المثير، ثم ذهبت أمام الخزانة، أخذت ثوب بيتيًا وارتدته. وحين صارت عند باب الغرفة التفتت نحو شقته ونافذته ورأته، فنظرت في وجهه مباشرة، رأته يرتبك، ولم تعرف هي أن ارتباكه ليس بسبب رؤيتها له وهو ينظر إليها، وإنما لأنها حين نزعت ثوب النوم وبقت في سروالها الداخلي تذكّر حوّاء الدلاّل.

تراجع عن النافذة. ومع نفسه قرر التعرف على جارته المثيرة بأية طريقة، فهي امرأة تستحق المغامرة من أجلها.

خرج إلى الصالة فوجد كائنًا بهالة بيضاء اتضح أنها أمه وهي تجلس مشغولة بنسج شال صوفيٍ، وأمامها صينية فيها دلّة القهوة وفنجانان وكأس ماء. انتبه إلى أنها قد تناولت قهوتها وقلبت الفنجان في الصحن كي تقرأ ما سيخبرها من طالع وفأل.

ألقى عليها تحية الصباح فردّت عليه برقّة، وقالت له بأن القهوة لا تزال ساخنة، فقال لها إنه يريد أن يستحم فطلبت منه ارتشاف قهوته ثم الاستحمام، فجلس على كرسي قريب إلى جانبها وصبَّ لنفسه قهوة في الفنجان.

يعدّ آدم بهاء الدين جلسته الصباحية مع هذا الكائن الذي هو أمه وكأنه فرض روحاني مُلزِم، بل هو يقدِّس أمَّه بعمق في لا وعيه ووعيه. فقد ترملتْ وهي شابة في العشرين حين كان هو في سنته الثالثة فكرّست حياتها له أربعين عامًا، إذ هي الآن في الستين. لم تتزوج على الرغم من إلحاح أهلها عليها لكثرة المتقدمين للزواج منها. رفضت الجميع. حتى ابن عمها الذي كانت تحبه في مراهقتها إلاّ إنه سافر للعمل في الخليج، وتركها بلا أمل مما دفعها إلى قبول الزواج من أبيه الموظف البسيط، وقد حاول ابن عمها بعد ترملها وعودته من مهجره الاختياري أن يتزوجها لكنها رفضت، فلم تشأ أن يتربى ابنها تحت ظل رجل آخر، فقد كانت متعلقة بطفلها بشكل غير طبيعي، وكان وجوده يمنحها أمواجًا هائلة من الحنين والشفقة فأرادت أن تعوضه عن حرمانه من أبيه.

يتذكّر هو بأن أهل أمه، جدّه وخاله وخالته، كانوا نِعم الأهل، فلم يتركوا أمه وحدها تواجه شراسة الحياة إذ كانوا يساعدونها ماديًا، وقد كانت هي في البداية ترفض لكنها مع نمو وكثرة متطلبات طفلها قبلت المساعدة من أختها وأخيها، وحينما توفي والداها، تنازلت أختها لها عن حصتها في الميراث، إذ كانت متزوجة من رجل ثري، فصار لها نصف الإرث، لذا على الرغم من يُتمِه فقد كان آدم بهاء الدين مُدللًا بحيث أنه لم يضطر للعمل بعد الانتهاء من الجامعة.

منذ صباه كان آدم بهاء الدين يُطيل النظر إلى أمه حين تكون ساهية عنه ومشغولة بأشياء البيت، فيراها امرأة جميلة تكتم معاناتها لكنها لا تستطيع أن تخفي كآبتها وتوهانها وشرود ذهنها أحيانًا. وكانت هي ما إن تراه أو تنتبه لحضوره حتى تتغير ملامحها وترتسم الابتسامة على وجهها وتحاول أن تكون مرحة، فتمازحه وتسأله عن مدرسته وأصدقائه وعمّا يشتهي أن يأكل، بل كانت تغدق عليه بالمال والحنان والدلال ولا تشعره بفقدان الأب أو بالعوز قط.

ومع مرور السنين، حيث صار في الثانوية وصار يقرأ الكتب المختلفة لا سيما بعض الكتب عن الجنس حتى بدأ يفهم سر كآبة وتوهان أمه وشرود ذهنها، لكنه كان يرفض أن ينظر إلى أمه كامرأة مكبوتة جنسيًا ومشغولة برغبتها الجسدية. ومع أنه صار رجلًا ناضجًا، مثقفًا، ويتفهم رغبات أمه، لكنه كان لا يطيق فكرة أنه يمكن لأمه أن تتزوج، أو يتخيلها تمارس الجنس مع رجل، فقد كان ككل الأبناء ينظر لوالدته ككائن لا جنسي، أو امرأة ميتة الرغبات..

لقد مـرّت السنوات، ودخـل هو الجامعة، واختار قسم اللغات الأجنبية متخصصًا في اللغة الإسبانية، وتوسعت قراءاته وتنوعت وتفتحت أفكاره وانتبه لنفسه ولمشاعره ورغباته المتفجرة، لكن أمه ظلت ملاكه الحارس، إذ لم ينشأ فقيرًا للمشاعر والحنان كمعظم الأيتام، بل هو لم يفكر بأبيه ولم يسأل أمه عنه إلا نادرًا وبالمصادفة، بل كثيرًا ما انتبه لحاله مستذكرًا بطل رواية «السراب» الذي نشأ يتيمًا مع أمه وجده، فالتفّتْ العُقَد حول نفسه فخنقته ودمّرت حياته، لكنه ليس كبطل «السراب»، وهو يدين بذلك لأمه المضحية التي منحته الحرية منذ صباه ولم تهز ثقته بنفسه وتشعره بالعجز من دونها، مع أنه لا يستطيع تصور العالم من دونها أبدًا، بل هو حين كان يفكر بأنها ستموت وتغادره ذات يوم تترقرق الدموع في عينيه.

في الجامعة بدأ يكتب الخواطر والأشعار وينشرها في الصحافة المحلية ويشارك في المهرجانات الشعرية الجامعية. ويشارك في الندوات الشعرية، ويعمل في الصحافة، وكان في سنواته الأولى في الجامعة قريبًا من التنظيمات اليسارية ذات المرجعيات الماركسية، وكان مندفعًا ومشاركًا في الندوات وفي الفعاليات الثقافية والاجتماعية، لذا كان من دون أن يدري تحت رقابة أجهزة الأمن المرتبطة بإدارة الجامعة وبالتنظيم الطلابي التابع للحزب الحاكم، لكنه ابتعد عن السياسة بعد أن تعرّف مصادفة على حوّاء الدلّال.

كان في الثالثة والعشرين وفي سنته الجامعية الأخيرة حين التقى حوّاء الدلال ذات صباح مصادفة. وحوّاء الدلّال امرأة كانت حينها في الثالثة والثلاثين، متدينة جدًا لحدّ الورع الصوفي، مع أنها معاصرة في لباسها وأناقتها وعطورها، ولديها

صالون ثقافي تلتقي فيه كل خميس مجموعة من النساء والرجال من المحافظين وأشباه المثقفين والمثقفات من الطبقة الغنية يتناولون فيه كتابًا يتم الاتفاق عليه أو موضوعًا للنقاش والدردشة يُحدّد ويُعد من قبل أحد أعضاء الصالون.

حدث ذلك حين جاءت إلى الجامعة لأمر ما، وكان هو يمشي في طريقه إلى قاعة المحاضرات ساهيًا عن نفسه، مستمتعًا بشمس الصباح الدافئة، حاملًا دفترًا كشكولًا ومعه ديوان شعر مترجم لشاعر إنكليزي شهير. وحينما مرت سيارتها كادت تمس جسده سهوًا منه وليس لعدم انتباه من سائق السيارة، ومع ذلك، من شدّة خوفه، صاح هو بالسائق مؤنبًا على عدم انتباهه، فتوقفت السيارة. لم ينزل السائق أو يردّ عليه وإنما نزل الشبّاك الزجاجي للمقعد الخلفي.

لحظتها ارتبك هو حين رأى امرأة رزينة الملامح، تضع على رأسها حجابًا عصريًا زاهيًا، أنيقة الملبس، مع مكياج خفيف دونما مبالغة، ليست ذات جمال لافت كنجمات السينما، بل هو من الجمال الذي لا يمنح نفسه لأول نظرة مباشرة، وإنما يدعك تكتشفه شيئًا فشيئًا. وهذا ما جرى معه، فقد ابتسمت المرأة له معتذرة عن بث الخوف في نفسه، فارتبك هو، وتلعثم قليلًا وقال بضع كلمات غير مترابطة بأنه لم يحدث شيء. وفجأة ألقت السيدة نظرة على ما يحمله من كتب وابتسمت أكثر قائلة:

- أتقرأ للشاعر إليوت اليائس في مثل هذا الصباح المشرق..؟

لم يفهم آدم بهاء الدين في الوهلة الأولى ما تقصده ثم انتبه للكتاب الذي في يده وابتسم بارتباك قائلًا:

- نعم هو من شعرائي المفضلين..

- كان يعجبني في فترة ما..

- آها.. هل قرأت لإليوت..؟

- ولشكسبير.. وفلوبير.. ولورنس.

شعر هو بدفق المشاعر يغمر كيانه ولم يكن يصدِّق ما يسمعه.. فالتضاد بين

هيئتها والأسماء التي ذكرتها واضح، لكنه أحسّ بالحرج لأن بعض الطلبة والطالبات وقفوا ليتابعوا الحوار الغريب بينه وبين السيدة الأنيقة في سيارتها الفارهة، وحين نظر آدم إليهم ارتبكوا فابتعدوا.

لم يعرف ما يقول، فقالت له وهي تحسم الموقف حيث مدّت له بكتاب كان مع مجموعة كتب إلى جانبها على المقعد:

- اقرأ هذا الكتاب فهو أجدى من إليوت.. وربما سيفتّح لك ذهنك.

تناول هو الكتاب لا إراديًا ونظر إلى عنوانه. وقبل أن يسألها تحركت السيارة متجهة إلى موقف السيارات الخاص بالأساتذة.

نظر آدم حينها إلى الكتاب فشعر بردة فعل سلبية، وقال في نفسه „الروح والجسد".. وعرف اسم الكاتب الذي يستهوي الآلاف من القراء الشباب أو التائهين، لكنه شخصيًا يعدّه سطحيًا بل وساذجًا أحيانًا مع أنه يحاول أن يظهر بمظهر الحكيم والمفكر العميق. وقرر أن يُرجع الكتاب لها فهو ليس في حاجة لمثل هذه الكتاب، ثم إنه قد قرأه حينما كان في السادسة عشرة من العمر..!

توجه نحوها. وحين وصل قرب السيارة كانت هي قد ترجّلت خارجها. نظرت إليه نظرة إعجاب مكتوم، لكنها كانت تنتظر ما يقول، فمدّ لها الكتاب قائلًا:

- شكرًا جزيلًا لك.. لا حاجة لي بالكتاب فقد قرأته منذ سنوات.

استرخت ملامحها وارتسمت ابتسامة حذرة على وجهها وقالت له:

- رائع.. هل قرأت كتب المؤلف الأخرى.

- نعم.. قرأت له مجموعة من كتبه لا سيما كتابه عن رحلته بين الشك والإيمان..

رفعت حاجبيها إعجابًا ودهشة وسألت بهدوء وفضول:

- هائل.. وماذا رأيت فيه..؟

استاء آدم بهاء الدين من طريقة الاستجواب الامتحانية الساذجة فقال بنبرة فيها شيء من الاستفزاز:

- لا شيء.. كتابات ساذجة للمراهقين والمراهقات..فيه مغالطات عديدة.. يمكنه أن يقنع البسطاء والسذج وأنصاف المثقفين. بالنسبة لي رأيت في الكاتب إنسانًا مذعورًا يخاف من شكوكه المرعبة فيهرب منها إلى الإيمان الأعمى بحيث يلوي عنق الحقائق العلمية الدامغة ليدخلها في مغاراته المظلمة..! هو لا يبتعد كثيرًا عن شيوخ المساجد، بل هو واعظ سلفي مثقف ببدلة أوروبية.

انتبهت إلى نبرته الاستفزازية الخفية، لكنها أعجبت بطريقته في نقد شخص تعدّه هي وأصدقاؤها في صالونها الثقافي من كبار المثقفين والمنقذين للبشرية. فهي لأول مرة تسمع من ينتقد قدوتها الفكرية بهذه البساطة ويتعامل معه بهذه الخفة الواثقة، فقالت له مبتسمة على مضض:

- أف..أنت عقل مشاكس..! سيشرفني أن استقبلك في صالوني الثقافي الذي يُعقد مساء كل خميس من الأسبوع، الساعة السادسة، ويسعدني أن تأتي مبكرًا بساعتين إذا أحببت كي نتناقش قبل أن يصل الآخرون...

ولم تترك له فرصة الرفض أو حتى الموافقة، إذ فتحت حقيبتها وأخرجت بطاقة تعريف شخصي ومدّتها له وعلى وجهها ابتسامة مغرية وذات دلالة خاصة:

- هنا اسمي وعنواني ورقم تليفوني. يسعدني أن تحضر الصالون. أو تتصل بي.. ويفضل أن يكون الاتصال ما بين العاشرة صباحًا والرابعة عصرًا.. حيث يمكنني الحديث بدون أية انشغالات..

صمت للحظات، لكنه انتبه وكأنه اكتشف جمالها الأنثوي فجأة، فقال:

- سأحاول.. شكرًا لك.

لم تنتظره هي وإنما توجهت إلى حيث مكتب عمادة الجامعة ومن خلفها السائق الذي فتح صندوق السيارة وحمل كارتونًا مليئًا بالكتب.

نظر هو إلى قوامها واستقرت نظراته على مؤخرتها المتناسقة المثيرة التي ايقظت رغبته، وهبط بعينيه ليرى أسفل ساقيها الظاهرين وطريقة مشيها.

ومع ذلك لم يذهب هو في الخميس الذي كان في ذلك الأسبوع ولم يتصل بها،

مع أنه كان يصارع نفسه يوميًا بقوة ويقمع رغبته في ذلك. بيد إنه لم يستطع أن يصمد أكثر إذ اتصل بها وذهب إليها وفق العنوان المكتوب في خميس الأسبوع الثاني من يوم اللقاء بها. وكانت البداية.

من حسن حظ آدم بهاء الدين أنه ليس محكومًا عليه بالزواج لا سيما زواج الأقارب، فخاله لديه ابنان، وخالته حواء الأبيض، التي أخذتْ لقب زوجها، لم تنجب بسبب عقم زوجها آدم الأبيض، ومع كل محاولاتهما للحمل الخارجي، فلم يحصل الحمل. لذا كان هو حرًا من إشكالية زواج الأقارب على الرغم من إلحاح أمه بأن يتزوج حتى صارت تضايقه بإلحاحها، بل كان يحسم نقاشه معها بجملته التي صارت مكررة: ,,إذا وجدّتِ لي امرأة تحبني مثلك وتهتم بي مثلك فسأقبل بها". فكانت عيناها تبرقان فرحًا، وتتمتم قائلة: ,,ليس هناك من يحبك ويهتم بك مثلي في كل هذا الكون، لكني يا بني أنا لن أبقى دائمًا في الحياة لك.. وأنت تحتاج إلى أن تكوّن عائلتك الخاصة بك". لكنه كان يضحك قائلًا: ,,من عمري على عمرك يا أغلى أم في العالم". وعادة ينتهي النقاش بضحك وبتدفق للمشاعر الجميلة، بينما هو خلال تلك النقاشات المتكررة يتذكر حوّاء الدلال التي عوضته عن الزوجة، لكن كل هذه النقاشات تملأ قلب الأم فرحًا وسعادة، فمع أنها تريد له أن يتزوج لكنها سعيدة بموقفه وحبه لها.

كان آدم بهاء الدين وسيمًا، أبيض البشرة، بينما أمه سمراء وكذلك كان أبوه ذا بشرة سمراء. بحيث يثير لون بشرتهما الانتباه حين يكون مع أمه. وسامته جعلته محبوبًا من قبل النساء. فكان مدلّل خالته.

جارته في الشقة المقابلة أثارت ذكرياته، لكن عليه أن يذهب إلى لقاء الرائد آدم عبد السميع. لذا ارتشف قهوته بسرعة ودخل غرفة الحمام.

***

حين وصل مقر دائرة الأمن انبثق السؤال في ذهنه والذي لم يفكر فيه سابقًا: لماذا تقوم دائرة الأمن والمخابرات بالتحقيق في هذه القضية وليست الشرطة؟

صعد درجات العتبة التي تقود إلى داخل المبنى فواجهه جهاز الكشف الضوئي

(السونار). وضع جهاز الهاتف النقال جانبًا ومرق. رنّ الجهاز.. أخذ رجل الأمن في الجهة الأخرى يفتشه وسمح له بالمرور.

في تلك اللحظات وبينما رجل الأمن يفتشه انقطع التيار الكهربائي في المبنى كله. وطوال الفترة التي عمّت فيها العتمة ظلّ واقفًا لم يتحرك من مكانه، وحين عاد التيار الكهربائي بعد دقائق رأى وجه رجل الأمن من جديد في الضوء وانتبه إلى الخوف والريبة في نظراته، لكنه مع ذلك سأله عن مكتب الرائد آدم عبد السميع فقال له بأن عليه أن يأخذ المصعد إلى الطابق الرابع وهناك سيجد من يدلّه.

توجه نحو جهة المصاعد. كان هناك مصعدان. بدا له بأن أحدهما عاطل. انتبه إلى أن المبنى بدا له فارغًا وكأنه مهجور. لكنه لم يشغل باله كثيرًا بهذا الأمر. فُتح باب المصعد فانتبه إلى أن كابينة المصعد ضيقة جدًا بالكاد تكفي لإثنين وربما لرجل واحد متين البنيان.

ضغط على زر الرقم أربعة (٤) فانطلق المصعد صاعدًا. انتبه لعدم وجود أية إشارات إلكترونية ضوئية تشير للطابق الذي يصله. وفجأة، وقف المصعد وفُتح بابه. وما إن خرج من المصعد حتى انقطع التيار الكهربائي وعمَّت الظلمة في كل الطابق.

ظل واقفًا على مقربة من المصعد. لم تكن هناك أية حركة في هذا الطابق. كان لا يتبين شيئًا تقريبًا. وبعد دقائق شعر بثقلها على نفسه عاد التيار الكهربائي مرة أخرى. ومع ذلك كانت الإضاءة شاحبة. ووجد نفسه في تقاطعات من الممرات.

لم يكن يعرف في أيّ ممر يقع المكتب. وفي تلك اللحظة وفي الممر الذي يواجهه رأى رجلًا يخرج من إحدى الغرف وهو يحمل صينية مليئة بأقداح الشاي الفارغة، فسأله بنبرة أقرب للتوسل عن مكتب الرائد آدم عبد السميع، فأجابه الرجل بأن مكتب الرائد يقع في الغرفة الرابعة على جهة اليسار من الممر الآخر، فشكره وتوجه إلى الممر الآخر، لكن في تلك اللحظة رأى في نهاية الممر الذي يتقاطع مع الممر الذي يقصده امرأة عرفها على الفور فصُدم لحظتها وسأل نفسه: „ماذا تفعل هي في مبنى الأمن والمخابرات؟". لكنها اختفت من أمام عينيه في الممرات الأخرى ولم يكن لديه الوقت الكافي ليلحق بها.

كان آدم بهاء الدين قد وصل عند باب المكتب بأربع دقائق قبل الثانية عشرة. لم يشأ أن يدخل فبقى عند الباب واقفاً كي تمر الدقائق الأربع مفكرًا بلغز وجود هذه المرأة في دائرة الأمن والمخابرات. وعند تمام الثانية عشرة طرق الباب فسمع صوتًا يقول له أدخل. ففتح الباب ودخل.

الفصل الرابع

عودة آدم الحديدي

ما إن فتح آدم السيد الباب حتى وقف مذهولًا. لم يكن يُصدّق عينيه بأن الرجل الذي يقف أمامه هو نفسه الذي خطر كالبرق في ذهنه لحظة رؤيته له.. كيف هذا..؟ أحسّ برعشة باردة تسري في جسده، لكنه تمالك نفسه، وقال بصوت عالٍ مليء بالدهشة:

- من أرى؟ آدم الحديدي؟ هل يعقل ذلك؟

وقف الآخر أمامه جامدًا وعلى وجهه ابتسامة مخاتلة، لكنه استشعر ارتباك آدم السيد عند رؤيته وفهم لا رغبته بهذه المفاجأة، إذ طال الوقوف عند الباب، بَيد أن آدم السيد استدرك موقفه المرتبك فدعاه آخذًا بذراعه وهما يدخلان، ويسأله خلالها:

- أين أنت؟ لم يخطر على بالي أن نلتقي قَط.

فصدمه الضيف الغامض بجواب مستفز حين قال:

- خرجت من السجن قبل أيام.. قلت أزورك.. مع أني شككت في أن تكون لا تزال تعيش في الشقة نفسها.

فأجاب آدم السيد وهما يدخلان إلى الصالة محاولًا أن يكتم توتره:

- لا أبدًا.. لم أغير السكن.. هو كما هو.

فقال الضيف وهو يجول بنظره في الصالة:

- كيف حال الوالدة وأختك..؟

صمت آدم السيد للحظات وقال بحزن صادق:

- الوالدة انتقلتْ إلى رحمة الله وأختي تزوجت منذ أكثر من عشر سنوات تقريبًا، وانتقلت مع زوجها إلى مدينة أخرى.

فقال الضيف بلا مبالاة واضحة حاول أن يمنحها التهذيب:

- البقية في حياتك.. هذه سنة الحياة..

جلسا على أريكة وثيرة تشغل وسط الصالة. كان الرجل المدعو آدم الحديدي يتأمل الصالة والأثاث والتحفيات واللوحات بنظرة تبدو بريئة لكنها كانت نظرة تخفي وراءها تساؤلات غامضة، وكأنها تقول: من أين له كل هذا؟.

لأول مرة فكّر آدم السيد بالمرأة المُنظِفة وارتاح لغيابها، بحجة مراجعة إحدى الدوائر لغرض تمشية معاملة تقاعد زوجها، كي لا ترى هذا الضيف الثقيل والمريب ولا تسمع ما سيدور من حوار يتوقع هو ألّا يكون طيبًا، لذا قام من مكانه واتجه إلى المطبخ ليعدّ الشاي بنفسه. ومن هناك أخذ يتحدث معه:

- كيف قضيتَ كل تلك السنوات الثقيلة والمشئومة في السجن..؟ فكما أعرف أنهم حكموا عليك بعشرين عامًا..!

صمت آدم الحديدي للحظات ثم قال:

- نعم.. أُطلق سراحي بعد أن أنهيت محكوميتي، ثم إن ما جرى لم يكن مأساة بالنسبة لي، فالحقيرة الخائنة زوجتي والحقير القائد السياسي العظيم والمفكر الثوري الفذ الذي كان يقودنا ويتحدث دائمًا بالمُثُل والأخلاق والتضحية والروح الرفاقية كان خائنًا ليس لي فقط وإنما لكل هذه المُثُل التي صدّع رأسنا بها، لذا كلاهما كانا يستحقان ما فعلته بهما.. بأن قطّعتهما كما تقطّع الشاة.. ولم أندم على ذلك قط، حتى وإن دخلت السجن في العشرين وخرجت منه في الأربعين.

كان آدم السيد متوجسًا ومرتبكًا، فرؤية آدم الحديدي هزّت كيانه بعد كل تلك السنوات، فهو وحده يعرف بأنه هو مَن أبلغ الرائد آدم عبد السميع عن المخبأ الذي لاذ إليه بعد أن قطّع رفيقهم المسؤول ثم زوجته بالسكين. وأثناء إعداده للشاي مرّ شريط الأحداث في ذهنه.

تأسف آدم السيد لاحقًا لأنه أبلغ عنه، فالحقيقة لحظتها كانت خافية عنه، وقد عرفها فيما بعد من الرائد آدم عبد السميع. فحين سمع أن آدم الحديدي اقتحم

شقة مسؤولهم القيادي وقطّعه بالسكين لم يكن يعرف السبب وراء ذلك.

يتذكر الآن وهو يعدّ الشاي في المطبخ تفاصيل ذلك اليوم الدموي وكأنها حدثت الآن. يومها مرّ عليه آدم الحديدي، وكان في حالة نفسية مخيفة. قال له إنه سيذهب مع زوجته إلى قريته، ليزور والده الذي يحتضر.

وفي ذلك اليوم نفسه انتشر خبر مقتل آدم أبو سن الذهب في شقته، وأن الجيران شهدوا على رؤيتهم آدم الحديدي وهو يدخل العمارة التي تقع فيها الشقة. لذلك حينما سأله صديقه الرائد آدم عبدالسميع، الذي لم يكن حينها رائدًا، عن مخبئه أبلغه عن الجهة التي توجَّه إليها. وفعلًا تمّ إلقاء القبض عليه هناك، لكن بعد فوات الأوان إذ وجدوه قد قتل زوجته أيضًا وقطَّعها بالسكين والمنشار ووزع لحمها على كلاب القرية.

مِن الرائد آدم عبد السميع، الذي لم يكن رائدًا حينها، عرف في ما بعد القصة عن علاقة آدم أبو سن الذهب بزوجة آدم الحديدي بالتفصيل. حينها تعاطف بشكل غامض مع آدم الحديدي، لكنه استغبى تصرفه، فلو كان قد قتلهما في غرفة النوم وهما معًا فربما اعتبرت الجريمة قضية شرف ووجد ألف تبرير للجريمة ولما حُكم عليه بعشرين عامًا. لكنه قتل آدم أبو سن الذهب في شقته دونما وجود دليل على علاقته مع زوجته، سوى ما اتهمه هو به، مما جعل الأمر جريمة مع سبق الإصرار والترصد.

يتذكر الآن تفاصيل تلك الفترة بقوة بعد أن نسيها خلال العشرين عامًا الماضية. كانا كلاهما ينتميان لتنظيم يساري معظمه من المثقفين وطلبة الجامعات، أو على الأقل الحلقات التي كانوا ينتظمون إليها تتشكل من هؤلاء. وكانت الاجتماعات تجري في بيوت الأعضاء بالتناوب لغرض السرية.

حلقتهم كانت تتألف من خمسة أعضاء معظمهم في العشرينات وفي بداية حياتهم الجامعية ما بين كليات الآداب والقانون والطب. وقد تكررت الاجتماعات في شقة آدم الحديدي، الذي كان بعمرهم لكنه كان يعمل في مكتبة الجامعة.

ولم يكن يمر في مخيلة أحد من أعضاء تلك الحلقة التنظيمية بأن مسؤولها سيستغل غياب آدم الحديدي ليقيم علاقة مع زوجته المثيرة الناضجة التي تفهم

تحرر المرأة هو في تحررها الجنسي فقط، والتي كانت تكبره بتسع سنوات.

هو نفسه يستذكر تلك المرأة التي كانت تبدو رزينة وسيدة ذات شخصية قوية، مع أنها بدت من نظراتها المتعطشة كأنها تبحث عن رجل، وكم كان يستغرب ان تتزوج شابًا في العشرين تكبره هي بتسع سنوات، ومع ذلك يبدو إنه لم يطفئ لهيب شهوتها..!

كان آدم الحديدي قد رجع ذلك اليوم لتعرضه لإسهال مفاجئ أثناء العمل، وحينما وصل شقته فتحها بهدوء شديد، لكنه انتبه لحركة في غرفة النوم. اقترب بخطوات سعى أن تكون خافتة على قدر ما استطاع!، وصُدم حينما سمع اللهاث والآهات في غرفة نومه، بل ولم يصدق نفسه حينما سمع تلك الكلمات الجنسية الفاحشة تنطلق برغبة شديدة من فم زوجته، تلك المرأة الفاضلة والرزينة والتي لم يشك في اخلاصها وفضيلتها أبدًا، وكذا استجابة الرجل الذي معها، والذي عرفه من دون صعوبة وشك في هويته.

أراد أن يقتحم الغرفة لكنه أحس بالشلل في إرادته وبتشنج ساقيه. وشعر بأنه ابتل بعرقٍ بارد. كان مسلوب الإرادة، لكن عقله الشيطاني الانتقامي كان يعمل بنشاط. لذا تراجع وخطط للانتقام.

وكما حدّثه الرائد آدم عبد السميع، فقد أنكر آدم الحديدي جريمته، لكنه تعرض لتعذيب شديد إلى أن اعترف، بل وذكر لهم تفاصيل التفاصيل التي تخص الجريمة. اعترافه دفع إلى القبض على بقية أعضاء الخلية التنظيمة، ومن بينهم آدم السيد.

تذكر هو الآن كيف أنه هو آدم السيد قد اعترف في أول جلسة تحقيق، مؤكدًا المعلومات التي قالها آدم الحديدي وأبدى استعداده للتعاون مع أجهزة الأمن، لا سيما وأن الذي حقق معه كان صديقه آدم عبد السميع.

صديقه الرائد آدم عبدالسميع أخبره ذات مرة بأن آدم الحديدي بعد سنوات من الاعتقال وانقطاعه في السجن عن العالم بشكل شبه كامل، مرّ بتحولات نفسية وفكرية كبيرة، فلم يعد ينظر إلى نفسه باحترام وكبرياء كمثقف كما كان عندما كان طليقًا، فقد تحولت اهتمامه الفكرية إلى اهتمامات بايولوجية مبتذلة، حيث

صار همّه أن يحصل على قرص رغيف أكثر من الاخرين أو يحتال ليحصل على قطعة فاكهة أكثر، وكان يقضي وقته بحلّ الكلمات المتقاطعة في المجلات الفنية التي يأتون بها الى السجن أحيانًا، بل وصار يعاني من الرؤى والكوابيس، بينما من ناحية جنسية انهكته العادة السرية.

لكن الغريب أن بعض صحف المعارضة اليسارية في الخارج كانت تكتب وتنشر عنه بمبالغة كبيرة مشيرة إلى أنه بريء من جريمة القتل وأن الحكومة هي من قتلت آدم أبوسن الذهب والرفيقة زوجة حواء الحديدي وألقت التهمة على آدم الحديدي، بل وصارت الصحافة اليسارية السرية تكتب عن صموده بوجه الجلادين، وانجازاته الفكرية ودفاتره التي دونها وهو في السجن والتي سيأتي اليوم الذي سترى فيه النور مثل دفاتر السجن لغرامشي. لكن من محاسن القدر إن آدم الحديدي لم يكن يعرف بكل هذا الدعاية المجانية له.

ومع كل ما جرى مع آدم السيد من تحولات طوال هذه السنين كان يشعر بعقدة الذنب إزاء آدم الحديدي، لا سيما بعدما عرف حقيقة ما جرى، وكان يجد له التبريرات أحيانًا. بيد إن آدم الحديدي لم يكن يعرف بـأن آدم السيد هو من أخبر الرائد آدم عبدالسميع الذي قبض عليه.!.

أقبل آدم السيد وهو يحمل صينية فيها دورق الشاي وقندون السكر مع كوبين. سأله وهو يجلس قبالته على الصوفا:

- هل رجعت لبيتك؟

أخذ آدم الحديدي كوب الشاي ليضعه أمامه وأهتم للحظات بتحليته بكمية من السكر وقال:

- لا.. لا بيت لي..لقد بعته حينما كنت في السجن، إذ لم أتوقع إنني سأخرج حيًا ذات يوم.

- وأين نزلت بعد الإفراج عنك..؟ سأله آدم السيد.

- في فندق قديم لم أعرف بوجوده سابقًا مع أنه قديم، فندق اسمه „باب السماء".

فوجئ آدم السيد عند سماع اسم الفندق وخطرت لثوان في ذهنه بأن آدم الحديدي يمكن أن يكون قد قتل ذاك الأجنبي الذي يبحث هو عن هويته، لكن سرعان ما طرد ذلك الهاجس من ذهنه، فالرجل مات دون آثار عنف. لذا قال بنبرة استغراب:

- فندق „باب السماء" ..؟ ومنذ متى وأنت في هذا الفندق؟

انتبه آدم الحديدي لاستغراب مضيفه فأجاب:

- منذ تسعة أيام.. لماذا تسأل؟

نظر إليه آدم السيد مستفسرًا وقال:

- ألم تسمع شيئًا غريبًا حدث في ذلك الفندق؟ ألم تقرأ في الصحف والتلفزيون بأنهم وجدوا جثة لسائح أجنبي فيه..!

نظر آدم الحديدي إليه نظرات متفحصة قبل أن يجيب :

- لا أبداً.. لم أقرأ أو اسمع بهذا.. فأنا لا أخرج من غرفتي عادة.. وأحيانًا لا أخرج لبعضة أيام، بل أحيانًا أنام يومًا كاملًا .. وأحيانًا على العكس أخرج صباحًا ولا أعود إلا في منتصف الليل.. لذا لم انتبه لشيء.

- عجيب..! قال آدم السيد لا إراديًا.

- وما العجيب؟ سأل آدم الحديدي مستفسرًا بمكر.

- العالم منقلب منذ أيام في ذلك الفندق لمعرفة لغز موت السائح الأجنبي وأجهزة الأمن والصحافة يملأون الفندق بينما أنت لم تلاحظ شيئًا.

نظر آدم الحديدي إليه مُستفسرًا وكأنه يحاول فهم ما وراء كلماته، فقال له بعد لحظات من الصمت:

- ما الغرابة في موت أحدهم في فندق.!؟ ربما جلطة قلبية أو دماغية..! ما اللغز في ذلك..؟ ألا يموت الأجانب؟ ثم أنا قلت لك بعض الأيام أكون مستغرقًا في النوم وبعض الأيام أطوف في الشوارع ولا أرجع إلا منتصف الليل.

راود الفضول آدم السيد فسأل بنبرة تبدو عفوية:

- وماذا تفعل أيام خروجك..؟ إلى أين تذهب؟

نظر إليه آدم الحديدي بتركيز وقال ببطئ:

- أبحث عن رفاقنا القدامى..عن الأثنين الآخرين غيرك..أقصد طالب الطب آنذاك آدم السبّاك، وطالب الهندسة آدم البنا. لكني لم أعثر عليهما..أنت وحدك من وجدته لأنك لم تغير عنوانك..

شعر آدم السيد بارتعاشة سرتْ في جسده، ولكي يخفي ارتباكه أخذ يدير الملعقة في كوبه ساهيًا عن وضع السكر في الشاي، ثم قال متسائلًا:

- ولماذا تسأل عنهم بعد هذه السنين؟ لقد تفرقوا، بل تحولوا فكريًا واجتماعيًا.. فطالب الطب آنذاك آدم السبّاك صار طبيبًا والآن افتتح عيادة كبيرة أقرب إلى أن تكون مستشفى في مبنى من ثلاثة طوابق، كما أنه هجر السياسة، بل قل هو من أعضاء الحزب الحاكم، لكنه معهم ليحافظ على مصالحه، أما طالب الهندسة آدم البنا فقد صار الآن إحدى الشخصيات البارزة في أحد الأحزاب الإسلامية المشاركة في السلطة ومندوبًا عنهم في البرلمان، ولو رأيته لما عرفته، صار بدينًا مع بطن تمتد لنصف متر إلى الأمام..!

- وأنت؟

سأل آدم الحديدي بنبرة فيها تحدٍّ خفي وصلافة وعدم لباقة صدمتْ آدم السيد، فأجاب بعد لحظات:

- بالنسبة لي..غادرت البلاد إلى أوروبا..واصلت دراستي الجامعية هناك إلى أن حصلت على الدكتوراه من لندن، ثم سافرت إلى النمسا وبقيت هناك بضعة سنوات أيضًا، تجنست أول الأمر بالجنسية البريطانية ثم استبدلتها بالجنسية النمساوية. عدتُ إلى البلاد قبل سنوات معدودة، والآن أعمل أستاذا زائرًا لعدد من الجامعات في الخارج وفي البلدان العربية، وتخصّصتُ بعلم الجرافولوجي، وهو علم دراسة الخطوط والتواقيع لمعرفة الشخصية أو لمعرفة هل هناك تزوير أم لا.

- ألم تتزوج..؟

صمت آدم السيد للحظات ثم قال:

- لا..أبدًا..! عشت مع امرأة نمساوية، والحقيقة هي التي كانت سبب بقائي في فيّنا، فقد كنت في البداية زائرًا، لكني بقيت هناك وغيرت جنسيتي لهذا السبب أيضًا.

كان آدم الحديدي يشك في وضع آدم السيد وصدق علاقته به، فهو يعرف بأن آدم السيد يعرف بأنه هو آدم الحديدي من اعترف عليهم جميعًا عند تعذيبه وكشف علاقتهم السياسية أثناء التحقيق معه حول مقتل آدم أبو سن الذهب.

فكّر آدم الحديدي لحظتها بأنه من المؤكد أن أجهزة الأمن ألقت القبض على أعضاء التنظيم كلهم، فكيف سُمح لآدم السيد بالسفر لمواصلة دراسته؟. ولم يستطع أن يكتم ما في نفسه من شكوك حول علاقة آدم السيد بأجهزة المخابرات، ووجد نفسه كالذئب المحاصر، فهجم دون وعي منه قائلًا :

- أتعرف أيها السيد آدم..أنا من اعترف عليكم حينما عُذِّبت لمعرفة سبب قتلي للخنزير آدم أبو سن الذهب، بيّنت لهم إنه كان مسؤول منظمتنا.. وأظن إنهم قد اعتقلوكم جميعًا..!

فوجئ آدم السيد من صراحته، لكنه انتبه إلى أن آدم الحديدي صار شخصية صلفة ومجازفة ومندفعة في صراحتها ووقاحتها، ولا يمكنه أن يخمِّن ما يدور في ذهنه، فقال من أجل أن يمتص أي توتر سيكون بينهما:

- نعم..تم اعتقالنا بعد اعتقالك بوقت قصير وتم التحقيق معنا استنادًا على اعترافك.. كلّنا عرفنا ذلك لكننا أنكرنا كل ما له علاقة باعترافك..فليس هناك أي دليل. الدليل أنت قتلت مسؤول الحلقة التنظيمية لأسباب غير سياسية، ومع ذلك تم اعتقالنا، فأوكلنا محاميًا معروفًا من ذوي العلاقات..بقينا فترة أشهر في السجن ثم أطلقوا سراحنا لعدم كفاية الأدلة..لكن أجبرونا مع ذلك التعهد بعدم ممارسة السياسة، ووقعنا على ذلك.

فوجئ آدم الحديدي بصراحة مضيفه التي لم يتوقعها، مع أن آدم السيد لم يقل الحقيقة كلها، فقال:

- أنا لم أود توريطكم، لكن لم يكن أمامي سوى قول الحقيقة بأني قتلت الخنزير آدم أبو سن الذهب لأنه خان المبادئ والأخلاقيات التي كان يلقنني إيّاها ويتعالي علينا بتدرسينا تلك المبادئ كالتلاميذ، وأكبر دليل على زيفه وخيانته للمبادئ إنه انتهك صداقتي ورفقتي له بإغواء الحقيرة التي كانت زوجتي..وربما هي من أغوته.. لا أعرف..(صمت للحظات ثم واصل).. لكنك تقول إن آدم البنا يعمل في أحد الأحزاب الإسلامية وآدم السبّاك في الحزب الحاكم.

انتبه آدم السيد لسؤال ضيفه، لذا قرر أن يكون معه أكثر حذرًا، فقال:

- نعم..لكن قُل لي لماذا تبحث عنهما..؟ هما الآن في مواقع شبه محصنة، فلديهم الحمايات والسلاح والسلطة..

صمت آدم الحديدي قليلًا وهو يحدّق في عيني آدم السيد وقال:

- لا أريد سوى معرفة الشخص الذي دلّ أجهزة الأمن على مكاني..!

أحس آدم السيد برجفة في ساقيه لكنه تماسك وسأل بنبرة فيها تعاطف مزيف:

- وكيف ستعرف؟

نظر آدم الحديدي إليه للحظات، ثم فجأة أخذ يرتشف الشاي من كوبه، بينما كان آدم السيد ينتظر بتوتر نفسي يحاول أن يكتمه.

التفت إليه آدم الحديدي وهو ينظر مباشرة في عينية بصلافة:

- الحقيقة، ولا تزعل مني، أنا أشكّ في الجميع. أتذكر ذلك اليوم قبل عشرين عامًا. يوم قتلتهما، يوم التطهير العظيم.. فقبل أن آتي إليك لأخبرك بسفري إلى القرية كنتُ قد مررت على عيادة التي كان آدم السبّاك يتمرن فيها كطالب طب، وهناك عنده قابلت مصادفة طالب الهندسة آدم البنا. كنت أريد أن أثبت تواجدي ذلك اليوم في أكثر من مكان. ولأني كنت ناويًا أن أذبح العاهرة زوجتي أيضًا فقد قلت لهم إنني سأسافر إلى القرية لأن أبي يحتضر، ولا أدري لماذا قلت لهم ذلك، فالحقيقة أن أبي ميت من سنين.

ثم جئت إليك، ومن ثم ذهبت إلى أكثر من مكان وعملت هناك ضجيجًا

وحركات غير طبيعية من أجل أن أثير الانتباه ظنًا مني بأن هذا ما سيساعدني في الدفاع عن نفسي. ونفذت انتقامي من آدم أبو سن الذهب، ثم عدت بعد ساعات فوجدت أن برقية وصلتني على عنوان البيت من أحد أقربائنا في المدينة القريبة من قريتنا، تشير إلى أن أمي كانت في المستشفى الحكومي بمدينتهم وأن حالتها ميئوس منها ووضعها حرج جدًا لذلك طلبت أن تموت ببيتها في القرية، فوجدتها إشارة إلهية تبارك انتقامي، فطلبت من زوجتي أن نسافر إلى القرية لأن أمي تحتضر. هي لم تشك في الأمر فمضمون البرقية واضح. وفي ليلة موت أمي ذبحت الحقيرة الخائنة ووزعت لحمها على كلاب القرية شبه المتوحشة.. لكن بعد يومين تم إلقاء القبض عليّ. فمن أين لأجهزة الأمن هذه القدرة الخارقة في معرفة مكاني بهذه السرعة، والشك بأني قاتل آدم أبو سن الذهب، لو لم يشي أحد بي..؟.

كان آدم الحديدي يتحدث وهو يُحدِّق في وجه آدم السيد ليرى انفعالاته وردود فعله، لكن آدم السيد كان منتبهًا لذكاء آدم الحديدي وشكوكه التي لا يخفيها، لذا أراد بضربة ذكية أن يُغير من قواعد اللعبة التي يلعبها آدم الحديدي معه، فقال له:

- ألا تعلم من أخبر عنك؟ ظننتهم أخبروك؟

- من هو؟ ومن كان عليه أن يخبرني؟ أرتدَّ آدم الحديدي مصدومًا.

أحس آدم السيد بأنه زعزع ثقة آدم الحديدي بنفسه، لكنه أدرك بل صار على يقين بأن آدم الحديدي شخصية خطرة يمكن توقع أي تصرف قد يصدر عنها، إذ تسكنه روح الانتقام. تماسك آدم السيد وأضاءت في ذهنه فكرة، فقال له وهو يرتشف الشاي من كوبه، بنبرة فيها غموض وثقة مزيفة:

- في ذلك اليوم نفسه الذي جئتني فيه انتشر خبر مقتل آدم أبو سن الذهب في شقته. شكوكك حول وجود علاقة غير شرعية بين زوجتك وآدم أبو سن الذهب كانت كلها في محلها كما اتضح فيما بعد، لأنه في ذلك اليوم كانت زوجتك تريد زيارته في شقته، وحين وصلتْ إلى باب العمارة وجدت سيارات الشرطة والإسعاف وزحمة عند باب العمارة، وحينما سألتْ من الموجدين أخبروها عن مقتل شخص ما، عرفت إنه عشيقها. هي لم تكن تشك بأنك القاتل أبدًا، فهي لحظتها لم تكن تعرف بأنك تعرف

بعلاقتها غير الشرعية. بل حتى إنها كانت تظنك في الدوام الرسمي.

لكنها مّرت على آدم السباك في العيادة التي يتمرن فيها، فسألها عن وضعك وعن خبر احتضار والدك كما اخبرتهما أنت قبل وصولها، فاستغربتْ الأمر، إذا قالت له بأن والدك ميت منذ سنين، فأخبرها بمرورك عليه حينما كان بمعية صديقه آدم البنا..وبدورها أخبرته بمقتل آدم أبو سن الذهب في شقته. كِذبتكَ بصدد والدك أيقظ عندها الشك في إنك يمكن أن تكون القاتل، لكنها غير متأكدة، لأنها لو كانت متأكدة لما سافرتْ معك إلى القرية. بيد إنه أتضح لاحقًا بأنها اتصلت بالجهات المختصة وأخبرتهم بشكوكها غير المؤكدة حولك، لا سيما حينما أرادت التأكد من شكوكها إذ اتصلت بك في مكتبة الجامعة فأخبرتها الموظفة التي تعمل معك بأنك أخذت إجازة مرضية في ذلك اليوم، فصار لديها اليقين بأنك القاتل. وكما صرّحت الأجهزة امختصة للإعلام بأنه لولا اتصالها لما عرف أحد بك ولا بمكان مخبئك. ولو لم تقتلها لكان أمر مقتل آدم أبو سن الذهب مجهولًا.. فليس هناك من دليل ضدك أبدًا، سوى شك زوجتك..!

كانت عينا آدم الحديدي تتسعان وتتقلصان وعضلات وجهه تتشنجان كلما واصل آدم السيد حديثه. وفجأة قال بنرة عصبية:

- مستحيل أن أصدّق ذلك؟

- هذه هي الحقيقة. لا آدم السباك ولا آدم البنا ولا أحد منّا بلّغ عنك. زوجتك كانت هي التي على حدود الشك وحافة اليقين بأنك القاتل..!

- لكن إذا كانت متأكدة من ذلك، أو حتى إذا كانت تشك، لماذا سافرت معي..؟

- هذا سؤال مهم وحدها كان بإمكانها الجواب عليه..! ربما لأن مصداقية البرقية الرسمية القادمة من محافظة قريبة لقرية والدتك أو لأنها لم تتوقع أن تقتلها بهذه السرعة، أو لأنها كانت تشك وليس لديها أي دليل يقيني..!

في تلك اللحظة طُرق الباب. توقف الحديثُ بينهما. قام آدم السيد ليفتح الباب. وما إن فتح الباب حتى دخلت جارته مع أختها وهما تحملان طعامًا في صينية والأخرى

تحمل قارورة للبن. ارتبكتا حينما انتبهتا لوجود ضيف. وبمرح وألفة قالت جارته:

- أنا أعرف بأن المُنظِفة قد أخذت إجازة اليوم، لذا قلنا بأنه ليس هناك من سيطبخ لك. عملنا اليوم دولمة، لكننا لم نعرف بأن لديك ضيف.

ارتبك آدم السيد فاضطر لتقديم ضيفه والسيدتين لبعضهم البعض، فقال:

- هذا صديقي الأستاذ آدم الحديدي.. جاء من سفر بعد سنوات.

فوجئ آدم الحديدي بهذا التقديم لكنه استرخى لهذه الكذبة لا سيما وقد أعجبته أخت الجارة، وقدم المرأتين له:

- هذه جارتي حوّاء اللبان وهي تعيش مع زوجها وابنتها في الشقة المقابلة، وهم يهتمون لأمري مثل أحد أفراد العائلة لا سيما بعد وفاة المرحومة أمي. وهذه أختها التي وصلت في زيارة قصيرة لها.

ارتبكت الأخت، وأُحرجت الجارة لكنهما كانتا مرتاحتين لحفاوة آدم السيد بهما وتقديمهما بهذا الشكل الحميمي.

- تفضلا بالجلوس معنا..! قال آدم الحديدي.

استغرب آدم السيد تصرفه، ووجد فيه قلة ذوق، لأن المفروض هو من يقرر إن كان يدعوهما للجلوس أم لا، ناهيك أنه لا يطمئن له ولا لنواياه وما يدور في ذهنه الانتقامي.

نظرت حوّاء اللبّان بتركيز في عيني آدم السيد وكأنها تسأله إن كان عليهما الجلوس أم لا، بعد ثوان أدركت من خلال ارتباكه وبحسها الأنثوي بأنه لا يرغب في ذلك، مع أنه قال لهما بأن يجلسا مجاملة لصديقه وتفاديًا لأي إشكال، فاعتذرت هي بأن زوجها على وشك الوصول وأنهم ينتظروف ضيوفًا، لكن لم يبد الاعتراض على وجه أختها.

وضعتا الصينية على طاولة الطعام القريبة في الجهة الأخرى من الصالون مع دورق اللبن، وسلمتّا عليهما وغادرتا.

وجود صينية الطعام أنهى توتر الحوار الذي كان بينهما. وما إن جلسا حول

المائدة حتى أخذ آدم الحديدي يدير الحوار عن الجيران محاولًا معرفة وضع أخت حواء اللبّان. لكن آدم السيد بالغ في تحفظه بالحديث عنهم، مع أن آدم الحديدي بوقاحته لمّح إلى شكه بوجود علاقة بين آدم السيد وبين الجارة حواء اللبّان.

ومرة أخرى أعدّ آدم السيد الشاي، لكنه كان طوال الوقت يفكر بهذا الضيف الخطر والغامض وكيف عليه إنهاء هذه الزيارة..

في تلك اللحظات رنَّ هاتفه النقال وانتبه إلى أن الاتصال من الرائد آدم عبد السميع، فضغط على زر استقبال المكالمة، فأخبره الرائد بأنه استدعى المدعو آدم بهاء الدين وسيقابله، وسيزوده بكل ما سيفيده به من معلومات في فك لغز شخصية آدم تسفايغ، فوجد فيه إنقاذًا له من الوضع الذي هو فيه..

انتهى الرائد آدم عبد السميع من كلامه وأقفل الخط لكن آدم السيد واصل الكلام:

- نعم أستاذ.. سأجيء حالًا.. لديّ ضيف عزيز، طيب.. طيب أستاذ، امنحني مسافة الطريق.

كان آدم السيد يفكر في آدم الحديدي ويسأل نفسه: „هل سيغادر بعد سماع هذه المكالمة..!؟" .. انتبه آدم الحديدي إلى الكلام وعرف بأن عليه أن يغادر، لكنه وجد أسبابًا ودوافع أخرى للزيارة.

الفصل الخامس

كل شيء قائم على الشك.. وسوء الفهم

عاد آدم بهاء الدين من لقائه مع الرائد آدم عبد السميع إلى البيت مباشرة فلم يجد أمه، لكنه انتبه إلى أنها قد أعدّت له الطعام.

دخل غرفته. جلس على كرسيه حول طاولة الكتابة. ظل يستعيد بعين أعماقه الثالثة تفاصيل اللقاء منذ لحظة دخوله إلى المبنى. كان يرى كل شيء، وكأن زيارته للرائد آدم عبد السميع تُعرض كمسلسل تلفزيوني في ذهنه وهو يراها بوضوح.

ظل قلقًا ومنشغل البال بلقائه مع الرائد ورؤيته لحوّاء الدلاّل، بل إنه تحكّم في استعادة تفاصيل زيارته لقطة لقطة، وحين وصل إلى لقطة رؤيته لها أوقف حركة الفيلم الداخلي، وأعاد اللقطة مرات عديدة، لكنه كلما أعاد اللقطة إزداد تشتتًا وقلقًا، إذ لم يعد متأكدًا مما يراه.

„نعم..، كلُ شيء قائم على الشك. كلُ شيء قائم على سوء الفهم، كل شيء قائم على أوهامنا وتخيلاتنا الشخصية. هذه هي حقيقة وجودنا الأرضي. الحياة هي حشد من الأوهام والتخيلات والتصورات المشكوك فيها. سلسلة من أحداث قائمة على سوء الفهم.

ماذا يريدون مني؟ لماذا طلب هذا الرائد لقائي بينما هو لم يسألني عن الحادثة بشكل يبين اهتمامه الحقيقي الذي طلب على أساسها مقابلتي..؟ لم أضف شيئًا غير ذلك المنشور في الصحف، بل هو لم يتوقف عند كلامي وإنما انتقل ليسألني عن حياتي، وماذا أفعل، وكيف أعيش، ولمّح إلى علاقة غامضة وسرية جدًا مع امرأة أربعينية وابنتها العشرينية؟

صحيح أنه لم يتحدث بشكل مباشر لكن تعليقه كان موحيًا، فقد ابتسم وقال وهو ينظر لي نظرة ماكرة بأنني رجل وسيم، وأعزب، وهذا ما يجعلني حلمًا للنساء

الأربعينيات والخمسينيات المتزوجات بل ولبناتهن العشرينيات!

ولم أجد مناسبة لمثل هذا التعليق، فهل ما قاله كان عفويًا أم أنه كان يقصد ما فسّرته أنا؟ ثم ما معنى قوله لي بأن الأجنبي يشبهني جدًا ولولا جلوسي أمامه لقال إنني هو!

لقد بدأت أشك. لكن ربما أنا أبالغ في تفسير الأشياء، وربما هذا التفسير جاء بسبب رؤيتي لحوّاء الدلاّل في ممرات المبنى..!

لكن من يؤكد لي أنها كانت هي فعلًا وليس امرأة أخرى تشبهها..؟ فالمسافة بيننا كانت بحدود مائة متر تقريبًا، وقد مرقت هي عن بُعد مسافة لم تتجاوز عرض الممر الذي لم يتعد خمسة أمتار، وهذا ما لم يستغرق دقيقة تقريبًا، ناهيك أنني كنت متوترًا من اللقاء مع الرائد آدم عبد السميع!

هل هذا يعني أن هذه المرأة التي أعرفها منذ سبعة عشرة عامًا تتعاون مع الأمن والمخابرات كل هذه السنوات وأنا لا أعرف؟ مستحيل!

بل إنني بدأت أشك حتى برؤيتي للإنسان الهلامي الغامض. لكن كيف هذا وما معنى ما نشرته الصحف؟ بل وما معنى طلب لقائي من قبل رائد في الأمن والمخابرات؟

ومع أني أخبرته مركزًا عند وقوف الكائن الغامض ونظرته لمبنى في الشارع يحمل لوحة إعلان لإحدى وكالات السياحة وهي „وكالة الأرواح الميتة" التي بيّنت له نوع عملها كما مكتوب على لوحة الإعلان، وهو إصدار تذاكر للسفر إلى الكواكب الأخرى، والحج والعمرة في كوكب المريخ، والسياحة الداخلية لمجرة درب التبانة والسياحة الخارجية لمجرة أندروميدا، لم يأبه لكلامي وكأنه يسمع نكتة تافهة أو أنني كنت أهذي..!

أنا شخصية قلقة على الرغم من محاولتي ألّا أبدو كذلك..! ثم ما معنى قوله لي بأن الأجنبي يشبهني جدًا ولولا جلوسي أمامه وجثة الأجنبي في مستشفى الطب العدلي لقال إنني هو.!؟

عليّ أن أعيد قراءة مذكراتي التي بعنوان „بئر الرغبة الغامضة" التي كتبتها

منذ فترة طويلة، ثم أربط بين هذه الأحداث فلربما سأتذكر تفاصيل لم أمنحها أي انتباه سابقًا، وربما ستضيء لي مناطق معتمة تكشف سر ما رأيته اليوم!".

في تلك اللحظات شعر بالجوع، فنهض ليس فقط ليسد جوعه وإنما ليشغل نفسه هربًا من قلقه وتشتته ولا يقينه.

توجه نحو المطبخ. وجد أن أمه لم تنس أن تعد له المائدة، فهناك صحنان فارغان وصحن للسلاطة مغطى بالنايلون. فتح الثلاجة فوجد دورقًا من اللبن قد أعدته أمه له ووضعته هناك كي يبرد. وهناك قدران على الطبّاخ.

فتح أحد القدور فوجد أنها قد أعدّت تبسي الباذنجان، وفي القدر الآخر رز البسمتي الذي كان عطره يملأ المطبخ.

صبّ لنفسه في الصحنين من القدرين وبدأ يأكل، لكن على الرغم من جوعه وشهيته للطعام الذي يحبه فإن أفكاره حاصرته مرة أخرى، ولا إراديًا أخذ يستعيد كل حكايته مع حوّاء الدلاّل.

هبط إلى عالم الذكريات، وحضر في الماضي أو استحضر الماضي داخل أعماقه، بينما كان يلتهم طعامه بلا شهية واضحة.

بعد أن غسل الصحنين فتح الثلاجة وصب لنفسه كأسًا من اللبن. ارتشفه وهو واقف هناك عند الثلاجة. أعاد الدورق إلى داخل الثلاجة، ثم اتجه إلى غرفته. جلس على كرسيه حول طاولة الكتابة. مّد يده لا شعوريًا إلى الجارور الجانبي، سحبه وأخذ رزمة الأوراق التي تحمل اسم „بئر الرغبة الغامضة" ليتعرف على نفسه من خلال ما كتب عنها..:

بئر الرغبة الغامضة

لا أعرف حقًا لماذا أجلس الآن لأدوِّن ذكرياتي عن علاقتي بحوّاء الدلاّل؟. ربما للتخفف من الشعور بالذنب نحوها؟ فأنا أشعر بأنني تصرفت معها بنذالة..! أنا إنسان هوائي في رغباتي. كلما أقابل امرأة مثيرة وجميلة أشعر بأنني مغرم بها،

وأؤكد لها بأني عاشقها الوحيد، علمًا أنني في تلك اللحظات أكون صادقًا، مع أنني في المنطقة الخلفية من وعيي أعرف أنني أكذب؟ أنا إنسان عاطفي، بل ومتطرف في عواطفي..أتدفق بالكلام ناسيًا نفسي. هل أنا إنسان كذاّب؟ لا أعتقد ذلك لأنني صادق فعلًا مع كل امرأة ألتقيها وأتحدّث معها.

لقد كنت من هؤلاء الرجال الذين يعيشون أحلامهم بحثًا عن امرأة تلهمهم الحب وتشعرهم بجمال الحياة، لكنها ما إن تصير بين أيديهم حتى يفرون منها بحثًا عن امرأة أخرى تمنحهم ما توفّر بين أيديهم وفرّوا منه، وتستمر رحلة الهروب بحثًا عن المرأة المستحيلة..!

والحقيقة أن هؤلاء الذين يعتقدون أنهم يبحثون عن الحب هم يبحثون عن وهم الحب، لذا يقضون سني عمرهم يتنقلون بين النساء باحثين عم أوهامهم فيهن.

وربما لأني أريد أن أكتب رواية دون وعي مني لهذه الرغبة.!! فقد تأثرت كثيرًا خلال دراستي بالظل الحزين الفارس „دون كيخوته دي لا مانتشا"، وأحس أنني في أعماقي شخصية حالمة تروم إنجاز بطولات وتحقيق أشياء خارقة مثله.. لكنني لست بنُبل ورومانسية دون كيخوته، أنني أحس نفسي أحيانًا مبتذلًا مثل سانشو بانثا. عقلي وأحلامي مثل دون كيخوته وتصرفاتي وسلوكي مثل سانشو بانثا.

لا..لا أعتقد ذلك..أنا نفسي لا أعرف نفسي. الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه هو أنني أجد نفسي مدفوعًا برغبة صادقة في التخفيف عن هذا العبء الداخلي الذي أحس به نتيجة تقلبات مشاعري واندفاعها وفق الموقف الذي أنا فيه، أو على الأقل أنا أتحدث عن نفسي في شبابي وليس أنا كما أنا الآن.. فقد كنت كقبعة تتطاير في الريح.

سأروي كل شيء. سأستحضر التفاصيل كلها. لكن عليّ أن أجد شكلًا لهذه الذكريات والسيرة. سأسعى أن تأخذ شكلًا روائيًا، فلربما أنجح في النهاية لتدوين رواية ما:

١

حوّاء الدلال..
الجمال الحزين كمساء شفيف

في العام ١٩٩٣ كان اللقاء الأول حينما مسّتني سيارتها الفارهة وأنا أمشي صباحًا في الجامعة. وحينما أردتُ مشاجرة السائق فوجئت بزجاج نافذة المقعد الخلفي تنزل لأرى وجه امرأة أعتقد أنها في بداية الثلاثينات. كانت أناقتها أرستقراطية رزينة، ذات شخصية وحضور قوي، ومحجبة بشكل أنيق.

بكل أدب اِعتذرت مني وسألت إن كنتُ قد تأذيت. ارتبكتُ لحظتها فقد بهرتني أناقتها والعطر الزكي الذي وصلني منها، وخلال لحظات سألت نفسي إن كان هذا العطر فرنسي أم أنه مخلوط بين دهن العود والعطور الفرنسية.!؟ كنت وما أزال مولعًا بالعطور، الرجالية والنسائية، بل ويمكنني تحليل شخصية وطبيعة الإنسان من خلال عطره.

أنا أدرس في كلية اللغات قسم اللغة الإسبانية، وأحب غارثيا لوركا وروفائيل إلبرتي وانتونيو متشادو، لكني مغرم بدون كيخوته دي لا مانتشا لسيرفانتس. أحس أنني دون كيخوته. ومع هذا فأنا أحب الشاعر الإنكليزي ت. إس. إليوت. وفي ذلك اليوم كنت أحمل كتابًا قد صدر حديثًا يضم قصائده ورباعياته الأربع.

لا أعرف كيف لمحتْ تلك المرأة الأنيقة الكتاب الذي كان في يدي، فسألتني إن كنت أحب هذا الشاعر الإنكليزي الذي أحمل ترجمة لأشعاره بالعربية، وحينما أخبرتها أنه شاعري المفضل قالت كان شاعرها المفضل أيضًا، ثم أضافت كان مفضلًا عندي إلى جانب شكسبير وفلوبير ولورنس.

ثم سرعان ما مدّت لي بكتاب قالت إنه هدية منها لي، وإنها تفضل أن أقرأه. ثم

أمرت السائق بأن يتحرك، فمضى ليركن سيارتها في المكان المخصص لسيارات الأساتذة. استغربتُ، فهي ليست أستاذة في كليتنا، ولم أرها يومًا هنا، بيد إنني صُدِمت حينما انتبهتُ لعنوان الكتاب الذي بين يدي، فهو كتاب ساذج قرأته في مراهقتي حينما كانت الأسئلة تحاصرني، فغضبتُ، إذ أنا لست صبيًا مراهقًا يوجه بمثل هذه الكتب الدعائية الساذجة.

توجّهت إليها وأرجعت الكتاب، ولا أدري ماذا قلتُ حينها، ففي شبابي كنت أكثر حساسية في ردود أفعالي، لكنها امتصت غضبي بطريقتها الهادئة والواثقة والمليئة باللطف والتسامح، فلم تغضب، بل على العكس من ذلك، إذ إن طريقتي استفزتها بطريقة ايجابية فأعطتني بطاقتها التعريفية الشخصية وقالت بأن لديها صالونا ثقافيًا تلتقي فيها نخبة من معارفها مساء كل خميس، ودعتني إليها، وطلبت أن اتصل بها قبل مجيئي وقبل انعقاد الملتقى.

والحقيقة حين اقتربت منها لأرجع الكتاب الذي اعطتني إياه اكتشفت جمالها الحقيقي وأنوثتها الطاغية، على الرغم من أن جمالها يبدو غير صادم كنجمات السينما، بل إن جمالها من ذلك النوع الهادئ والراسخ، والذي لا يعطي نفسه بشكل صادم وأنما يتفتح مثل أوراق الورد.

انتبهت لجسدها الضاج بالأنوثة الغامضة ولمؤخرتها المتناسقة بشكل مذهل، فأنا أعتبر أن جمال المرأة الجسدي يبدأ من شكل مؤخرتها وتناسقها، ومن ربلة ساقيها وشكلهما، لأن ربلة الساق تشي بطبيعة جمال الفخذين.

منذ ذلك اليوم الذي التقيتها فيه صرت أصارع كبريائي بأن أذهب إلى صالونها أو لا، وكنت أتخيل بأنها تفكر بي بحرارة أيضًا، لذا فربما ستتصل هي بي، لكني سرعان ما أفيق على نفسي وأسخر من أوهامي فأنا لم أعطها رقمي كي تتصل.!، ثم من قال إنني أثير اهتمامها مثلما هي قد أثارت اهتمامي.!؟

وتأخذني الحكايات والاحتمالات، فربما لديها زوج، أو ربما أمثالها لا تكتفي بالزوج وأنما تتخذ عشيقًا، بل وربما أكثر من عشيق، لكن سرعان ما امتلئ بالغيض والغيرة من تصوراتي وأغضب منها لاسيما حين أتخيل بأن لديها عشيق ما. وهكذا لم أذهب في الخميس الأول الذي كان بعد اللقاء الأول.

لكن بعد الخميس الأول صرت قلقًا، وانتظرتُ مجيء الخميس التالي بتوتر وعصبية ونفاد صبر. وفي نهار ذاك الخميس كنت قد أعدّدتُ نفسي وكأني في مسابقة للموديل أو عروض الأزياء، بل ولأجل اللقاء اشتريت عطرًا غاليًا مثيرًا.

كنت أتمنى أن تنقضي الظهيرة بلمح البصر. ولا أعرف كم عملاً شغلت نفسي به كي أنصرف عن قلقي وتوتري. وفي الرابعة عصرًا اتصلتُ بها، فطلبت مني، بنبرة صداقة دافئة وهادئة، المجيء فورًا قبل حضور رواد الصالون. وكان في صوتها لهفة وكأنها كانت تنتظر هذا الاتصال.

كان عنوان البيت في منطقة راقية بالعاصمة. ولم يكن صعبًا الوصول إليه فتلك المنطقة منظمة ونظيفة وواضحة المعالم من حيث إن أغنياء المدينة يسكنوها، وبالتالي فإن الجهات المعنية اهتمت بتبليط شوارعها ومد قنواتها وتشجيرها ووضع علامات السكن عليها.

كان البيت مسيجًا بسور حديدي مرتفع تتوسطه بوابة حديدية يمكن رؤية المبنى من خلال قضبانها. وكان المبنى كلاسيكي الطراز أوروبي التصميم، أمامه باحة ترتفع درجات عديدة كي يمكن الدخول إليه، ويبعد بمسافة عشرين مترًا عن البوابة الخارجية.

ضغطتُ على زر الجرس عند البوابة. وبعد لحظات انتبهت إلى طفلة في الخامسة خرجت من البيت وأخذت تركض نحو البوابة ثم لمحت امرأة بملابس غير أنيقة أخذت تتبعها بسرعة فعرفت أنها مساعدة في المنزل. حين وصلت الطفلة إلى البوابة وقفت تنظر إليّ ببراءة إلى أن وصلت المرأة ففتحت لي دون أن تسألني شيئًا وكأنها كانت تتوقع مجيئي.

فجأة سألتني الطفلة الصغيرة ببراءة:

- من أنت..؟

ابتسمت لها وقلت بنبرة تشبه نبرة صوتها الطفولية البريئة:

- أنا آدم.. وأنتِ ما اسمك؟

في تلك اللحظة رأيت السيدة حوّاء الدلاّل تقف في الباحة العُليا. أمام باب المنزل وهي في كامل أناقتها. ركضتْ الطفلة نحو أمها دون أن تجيبني، وتبعتها مساعدة المنزل لتمسك بها كي لا تتعثر. وعندما صارت عند أمها انحنت تلك فقبّلتها وطلبت من المساعدة أن تأخذها إلى غرفتها بينما وقفت تنتظر وصولي إليها وعلى وجهها ابتسامة مشرقة منحتني الدفء والثقة بالنفس.

اقتربت مسرعًا في خطوي نحوها. وحينها انتبهتُ إلى أنها أكثر أناقة مما رأيتها في الجامعة. كانت بجسدها الفاتن ترتدي تنورة جلدية سوداء اللون تصل إلى ما تحت الركبة بقليل مع قميص حريري بُني اللون يبرز استدارة نهديها دونما إغراء مقصود، وكانت تطوّق جيدها بطوق من طبقات ذهبية ثلاث يتوسطهما فص لزمردة زرقاء، وفي معصمها الأيسر مجموعة من المعاضد الذهبية والفضية بسيطة الصياغة من دون بهرجة. كانت تبدو سيدة قصر ارستقراطية أصيلة. وفي تلك اللحظة بالذات وجدت نفسي منجذبًا لها من دون أي مقاومة أو كبرياء فارغة.

حين وصلتُ إليها مدّتْ يدها وصافحتني بحرارة مرحبة بي وكأنها تعرفني منذ فترة طويلة، ثم قادتني إلى الصالون، بينما كنت أتأمل جسدها الأنيق الذي يتحرك أمامي، لكن سرعان ما انتبهت لنفسي، فهذه امرأة في غاية الرزانة والتحفظ وذات حضور شخصي قوي ومؤثر، ومع أنها تبدو متحررة لكنه تحرر المرأة الواثقة من نفسها، والتي تصد أي محاولة للإغراء الرخيص، بل من المؤكد لديها عالمها الخاص. وفي تلك اللحظات بالذات شعرت بالكآبة تقبض على نفسي، ووجدت نفسي للحظة وحيدًا وتعيسًا، وحينها التفتتْ إليّ، وفي ثوان غمرني الفرح لوجودها أمامي مجددًا.

منذ الخطوات الأولى في الصالون الرحب، والمؤثث بأفضل الكراسي والمقاعد والصوفات وموائد الطعام، دعتني إلى الجلوس على الأريكة الأنيقة في ركن مؤثث بأناقة، فجلستُ على طرفها، بينما جلست هي على الطرف الآخر. لكن منذ لحظة جلوسي شعرت بأنني صرت أسير ذلك المكان، وأنني صرت أرتضي العبودية لهذه المرأة الفاتنة بكامل حريتي ورضاي.

تأملتُ وجهها حينما أحنتْ هي رأسها إلى الأسفل قليلًا كي تمنحني فرصة تأمل

جمالها. هكذا أوحتْ لي انحناءة رأسها تلك، وفعلًا اكتشف جمالًا غريبًا، بدائيًا، ارستقراطيًا، ملوكيًا، وحشيًا، ممزوجًا بحزنٍ عميق.

بعد لحظات رفعتْ رأسها ورحبّت بي مرة أخرى ترحيبًا صادقًا وبلا مجاملات شكلية، وبنبرة تعبّر عن فرح حقيقي غير مصطنع لحضوري فأحسست بأنني أسعد مخلوق على هذه الأرض.

- وأخيرًا اتصلتَ؟

قالت ذلك وهي ترمقني بنظرة آسرة فيها طيبة وخفر ودلال خفي، بينما شعرتُ أنا بالحرج وأدركت غبائي وكبريائي الفارغ لأني ضيّعت ما يقارب الأيام العشرة كي أحظى بمثل هذه اللحظات.

- ظننتك لن تتصلْ..

قالت بعتاب وحرج وكأنها كشفت عن شيء ما كان ينبغي أن تبوح به، فشعرت أنا بالارتباك واكتظّت المشاعر في أعماقي، فقلت باستحياء ونبرةٍ مليئة بفرح مكتوم:

- كنتُ مشغولًا ببحث دراسي أكتبه، فأنا في السنة الأخيرة.

ابتسمت وكأن ما قلته أخرجها من لحظة الحرج التي كانت فيها وسألتني:

- وفي أية كلية تدرس..؟

- الآداب.. قسم اللغات الأجنبية.

أجبت بسرعة فابتسمتْ لي ورفعت حاجبيها إعجابًا وقالت بحفاوة:

- قسم اللغات الأجنبية..! جميل جدًا.. وأية لغة تدرس..؟

- الإسبانية..!

- الإسبانية.. خيِّل إليّ حين قلت اللغات بأنك تدرس الإنكليزية، فقد رأيت بيدك كتابًا للشاعر الإنكليزي ت. إس. إليوت.

وجدتُ الحديث في الأدب مجالًا حيويًا يذهب عنّا الارتباك الأولي ويجعلنا أكثر انسجامًا، فقلت:

- لا.. إليوت كما قلت لكِ حينها من شعرائي المفضلين، لكن وكما أذكر إنك قلت لي حينها بأنك قرأته أيضًا وكان من المفضلين لديكِ، كما قرأت شكسبير وفلوبير ولورنس..!

- نعم.. صحيح..إنك تتذكر كل ما قلته في ذلك الصباح.. نعم.. لقد قرأتهم أيام دراستي الجامعية..

في تلك اللحظات توقفتْ عن مواصلة الكلام، وانتبهتُ إلى أنها وجّهت نظرها لمدخل الصالون فحانت مني التفاتة لا إرادية فرأيت مساعدة المنزل تحمل صينيةً، لكن قبل أن تضع الصينية على الطاولة جاءت الطفلة الصغيرة نحو أمها التي احتضنتها بحنان.

وضعتْ مساعدة المنزل الصينية على الطاولة الزجاجية المستطيلة أمامنا، بينما قبّلت الأم ابنتها، فحاولتُ أن أكون لطيفًا، فسألت الطفلة:

- ما اسمك أيتها الأميرة الصغيرة؟

استحت الطفلة أن تجيب فاحتضنت أمها وأخفت رأسها في صدرها، بينما أخذتْ الأم تحثها على الإجابة:

- قولي للأستاذ اسمك.. هيا يا حبيبتي..

نظرت الطفلة إليّ لثوان وبرقت عيناها وقالت:

- إيفا..

وأخفتْ وجهها ثانية في حِجر أمها، لكنني انتبهت إلى أن الصغيرة على الرغم من أن رأسها في حجر أمها إلّا إنها حرّكت رأسها بطريقة صارت تنظر إليّ من تحت وبالمقلوب تراقبني، ولا أعرف ما الذي شدّني لتلك الصغيرة في تلك اللحظات، إلّا إنني استغربت من اسمها الأوربي أو التوراتي فسألت مستفسرًا :

- إيفا..؟

انتبهت الأم لنبرة الاستغراب في سؤالي وفهمت دافع ذلك فأوضحتْ:

- نعم إيفا.. تيمنًا باسم جدتها أم زوجي..بالمناسبة كان زوجي من دِين آخر ودخل الإسلام حبًّا بي كي يتزوجني، لكنه أصرّ حين ولدتُ ابنتي أن يسميها باسم أمه. أنت أكيد سمعت باسم زوجي.. أو لأقل باسم معارض سياراته الشهيرة «شركة الدلاّل لاستيراد السيارات»..

ارتبكتُ لحظتها إذ أدركت أنني في بيت المليونير الشهير وأجالس زوجته، فقلت متداركًا الأمر:

- أنا أجلس، عادة، في مقهى مقابل شركة تحمل اسم «الدلاّل لاستيراد كافة الأجهزة الطبية والمكائن»، وليس معرضًا للسيارات.

- تلك الشركة له أيضًا. ردّتْ من دون اهتمام أو تبجح.

أحسستُ بجفاف في حلقي من تواتر هذه المعلومات. خلال هذه الأثناء كانت مساعدة المنزل قد صبّت الشاي في أكواب البورسلان الأنيقة ووضعتْ قطعًا من الكيك وتشكيلة من الحلوى والبقلاوة في صحن آخر، ثم نظرتْ للسيدة وسألت بأدب:

- هل تأمرين بشيء آخر سيدتي؟

نظرتْ السيدة لها بامتنان وقالت لها:

- لا.. شكرًا.. فقط خذي إيفا إلى غرفتها واستعدي لمجيء الضيوف.

- أمرك سيدتي.. كالعادة كل شيء جاهز..سيكون العشاء جاهزًا الساعة الثامنة.

في تلك اللحظة تشبثت الطفلة وطوّقت حضن أمها وهي تقول بدلال طفولي:

- لا أريد الذهاب معها..أريد أن أبقى معك..

ارتسمت ملامح الاستغراب على وجه الأم وقالت:

- تريدين البقاء معي؟ هذه أول مرة تفعلين ذلك..طيب.. نت ترين ياملاكي بأنني لست وحدي.. عندي ضيف وسيأتي ضيوف آخرون..اليوم هو الخميس..حين يذهب الضيوف سآتي إليك وسأقضي الليل معك... اتفقنا.

ومن دون أن تجيب أرخت الطفلة ذراعيها عن حضن أمها باستسلام فأخذتها

مساعدة المنزل من كفها وذهبت بها مغادرة الصالة، لكن الطفلة كانت قد استدارت بكامل جسدها نحونا بينما هي تمشي مع مساعدة البيت وركّزت نظرها فيّ.

ومع أني شعرت بمحبة حقيقة نحوها إلا إنني تذكرت قصة انتوان تشيخوف عن السيدة صاحبة الكلب وكيف قام البطل بمداعبة الكلب من أجل الوصول إلى السيدة، فابتسمتُ للطفلة بل ورفعتُ كفي مودعًا وقلت لها:

- باي..

فابتسمت الصغيرة لي ببراءة وفرح ورفعت يدها في إشارة جوابية، ثم فجأة سحبت كفّها من كف المساعدة وركضت إلى غرفتها وهي تضحك بفرح. نظرت حوّاء الدلاّل إليّ بحنان وطيبة وقالت:

- غريبون هم الأطفال.. يبدو إنها أحبتك..فهي لا تطيق الضيوف أبدًا، بل بعض صديقاتي في الملتقى يذهبون إلى غرفتها حاملين لها الهدايا والحلويات بينما هي لا تطيق وجودهم. هذه أول مرة تود البقاء معي بحضور ضيف، بل وردّتْ على تحيتك.

في أعماقي مدحتُ تصرفي وشكرت تشيخوف على عمقه في فهم البشر، وقلت معلقًا على كلامها:

- هي طفلة بريئة.

أتذكر الآن أنها بعد ذلك استدارت نحوي وقالت بمودة وبجدية واضحة:

- حدّثني عنك..مَن أنت؟ أريد أن أعرفك.. فقد أثارتني إجابتك ذلك اليوم عن ذلك الكاتب الذي نعتبره في جلساتنا عبقريًا فذًا..لكن قبل أن نتحدث عن الكتب وقراءاتك أحب أن أعرفك.. حدثني عن نفسك، حياتك، عائلتك، طفولتك. أريد ببساطة أن أعرفك، ولا تنسَ بأنني سأقدّمك للبقية في الملتقى فيجدر بي أن أعرفك..أليس كذلك؟ أم تُرى يضايقك ذلك؟

وقبل أن أحدثها بشيء انحنت وهي تضع كوب الشاي أمامي وصحنًا فيه بعض الفطائر والحلويات، كما وضعت كوب الشاي الخاص بها أيضًا دون فطائر أو حلوى فخمّنت أنها تحافظ على رشاقتها.

ارتشفتُ شيئًا من الشاي وقضمتُ شيئًا من البقلاوة. ومع أن الفطائر كانت شهية لكني لم أواصل الأكل وإنما كنت في تلك اللحظة على استعداد بأن أكشف كل تاريخي أمامها، وهذا ما حدث، فقد حدّثتها عن كل شيء تقريبًا، بما في ذلك نشاطي السياسي الذي كنت قد تركته لأني اكتشفت أن بعض الثوار مزيفون، فهم في الحقيقة يطمحون للإطاحة بأناس يسعون هم لتبوء مكانهم.

بل وحدّثتها حتى عن شكوكي في أمي وأبي بسبب لون البشرة، وكنتُ كلما توغلت في الحديث عن نفسي ألمح استرخاءً نفسيًا ينعكس في نظراتها وملامح وجهها، وأحسستُ أنها بحكم خبرتها وغريزتها الأنثوية قد أزاحت حواجز نفسية معينة كانت في أعماقها نحوي، وأنها حسمتْ مع نفسها موقفًا نحوي، وأنه آن الأوان كي تحدّثني عن نفسها بوضوح وبساطة وثقة.

فجأة تحركت وكأنها تريد إنهاء الكلام، فقامت. كنت مندهشًا، لم أفهم لحظتها تلك الحركة، لكنها لم تنتبه لدهشتي، فقد ذهبت إلى المطبخ، وبعد دقائق عادت وهي تحمل صينية كريستالية مليئة بالفواكه، وفيها صحنان ومديتان صغيرتان، ووضعتها على الطاولة، وقامت بنفسها بوضع الصحن والمدية أمامي، ثم جلست على مقعدها القريب مني ودَعَتني لتناول الفاكهة، لكنني مدّدت يدي إلى عنقود صغير من العنب الأسود ووضعته في صحني، بينما أخذت هي تفاحة وقطّعتها، بل ووضعت بعض شرائح التفاح في صحني، ثم نظرت إليّ مع ابتسامة ودودة وقالت:

- من المؤكد إنك في شوق لتعرفني أيضًا..! والحقيقة أنا لست ممن يجيدون الحديث عن أنفسهم، بل أميل لمعرفة ذاتي من خلال بوح الآخرين، ومن خلال الروايات، فالغالب إنني أميل إلى الصمت والإنصات.

فقاطعتها مبتسمًا:

- ربما تخافين من أن يُساء فهمك، أو أنك من النوع الذي يميل إلى الغموض..

نظرتْ إليّ نظرة خاطفة ثم قالت:

- لا.. أنا واضحة مع نفسي أكثر مما ينبغي.. مثل هاملت..

اعجبتني إجابتها فقلت لا إراديًا بطريقة مرحة وبنبرة مزاح وكأنني أعرفها جيدًا:

- واو.. إنك في الشمس أكثر مما ينبغي إذن؟

ابتسمتْ، ويبدو إنها انتبهت لإشارتي إلى حوار الملك مع هاملت حين يسأله عن غيوم الكآبة المُخَيمة عليه، فكانت إجابة هاملت بأنه في الشمس أكثر مما ينبغي، فأعجبتها سرعة بديهتي في التقاط مرجعية كلامها، وقالت لي بنبرة بدتْ لي وكأنها تسعى فعلًا إلى أن أعرفها:

- أنا أعيش مع كائنات ذاكرتي بوضوح.. أروض معاناتي ووحشتي الشرسة.. أنا امرأة ليست ضعيفة أو مسالمة كما أبدو، لكن لا تخف.. أنا لا أهاجم إلا من يريد اقتحام مملكتي من دون رضاي.

فقلت محاولًا أن أدفعها للبوح بهدوء:

- كلٌ منا يواجه نفسه بمراياه الخاصة، بعضنا مراياه مستوية، وبعضنا مراياه محدبة، وهناك من مراياه مقعرة. لكل منا مراياه..

نظَرَت إليّ نظرة متأملة لكن مسالمة ثم قالت:

- اسمعني يا آدم..أنا لم أسألك سوى عن حياتك.. وليس لدي معرفة عن طريقة تفكيرك لأنني لم أسألك عنها، لأني أردت أن أعرف الإنسان فيك..وفعلًا صارت لديّ معرفة من خلال حديثك الصادق عن نفسك وطفولتك وأمك.. وأقولها لك بصراحة..أحببت صراحتك وصدقك وهذا ما طمأنني..أحب أن تكون في عالمي.. في صالوني وبيتي ورفيق أفكاري.. ولكي تكون هكذا عليك أن تعرف بأن في حياتي الكثير من الخطوات الغبية..وبصراحة أقولها، على الرغم من هدوئي فأنا إنسانة قلقة جدًا. أريد ألّا تغضب مني أبدًا ولا تسيء فهمي ولا تتعجل الحكم عليّ.. فلقد عانيت من سوء الفهم كثيرًا.. تعاملْ معي ولا تحكم عليّ بناء على إحساس لديك، بل واجهني بما تحس مهما كان مزعجًا لي، لأنه سيكون ذلك بالنسبة لي أفضل من أن تحكم عليّ بصمت في أعماقك.. شخصيًا أتجنب الأحكام السريعة على الآخرين.. فهل أنت مستعد أن تكون في عالمي؟

- هذا شرف لي.. قلتُ بِوَلَه.

كنتُ غيرَ مصدقٍ ما أسمعه..فهذه السيدة الحلم تريد أن أكون جزءً من عالمها..! كنت أنصتُ لها بِوَلَه وخشوع، ومع كل لحظة تمضي كنت أكتشف جمال شخصيتها. أردت أن أقول لها شيئًا يهدئ مخاوفها إلا أنها أشارت لي بألآ أتحدث وواصلت:

- دعني أكمل حديثي.. قد أبدو لك متهورة ومتسرعة، لكن مع ذلك دعني أطكل حديثي فقريبًا سيأتي الآخرون.. وأمامهم سيكون تعاملنا رسميًا تقليديًا وليس تلقائيًا سلسًا أقرب للحمية كما نحن الآن.. ولا تستاء من هذا.. فأنا أخاف سوء الفهم الذي سيصدر من الآخرين لو ألغينا الحدود بيننا أمامهم.. عمومًا دعني أكمل لتعرف من أنا.

صمتت للحظات ثم واصلت:

- لا تغرنَّك كل هذه الأبهة والهيلمان الذي أعيش في وسطه.. ولا يغرنَّك كل ما سيقال في الجلسة بعد قليل عن الأخلاق والدين وإصلاح المجتمع والفضائل والحشمة، وكل الحديث عن الأدب والجمال والفن الراقي والأفكار الأنيقة والمتميزة والذكية. مع أني متأكدة من أنك ستكتشف بنفسك كرنفال الأقنعة. الكل سيسعى للكلام الجميل المليء بالمعاني الأخلاقية، لكن انتبه عند استراحة العشاء، حينها ستكتشف كيف تخلع الأقنعة وتوضع على الكراسي جانبًا، وكيف أن المجتمعين سيكشفون عن وجوههم الحقيقة، حيث النمائم والدسائس والفخفخة الفارغة والغيبة والحقد والغِل المبطن بالسخرية. أريدك أن تعرف ذلك، بل وسأساعدك في اختصار الوقت.. الحقيقة لا أعرف لماذا أريد ذلك لكني ارتحت لك لأنك تشبهني حينما كنت بعمرك.. كما عمرك..؟

ارتبكت قليلًا وقلت بهدوء:

- ٢٣ عامًا..

ابتسمت لي بحنان وقالت:

- وأنا في الثالثة والثلاثين.. بيننا عشر سنوات.. أتعرف أنا أردت دراسة الفلسفة في الجامعة لكن لا أدري كيف تم فرزي لدراسة الإدارة والاقتصاد، قسم المحاسبة..

كنت أقرأ بنهم.. أردت أن أكون فيلسوفة زماني أو كاتبة مهمة.. أردت أن أكون مثل جورج صاند أو أميل برونتي أو جين أوستن أو حتى سيمون دي بوفوار.. حاولت أن أكون هيبية.. بوهيمية لكن ثمة شيء ما في داخلي كان يقبض على روحي ويسخر من كل محاولاتي. أردت أن أكون متحررة لكني لم أستطع اتخاذ أية خطوة للتحرر. لست جبانة أو مترددة. أبدًا، لكني اكتشفت بأنني معقدة، وأنني أبحث عن شيء مجهول.. توجهي للدين لم يكن عن قناعة، بل يمكن القول عن قناعة ولا قناعة.. لا تستغرب.. لولا زواجي وولادة ابنتي إيفا لربما كنت قد انتحرتْ أو ضعت.. بل إلى الآن لديّ الرغبة في أن اعتزل العالم في قرية نائية في الهند أو في التبيت حيث لا يعرفني أحد، وأعيش حياتي هناك.. لكن ربما هذه كلها رغبات وأماني شاعرية ورومانسية لأنني ربما لا أستطيع العيش خارج هذه الأبهة والهليمان الذي أعيش فيه الآن.!؟ وأن كل هذه الأفكار والتمنيات بالعزلة ما هي إلاّ تعبير عن خواء حياتي؟!.

أردت أن أقول لها شيئًا مواسيًا لكنها لم تمنحني الفرصة إذ واصلت:

- ستخبرني برأيك فيما بعد.. دعني أتحدث.. فشجاعتك وصدقك في البوح لي عن نفسك يدفعني إلى أن أبوح بما لم أبح به لأحد.. اسمعني.. هل تعرف معنى أن يجد المرء نفسه، فجأة، وحيدًا في هذه الحياة..؟ وحين أقول «فجأة، ووحيدًا» فأنا هنا أتحدث بالشكل الواقعي وليس المجازي، لقد فقدتُ عائلتي كلها، أمي وأبي وأخي وأختي، حينما كانوا في سيارتهم متجهين لمدينة أخرى لاتمام خطوبة أخي من زميلة له في الجامعة.. وحدث أن اصطدمت سيارتهم مع شحانة كبيرة مسرعة فهرستهم هرسًا وهم داخل السيارة.. أبي كان ضابطًا في الشرطة وأمي معلمة في المدارس الابتدائية، أختي كانت مخطوبة، وأخي كان ينوي الخطوبة... أبي كان رجلًا شديدًا معنا.. ربما من غير اللائق أن أقول إنني لم أتاثر كثيرًا لموته، لكني كنت مدللة أمي وموضع حنانها الذي افتقده. أختي كانت مرشدتي وأمي الثانية وأخي كان صديقي. وهكذا وجدت نفسي أفقد عائلتي وأحبتي وأصدقائي بلمح البصر، ولولا زوجي، الذي كان في حينها مديري في العمل، حيث كنت أعمل في شركته مديرة لمكتبه ومدققة لحساباته، ووقوفه إلى جانبي لكنت الآن لا أعرف أين مصيري..! خطيب أختي كان هو السبب في زواجي..

فمشكلتي كانت مع خطيب أختي الذي كان يلح عليّ بشكل مقيت كي أتزوجه بعد موت أختي، وقد رفضته ليس لعيب فيه، لكني رفضت فكرة الوراثة، فأنا لست سلعة يورثني بعد موت أختي.. إلحاحه المقيت من جهة، ولطف آدم من جهة أخرى، بالمناسبة زوجي اسمه آدم أيضًا، دفعني لقبول هذا الزواج- الصفقة من مديري. ويبدو أنني كنت أهرب من الوضع الذي وجدت نفسي فيه. لا أنكر إن زوجي أحبني جدًا، لكني اكتشفت إن جسدي وأنوثتي هما ما وفّرا لي مثل هذا الزواج الناجح بكل المقايس إلا مقاييسي طبعًا. بالمناسبة.

لقد أخبرتك أنني شرسة ولم أكن إنسانة وديعة، فالوداعة إحساس وسلام داخلي، فكيف تكون وديعًا وأنت تفتقد للسلام الداخلي.!؟ كيف تكون وديعًا وأنت تفقد عائلتك وأحبّتك القريبين في لحظة خاطفة وبشكل بشع ومأساوي.!؟ أتعرف يا آدم.. حوارى مع ذاتى بدأ فى الخامسة من عمرى. وأذكر أن أسئلتى الوجودية عن الله بدأت منذ صغري، ولم أكن أجرؤ على البوح بها حتى لأمي.. فقد كانت إجاباتها جاهزة.. بأن أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، إذ لا يجوز التفكير فى الذات الإلهية.. أتذكر إلى الآن حين كانت أمى وهي تلبسني ملابسي المدرسية صباحًا وهى تغنى لي بينما أنا هائمة فى التفكير بالسؤال: إذا ما كان الله قد خلقنا فمن ياتُرى قد خلق الله؟. أتعرف.. ربما هذه الأسئلة المبكرة خلقت في أعماقي ظمئًا روحانيًا لم أجد تجسيدًا له إلا من خلال الدين..! لكني من جانب آخر وجدت الدين مجموعة من الطقوس البغيضة البلهاء التي لا أجد لها منطقًا سوى السعي للتمايز عن طقوس الأديان الأخرى.

ففي مِلّتي واعتقادي أننا كلنا في النهاية نتوجه للخالق نفسه. الله واحد والطرق مختلفة بعدد البشر.. يعني هناك ٧ مليار شخص على الأرض وهذا يعني ٧ مليار طريق إلى الله، بل إن كل ما ينبض بالحياة على سطح هذا الكوكب يتوجه إلى الله أيضًا.. الحيوانات والنباتات.. مليارات المليارات من الطرق كلها تتجه إلى الخالق..! ربما أنا مجنونة..! بالمناسبة.. لم تكن لي في حياتي أية تجارب حميمة.. لم يلمسنى رجل غير زوجي. زميلاتي كن يتهمنني بالبرود لكني أعرف نفسي جيدًا بأنني لست كذلك.. كنا أحيانا أنا وزميلاتي المقربات جدًا نلعب لعبة الخيال. كل واحدة

منا تسرد مشهدًا خياليًا حميمًا مع رجل افتراضي، ومع ذلك وبشهادتهن كانت مشاهدي هي الأشهى والمثيرة لهن جميعًا.. كنت أكبت رغبات جسدي، لا سيما حينما كنت أرى رغبة الرجال فيّ.. لكني عقدتُ مع نفسي اتفاقًا صارمًا.. لى، لأناي الواعية السلوك المحافظ البارد، ولنفسي الغامضة الخيال والإحساس الجامح..!

صدقني لا أعرف من أين أتى تحفظي في العلاقة مع الرجل، فقد كنت أرفض إقامة أية علاقة خارج إطار الشرع والزواج الذي أنا في الحقيقة غير معنية به أصلاً ولا أقيم له اعتبارًا.. كنت أشعر بالراحة في الشكل المقبول اجتماعيًا.. كنت أحلم بالزواج من رجل أحبه واتقبل ضعفه البشرى وأتعرى أمامه نفسيًا وجسديًا.. رجل أدلعه ويدلعني كما يقال.. لكني لم أحقق ذلك.. تزوجت هربًا من إلحاح شخص يذكرني بموت أختي، ويريد أن يرثني كأية سلعة، لذا قبلت الزواج من رجل احترمه، وقبلت به لا لأني أحبّه وإنما لأنه هو يحبني، بل ترك ديانته من أجل أن يتزوجني.

أنا التي تجلس أمامك الآن وتقول لك أشياء ما فكرتْ يومًا أن تقولها لشخص وفي أول لقاء، أقول على الرغم من ملامحي الرومانسية وسلوكي الارستقراطي فأنا نمرة، بل إحدى صديقاتي المقربّات والتي ستأتي بعد قليل وصفتني بالضبع.. شاعرية وصوفية في مفرداتي لكن في أعماقي رغبات متوحشة في قاع القاع لو خرجت لخربّت الدنيا.. ومع ذلك أشعر بالحرية لأني أعيش متعة الإشتهاء التي أراها في عيون الرجال.. حتى حين نخرج عائليًا لنتعشى في أحد المطاعم الراقية أو حين يعّد زوجي حفل عشاء لشركاء ومستثمرين أجانب أجد نفسي استمتع بالنظر للعيون الشبقة التي تكاد تلتهمني بشكل سري وخلسة.

أحيانا أخاف من نفسي.. لا أمزح في هذا.. لأني أعرف نفسي.. لذا انتبهت لنفسي بأنني لو بقيت سيدة هذا القصر، لا شغل لي ولا اهتمامات تلهيني سوى تربية ابنتي الصغيرة التي حدود مشاغلها محدود، فأنني ربما سأمرق وأتمرد وأسيء لنفسي ولزوجي، ومن هنا وجدت في الدين ملاذًا يهدئ نفسي ومخاوفي ويصد رغباتي. ووجدت في العمل الخيري والانشغال بهذا الصالون الثقافي أسبوعيًا ما يمتص وقت فراغي.. لا أدري إن كنت مؤمنة حقًا بما أقوم به، لأنني ومنذ أربع سنوات بدأت بهذا الصالون والملتقى الأسبوعي، بل إن زوجات بعض الأثرياء ثارت غيرتهن فأسسن بدورهن صالونات أسبوعية أيضًا.

توقفت عن الكلام للحظات. نظرت إليّ بحنان وصداقة، كنت منبهرًا بطريقة سردها وتقديمها لنفسها، وودت لو قبّلت يدها، مثلما فعل جوليان وسريل حيت التقى مدام دي رينال لأول مرة في رواية „الأحمر والأسود" لستندال، لكن وقبل أن أفتح فمي لأقول شيئًا قالت:

- أعرف إنك تريد أن تتحدث..لكني لا أريدك الآن أن تقول رأيا سريعًا.. بالمناسبة..(ابتسمت وقالت بنبرة مازحة). أتوقع إنك ستكون نجم ملتقانا الأسبوعي، فستتهافت النساء عليك..لديّ شبه يقين واحدة منهن أعرفها ستغرم بك، كما إني على يقين بأن الجميع سيصدمونك بأفكارهم التقليدية المحافظة وسلوكهم المنافق..

في تلك اللحظة بالذات فوجئنا بإيفا الصغيرة تركض من غرفتها نحونا ففتحت الأم ذراعيها لتحتضنها مع ابتسامة عريضة وهي تقول لها:

- ماذا تريدين يا ملاكي الصغير..؟ أن تكوني معنا؟

هزّت الصغيرة رأسها وهي تنظر إلى أمها ثم إليّ ببراءة. أجلست الأم الطفلة إيفا على ركبتيها ثم نظرت إليّ مبتسمة وأحنت رأسها نحو طفلتها وقالت لها بهدوء وحنان:

- طيب..ستكونين معنا كما ترين نحن نتحدث..لكن يمكنك أن تجلسي كأية فتاة عاقلة في حضني إلى أن يأتي الضيوف فتذهبين إلى غرفتك.. اتفقنا.

هزّت الطفلة رأسها موافقة وهي سعيدة سعادة واضحة بحيث أنها أحاطت عنق أمها بذراعيها الناحلين وقبلتها قبلة طويلة على خدها. فرأيتُ أشعة الحب والحنان تتوهج من عينيّ الأم. كان مشهدًا دافئًا ومقدسًا ذكرني بلوحات مادونا والمسيح الطفل، وبالتحديد حضرت في ذهني في تلك اللحظات، وبشكل خاطف، لوحة „مادونا ليتا" لدافنشي و لوحة „مادونا سيستين" لروفائيل. رأيت سمو وقداسة الأمومة، رأيت لمسة الحضور الإلهي في الأمومة.!؟، وشعرت بالحب نحو هذين المخلوقين.. نعم.. الحب الصافي.. والانتماء. أحسستُ أنهما يخصاني، وأنا أخصهما، ونحن الثلاثة صِرنا في دائرة خاصة وغامضة. لكن سرعان ما أفقت على نفسي من هذا الدفق العاطفي الرومانسي الذي اجتاحني وأغرقني فيه، فأين أنا من عالمهما العائلي والاجتماعي؟

في تلك اللحظة واصلت الأم كلامها مع ابنتها قائلة بلطف وبنبرة مليئة بالحنان وممزوجة بشيء من الحزم:

- سنتحدث أنا وأستاذ آدم، وعليك أن تكوني عاقلة ولا تقاطعينا.. اتفقنا يا ملاكي الصغير..!

وفجأة وعلى غير توقع مني ومن أمها قالت الطفلة فجأة:

- هل هو أيضا مثل بابا..؟

بُهِتَ كلانا من جملتها. وعلى الرغم من أنني لم أفهم ماذا تقصد بالضبط لكني شعرت بالغبطة في أنها وضعتني بموضع الأب، ليس لشعور الأبوة نحوها وإنما لوضع الأب في العلاقة مع أمها. انتبهت إلى ارتباك الأم للحظات أيضًا، ولا أدري ما الذي أحسّته أو فكرت فيه لحظتها، لكنها تدارك فسألت ابنتها بلطف:

- كيف مثل بابا ياحبيبتي..؟

- لأن اسمه آدم مثل بابا..!

إذن حُل اللغز. ضحكنا. فضحكت الصغيرة معنا دون أن تفهم لماذا ضحكنا. وقبل أن تجيب الأم قلت للصغيرة:

- كل الرجال أوادم يا حبيبتي الجميلة إيفا.. بابا اسمه آدم.. وأنا اسمي آدم..

ويبدو أنها لم تفهم كلامي إذ ظلت تنظر إليّ ببراءة، ثم قالت:

- هل ستلعب معي مثل بابا؟

وقبل أن أجيبها قالت الأم لابنتها بما يشبه الهمس، لكني فهمت الكلام وكأنه موجه إليّ:

- حبيبتي إيفا.. أستاذ آدم مشغول.. ربما لا يمتلك الوقت كي يلعب معك..

فقاطعتها بمودة وقلت للصغيرة موجها الرسالة إليها أيضًا:

- سألعب معك.. سأجد لك الوقت أيها الملاك الصغير.. بل سيكون وقتي كله لك.. المهم أن يكون ذلك ممكنًا وتجدين أنت الوقت لي..

جملتي الأخيرة كانت واضحة ومباشرة تقريبًا، وقد فهمتها الأم فقالت وهي مرتبكة قليلًا:

- طبعًا ممكن.. ستفرح هي بذلك.. وطبعًا إذا لم يزحم وقتك ويضايقك ذلك..

- أبدًا لا يضايقني ذلك.. على العكس يسعدني..

اطمأنت ملامحها ثم رفعت وجهها إليّ ونظرت في عينيّ وقالت مع ابتسامة فيها الكثير من الكلام:

- انتبه..هي مثل أمها لا تريد شيئًا عابرًا.. إذا بدأت معها فعليك الالتزام فهي ستتعلق بك.. هي مثل أمها لا تعنيها الأشياء العابرة..!

- وأنا أيضًا لا تعنيني الأشياء العابرة، فأنا أبحث عن الراسخ والعميق والأصيل.. كما يبدو أنني قد تعلقت بها أيضًا..!

نظرت إلى ابنتها بفرح واضح وقالت:

- أرأيتِ.. لقد وعدك أستاذ آدم وسيكون معك..

ولا أدري لِمَ تضايقت من لفظ „أستاذ آدم" فأردت أن أزيل ذلك بضربة مغامرة فقلت لها:

- هل لي أن أطلب منك طلبًا صغيرًا.

نظرت إليّ متفاجئة للحظات ثم قالت:

- تفضل..

- أرجو ألاّ تخاطبينني بكلمة أستاذ آدم، وأنما آدم فقط وببساطة..

صمتت للحظات ثم ابتسمت وقالت:

- طيب.. يسعدني ذلك..وأنا حوّاء..لكن أمام الآخرين علينا أن نحتفظ بهذه الحواشي والمقدمات والألقاب كي لا نثير الضوضاء والغبار حولنا..

لم أصدق ما يجري بيننا، فقلت وأنا أنظر إليها نظرة مليئة بالمحبة والعرفان:

- وهو كذلك..

كانت الصغيرة تنقل نظراتها بيننا، ثم قالت فجأة:

- وأنا..؟

- أنت ماذا؟..سألتها أمها وهي تحتضنها وتقبلها مداعبة.

- ألا يلعب معي..

- بلى ياملاكي.. سيلعب معك كثيرًا.. لقد وعدك.

فالتفتت الصغيرة إليّ وسألتني مباشرة:

- أستلعب معي..؟

- طبعًا.. وسأكون معك دائمًا.

- أريدك أن تلعب معي وليس مع ماما..

وضحكنا. ما الذي تقوله هذه الصغيرة بكلماتها البريئة..فهي تحطم الجدران الصخرية بيني وبين أمها والتي لم أحلم أن أخدشها، وها هي تختصر بأسئلتها الكثير من اللقاءات والمشاهد والحوارت كي نصل إلى هذا الوضوح.

حينها ارتبكت الأم فقد كان وقع الجملة علينا أكثر وضوحًا ودلالة، فنظرت إليّ نظرة انتبهت إلى أنها اختلفت الآن عمّا كانت عليه لحظة استقبالي وبداية حديثنا. لقد قطعنا شوطًا كبيرًا ووصلنا إلى ضفة واحدة بفضل براءة الطفلة إيفا. ولكي أحسم الموقف بوضوح للأم أجبت الصغيرة بلهجة طفولية بريئة لكنها موجهة للأم أيضًا:

- سأكون لك دائمًا.. لكن كيف نترك الماما وحدها..؟ سألعب معك وسأكون معها أيضًا.. هل أنت موافقة.!؟

نظرت الصغيرة لي ولأمها ثم احتضنت أمها بقوة وقبل أن تقول شيئًا رنّ الجرس. ولم تمض ثوان حتى جاءت مساعدة المنزل لتعلن وصول السيد والسيدة النّداف. فأنزلت الأم ابنتها من حجرها، وتبدلت ملامحها المنبسطة إلى سيدة القصر الأرستقراطية بشكل خاطف، وطلبت من مساعدة المنزل أن تأخذ الصغيرة إلى غرفتها. وهمست لابنتها قائلة:

- لقد وصل الضيوف حبيبتي.. اذهبي لغرفتك والعبي هناك.

٢

السيد والسيدة النّداف
وأنواع الحب السبعة

احتجّتُ لوقتٍ غير قليل لأستوعب كل ما حصل في ذلك اليوم التاريخي بالنسبة لي. كيف يمكن أن يتم اختزال عمر كامل خلال فترة قصيرة لا تتجاوز الساعة والنصف..؟ نعم..لقد وصلت إلى بيت حوّاء الدلّال في الرابعة والربع، ووصل السيد آدم النّداف وزوجته حواء في السادسة إلا ربعًا. لكن خلال هذه الساعة ونصف الساعة تغيرت حياتي ودخلتُ مرحلة جديدة من عمري.

ما جرى لي ومعي في تلك الأمسية دفعني إلى فهم روايات الكاتب الروسي إيفان تورغينف، التي كنت أسخر من لا واقعيتها مع حبي لشخصياته ولأسلوبه، فأغلب رواياته تجري أحداثها الكبرى خلال ليلة واحدة أو يوم واحد، هكذا هي روايته الشهيرة «الحب الأول» وكذا روايته «فيوض الربيع». نعم..يحدث أن يكون لقاء ما منعطفًا مفاجئًا في حياتنا. ويحدث أن نلتقي شخصًا ما مصادفة فيحتل المكان الأبرز في حياتنا، أكثر من أناس عشنا معهم سنوات طوال وتربطنا بهم أواصر شرعية وعائلية.

نعم هذا ما أحسسته في لقائي مع حوّاء الدلّال وابنتها الرقيقة إيفا. وفعلًا كان ذلك اللقاء وتلك الدعوة وليدة المصادفة وحدها لكنها غيّرت مجرى حياتي بشكل حاسم.

وصل السيد آدم النّداف وزوجته قبل الموعد الرسمي بربع ساعة، وكانت هذه الدقائق الخمس عشرة قبل وصول الآخرين كافية لتشحنني بالغضب الخفي. فقد كان هو رجلًا وسيمًا بشعره الأبيض وأناقته، لكن عطره استفزني، أقْسِم بأن عطره القوي الذي يكشف عن ذوق بدائي قد استفزني بقوة ونفّرني منه بحيث اتخذت منه موقفًا بسبب عطره، هل هذا معقول؟

نعم..لقد استفزني عطره الأقرب إلى المواد الكيماوية التي تسخدم في قتل الحشرات أو أقرب لرائحة الكافور التي تستخدم عند غسل الموتى، حتى إن المكان انتشرت فيه رائحة الكافور النفّادة. ومما زاد من غضبي المكتوم أيضًا هي نظرته المليئة بالرضا عن النفس..!

لا أنكر أن حوّاء الدلّال فرضتني بقوة شخصيتها ومكانتها عليهما، فقد قدمتني بشكل محترم ومهيب أسعدني في البداية لكنها واصلت بأنني كاتب ومترجم عن الإسبانية، حينها انكمشتُ على نفسي، فهي تبالغ، إذا لم أقل تكذب، من أجل أن ترفع من مستواي وتحيطني بإطار من الهيبة الأدبية وكأنها لا تراني من مستوى ضيفيها..! وطبعًا هي وضّحت لي الأمر فيما بعد حين عاتبتها بطريقة غير مباشرة على ذلك وكنت مُستفزًا.

كما في الوقت نفسه قدّمتْ السيد الندّاف لي بإعتباره وكيلًا لبعض شركات السجائر ذات الماركات الأجنبية، فمدّ لي يده ببرود ولا مبالاة تشي باستعلاء مكتوم. أما زوجته فقد كانت امرأة مختلفة. ملامح وجهها، شفتاها وأنفها ونظرتها الغامضة، تكشف عن شخصية حسيّة، تخفي أكثر مما تُظهر، امرأة أكثر بريقًا وأنوثة وشهوانية من حوّاء الدلّال. ولا أدري إن كان ثمة حديث عني دار بينهما قبل ذلك، لأنها أخذت تتفحصني وكأني بضاعة معروضة للبيع.

في تلك اللحظات اجتاحتني مشاعر التمرد التي هي جزء من شخصيتي المتقلبة في تلك المرحلة من عمري. ولم تمضِ سوى دقائق تبادلوا فيها التحايا وجمل اللياقات الاجتماعية، حتى توجه السّيد آدم الندّاف لحوّاء الدلاّل يسألها عن زوجها، فأخبرته بأنه مسافر إلى المدينة الحدودية ليحل مشكلة إدخال مئات السيارات التي تم إيقافها في دائرة الكمارك، فسأل عن الفترة التي تأخرت فيها السيارات فقالت له منذ شهر، فأخذ السيد آدم الندّاف يحسب بلغة الأرقام الغرامات المترتبة على ذلك، ولم يتوقف عند ذلك وإنما أخذ يحسب الارتفاع والانخفاض في سعر العملات منذ وصول السيارات للنقطة الحدودية وارتفاعها الحالي وما ترتب على ذلك من خسارات، فعقّبت هي بأن زوجها يفكر بالطريقة نفسها، إذ يحصل أحيانًا حين يغرق في الحسابات فلا ينام الليالي ويصيبه الأرق

وحينها لا تسعفه حتى الحبوب المنومة، فقال لها السيد آدم الندّاف بنبرة فيها استخفاف مكتوم:

- أنتن النساء لا تفقهن شيئًا في التجارة. تنفقن المال من دون أن تفكرّن كيف يقوم الأزواج بجمعه وتوفيره لكنّ، ولا تحسبن للمال حسابًا.

- لكن المال ليس كل شيء. ردّت حواء الدلاّل.

شعر هو بالإستفزاز لهذه المعارضة التي مسّتْ أهم مبدأ في حياته كما يبدو، فقال بنبرة لم يستطع أن يخفي ما فيها من استياء:

- بلى هو كل شيء..فكل شيء يُشترى بالمال حتى البشر والمناصب والشخصيات تُشترى بالمال.. الناس تحترمك لأن مالك يفرض عليهم الطاعة والاحترام والهيبة.. بالمال يمكنك العلاج في أرقى المستشفيات، وبالمال تشترين الجواهر والحلي، وبالمال تسافرين إلى أجمل البلدان، وتنزلين في أرقى الفنادق، وتأكلين أفضل الطعام. بالمال تشترين حتى الضمائر والمحاكم والقضاة، بل بالمال تؤججين الفوضى، وبالمال تسقطين الثورات والانتفاضات..بالمال تلوثين نزاهة التعليم، ونزاهة هيئات النزاهة، وعزلة الزهاد..فمن أجل المال يشعل البخور وتوقد الشموع وتقام الاحتفالات ومناسبات التعازي حول الأضرحة والمقدسات. هل تعتقدين إن شحنة السيارات التي اشتراها زوجك ستدخل البلاد وفق القانون..لو كان القانون يسري لما أوقفوها عند الحدود..شخصيًا أدفع للموظفين والمسؤولين هناك وأدخلها بكل هدوء كما أدخلت أطنان الملح الفاسد في العام المنصرم. المال هو الذي يحكم عالمنا. دعك عن كلام العاجزين والحاقدين والشعراء.

كنتُ طوال هذا الحديث صامتًا بل أغلي غضبًا مكتومًا من هؤلاء الناس الذين يعتقدون أنهم يمثلون الفضيلة والقيم الروحية بينما هم لا يؤمنون إلّا بالمال. فجأة وعلى غير توقع مني ومن الآخرين سألتني السيدة حوّاء النداف بنبرة مشجعة، إذ يبدو أنها انتبهت لما أشعر به:

- وأنت أستاذ آدم ماذا تقول في ذلك، لا سيما وأنت بعيد عن هذا العالم الذي يتحدثان عنه..

ارتبكتُ. وانتبهتُ إلى أن حوّاء الدلاّل ارتبكت أيضًا، بل وكتمت انزعاجًا مفاجئًا، فلم تكن تتوقع أن صديقتها هي التي ستبادر بمحادثتي وزجيّ في النقاش. نظرت إليّ وكأنها تشفق عليّ لأني بعيد عن هذا العالم فعلًا، وربما سأقول شيئًا أهوجًا سيحرجها. لكني وجدت نفسي أقول:

- أعتقد.. إنه لا يليق بنا أن ننظر إلى الحياة من باب الربح والخسارة والحسابات الدقيقة والأرقام فقط، وإنما يجب أن نعيشها بكل تلقائيتها وحرارتها وتوهجها الفريد.

لاحظتُ انزعاج السيد آدم الندّاف الذي كتمه أدبًا، والارتياح الذي ارتسم على وجه حوّاء الدلال التي كانت تنظر إلى وجه ضيفيها مركّزة على وجه صديقتها التي أجابتني:

- هذا صحيح.. لكن الحياة تكون أكثر حرارة وتوهجًا لدى الآخر الذي كان يحسبها بالأرقام وفي كنز المال، بينما لا تبقي لمن يفكر مثلك سوى رماد الذكريات والخيبة أو ما نسميه درس الحياة.. وهذا مؤلم حقًا.

- نعم مؤلم حقًا. علّقتُ مؤكدًا.

انزعج السيد آدم الندّاف من جواب زوجته، فتوجه لي ليقطع الحديث لكنه لم يكن يعرف ماذا يسألني، فقال لي دون أن يكمل سؤاله أو جملته:

- وحضرتك..

صَمَتَ للحظات وكأنه يريد أن يرتب سؤاله أو ما يريد قوله، لكني أجبت على قدر الكلمة التي نطق بها فقلت باستفزاز بارد:

- حضرتي.. تقصدني أنا..؟!

- نعم

- أنا غلطة من غلطات الحياة.

انتبهتُ إلى أن المرأتين ابتسمتا بشكل مكتوم لبعضهما البعض، بيد أن السيد آدم الندّاف كان شخصًا معتدًا بنفسه إلى درجة أنه لا يأبه لكل ما يُقال إلّا الذي يود أن يسمعه هو، بل بدا لي وكأنه من أساتذة ابتلاع الإهانات المباشرة وغير

المباشرة، وهؤلاء الأشخاص عادة ما يكونون قساة ببرودة هائلة، لذا قال لي وكأنه لم يسمع جوابي بل ليؤكد بأنه ما يقوله هو المهم الذي يجب أن يناقش، فقال لي:

- أقصد إنك واهم.. فالحياة كلها مبنية على الحسابات الدقيقة.. وكل مشاكل الناس والمجتمعات أساسها إنها لم تحسب حسابًا دقيقًا بالأرقام.

اجتاحني شعور خبيث في أن أغضبه وأستفزه فقلت ببرود على الرغم من غضبي:

- هذا أيضا وهم.. بل إن الناس يودون العيش في وهم الحقيقة وليس الحقيقة..

كان مجرد عدم الاتفاق معه على رأيه كافيًا لاستفزازه، فقال بنبرة فيها ضيق واضح ونفاد صبر:

- اسمعني استاذ آدم.. أنت تتحدث من الضفة الأخرى للنهر.. لكنك لو عبرت إلى ضفتنا لصرت مثلنا تحسبها بالأرقام الدقيقة. وعندها تدرك معنى الأرقام والحسابات.

- ربما.. كل شيء نسبي.

قلت ذلك بلا مبالاة متجنبًا توترًا غير محمود في تلك اللحظات لو تطور النقاش بيننا، فقد بدا واضحًا أن الكيمياء بيننا متنافرة. لكن كان ثمة سبب آخر أثر فيّ لا إراديًا، إذ انتبهت إلى إنني كالكلب أتشمم رائحة المرأة، فقد وجدتُ أن حوّاء النذّاف تثير غريزتي الكلبية بشكل واضح.

ومن حسن حظي أن بقية الضيوف أخذوا يصلون تباعًا. وفي كل مرة تقدّمني حوّاء الدلاّل بشكل طيب، بل وأخذت حوّاء النذّاف تزيد على تعليقاتها في الاحتفاء بي حتى صرت موضع اهتمام الضيوف كلهم، وهذا ما أربكني، لكن أيضا زاد من حماستي في أن أقصفهم بإندفاعاتي الفوضوية التي تخلخل سكون هؤلاء الأغنياء المتعالين. ومن حسن حظي أن اللقاء كان مكرسًا للحديث عن الحب، وكان على السيدة حوّاء النذّاف أن تقدم ما حضّرته عن الحب وما قيل فيه.

كانت مساعدة المنزل بمعية حوّاء الدلاّل تقدّمان الفواكه والحلوى والفطائر والعصائر للضيوف، ثم جاءت القهوة والشاي، ناهيك أن مساعدة المنزل كانت

بين الحين والآخر تحمل الصحون والملاعق والشواك إلى مائدة في الجهة الأخرى من الصالة استعدادًا للعشاء الذي سيعقب المناقشة.

وهكذا بدأت السيدة حوّاء الندّاف حديثها عن الحب مستشهدة أولًا بآيات من القرآن عن المودة والرحمة بين الرجل والمرأة، ثم بدأت تستشهد بآراء وأقول في الحب وقصص الشعراء وقصائدهم عن الحب، وصولًا إلى جبران والمنفلوطي ونزار قباني. كان حديثها رومانسيًا مدرسيًا تقليديًا فيه الكثير من اللا واقعية والنفاق الأخلاقي لا سيما حينما أخذت تتحدث عن علاقة الرجل والمرأة أو بالتحديد الزوج والزوجة.

حين انتهت من محاضرتها انهالت عليها جمل المديح المبالغ فيه، ثم أخذ الحوار يدور بشكل متسلسل ليعبر كل واحد من الحاضرين عن مفهومه للحب. كلهم قالوا جملًا متقاربة في الجوهر. فقد كان الحب مرتبطًا بالرومانسية والمشاعر وشاعرية الأحاسيس والطيران فوق السحاب والفوفاء والاخلاص حتى الموت.

وحين وصل الدور إلى حوّاء الدلاّل فاجأت الجميع بقولها بأنها تتنازل عن حقها في الكلام وتنتظر مني أن أبدي رأيي؟ فوافقها الجميع ونظروا إليّ بعيون كلها ترقّب وانتظار وفضول.

لا أعرف ما الذي جاء بستندال وروايته „الأحمر والأسود” إلى ذهني، إذ استحضرت في ذهني خلال تلك اللحظات نزق وتمرد جوليان سوريل الذي أحبّه. أحسست برغبة في مشاكسة هؤلاء الأمّعات والدمى الملونة. ومع ذلك شعرت بالإحراج، فقالت لي حوّاء الندّاف مشجعة وعلى وجهها ابتسامة غامضة:

- نحن ننتظرك.. كلنا قلنا رأينا في الحب إلاّكَ.. فما رأيك أنت فيه؟

- الحب فوضى عقلية.. قلت بنبرة متوترة.

- ماذا؟

سمعتُ كلمة „ماذا” تتردد أكثر من مرة، لكني انتبهت إلى أن آدم النّدّاف راقه ما قلته عن الحب، ناسفًا كل هذا الكلام العاطفي الذي قالوه قبل قليل، بينما

فوجئت حوّاء الدلال بجوابي، لكنها ابتسمت حينما رأت ردود الأفعال عند ضيوفها، فأخذتْ زمام المبادرة وقالت:

- طيب.. هذا ينسف كل ما قلناه هنا.. هل يمكن أن توضح لنا ماذا تقصد بالفوضى العقلية..؟

لو كان شخص آخر قد قال ذلك لشاكسته أكثر، لكن حوّاء الدلّال هي التي قالته، فأردت أن أوضح لها هي أكثر مما كان موجها للآخرين، فقلت:

- أقصد إن هناك تعريفات للحب، مرجعيتها علم التحليل النفسي، وهي غير كل هذا الكلام الإنشائي العاطفي الرومانسي، فهو عند البعض المحللين شكل من أشكال الإضطراب العقلي، بل إن بعض الأطباء يعتبرونه نوعًا من المخدِّر، إذ إن الجسم يفرز أصنافًا كثيرة من المواد الكيمياوية عندما يقع الشخص في الحب لأول مرة، وهناك من يعتبر الحب عقلنة للجنس.

حين ذكرت كلمة „الجنس" أحسست بشيء من الارتباك هيمن على الجو، وكأنني قلت شيئًا محرمًا، بينما طأطأت حوّاء النداف رأسها وعلى شفتيها ابتسامة مخاتلة.

لم يعلّق أحد. انتظرت من مضيفتي أن تقول شيئًا مشجعًا، لكنها صمتت، بيد إني وجدت نفسي أسترسل قائلًا:

- ربما أسأتم فهمي..سأوضح وجهة النظر التي قلتها، وهي إن الإنسان كائن بايولوجي، من لحم ودم وأعصاب ومشاعر وأحاسيس. نحن كائنات مبرمجة كيماويًا وبايولوجيًا، وهذا الأمر ليس برغبتنا أبدًا. هكذا وُجِدنا. فمن خلال مملكة الحواس تصل إلى الدماغ إشارات ما، والدماغ من خلال الجهاز العصبي يُرسل إشاراته نحو الموضوع المعني سواء بالتقبل أو النفور.. بل هناك نظرية تدعى «مثلث الحب» تؤكد بأن الحب يتألف من ثلاث مكونات مختلفة مثل مثلث متوازي الأضلاع، وهذه الأضلاع هي: الحميمية، الشغف، والإلتزام.

سرت همهمة بين الحاضرين. كنت اتجنب النظر إلى حوّاء الدلاّل لكني لم استطع ألّا أعرف انطباعها فنظرت إليها بشكل خاطف فرأيت ألقًا يشع من عينيها

وكأنها كانت سعيدة بما قلت. لكن حوّاء الندّاف كانت الأكثر جرأة فسألتني:

- هل لك أن توضح لي..لا أدري إن كان الآخرون يريدون أن يسمعوا منك توضيحًا لهذا المثلث الذي نسمع به لأول مرة.

فأبدى أربعة منهم رغبتهم بجملة تكررت:

- نعم.. نعم. نريد أن تشرح لنا.

لكني وبشكل لم استطع تفسيره في حينها لم أشأ أن أشرح لهم، وإنما كنت منفعلًا في داخلي وأردت أن أبهر هاتين المرأتين لا أكثر، حوّاء الدلّال وحوّاء الندّاف، فقلت:

- الحميمية هي الشعور بالدفء نحو شخص تنجذب نحوه لأسباب مختلفة يطول شرحها هنا ومشاركته أكثر الأفكار والمشاعر والتجارب الشخصية خصوصية، أما الشغف فهو كما يقول علماء التحليل النفسي هو مشاعر جياشة، ساخنة، ولهفة للتوحد مع شخص المحبوب، لكن كل هذا ليس حبّا إذا افتقدنا الإلتزام نحو المحبوب والتمسك به. تلازم أضلاع المثلث هذا تؤكد الحب فإذا افتقدنا أي منها فلا يسمى حبًا حقيقيًا..

- وماذا يُسمى إذن؟ سألتني حوّاء الدلّال.

لم أجب مباشرة وأنما واصلت:

- العلماء يتحدثون عن سبعة أنواع من الحب: الحب الفارغ، الحب الأخرق، حب الإعجاب، الحب الرومانسي، حب الشغف والوله، حب العشرة، والحب الكامل الشامل.

يبدو أن تأثير استعراضي المعرفي عليهم كان صاعقًا إذ هيمن صمت صارخ عليهم قطعته حوّاء الندّاف قائلة بمزاح:

- لا. لا. أنت تتحدث وكأنك شيخ في التسعين..علينا أن نخصص جلسة بل سبع جلسات لأنواع الحب السبعة.. ثم التفتت إلى مضيفتنا وسألتها:

- ماذا تقولين يا حوّاء..؟

ارتبكت حوّاء الدلّال وقالت:

- يمكننا ذلك لكن بعد أن ننهي البرنامج الذي اتفقنا عليه. فأمامنا ثلاث روايات، وتسع مواضيع.

- يمكننا تأجيلها.. علّقت حوّاء النداف.

- لا.لا يمكن. علّق زوجها وهو ينظر متنقلًا بين الوجوه المترددة بين الموافقة والرفض.

ولكي أحسم الموقف حيث انتبهت لعدم رغبة حوّاء الدلّال في ذلك فقلت:

- الحقيقة أنا أعتذر منكم.. فلديّ مشاغل دراسية وترجمات ربما تحيل بيني وبين أن أقوم بمثل هذا الأمر.. فهو يتطلب مني جهدًا وقراءات ومراجع.

أحسست وكأن غمامة من الكآبة الغامضة انزاحت من حول حـوّاء الدلّال فاستعادت توهجها ومرحها ودعت الجميع لأخذ استراحة لتناول العشاء.

وفعلًا انشغل الجميع بالطعام والحديث فيما بينهم عن شؤونهم العائلية والحفلات التي شاركوا فيها وبرامجهم المقبلة. لكني انتبهت إلى حوّاء النّداف وهي تلاحقني بنظراتها الخاصة والمتفحصة، بينما انشغل زوجها مع رجل آخر في الحديث عن القوانين الجديدة في تحويل الأموال عبر البنوك.

٣

خالتي حواء الأبيض... وعشيقتي

البشر يسعون إلى الحب، فهو مشروع حياتهم العميق وحلمهم الأبدي، لكنهم خلال حياتهم وسعيهم وانشغالاتهم وتحفظهم الأخلاقي لا ينتبهون للحب الذي يمر من قربهم، بل وأمامهم، فلا يستجيبون له ولا يلمحونه، لأن أوهامهم عن الحب الكبير تفقدهم البصر والبصيرة أو لأن تحفظاتهم الأخلاقية تقيّدهم فيمضي الحب دون أن يروه أو يتمسكوا به.

ولكن حين يمضي الحب متجهًا إلى اللا مكان، عندها فقط ينتبه هؤلاء وبشكل متأخر لما فاتهم، فيتفجّر الحنين في أعماقهم ويتحسرون على الحب الضائع، ولا يبقى من أوهام الحب التي كانت تتوهج في أعماقهم سوى حنين حزين هادئ ورغبة مدفونة ومتقدة تحت ركام من الرماد. وكانت حوّاء الدلاّل واحدة من هؤلاء.

هناك نساء يعشقن بجنون لكنهن لا يعين بأنهن عاشقات، بل يرفضن لفظ الحب والعشق وكأن هذا اللفظ تهمة سيئة السمعة يخشين أن يرتبط بهن، بل إن بعضهن على الرغم من دفق مشاعرهن القوي يرفضن منح هذه المشاعر إسمًا، فلا هي صداقة لأنهن يعرفن أن هذه المشاعر ليست مشاعر صداقة، ويخشين اطلاق اسم الحب عليها لأنهن يخفن الحب فهو تهمة أخلاقية، لذا يبقين في تلك المنطقة المعتمة ما بين منطقتين مضيئتين. وكانت حوّاء الدلاّل واحدة منهن.

وهناك نساء عاشقات، ويدركن أنهن عاشقات، ويحببن دورهن كعاشقات، لكن تحفظهن الأخلاقي والديني، وقيودهن النفسية وعقدهن الكامنة أقوى من مشاعر التمرد، فيقضين العمر يدورن في فلك كوكب الحب، فلا هن يقتربن منه، ولا يستطعن الفكاك من مدار جاذبيته، وكانت حوّاء الدلاّل واحدة منهن أيضًا.

هكذا كانت علاقتي مع حوّاء الدلاّل. ففي تلك الليلة اتصلت بي في وقت متأخر.

واعتذرت أولًا لاتصالها في مثل هذا الوقت، واعترفت أنها كانت مترددة في الاتصال، لكنها مع علمها بتأخر الوقت لم تستطع أن تقاوم نفسها أكثر فاتصلت.

رحّبتُ باتصالها وأبديت لها سعادتي به وانتظاري له لأعرف انطباعها عما جرى في الأمسية، فتحدثتْ بحفاوةٍ وحب، واعترفتْ أنها سعيدة جدًا لأنها تعرفّت عليّ، وأنها تشعر بأن ضوءً باهرًا دخل حياتها، وهي تشعر الآن أنها ليست وحيد..!

كنت منذهلًا من اعترافها، وكنت على وشك أن اندلق لأعبّر لها عن حبي ومشاعري، لكنها لم تمنحني الفرصة، بل أخذت تتحدث عن حوّاء الندّاف، وكيف أنها تشعر بأن تلك السيدة قد تعلّقت بي. لكن الغريب أنها كانت تتحدث عنها بكل تعاطف ومودة وبلا أي ظِل من الغيرة، بل وأخذت تروي لي تفاصيل عن جوانب من حياتها، فهي صديقتها المقربة، وأنها امرأة جريئة لكنها تعيسة، ومع جرأتها إلا أنها لا تخون زوجها.

كلما كنتُ أحاول الرجوع بالحديث إليها وعنها وإلى علاقتنا كانت تقاطعني لتواصل حديثها عن صديقتها حوّاء الندّاف وإعجابها بي، وبطريقة غير مباشرة كانت تحرضني على أن أتواصل معها، بل وفهمت بحاستي الذكورية بأنها تسعى لأقيم علاقة مع صديقتها وأصير عشيقًا لها..! لاسيما وأنا كنت منتبها لتفحص صديقتها لي وكأنني سلعة عليها اقتنائها.

كنت منذهلًا منها، إذ كيف، وهي لا تتردد من كشف مشاعرها نحوي ومركزيتي في عالمها، بينما تدعوني كي أكون عشيقًا لصديقتها. وأيقنت أنها بين أمرين، فإما هي ساذجة ولا تعي طبيعة مشاعرها نحوي، وإما أنها تدرك كل ذلك لكن تحفظها الأخلاقي يدفعها إلى تجنب العلاقة المباشرة والتعويض عنها افتراضيًا من خلال علاقتي بصديقتها والتي ستكون بتخطيط منها وبدرايتها، أي نوع من جلد الذات والشعور بالتضحية من أجل الصداقة..!

ومرّت الأيام والأسابيع. كانت تتصل بي صباحًا لتلقي عليّ تحية الصباح. وتتصل بي ظهرًا لتسألني إن كنت تناولتُ وجبة الغداء، وتتصل مساء لتسألني عما تناولته في العشاء، أما بعد منتصف الليل فكانت تتصل بي لنتحدث عن أنفسنا،

وعن حياتها مع زوجها وعن ابنتها التي لا تنساني وكأني صرت الإنسان الوحيد في حياتها، حتى إنها قالت لي، وهي تضحك ببراءة، بأنها صارت تغار مِن طفلتها لأنها متعلقة بي وكأنها تزاحمها..!

ومع ذلك كانت لا تنسى مواصلة حثها لي على التواصل مع صديقتها حوّاء الندّاف، وأعطتني رقمها وطلبت مني الاتصال بها وإلقاء التحية، لكني لم أفعل، إلى أن وصل بي الحد أن اعترفت لها بكل جرأة وقلت لها بأنني أحبها هي، وأنني مكتف بها، وأزهد عن النساء لأنها موجودة في حياتي، فتقبّلت اعترافي بحب وتلقائية وردّت علي بأنها تحبني أيضًا، وأنني حبيبها وسأبقى حبيبها إلى الأبد، لكنها لا تستطيع أن تسعدني جسديًا لذلك تريد أن أكون مع صديقتها لأنها ستسعدني جسديًا من ناحية، ولأنها هي ستكون على بيّنة بكل تفاصيل العلاقة، مما يوفر عليها مشاعر الغيرة لأن كل شيء يتم بإرادتها.

أنا رجل متأجج الشهوة. كنت مغامِرًا محظوظًا في علاقاتي، لا سيما مع النساء المتزوجات، ومع أني في بدايات العشرين من العمر لكن معظم تجاربي الجنسية كانت مع نساء ناضجات في منتصف الثلاثينات أو في الأربعين بل وحتى في الخمسين. بيد أنني ومنذ تعرفي وارتباطي بحوّاء الدلّال زهدت ببقية النساء ولم أقم علاقة مع أية امرأة، بل حتى العشيقات السابقات ابتعدت عنهن، فقد كنت أشعر بأنني أخونها إذا ما ذهبت مع امرأة أخرى.

بقيتُ أفكر لأيام وأسابيع بهذه العاشقة الغريبة الأطوار، وفكّرت مع نفسي بأن هناك بعض النساء الفاضلات العفيفات اللواتي تكتظ أعماقهن بالمشاعر والرغبات المكبوتة لعلاقات حميمة، وأن عدم انزلاقهن نحو وادي الرغبة الجارف لا يعود لقدرتهن وقوتهن وعفتهن بقدر ما يعود إلى تحفظ عشاقهن وترددهم في اتخاذ الخطوة الأولى، لأن أمثال هاتيك النساء لا ولن يتخذن الخطوة الأولى أبدًا، وهن يعتمدن على أحلام اليقظة التي يجدن فيها إشباعًا كافيًا يقيهن مزالق العلاقات الواقعية.

وقررتُ مع نفسي بعد ثلاثة أشهر من هذا التعلق المحموم بيننا أن اقتحمها

عنوة وأمتلكها هي، وأحسم كل هذا التردد والتعويض النفسي من خلال حديثها المطول يوميًا عن صديقتها، والذي يخفي بشكل غير مباشر رغبتها في هذه العلاقة المحرمة. وكان ذلك يوم تخرجي.

ربما من باب الأمانة عليّ أن أذكر بأنها خلال هذه الأشهر قد أغرقتني بكرمها وفيض محبتها، فقد أهدتني الألبسة الأنيقة الراقية، كما أهدتني ساعة غالية الثمن، مثلما أهدتني كتبًا، بل مجاميع المؤلفات الكاملة لعدد من الكتاب الذين ما إن انطق برغبتي في الحصول على مؤلفاتهم حتى تطلبها من المكتبات وأحيانًا من خارج البلاد لتوفرها لي بمحبة.

لكن كل ذلك كان يجري بسرية تامة، فعلى الرغم من أنه لم يحدث بيننا ما يوصم بخيانة زوجية، كما أنها كانت تنأى بكل ما تستطيع أن تمس علاقتها بزوجها، فقد كانت تتصل بي وكأنها لي أنا وحدي وليس في عالمها أحد، بل كانت إذا ما اضطرت للحديث عن زوجها فإنها تتحدث عنه باحترام شديد وبمودة، مع شعور بالذنب لأنها تتصل بي من وراء ظهره.

وحتى عندما كانت تدعوني إليها خارج جلسات الخميس، وكان ذلك يحدث أحيانًا، مرتان في الشهر، كانت تحرص على ألّا تكون المساعدة في البيت ومتأكدة من سفر زوجها. لكن زياراتي لها خارج الجلسات كانت غير منتظمة، فأحيانا تفاجئني بأن أزورها لأن زوجها سافر فجأة، بل إنها، وبعد أن استقرت علاقتنا واتضحت، اقترحت عليّ ألّا أدوام حضوري على جلسة الخميس. والحقيقة لم تكن لديّ الرغبة بحضور تلك الجلسات. لكن يوم التخرج دعتني لبيتها. وكنت قد قررتُ مع نفسي أن اقتحم جسدها مهما كانت النتائج.

حين وصلتُ بيتها وضغطت على الجرس انتظرت أن تظهر الصغيرة ومساعدة المنزل، لكن لا أحد فتح لي وبدا كأن البيت مهجور أو على الأقل لا أحد فيه.

اتصلتُ برقمها فكان هاتفها مغلقًا. بقيتُ أضغط على الجرس الخارجي عند البوابة، لكن لم يفتح لي أحد. ظننت ثمة عطل كهربائي، فأخذت أضرب على البوابة بيدي. وبعد لحظات فُتح باب البيت وأطلّت منه امرأة كبيرة في السن. نظرت إليّ ثم

نزلت الدرجات القليلة وجاءت لتفتح لي الباب. وحين وصلتني لم تفتح الباب وإنما وقفت في الجهة المقابلة وسألتني:

- ماذا تريد يا بُني..؟

- أنا آدم بهاء الدين. جئت للقاء السيدة حوّاء الدلّال..!

نظرت المرأة المسنّة إليّ باستغراب حقيقي وغير مصطنع وسألت ببراءة:

- مَن تريد أن تلتقي..؟

- السيدة حوّاء الدلّال..

- لا أحد هنا يابُني بهذا الاسم..! أجابت بتلقائية وببساطة.

صُدمت. تراجعت للوراء بضع خطوات لأتأكد من أنني عند الباب الصحيح، فأيقنت أنني لم أخطئ، فرجعت قرب البوابة وقلت لها:

- كيف لا أحد هنا بهذا الاسم..؟ أنا جئت لزيارتها وحضرت جلسات الخميس الثقافية..وأنا متأكد من العنوان والبوابة والبيت..!

- اسمع مني.. لا أحد هنا بهذا الاسم..ربما أنت مشتبه..! قالت بنبرة حازمة.

لم أجد ما أقول. نظرت للمرأة العجوز وقلت باستسلام:

- ربما.. لكن لحظة، سأثبت لكِ بأنني كنت هنا.. هل أنت صاحبة المنزل..؟

- نعم..

- سأخبرك بما في المنزل وتفاصيله لتتأكدي من كلامي.

ظلت المرأة مستغربة من إصراري وتشبثي بموقفي، ولكي لا أترك حجة للرفض واصلت كلامي:

- أول ما تدخلين إلى المنزل ستواجهك باحة صغيرة وفيها خزانة للأحذية وتؤدي إلى باب صغير.. وما إن تدخلي حتى تواجهك باحة البيت وهي مقسمة إلى قسمين على جهة اليسار باب يفتح على مطبخ كبير ومؤثث بطاولة كبيرة وكراسي،

وإلى جانبه غرفة المكتب الواسعة التي تشبه الصالون أو المكتبة المنزلية الكبيرة، وإلى مقربة منها درج يصعد إلى الطابق الأعلى حيث غرف النوم الأربعة والضيوف، وعلى جهة اليمين صالون واسع وكبير ومؤثث بأجود الأثاث الأيطالي المجند بالقديفة الزرقاء. وفي عمق الصالون ثمة طاولة من خشب الخيزران المطلية بمادة تجعلها لامعة كالمرمر وحولها ٢٤ كرسيًا بنقوش مذهبة. هل صحيح ما اقول أم لا..؟

نظرتْ المرأة بدهشة يشوبها خوف وسألتني:

- من أنت؟ وكيف عرفت كل هذه التفاصيل التي لا يمكن إلا لشخص كان داخل البيت فعلًا؟

فقلت بنبرة المنتصر الواثق:

- ألم أقل لكِ بأنني كنت هنا عند السيدة حوّاء الدلّال وحضرت صالونها الثقافي.

فنظرت إليّ ببرود وتساؤل وقالت:

- لكن لا توجد هنا امرأة تسمى حوّاء الدلّال.. مع أنك وصفت داخل البيت بالضبط وبدقة..

فقلت لها بيأس:

- ألا تصدّقيني..؟

صمتت للحظة وقالت بحيادية:

- لا أدري هل أصدقك أم لا.. كل ما أستطيع قوله هو أنه هنا تعيش عائلة آدم المعمدان.. وليس الدلاّل..

فقلت بضيق وغضب مكتوم:

- لكني وصفت لكِ داخل البيت كي تصدقيني بأني حضرت هنا مرات عديدة..!

نظرت إليّ نظرة غريبة. لم تقل شيئًا. ثم استدارت إلى أن اختفت داخل البيت دون أن تلتفت إليّ.

طوال طريق عودتي كنت اتصل بهاتف حوّاء الدلّال المغلق. يئستُ، وتعكّرتْ

فرحتي بيوم تخرجي لما جرى لي. كنت في حالة تشتت غير طبيعية. فما جرى مع المرأة المسنة جعلني في حالة ذهول بارد وكأنني أعيش في عالم افتراضي.

حين وصلت البيت وجدته مكتظا بالنساء. فقد أعدّت أمي بمعية خالتي حواء الأبيض احتفالًا عائليًا مع نساء الجيران بمناسبة تخرجي. فوجئت. احتضنتني أمي ثم خالتي أمام الجميع.. وفوجئت حين رأيت جارتنا التي في الشقة المقابلة لغرفتي بين المحتفلات، بل وتقدمت مني وهي تنظر إليّ نظرة خاصة مليئة بالألغاز وهي تهنئني وتتمنى لي أعلى المراحل والشهادات الأكاديمية. ولا أنكر أن حضور جارتنا المثيرة هذه أعادني للواقع. ألقيت التحية على الجميع وشكرتهم على حضورهم ثم ذهبت إلى غرفتي.

استلقيت على سريري وأنا استعيد غرابة ما جرى معي. انتبهت لدخول خالتي عليّ. وخالتي هذه متعلقة بي جدًا لأنها محرومة من الأولاد وهي أصغر من أمي بتسع سنوات حيث كانت بينهما أخت وصبي ماتا في فترة الطفولة. ووجدت نفسي معها في مشهد قبل ست سنوات. في تلك الفترة كانت خالتي في نهاية العشرينات، بينما كنت السابعة عشرة من العمر.

كان بيني وبين خالتي حواء الأبيض اقتراب نفسي وأسرار خاصة جدًا. كنت مراهقًا، وكانت هي متزوجة من رجل تاجر ثري أخذت لقبه رسميًا، وكانت قد طلبت من أمي بأن أبيت الليل عندها لأن زوجها مسافر لأسباب تجارية، فوعدتها أمي بأن ترسلني مساءً إليها. المهم، أنا تضايقت من بقائي في البيت فوددت الذهاب إلى بيت خالتي عند الظهيرة، لا سيما البيت رحب والتبريد هناك ممتاز.

حين وصلت بيتها الحديدي مددت يدي من فتحات السياج الحديدي، ففتحته ودخلت. كان الوقت ما بعد الظهر، وقت القيلولة. وكانت نافورة الماء الأرضية الدوارة في الحديقة ترش الماء في حركة نصف دائرية. لم أدخل البيت مباشرة، وإنما ذهبت لقطعة الأرض المستطيلة الصغيرة خلف البيت من الجهة الأخرى، لأقطف شيئًا من الخيار والطماطم وبعض الخضروات كالريحان الذي أحبه جدًا.

أخذت جردلًا من البلاستيك ملقى في المساحة الخلفية قرب المشتل هناك.

قطفت شيئًا من شتلات الريحان الذي أثارتني رائحته وفتحت شهيتي، فأنا عادة ألتذ به مع المشويات والكباب بالتحديد. لكن فجأة فكرت بأنني ربما سأزعجها بمجيئي في مثل هذا الوقت، فهو وقت القيلولة والنوم بعد الغداء، لا سيما في الصيف.

وأخذت أحدّق من وراء النوافذ المغطاة بستائر خفيفة لأتأكّد إن كانت خالتي نائمة في الصالون أو في غرفة النوم. اقتربت من نافذة جانبية مطلة على الصالون، حدّقت جيدًا محيطا عينيّ بكفيّ بعد أن وضعت الجردل على الأرض، فوجدت الصالون فارغًا، ثم توجهت إلى نوافذ غرفة النوم الكبيرة، فهالني ما رأيت..!

كانت خالتي حواء عارية في وضع كلبي، متربعة، مستندة على ذراعيها وركبتيها، وهناك شخص يبدو مراهقًا مثلي، عار، لم أتبين ملامحه يقف خلفها ويولجه فيها وهي تئن وتتأوه. لم أصدق ما رأيته..! فكرت لثوان ربما هذا هو زوجها، لأنه ضئيل الجسم أيضًا..! لقد حاولت أن أكذب ظن صار يقينًا في داخلي وهو أن هذا الشخص ليس زوج خالتي..! حاولت أن أكذّب ما رأته عيناي.. ووجدت نفسي أحدّق في المشهد بتركيز لأواجه نفسي بالحقيقة بأن من أراه ليس زوجها، لكن من تراه يكون..؟

قررت مع نفسي أن أتأكد من هويته، لذا التففتُ حول البيت وصرت عند النافذة التي قرب السرير وتطل عليه مباشرة. صرتُ اسمع اللهات والكلام بشكل أوضح، فبيني وبينهم مسافة قصيرة جدًا هي النافذة وبضعة سنتمرات أبعد حيث حافة السرير العليا. أحطتُ وجهي وعيني بكفي كي استطيع التحديق جيدًا، وأخذت أنظر لهما بشكل مباشر.

أول من رآني هي خالتي. كان الرجل يولجه فيها بقوة وعنف ويقول لها: „أنت ملكي أنا.. أنت قحبتي.. سأملأك بحليبي.. لكن أريدك تدلليني..“، وكانت هي تصرخ وتتأوه وتقول له: „نعم أنا قحبتك.. ريّحني الآن.. سأعطيك المبلغ الذي طلبته.. لكن انتبه ولا تقذف بداخلي“، بينما كان هو يصرخ: „أريد أن تحبلي مني“، فترد عليه: „ لا.. أخوك عقيم وسيشك بي..ريّحني الآن..أتوسل إليك „.. أدركت من هو، وفي تلك اللحظة بالذات رفعتْ هي رأسها نحو النافذة ورأتني..! فتحت عينيها برعب ودفعته عنها. وعرفت من هو.

إذن هو أخو زوجها الأصغر، وهو بعمري تقريبًا. وصرختْ به «إلبس ثيابك بسرعة.. ابن أختي آدم قد رآنا.. سيقتلك.. إهربْ».. قفز هو مرعوبًا وتائهًا، وأخذ يلبس سرواله بشكل أهوج، ثم بنطاله وقميصه، ولم يزرره وإنما غادر الغرفة هاربًا، بينما غطت خالتي نفسها بالشرشف، ثم عجزت عن القيام بأية حركة تستّر أو هروب، فقد رأيتها وسمعتها وبالجرم المشهود. وبقينا لدقائق ننظر واحدنا في وجه الآخر.

أنا أحبُّ خالتي جدًا، وهي بحكم عمرها قريبة مني أكثر من أمي. كانت أكثر تحررًا في السلوك واللغة من أمي وخالي، حتى كنت أتعجب هي أختهما. ومنذ صغري كانت تدللني. بعد أن تزوجت كنت أزورها يوميًا، وحين تأكّدتْ من عقم زوجها غمرتني بكل دفق أمومتها المجهضة. وصرت حين يسافر زوجها التاجر أقضي الليالي عندها. ومذ كنتُ صبيًا، كانت تشتري لي الهدايا والملابس وتنفحني النقود بمناسبة وبغير مناسبة.

كانت تمزح مع أمي حين يسافر زوجها وتقول لها أرسلي زوجي الثاني، وكانت أمي تنهرها وتنتقدها بمزاح على كلامها غير المنضبط. وأذكر أنني حين كنت صبيًا في التاسعة والعاشرة أنام معها في السرير العريض ذاته التي رأيتها فيه مع أخي زوجها، مع تغيير في نوعية السرير بحكم التجديد المستمر في الأثاث.

كنّا نحدّق ببعضنا حينما سمعتُ البوابة الخارجية تُطبق. استدرتُ راكضًا لأمسك هذا السافل، حينها فقط رأيت الخوف في عينيها ودفق الحنان والخوف عليّ وليس مني، كي لا أقترف جريمة أو أتشاجر فأخلق فضيحة.

استدرتُ راكضا نحو البوابة، وركضتْ هي قافزة خارج السرير. وحين صرت أمام البيت كان عشيقها المراهق قد غادر البيت، بينما خرجت هي بثوب بيتي شفاف قصير بعد أن فتحت الباب المفضي إلى داخل البيت.

لم تقلْ شيئًا. دخلتْ أمامي فتبعتها إلى الصالون. جلستْ على مقعد في الجهة المقابلة لي بينما جلستُ أنا على الأريكة الوثيرة. ظلت صامتة محنية الرأس إلى الأسفل بانكسار وخجل وكأنها تنتظر مني قرار الحكم عليها لجرم مشهود.

طالَ الصمتُ بيننا. كنتُ في تلك الفترة العمرية قد بدأت قراءة كتب فرويد

وماركس والأدب العالمي، وكنت متوهجًا بالأفكار التحررية، لذا لم أكن متعصبًا ومنتقمًا بقدر ما كنت مصدومًا وغيورًا، فهذه الإنسانة القريبة من روحي تتربع مثل كلبة أمام تافه مثل أخي زوجها وتقول له إنها قحبته وأنها ستعطيه مالًا..؟ استغربت مشاعري تلك فيما بعد بسنوات.

قلت لها بتوتر ونفاد صبر:

- قولي شيئًا..! هل لك أن تفسري لي ما رأيت؟

أردت أن ألفظ كلمة ,,يا خالتي" لكني لم استطع. رفعتْ هي رأسها إليّ ونظرتْ نحوي بانكسار لكن بثقة وقالت بنبرة مستسلمة:

- ماذا أقول بعد أن رأيتَ ما رأيتَ وسمعتَ ما سمعتَ.!؟

كنت محرجًا ومتوترًا، لكن مشاعر الغيرة كانت تجتاحني، فقلت بصوت مختنق لكن بنبرة آسفة:

- أريد تفسيرًا.. لماذا أنت هكذا؟ ولماذا مع هذا؟ ألم تجدي أحدًا غير هذا التافه؟

يبدو أنها انتبهت لنبرة صوتي التي لا تحتج على ما جرى بقدر ما تحاول تفهم الأمر، وربما انتبهت بغريزتها الأنثوية إلى غيرتي المكتومة من عشيقها، فقالت بنبرة أكثر ثقة وطبيعية:

- أنت تعرف أنني أجبرت على زواجي، وزوجي كما تعرف أكبر مني بعشرين عامًا. صحيحٌ هو يحبني ويدلّلني، ولا يرفض لي طلبًا، لكني ياآدم امرأة.. أنا حوّاء تحتاج للحب والاهتمام والمتعة.

كنتُ في أعماقي مقتنعًا بحجتها واتفهمها، لكني مع ذلك قلت بنبرة فيها غضب مكتوم:

- أتفهم.. لكن لماذا هذا التافه..؟ هو بعمري.. و..

فقاطعتني بضربة قوية:

- هل تغار منه لأنه بعمرك وأنني اخترته.. ولم اختارك؟

صُعقت لمعرفتها ما يجول في أعماقي، فارتبكتُ وقلت مدافعًا عن نفسي:

- ولماذا أغار..؟ ثم أنت خالتي.. أنت بمقام أمي..!

وفي لحظة تحول الموقف، صرت أنا المرتبك أمامها، إذ أجابت بكل جرأة:

- وهو أخو زوجي.. وأنا بمقام أمه أيضًا.!؟ يعني أنت وهو في المقام نفسه تقريبًا، ومن داخل العائلة، مع أنك حبيبي وروحي وأقرب الناس إليّ، وقد ترعرعتَ في حجري، أنت أقرب وأحب إلى روحي منه بملايين المرات.

لم أعرف كيف أجيبها، فقد أحرجني جوابها، فقلت محاولًا توجيه الحوار إلى جهة أخرى:

- اسمعيني.. أنا لا أدينك.. بل أتفهم دوافعك في عدم طلبك الطلاق من زوجك على الرغم من التعاسة الجسدية التي تعشينيها.. فأنت بعد وفاة جدي وحيدة.. وزوجك وفّر لك حياة مرفهة جدّا تحلم بها ملايين النساء.. لكن لماذا تدعين هذا التافه يعاملك.. يعاملك.. يعاملك...

انتبهت لصعوبة نطقي بلفظة خمنّتها فقالت:

- يعاملني كقحبة.. وأنا وافقت أن أكون قحبة.. هذا ما تريد قوله.!؟

ارتبكت وقلت بنرفزة:

- نعم.. سمعتك.. وتقوليها بشبق ومتعة، كما وعدته أن تكوني له وتعطيه المال..!

أحسستُ أنها أُحرجت. خفظت رأسها وقالت:

- اعترف لك.. في داخلي ثمة امرأة مبتذلة..قحبة..امرأة غجرية لا أعرفها وارفضها بالمطلق..هي ليست أنا.. أنا بريئة منها لكنها تتحكم بي من خلال جسدي.. تختفي لفترة ثم تظهر فترة أخرى.. لا أعرف كيف أوضح لك..! ولا أدري إن كنت ستصدقني أم لا.!؟ أحيانًا تظهر دون إرادة مني.. وحدث مرة إن كان حماي موجودًا عندنا، كان لدينا وليمة لأحد أصدقاء زوجي مع زوجته الأربعينية، وانتبهت إلى أنها تنظر له نظرات مليئة بالرغبة، ووجدت نفسي أفقد السيطرة على نفسي لأغيظها وأحظى باهتمامه، مع أنه قبل تلك الأمسية لم يكن يعني لي شيئًا.. وكان هو لعينًا وذكيًا، فقد انتبه للمنافسة الخفية بيني وبين ضيفتنا.. وبجرأة لا أعرف من أين

جائتني قلت له تعال ساعدني في المطبخ.. كانت تلك المرأة الغجرية الفاجرة في أعماقي قد تلبستني.. وجاء معي متلهفًا وربما كان عليّ أن أوضح بأنه كان معجبًا بي، وينظر إلى تفاصيل جسدي بعين شبقة كلما كان عندنا.. لذا لم يصدق أنني أدعوه معي بعيدًا عن جلسة الضيوف.. وفعلا لكي أبرر وضعي أخرجت الفطائر من الثلاجة، كما كانت صينية الفواكه حاضرة..، لكني كنت كالقطة الشبقة لا تتمكن من السيطرة على سلوكها في دورة الشبق، فتحتّك بكل شيء.. لذا وبحجة أن نخرج الصحون من جارور المطبخ المعلق على الحائط احتككت به، بل وتلاعبت بتوازني كي أصير في حضننه وقد استلم اشارتي وبطريقة مدربة احتضنني بكامل جسدي وقبض على فمي وأمالني على كاونتر المطبخ، ثم رفع ثوبي وأنزل سروالي، ثم شعرت به يولجه فيّ.. كل ذلك جرى بلحظات خاطفة.

كان ذكيًا لأنه عرف أنني سأصرخ شبقًا لذلك ظل ممسكًا بفمي ليكتم آهاتي. تدفق مائي لكنه لم ينته مني. وفجأة سمعت زوجي يناديني فأفقنا.. ارتبكنا ورتب هو وضعه وحمل صينية الفواكه، وقبل أن يغادر قال: ,,أنا لم انته..” لم ينتبه أحد سوى ضيفتنا التي ربما رأت ملامح الاسترخاء واللا مبالاة على وجهي. وفي اليوم التالي نهارا جائني. وبلا مقدمات أخذني على الأريكة التي تجلس عليها أنت الآن... علما أنني في المرة الثانية لم تكن لديّ الرغبة، لكن لم من مفر فقد تورطت.. وهكذا بدأت الأمور التي ندمت عليها..!

كنتُ استمع والغيظ يحرق أعماقي. وتصاعدت أمواج الغضب نحوها، فقلت غاضبًا:

- إذا ما كنتِ نادمة كما تقولين فلماذا لم تتوقفي؟

نظرت إليّ نظرة وكأنها تريد سبر أغواري، ثم بعد لحظات قالت:

- فكرتُ مع نفسي بأن ما أقوم به هو زنا محارم، فهو يُعد بمثابة ابني، هو الأخ الأصغر لزوجي، وأنا أكبره بأكثر من عشر سنوات، فلماذا فعلتها معه وليس معك مثلًا.!؟ أنا أحبك فعلًا وإذا ما كنت أقوم بذلك مع شاب أصغر مني فلم لم أفعلها معك وأنت وهو بالعمر نفسه؟ وأخذت أتخيلك معي في اللحظات التي هو معي..! هل تصدّق إذا ما قلت لك قبل لحظات، حينما رأيتنا، كنت أتخيلك أنت.!؟

صُعقت لهذا الاعتراف. لم أصدق ما سمعتْ. لم أجد ما أقول، لكن سأكون كاذبًا إذا قلت بأني استأت من هذا الكلام. لم أكن راضيًا عما سمعته بالتأكيد، لكن أيضًا لم أتنكر له، لكن غضبي وحقدي وغيرتي من منافسي الذي رأيته معها، وما وصفته عما جرى في المطبخ، كانت دافعًا لا شعوريا لي كي أحرمها منه وأخضعها لي..، فقلت لها:

- كل هذا وأنا لا أعرف..! لماذا لم تخبريني بكل هذا.!؟

شعرتْ بغيرتي فقالت بنبرة فيها انكسار:

- لأني لم أكن واثقة من نفسي..!

لم أكن أعرف ماذا سأفعل وقد واجهتني بكل ما تفكر فيه وأرضت غروري بأنها كانت تفكر بي وهي في أشدّ حالاتها شبقًا، فسألتها بحيرة:

- وماذا ستفعلين الآن، لا سيما معه؟

نظرت إليّ نظرة زلزلتني وقالت:

- هل تريدني أن أتوقف وأطرده ولا أسمح له بالدخول إلى البيت؟

شعرت أنني عارٍ وأنها كشفت أعماقي، ولا إراديًا قلت:

- نعم..

ارتسمت ابتسامة شيطانية على وجهها المثير وقالت:

- لكني لا أعدك بأن أطرد المرأة الغجرية التي تتلبنسي، فهي تهيء لي المتع التي افتقدها..وأنا غير قادرة على طردها من جسدي!

لم استطع أن أُجيبها، فقد كان كلامها واضحًا.. فواصلت وهي تتحدث ببطء شديد مركزة على كل لفظة:

- أنا عاجزة عن طردها..وبقاء هذه المرأة الغجرية في جسدي يعني أنني لا استطيع الفكاك من منافسك، إذ سأطلب منه أن يأتيني ليطفئ شبقي حين تتلبسني المرأة الشبقية..

فقلت بغضب لا إرادي:

- لا لن تدعيه.. لا أسمح لك بذلك.. أطرديه إلى الأبد..

ابتسمت ابتسامة ماكرة وقالت وكأنها تعرف الجواب مسبقًا:

- ومن سيطفئ لهيبي..

فقلت بوعيي وبلا وعيي:

- أنا. أنا سأساعدك في مواجهة هذه الغجرية التي تتلبسك..!

فجأة قفزت من مقعدها وجلست إلى جانبي وكلها طيبة وحنان وشبق وقالت:

- إذن ستكون معي.. ستكون حبيبي.. وعشيقي.. وزوجي. وحياتي المقبلة كلها..!

لم أعرف ما أقول. وبلا مقدمات مسكت بوجهي والتقمت شفتي بقبلة شبقية، لم استطع مقاومتها. وهكذا كانت خالتي عشيقتي الحبيبة. وهي التي علمتني كل فنون الجسد.

انهيت الثانوية ودخلت الجامعة. وكنت أروي لها كل شيء.. كل شيء.. كانت الفترة الأولى من علاقتنا عنيفة جدًا ومتعطشة، لكن بمرور الوقت هدأت الأمور، وتباعدت، ثم فجأة دخلت خالتي في مرحلة التعبد والتدين، وصارت تقضي الوقت بالصلاة وقراءة القرآن، ومع ذلك كانت حين يغيب زوجها، أو حتى بوجوده نهارًا، تتلبسها تلك المرأة الغجرية، فتتحول إلى وحش متعطش للجنس وإلى عاهرة مبتذلة تتلفظ بكل الكلمات الموجود في قاموس العهر والابتذال والجنس المفضوح، إلى أن ترتوي وتصل للنشوة مرات، ثم تهدأ وتبدأ بالاستغفار للخالق وهي تقسم على التوبة لكنها تعرف أنها ستكرر ذلك... وهكذا استمر الحال بيننا.

بيد إني ومنذ بدء علاقتي بحواء الدلّال توقفت عن الاقتراب منها، وأخذت أتحجج بشتى الوسائل كي لا أكون عندها، لكني في الوقت نفسه خفت ألاّ تصبر فتعود لذلك الفتى، وأخيرًا حدثتها عن حوّاء الدلّال.

كانت تنصت لي في البداية بكل هدوء وبعد أن انتهيت من سرد كل التفاصيل بما

في ذلك دعوتها كي أكون عشيقًا لصديقتها، فقالت لي وكأنها خبيرة في الشهوات:

- ,,عليك أن تخترقها وتولجه فيها، عند ذاك ستصلح الأمور كلها ـ فهذه المرأة تشتهيك لكنها محافظة، وأخلاقها لا تسمح لها، هي تريدك لكنها لا تستطيع فلا تنصت أنت لرفضها وتحفظها، اخترقها وسترى أنها متعطشة لذلك..فهناك نساء يتلذذن بالممانعة، بل حتى وأنت تولجه فيهن يصرخن لا..لكنهن يقصدن نعم".

كانت تكشف لي عن أسرار عالم النساء، وأسرار زوجات أصدقاء زوجها، بل وتعلمتُ من خلالها وخلال أحاديثها الكثير عن طبائع النساء. كانت تروي لي كمعلمة، وتقول لي: ستفيدك هذه الأشياء ذات يوم، فلكي تعرف الحياة جيدًا عليك أن تعرف نفسية المرأة، مع أنه حتى الله وصف كيدهن بالعظمة، ولا تنظر للكيد هنا بأنه حيلة ومكر، وإنما فسره ذكاءً وخبثا وحيلة وتخطيطًا إجراميًا... إن ذكاء المرأة لعظيم.

ووفق تعاليم خالتي كنت قد قررت بمناسبة تخرجي أن اقتحم جسد حواء الدلّال، لكن حدث الذي حدث، ولم أعرف معنى اختفاءها واغلاقها لهاتفها، ومعنى ظهور تلك المرأة التي قالت بأن عائلة المعمدان هي التي تسكن في ذلك البيت إلّا لاحقا وبعد سنوات..!

لذا حين دخلت خالتي عليّ في غرفتي تقدمتْ مني وأنا مستلق على السرير. تلفتت نحو الباب ثم قبلتني بحرارة من شفتي، وسألتني:

- ما بك حبيبي..؟ لماذا أراك متضايقًا؟ هل حدث شيء؟ اليوم يوم تخرجك والمفروض أن نحتفل..؟

ولأنني أخبرها عادة بكل شيء مهما كان بسيطًا، لذا رويت لها ما جرى مع حوّاء الدلّال وإغلاقها لهاتفها وظهور امرأة مسنة غريبة في البيت، والتي نفت وجود من يسكن ويحمل هذا الاسم هناك.

جلست خالتي على حافة السرير وقالت لي وهي تفكر فيما رويته:

- ربما هي فعلت ذلك لأسباب خارجة عن إرادتها! لا تتسرع في الحكم عليها،

ولربّما فعلتها بقصد أن تثيرك أكثر..، أو ربما هربت منك لأنها على حافة الانهيار ولا تريد أن تخون زوجها..! كل الاحتمالات ممكنة.

فسألتها بقلق:

- لكن لماذا تفعل ذلك.. لا سيما في يوم تخرجي.!؟

لم تجبني. كانت تتألم لحزني المفضوح. أخذت تداعب شعري الكثيف كأية أم رحيمة. فجأة سمعت أمي تنادي عليّ:

- ابني آدم.. تعال إلى هنا قليلًا.

فنهضت عن سريري وتوجهت إلى الصالون حيث أمي وبقية النساء، بينما بقيت خالتي في الغرفة وعلى جلستها على سريري لكن وجهها كان يفيض حزنًا.

ما إن اجتزت الممر القصير الذي بين غرفتي والصالون حتى شعرت بصمت الشقة. وحين وصلت الصالة هالني ما رأيت.. كانت حوّاء الدلّال هناك وإلى جانبها ابنتها إيفا، وأمامهما تورتة كبيرة مغطاة بالمارسيبان اللذيذ والذي أحبه وفوقه ثمة حبات من الفراولة..!

نظرتا إليّ بفرح غامر. ركضتْ الصغيرة لتلقي بنفسها عليّ فرفعتها إلى صدري وأحاطتني بساقيها وأخذت تقبلني من وجنتيّ، وتضغط بجسدها عليّ، بل قربت فمها لتقبلني على طرف شفتي. وأنزلتها بسرعة كي لا تنتبه أمها لما ستقوم به من قُبَلٍ مشبوهة لا تليق بعمرها. وسألتُ حوّاء بتعجب وفرح:

- كيف أنت هنا؟

ابتسمت لي تلك الابتسامة الرحيمة المليئة بالحنان وقالت:

- ببساطة.. أنت لم تأت ولم تتصل فقررنا أنا وإيفا أن نأتي إليك..!

تلفّتُ حولي وسألت:

- وأمي.. أين هي.. وأين بقية النساء؟ لقد نادتني أمي قبل لحظات لكني لا أراها..

ابتسمت لي بطيبة وقالت:

- حينما يأسنا من مجيئك إلينا في البيت، حسب الاتفاق بيننا، فكرتُ بأنك ربما انشغلت مع أمك، فحملنا الفطائر وجئنا.. لم يكن هنا أحد سوى أمك.. لقد استقبلتنا بكل ترحاب ومحبة وكأنها تعرفنا منذ سنوات بينما نحن التقينا اليوم فقط حين وصولنا.. لكنها خرجت لأمر ما وقالت ستمر على بيت خالك وترجع..

استغربت مما تقوله، فالزمن ما بين نداء أمي لي واجتيازي للممر الواصل بين غرفتي والصالة كان قصيرًا لا يتجاوز الدقيقة، فكيف خرجتْ..؟ لكني لم أتوقف عند ذلك وأنما قلت لها بنبرة فيها توتر وزعل مكتوم:

- أنا جئتك في الموعد المحدد.طرقتُ جرس البوابة فلم يفتح لي أحد فأخذت أطرقها بيدي فخرجت امرأة مسنة جائتني إلى عند البوابة لتسألني ما الذي أريده، فأخبرتها، فنفت وجود امرأة اسمها حوّاء الدلّال، بل وصفتُ لها كل تفاصيل البيت فلم تكذبني لكنها أصرّت على قولها بأنه لا أحد يعيش هناك بهذا الاسم، بل من يعيش هم عائلة المعمدان..! فرجعت خائبًا إلى البيت، لكني وجدت أمي وخالتي والجارات كلهن هنا يحتفلون، بينما الآن لا أجد أحدًا غيركما..! سوى خالتي التي تركتها في غرفتي عندما نادتني أمي.

نظرت إليّ حوّاء الدلّال مستفهمة وسألت:

- هل قلت إن المرأة المسنة قالت لك هنا تسكن عائلة المعمدان..؟

فقلت باستسلام:

- نعم.. هذا ما قالته..

فقالت وقد ارتسمت علائم التفكير على وجهها:

- عائلة المعمدان هي عائلة زوجي قبل أن يتحول دينيًا ويأخذ لقبي: الدلّال. لكن كيف حدث هذا؟ نحن كنّا في البيت ننتظرك؟ ولما يأسنا اقترحت إيفا بل أصرّت أن نأتيك إلى البيت.

ابتسمتُ للصغيرة وقلت:

- حبيبتي إيفا.. وكأنها كبرت فجأة..!؟

فقالت إيفا بصوتها المرح البرئ:

- أصحيح أنا حبيبتك..؟ كنت أعتقد أن أمي حبيبتك..!.

- إيفا..

قالت لها أمها بمزاح. وهي ترمقني بخجل. فابتسمتُ لهما وقلت:

- أحبكما كلاكما..أنت حبيبتي وأمك حبيبتي أيضًا، وحياتي بدونكما لا معنى لها..بالمناسبة لأعرّفكما على خالتي..!

لم تقولا شيئًا. نظرتا إليّ بحيادية. غادرتُ الصالة إلى غرفتي كي آتي بخالتي، لكن ما إن دخلت غرفتي حتى وجدتني في وسط الضباب. ضباب كثيف لا أعرف من أين جاء. ثم فجأة سمعت هفيف أجنحة كثيرة..ومرت أسراب من طيور السنونو من الباب نحو الصالة. وانقشع الضباب. ولم أجد أحدًا في الغرفة. أين ذهبت خالتي؟

شعرت أنني في وضع غير طبيعي، فغادرتُ الغرفة مرتبكًا وحين وصلت الصالة وجدت أمي وحدها تجلس حول مدفأة صغيرة وضعتْ عليها دورق الشاي.

حين رأتني أمي مرتبكًا والخوف يطلّ من عينيّ قالت:

- ما بك يا ولدي..؟

فسألتها مرتبكًا:

- أين خالتي..؟ هل رأيتها تخرج..؟ وأين ذهبت حواء وابنتها إيفا..؟ وأنت متى رجعت؟

نظرت امي إليّ نظرة متوجسة وقالت بخوف حقيقي:

- اسم الله عليك ياولدي.. ما بك؟ وجهك مخطوف وشاحب.. وما هذا السؤال الذي تسأله عن خالتك الله يرحمها..

- الله يرحمها..؟ قلت مصدومًا.

فقالت أمي بحزن:

- نعم يا ابني خالتك الله توفاها برحمته منذ ثلاث سنوات حين أصيبت

بالسرطان الذي لم يمهلها سوى ثلاثة أشهر.. أعرف أنك تحبها وكانت هي قد ساهمت في تربيتك لأن زوجها عقيم.. وقد أوصت لك بمال كثير في حساب خاص لك في البنك.. وأنت قد صُدمت حين توفيت وكنتَ تزور المقبرة حيث دُفنتْ.. أعرف كم أنتَ متعلق بها، لذا تراها في كل مكان..!

لم شأ أن أخبرها بأنها كانت في الغرفة قبل قليل، لذا سألت:

- طيب والمرأة وطفلتها.. المرأة التي جاءت بتورتة المارسيبان المزينة بالفراولة.

نظرت إليّ بفزع أمومي وقالت:

- اسم الله عليك يا ابني.. لقد اصابتك العين.. نعم.. هناك من عمل لك سحرًا..

لا أعرف بالضبط ما الذي جرى لي بعدها. لكني أتذكر أنني كنت اتقلب في فراشي. وفجأة صحوت بينما هاتفي يرن.

٤
المعجزة

صحوت على رنين هاتف لم أعرف مصدره، كنت أسمع الرنين فقط. فجأة، انتبهت مرعوبًا للمكان الذي وجدتُ نفسي فيه، فهذه الغرفة ليست غرفتي. جدرانها، أثاثها، سريري العريض، نوافذها، كل شيء لا يعود لغرفتي في بيتنا، فهي تذكّرني بشيء ما، بمكان ما.

انتبهت لتقويم منضدي قرب السرير، وآخر كبير على الجدار، ما هذا..؟ أنه يشير إلى العام ٢٠٠٣، أي إلى تأريخ في المستقبل، أي بعد عشرة أعوام على تخرجي من الجامعة. أي أنا الآن يفترض أن أكون في الثالثة والثلاثين من العمر؟ كيف هذا؟ أمن المعقول أنا استلقي في سريري لأصحو وقد مرّت عشر سنوات؟

نهضتُ من السرير بتردد. رأيت نفسي في بيجامة صوفية. وقبل أن أخرج من الغرفة تنصّتُ لأعرف إن كان هناك مَن في المكان. ومن دون قصد أو إرادة مني التفت فرأيت نفسي في مرآة على الحائط المقابل، فذهلت لتغيّر شكلي ونضجي الجسدي، فلم أعد ذلك الفتى النحيل الوسيم بشعره الكث، فهذا الذي أراه صار شخصًا آخر.

اقتربت من المرآة. وكلما خطوت نحوها خطوة كلما شعرت بأني لست أنا.. فهناك أثر لخط يخترق الوجه على مساحة الحنك دائريًا وكأنا هذا الوجه ألصق أو تعرض لعملية جراحية كبرى.

هل أنا هو هذا الكائن في المرآة حقًا؟ أم هذا إنسان غيري، وأنا لستُ أنا؟ ثم أين كنتُ خلال كل هذه السنوات؟ ما الذي جرى ويجري؟ من أنا؟ ربما أنا في حلم أو كابوس وأنني ما أزال نائمًا في سريري بغرفتي في منزلنا؟ لا أعرف.

***

غادرت الغرفة، لكني تسمّرت عند الباب، إذ سمعت حركة وصوتًا بشريًا يأتي من جهة ما، لكني لم أقو على التماسك، أصابني الدوار، ووجدتني أتداعى جسديًا على الأرض، وغبت عن الوعي.

كنت في سريري. لم أكن أستطيع فتح عينيّ ولا القيام بأية حركة، لكني انتبهت لثلاث نساء يقفن عند سريري. حاولت بكل طاقتي أن أراهن، ففتحتُ عيني لمسافة أقل من مليمتر واحد، فرأيت امرأة بمعطف أبيض وإلى جانبها امرأة باهرة الحسن، عرفتها فورًا، أنها حوّاء الدلّال وقد صارت أكثر نضجًا وأنوثة، وإلى جانبها فتاة لا تقل عنها جمالًا، خمنّت أن تكون إيفا، لكن هذا مستحيل..! فليس من المعقول أنها كبرت ونضجت وتفتحت هكذا وخلال غفوة مني؟ أين كنت أنا إذن؟. وسمعت المرأة التي في المعطف الأبيض تقول:

- هذا حاله منذ أن أتوا به من السجن إلينا كمجنون قبل ثلاث سنوات. لا أحد يعرف ماذا جرى له ومعه أثناء سنوات الاعتقال. قيل لنا إنه أُعتقل قبل تسع سنوات، وقد قضى ست سنوات منها في السجن، ومنذ أن نُقل إلى هنا منذ ثلاث سنوات أخذت أمه تزوره.. تلك المرأة الرائعة التي انتقلت إلى رحمة الله الواسعة، أذكر أنكِ كنت تأتين معها أحيانًا، لكن بعد موتها صرت أنت وحدك من يزوره أحيانًا، وها أنت اليوم مع كريمتك جئتما لزيارته.

وسمعتُ صوت حوّاء وهي تناقش بحرص واهتمام وقلق:

- وماذا قال زملاؤك الأطباء في جلستكم النهائية الأخيرة يا دكتورة؟

حاولت الطبيبة أن توضح بجدّية:

- حالته غريبة جدًا. تحتمل كل التفسيرات العلمية والطبية، الفسلجية العضوية والنفسية فيما يخص عمل ذاكرته. فهو من ناحية يعاني مما يسمى بفقدان الذاكرة ما بعد الصدمة.. ويحدث هذا الاضطراب نتيجة التعرض لصدمة قوية أو لضرب على الرأس. فيصير المصاب غير قادر على تذكر ما حدث له، ولا يتذكر حتى اسمه، ويختلط عليه الزمن فيعيش في مدار زمن فوضوي، ومع ذلك فإن ذاكرته لا تحتفظ بما جرى له.

وهناك حالات مشابهة يتذكر المُصاب جزءًا من ذكرياته. نحن نرى بأنه من ناحية تعرضه لما يسمى فقدان الذاكرة التراجعي، فهو يستعيد ذاكرته بشكل جزئي، وربما يستعيدها بالكامل على مرور الزمن، وذلك يعتمد على قوة الذكريات وعمقها. لكن من جانب آخر هو يعاني أو بدقة أكبر تنطبق عليه أعراض فقدان الذاكرة النفسي. وهو اضطراب في الذاكرة، يسبب عدم تذكر تفاصيل السيرة الذاتية، وهذه تمتد ما بين فقدانها لساعات أو لأعوام. وفقدان الذاكرة النفسي هو نوع من الفصام النفسي.. وكثيرًا ما يكون إراديًا أو نتيجة الصدمة النفسية، ومن الأمثلة على ذلك الملك لير في التراجيديا التي كتبها شكسبير، فقد عاني الملك لير من فقدان الذاكرة والجنون بعد خيانة بناته وتنكرهن لوعودهن.

وسمعت حوّاء الدلّال تسأل بقلق:

- وهل من علاج؟

كانت الطبيبة صبورة ويبدو أنها على علاقة طيبة مع حوّاء، لأنها كانت حريصة على الشرح والتوضيح:

- الحقيقة أن عمل الذاكرة لا يزال لغزًا وتحديًا أمام العلم. وفي حالته، علينا معرفة الأسباب النفسية التي سببت فقدانه للذاكرة، فهو يعيش في حالة أشبه بالتوحد، ولا يمكننا بسهولة أن نتواصل معه بوعيه، فهو غائب وتائه في أعماق نفسه. لكن كما قلت لك إن فقدان الذاكرة هو لغز بالنسبة لعلمنا الحالي.. فقد يعمل ذاكرته ويستعديها بشكل مفاجئ..!

فقالت حوّاء بقلق ممزوج بفرح مكتوم:

- هل هذا ممكن؟ هل ممكن أن يعود كما كان.

صمتت الطبيبة لثوان ثم قالت:

- لا أعرف.. حسب معلوماتنا يمكن الاستعادة الجزئية للذاكرة، ويمكن أن تعود كاملة بشكل مفاجئ وكأنه أفاق من نومه للتو. نحتاج لمعجزة.

كنت أستمع وأنا مقفل العينين تقريبًا، لكنني وكما قالت الدكتورة قد أفقت من نوم ذاكرتي. إلى أن سمعتها تقول:

- الحمد لله إن والدته قبل أن تموت قد أودعت في حساب المستشفى مالًا كثيرًا يكفي لعلاجه لسنوات. كما عرفنا من أمه بأن خالته تركت له أموالًا طائلة وزوجها الطيب اعتبره ابنه، فقد كتب في وصيته بأنه وريثه الوحيد والشرعي.. وذلك بعد أيام من الحادث الذي أودى بحياته وحياة أخيه الأصغر.. ولو كان هناك من يهتم به لكان من الأفضل خروجه من المستشفى وذهابه للسكن في بيته أو البيت الذي تركته خالته وهو قصر كما عرفت من والدته وفيه حديقة فربما سيؤثر ذلك على نفسيته. لكن علينا أن ننتظر إلى أن يفيق.

كنتُ اسمع كل شيء وعرفت أنني في المستشفى، وصُدمت بالكوارث والأحداث المأساوية التي سمعتها دفعة واحدة.. موت خالتي وأمي وزوج خالتي مع أخيه. وانتبهت لنفسي بأنني صحوت فعلًا وكأنني كنت نائمًا..! لكنهم سيذهبون.. لا.. إيفا بقيت تنظر إليّ وخُيل إليّ وكأنها تعرف أنني اسمع كل شيء وأنني بكامل وعيي لكنني سمعت حوّاء الدلّال تخبر الطبيبة قائلة وهي تتحرك مبتعدة مع الطبيبة عن سريري باتجاه الباب:

- نحن سنذهب الآن.. أنا مستعدة لأخذه إلى بيته لكن لا أدري هل هذا ممكن..؟

ووجدت نفسي أقاوم جسدي الحالة شبه المشلولة التي كنت فيها على الرغم من وعيي لنفسي وللأشياء واستعادي لذاكرتي، إذ تعرفت على حوّاء الدلّال وإيفا التي صارت صبية باهرة الجمال، مع أني لم أفهم ما قصة اعتقالي وما قصة مستشفى المجانين.. لكنني تعرّفت على أحب الناس إليّ..!

ولا شعوريًا ممدت كفي نحو إيفا كأنني أريد أن أمسك يدها. انتبهت هي لي ولحركة يدي بذهول وفرح، ومسكت كفي وصاحت لأمها :

- ماما.. لقد استفاق.. استيقظ من غيبوته..

التفت حوّاء والطبيبة بذهول. وحينما وصولوا إليّ كنت قد فتحت عينيّ اللتين ترقرق الدمع فيهما. وسرعان ما بادرت الطبيبة للتحقق من وضعي الصحي. ولا أدري لماذا فحصت ضغطي وبؤبؤ عينيّ.. ثم سألتني:

- هل تعرف من أنت؟

فتمتمت بصوت مسموع تقريبًا:

- أنا آدم بهاء الدين.. خريج كلية الآداب.. قسم اللغة الإسبانية..

التفتت إلى حوّاء الدّلال وسألتني:

- هل تعرف هذه السيدة؟

نظرتُ إليها فرأيت وجهها يضج بالحنين والفرح والخوف والتساؤل، ولا إراديًا ارتسمت على وجهي ابتسامة بينما نزل الدمع على وجنتي من عينيّ:

- كيف لي ألاّ أعرفها.. هي حوّاء الدلّال.. وهذه إيفا كما أعتقد.. وهما أحب الناس إليّ.

نظرت الطبيبة إلى حوّاء الدولال وتنقلت بنظراتها بيننا وقالت:

- لقد حدثت المعجزة!

٥

عن الإنحطاط البشري.. و «منّو»

من أنا..؟ وأين كنتُ خلال السنوات العشر المنصرمة..؟ كيف حدث هذا..؟ لقد فقدت ذاكرتي والبلاد محاصرة، والناس ساهرة من رعب أشباح الظلام، وحين أفقت كانت البلاد محتلة. لقد عرفت ذلك بعدما أخرجتني حوّاء الدلّال وابنتها إيفا من مستشفى المجانين.

أنا الآن في بيتنا، بيت أمي. ومع أن خالتي وزوجها قد تركا لي بيتهما كإرث لي مع مبالغ كبيرة من المال، لكن حوّاء الدلّال وابنتها جاءتا بي إلى هنا.

كانتا في الشهر الأول تنامان في حجرة أمي وحجرة الضيوف. تحسنتْ حالتي من ناحية الحيوية الجسدية، واسترجعتُ عافيتي، ونشاطي الجسدي، وقدرتي على التواصل النسبي مع الآخرين، لكن كنت وما أزال منطويًا على نفسي في بعض الجوانب، بسبب محاولتي التوغل في أعماق ذاكرتي لمعرفة ما جرى لي خلال تلك السنوات العشر الغامضة، وشيئًا فشيئًا عرفتُ أنني كنت ضحية وشاية قدّمها مخبر سري ضدي، إلى جانب اعتراف زميل يساري قديم كان معي في الكلية..! ولشدة التعذيب الذي تعرض له في أقبية المخابرات ولكي ينقذ نفسه، فقد اعترف على من معه من رفاقه في خليتهم السرية، وعلى من لا يعرفهم جيدًا وليسوا معه في تنظيمه، وأورد اسمي.

والحقيقة كنت أُضرب بعنف وبحقد.. أضرب بالعصي الخيزران، وبقضبان من البلاستك الصلب، وأُعذب، وكانوا عند التحقيق معي يسألوني عن أشخاص لا أعرفهم..! ومن دون أي إدعاء، فإنني لو كنت أعرفهم لاعترفت وقلت كل ما أعرفه عنهم من شدّة ما عذبوني، لكني مع الأسف لم أكن أعرفهم، لذا حين كنت أقول لهم ذلك كانوا يظنون أنني بطل وصامد ولا أريد الاعتراف على رفاقي، فيكيلون لي الضرب والتعذيب بشراسة.

لا أدري من أية طينة جُبِلَ هؤلاء البشر الذين يعذبون الآخرين في السجون والمعتقلات، فقد كانوا مجموعة من الشذّاذ الذين يصلون إلى ذرى النشوة حينما يمعنون بشكل همجي وحيواني شرس في تعذيب تلك الأرواح المنسية والأجساد المنهكة والمسكينة التي ساقها الحظ السيء نتيجة وشاية مخبر سري أو تهمة كيدية أو شبهة سياسية لتكون تحت أياديهم.

كانوا من ذوي الأشكال الشرسة والقبيحة والتي لا شبيه لها إلا في لوحات هيرنيموس بوش، رسّام القرون الوسطى،.. لا.لا. يبرز الآن في ذاكرتي وجه وسيم وأنيق كوجه ممثل إيطالي أو موديل للعطور، نعم.. هو المسؤول الأعلى الذي كان يجلس على كرسيه وسط القاعة ويأتون بنا أمامه.

كان يخرج سيكاره الكوبي..حاشيته التي تقف خلفه كالصنم حيث كان أفرادها يتبارون لإشعالها له. كانت الابتسامة الجميلة الطيبة لا تفارق وجهه، ومع ذلك كان يقول كلمته: „لنبدأ الحفلة..." ..وحفلته هي تعذيبنا أمامه.

وكان يطلب منا أن نتسابق في ضرب بعضنا بشدة وكأننا في حلبة ملاكمة، وقبل أن نبدأ يقول لنا: „تخيلوا أنفسكم في حلبة المصارعين الرومان.. صراع حتى الموت.. لا مجال للّعلب ومدارات بعضكم البعض.. من يفعل ذلك سأرميه بطلقة بائسة"..وهكذا.

والغريب أننا كنّا، المغضوب عليهم، نتقاتل بعنف كي نرضيه. يضرب أحدنا الآخر بحقد وقوة وفي أعماقنا نعبّر عن حقدنا في ضرب المسؤول الأعلى وليس رفيقنا المقابل المسكين.. وكانت الأسنان تتطاير والشفاه تتمزق والدماء تسيل وعظام الفكوك والأكف تتكسر.. كنا نتوحش مثل المسؤول الأعلى وحاشيته.

بل أحيانًا يأتي في ساعات الفجر الأولى ثملًا.. وحاشيته تقود بضع نساء من المعتقلات التي لديه أيضًا.. يختارون البعض منا بشكل عشوائي.. يوقظوننا من نومنا ويجروننا من كوابيسنا إلى كوابيس واقعية..

وتبدأ حفلة من نوع آخر.. إذ يطلب منّا هذا المسؤول الأعلى الوسيم أن نمارس الجنس مع هاتيك المعتقلات المسكينات، اللاتي فقدن أنوثتهن من أثر التعذيب والاغتصاب اليومي المتكرر..

كانت الحاشية تجبرنا على التعري الكامل..ويجبروننا، رجالًا ونساء على اختيار شريك لنا..كنّا محطمين نفسيًا وجسديًا، لا يمكننا أن ننشط جنسيًا.. بل إن بعض النساء كانت تفوح منهن رائحة العفن من أثر الإلتهابات المهبلية والوساخة وزنخ البول وبقايا دماء العادة الشهرية حيث لا حمامات للإغتسال والتنظيف والتطهر.. كانت تلك المشاهد تجسيدًا حقيقًا للإنحطاط البشري.

ومع ذلك.. ومن خلال تكرار تلك المشاهد الإباحية صرنا ننتظرها، إذ كنا نجد فيها آثار الشهوة وبقايا منسية تذكرنا بأننا بشر ولدينا رغبات وإن كانت في أشدّ أشكالها انحطاطًا وقبحًا وابتذالًا وعفنًا.. وأدركتُ غرابة الإنسان، فحين تلغى إنسانيته لا يبقى منه سوى الحيوان الجنسي.

أتذكر هؤلاء الأبرياء الذين كانوا معي في الزنزانة، وعرفتُ أنهم مثلي، لا علاقة لهم بالسياسة وقد سُجنوا نتيجة وشايات لا يعرفون مصدرها، وبعضهم عرف فيما بعد مصدرها. أحدهم أخبرني بأن جاره قدم وشاية كاذبة عنه متهمًا إياه بتعاونه مع المتطرفين والإرهابيين علما أنه ملحد، وسبب الوشاية أنه وزوجته تشاجرا مع الجار وزوجته بسبب الأطفال، ولم يكن هو يعرف بأن جاره مخبر سري.

وسجين آخر كان منطويًا على نفسه لا يتكلم إلا نادرًا، لكن بمرور الأشهر روى لي حكايته، بأنه كان متزوجًا من امرأة جميلة جدًا، وكان جاره مسؤولًا في أحد الأحزاب الدينية المهيمنة على السلطة، وكان يلاحق زوجته بشكل مباشر وغير مباشر، وحين أخبرته زوجته عن ذلك دخل في صراع أخلاقي ومباشر مع هذا الجار المسؤول، إذ قابله وهما يتجهان إلى المسجد فأخبره بتهذيب ووعظ عن حقوق الجار مشيرًا بذلك بشكل غير مباشر إلى الكف عن ملاحقة زوجته، لكن بعد أقل من يوم على ذلك، اقتحم الجهاز الخاص لمكافحة الإرهاب بيته وساقوه إلى مكان مجهول في البداية، ثم قُدم لمحكمة رسمية قضت بسجنه خمسة عشرة عامًا، وبعد أشهر تمكن من التواصل مع زوجته، وقد أخبرته في أول زيارة لها بأنها ذهبت مرات عديدة إلى جارهم المسؤول وقد سعى معها لمساعدته، لكن القضية كانت أكبر من طاقته، وقد ساعدها في البداية ماديًا ثم وجد لها عملًا.. وقالت له

إن الجار رجل طيب..وبعد أشهر انقطعت عن زياراته، ولم تزره منذ سنوات، ويعتقد أنها صارت عشيقة ذلك النذل.

هذا الشخص هو الذي هداني إلى طريقة للخروج من السجن وذلك بإدّعاء الجنون، وأخذنا، كلانا، نتصرف ونسلك كالمرضى النفسيين. لم يقتنعوا في البداية، وقد واصلنا وبإصرار لشهور بإدعاء الجنون، إلى أن صرنا نتصرف كالمجانين لا إراديًا، وفعلًا تم نقلنا إلى مستشفى المجانين، وهناك بدأت رحلة عذاب أقسى من السجن بكثير، فجلسات الصعق الكهربائي عذاب حقيقي، والأدوية المخدرة أنهكتني وحطّمت عقلي وجسدي.

حاولت التمرد والهروب مع صديقي. نجح هو إلّا إني وقعت بين أيديهم، فضاعفوا جلساتي الكهربائية وكمية الحقن المخدرة، واستمر بي الحال لستة أشهر، إلى أن أُلقي القبض على صديقي الذي ذهب وذبح زوجته وعشيقها، فقد وجدها قد صارت فعلًا عشيقة جاره المسؤول، وكان يضحك لأن المحكمة سوف تعتبر جريمته قد اقترفت من قبل مجنون. وبعد ذلك لم أعد أعرف من أنا..!

أثناء إقامتي الطويلة في مستشفى المجانين كنزيل ومجنون رسمي وسجين، والتي لا أعرف بالضبط كم طالتْ من السنوات، كنتُ أرى قططًا كثيرة مختلفة الألوان والأحجام في الأروقة. وكانت هناك قطة سامية، وكأنها نِمر صغير، جميلة وذات شخصية، وكانت هذه القطة صديقتي المفضلة.

كانت تنظر إليّ وكأنها إنسان يفهم ويتواصل معي. تجلس قبالتي لساعات وتحدثني بنظراتها الصامتة والمليئة بالكلام. اسميتها „منّو". وكان الأطباء يعتبرون علاقتي العميقة بها إحدى علامات جنوني المستديم.

وحينما كنت أُترك في جناح المجانين المخصص للذين يتم صعقهم بالتيار الكهربائي العالي قبل نقلهم إلى غرفهم، يحدث أن أصحو بعد ساعات رقاد كالجثة على صوتٍ أشبه بالخشخشة „خرررر.. خرررر". وحين أفتح عينيّ المتعبتين أرى „منّو" متربعة على صدري في وضع وكأنها أبو الهول، تنظر إليّ مثل أم تحرس وليدها المريض.

وفي الليالي العادية كانت تنام عند قدميّ، بل وتبعث الدفء فيهما.. „منّو“ كانت أكثر رحمة من البشر.. لكن الأطباء بل حتى المجانين مثلي كلهم كانوا يسخرون مني حينما أتحدث مع „منّو“ أو أحدثهم عنها، فكلهم يؤكدون جنوني إذ لا وجود للقطة „منّو“ وأنما هي من نسج خيالي عقلي المريض.

وإلى الآن وبعد مرور عشر سنوات، واستعادتي لذاكرتي فلست متأكدًا إن كانت „منّو“ موجودة فعلًا أم لا!؟. بل لست متأكدًا من نفسي؟ هل كنت أنا هناك خلال هذه السنوات الغامضة؟ ومرة أخرى أسأل: من أنا؟ وكيف حدث هذا؟

ذات يوم صحوت على هرج وصخب وضجيج وصراخ في المشتشفى. وحين خرجت من القاعة وجدت جنودًا بملابس غريبة، خفت. لكن رأيت جميع المجانين يفرّون خارجين من المستشفى، وبعضهم أخذ يهشم الأبواب وزجاج النوافذ، ثم توجهوا إلى غرفة الصعق الكهربائي فحطموا الأبواب والأجهزة، بل وبعضهم أخذ أجزاء من آلات الصعق الكهربائي معه وهو يهرب من المستشفى، وبعضهم أشعل النيران في القاعات والأفرشة. وسمعت بعض المنظفات يصرخن: لقد سقط النظام والأميركان احتلوا البلاد. ولم أفهم شيئًا.. أي نظام، وأية بلاد؟ كانت كلمات فارغة ولا تعني أي شيء بالنسبة لي.

لكني كنت خائفًا ولا أعرف أين أذهب ولا حتى من أنا؟ بقيت في المستشفى وحيدًا لأيام، إلى أن عاد الأطباء والموظفون، بحماية الجنود المدججين بالسلاح، لتنظيم المستشفى، لكني لم أكن أعرف ما يجري ولم أعرف من أنا.. وامتد ذلك إلى اليوم الذي صحوت فيه لأجد حوّاء الدّلال وابنتها إيفا في المستشفى.

٦

ثوب أسود من القطيفة
وطاقية رأس سوداء

ومرّت الأشهر. أنا مدين باسترجاع ذاكرتي لهذه المرأة التي تبدو في بدايات الأربعين وابنتها المراهقة إيفا.. نعم..لقد أعادتاني إلى الحياة وجعلتا مني كائنًا بشريًا ومواطنًا في هذه الدولة الغريبة، بل صرت إنسانًا لديه وثائق وهوية رسمية وجنسية. فلقد ساعدتني حوّاء باسترجاع كافة حقوقي المدنية والمالية، إذ أوكلتْ عني محاميًا دفعتْ له المال الكثير من عندها، فأرجع لي هذا المحامي بوسائله الشرعية وغير الشرعية ميراثي من خالتي وبيتها وملكيتي لبيتي الحالي الذي ورثته عن أمي وكل ما لديها. وأراد المحامي أن يستحصل لي مرتبات وتعويضات عن هيئة السجناء السياسيين المستحدثة في العهد الجديد لكني لم أوافق، فلديّ من المال والعقار ما يفيض عن حاجتي.

بيد إن الكوابيس لم تفارقني. صرتُ لا أنام لأني أخاف الكوابيس، وصرت أسعى بأي وسيلة لأبقى يقظًا. ولقد أنقذتني الكتب من الكوابيس ومنحتني حياةً أخرى.

كانت في ذاكرتي غرف ونوافذ مغلقة، وهناك أسئلة لم يمكنني أن أفكّر بها قط. وكانت أبواب الغرف والنوافذ تفتح شيئًا فشيئًا دون إرادة مني.

ومع أن يقظتي كانت منذ لحظة رؤيتي لحوّاء الدلال وابنتها إيفا وأنا في مستشفى المجانين، إلّا إنني ومنذ اليوم الذي جاءتا بي فيه إلى البيت، وأعادتاني إلى الواقع، لم أسأل نفسي، بل ولم أسألهما لِمَ هما هنا معي في بيت أمي وليس في بيتهما؟

وفي نهار يوم مشمس جميل جلسنا أنا وحوّاء، أما أيفا فكانت في مدرستها الثانوية، نشرب القهوة في الشرفة كما اعتدتُ ذلك مع أمي، ومع انفتاح الأبواب والنوافذ لغرف ذاكرتي، وجدتني أقول لها:

- هل لي أن اسألك؟

نظرت إليّ بحنان وعلى وجهها ابتسامة مستفسرة وقالت:

- تريد ان تسألني..؟ كنت انتظر أن تسألني عن أي شيء لكنك لم تفعل، بل استغربت تجنبك للأسئلة..! وربما أخمّن سؤالك.. أتريد أن تسألني عن أمك.. وزوج خالتك..!؟

صمتُّ للحظات، فلم أكن قد فكّرت بتلك الأسئلة بعد، وها هي قد أيقظتها في ذاكرتي، لكن ليس هذا هو السؤال الذي كان يحاصرني فقلت:

- لا. سأسألك عنهما بالتأكيد.. لكني سؤالي هو.. لماذا أنت وإيفا تعيشان معي منذ شهور، كيف هذا؟ وزوجك؟ وبيتك؟ وجلسات الخميس؟ وسيارتك وسائقك؟ ما الذي جرى خلال هذه السنوات؟ وكيف كنتُ أنا معك؟ ومتى جرى معي ما جرى؟

انتبهت لمفاجأتها وحرجها لهذا الحشد من الأسئلة المترابطة ببعضها، نظرت إليّ للحظات وقالت:

- هل ذاكرتك جيدة بحيث تستعيد علاقتنا من الأول؟

- أعتقد ذلك..! أجبتُ من غير ثقة.

نظرت إليّ بحنان وسألتْ:

- هل تذكر كيف تعارفنا.. وكيف كانت علاقتنا..؟

حاولت التذكر. ضغطت محاصرًا ذاكرتي وقلت:

- أتذكر إلى يوم تخرجي.. يوم جئت إلى بيتك ولم أجدك..!

ابتسمت لي وقالت:

- أعتقد إنني أخبرتُك في اليوم نفسه بأنني كنت موجودة في البيت حينها، لكن أم زوجي كانت قد جاءتنا في زيارة مفاجئة، وهي التي رفضت استقبالك، وأخبرتك بأنه لا يوجد أحد باسم حوّاء الدلّال يسكن هناك، وأن المنزل يعود لعائلة المعمدان..! صح..

إعادة تلك التفاصيل كان بمثابة ستارة تكشف عن خشبة المسرح لتعلن بداية

الفصل الأول، فقد استعدتُ تأريخ تلك الفترة وتفاصيلها الغامضة، لكن مع ذلك هناك ما هو معتم وغامض ولا أتذكره قط.. ولحظتها أدركتْ هي بأنني لم أتذكر التفاصيل كلها. فجأة قالت:

- سأعد لنا القهوة مرة أخرى وآتيك لأروي لك كل شيء.. كل شيء.؟

نهضتْ عن كرسيها وغادرت الشرفة لتعد القهوة، بينما كنت سعيدًا لسبب لم أدركه جيدًا. وبقيتُ منتشيًا بتلك المشاعر من الفرح إلى أن عادتْ وهي تحمل صينية صغيرة فيها دلّة القهوة. جلستْ وصبتْ لي ولنفسها. وبعد أن ارتشفتْ من الفنجان قليلاً بدأت حديثها:

- لا أدري إن كنت تذكر أن صديقتي حوّاء الندّاف وزوجها التاجر، والتي أبدت إعجابًا خاصًا بك منذ اللقاء الأول. ومع أني أحبك لكني كنت حريصة أن يبقى هذا الحب طاهرًا وطي الكتمان، لذا صارعت نفسي كثيرًا وقاومت نفسي ورغباتي الجسدية فيك مع أني كنت أعيش حرمانًا على الرغم من أني كنت متزوجة في حينها من آدم المعمدان، زوجي الذي تراجع فيما بعد عن لقبه وعاد لحظيرة دينه ولقبه، وتلك قصة أخرى سآتي عليها. المهم أنني وجدت في رغبة صديقتي وسعيها أن تكونَ عشيقها خلاصًا إلهيًا لي من الوقوع في الخطيئة، لاسيما وأن صديقتي قد فاتحتني صراحة برغبتها، وطلبت مني أن أساعدها وأن أوفر لها كل ما يمكن من أجواء..! هل تتذكر ذلك.!؟

انتبهت إلى أنني ومنذ استعادة ذاكرتي صرت أتعامل مع الذكريات وكأنها تعود لشخص آخر.. لا أنفعل عند استعادتها وإنما كأنني أشاهد فيلمًا لا علاقة لي به مباشرة.. حاولت أن أتذكر. كانت ثمة صور غارقة في الضباب تحتاج إلى تركيز كي تبدو واضحة. وكلما توغلتْ هي في سرد أحداث الماضي كلما انقشع الضباب أمام ذاكرتي، لكني استغربت أنها تتجنب الحديث عن نفسها مباشرة.. بيد إني كنت مخطئًا. فلقد اذهلتني صراحتها فيما بعد حين توغلت في الحديث..! لم أجبها حينها.. وبدا لي أنها فهمت بأنني لا أتذكر شيئًا، فواصلت:

- لا أخفيك، بالنسبة لي كنت أريدك لي وحدي، وفي الوقت نفسه كنت لا

أريدك، بل أخاف هذه العلاقة، ربما لطبيعتي المعقدة، فقد كنت قد أوضحت لك كيف تزوجتُ والد ابنتي إيفا، لأني رفضت خطيب أختي التي توفيت مع بقية أفراد عائلتي في حادث اصطدام مؤسف، وكيف ألح خطيب أختي كي يتزوجني وكأنني ميراث له، بحجة أنه من شدّة حبه لأختي ولكونه لا يستطيع نسيانها يريد أي شي يذكره بها، وطبعًا يقصدني أنا، وكأنني شبح أو مخدر ومسكن لذاكرته، بينما كان مدير الشركة التي كنت أعمل فيها آدم المعمدان قد أحبّني أو أحب جسدي، لا يهم، وعرض الزواج عليّ حتى أنه غيّر دينة ودخل الإسلام كي يستطيع الزواج بي. وبالتالي قبلت الزواج منه.

لقد أخبرتك بذلك وأعتقد أنك لا تتذكره.. فالبنسبة لي قد تزوجت ليس لأني أحببت زوجي وأنما لأنه هو من كان يحبني..،وهذا يحدث لكثير من النساء اللاتي يصلن لمرحلة اليأس من الحب، إذ لا يصادفنه في حياتهن ومحيطهن، ويتعبن من انتظاره، فيتنازلن ويقبلن بعلاقة مع من يحبّهن، أي يكن معشوقات لا عاشقات..!.

أحيانا تنشأ الألفة بعد مثل هذا الزواج، وربما تتطور العلاقة الزوجية إلى حب هادئ لا مفر منه، لذا تقول أمهاتنا إن الحب يأتي بعد الزواج..، لكن كثيرًا ما نكتشف الخديعة، فلا حب ولا أوهام أخرى، ومع الأسف حينها نكون قد تكبّلنا بقيود كثيرة، اجتماعية واقتصادية، ونفسية، وأحيانا تكون قيودًا ذهبية..كالأطفال..ويكون قدرنا مواصلة الحياة المملة الرتيبة، لكن في مثل هذا الزواج يكون الفأس قد وقع على الرأس كما نقول في المثل الشعبي....وبالنسبة لي اكتشفت ورطتي، ولم ينقذني من ورطة زواجي سوى ولادة ملاكي إيفا، التي منحتني حياة جديدة وصارت هي المعنى الوحيد لحياتي وفي حياتي..ومع ذلك تبقى الروح متعطشة للحب الحقيقي..

ليس مهمًا أن تكون معشوقًا من قبل أحد وإنما أن تكون عاشقًا، أي أن تحبَ لا أن تُحبْ فقط، لأنك تكتشف أن حب الآخر وحده لا يكفي ولا ينقذ الزواج لا ولا يروي عطشًا.. إذ تجتاحك رغبة حقيقة في أن تفيض على إنسان ما بكل أمواج الحنين القوية والجياشة في أعماقك، وفي أن تعيش تجربة حب بكل عنفوانها وجنونها. وحدث ذلك لي حين التقيتك ذلك الصباح قبل عشر سنوات، ومن ثم دعوتك إلى

حضور صالون الخميس. لكني منذ أول لقاء في بيتنا، لوحدنا أنا وأنت، شعرت بأنني وجدتك، وجدتُ من انتظره في خيالي، وأحسست بأنك دخلت حياتي بقوة على الرغم من أني أكبرك بعشر سنوات، وصار وجودك له معنى في حياتي وأعماقي.

وكما أخبرتك، فإن صديقتي حوّاء الندّاف كانت أكثر جرأة وسرعة وجموحًا مني فأعلنت لي رغبتها بأن تكونَ لها. كانت تريدك بوضوح، كما أنني بطبيعتي على الرغم من تحرري أخاف نفسي وأخاف رغباتي المكبوتة..!

لا أعرف كيف أصنّف نفسي، لكنني واحدة من هاتيك النساء الرومانسيات اللاتي يعتبرن الحب عبادة والمحبوب ظل الإله الذي حوله تتمركز الحياة. لو كنت أحب زوجي لما سمحت لأي إنسان أن يدخل حياتي مهما كانت حاجتي للآخر، لكنك كنت قدري، والرجل الذي في خيالي، لذا أحببتك، وشعرت مع نفسي بأنني ملكك أنت، وعاهدت نفسي على الإخلاص لك.. لك وحدك.. وبصراحة شديدة لقد كان شغف صديقتي حوّاء الندّاف وولهها الجنسي بك قد أنقذني من احتمال حدوث فضيحة كنت لا أقبلها لنفسي. بل وجدت في مساعدة صديقتي لإقامة العلاقة معك راحة نفسية لي. صحيح أنني تجرّعت كؤوس الغيرة الحارقة والمرّة، لكن من جانب آخر كنتما تلتقيان في بيتي، لذا كنت أعرف أدق التفاصيل الحميمة التي جرت بينكما. وكان هذا يشبع بعض رغبتي، بل وجدت فيه بعض عزائي لحرماني منك، ومع ذلك كانت تنتابني لحظات الشعور بالذنب وكأنني كنت أزني معك بدلًا منها، مع أني لا ولم ألمسك، وإنما مجرد تخيلي لما كان يجري بينك وبين حوّاء الندّاف، يدفعني لأتخيل نفسي في محلها. جيد أنك لا تتذكر كل تلك التفاصيل.. هذه ربما من نِعم فقدان الذاكرة.!

صمتتْ. وكأنها باحت بما لا يجوز البوح به. ومع ذلك لم أقل لها إنني كنت أستعيد كل التفاصيل التي جرت بيني وبين حوّاء الندّاف، لكني كنت متلهفًا لسماع ما جرى معها، فقلت:

- لكن دعينا عن حوّاء الندّاف، ما يهمني ما جرى معك؟ ولم أنتِ هنا وليس في بيتك الفاره؟

ابتسمت لي وقالت بنبرة فيها مزاح:

- هل تضايقت من وجودي عندك؟

فوجئت وشعرت بانقباض في نفسي فقلت بنبرة فيها زعل وانكسار:

- لم أكن أقصد ذلك.. فأنت تعرفين أنني استعدت ذاكرتي بفضل وجودك معي، لكن لا تزال ثمة نوافذ مغلقة لغرف معتمة أريد أن أفتحها لأنير تلك الغرف.. وفعلًا أريد أن أعرف ما جرى لي خلال السنوات العشر المنصرمة.!؟

نظرت إليّ وقالت وكأنها تصحح لي شيئًا كان ملتبسًا لدي، وزادني ارتباكًا:

- صحيح لقد مرت عشر سنوات على تخرجك وعلى السنة التي التقينا فيها، لكنك اختفيت منذ تسع سنوات فقط، أي بعد سنة من تعارفنا وتخرجك.. أي أنك كنت سجينًا لست سنوات، وثلاثة أعوام في مستشفى الجملة العصبية..!

كان كلامها صادمًا حقًا، وانتبهت إلى أنها دارت مشاعري فتجنبت إطلاق التسمية الشعبية على المستشفى بأنها مستشفى المجانين، لكن ماذا عن السنة الأخرى قبل هذه السنوات التسع!! أين كنت؟ فسألتها حائرًا:

- إذا كنت ست سنوات في السجن وثلاث سنوات مريضًا بمستشفى المجانين، بينما قد مضت عشر سنوات إلى اليوم، فأين كنت خلال تلك السنة الغائبة؟

نظرت إليّ بمحبة وبنظرات تمتزج فيها الأمومة بالحب الأنثوي وبالصداقة وقالت:

- أولًا يجب أن تعرف بأنك لست مجنونًا، وإنما فقدت ذاكرتك، وقد استعدتها، وكما تعرف وعلمتَّ بأن ست سنوات كانت في المعتقل وثلاث منها في العلاج، والسنة العاشرة كنت أنت فيها معي ومع حوّاء الندّاف.

- ماذا؟

- نعم.. عليك أن تحاول استذكار تلك الفترة..!

ومع أني كنت أتذكر علاقتي وتفاصيلها مع حوّاء النداف، لكني لم أتذكر شيئًا عن الفترة التي استغرقتها.. انتبهتْ هي للحيرة والتشتت اللذان ارتسما على ملامحي فقالت:

- هون عليك.. سأروي لك كل شيء.. ففي تلك السنة بعد حضورك الأول لجلسة الخميس الثقافية بأشهر ربما تجاوزت الثلاثة.. التقيتنا أنا وأنت وحوّاء الندّاف في بيتي. وكنتُ قد اتفقت معها بأن أهيء لكما الجو في بيتي وانسحب.. بشرط أن تروي هي لي كل شيء..ولم يكن هذا الأمر يهمها كثيرًا فهي امرأة منطلقة وتميل إلى الإباحية في الكثير من الأمور. وقد أوفت بوعدها، إذ روت لي كل شيء وبالتفصيل الممل، لكنها كانت منكسرة نوعًا ما، مع سعادتها وتمتعها معك. لقد روت لي بأنها على الرغم من جرأتها إلا أنك كنت جريئًا وشرسًا وغاضبًا، بل هي فسرت أن غضبك من زوجها إنعكس على سلوكك معها، فقد عاملتها كعاهرة، أنت حرمتها من متعة المبادرة والقيادة، بل ألقيتها على السرير في غرفة الضيوف، وسحبتَ سروالها واخترقتها بشكل عنيف.. صحيح هي استمتعت بهذا الهجوم الكاسح، لكنها أيضًا ذهلت وأحست بأنها تفقد توازنها وهيبتها باعتبارها الجريئة بيننا. وأحسّت هي أن هذا السلوك كان رخيصًا بالنسبة لها، فأنت أخذت تقلبها بكل الأوضاع دون أن تتحدث حتى معها.. وبصراحة، كنت أغار، بل أتعذب من الغيرة، فأنا أحبك وأريدك.. بل صرت أتعذب من خيالاتي معك من خلال ما كانت ترويه لي من تفاصيل. وقد استمر اللقاء بينكما أسبوعيًا لمدة أربعة أشهر في بيتي خلال يوم استراحة مساعدة المنزل.. وكنت بعد كل لقاء بينكما أقرر مع نفسي بإنهاء هذا الوضع، فقد أخذت ظلال من التأنيب الأخلاقي تنتشر على جدران روحي، فأنا لست قوادة بحيث أهيء المكان والجو لصديقتي كي تلتقي سرًا بعشيقها، وأي عشيق؟ الرجل الذي أحبه أنا..! إلى أن بدأت أتحجج بعدم امكانية اللقاءات عندي.

بعد أربعة أشهر أخذتْ تلتقيك في بيتها حين يسافر زوجها. ونتيجة ذلك تخلصتُ أنا من التأنيب الأخلاقي، لكن صرت كالمجنونة، إذ لم تعد تروي لي أي شيء..، بينما صرتَ أنتَ تجيئني أسبوعيًا، لكن معظم وقتك كنت تقضيه مع إيفا التي تعلقت بك بشكل قوي جدًا جدًا..أما بالنسبة لي فصرتُ أخاف من نفسي ومن جسدي الذي صار يتمرد على إرادتي، ولكي أقمع شهوتي ورغباتي وأتخلص من أحلام يقظتي ومن الشعور بالذنب إزاء زوجي، ألقيت نفسي في تيار الدين الجارف وفي التصوف أكثر فأكثر.. وتملكني الهوس الديني..ولم تكن تلك الخطوة قناعًا

فحسب وإنما فعلًا توجهت للدين بشكل عميق، لكني وجدت التناقضات والأمور اللا منطقية والإجابات التافهة وغير المقنعة عليها، وأذكر أنك كنت تتجنبني في هذا الجانب، وكنت تفنّد كل حججي وتكشف لي تناقضات النصوص المقدسة وتناقضات التاريخ الديني وعنفه ودمويته، إلى جانب أشياء تجري في التنظيمات الدينية، لكنني لم أكن أريد أن أستمع لك، بل كنت أتركك دائما مع إيفا، فقد كنتَ مصدرًا لسعادتها. إلى أن اختفيتَ بشكل غامض.. ومرت أسابيع على غيابك.. ونتيجة لإلحاح إيفا وشكوك صديقتي التي أدركت مشاعري نحوك.. ولكي أطمئن فعلًا وأعرف سر غيابك، زرت بيتكم.. وهالني ما سمعت من أمك بأنك أُعتقلت فجرًا وجرجروك من سريرك.. وكانت هي لا تعرف عنك شيئًا على الرغم من سعيها مع خالك وزوج خالتك للبحث عنك من خلال علاقاتهم.. إلى أن تم إفهامهم بأن يكفوا عن البحث عنك.. فأنت سجين عند السلطة.

كان وقع الخبر عليّ صاعقًا.. بل وعلى إيفا التي عاشت فترة من الكوابيس..فهي لم تفهم سر غيابك..بل كانت تنظر لي بغرابة وكأنني بها كانت تظن بأنني أبعدتك عنها عمدًا، بل إزداد ذلك حينما دخلت فترة الصبا وتحولات المراهقة..! المهم، عادت لعلاقتها الطيبة معي بعد كنت آخذها معي عند زيارة والدتك أسبوعيًا.. إلى أن عرفنا، بعد سنوات، بأنهم نقلوك إلى مستشفى الجملة العصبية، فأخذنا نزورك. أمك كانت تزورك باستمرار على الرغم من مرضها الشديد، فقد حطمها اعتقالك كليًا..

خلال تلك السنوات عشتُ فترة مظلمة من حياتي. وما جعلها أكثر عتمة، ما جرى لي قبل ثلاث سنوات، أي منذ نقلك إلى المستشفى، حينما اكتشفت أن زوجي على علاقة مع فتيات يعملن عنده في الشركة. وحدث هذا مصادفة حين التقاه آدم الندّاف زوج حوّاء الندّاف التي كانت عشيقتك في أحد الفنادق خلال إحدى سفراته، المهم.. هو أخبر زوجته وزوجته أخبرتني.. وحين واجهته لم ينكر، بل أخبرني بأنه رجع إلى عقيدته المسيحية، وأنه مستعد لطلاقي إن شئت..! فوافقت من دون أيما تردد.. فقد كنا قد توقفنا أن نكون زوجا وزوجة قبل ذلك بفترة طويلة.

كان الأمر صدمة حطّمتني.. وتطلقت.. وفي تلك الأثناء مرضتْ أمك جدًا.. وحين عرفت بحالي دعتني مع إيفا للعيش عندها في البيت هنا. وحدث أن طليقي وإحدى عشيقاته لقيا حتفهما في حادث على الطريق حيث اعترضتهما سيطرة وهمية.. قتلوهما وأخذوا السيارة مع الأموال التي كان يحملها.. كانت تلك صدمة أخرى، حزنت فيها لحزن إيفا على والدها.. وبعد فترة قصيرة من الحادث اكتشفت أنه مفلس إذ اتضح أنه كان مقامرًا، وتم حجز المنزل والشركة، ولم نرث سوى مبلغٍ كان هو قد وضعه في حساب بنكي باسم إيفا.. والدتكَ توفيت قبل ستة أشهر.. فواصلنا زيارتك أنا وإيفا.. إلى أن جاءت الرحمة الإلهية وحدثت المعجزة فأفقتَ.. واستعدتَ ذاكرتك..! هذه وقائع ما جرى..

- وحوّاء النداف..؟ سألت مستفسرًا.

نظرتْ إليّ لثوان مستغربة سؤالي، لكنها أجابت بكل تلقائية:

- لاشيء..أول الأمر ظننتْ إنني أخذتك منها لنفسي..! لكنني شرحت لها بأنك أُعتقلت فخافتْ أن تسأل ثانية.. وعرفتُ منها أن زوجها اشترى لها شقة في بيروت فصار تقضي هناك أشهر الصيف.. وكما أخبرتني صارت تتخذ عشاقًا من الشباب الذين يعتاشون من هذه المهنة بمرافقة النساء الأكبر سنًا.. وطبعًا بعد أن تدفع لهم. لم أرها منذ فترة طويلة.. وسمعت بطريقة غير مباشرة من إحدى الصديقات بأنها قبل سنتين ذهبت لتحج الكعبة.

فجأة وجدت سؤالًا قد انبثق في ذهني لسبب أجهله، فسألت:

- وأنا..؟ ماذا كنت أفعل خلال الأشهر الباقية من تلك السنة التي سبقت اعتقالي..!

نظرت إليه متأملة للحظات ثم واصلت قائلة:

- كما أخبرتك.. أربعة أشهر كنت تلتقي حوّاء الندّاف في بيتي.. ثم صرت تلتقيها في بيتها.. إلى أن تم اعتقالك..

راودني شعور بأن الأمور اتضحت لي، على الأقل فيما يخص الفجوات الزمنية التي عشتها. ومع ذلك شعرت بالحزن والارتباك لما آل إليه وضع حوّاء الدلّال.

في تلك اللحظة تراءت لي أمي. لكني كنت أعرف من كلام الطبيبة وحوّاء بأن أمي قد ماتت، لذا فهذا هو شبحها أو روحها بلا شك..! لكن لا.. هي هنا بحضورها الواقعي. رأيت أمي في ثوب أبيض تنظر إليّ بحنان وتشير إليّ بحركات وكأنها تقول لي لا تقسو عليها فهي تحتاج للحنان والاهتمام.. ثم نظرتْ أمي إليها بحنان وأعادت النظر إليّ ثم اختفت.

انتبهت حوّاء الدلّال لانشداهي ونظرتي إلى جهة منحرفة قليلًا عن نظراتي إليها.. التفت نحو تلك الجهة فلم ترَ شيئًا، لكنها لم تسألني. ولا أدري من أين انبثقت في ذاكرتي مشاهد لي معها ومع إيفا حينما كانت طفلة..! فقلت لها:

- قد يبدو لك غريبًا إذا ما قلت لك بأنني أتذكر بوضوح كبير الكثير من التفاصيل التي تجمعنا..!

نظرت إليّ باندهاش وسألت:

- مثلا..؟

- هل تصدقين وأنا جالس أمامك في هذه اللحظة يمر أمام عيني الداخلية مشهد ذلك اليوم حين صرفت السائق، وصعدنا سيارتك.. أنا إلى جانبك وإيفا في المقعد الخلفي..انطلقنا من بيتكم وتوجهنا نحو الشارع الذي يتجه بموازات الحديقة الكبرى في المدينة.. وتوجهنا نحو المنطقة الشعبية القريبة منها ثم المتحف التاريخي، بعدها عبرنا أحد الجسور الذي يقسّم المدينة إلى شطرين، وانعطفنا يمينًا إلى شارع الرشيد، ثم اجتزناه إلى ساحة التحرير الشهيرة في المدينة، ثم جلسنا في أحد المطاعم، بعدها عُدنا إلى البيت وواصلنا بقية المساء.

نظرت إليّ بدهشة صادقة وقالت:

- ما هذا؟ أنتَ لم تستعِد ذاكرتك فحسب وإنما هي متوهجة ومتقدة كفص من الكريستال..!

أسعدني قولها ووجدت فيه دعمًا نفسيًا فاسترسلتُ بحماس:

- نعم..نعم.. أذكر أشياء أخرى. فمرة حدث شيء جميل. فعادة إنك في البيت

ترفعين حجاب الرأس، لكنك ذات يوم تصفحتي مجلةٍ للأزياء، ولفتت اتباهك صور لعارضات أزياء يضعن طاقيات على الرأس، فذهبتِ واشتريتِ طاقيات ومناديل وبلوزات وقمصان كما في المجلة بالضبط، كنا نحن الثلاثة في البيت فقط، أنت وأنا وإيفا،.. فوضعتِ طاقية صفراء اللون غطّتْ رأسك بإستثناء بعض الخصل التي برزت وتدلت بشكل مثير على جبينك.. وكنتِ حينها ترتدين بلوزة صوفية صفراء اللون تميل إلى البرتقالي، وتضعين وشاحًا أسود على كتفيك. حينها كانت الصغيرة إيفا في حجري، وكنّا ننظر إليك وأنت تستعرضين وتتحركين أمامنا بمرح كعارضات الأزياء، بل كنتِ تذهبين إلى غرفتك فترتدين طقمًا آخر.. ثوبًا أنيقًا أسود مع طاقية رأس سوداء أيضًا. وبالطريقة نفسها حيث تتدلى خصلتان على جبينك فتزيدك إثارة وجمالًا.. كنّا أنا وإيفا نضحك.. وأذكر في ذلك اليوم قدّمتْ لنا عرض أزياء مثيرًا ومرحًا يكشف عن ذوق رفيع في اختيار الألوان، لكني انتبهت إلى أنك تميلين للون الأصفر القريب من البرتقالي، وكذلك للأسود... أو جئت في ثوبٍ أسودَ وفوقه ارتديتِ بلوزةً رمادية وعلى رأسك شال أحمر..! بل إنك فاجأتِ صديقاتك بطاقياتك المختلفة الباهرة، فمرة ترتدين فستانًا أحمرَ مع طاقية رمادية اللون على الرأس، ومرة فستانًا أصفر بربطة رأس زرقاء.. ومرة ترتدين فستانًا أسود من القطيفة وطاقية سوداء تستقر على منتصف الرأس بينما مقدمة رأسك ظاهرة بخصلاتها المثيرة.. ومرة ترتدين بنطالًا ورديًا وجاكيت وردي مع طاقية رأس لازوردية اللون.. وهكذا حتى أخذت صديقاتك يقلدّنك..لكنك كما يبدو سئمت من كل هذا..! وكم أتمنى أن أراك بثوبك الأسود القطيفة وطاقيتك السوداء..!

نظرت إليّ مستغربة وسألت بخجل:

- ياه.. يا لذاكرتك الطيبة والجميلة التي تحتفظ بأكثر اللحظات بهجة..! هل تود أن أرتدي لك ذلك..؟

- نعم.. قلت مرتبكًا..

كنت أرى الدهشة والانبهار في عينيّها. ظلت لثوانٍ غير مصدقة ما تسمعه مني، ثم فجأة ارتبكت قائلة:

- سيكون لك ذلك..لدي الكثير من الثياب اسوداء اللون..لكن هل تتذكر أشياء أخرى؟

- مثل ماذا؟ سألتُ.

ارتبكت وارتسمت الحيرة على وجهها، ثم قالت ببطء:

- أشياء بيني وبينك..!

ارتبكت وتلعثمت وقلت :

- لا..في هذه اللحظة لا أتذكر شيئًا..

نظرت إليّ وكأنها تريد ان تختبر صدق قولي من عدمه. ثم قامت وقالت:

- انتظر..

وذهبت إلى غرفتهما. بقيت في مكاني وأنا انتقد نفسي لأني خجلت وارتبكت من أن أقول لها بأني أتذكر مشاهد جرت بيني وبينها..!

لم تكن مشاهد فاضحة جدًا، لكني استحضرت مشهدًا حينما تعرّضت الصغيرة إيفا لنزلة برد وصعدت درجة حرارتها ونامت في حضني.. كان الوقت مساء وزوجها مسافر ومساعدة المنزل ذهبت لعائلتها في ذلك اليوم، فقمت حاملًا الصغيرة إلى غرفتها، لكنها طلبت مني أن أضعها على السرير في غرفة نومها هي، تريد أن تنام الصغيرة إلى جانبها، وكانت أول مرة أدخل فيها إلى غرفة نومها..!

كانت الصغيرة غارقة في النوم..وكانت هي لا تستطيع تركها وحدها فجلست عند حافة السرير.. ولم أستطع أنا مغادرة الغرفة فجلست إلى جانبها على حافة السرير.. وكان بيننا توتر نفسي وأمواج إثارة قد اجتاحنا.. وأنّت الصغيرة، فقفز كلانا نحوها بمدّ جسدينا إليها فصرنا وكأننا مستلقين معا لكن الصغيرة عادت لنومها.. بقينا على تلك الحالة للحظات مشحونة، ولا إراديًا أدرتها على ظهرها والتقمت شفتيها بقبلة حارة ولم تعترض بل وجدت فيها متنفسًا للتوتر الذي نعانيه والشغف الذي بيننا..لكنها فجأة دفعتني عنها برفق وقالت لنذهب لغرفتها..وقامت قبلي وغادرت الغرفة وتبعتها..

وما إن صرت في غرفة الطفلة إيفا حتى احتضنّا بعضنا بشراهة وأحسست أنها تريد تكرار مشاهد ما كانت صديقتها تقوم به فالقيتها على السرير وعريت الجزء الأسفل من جسدها وأخذت أداعب صدرها.. لكن فجأة، وقبل أن أولجه فيها، قفزت هي مرعوبة وكأنها انتبهت لما تقوم به وغادرت الغرفة.. ذهبت إلى غرفتها، لكنها كانت قد أغلقت الباب من الداخل بالمفتاح.. وحين طرقت الباب عليها قالت لي متوسلة بأن أذهب الآن فهي تريد أن تكون وحيدة..

لكني وقبل أن أغادر البيت دلفتُ إلى غرفة الطفلة جلست على سريرها.. تمددت عليه.. لا أعرف السبب الذي دفعني لذلك ثم فجأة نهضت وغادرت الغرفة.. اقتربت من غرفة نومها أردت أن أطرق الباب.. وقفت قرب الباب تراودني الرغبة وشعور ذكوري عنيد برفض الفشل.. لكني تراجعت وغادرت المنزل. هذا المشهد حاضر في ذهني، بل هو الوحيد واضح جدًا..! لكني ترددت من القول بأنني تذكرته.. ومن المؤكد أنها كانت تقصده.

مرت دقائق وأنا استعيد ذلك المشهد.

فجأة أطلّتْ عليّ وإذا بها أكثر جمالًا مما كانت في ذاكرتي، لا سيما وهي الآن امرأة أربعينة ناضجة وشهية وكلها إثارة مع طبقة من الحزن الشفيف الذي يمنحها هيبة وبهاء.

ولم تكن تجلس حتى رنّ جرس الباب، فذهبتْ لتفتحه.. وما هي إلا لحظات حتى سمعت صوت إيفا وهي تسألها متفاجئة عن هذا اللبس الجديد.. وسمعت حوّاء تقول لها بأنها أحبّت أن تغيّر شيئًا من عادات لبسها، ولم تقل لها بأنها لبست هذه الثياب بناء على رغبتي.. وقد أسعدني أنها جعلت من الأمر سرّا بيني وبينها!

٧

جنون الحياة

مرتْ الشهورُ التي خلالها استعدتُ آدميتي، ونفسي، وحيويتي، ورجولتي ورغباتي التي صارت تلح عليّ بشكل واضح. بيد إن الوضع في البيت صار معقدًا بالنسبة لي. فحوّاء الدلّال استمرت في معاملتي بحنان تمتزج فيه مشاعر الأمومة وولة العاشقة التي خسرت كل شيء ولم يبق لها سوى رجلٍ معذبٍ ومحطم، بينما المراهقة إيفا وجدتْ الرجلَ الذي أحتل طفولتها وخيالها وهي تخطو نحو عالم الأنوثة. وأنا صرت أجيد الدورين، فمع الأم أُبدي استسلامًا لها كطفلٍ مدلل، لا سيما وأنا أراها سعيدة بهذا الدور، ومع المراهقة إيفا، التي تفتح جسدها فصارت تبدو أكبر من عمرها بكثير، صرت كأنني رجلها المنتظر وحبيبها.

بعد سنة من هذا لم استطع الاستمرار في إجادة هذا الدور. لا سيما وأنني أخذت استمتع بما ورثته من مال. وطلبتُ منهما أن ننتقل إلى البيت الذي ورثته من خالتي، ونتقاسم العيش، كل أسبوع في بيت. ووافقتا. ولأن بيت خالتي واسع وفارِه، فصار لكل منهما غرفة واسعة تشبه جناح في فندق مكتمل من كل الجوانب.

استعدتُ قراءاتي. وصرنا بمرور الوقت نقضي وقتًا أكبر في البيت الجديد، وصار تواجدنا في البيت القديم قليلًا..ثم صار نادرًا إلى أن انقطعنا عنه، ولا نتذكره إلا كل ثلاثة أو أربعة أشهر فنذهب جميعنا لتنظيفه مما علق فيه من غبار ونفتح النوافذ لتهويته. وقد ألحّت علي حوّاء بتأجيره، لكني رفضت، فلا أريد لأنفاس أمي أن تختفي منه. ولم أكن أعرف أنه سيصير مكانا آخر لأسراري.

أذكر مرة أنني قرأت بأن البوذية ترى أن الوجود البشري ذو طبيعة شريرة بسبب وجود الغرائز والرغبات والشهوات في أعماق الإنسان، لذا فهي تسعى لإماتة الرغبات في الجسد، لكنني شخصيًا مع عودة الرغبات والشهوة الجنسية إلى جسدي ونفسي شعرتُ أنني صرتُ إنسانا من جديد.

أنا آدم بهاء الدين العائد من سنوات الغياب والجنون أعلن بأن نزعة الشر موجودة في الإنسان وتتجسد من خلال صراع ما يسمى الجسد والروح. لكن ما هو الخير وما هو الشر؟

كل إنسان يسمي الأشياء التي تلائمه وتعود عليه بالمنفعة والمتعة خيرًا، ويسمي عكس ذلك، أي كل ما يسبب له الألم والحرمان وصد الرغبات شرًا. بيد إن هناك شيء غير مريح في الأعماق اسمه الضمير.. فهو مثل أفعى ملتفة حول نفسها، وفي حركتها تلدغك، إذ أحيانًا نستمتع بأشياء كثيرة، لكن أفعى الضمير تلدغنا، لأن بعض هذه المتع فيها من المكر والدناءة الكثير. وهذا ما جرى لي مع حوّاء الدلّال وابنتها المثيرة إيفا.

صارت حياتنا المشتركة واقعًا مقدرًا بحيث لم نفكّر يومًا أن نناقشه. فعيشنا المشترك أمر لا نقاش فيه، لكن ظلال الرغبة صارت تلحّ وتظهر في النظرات والحركات ولغة الجسد.

أحيانًا كنت أتمنى لو لم استرجع رجولتي ورغباتي، بحيث تكون علاقتي بهما بريئة وطاهرة، لكن من ناحية أخرى كانت تلك الحياة لا يمكن أن تسمى بحياة، وإنما العيش فقط، أكل وشرب وتغوط ونوم. الرغبة والشهوة الجنسية تمنح الوجود البشري معناه مهما حاولنا أن نقمعها، وليس عبثًا أن يغري القرآن الناس بالحوريات والجنس في الجنة.

كان جسد حوّاء الدلّال على الرغم من طهارتها النفسية والروحية وتحفظها وعفتها يضج بالرغبة، وربما كانت هي تعي كل ذلك وتكبته..! فقد أرادتُ ذات مرة ارتداء معطف شتوي، فجاءتْ لتساعدني في إدخال ذراعي في مكانها بالمعطف، ومن دون قصد التصقت بي من الخلف، فمس نهداها وبطنها ظهري، وعلى الرغم من أن سماكة المعطف كانت حاجزًا لكن تلك الحركة أشعلت نارًا بيننا.

وانتهبت إلى أن نظراتها بدتْ مرتبكة بل وصارت تتحاشا النظر إليّ، ومع ذلك صارت تحاول أن تعاونني في لبسي، وتكرر التماس معها مرة أخرى لا إراديًا.. بل وتكررت مثل تلك اللمسات والتماسات، وصارت تحاول أن تنفرد بي بعيدًا عن انظار

ابنتها، لكني استطيع أن أقول إنها كانت تسيطر على رغباتها، وربما تكتفي بتلك اللمسات والاحتكاكات بيننا.

الإنسان كائن هش. فكما أنه لا يستطيع الحياة إلّا على الأرض وفي مستوى سطح البحر، لأنه سيتعرض لاختلال الضغط الجوي سواء إذا ارتفع عاليًا أو هبط في أعماق الأرض أو تحت سطح البحر، كذا أن عالمه النفسي يتخلخل نتيجة للضغط أيضًا.

في صباح أحد الأيام اتفقت معهما على أن نخرج لأسواق تجارية جديدة قد تم افتتاحها، وأن نتناول وجبة الغداء في أحد المطاعم. كنا قد تهيئنا تقريبًا، سوى إيفا التي كانت لا تستقر على ثوب معين إذ كانت تغيّر ملابسها مرات ومرات.

كنت انتظر في الصالة، وفجأة، وعلى غير انتظار رنّ جرس الباب. وحينما فتحتْ حوّاء الدلّال الباب فوجئت برجل مسن بمعية شاب بعمري. سألوها بارتباك إن كنتُ موجودًا. جاءتني مستغربة بأن هناك رجلان يسألان عني. اندهشت من الخبر وتضايقت قليلًا من هذه المفاجئة. حين صرت عند الباب فوجئت بخالي وأحد ابنائه عند الباب، فرحبّت بهما.

دعوتهما للجلوس في الصالون. جاءت حوّاء وابنتها لتسلّما عليهما وتقومان بواجب الضيافة. انتبهت إلى أن ابن خالي أخذ يلتهم إيفا بنظراته، بينما خالي ينظر بطريقة مستفسرة إلى حوّاء، فعرّفتهم ببعضهم البعض، بالأسماء والصفات.. خالي وابنه..وهذه السيدة حوّاء الدلّال وابنتها إيفا. وطبعا انتبها إلى أنهما يتصرفان بحرية في البيت فاستغربا أكثر.

لم يطل الوقت حتى كشفا عن نيتهما من هذه الزيارة. بدأ خالي بالاعتذار عن عدم زيارتي للمستشفى، خلال السنوات الثلاث التي قضيتها هناك، وأيضًا بعد خروجي منذ أكثر من سنة، وأن ظروفه لم تعد كالسابق، فقد تم خطف ابنه الأصغر من قبل إحدى الميليشيات الإسلامية ودفع مبالغ كبيرة لإخراجه، وأنه تسقَّط أخباري فعرف أنني أعيش في هذا المنزل الذي أورثه لي زوج خالتي رسميًا، وأنني تركت منزل والدتي، وهو يطمح أن أمنحه ذلك المنزل.

جاءت حوّاء الدلّال وهي تحمل صينية فيها فناجين القهوة بينما حملت إيفا

صينية فيها حلويات، وانتبهت كيف كان ابن خالي يتفرس في إيفا ويركز بصره عند نهديها والمنطقة بين فخذيها لا سيما وقد كانت ترتدي بنطالا ضيقًا، أما الأب فكان ينظر لحوّاء بغضب مكتوم لا أعرف سببه.

لا شعوريًا، لا أدري من باب الخبث والاستياء من خالي وابنه الذي تفرّس في إيفا، أو حبّا بحواء وابنتها، فقد قلت لهما بأنني أتأسف جدًا لأن الطلب جاء متأخرًا لأنني قبل أسبوعين قد سجلت المنزل باسم السيدة حوّاء الدلال في دائرة الطابو العقاري.

كان وقع جوابي علي الجميع كالصاعقة، بمن فيهم حوّاء الدلّال التي تجمدّت ملامحها. نظر خالي إليّ نظرات غامضة. ومن دون أن يتناول الشاي نهض عن مكانه. لم يقل لي شيئًا، ابنه لم يكن يفهم شيئًا من تصرّف والده، إذ كان يريد أن يبقى أكثر ليمتع بصره من هاتين المرأتين المثيرتين. نظر خالي إلى حوّاء الدلّال نظرة فيها غضب مكتوم وقال لها بنبرة فيها حقد لم يستطع كتمانه:

- مبروك عليكِ البيت..!

وغادرا دون أن يلتفتا إليّ، مع أني تبعتهما حتى الباب مودعًا. ظلت حوّاء الدّلّال جامدة في مكانها لا تفهم ما أرادا ولماذا أنا أجبت بهذا الشكل. كانت هي وإيفا لا تزالان واقفتين، فقلت لهما أن تجلسا. جلستا على الأريكة الكبيرة وجلستُ على المقعد المقابل لهما. وقبل أن أقول شيئًا بادرتني بالسؤال:

- لماذا أجبته هكذا يا آدم ووضعتني في موقف محرج..؟

لم أجب مباشرة، ظلت هي تنتظر بتوتر، وبعد لحظات قلت :

- لم أمزح.. كنت جادًا.. هما جاءا ليأخذا بيت أمي هكذا ببساطة.. أين كانا حين كنت في مستشفى المجانين.. ومنذ سنة أيضًا أنا أعيش في بيت أمي لم يزرني أحد منهم.. الآن بكل بساطة يريدان البيت هديةً لوجه الله..! أنتما عائلتي.. أنتِ وإيفا.. لا أحد لي غيركما... أنتما اللتان سهرتما معي وقت كنت مجنونًا وفاقدًا للذاكرة.. وأنتما كنتما مع والدتي في سنوات فقداني وسنوات مرضها.. أنتما الأحق بكل ما أملك وهذا بيتكما وذلك المنزل أيضًا.. وأنا تقصّدت قول ذلك وأعني ما أقول.. من الغد سأكلّف المحامي بأن يسجل البيت باسمك.

انتبهتُ إلى مقلتيّ حوّاء وقد اغرورقتا بالدموع، وكذا عينيّ إيفا التي لم تستطع أن تسيطر على دفق انفعالاتها، فقامت من مكانها واحتضنتني بقوة وأخذت تقبلني، ولولا حساسية الموقف وما قلته لشكت حوّاء بهذه القوة من الاحتضان والقبل. وأنقذ الموقف ما قالته إيفا أثناء ذلك بأنني إنسان رائع، وأنها سعيدة جدًا لأنها فعلا تشعر بأننا عائلة واحدة وأنها لم تتوقع بأني أحبها وأحب وأمها كل هذا الحب..، ومدّت حوّاء أثناء ذلك يدها إليّ ومسكت كفي وضغطت عليها.

كانت ترتعش.. كانت في حالة هيجان عاطفي، لكنها حاولت أن تكتم انفعالاتها، لكني أحسستُ أنها كانت ترتعش من اللذة.. إذ ارتعش ما تحت جفنيها وشعرت بانخطافها الجسدي لثوان، ثم استرخت. أحسستُ لثوان أنها غابت عن المكان..، وبعدما استرجعت حالها قالت لي بأنه على الرغم من كل ذلك فلا يجوز أن أقدم على خطوة تسجيل البيت باسمها فهي لا تقف إلى جانبي وجانب أمي من أجل مقابل مادي أو مكافأة..!

نظرتْ ابنتها إليها من دون أن تفهم شيئًا من ردة فعل أمها، فقلت لها بأنني أريد أن أضمن حياتهما بعد كل ما جرى لها مع زوجها، وأنهما عائلتي.. وفجأة وبطريقة خرقاء قلت لها:

- هل تتزوجيني..؟

كان سؤالي صادمًا لكليهما. فأردت أن أحتوي الموقف فقلت موضحًا:

- أنتما تعرفان أنني ورثت هذا البيت وأموالًا طائلة لو كان خالي يعرف مقدارها لأصيب بالسكتة القلبية، وكذلك ورثت بيت أمي وما لديها من أموال.. ولو قُدّر أن يحدث لي مكروه فسيرث خالي كل شيء.. إذ لا أحد بقي من عائلتي غيره.. لذا أريد أن يكون كل ما أملك لكما وأن زواجي منك هو أفضل طريقة لضمان ذلك.. هل فهمتني!؟.

يبدو أن ما شرحته لهما كان مقنعًا ومنطقيًا. نظرت إيفا إلى أمها. ولم أحزر لحظتها ماذا كان يصطخب في أعماقهما من مشاعر، بيد إني انتبهت لحوّاء وهي تقول لي:

- لكني أكبر منك بعشر سنوات!

ارتحت لاعتراضها، إذ أن هذا يعني أنها تقبلت الفكرة والعرض، ولم يبق إلا تنقية بعض الاعتراضات الشكلية كالعمر، فقلت لها:

- متى كان العمر يشكل فارقًا أمام المشاعر النقية والوفاء. ألم تتابعي حالي وأنا في السجن ثم في مستشفى المجانين ثم السكن مع أمي والوقوف إلى جانبها.. هل سألتِ نفسك يومًا بأنك أكبر مني..؟ (والتفت إلى إيفا وخاطبتها): وأنت أيتها الأميرة الجميلة.. هل فارقتُ خيالك يومًا.. (فهزت رأسها نافية).. إذن أنتما كنتما تنتظراني وها نحن منذ سنة نعيش معًا، وأنا كما قلت لكما لا أحد لديّ غيركما إلى جانب أننا نعيش في البيت نفسه كعائلة.. يعني لا نحتاج سوى توثيقها رسمًا وهذا ما سيمنحني السعادة فعلًا لأني أشعر أنني ضمنت حياتكما من جهة وارتبطت بكما بشكل وثيق وشرعي ورسمي.

هيمن الصمت الكلي بالمعنى بيننا. أحسست للحظات أن حوّاء كانت سعيدة جدًا لكنها في الوقت نفسه مترددة، وكانت تنظر إلى ابنتها لترى ردود فعلها، والتي على غير توقع منها قالت لها:

- وافقي يا أمي.. لنكون عائلة حقيقية ورسمية.. عمو آدم يقول أشياء صحيحة.. نحن نحبه وهو يحبنا..

لأول مرة اطلقت إيفا عليّ اسم (عمو.. العم)، فمنذ الصغر كانت تناديني باسمي. كانت أمها تنهرها وتطلب منها أن تناديني بالعم.. لكنها كانت تصر أن تسميني آدم.. الآن لأول مرة نطقت بهذا اللفظ.. أنا لم أعر انتباها للّفظ، لكن أمها انتبهت.. نظرت إليّ وقالت بأنها تحتاج للتفكير فقلت لها بأن تأخذ وقتها، لكن إيفا قالت لها بمرح وتوسل بأن عليها أن توافق..

- „وافقي.. وافقي ياماما".

نظرت حوّاء إليّ نظرة جديدة مليئة بوعود المتعة، نظرة تجاوزت فيها خفرها وخجلها، وقالت مبتسمة وبهدوء:

- على بركة الله..فقفزت إيفا إليها مقبّلة، ونحوي أيضًا.

أحيانًا تمر لحظات خاطفة في الحياة تغير مسار حياتنا وتدور بنا في منعطف جديد لم نكن نتوقعه أبدًا. بل إن هذه اللحظة تمحو كل ما كنّا نخطط له ونفكر فيه لسنوات أو أشهر طويلة، أو لأيام، وكأن شيئًا لم يكن. وهذا ما جرى معي في ذلك اليوم.

وفي تلك اللحظات، بعد طلبي ليد حوّاء الدلّال للزواج، فقد نظرت إيفا إلينا بتفحص وبنظرات مرحة مخاتلة وقالت:

- ماذا ننتظر.. هيا إلى مكاتب عقد الزواج الشرعي ومن ثم إلى المحكمة..! أمامنا ساعات إلى انتهاء الدوام.

أخرسنا هذا الاقتراح. لكن بصراحة لا أعرف ما أصابني.. فذاكرتي ممنتجة وكأن هناك فيلمًا سينمائيًا يُعرض فيها. فكثيرًا ما يتم اختزال الأحداث والتفاصيل التي ربما لا تريد ذاكرتي الإحتفاظ بها. لكن تفاصيل ذلك اليوم بقيت طرية وندية ومتوهجة، فما إن قالت إيفا: „هيا إلى مكاتب الزواج" حتى وجدت نفسي معهما عند مجمع المحاكم، عند المحكمة الشرعية. ثم وجدت نفسي معهما عند مكتب أحد رجال الدين الذي قام بتحضير الشهود أيضًا. ومن ثم وجدت نفسي معهما في مطعم شهير في المدينة..! لكن إلى الآن أعجب وأسأل نفسي: „من كيف جرت كل هذه الأشياء بهذه السرعة الخاطفة؟".

أردت انهاء جلستنا في المطعم والعودة إلى البيت الذي هو ليس ببعيد عن منطقتنا السكنية، لكنهما أرادتا التجول في بعض الأسواق التجارية هناك أيضًا. استجبت لرغبتهما، لكني لم اتوقع أن الوقت الذي قضيته معهما ونحن نتجول في الأسواق ومحلات الألبسة كان عذابًا.

انتبهت إلى أنني اهتم بإيفا أكثر من أمها، وأغضب حينما أراها تتلقى نظرات الإعجاب والإغراء المبطن نحو شباب بعمرها أو أكبر قليلًا ..!

كما كنت أستاء وأحنق وأُستفز حينما أرى الرجال والشبان ينظرون إلى مفاتنها. إلى نهديها المثقلين وكأنها امرأة في الثلاثين وردفيها وما بينهما وقد برز بفعل البنطال الضيق.

وكانت زوجتي حوّاء قد انتبهت لوضعي النفسي، فسألتني بهمس:

- ما بك؟ ما الذي يضايقك؟

ارتبكت وقلت لها:

- „أنا في شوق للعودة إلى البيت".

فابتسمت وضربتني بما يشبه اللمس مازحة وقالت باستحياء:

- „الليل كله أمامنا"،

- فقلت لها: „أريد أن أدخل بك الآن لا أستطيع الصبر إلى الليل".

فارتبكت خجلًا وتوهجت رغبة.

لا يزال في ذهني مشهد ساخن أقرب لأفلام البورنو. مشهد أبطاله أنا وزوجتي حوّاء. في بداية المشهد كانت تستحي وتخجل، بل وبالكاد وافقت أن أشعل ضوء المصباح المنضدي، فقد أرادتْ أن يتم كل شيء في الظلمة. لكنها انزلقت شيئًا فشيئًا في تيار الرغبة المتدفق. كانت تتفاجأ ببعض حركاتي في تعاملي مع جسدها، لكنها تجد نفسها غارقة في اللذة. بل اعترضت على بعض ما فعلته وما طلبته، ومع ذلك انسجمت معه بشكل مدهش حتى هي خجلت من نفسها وتأوهاتها الشبقة فأخذت تعض على كفها كي لا تطلق تأوهات وصرخات قد تسمعها ابنتها في الغرفة المجاورة. وقالت لي فيما بعد بأنها لم تكن تصدق بأنها ستفعل كل هذه الأشياء أو تنطق بهذه الكلمات التي سابقًا تعتبرها مبتذلة.

في تلك الليلة لا أعرف كم مرة ارتعشت هي، وفي كل مرة كان جسدها يهتز بشكل واضح، إلى أن تعبنا. فأعطتني ظهرها فاحتضنتها بذراعي، وشعرت بها وهي تقبّل كفي حبًا وشكرًا.

أعرف أنني وغد، تقودني شهوتي كأي كلب، مسكون بهواجس وأحلام يقظة لا تنتهي ولا تعرف النفاد، في أعماقي صراع بين الطيبة والتسامح، وبين الدناءة والمكر والخبث. إذ إنني صحوت في ساعات الفجر الأولى، وكانت هي في سبات عميق، مسترخية وقد ارتوت من اللذة. لكن مع أني تعبت من عدد المرات التي مارست فيها معها، بيد إني لم أكتف..!

تسللت من السرير بخفة كي لا أوقظها، وكاللص توجهت على أطراف أصابعي إلى غرفة إيفا..!

فتحت باب الغرفة فرأيتها نائمة في سريرها وهي تحتضن الوسادة. كانت نائمة في وضع مثير، لكن في تلك اللحظة تخيلت الطفلة إيفا في سريرها أيضًا.

غادرت الغرفة، ونزلت الطابق الأسفل حيث الصالة. جلست هناك.. كان النعاس قد هرب من عينيّ، بل شعرت بنشاط وكأني نمت ساعات طويلة مع أني لم أنم سوى ساعتين. ضغطت على الريموت كونترول. شاهدت إحدى الفضائيات العربية التي تبث من خارج الخليج وهي تقدم مسلسلًا عربيًا عن مرحلة قديمة مرت بها البلاد. انتقلت إلى قناة أخرى تهتم بعالم الحيوان، وكانت تقدم برنامجًا عن صيد الأفاعي والتماسيح. جذبني البرنامج.. شعرت بالخوف من رؤية الأفاعي لا سيما وأن الكاميرات البعيدة كانت تصور لقطات لها وهي تفتح شدقيها لتقفز لأصطياد الطريدة. كانت هناك لقطات لعقدة من الأفاعي الملتفة حول بعضها في سلام واسترخاء. ولقطات لتمساح يبدو وكأنه قطعة طين طافية على سطح النهر، وشيئًا فشيئًا تصعد كتل الطين لتبدو عين التمساح وهو يتحرك لأصطياد فريسته العطشى التي جاءت لتروي عطشها ليلًا.

كنت مندمجًا مع البرنامج كطفل صغير يرى غرائب العالم، لكن فجأة رأيت حوّاء قد صارت أمامي وهي في ثوب النوم الشفاف الذي يكشف عن عريها. كانت تنظر إليّ نظرات متفحصة.. وسألتني:

- لماذا أنت هنا؟ ما بك؟ لقد استيقظت فرأيتك غير موجود إلى جانبي.. مررت على غرفة إيفا.. كان بابها مفتوحًا.. أغلقته.. نزلت فرأيتك هنا. هل لديك أرق يا حبيبي.

شعرت بما يشبه الصدمة حينما ذكرت بأن باب غرفة إيفا كان مفتوحًا، يا لغبائي، كيف فاتني أن أغلقه خلفي؟ لكنها قالته بتلقائية.. ومع ذلك ارتبكت وكأنها قبضت عليّ متلبسًا بنيتي العاطلة، فقلت محاولًا تهدئة نفسي:

- لا.. لقد استيقظت فجأة وكأني قد شبعت نومًا.. ألقيت نظرة على إيفا.. رأيتها نائمة.. نزلت هنا أشاهد هذه البرامج الممتعة لكن المخيفة أحيانًا.. أنا أخاف الأفاعي وكل شيء زاحف.

وأخذت كفها وسحبتها نحوي.. صارت واقفة أمامي.. أحسست أنها كانت تنتظر مني اقتحامها.. مددت يدي تحت ثوبها وتلمست فخذيها ومددت كفي بين فخذيها.. كانت رطبة.. أخذت أداعبها ولم تمض لحظات حت ابتلّت. أخذتها ومددتها على الأريكة وأخذت أقبلها من الأسفل إلى الأعلى ثم أدرتها على بطنها ورفعت قسمها الأسفل.. نزعت بيجامتي وأولجته فيها. كانت متجاوبة وشبقة ولكي تكتم تأوهاتها أمسكت فمها بكفي. كنت حينها كالمجنون.. أفرغ في جسدها توتري وخوفي من الأفاعي والتماسيح...

كانت لقطة التمساح الذي باغت الحيوان المسكين وعض على ساقه وسحبه إلى أعماق النهر هي المهيمنة على مخيلتي في تلك اللحظات التي كنت أرى موخرة حواء المثيرة أمامي وأنا أخترق كنزها الملتهب والمبتل، بينما يدي تعصر نهدها الذي تهدّل بكل ثراء إلى الأسفل..كنت ادفعه فيها بكل قوتي وخوفي.

وفي تلك اللحظة التفتُّ جانبًا ورفعت لا إراديًا نظرتي إلى الأعلى فهالني ما رأيت. كانت إيفا واقفة عند حدود السياج الذي يحيط بالطابق الأعلى وهي تنظر بكل انتباه لما يجري.. لم تكن حوّاء منتبهة فقد كان رأسها منخفضًا للأسفل.

انتبهت للحيوان الذي في داخلي. لم ارتبك قط وإنما واصلت اندفاعي وإيلاجي القوي في حوّاء، بل وابتسمت لإيفا وحركت يدي وكأني أحييها أو أطلب منها الذهاب، فرفعت كفها قليلًا وهربت إلى غرفتها...

أنا إنسان مريض، لم أشف من هوسي الجنسي. لا أريد التبرير لنفسي بأن سنوات السجن هي التي صيرتني هكذا، لا.. فلقد عشت ما يشبه ذلك مع خالتي بعدما رأيتها في وضع مشابه مع أخي زوجها. وكما فعلت ذلك مرة مع أستاذتي في الجامعة ومسؤولة قسم اللغة الإسبانية، وكانت امرأة في الخمسين، وأنا حينها في الثانية والعشرين، وكانت قد دعتني إليها لتناقشني عن بحث نصف سنوي، وهناك وخلال الحديث، كانت الشحنات بيننا عالية، وكنت جالسًا على مقعدٍ أمامها بينما هي كانت واقفة أمامي ومتكئة على مكتبها، وكنت أرى شعاع الرغبة في عينيها، وتفاصيل فخذيها وما بينهما من خلال ثوبها الأسود الملتصق بجسدها.

فقمت بتهور مجنون، أغلقت الباب بينما كانت تنظر إليّ بدهشة وصدمة، اقتربت منها وبلا مقدمات وبشكل مفاجئ لم تتوقعه أدرتها بالكامل بحيث صار وجهها على مكتبها ورفعت تنورتها وسحبت سروالها القصير جدًا والشفاف، ثم فككت حزام بنطالي وأولجته فيها.. كانت تريد أن تقاوم لكنها كانت تخشى الفضيحة.

كنت حينها قد سيطرت عليها جسديًا بالكامل. وخلال لحظات كانت رطبة، وكانت تتمتم: عليك اللعنة.. سيأتي أحد.. آه.. أسرع.. أسرع قبل أن يأتي أحد.. خلّص بسرعة وخلصني.. سأفصلك.. سأرسلك إلى ستين داهية.. سأحيلك إلى مجلس تحقيقي يا بن الوسخة..آه..آه.. وقذفت فيها مائي. وبقيت لحظات تحتي أشعر بانقباضات رحمها. وسحبتُ حالي منها. وقبل أن تستقيم كنت قد فتح الباب وغادرت.

تركت الدوام الجامعي لخمسة أيام، واستحصلت لذلك إجازة مرضية عبر الوساطة من طبيب صديق من معارفنا، لكني كنت أسأل أصدقائي عن الأستاذة بطريقة غير مباشرة بحجة تقويمها لبحثي، فقيل لي إنها لم تحضر ليومين ثم ظهرت في اليوم الثالث، وهي تتحدث عن بعض البحوث المتميزة، وسألت عنك، لأنها امتدحت بحثك كثيرًا..، وقالت مضيفة بأن على من يتواصل معي أن يخبرني بأن بحثي نال أعلى الدرجات. ولم أصدّق ما سمعت، لكني فهمت الرسالة.

في اليوم الرابع ذهبت قبل أن تنتهي إجازتي الطبية. وفي الساحة، حيث نجلس في الفترات بين المحاضرات في الشمس، الكلية رأيتها واقفة عند نافذة مكتبها المطلة على الساحة وقد أزاحت الستائر التي تغطي ما في الغرفة. وخمنّت أنها كانت تفتش في الباحة عني. وتأكدت من ذلك حينما أشارت لي. ولم أتردد في الذهاب إليها. حين طرقت الباب وكأنها كانت تنتظر مجيئي. سمعت صوتها يقول: „ أدخل..”، وحين دخلت كانت هي جالسة على كرسيها خلف طاولة مكتبها....

لم تقم. لم ترحب بي، مع أنها كانت مسترخية وملامحها تشي برضا ومن دون أية نظرات عدوانية، وكأنها تنظر إلى طفل أو صبي مشاكس. انتبهت إلى أنها كانت أنيقة، وتلبس ثوبا أسود يكشف عن ذراعيها، لكنها كانت قد وضعت بلوزتها التي تغطي ذراعيها على كتف مقعدها. وما أن جلستُ على المقعد الذي كنت جالسًا عليه

المرة السابقة حتى بادرتني بثقة وحزم لكن بمودة:

- اسمع.. أنا لست غاضبة منك.. يمكنني أن اشتكيك بجريمة الاغتصاب الجنسي، وهذا ما حصل فعلًا، لكني عندها أكون قد عاقبت نفسي أكثر مما سأتشفى بمعاقبتك، لأنني أكون قد فضحت نفسي، بل وأتحول إلى قصة تحتاج لسنين إلى أن تنسى من ذاكرة الجامعة..وربما سيتجرأ آخرون على اغتصابي لأنهم يظنون أنني أشتهي الطلبة..!

أعرف هذا وأنت أيضا تعرف هذا..! لسنا في أوروبا أو أميركا، كما أنك لست غنيًا، كي أشتكيك وابتزك كما يجري في الأفلام الهوليودية، بل سينبري العشرات للدفاع عنك، ولا استغرب إذا ما اتهمونني أنا باغتصابك!؟. أعرف ذلك جيدًا.

وربما من المخجل والمحرج أن أقول لك بأنني أعجبت بجرأتك، بل وقد منحتني لذة نسيتها منذ سنوات زواجي الأولى، لكن هذا لا يعني أنني أغفر لك ما فعلت، وأرجو ألّا تفهم كلامي بأنني أريد تكرار ذلك وبأنني اتظاهر بعدم قبول ذلك، فأنا أرى فعلك جريمة يجب أن تعاقب عليها لكن لديّ اسبابي في عدم رفع شكوى ضدك..!! اتمنى ألّا يأخذك الغرور بنفسك وبدونجوانيتك لتروي ذلك لأصدقائك، فحينها لا يبقى لديّ ما أخسره وسأحطمك.

أردت أن أقول شيئًا، لكنها أوقفتني بإشارة من كفها وواصلت وكأنها تطلق حكما منذرًا:

- لا تقل شيئًا..لا أريد أن تعتذر عما فعلت..لأنك ستفقدني متعة اللحظة والمشهد.. هل فهمتني جيدًا..والآن انصرف.

شعرت وكأنها ضربتني الضربة القاضية. نهضت بانكسار، وعند الباب قال بنبرة غير عدائية:

- مع السلامة أيها الجريء.

أنا أعرف أني إنسان رقيق، سهل في التعامل، مسالم، لكني في الممارسة الجنسية أتحول إلى داعر شبق.. أحيانا أكره طيبتي وتواضعي ورقتي في التعامل

وترددي في استفزاز الآخرين حتى لو كانوا يستحقون ذلك..! أكره ذلك لسبب بسيط هو أن هذا التواضع ليس أصيلًا في نفسي وجزء من نظرتي لنفسي، وأنما هو سلوك مرضي غير مباشر أتوسل من خلاله نيل رضى الآخرين لكي يقولي عني إنني إنسان متواضع وطيب..!.

أنا أعرف نفسي. إنني دنيء وداعر حينما أختلي جنسيًا مع المرأة. والحياة علّمتني بأننا كلنا في أعماقنا داعرون. ومن هو ليس كذلك فهو لم تتاح له الفرص ليكتشف ذلك بعد، لأنه لم يعرف نفسه، وإنه أوهم نفسه بأنه يعرفها. كل الرجال يبحثون عن الأم وكل النساء يبحثن عن الأب.

مرّة عبّرت في جلسة عفوية عن وجهة نظري هذه أمام أصدقاء وصديقات مثقفات وبينهن ناشطات مدنيات من أجل حقوق المرأة، فتعرضتُ لهجوم شرس من قبل النساء، علما أنا عبّرت بتلقائية ومن دون قصد الاستفزاز، ولا سعيًا لمن يؤيد نظرتي. إحداهن هجمتْ عليّ كاللبوة، وسخرت من رؤيتي البرجوازية الصغيرة، الأنانية، المبتذلة والمنحطة، والحيوانية..!

حينها ومع نفسي قررت أن أريها نفسها وأؤكد لها وجهة نظري. فبدأت معها بالاعتذار وأخذت أحوم حولها وأمثل الاستماع لآرائها وصرت من اتباعها، إلى أن اقتربنا من بعضنا، ووصلنا إلى الفراش، وهناك برزت شخصيتي المسيطرة الداعرة، واكتشفت أن كل شراستها نابعة من الكبت والجهل بأمور الجنس، وأنها انطلقت معي، بل وتكشفت عن عاهرة مستترة عفيفة. وحينما ذكّرتها ونحن في أوج الشبق والأوضاع التي تعلمها البشر من الحيوانات قالت لي: ياحقير لقد حولتني إلى عاهرة.

هاتان التجربتان كانتا وأنا طالب في الجامعة..تجربتان لم تردعني وتعقّلني وأنما زادت من تهوري وتأكيد رؤيتي حول طبائع البشر، بل وقد جربتها مع العديد من النساء، فكانت أكثر النساء تحفظا وحضورًا شخصيا وتدينًا تنساق وتنزلق نحوها. وهذا ما جرى مع إيفا.

كنت معها كالثعلب الماكر والخبيث..فقد اسيقظتْ، مع استرجاع ذاكرتي،كل خبرتي في التعامل مع الأنثى. لذا أخذت ابتعد عن إيفا، واتجنب الحديث معها،

وحين نكون ثلاثتنا أركّز كل اهتمامي على أمها. كان هذا يضايقها، بل يجعلها في حيرة من أمرها.

كانت تريد أن تحدثني بأي شكل، وتلفت انتباهي بأي شكل، فكنت لا استجيب لها بسهولة، واتهرب من مدّ الحديث معها. إلى أن حدث أن أمها دخلت الحمام لتستحم استعدادًا للخروج والتنزه في منطقة راقية من مناطق المدينة المترامية الأطراف، مع أن الأجواء العامة متوترة والسيطرات منتشرة في كل مكان مما يجعل أي خروج من البيت مجرد رحلة خوف وانتظار.

كانت حوّاء في الحمام الخاص بنا في غرفة نومنا الذي يشبه جناحا في فندق. وكنت أنا انتظر في الصالون..فجاءتني إيفا وقالت بلهفة وبنبرة متوترة:

- أريدك في أمر هام..أريد أن تأتي معي إلى لقاء خاص بي..لتقول لي رأيك في كل ما يحدث معي..

فوجئت بتصرفها، واستغربت، فأجبت:

- ماذا تقصدين؟ أي أمر هام؟ وما معنى لقاء خص بك؟ مع من؟

- مع رجل تعرفت عليه وعلى علاقة به.؟

- ماذا؟

لم أصدق ما سمعت. ملأني السخط وأنا أرى ملامحها المليئة بالجدّية والترقب. شعرتُ لحظتها وكأنني خارج المكان، وكأنني في صحراء رملية لانهائية، وحيدًا، بلا زوادة ماء. بل شعرت بأن كلماتها انهكتني، وأحسست بالإعياء. وفي تلك اللحظة، ومن شدة حنقي، شعرت بالكره والضيق من هذا الكائن الجميل والمثير الذي يقف أمامي كرمز للغواية. ولحظتها أدركت غبائي. فهذه الطفلة المراهقة تضحك عليّ وتسخر مني، وقد حولتني إلى إلعوبة غيورة، إلى قرد ينط من هنا وهنا ولا يعرف ماذا يريد.

وفجأة، ولكي لا أكشف عن نفسي إلى حد العري، تقمّصت دور الأب المهتم بالعائلة، فقلت لها:

- كيف تعرفت عليه؟ ومتى؟ ومن هو؟

نظرت إليّ بلامبالاة وقالت:

- أعرف إنني أسيء إليك وأعذبك بكلامي، لأنني أعرف إنك تحبني جدًا وتشتهيني.. وأنا أيضًا أحبك واشتهيك..لكنني أعرف إذا اقتربت منك سأحترق وأحرقك وأشعل النار في هذا البيت الهادئ..وأدمّر أمي التي أراها سعيدة لأول مرة في حياتي..، لكن من جانب آخر لا أستطيع البعد عنك..! صحيح إنني وجدتُ حلًا من خلال علاقتي برجل ناضج بعمر أبي، لكنني مترددة. وصحيح إنني ارتحت له كشخص، كأب، لكنه يريدني كعشيقة.

فقلت بغضب مكتوم:

- هل مسّك؟

نظرت إليّ وكأنها لم تفهمني، فكررت سؤالي بنبرة حاولت كتمانها فربما يصل صوتنا إلى الأعلى:

- هل مسّك؟

ابتسمت وقالت ببراءة وغنج:

- طبعًا مسني..فكثيرًا ما كان يمسك ذراعي..

فقالت بنبرة حانقة:

- لا أقصد هذا.

نظرت إليّ وعلى وجهها ابتسامة بريئة، مع علمها أنها تعرف ما أقصد، وسألتْ:

- ماذا تقصد إذن..وضّح..؟

فقلت بنفاد صبر:

- أقصد هل لامسك.. قبلك.. مارس معك؟

نظرت إلي من طرف عينيها وابتسمت ابتسامة مغرية، كعاهرة صغيرة وقالت بغنج:

- وهل يهمك هذا..؟ فسواء فعل أم لا فالشيء المهم هو إنني معه..وحتى إذا لم

يحصل هذا الأمر فسيحصل ما دمت سأستمر معه.

فقلت لا إراديا بغضب وبنبرة آمرة وبشكل حاسم:

- أمنعك..

ابتسمت وكأنها انتصرت عليّ..لكني واصلت:

- سآتي معك..لكنني سأقف بعيدًا..سأراقبكما، وسأدرسه من بعيد، وحينما أجد أنه من الضروري التدخل فسآتي إليكما..وستعرفيني به..

- ولماذا لا تأتي مباشرة لتتعرف عليه.. قالت بغنج.

- أريد أن أدرسه عن بعد..كيف سيتصرف معك..قلت متوترًا.

نظرت إلي بعمق..تلفتت إلى الطابق الأعلى. كان باب غرفتنا لا يزال مغلقًا، فقالت بهمس:

- هل تريديني لك وحدك..؟

- لا تتكلمي هكذا..فأنا بمقام والدك؟ قلت لها حانقا ومستسلمًا.

نظرت إليّ كنمرة في فترة النزو وقالت:

- لكنني أريدك كحبيبي. لقد رأيتك مع أمي هنا على هذه الأريكة..أريدك أن تفعلها معي..وبنفس الطريقة..

نظرت إليها بفزع من هذه الجرأة الطائشة وقلت محاولًا كتمان صوتي:

- هل أنت مجنونة؟..

ابتسمت ورسمت علائم الاستنكار على وجهها وقالت:

- أنا مجنونة؟ هه من يقول ذلك؟ أينا المجنون..؟

ولا إراديا رفعت كفي لكي أصفعها لكنها تجمدّت في الهواء. نظرت إلى ذراعي المرفوعة متفاجئة. كانت مندهلة للحظات، ثم استرخت وابتسمت وقالت:

- مع ذلك أنا أحبك. وستأتي معي لتقابل الرجل لكونك بمثابة أبي ولتنهي تلك العلاقة لأكون لك، لك وحدك. وستكون لي. لي وحدي. سواء شئت أم أبيت. هل فهمت..؟

٨
شبح ستافروجين

«إن المرء ينتحر في بعض الأحيان خوفًا، ولكن يحدث أيضًا أن يستمر المرء في الحياة خوفًا كذلك. في أول الأمر لا يجرؤ الإنسان أن ينتحر، ثم يصبح الفعل بعد ذلك مستحيلًا. أكثر من هذا أنني في المساء شعرت نحو البنت بكره بلغ من القوة أنني قررت أن أقتلها».

تأملت هذه الجملة من اعترافات «ستافروجين» في رواية «الممسوسين» لدوستويفسكي. أعدت قراءة هذه الفقرة من الملزمة الثالثة من الاعترافات. واستعدت كل ما جرى لي مع إيفا، وكيف تداعت الأمور بطريقة سوريالية.

حين خرجت زوجتي حوّاء من غرفة النوم كانت في كامل أناقتها. لم تنتبه للتوتر المشحون بالرغبة في ما بيننا، أنا وإيفا. وغادرنا المنزل. كانت حوّاء تقود السيارة.

كان ثمة اتفاق بيني وبين إيفا بأن تقابل الرجل من دون أن تنتبه أمها، وأن عليها أن تزوغ عنّا بحجة شراء شيء خاص بها، واتفقنا بأنني سأذهب مع أمها إلى المطعم الذي في الطابق الثالث من السوق التجاري، ثم استميح أمها عذرًا لأنزل إلى المقهى في الطابق الأول، حيث سأراها مع الرجل، ثم أتقدم إليهما.. لأنها أصرّت على مقابلتي له. وهذا ما حدث.

كان المطعم في الطابق الثالث. بينما اللقاء في الطابق الأول. ورأيته، وذهلت. لا أعرف أين رأيت هذا الرجل..؟ كان على مشارف الستين من العمر. فوجئتُ. كانت تبدو هي بمثابة حفيدته..!.

كانا جالسين على طاولة وهو يمسك بيديها. لا أحد يشك بحركته لأن من يراهما يظن أنها حفيدته، لكن نظراته كانت مليئة بالشبق، وهي كانت تنظر إليه بشغف أيضًا، ويبدو لي أنها كانت تمثل الرغبة والحب لتغيظني، من حيث إنها تعرف أنني أراقبها.

لم أطق صبرًا. اتصلت بها على هاتفها النقال. وقلت لها عليها أن تنهي هذه المهزلة فورًا، وإن أمها تنتظر في الطابق الثالث، وإنني أراها الآن، فأنا قرب محل الزهور في الجهة المقابلة لهما وأنظر لهما مباشرة.

كانت وهي تسمع كلماتي تدور برأسها باحثة عني، لكن ما إن حددتْ المكان حتى نظرت إليّ.. وارتسمت علامات الارتباك على وجهها. الرجل الذي معها ارتبك ونظر نحوي لكنه لم يركز عليّ لأنه لا يعرفني. قالت له شيئًا..ارتبك هو وأخذ يلمّلم نفسه حائرًا ويخرج محفظته ليدفع. لكنها كما يبدو قد قالت له بأن والدها رآها. غادرتْ الطاولة بينما هو كان مرتبكًا وهو كالمشلول يقف في مكانه باحثا عني في تلك الفوضى من البشر والأشياء.

أقبلتْ عليّ. انتبهتُ للرجل وهو يحاول المغادرة مرتبكًا، لكنه كان لا يفارقها بعينيه، صارت قريبة مني وأبدت حركة وكأن الأمر مصادفة تلتقيني. احتضنتها، وأخذتها تحت ذراعي، وذهبنا. كانت سعيدة بهذه الحركة الأبوية الحنونة، وفي الوقت نفسه كانت تتلفت نحو الجهة المقابلة لترى إن كان عشيقها يرانا معا.

أرخيتُ ذراعي عنها وصرنا نمشي متجاورين. سألتني عنه: ما رأيك فيه؟ نظرت إليها بعصبية وقالت والكلمات تخرج ممزقة من بين أسناني:

- أنت مريضة..هو بعمر أبيك وربما جدك..!

فوجئت بردة فعلي، لكنها قالت وعلى وجهها ابتسامة غامضة:

- أعرف. أعرف ربما هذا غير طبيعي...، لكني وبصراحة أحب الرجال المسنّين. أحب الرجل ذا الشعر الأبيض. مع الرجال المسنّين أشعر بالأمان...نعم أحب الرجال ذوي الشعور الفضية..إلى جانب إنه رقيق جدًا، ويهتم بي وبمشاعري. أعرف إنه يريد أن ينام معي، لكنه صبور، لا يلح، وهو يعرف أنه آجلا أو عاجلا سينال مني ما يريد، لاسيما بعد أن أتعود على وجوده في حياتي.. هل أنت تغار منه؟.

وقبل أن أرد واصلت بمشاكسة طفولية:

- بلى..أنت تغار منه، فأنت أكبر مني أيضا بحدود ١٨ عامًا. وهو أكبر مني بأكثر من أربعين عامًا. وأنت تعتقد بأنك أولى منه بي، لاسيما وأنت بمقام أبي..صح..!؟

فقلت لها وأنا أكتم غضبي:

- أنت مجنونة؟

ضحكت باستهزاء مبطن وقالت:

- أينا المجنون حقًا..؟

غضبتُ جدًا. كنّا قد وصلنا إلى المطعم وكانت عينا حوّاء تتجهان نحونا، فقلت لها:" ابتسمي.. أمك تنظر إلينا".. فقالت: ,,عدني أن تمر عليّ الليلة في غرفتي". قلت لها: ,,اسكتي الآن"، فكرّرت: ,,عدني وإلا سأعمل فضيحة"، فقلت لها: "سأفكر..".. فقالت ونحن في طريقنا نحو الطاولة: ,,عدني الآن..".. فقلت لها والمسافة بيننا أمتار قليلة: ,,أعدك".

حين جلسنا. شعرتُ بأنني غريب عن المكان. ثمة هواء يملأ رأسي. كانت حوّاء قد حجزت لنا شيئًا، وما إن جلسنا حتى امتلأت المائدة بالمقبلات الشامية من الحمص والباباغنوج والمتبّل والتبولة والفلافل والكبة والسلاطة وجبن الحلوم المشوي.

فجأة، هبط عليّ ضجر وسأم لا أعرف مصدره. انتبهت حوّاء إليّ قائلة: هل أنت بخير..؟

لم أود أن ألقي بظلال حالتي على الجلسة، فأنا أحب حوّاء حبًا حقيقيًا، حبًا ربما أوديبيًا، أشعر أنها هي أمي وحبيبتي وعشيقتي وأختي وزوجتي وعاهرتي..نعم.. أشعر أنها كل شيء.

وتذكرت ,,ستافروجين" في تلك اللحظة، وهو يتذكر المثل اليهودي" المرء لا يشم نتانة رائحته".. وشعوره بأنه شقي، ودونما خجل، وتلك اللحظة الخارقة التي فقد فيها فهم معنى ,, الخير" و"الشر"، بل ليس فقدانه الشعور بمعنى ,,الخير" و"الشر" وأنما إعدام وجودهما في منظومته الأخلاقية ومفاهيمه، وأنهما ليسا سوى وهمين من الأوهام الاجتماعية. وأن عليّ التحرر ليس من وهم ,,الخير" و"الشر" فحسب، وأنما التحرر من كل الأوهام الاجتماعية الأخرى.

لا أدري كيف جرت الأمور. لكني انتبهت نفسي ونحن في البيت. وكل شيء

طبيعي. وإيفا صعدت لغرفتها كي تغير ملابسها، بينما ذهبت حواء إلى المطبخ لتحمل لنا صينية الفواكه، لنواصل سهرتنا.

***

لم أنم تلك الليلة. بقيت جالسًا حتى ساعات الفجر الأولى. جلستُ في الصالون المظلم إلّا من مصباح شحيح الضوء. وفي الساعة الرابعة فجرًا ذهبت إلى الفراش. كانت حوّاء في ثوب النوم الشفّاف من دون أي شيء تحته. وكان ثوبها قد انحسر عن ساقيها وارتفع حتى منتصف ظهرها. كانت عارية في جزئها الأسفل. كانت شهية ومثيرة، وكنتُ متوترًا كممسوس. نزعتُ ملابسي وصرت عاريًا. تمدّدتُ إلى جانبها، وأخذت اقترب من جسدها العاري.. كنت أريد أن أهرب من مخاوفي وشكوكي وغضبي البارد إلى جسدها المثير وإلى أعماق رحمها الدافيء. كانت نائمة، لكنها انتبهت لاحتضاني لها وبدأت تستجيب وهي في حلاوة النعاس إلى أن أفاقت بشبق وحرارة، وبعد ارتعاشات متكررة، عادت إلى النوم. لم تكن تغشى الحمل، فمع أنها في الرابعة والأربعين لكنها كانت تتناول حبوب منع الحمل.

أنا آدم بهاء الدين قضيت عمري في الغياب. لا أعرف من أنا حقًا. حياتي التي أعرفها هي مشاهد من ذكريات لا أقطع بصحة حدوثها. قيل لي إنني سُجنت. هل سُجنت حقًا؟ لا أستطيع أن أتأكد من ذلك؟ لكن أعتقد أن ذلك حدث فعلًا. فجسدي شبه مهشم. وبعض أسناني ليست موجودة في محلها، ولا أتذكر أنني ذهبت إلى طبيب الأسنان لقلعها.!؟

لم أكن يومًا مؤمنا، لا ولم أكن يومًا ملحدًا. كنت أؤومن بأن الله هو الروح اللامرئي في ثنايا هذا الوجود والكون اللانهائي. لكني لم أكن أميل إلى الدين ولا لرجال الدين. مررت خلال فترة مراهقتي وتفجر وحماسي للأسئلة الأولى عن الله والكون، فتوجهت بحماس المراهق إلى الدين وطقوسه، والصلاة، بل كنت أذهب عند الفجر للصلاة في المسجد الذي لا يبعد كثيرًا عن بيتنا.

وتقربت من أمام المسجد الذي كان يخصني برعايته، إلى أن اطمئنت نفسي له، لكني اكتشفت نفاقه، وكذبه، وتملقه للأغنياء وإعراضه عن الفقراء، وتملصه من

المحتاجين، ومحاولاته إغواء الساذجات البسيطات من النساء لاسيما الريفيات فزهدت الاقتراب منه، ولكني لم أشأ أن أحكم على الدين من خلال شخص واحد، فتواصلت مع مجاميع منهم، فوجدتهم مشوهين ومعقدين ومليئين بالحقد على الناس ويعتبرون أنفسهم خير الناس بينما هم أكثر الناس حقدا وكراهية للناس، فعافت نفسي الدين، بل غصتُ في قراءة الكتب التي تحاول الرد على سؤال وجود الله والرد على الماركسين والفلاسفة الشكاكين، فكرّست نفسي لقراءة كتب معروفة وشهيرة للرد على ماركس والماركسية، والحقيقية عارية وجدتها، هو أن الحجج في الرد ضعيفة ومتهافتة أمام الرأي الآخر المردود عليه، على الرغم من الاقتباس المبتسر للنص الآخر وتشويهه، وهذا ما اكتشفته بعد أن صار لدي فضول في الذهاب إلى النص الأصلي لماركس أو كتب الفلاسفة الشكاكين أو مراجعة النص الأصلي لفرويد وفهم عقدة أوديب..!

وهكذا ابتعدت عن الدين وكل ما يتعلق به، إذ إن تجربتي أكدت لي أن معظم المتدينين الذين قابلتهم منافقون، وحاقدون على الناس، وعنصريون يعتبرون أنفسهم أفضل من غيرهم. ومن جانب آخر لديّ المثال الحي الآخر على الطيبة والجانب المشرق من الدين وهما أمي وأبي. لكني أمي طيبة ومحسنة للفقراء ليس لكونها متدينة وأنما هي كذلك حتى لو كانت لا تؤمن بأي دين.!

لكن تجربتي مع المتحررين وأعداء الدين ليست بأفضل. ففي ذاكرتي أنني عُذبت وألقي بي في غياهب الظلمات والسجن كان نتيجة وشاية واعتراف كاذب من شخص كان يدعي الثورية والعلمانية، ولم تكن تربطني به أية علاقة تنظيمية سياسية سوى معرفته أنني أميل لأفكاره، ولم يكن متديناً.

ووصلتُ لقناعة، بل لحكمة غير مقطوع بقائلها، والتي تنص على أن الحكمةَ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ : تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ , وَالْعَاشِرَةُ فِي عُزْلَةِ النَّاسِ ,,. وأنا قد اعتزلت الناس إلا حوّاء وابنتها إيفا.

إنني على العكس من ستافروجين لا اتمتع بقدرة السيطرة على ذكرياتي، أو عدم الاكتراث بها. أنا لا أستطيع التذكر، ذاكرتي هي التي تتحكم بيّ وترفدني بما تجود هي به من مشاهد. كان الماضي يُضجر ستافروجين، وكان هو يضجر من

تذكره، بينما أنا أسعى لمعرفة الماضي فهو بالنسبة لي بئري المظلمة.

لم أكن سيد إرادتي. ربما أبدو متحذلقًا إلى حد ما. أحيانا أكون فظًا، شرسًا، لكن سرعان ما أهدأ، في أعماقي ظمأ إلى معرفة نفسي، ومعرفة لغز رغبتي المجنونة، إذ لا يشغلني شيء سوى رغبتي التي هي التي تقودني ولست من يسعى لإروائها..

أحيانا ترعبني نفسي. ومع أنني لا أعمل ولست بحاجة للعمل لأني قد ورثت أموالًا طائلة، لكن ثمة لعنة تطاردني هي الضجر، والسأم واللامبالاة، لذا أجد أن انشغالي بحواء وإيفا يمنحني بعض المعنى.. ومع ذلك فوجداني يعذبني لأن كل ذلك انتهى بمأساة.

بعد أن ارتوت حواء من اللذة وعادت إلى النوم، بقيتُ يقظًا في سريري وقد تملكتني رغبة شيطانية. ومع أني تلذذت بجسد حواء، لكني كنت ما زلت متهيجًا ومتوترًا. التفت إلى حوّاء، فرأيت أنها عادت إلى النوم بعمق، لكني استغربت عدم ذهابها للاغتسال، مع علمي أنها لا تخاف الحمل. بقيت بعض الوقت في السرير، ثم تسللت منه.

خرجت وأنا أمشي على أطراف أصابعي. اقتربت من غرفة إيفا. فتحت الباب، ففزّت. لم تكن نائمة، جلست مباشرة ببيجامتها في وسط سريرها. يبدو أنها كانت تعرف أنني كنت صاحيًا. جلستُ على حافة السرير. كانت خائفة ومرتبكة ومتوترة.

اقتربت منها أكثر من الحافة. أرادت أن تنهض عن السرير فأخذتُ كفها وقربتها من شفتيّ مقبّلا. نظرتْ هي بتركيز وكأنها تريد أن تعرف ما أفكر فيه معها. أخذت شفتاها ترتعشان. كانتْ خائفة.. لكن فجأة، لا أعرف ماذا حصل لها، اقتربت مني واحاطتني بذراعيها وأخذت تقبلني بحرارة وشبق وشهوة وكأنها امرأة خبيرة في فن التقبيل. ولم أعد أسيطر على نفسي فمددتُ يدي تحت بيجامتها فإذا هي عارية. ومن دون تفكير، وبتهوري المعتاد، نزعت بيجامتها، فبان لي عريها، وأدرتها في وضع المشهد الذي رأتني فيه مع أمها. وفي تلك اللحظة، في تلك اللحظة التي هممت فيها بنزع بيجامتي بالذات، فُتح الباب، وكانت حوّاء.

لا يمكن لذاكرتي أن تستوعب ذلك. فقد كانت الصدمة أكبر بكثير من أن

توصف. لقد رأيتها وهي تكاد تختنق بعد لحظات من رؤيتنا، وفجأة تشبثت بأكرة الباب وأصابها ما يشبه الشلل، وتداعتْ على الأرض من دون أن تستطيع السيطرة على جسدها وتدارك السقطة.

قفز كلانا نحوها. حملناها إلى السرير. لكننا انتبهنا إلى إعوجاج فكها وفمها وتشنح كفها وشلل ذراعها وساقها. لم نكن نعرف ماذا نفعل. فجأة قالت إيفا بأن نحملها إلى غرفتنا المشتركة. فحملناها بصعوبة كبيرة.

اكتشفتُ أن عقل إيفا يعمل مثل الحاسوب فقد قامت بإلباس أمها، التي كانت متشنجة ومقيدة بالشلل كالجثة، لباسًا داخليا لتستر عريها الداخلي. نظرتْ إليّ وقالت: «هذا أفضل إذا ما جاءت سيارة الإسعاف.. هيا اطلب الطوارئ». كنت مرتبكا ولا أعرف ماذا أفعل. فأخذتْ هي الهاتف مني واتصلت برقم الطوارئ. ولم يطل الأمر حينما سمعنا صوت السيارة ومن ثم رنين جرس الباب.

نزلتُ لفتح الباب. قدتُ فريق الإسعاف إلى غرفة نومنا، مدعيّا أنني فززت على صرختها، وحين فتحت عينيّ وجدت تتلوى مع تشنجات قوية.

ارتديتُ ملابسي بسرعة خاطفة. قرروا نقلها إلى المستشفى. ذهبت معهم. بقيت إيفا في البيت.. لكن وقبل أن نخرج ركضت هي وقالت للذين يحملونها على السرير النقال بأن يتوقفوا. نظرت إلى أمها نظرة غامضة، ثم انحنت وقبلتها على جبينها.

***

بقيتُ حتى منتصف النهار في المستشفى. انتظرت إلى بداية الدوام الصباحي حتى جاء الأطباء ومسؤولو الأقسام الطبية كلها.

حين عدتُ قبيل منتصف النهار إلى البيت ودخلت المنزل انتبهت إلى أن الهدوء البارد يقبض القلب. ولم أجد أثرًا لإيفا، بل استغربت إنها لم تتصل لتطمئن على أمها.

صعدتُ الدرج إلى الطابق الأعلى على مهل. كنت متعبًا من السهر والصدمة. وحينما دخلت غرفة إيفا واجهتني صدمة صعقتني. رأيتها وهي تتدلى مشنوقة من أعلى السقف.

كانتْ قد نزعتْ الثريا ذات المصابيح من السقف. وعلّقت حبلًا بالكلّاب المتدلي من السقف ومثبت فيه.

لم تفارقني هيئتها وهي تتدلى مشنوقة. لم تترك رسالة. لا.لا. لقد رأيت ورقة مكتوب فيها بخط كبير.:. أنا أكرهك.

مزقتُ الورقة ورميتها في المرحاض وسكبت الماء.

الإنسان حين يواجه العقاب يبحث عن أي شيء ينقذه. الدماغ ينشط ويعمل بطريقة خرافية لانقاذ النفس. تذكرت راسكولنيكوف بعد أن ضرب العجوز بالساطور. وكيف هو انتبه وأخذ يمسح الدم، وكيف اختبأ حينما أتى البعض وقرعوا الباب. هكذا أنا. لكني لم أنس ذلك المشهد. مشهد تشنج وسقوط حواء مصابة بالشلل النصفي المفاجئ، ومشهد رؤيتي لإيفا وهي مشنوقة وجسدها يتدلى من السقف، ومشهد تلك الصفحة وهي مكتوبة بخط كبير وواضح: أنا أكرهك.

اتصلتُ بالشرطة والطوارئ. لم أفعل شيئًا ولم أنزل الجثة المتدلية، خوفا من أي اتهام أو شبهة. قامت الشرطة بالتحقيق، وتأكدوا من المستشفى بأني كنت هناك إلى ما يقرب منتصف النهار لأني كنت أتتبع حالة حوّاء. أكد الضابط المسؤول بأنني يجب ألّا أغادر المدينة، فربما سيحتاجوني في التحقيق.

بقيت في البيت. لكني استغربت من وجود عشرات بل مئات من قصاصات الورق المكتوب عليها : أنا أكرهك. حتى حينما فتحت التلفزيون رأيت على الشاشة إعلانات مكتوب عليها بخط عريض : أنا أكرهك.. يروج لعطر اسمه: أنا أكرهك.

استغربتُ كيف لم ينتبه أحد من رجال الشرطة والطوارئ بوجود قصاصات الورق تلك لاسيما وهم جلسوا معي في الصالون..!.

أحس إنني أفقد علاقتي مع الواقع شيئًا فشيئًا. أمشي في طريق مظلم. كأنني أعيش في كابوس. أنا ضائع..إنني لا أرى سوى الظلام الأبيض والعتمة المتوهجة.

لا أريد سوى المغفرة. أريد المغفرة من حواء وإيفا. لا استطيع تحمل الكراهية.. لست من هؤلاء الناس الذين تنعشهم الكراهية، هؤلاء الذين يعيشون في الوحل

والنتانة ويعشقونها ولا يسعون لمغادرة حضيضهم.. أنا مثل «ستافروجين» أريد أن أنال مغفرة نفسي، فهي غايتي الرئيسية الآن، إنني أتعذب مع أني لا أتوق إلى العذاب كي أنال المغفرة.. لكني أعرف أنني لن أنال المغفرة بدون عذاب، وبدون تحطيم كبريائي المريضة.. وسحق تواضعي المزيف..كيف لي ذلك.. كل شيء يتحرك يبدو بحالة غير واضحة وشبحيًا.. كل شيء يحيطه الضباب، ولا أفق أمامي. لا أرى شيئًا.. فالضباب الأبيض الكثيف كالظلام العميق السواد بالضبط.

٩

يقظة في الحلم.. حلم في اليقظة

فتحتُ عينيّ صباح اليوم على ضجيج في الزقاق المجاور وصلني عبر النافذة. انتبهت إلى أني في سريري ببيت أمي. هل أنا في حلم..؟ هل أنا في العالم الآخر؟ لا. لا. ها أنا أسمع ضجيجًا في المطبخ. أنا في بيجامتي زرقاء اللون.. كيف هذا، بينما أنا كنت في بيتي بعد انتحار إيفا، وبعد كارثة شلل حوّاء..؟

نهضتُ مرتابًا. وفكّرت لحظتها مع نفسي، بما أنني أحلم فلأواصل حلمي وأستقصيه، عسى أن أرى أمي في الحلم..!

ومن شدة استغرابي مشيت حافيًا على بلاط الغرفة. وفجأة ذهلت.. إذ واجهتني أمي وعلى وجهها تلك الابتسامة الملائكية الطيبة. ألقت عليّ تحية الصباح وقالت لي سائلة إن كان هناك ما يزعجني لأنني رجعت بعد منتصف ليلة البارحة وكنتُ في حالة غير طبيعية أتحدث عن الكائن غير المرئي.. والعالم الموازي وأشياء أخرى لم تفهمها. وسألتني إن كانت حالة الكوابيس والرؤى الغريبة التي أراها عاودتني مجددًا.

ما الذي يجري.. أي كائن غير مرئي..!؟ ألم تَمُت أمي حينما كنتُ في مستشفى المجانين؟ ما الذي يجري معي؟

كانت أمي قد أعدّت لي الفطور. بيض ملقي بزيت الزيتون، وطماطم مقلية بالدهن والبصل مع كمية من الكاري، وأقراص من الخبز الذي سخنته على عين الطباخ الكهربائي. شعرت بالجوع. هل يشعر الإنسان بالجوع في الحلم أيضًا؟ قلت لها سأتحمم ثم أفطر.

دخلتُ الحمام، كان الماء ساخنًا فشعرت به يحرق جسدي فأوقفته مباشرة، وأدرت مقبض التحكم بالماء فصار الماء دافئًا.

فجأة، راودني شعور بأنني لست في حلم وإنما قد استيقظت من كابوس، وكل ما كان لم يكن سوى كابوسٍ عشته في المنام.!؟ لكن هل كان سجني وفقداني الذاكرة ضمن الحلم أيضًا؟ عليّ أن أتحقق من هذا الأمر بنفسي، ولأسأل أمي.

كانت أمي تنتظرني وهي تشع بالحنان. جلست قربها. بدأت أتناول فطوري، وخلال ذلك سألتها ساعيًا إلى التحقق من الأحداث السابقة التي عشتها:

- أمي.. هل تعرفين امرأة اسمها حوّاء الدلال ولديها ابنة اسمها إيفا؟

نظرت أمي إليّ للحظة مستغربة سؤالي وقالت لي بنبرة مستغربة أيضًا:

- ما بك يا بُني آدم؟ أصحيح تسألني هذا السؤال؟ طبعًا أعرفها.. أنت من عرفتني عليها.. أعرفها منذ سنوات، منذ يوم تخرجك. مضى على ذلك حوالي سبعة عشرة عامًا.. أتذكر، يوم تخرجك جاءت إلينا هنا مع ابنتها الصغيرة إيفا التي كانت حينها في الخامسة، وهي تحمل قالبًا من التورتة. وبعد اعتقالك بسنة تقريبًا توفي زوجها التاجر المسيحي بحادث اصطدام سيارة، واتضح أنه كان مقامرًا مفلسًا، وقد رهن كل أملاكه، وتم الحجز على بيته، ولم يكن أمامها سوى أن تلجأ إليّ.. صحيح أنها لم تسألني أن آويها لكني فهمت عزة نفسها فدعوتهما للعيش هنا، لا سيما وفيهما رائحتك، وبقيتا معي لسنوات، حتى بعد نقلك من السجن إلى المستشفى. الحمد لله أنهم اتهموك بالجنون ونقلوك إلى مستشفى الأمراض النفسية والعصبية وإلّا لمِتَّ تحت التعذيب.

كنت أستمع إليها بينما الخوف والرعب يجتاح أعماقي كغيوم سوداء هاربة، فما ترويه هو جزء من الكابوس الذي عشته وظننه وهمًا ورؤيا راودتني في المنام.!؟ وانتبهت إلى أن أمي تتحدث بتلقائية وبساطة وكأن الأمر تحصيل حاصل وقد حدث كحقيقة لا تقبل النقض، إذ واصلت:

- كانت حوّاء الدلّال، وهي امرأة ذات شخصية مهيبة ومشعة بالجمال والطيبة، وتكنّ لك محبة عظيمة، ترافقني للمستشفى في مواعيد زيارتك. إلى أن جاءت لحظة عبوري الحاجز إلى الجهة الأخرى من العالم.

- ماذا تقصدين؟ سألت بنبرة مليئة بالشك.

نظرت إليّ بحنان وقالت ببساطة:

- أقصد إنني قد متّ..

- متِّ؟ كيف ذلك؟ وها أنت الآن تجلسين أمامي حيّة وتتكلمين؟ قلت مصدومًا وغير مصدق ما تقول.

ابتسمت لي بحنان وقالت:

- نعم.. أنا أمك العائدة من الموت..!

ووجدتني اسأل بسذاجة غير متوقف لقضية موتها:

- ماذا تقصدين..؟ وماذا عن حوّاء وابنتها إيفا؟

نظرت إليّ باستنكار بريء وقالت:

- ما بك ياولدي؟ أنا الميتة فقط.. لا تخف.. هما بخير.. لقد تزوجت حوّاء من رجل كان خطيبًا لأختها.. وكان في شبابها قد طلبها وألحّ عليها بالزواج، لكنها رفضته وتزوجت مديرها في العمل.. لكن بعد وفاة زوجها وانتقالها للعيش معي واعتقالك جرت الكثير من المياه تحت الجسور. ويبدو أن المصادفة وحدها لعبت دورها، إذ التقيا في أحد الأسواق التجارية، واتضح إن الآخر أرمل ولديه ولد بعمر ابنتها تقريبًا.. وعادت العلاقة بينهما، فطلبها للزواج مرة أخرى وألحّ، ويبدو أنها فكرت بشكل عملي ونفعي، فكّرت بوضعها وبوضع ابنتها ووضعهما غير المستقر، لذا وافقت..

هي الآن متزوجة، وتعيش في المنطقة التي كانت خالتك تعيش فيها، بل تسكن في البيت المجاور لبيتك، أقصد بيت خالتك التي سجّله زوجها المرحوم باسمك، والذي أنت أجرتّه لأصحاب شركة أجنبية جاءت للإستثمار في البلاد..، وكما يبدو أن الشركة أفلستْ، إذ إن أصحابها اختفوا. وبالمناسبة بعد احتلال البلاد الذي جرى بعد موتي بأشهر هرب الجميع من المستشفى إلاك.. بقيتَ وحدك لأيام في تلك المستشفى المهجورة لأيام،.. وبعد حدوث المعجزة واستعادتك لذاكرتك

أخرجتكَ هي من المستشفى، وجاءتْ بك إلى هنا، واستدعت ممرضة لتسهر عليك مقابل مرتب جيد، وأعادت لك من خلال توكيل محام شاطر أموالك وميراثك ووثائقك الثبوتية وهويتك المدنية.

كنت استمع لها وكأنني أستمع لحكاية لا تخصني وإنما عن شخص آخر يفترض أن أكونه. ومع أنني أود معرفة ما جرى ويجري، لكني كنت أعرف كل ما تقوله، مع اختلاف في بعض التفاصيل لا أكثر، لكني واصلت السؤال بفضول غامض:

- ألم يحدث لها مكروه؟ وابنتها إيفا.. أما زالت حيَّة؟

نظرت إليّ نظرة متفحصة وقالت بريبة:

- ما الذي يجري معك يابُني..؟ أقول لك هي تعيش في بيتها مع زوجها.. وانجبت له طفلًا اسمته آدم محبة بك، وابنتها الآن شابة في الثانية والعشرين..! زوجها غيور جدًا وشكّاك كما أخبرتني، لذلك لم تسأل عنك. لكنها أحيانًا كانت تتصل بالممرضة لتستفسر عن وضعك.. لكن منذ أن صرتَ تستطيع أن تعتمد على نفسك، واستعدتَ شخصيتكَ الاجتماعية، وأخذتَ تكتب وتنشر في الصحافة، ابتعدتْ هي عنك شيئًا فشيئًا. وأعتقد أنها تتابعك عن بعد.. فزوجها غيور وشكّاك بشكل مرضي.

شعرتُ بالضياع والتيه. ما الذي يجري..؟ أيهما الحقيقي، ما كان وعشته من أحداث أم ما يجري معي منذ لحظة يقظتي الآن ورؤيتي لأمي الميتة وما ترويه من أحداث؟ لا سيما أن الأحداث التي عشتها إلى لحظة قبل استيقاظي هي أحداث جرت العام ٢٠٠٣- ٢٠٠٤ أي بعد سنة من خروجي من مستشفى المجانين، أي بعد عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة، بينما الآن أمي تتحدث بعد مرور سبعة عشرة عامًا..!؟ فهل أنا الآن في العام ٢٠١٠ أم العام ٢٠٠٤؟ وما معنى أن أمي ميتة بينما تقول إنها عائدة من الموت؟

بيد أني أردت التمادي في اللا معقول، فسألت أمي الميتة الحية:

- أين كنتُ أنا خلال هذه المدة..؟

نظرت إليّ بحنان وقالت:

- وضعك لا يعجبني يابُني.. تسألني أنا الميتة عن حياتك أنت وأنت الحي؟ أنا منذ أن عبرتُ حاجز الحياة هذه، واصلت بقائي هنا في هذه الشقة.. لا أستطيع أن أمارس الحياة طبعًا، لكنني أظهر حيّة لك أنت فقط؟ لا أحد يشعر بوجودي غيرك. كنتُ معكَ حين كانت الممرضة هنا لتعتني بك، طبعًا هي كانت لا تراني قط. والحقيقة لم يكن سلوكها يعجبني. المهم أنت تحسنتَ، واستعدتَ ذاكرتك، لكن معظم وقتك كنتَ تنفقه في القراءة والسفر..! كنت لا تخرج من البيت إلّا نادرًا للتجول في الشوارع أحيانًا أو الذهاب للمكتبات لاسيما يوم الجمعة إلى شارع المكتبات لشراء الكتب، وفي يوم الجمعة إلى شارع المكتبات لشراء الكتب. كما كانت جارتنا في الشقة المقابلة تزورك أحيانًا.. كانت تقوم معك بأعمال مشينة، ولم يكن بمقدوري أن أمنعها. ثم أنت كنت تسافر لفترات ليست قصيرة. سافرتَ لبيروت ودمشق والقاهرة وطهران..

فسألت متعجبًا فعلًا:

- هل سافرت أنا إلى هذه البلدان كلها..؟

نظرت إليّ مبتسمة وقالت:

- نعم.. لكن أنت لم تكن أنت. ربما هو الشخص الآخر الذي هو أنت أيضًا..!

- كلامك كله ألغاز يا أمي..

نظرت إليّ طويلًا دون أن تتكلم، ثم قالت:

- اسمع يابُني.. لا أريدك أن تعيش ممزقًا بين العوالم.. استمتع بالحياة الحقيقية.. أنت تعاني من حالة اكتئاب حادة.. لقد عذّبوك في السجن بطرقٍ وحشية، لستَ مجنونًا، لكنك تعتقد إنك مجنون.. عذبوك كثيرًا.. لو كنتُ قد متُ أنا أثناء سجنك وتعذيبك لكنت اخترقت الجدران والزنازين وجئتك في زنزانتك وواسيتك، لكني كنت هنا مسجونة في هذه القلعة المنيعة التي تسمى الحياة. عليك أن تتجنب الوحدة.

عليك أن تصادق وتحب وتتخذ عشيقة.. لا أعتقد إنك مؤهل للزواج.. توحدك وكآبتك وانفصامك يجعل الحياة مع امرأة غير أمك وغير حوّاء الدلّال مستحيلة..

حاول ألّا تكون وحيدًا. البارحة جئتَ مرتبكًا وحدثتني عن كائن هلامي لا مرئي.. أعتقد إنه ترآى لك؟ وبقيت تتحدث عنه، وتتبعك له حتى فندق اسميته ,,فندق باب السماء"، لكني أعتقد إنه من بنات أفكارك وهلوسة ذاكرتك.

فجأة انتبهت لنفسي ورؤياي فقلت مؤكدًا:

- لكني رأيته يا أمي..!

فقالت بنبرة مواسية:

- نعم.. أنت رأيته يا بُني.. لا أحد غيرك رآه.. مثلما أنت تراني ولا أحد يراني غيرك..!

فسألتها مستفسرًا بنبرة من هو واثق من نفسه:

- أصدقائي أيضًا رأوه.. لقد اتصلت بهم وجاءوا وصوروه.. فكيف لم يره أحد؟

نظرتْ إلي بصمت للحظات طالت، ثم قالت:

- أنت لم تتصل بأحد يا بُني.. لأنك كنت قد نسيت هاتفك في البيت..! كل شيء جرى في ذهنك يا ولدي.. انتبه، عليك أن تخرج من قوقعتك.. من وحدتك.. أنا أعرف إنك تحب حوّاء وهي تحبك.. عاود الاتصال بها.. وجودها ضروري في حياتك لكن إياك والغيرة.. لا تحاول أن تتخيلها مع زوجها في غرفة النوم فتشتعل غيرتك وتعذبك..!

كان كلامها يتغلغل في نفسي ويقنعني.. لكني غير متأكد مما أراه وما يجري معي، فربما أنا في حلم، لذا قلت لها كاشفًا شكي مما يجري:

- لكني يا أمي أذكر أنني عشت مع حوّاء وتزوجتها وسكنت معها ومع إيفا في المنزل الذي ورثتهُ عن خالتي وزوجها. الكثير مما رويته أنت لي صحيح.. لقد اعتنت بي بعد خروجي من المستشفى وعاشت هنا مع ابنتها في غرفتك.. ووكّلتْ محاميًا أعاد لي كل ثروتي ووثائقي.. لكني لم أكن مخلصًا لها. إذ تعلّقتْ بابنتها المراهقة، وحدث أن رأتني في مشهد فاضح مع ابنتها، فأصيبت بالشلل النصفي، وتأنيبًا للضمير وثقل الشعور بالذنب انتحرت ابنتها بشنق نفسها مثلما شنقت الصبية نفسها بعد أن تعلقت بستافروجين في رواية «الممسوسين» لدوستويفسكي..

فقاطعتني بنفاد صبر:

ـ آه منك ومِن دوستويفسكي..! أنت مهووس بدوستويفسكي ورواياته.. في أعماقك تسكن أشباح أبطاله.. لذا هم يظهرون في كل موقف ومنعطف.. أنت يا بُني تحب حوّاء وهي تحبك أيضًا.. بل يحرقك الشغف نحوها.. بينما علاقتك بابنتها علاقة عابرة وسطحية. كان دافع علاقتك بإيفا من جانبك هي الغيرة والغرور والحسد..، بينما الشغف الذي تكنه لحوّاء هو النقيض الكامل لما تكنه لابنتها. الشغف يا ولدي هو المصالحة بين عقلك وحساسيتك العاطفية، بين عقلك وإرادتك. أنت لا تريد إيفا، ربما تشتهيها، لكونها تحب شخصًا آخر أكبر منك سنًا مما جعلك غيورًا.. تريدها فقط لتتخلص من غيرتك.

فوجئتُ بحديثها عن عشيق إيفا المسن، فسألتها متعجبًا:

- لكن كيف عرفت بأن إيفا على علاقة مع رجل أكبر سنًا مني..؟

- حسدك لعشيقها، حسدك الذي تحول إلى كراهية مبطنة لمنافسك، وأيضا تريد إثبات نفسك بأنك المرغوب لديها والأفضل..

نظرت إليّ وعلى وجهها ابتسامة وكأنها تنظر لصغيرها الطفل:

- أنا معك دائمًا.. في أعماقك.. أنّى اتجهت أكون معك.. أحيانًا أرافقك وأراك من بعد..

كنت أريد أن أعرف الفاصل بين ما كان وما يجري الآن فسألتها:

- وهل جرى ما جرى معي حقًا أم هو وهم، وأن ما قلته أنتِ هو الصحيح..؟

نظرت إليّ وكأنها تتفحصني قبل أن تجيب، وابتسمت من دون أن تنظر إليّ وقالت:

- ما كان قد كان.. وما يكون قد صار.. وسيكون..!

- لا أفهم.. قلت تائهًا.

نظرت إليّ وقالت بحنان:

- ألّا تفهم خير من أن تفهم أحيانًا.. لكن مرة أخرى أقولها لك يا ولدي: لا تبق وحدك.. حاول الاتصال بحوّاء..

- لكنها متزوجة.. قلت يائسًا.

- ليس مُهمًا.. إنها تنتظرك.

صمتُّ قليلًا وقلت وكأني أريد معرفة جواب مصيري:

- وابنتها..

- يكون ما يمكن أن يكون..!

ازددتُ حيرة، لكني واصلت أسئلتي:

- وأين كنتُ أنا خلال هذه السنوات..؟ أنا لا أذكر شيئًا.. حين كنت مع حوّاء وابنتها كان قد مرّ على تخرجي عشر سنوات، وبعدها بسنة جرت الأحداث الدامية معها ومع إيفا.. أي قبل سبع سنوات أو أكثر مما نحن الآن عليه..

ابتسمت لي بحنان وقالت بمزاح طيب:

- أنت غريب الأطوار يا ولدي.. بعد أن أخرجتك حوّاء الدلّال من المستشفى جاءت بك إلى البيت.. كان ذلك في العام الذي تم احتلال البلاد فيه، وجاءت لك بممرضة لتخدمك.. أعادت لك هويتك ووثائقك وأموالك وعقاراتك.. وبعد أن تعافيت كليًا صرفت الممرضة عن خدمتك، كانت المرأة في الشقة المقابلة تساعدك وترتب لك البيت.. أنفقتَ وقتكَ في القراءة، ثم سافرت إلى أوروبا.. إلى بلاد تُسمى النمسا. بقيتَ هناك ست سنوات تقريبًا وقلت لي بأنك ارتبطت بامرأة من تلك البلاد وحملت جنسيتها، ولقب المرأة التي تزوجت لأنك أردت أن تنسى كل شيء يربطك بهذه البلاد التي ظلمتك.. وأعتقد إنك ذكرت لي لقبك الغريب.

لا أذكر هذه المعلومات قط..! لذلك سألتها متعجبًا:

- كل هذه الأشياء لا أذكرها.. أي لقب ذكرت لك..؟

- لا أذكره الآن... أنت عُدّت قبل أشهر، وكنت تحمل جواز سفر نمساوي، لكنك حين عدت من سفرك لم تسكن هنا، فقد تركت البيت وسكنت في فندق..

- في فندق؟ سألتُ بدهشة.

نظرت إليّ نظرة خاصة وقالت وكأنها تريد أن توحي لي بشيء:

- نعم.. سكنت في فندق.. فندق في حي شعبي يتفرع من شارع الرشيد.

- أي فندق؟

- فندق „باب السماء". الفندق الذي جئت البارحة تحدثني بأن الكائن الغامض دخل إليه..!

***

صُدمت مما قالت أمي..لا سيما عن سفري إلى خارج البلاد والتجنس، فقمت لأختلي بنفسي وأتأكد مما سمعته منها..!

دخلت غرفتي. ذهبت إلى المرآة فرأيت أنني كبرت فعلًا.. صرت أكثر رجولة. لكني لم أكن أعرف كم بلغت من العمر.. حسب قول أمي قد مرّ سبعة عشرة عامًا. أي عمري الآن أربعون عامًا..!، وبجواز سفر نمساوي، كما أني شبيه لحد التطابق مع نزيل فندق „باب السماء"..! ما كل هذا؟

***

طوى آدم بهاء الدين آخر صفحة من رزمة الأوراق التي دوَّن فيها مذكراته، فتح الجارور ووضعها فيه. كان مصدومًا، فلم يعد يعرف الآن أين هو؟

وأخذ يسأل نفسه: أين أعيش الآن؟ هل أنا في فندق „باب السماء" أم هنا في بيت أمي؟ أنا لا أذكر الآن شيئًا عن سنواتي التي قضيتها في أوروبا وحصولي على جنسية ذاك البلد الذي عشت فيه؟ ولا عن إقامتي في الفندق؟

لكن مهلًا.. أنا كنت اليوم عند الرائد آدم عبد السميع.. وسألني عن جثة الرجل الأجنبي الذي يجيد العربية والتي تم العثور عليها في فندق „باب السماء"، وعن الكائن غير المرئي الذي تتبعته حتى دخوله إلى الفندق نفسه. لكني لا أعرف لِمَ استدعاني هذا الرائد، فهو لم يهتم بما قلته، وكأنه أرسل إليّ ليتعرف عليّ شخصيًا فقط، وليتأكد من وجودي وشكلي. مع أن ثمة إحساس يراودني بأنني رأيت هذا الشخص الذي هو الرائد آدم عبد السميع، لكن متى، وأين، وكيف؟ ذلك هو السؤال.

الدفتر الأول..
(وقائع حياة يومية عادية.. عادية جدًا)..
دفتر السيدة حواء المنكوب

قبل أن يغادر آدم الحديدي شقة آدم السيد سأله إن كان سيخرج معه، فاعتذر الآخر بأن عليه أن يأخذ بعض الملفّات ويُحضّرها قبل أن ينطلق.

انتبه الحديدي بأن صديقه الخبير صار يتجنبه، لكنه كان يفكر بأمر أخت حواء اللبّان وكيفية الوصول إليها من دون وساطة آدم السيد أو حتى حضوره ومعرفته.

في غرفة المكتب جلس آدم السيد وأمامه الدفاتر الثلاثة. انتبه إلى أنها مرقمة حسب التسلسل، وتحمل عنوانا واحدًا. «وقائع حياة يومية عادية..عادية جداً».

استغرب هذا العنوان الأدبي الطويل. تصفح أغلفة الدفاتر فوجد أنها لا تحمل في داخلها أية عناوين أخرى تشي بشخصية أصحابها، هل هم متعددون، أم هم شخص واحد بأسماء مختلفة..

لكنه بحكم مهنته، انتبه إلى أن خط الكتابة يختلف بين دفتر وآخر. تذكر أن الرائد آدم عبد السميع قد قال له بأن النساء الثلاث عرفن صاحب الجثة من الصورة، لكن لقبه يختلف عند كل واحدة منهن، بل إنه حقّق مع كل واحدة بدقة وحِرص فلم يكن لدى أية واحدة منهن الشك في أن صاحب الصورة هو آدم تسفايغ الذي تعرفه.

وقرر بأن عليه قراءة الدفاتر دفترًا دفترًا ووضع الملاحظات حول الفروقات والتشابهات بين خطوطها. لكنه بقي حائرًا في دلالة العنوان الموحد للدفاتر، وسأل نفسه: «ما معنى (وقائع حياة يومية عادية.. عادية جدًا...)»..؟.

نشر الدفاتر على الطاولة. سحب الدفتر الذي يحمل الرقم (١). وضعه أمامه. فتح الدفتر وبدأ القراءة:

(١)

وقائع الحياة في القلعة المهجورة

حين أفقتُ من موتي كان الظلام حولي دامسًا. حاولت رفع رأسي قليلًا فارتطم رأسي بسقف التابوت. أين أنا؟. متى متّ.. وكيف؟ حينها، وفي تلك اللحظة نفسها، كانت العربة التي يجرها جوادان أسودان تسرع وهي في سبيلٍ ضيقٍ تحت قطع جبلي يطل على وادٍ سحيق. كانت العربة بلا سائق، وبدا وكأن الجوادين يعرفان إلى أين يمضيان..! لكن ما الذي جرى؟ كيف أنا الآن في التابوت وفي اللحظة نفسها أقود تلك العربة متجهًا لتلبية دعوة الأميرة المعتزلة في قصرها بين الجبال.!؟؟.

أتذكر الآن بأنني لم أتلق دعوة منها كي أتوجه إليها، فقد رأيت قصرها الشامخ ذات يوم من بعيد وكأنه فوق الغيم، لكن قبل تسع ليال راودني صوت وأنا في المنام، صوت امرأة فيه رزانة وهدوء ومودة، تدعوني لزيارتها في قصرها بين الجبال، لأعالجها من حالة السوداوية التي تمر بها، فاستيقظت من نومي، سألت نفسي هل أنا طبيب كي تريد مني علاجها، أم أنا ساحر أو مشعوذ يكتب الرقى والتعاويذ والطلاسم..؟ ومع ذلك أعددت عربتي وسقيت جواديّ، وأطعمتهما، وتزوّدت بالمؤن والماء والتبن للجوادين وانطلقت.

اجتزتُ وديان ومنعرجات، ومررتُ بقرى مهجورة ومقابر نائية صارت ملجأ للغربان وفئران الحقول. إلى أن وصلت إلى منطقة جبلية مهيبة، حيث الجبال العالية والمقاطع الجبلية الحادة والأنهار المندفعة التي تظلل ضفتيها الأشجار المنحية على الماء، ومن البعيد لمحتُ قصرها المنيف فوق قمة جبلية. وعلى الرغم من أنني أنفقت تسعة أيام في الطريق فما زالت أمامي مسافة ليستْ بالقصيرة، إذ عليّ المرور بين ممرات الجبال الوعرة كي أصل إلى الجبل الذي قصرها فيه.

متُّ البارحة موتًا فجائيًا، وسمعت الطبيب يقول إنها سكتة قلبية، لكنني بعدها

لم أعد أعرف شيئًا، إلى أن أفقت في تابوتي، مع أنني ما أزال إلى الآن أقود عربتي حيًّا بين ممرات الجبال، متوجها إلى قلعة الأميرة الجبلية الغامضة. لكن ما الذي يجري معي، فها أنا الآن أرى نفسي في طريق العودة؟؟ والطريق طويل جدًا وكأنه امتد لسنوات، مع أنه الطريق نفسه الذي سلكته حين توجهت إلى القصر!؟.

أتذكر الآن أنني في آخر ليلة قبل لقائي بالأميرة كنت شبه يائس من الوصول، فقد كنت أرى القصر بحجارته البيضاء مزرقًا قليلًا تحت ضوء القمر الفضي، كنت أراه قريبًا وأنني على وشك الوصول إليه، لكن كلّما توغلت في المسافة كلما ابتعد القصر أو كأن العربة تدور عجلاتها في الهواء وأنها لا تسير، وكأن عجلاتها تدور وجواديها ينهبان الطريق، ومع ذلك فهي باقية في مكانها! وفجأة، لا أعرف كيف، وجدت نفسي عند بوابة القصر. وكان الوقت فجرًا.

أفقتُ على حمحمة جواديّ، وانتبهت إلى وقوفهما أمام بوابة قلعة من قلاع القرون الوسطى، تشي حجارتها بأنها قديمة البناء. بوابتها العريضة من الخشب الصندل، ومزخرفة بالمسامير الحديدية المنقوشة على هيئة أشكال مربعة ومستطيلة ومعينية.

نزلتُ من العربة. تأملت ما حولي وحدّقت في سور القلعة عسى أن ألمح حارسًا فلم أجد أحدًا. تقدمتُ من البوابة فانفتح كلا ضلفتيها من دون أن أمسّها. عدت لعربتي، ركبتها، واجتزت البوابة؟

حين صرت في باحة القصر- القلعة نزلتُ من العربة. لم أجد أثرًا لأحد وكأن القلعة مهجورةً. فالسكون مهيمن.

فجأة، قفزتْ دجاجة من مكان ما وكأنها قفزتْ من الغيب، فقد كان ثمة مسافة بيني وبين باب القلعة وسورها فمن أين قفزت هذه الدجاجة؟ وأثناء تساؤلي هذا قفزت دجاجات عديدة حتى امتلأت الباحة بالدجاج وتعالى النقيق والقرقرة.

لم أعرف إلى أين أتجه، فالمكان بدا لي مهجورًا. ولكن في أقصى المكان قرب السور من الناحية الثانية رأيت أو خُيّل لي بأن شخصًا ما بدا في الملابس التي يرتديها عادة سكان الجبال. أردت أن أناديه. رفعت إليه ذراعي بإشارة، لكنه اختفى في الممر

الذي يحيط بالمبنى السكني وسط هذه القلعة، والذي يمكن أن نسميه القصر.

ولا شعوريًا رفعتُ رأسي إلى السماء وأخذت أنظر إلى أعلى المبنى، وفوجئت، إذ رأيت امرأة باهرة الأناقة وذات شخصية مهيبة تقف على الشرفة في الطابق الثالث من المبنى. وكانت تنظر إليّ من مكانها بتركيز وكأنها تدرسني. عرفت فورًا أنها أميرة القلعة المهجورة.

أشارتْ لي بذراعها إلى المدخل، ففهمتُ أنها تريدني أن أذهب إليها. وكان عليّ أن أرتّب وضع العربة والجوادين. التفتُ جانبًا فرأيت مقابض خشبية على الجدار يمكن أن أربط إليها الجياد. فككتُ السرج والأحزمة وحررت الجوادين من العربة، وربطت الجوادين إلى المقابض الخشبية. ركنتُ العربة جانبًا. الغريب أنني وجدت جردلين مملؤين بالماء وكأنما هناك من كان يعرف بحاجتي لإرواء الجوادين، وعلى مقربة كان شوالان من التبن قد أُعدا للجوادين أيضًا.

تلفّتُ إلى كل الجهات لأطمئن إلى عدم وجود أحد، فلم أجد سوى الدجاج الذي هدأ قليلًا من النقيق. توجهت إلى المدخل الذي أشارت إليه الأميرة. وقبل أن ألج المدخل التفتّ إلى العربة وإلى جواديّ فرأيتهما منهمكين بالتبن كل في شواله.

ولجتُ المبنى. وجدت نفسي في قاعات تقود إلى سلالم تصعد للأعلى. وحين كنت في الطابق الأرضي وجدت حشدًا من النساء اللاتي كن منهمكات بالطبخ في قدور هائلة الحجم، والتي كانت على قاعدة ثلاثية، حيث النار تتأجج من خلال الحطب الذي يرمى هناك باستمرار من قبل نساء مهمتهن مراقبة تأجج تلك النيران.. لكني استغربت كيف يتم الطبخ داخل قاعات حيث يتصاعد الدخان إلى السقوف المزينة بالزخارف، بل ولمن كل هذا الكمية الهائلة فالقدور الكبيرة تشي وكأن الطعام يُعد لعشرات بل مئات الأشخاص.

صعدت السلّم الحجري الذي يتوسط هذا الطابق الأرضي إلى الأعلى فوجدت نفسي أمام قاعة رحبة فُرشتْ بالسجاد الثمين، تجلس عليها نساء عجائز، بل هرمات، بثياب سود، ومتكئات بظهورهن على امتداد جدران القاعة الفارهة الثلاثة، وكأنهن جوق إغريقي من النائحات. كانت النساء العجائز يأنن وينوحن بطريقة مكتومة لا يسمعها غيرهن.

تجاوزتُ تلك القاعة صاعدًا من طابق النائحات إلى الطابق الثاني. وهناك رأيت قاعات فارهة مزينة بالسجاد الوثير والستائر الجميلة وحتى الجدران مغطاة بالسجاد أيضًا. وكانت هناك حركة دؤوبة من النساء الفتيّات بأجسادهن ووجوههن المنحوتة والتي تشبه التماثيل الإغريقية. لكني لم أعرف ماذا كن يعملن، ولولا انتباهي لكرات الصوف الملون التي بعضهن يحملنها ويوزعنها بين الغرف والقاعة لما عرفت بأن هذا الطابق هو معمل سجاد القصر. وعلى غير توقع مني اقتربت امرأة بهية الطلعة ومكتنزة الجسد برشاقة، وأشارت برأسها إلى السلّم الذي يقود إلى الطابق الثالث بأن أصعد.

صعدتُ إلى الطابق الثالث حيث طابق الأميرة. وما إن انتهيت من الدرج الأخير في السلّم حتى وجدت نفسي في صالة كبيرة مفروشة بالسجاد الفاخر البهي الألوان، ومؤثثة بمتكئات على امتداد جدران الصالة من الجانبين. متكئات عالية يمكن الجلوس عليها كالأرائك الوثيرة المغطاة بسجادات قصيرة ومفارش من الشعر والوبر. وهناك طاولات خشبية عليها صوان من النحاس مليئة بالفواكه. ومع أن الوقت كان نهارًا إلّا إن المصابيح الزجاجية الزيتية والفوانيس القوية كانت مضيئة.

ظننت أن الصالة فارغة، لكن بعد لحظات انتبهت إلى عمق الصالة حيث كانت الأميرة جالسةً على كرسي مهيب كأنه العرش. كانت هي تنظر إليّ وتنتظر لحظة انتباهي لها. أومأت برأسها بأن أتقدم وأحنت رأسها على مقعد أوطأ منها. تقدّمتُ. أشارت إلى المقعد وقالت:

- تفضل.. وقبل كل شيء أهلًا وسهلًا بك في قصري.. وأشكرك لأنك لبيت ندائي.

لم أقل سوى تمتمات لا أدري إن كانت قد فهمَتها أو لا. جلستُ على المقعد الذي أشارت إليه مقابلها. ظلّت نظراتها مركّزة صوبي وكأنها غير مصدّقة وجودي في صالونها.

لحظتها، ومن شدة انبهاري، لم أرفع لها نظري كثيرًا لسطوة جمالها وقوة شخصيتها والإشعاع الذي ينبعث من عينها ونظراتها. لكني كنت ألقي عليها نظرة خاطفة بين الحين والآخر.

ومع أني مررت بعدة طوابق ورأيت نساء يطبخن والنائحات وصانعات السجاد.

لكن السكون كان يخيم على هذه الصالة، بل على جميع أنحاء القصر وطوابقه وغرفه وقاعاته. ولم يكن يعكّر صفو هذا السكون سوى صوت تكسر الفحم في الموقد الكبير في جانب من الصالة.

فجأة رأيت من يقف إلى جانبي. رفعت رأسي فرأيت امرأة رزينة، متشحة بالسواد، ذات تقاسيم حادة وأنف كمنقار صقر جارح، الحزن والطيبة يشكّلان ملامحها الأبرز، تحمل بكفيها طاسة كبيرة من الفضة عليها نقوش جميلة وغريبة، مدتها لي فأخذتها منها. كان فيها لبنًا مخثرًا طيب المذاق تنبعث منه رائحة الدخان. شربت منه قليلًا وردته لها فأخذته وانصرفت.

نظرت الأميرة لي بطيبة وقالت:

- مرة أخرى أشكرك على قدومك لأني أعرف أنك قطعت تسعة وديان خطيرة وحدك. لكني كنت أتابعك وأراك في كأسي الذهبي هذا.

أشارت إلى كأس من الذهب كبير الحجم نسبيًا. وواصلت:

- في هذا الكأس كنت أراك أيضًا وأنت هناك في قلعتك البعيدة وعزلتك المهيبة في جبل السماء، مثلما كنت أتابعك وأنت تقطع الوديان التسعة العميقة وحدك ليل نهار. وأنا ممتنة لك لتجشمك كل هذا العناء.

جمالها الأخاذ وجسدها المثير وملابسها الجبلية الزاهية والأنيقة سحرتني. لكني لم أعرف لماذا أنا هنا، ولماذا نادتني في المنام؟ فسألتها:

- عفوًا أميرتي.. أكاشفك الأمر بصراحة شديدة، إنني لا أعرف لماذا أنا هنا؟ كما أنني لم أستلم منك أية دعوة صريحة ومباشرة، فقد سمعت هاتفًا في السَحَر، وكنت ما بين النوم واليقظة.. هيمنَ عليّ هذا الهاتف وجئت مُلبيًا النداء.

ابتسمت الأميرة الجبلية البهية على الرغم من ملامح الحزن والتأمل على وجهها وقالت:

- صحيح جدًا.. لقد ناديتك عبر هذا الكأس السحري. أنا أحتاجك. أريد أن أسألك في أمر جلل، وأتمنى أن تجيبني وتجد جوابًا لمحنتي..فقد قِيل لي بأن في جبل السماء ثمة رجل لديه الإجابات كلها.. هو أنت؟

فوجئت بما قالت، فأنا أعيش عزلتي ولا علاقة لي بالناس كي يقال عني ما يقال، فقلت متعجبًا بشكل لا إرادي:

- أنا..؟ أأنا أمتلك الإجابات كلها؟ أنا لا أستطيع أن أجيب على سؤالي لنفسي: لماذا أنا هنا؟ فكيف تقولين إن لديّ الإجابات كلها؟

ارتسمت ابتسامة طيبة خفيفة على محياها وقالت:

- بلى..ستجد الإجابات ما دمت تعرف أنك مكتظ بالأسئلة وبأنك على يقين من أنك لا تعرف شيئًا..! من يعرف أنه لا يعرف شيئًا فهو يعرف جانبا من الحقيقة..!

- وما هو هذا الجانب..؟ سألت بتردد.

نظرت إليّ وكأنها تود التأكد من صدقي في السؤال، وقالت بهدوء:

- هذا الجانب هو أننا كلما تعمقنا وتوغلنا في المعرفة سندرك بأننا لا نعرف شيئًا. الأغبياء والحمقى وحدهم من يدّعون معرفة كل شيء. ويكونون على ثقة مخيفة بأحكامهم.

فجأة، نظرتْ إلى مدخل الصالة وهزّتْ رأسها بإشارة الموافقة. لا شعوريًا التفتُّ ورائي فرأيت المرأة التي حملت إليّ اللبن وهي تغلق باب الصالة المذهب الذي كان في زخرفته تحفة فنية، مع أني لم انتبه إليه حين دخولي.

أدركتُ أنها تريد فعلًا أن تحدثني بخصوصية تامة بحيث لا يسمعنا أحد. اعتدلتْ في جلستها مع انحناءة خفيفة للأمام وكأنها تريد أن تتأهب للنزول عن مقعدها وسألتني:

- هل تعرفني؟

كنت متأكدًا من أنني لا أعرفها شخصيًا، ومع ذلك راودني هاجس بأنني أعرفها ورأيتها. ربما جمالها الآخاذ وشخصيتها القوية الحاضرة والمتجلية في بهاء جسدها المثير ونظراتها العميقة والذكية وملامح التأمل والتفكير المرتسمة على وجهها رسّخ حضورها في نفسي فبدا وكأنني أعرفها..! لكني وجدت نفسي أجيبها قائلًا:

- لا.. لم يتسن لي الشرف برؤيتك..فبيننا وديان تسعة، وأنا شخصيًا أعيش في عزلة تامة في مملكة الموتى الأحياء.

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهها وقالت وكأنها تواسيني:

- نعم.. أعرف ذلك.. أعرف أنك تعيش وحيدًا في قلعتك على قمة جبل السماء. أراك حين أنظر في كأسي الذهبية وأنت في مكتبتك بأعلى القلعة تقرأ في كُتُب وأوراق ومخطوطات قديمة. وأعجب كيف تطيق الوحدة، بل أحيانًا أسأل نفسي: من أين أتيتَ بكل تلك الكتب القديمة والأوراق والمخطوطات؟. تابعتك خلال سنوات المطر الأسود التسع، رأيتُ كيف فاضتْ الوديان وغرقت تحت وابل المطر الأسود المدرار، غير المنقطع، الذي أغرق الغابات بما فيها من وحوش وزواحف، وحيث تشكّلت بعد ذلك البحيرات التسع الكبرى في الوديان..، لكنك واصلت القراءة غير آبه بالرعد والبرق والمطر والليل البهيم..! لقد كنتَ طوال تلك السنوات معتكفًا على القراءة، لذا حينما أفقتُ أنا من موتي، وأدركتُ مأساتي، اسودّتْ أيامي وقلّت حيلتي، وهويت في بئر محنتي، ولم يكن أمامي سواك..!

لقد كنتُ أراك على مدى تسع سنوات وأنت تقرأ ليل نهار بلا كلل، لا تتوقف إلّا للتنزه حول قلعتك، والجلوس على صخرة باب السماء لتتأمل البحيرة التي تشكلت في أسفل الوادي..! لكن كم وددتُ حينها أن أعرفَ بماذا كنت تفكر في تلك اللحظات، وماذا كان يصطخب في رأسك من أفكار.!؟

لا أعرف كيف وجدت نفسي أقاطعها قائلًا:

- كيف لي أن أخدمك؟

فوجئَت لمقاطعتي لها، صمتتْ للحظات، ثم استرخت ملامحها وقالت:

- أريد أن أطرح عليك سؤالًا.. أتمنى أن أجد الإجابة الشافية عليه..

تجرأت أكثر وقلت:

- السؤالُ متنٌ ونص والإجابات هامشٌ وتفسير. السؤالُ واحدٌ والإجاباتُ متعددة.

ابتسمتْ بطيبة وقالت:

- ومع ذلك سأمنحك النصَ والمتن.. وأعطني الهامشَ والتفسير.

خفضتُ رأسي وقلت بنبرة متواضعة وكأني أحدّثُ نفسي:

- لا أملك شيئًا لأعطيكِ.. أنا فقير كالريح.

نظرتْ إلّي بتركيز دون أن تقولَ شيئًا للحظات طويلة ثم قالت:

- أريد أن أسالك.. متى خلق الله جهنم. أقبل خلق آدم أم بعده؟

فوجئتُ بالسؤال. أنا لست فقيهًا كي تأتي بي من وراء الوديان التسعة لتسألني عن جهنم..! وما علاقتي بكل هذه الترهات الدينية..! احترتُ.. لكني استرجعت فورًا في ذاكرتي عشرات الكتب التي كنت أقرأ فيها خلال ليالي ونهارات القلعة المعزولة على جبل السماء. وتذكّرت الكتب المقدسة لقطيع البشر، فلم يرد فيها ذكر لجهنم أثناء الخلق، بيد إني انتبهت لذلك في كتاب مقدس آخر حيث وردت آيات في حوارية إبليس مع الله بعد أن رفض إبليس السجود لآدم، وتلقي لعنة الله. وفجأة ظهرت أمام عين أعماقي حينها ما يشبه اللوح المُضِيء وفيه نص الآيات التي وردت في (سورة ص) فكّرت بها، فتلوتها بخشوع:

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)).

وحينما انتهيت منها سكتُّ. تردّدتُ في الإجابة، ثم قلتُ بنبرة غير واثقة:

- أظن أن الله خلقها قبل خلق آدم، لأن آدم كان حينها في الجنة، وفي اللقاء

السماوي الذي أمر فيه الرب الملائكة أن تسجد لآدم إلّا إبليس الذي رفض ذلك.. أي لم يكن الله غاضبًا على آدم بعد ولم تكن هناك معصية، لكن بعد رفض إبليس السجود تلقى لعنة الله، وحينها طلب إبليس من الله أن ينظره إلى يوم الوقت المعلوم، وأقسم أمام الرب متوعدًا بأنه سيغوي بني آدم أجمعين، فهدّده الرب بأنه سيملأ جهنم منه وممن يتبعه. وهذا يعني إن إبليس كان يعرف بوجود جهنم وإلا ما توعده الله بها، مثلما كان يعرف إن آدم سيقترف المعصية، وسيُطرد من الجنة، وستكون هناك بشرية.. لذا قال إبليس سأغوينهم أجمعين بينما لم يكن هناك سوى آدم واحد؟. من هم (أجمعين) إذا كان آدم وحده هو المخلوق؟ وإن الله يقول له «لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين». أي أن هناك سيناريو مُعد سلفًا للبشرية ولا علاقة للأمر بآدم.!؟

فقاطعتني بنبرة فيها خوف انعكس على وجهها الأنيق وعلى نظراتها المليئة بالتساؤل:

- يعني هذا أن الله أعدّ لآدم جهنم قبل أن يخلقه؟ بل حتى إبليس كان يعرف بذلك، ويعرف بيوم القيامة ويوم الحساب معلوم؟ وإن هذا الكائن الذي اسمه آدم مع زوجه الأنثى سيهبطون للأرض كعقاب، علمًا إن الخطيئة والعصيان لم يحدثا بعد، وإن آدم وحواء سيتناسلان ليخلفا مليارات البشر الذين سيسعى إبليس لغوايتهم؟ ما هذا!؟ أيعني أن الله قد أعدّ كل ذلك مسبقًا؟ لماذا إذن نحاسب على شيء قد تم إقراره وفق مشيئته هو..؟

صُدمت من أسئلتها القلقة. لم أجرؤ أنا على مجارات قلقها مع معرفتي بالنصوص منذ أن أفقت من موتي فوجدت نفسي في تلك القلعة الغامضة على قمة جبل السماء، فقلت لها بنبرة هادئة ممزوجة بالخيبة الممزوجة بالخوف والعتاب:

- لا أدري.. إنك تخيفينني.. أجئتِ بي من وراء الجبال والوديان المظلمة من دون أدلاّء ولا مرشد لي سوى صوتك الذي اجتاح روحي وجسدي والذي كان يرافقني طوال رحلتي.. لتسأليني عن جهنم؟

ارتبكتْ.. ليس خوفًا وإنما ارتباكًا يميل إلى الخجل، وقالت بنبرة ممزوجة بالإعتذار:

- إنني أسألك، لأنه لو كان الله قد أوجدها قبل خلق آدم وطرد آدم من الجنة

ووعده لإبليس بأنه سيملأ جهنم به ومن تبعه، فهذا يعني أن كل شيء مقدر سلفًا...

أذهلني جوابها، وارتبكتُ من أن يكون جوابها فخًا لِجَري إلى البوح بتفكيري في مثل هذه الأمور التي تخص العقائد المتطرفة، فحاولت تجنب الخوض في النقاش، وقلت:

- ولفنترض أيتها الأميرة بأن الأمر كذلك.. مع إن رأيي هنا هو مجرد تأويل..

أحنتْ رأسها إلى الأسفل، صمتتْ للحظات، أدركتُ أنها في خضم أمواج الفكر، استمر الصمت بيننا لدقائق، ثم رفعت رأسها ونظرت إليّ بتركيز وكأنها حسمتْ أمرها وقالت:.

- أنا قاتلة..! ووفق ما قلتَ يعني إنني لستُ بقاتلة وإنما قُدّر سلفًا من الله بأن أكون قاتلة..!

صُدمت، لكني غريزيًا بقيت حذرًا في مناقشة أمر العدالة الإلهية وقدر الإنسان، وقلت بهدوء:

- لا أعتقد الأمر كذلك..لكن أتمنى أيتها الأميرة أن أسمع منك ما وددتِ أن ترويه لي.. وهو سبب مجيئي لتلبة النداء..

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهها الأنيق وقالت بلطف:

- لا يفهم الجبل غير الجبل.. مع أن قمم الجبال لا تلتقي أبدًا..

ابتسمتُ باحتشام وقلت:

- مع إني أعيش على قمة جبل السماء، لكني لم أفهم ما تلمحين له..هل يمكن لحضرتك أن تفسري لي ذلك..؟

فجأة غابت الابتسامة عن وجهها، ثم سألتني ونظراتها شاردة:

- هل مررت بمقبرة القرية حين يجرفها المطر المدرار، حيث تتحول إلى بُرك صغيرة وأوحالٍ طينية. لحظتها يتعالى أنين الموتى من داخل قبورهم، وتخرج من القبور صرخاتهم معلنة عن استيائهم من الماء المتسرب إليهم مع الوحل، يشكون البرد الذي يحيطهم هناك في الظلمة الأبدية..روحي الميتة تأن مثلهم..فأفهم أيها الروح المقبلة من الظلام الأزرق.

لحظتها أدركت أنها ميتة حية مثلي، فقلت لها:

- سأحاول أن أفهم. وأعتقد أنكِ ما جئت بي لتسأليني عن جهنم.. فنحن في مملكة الأحياء الموتى أو في مملكة الموتى الأحياء.. أخبريني بما أردت أن تسرّيني به.. لا أن تحدثيني عن جهنم، فليس هذا ما أردتهِ مني أو ما دفعكِ لأن تندهيني؟ فنحن أحيانًا نظن أننا نعرف ما نريد، وفي الحقيقة نحن نهرب مما نريد، ونتذرع بما لا نريد وكأنه ما نريد..!

نظرتْ إليّ بتركيز وكأنها تزن قناعتي بما قلت، وقالت بنبرة مستنكرة:

- ما هذا؟ هل تريد القول بأننا نهرب من أنفسنا إلى أوهام نخلقها لأنفسنا.

فأجبتُ بتردد:

- ربما.. فأحيانًا نضع لأنفسنا أهدافًا نعتقد أنها منتهى الطلب ثم نكتشف أنها ليست ما أردناه، بل وأحيانًا ندرك ذلك قبل أن نصل إليها، فنتركها ونأسف لتعَب الطريق الطويل إليها، وأحيانًا نواصل السير إليها على الرغم من معرفتنا بأننا أخطأنا الهدف. بل وقد نختار إنسانًا نظنه هو الإنسان الحلم، ثم نكتشف أنه لم يكن حلمًا وإنما خيبة تضاف إلى خيبات حياتنا.

رفعتْ حاجبيها باستنكار وتعجُّب وقالت بعد لحظات:

- أنت تخيفني.. أهذا يعني أن حياتي كلها كانت أخطاء في أخطاء..؟

انتبهتُ إلى كثافة الخيبة والألم اللذين ارتسما على وجهها وفي نظراتها، وكأنها تأكدتْ من شيء كارثي لم تبح لي به بعد، فأردتُ تخفيف الخيبة عنها فقلت:

- ربما.. وربما الآن وأنا أتحدث إليك أحاول أن أهرب من قول شيء آخر..

فقاطعتني بنبرة عالية فيها خوف قائلة:

- إذن أين الحقيقة..؟

نظرتُ إلى وجهها الأنيق وإلى ملامحها المتوترة وقلت:

- أية حقيقة..؟ نحن كثيرًا ما ننظر إلى أوهامنا باعتبارها هي الحقيقة..!

نظرت إليّ باستغراب وسألت:

- لكنك بهذا المعنى ألغيت كل منطق في الأشياء والعلاقات!؟.

فأجبت بهدوء وبنبرة مشككة بسؤالها:

- وهل ياترى ثمة منطق في الأشياء، بل في الوجود نفسه؟

صمتت لحظة وقالت كأنها تحاول السيطرة على اندفاعات مشاعرها وأفكارها الداخلية:

- على مهلك.. الوجود كله..هذا الكون اللانهائي كله مبني على المنطق والقوانين..

أجبتها بهدوء لا يتناسب مع انفعالاتها الداخلية:

- تلك إرادة الله القدير التي تتخلل الوجود..

- ونحن جزء من هذا الوجود..

فقلت لها بهدوء:

- لكن أعماقنا وغرائزنا وحركة البندول في أعماقنا، بين وعينا ولا وعينا، بين ما تريده أعماقنا وذاتنا الحقيقة وبين وعينا وأخلاقنا وشرائعنا، بين ما هو مسموح وما هو محرم، تجعلنا في حالة تأرجح أبدي..

فقالت بنبرة حانقة:

- إذن.. وفقًا لِما تقول فإن منطقك هذا هو بالأساس لا منطقي..

فأجبت بنبرة هادئة ومؤكدة:

- أعرف ذلك.. وكما قلت لكِ.. نحن نهرب إلى أشياء نعتقد هي ما نريد.. لكن يتكشف أنها ليست ما نريد، وربما أصلًا أننا لا نعرف ما نريد.

صمتتْ للحظات. تأملتني بنظرة متفحصة، وقالت:

- إذن ماذا تريد من كل هذا الكلام..؟

نظرتُ إليها. ركّزت نظري في عينيها وقلت بهدوء أقرب إلى اللامبالاة:

- لا أدري.. لكني أعرف شيئًا واحدًا وهو إننا نظن أنفسنا في لحظة ما بأننا نعرف ما نريد، وهذا بالذات ما نريد ويتضح لاحقًا بأنه ليس ما أردناه وإنما هربنا مما كنا نريده بقوة إلى ما لا نريده، وكتبرير لفشلنا وخيبتنا نعاند ونمضي في الخطأ بكبرياء جريحة.

نظرتْ إليّ بريبة وقالت:

- أنت تزعزع ثقتي بنفسي وباختياراتي وقناعاتي..

أحسستُ بدفق من الحنان نحو مخاوفها التي تشع من عينيها وقلت:

- وأنا أيضًا غير واثق مما أقوله لك.

انتبهتُ إلى أنها ارتاحت للحظة حين سمعت جوابي، لذا قالت:

- إذن من العبث الإصغاء لك..

نظرتُ إليها بمودة وتعاطف وقلت:

- ربما..

فقالت بنبرة يائسة:

- بل أكيد.

ولا أدري لماذا أحببت أن أتوغل أكثر في أعماقها الغامضة، فسألتها:

- هل أنتِ واثقة ومتأكدة بأنك تعرفين ما تريدين؟

فقالت بثقة ومن دون تردد:

- نعم..

صمتُّ لحظة وسألت بنبرة هادئة:

- إذن ما معنى الحديث عن الأخطاء والخيبات في الحياة!؟ ألم نكن جميعنا على ثقة من اختياراتنا وقناعاتنا ثم يتضح أنها كانت أخطاء في أخطاء..؟

أحنتْ رأسها مُستسلِمَة وكأنه تفكر بشيء بعيد، وقالت:

- صحيح.. يحدث ذلك لكنها الحياة هي تلال من الأخطاء والأوهام الجميلة التي كانت في لحظتها حقائق لا تقبل الجدل..

فقلت بنبرة مشاكسة قليلًا:

- مثل ثقتك الآن برأيك هذا..

فقالت بنبرة فيها تحد:

- نعم..

ابتسمت بحزن وقلت:

- إذن.. تحية للأوهام الجميلة.

صمتتْ للحظات وهي تنظر لشيء ما على الأرض بتركيز لكن كان واضحًا أنها تفكر بشيء ما، ثم رفعت رأسها وجالت بها في الصالة، استمر صمتها، ثم فجأة أحسستْ أنها قررت مع نفسها أن تبوح بشيءٍ ما، فنظرت إليّ وقالت:

- أنا ندهتك لا لأناقشك حول أسئلة الحقيقة والوهم أو وهم الحقيقة، وإنما لأنني أريد أن أتحقق من أمر آخر.. وحين سألتك عن جهنم كنت أعني ما أقول..أنا قاتلة.. نعم..لقد قتلت حبيبي.. ولو عاد مرة أخرى لقتلته أيضا..!

أدركت أنها لا تستطيع أن تتحمل عبء الألم وثقل الكوابيس التي تكلكل على روحها، وأنها تريدني لأساعدها على التخلص من هذه الأثقال والكوابيس، فقلت لها:

- أزيحي الحجر الذي يغلق كهف الروح، ويسد على كوابيسك، كي تطير وتختفي كلها في الفضاء.. تحدثي.. فضفضي.. ألم تناديني من أجل هذا؟

فقالت باستسلام:

- نعم..

- إذن.. تحدثي..!

صمتتْ للحظات، ثم انطلقت تحدثني عن مأساتها، وكأنها ليست هي المرأة التي كانت تجادلني قبل قليل، فقالت:

- أنا الإبنة الكبرى لشيخ هذه المنطقة وكبيرها. بعد ولادتي انقطعت أمي عن الإنجاب لتسع سنوات.. ولأن أمي كانت جميلة جدًا وابنة شيخ جليل ومهم وقوي، لذلك لم يتزوج أبي عليها لا سيما وأنها كانت تحبل لكن بعد أشهر تجهض، مما دفعه لتحملها والصبر عسى أن تنجب له أولادًا.. بعد تسع سنوات أخذت أمي تنجب التوائم..فقد انجبت أربع مرات توائم ذكورًا، وفي المرة الخامسة انجبت توأمًا أيضًا كان أحدهما طفلة ماتت عند الولادة.. وهكذا كان بيني وبين أخوتي التسعة فارق كبير في السن يمتد من تسع إلى أكثر من ذلك بكثير، لذا كنتُ ابنة أبي وخليفته.

أمي، على الرغم من أنها ابنة شيخ له مكانته، إلّا إنها كانت باهتة وعديمة الشخصية وكأنها تعيش في عالم آخر. لا يُسمَع لها صوت. كانت ماكينة للإنجاب، لذا كنتُ المقرّبة من أبي.. وكان لا يريدني أن أكون مثل أمي بلا شخصية.. لذا كان لا يفارقني، فكنت منذ طفولتي أجالسه مع كبار رجالات قبيلتنا والقبائل المجاورة. ومع نمو جسدي وعمري صار وجودي ظلًا لأبي، وصار كبار شيوخ القبائل يحسبون لي الحساب، لا سيما وأن أبي كان أمامهم يسألني عن رأيي في أمور مهمة وذات شأن في مصائر الخلاف بين القبائل أو كيفية مواجهة الأعداء، حتى صار بعض شيوخ القبائل يتوجهون لي حينما يكون أبي مريضًا وطريح الفراش. ومع ذلك كنت أبدو على غير حقيقتي.. وطبعًا أنت تعرف الجبال التي تحيطنا والتي يقطنها الجِن وملكهم المسمى ملك الأفاعي. (صمتت للحظات ثم واصلت) - أخوتي كانوا صغارًا.. كنت في الثامنة عشر من العمر حينما هبط أبي إلى الوادي ولم يعد.. اختفى أبي.. بحثنا عنه كثيرًا، وأرسلنا العيون وقرّاء الأثر، لكن من دون جدوى.

أحدهم قال إنه صار شجرة سدر وارفة الظلال، لأنه حينما استراح تحت ظلال شجرة سدر في الوادي سمع صوت أبي يناديه ويسأله عني. عاد الرجل إلينا خائفًا ومنذهلًا ومبشرًا. وحينما ذهبت مع أمي إلى حيث وصف الرجل لنا المكان لم نجد هناك أية شجرة..! فحسبنا الرجل معتوهًا.. ولم يكن أمامي سوى أن أحتل مكان أبي كرئيسة للعشيرة الكبيرة. كنت أجد صعوبة في التعبير بشكل طبيعي فاتخفى وراء قناع القوي فيبدأ صوتي بالحشرجة المستفزة والنبرة الغاضبة والآمرة.

كنت أحاول أن أوحي للآخرين بأنني قوية كأبي وصلبة كالجبال المحيطة بنا والتي نعيش فوقها. كنت أحاول أن أبدو للجميع بأنني منهم وبسيطة وأزهد في السلطة، وأنني عادلة ومنصفة وأريدهم أن يشاركونني السطة والرأي، لكن كل هذا كان قناعي فقد كنت أنانية، وكل من سعى من شبان ورجالات القبيلة أن يبدي رأيًا غير رأيي كنت أسعى للقضاء عليه أو محاربته ودفعه إلى مغادرة بقعتنا..! (صمتت للحظات.. ثم واصلت)..

وبما أن ملك الأفاعي استغل غياب أبي واستهان بخبرتي وعمري وجنسي لذا بدأ بتحالفاته مع بعض حلفاء عشيرتنا. شخصيًا فكرت بطريقة أخرى هي بناء قوة عسكرية من شباب عشيرتي. وعيّنتُ لهم رجلًا كنت أميل إليه لرجولته وفحولته ووسامته وقوة شخصيته..!

في تلك الفترة صرتُ لا إراديًا انتبه لجسدي ووزني وأناقتي، لكني كنت أعاني من أرق مخيف.. كنت هشة من الداخل، لا سيما حين أكون وحدي.. وكم مرّ من ليالٍ عليّ وأنا أبكي من ثقل السلطة وجبروتها، ووحشة المكان، وضغط جسدي الذي لم أكن أعرف ماذا يريد مني، حيث الأرق والصداع، والتشتت.!

كنت أحمّل نفسي فوق طاقتها..أحاول في حضرة الآخرين أن أبدو صلبة وقوية ومتنمرة. إخوتي كانوا صغارًا.. بعض شيوخ العشائر المتحالفة معنا طمع بي وبالزواج مني، بعضهم لديهم أبناء أكبر مني عمرًا، وحجتهم الحفاظ على وضعي ووضع رئاستي لحلف العشائر الذي كان والدي يرأسه. لكني رفضت.. فهذه الرئاسة من حق أخوتي الصغار..!

الرجل الذي اخترته لقيادة القوة العسكرية لحلفنا نجح في رص صفوفنا.. ولأني كنت التقيه يوميًا ودائمًا فقد تعلقت به جدًا.. لكني لم استطع الزواج منه، فهو دوني في المكانة العائلية، كما أن زواجي منه سيثير حفظية الذين رفضتهم، إلى جانب أمر مخيف آخر هو أنه كان طموحًا.. وخِفت أن ينهب الرئاسة مني لقوة شخصيته وحضورها..! لكني لم أستطع أن أقود جسدي وتمرد جسدي عليّ.

سأقول لك شيئًا..كل أسرار البيوت لدى الخادمات والمربيات..خادمتي خانتني..

لا أعرف إن كان من اخترته قائدًا للقوة العسكرية قد اشتراها ودفع لها أو لا.. لكني أخمّن إن هذا ما حصل..، فقد كانت لا تترك لي فرصة إلا وتحدثني عن حبه لي وعن شجاعته واخلاصه..وحرّضتني على أن أعيش مشاعري ورغباتي معه..! حرضتني على أن أزيل حاجز السلطة بيننا واقترب منه في تعاملي، ولا ضير من أن أبوح له بمشاعري. زيّنت لي كل ذلك وأبدتْ حرصًا على أن تساعدني وتحافظ على سرّي. وأقنعتني بأنها ستنظم لقاء لنا دون أن يعلم به أحد، وستحرس هي نفسها باب الصالة.

- وهذا ما جرى..!؟. قلتُ بهدوء.

نظرتْ إليّ وكأنها تواجه قدرًا مقدرًا وقالت:

- نعم هذا ما جرى.. ففي المرة الأولى اعترف لي بحبه، ولم أصمد، إذ اعترفت له بحبي أيضًا، لكني وضحّت له بأنني لا يمكن أن اتزوجه لأسباب هو يعرفها، أولها أن العشيرة سترفض لأنها تفضل ارتباطي بشيخ متنفذ من العشائر القوية الحليفة، وثانيًا هذا سيخلق انشقاقًا وغِيرة بين رجالانا الشبان، و.و. لكني اعترفت له بحبي، ورغبتي كامرأة بالارتباط مع رجل مثله..!.....وفي تلك الليلة احتضنني بدفء وقبلني وتعاهدنا على الحب والوفاء والإخلاص..ولم يجر ما هو أبعد من ذلك..! لكني ومنذ تلك الليلة صرت مشتتة ومتنرفزة وهائجة..كنت أحس بسخونة جسدي والأفاعي التي تلسعني في مواضعي الملتهبة..ولم أطق صبرًا فطلبت من المربية الداهية أن تهيء لنا لقاء آخر.

وتفننت هذه الماكرة في تهيئة الظروف وكانت كمّن يحرس بوابة الجحيم.. وفي اللقاء الثاني خطونا أبعد فقد أخذ يتلمس جسدي.. يعصر نهدي ويمد يده إلى الأسفل، بينما كنت أنا مخدرة بالنشوة التي أنستني من أنا، وكيف عليّ أن اتحكم بجسدي.. وصرت أختلق الأمور والأسئلة في النهار فيكون هو مع بعض رجالات القبلية وبعد الانتهاء من المناقشات ويهم الجميع بالإنصراف، استبقيه هو بحجة أمر خاص أود استشارته به لوحدنا.. وطبعًا المربية اللعينة تعرف كل شيء، فتغلق الباب وتحرس بوابة الخطايا..!

ذات يوم كنت في شرفتي، فرأيت حصانًا ينكح مهرة.. رأيت كيف كان يقفز على

ظهرها وهي تميل بذيلها ليولج فيها قضيبه الضخم الطويل.. أتصدق أنني كنت أتمنى ذلك الحصان أن يلجه في أعماقي.. نعم كنت أتمنى ذلك الحصان وليس الرجل الذي أحببته أن يولجه فيّ.. شيء غريب أن تشتهي المرأة حصانًا.. وشعرت بأنني أبتل واترطب في اسفلي وخفتُ من نفسي ومن هذه الشهوة المجنونة التي تجتاح جسدي..!

أنا حواء أميرة القلعة الغارقة في الضباب.. سليلة الرجال الأشداء صرت أحلم بحصان يقف كرجل ثم يولجه فّي..!؟ وظننت أن جِنيّةً قد تلبّستني.!

وحين أخبرت مربيتي الماكرة وافقتني وقالت لي بأنني لن أهدأ إلا إذا عرفت لذة القضيب وتزوجت. لكنها تعرف أنني لا استطيع الزواج بسهولة ممن أحب، فهذا أمر مستحيل. لذا أخذت تلقي علي خطبًا ماكرة عن ضرورة إبعاد أمي وأخوتي إلى قصر بعيد نسبيًا كي يتسنى لي اللقاء مع حبيبي بسهولة ليلًا. ولأنني مشتتة ومستفزة الجسد ومتهيجة الأعصاب وبالي مشغول بأحلام اليقظة فقد وجدت نفسي لا إراديا أتقبل رأيها الماكر..!

غريبة هي النفس البشرية. فمع أني كنت أعرف أن المربية ماكرة، ولأني كنت في حاجة لمكرها وحيلتها، لذا صرت أغض النظر عن مساوئها، لأتخلص من الشعور بالذنب..! ومع أني كنت أعرف أو أخمن ما سيأتي، إلّا إني وافقت برضى محفوف بالخوف.

وعلى الرغم من محاولتي وضع الحدود لنفسي في علاقتي مع حبيبي كي لا أنجرف معه، لكني شربت في تلك الليلة نبيذًا كثيرًا، وطلبت إيقاد الشموع والنار في الجفنات التي تستخدم كمواقد، والموزعة في جميع الصالات والغرف. وفي تلك الليلة كان حبيبي حصاني البشري، وكنت مهرته الجامحة. فضّني بقوة الحصان الذي كنت أحلم به وولجني بعنفه.

ومضت الأيام والليالي والأسابيع. وفجأة ذهبت النشوة وجاءت الصحوة، حينما انتبهت لانقطاع دورتي الشهرية، وحينها فقط انتبهت لِما وصلت إليه. لقد انتبهت إلى أنني صرت ضعيفة لا شعوريًا أمام رجالات القبيلة والقبائل الحليفة. لم أعد

أشعر بأنني الأقوى، وأنني العَليَّة، فقد كان يراودني شعور بأن هناك من امتطاني وصرت تحته، وأنني أسأت لرجال القبيلة، إلى جانب انتباهي إلى أن حبيبي أخذ يقرر في شؤون إدارة العشيرة ومشاكلها من دون استشارتي.

كنت في حيرة بين حفاظي على مكانتي ومكانة أبي وعائلتي، وبين ضعفي أمام رجل كل ما أريده منه أن يخترقني ويولجني بقوة.

ناديت مربيتي الماكرة وطلبت منها أن تساعدني في الإجهاض. ولم تبخل هي بأية وسيلة تعرفها لكن قدري المأساوي كان يتجه نحوي كغيمة سوداء غاضبة.

- ألم تستنجدي بأمك؟.. سألتها مقاطعًا.

نظرت إليّ وكأنها لم تفهمني للحظات، ثم قالت:

- لا. لا. أردت ذلك.. لكن مربيتي الداهية فضلت بأن نحل الأمر في السر. لكن أي سر سيُحفظ في هذه القلعة المريبة.

- إذن كيف انتهى الأمر؟.. سألتُ بفضول.

نظرت لي نظرة باردة لم اتوقعها وقالت بنبرة شبه آمرة:

- أنا ناديتك كي أروي لك ما جرى، فلا تقاطعني..سأروي لك كل شيء من دون رغبة في التبرير أو الخجل أو التردد.. ولن أخفي عنك شيئًا فلا تستعجل..!

- وأنا أسمعك.. أجبتُ بارتباك.

عندها صمتتْ للحظات ثم واصلت كأنها تروي عن أشخاص آخرين مع أنها تتحدث بضمير المتكلم.. وقالت:

- كل المحاولات الموجعة وشبه المهلكة والخطرة لإسقاط الجنين جربتها، لكن من دون فائدة. فقد تشبث الجنين في رحمي. ومع دخولي الشهر الرابع صار الحمل واضحًا عليّ. لذا كان عليّ أن أغير من ثيابي وألبس الثياب العريضة.. وانقطعتُ عن رؤية أمي وأخوتي، على الرغم من بعدهم عني، بحجة الإنشغالات.. لكن لم أكن أعرف أن حبيبي كانت تسكنه روح خنزير نتن. فقد أرسل مجموعة من أعوانه

الخبثاء والقتلة إلى حيث يعيش أخوتي وأمي وذبحوهم كلهم من دون أيما رحمة. وافتعلوا هجومًا في مناطق أخرى، ونهبوا وسلبوا، كي يلقوا باللوم على اللصوص. فجيعتي حينها كانت لا توصف.

أحيانًا عليك أن توازن بين فقدان أحِبَتك من جهة وبين إنقاذ نفسك من فضيحة مذلّة..! فمربيتي الماكرة على الرغم من دهائها اللعين إلّا إنها كانت مربية أخوتي أيضًا، وكان ذبحهم بتلك الطريقة البشعة صدمة وفاجعة حقيقية لها، لذا بطريقتها الخبيثة وبحبائلها التي نسجتها حول أتباع عشيقي، عرفت المكيدة، وتأكدت من أن عشيقي أراد التخلص من كل أخوتي وأمي كي يقطع أجنحتي ويهز مكانتي ويكسرني ليسيطر عليّ، بل وليدفعني إلى الزواج منه متحدية الجميع. لكن أبي لم يتركني..فلقد صحوت ذات صباح على صوت خفق أجنحة تأتي من الشرفة. وحين خرجت إليها وجدت طاووسًا كبيرًا بألوان بديعة فارشًا جناحيه ونافخًا نفسه بطريقة مهيبة..!.

نظرت إليه وكأني لا شعوريًا أدركت أنه هو، أبي، فنظر إلي متأهبًا ثم نطق بصوت بشري قائلا لي: „أنتِ يا بنتي غدرتِ بي ولوثتي اسمي. شهوتك قادتك إلى إبادة نسلي والقضاء على حكمي. فقد ذبَحَ الرجل الذي اخترته عشيقًا لك كل أخوتك الأبرياء الصغار وكذلك ذبح أمك المسكينة بكل حقد وشراسة، وجللّك بالعار الأبدي، وسوف يغدر بك أيضا، وسيقضي على بعض حلفائنا ممن يعارضونه، لينقض بعد ذلك عليكِ مباشرة، ويجلس على كرسيي ومجلسي..”.

صُدمت بل ذُهلت، إذ لم أكن أصدق أن طاووسًا يمكنه أن يتكلم، لكني كنت قد أدركت أنه أبي، وتأكد لي ذلك في ما بعد من خلال نبرة صوته ومن خلال مضمون كلامه.

فجأة سمعت ضجة تأتي من القاعة، فسارعت إلى الصالة كي لا يسمع أحد حديث أبي، فوجدت مربيتي، ومعها خادم عشيقي. وقالت لي هذا خادمه فليخبرك بما يعرف، وفعلًا اعترف الخادم بكل تفاصيل الجريمة البشعة...

صمتت الأميرة الجبلية، وغارت نظراتها إلى داخلها وكأنها تبحث عن شيء في أعماقها، ثم رفعت رأسها نحوي وواصلت..:

- أتعرف..مع أنني رئيسة وآمرة وأعلى سلطة في هذه البقعة وهذا الجبل والجبال المجاورة إلا إنني مقيدة بألف قيد لأنني امرأة..المهم استمعتُ لذلك الخادم الدنيء الذي اعترف ليس وفاء لي وإنما خيانة لسيده مقابل مال وتهديد ووعود من قبل مربيتي الماكرة..لم أكن أعرف ماذا عليّ أن أفعل..هل انتحر..أم عليّ قتل عشيقي؟.. الحرية مخيفة.. الكل ينادي بها، لكنها مخيفة حقا.. فأحيانًا يكون درب الحرية مجهولًا ومخيفًا..لا سيما الحرية في القتل والحرية في اتخاذ القرار في الانتحار، بل والحرية في بدء حياة جديدة والتلخلص من الماضي المخيف ككابوس..!

- وماذا فعلتِ له..؟ سألت بنبرة متوترة لكن خافتة.

- تقصد مَن منهما، عشيقي أم خادمه؟

- كلاهما..

صمتت للحظات ثم قالت:

- كان صوت أبي الذي خرج من الطاووس يتردد في ذهني..لذا اتفقت مع مربيتي ومع الخادم بأن يضع السم في طعام سيده، وأننا سنكافئه على ذلك. فوافق صاغرًا. جاءت المربية الداهية بقنينة صغيرة فيها سم أفعى، كان والدي قد حصل عليه من جاسوس مزدوج أرسله ملك الأفاعي لقتل والدي، لكن ذاك الجاسوس أخبر والدي بمهمته وأعطاه الدليل وهو تلك القنينة الصغيرة المليئة بسم الكوبرا. المهم قالت له المربية بأن علينا سماع الخبر غدًا. والأمر سهل.. ندّعي بأن أفعى لدغته. وهذا ما جرى.

- والخادم؟ سألت باستغراب.

- قتلناه أيضًا..

- ماذا، ألم تعديه بمكافأة؟..سألت.

- مربيتي الماكرة قالت „ إنه خائن..خان سيده، ويمكن أن يخوننا أيضًا لدى ملك الأفاعي، أو يسرّب سرّنا لبقية رجال القبيلة".. لذا تآمرت مع رجال آخرين من أعوان القائد وسرّبت إليهم شكوكها بأن الخادم جاسوس لملك الأفاعي وإنه

هو من وضع السم في طعام سيده، وإلا من أين له سم أفعى الكوبرا ..!.. وفعلًا تم ذبح الخادم بدون أي تحقيق أو اتهام أو محاكمة....وحتى عند مراسيم دفن عشيقي، لم أخرج سوى إلى الشرفة لأنظر إلى الموكب وهو يحمل جثمانه، وقد فهم الجميع بأنني لم أشارك الناس والقبلية طقوس الدفن بحجة حزني على أخوتي وأمي، بينما الواقع أنني أعتزلت الناس كي لا يروا بطني المنتفخة.

وهكذا مرت الأسابيع الطوال، لكنني كنت أشعر برعب من هذا الحمل، فلم تكن بطني عادية في تكورها بل كانت تتحرك بطريقة غريبة، إلى أن هدّ القلعة ذات ليلة مظلمة رعد وبرق مخيف، وفي تلك الليلة جائني الطلق.

والحقيقة أن مربيتي ندمتْ على فعلتها بإيقاعي في فخ هذه العلاقة الآثمة، لذا ومن باب تأنيب الضمير بالغتْ في العناية بي، فقامت بواجبها نحوي، إذ نقلتني إلى صالة في أعماق هذا الطابق كي تبعدني عن صرخات الطلق العالية. وجاءت بإثنتين ممن تثق بهن ليساعدنها في ولادتي.....

لكن الذي حدث شيء مرعب، فقد خرج من رحمي ثعبان عربيد برأس شبه بشري، صار يخرج ويخرج. ارتعبتْ المربية التي كانت تقوم بدور القابلة وأغمي عليها من الخوف، وهربت المساعدتان. وما إن خرج كُلّيًا من رحمي حتى التف حول نفسه على شكل حلاقات ونظر إليّ متفرسًا. ثم أنسل من الغرفة خارجا إلى حيث لا أعرف.. لكني في حينها وبسبب من رعبي ومن آلام المخاض فقد أغمي عليّ.

بعد ذلك بفترة أفقت على لمسات المربية، التي أفاقت قبلي، وهي تناديني وتسعى إلى إيقاظي، إذ تم العثور على المساعدتين مزرقّتين في الصالة. لكنها أرسلت أصحاب الفراسة وقرّاء الأثر ليتتبعوا حركة ابني الثعبان العربيد..وبعد تسعة أشهر جاءوا وأخبروني بأن الأثر ينتهي إلى البحيرة التي عند جبل السماء حيث قلعتك.

لكنني لم أستطع أن أبحث أكثر في معرفة تفاصيل ذلك. إّذ أن ملك الأفاعي أستغل تفكك وضعنا العسكري، وتمكن بسبب عزلتي وعدم تواصلي مع شبان القبلية وشيوخها من أن يستميل القسم الأكبر من العشائر الحليفة. وبسهولة أرسل جيشًا من الأفاعي من صنف الكوبرا علينا. أما الملك نفسه فقد جاء إلى قلعتنا هذه

على هيئة أفعى أوكوندا هائلة، ودخل الصالة والتف حولي وهشم عظامي، فمتُّ بين عضلاته الملتفة حولي.

صُدِمت حين سمعت ذلك فسألتها:

- ماذا يعني هذا؟ أأنت ميتة الآن؟

- نعم.. أنا حواء أميرة القلعة الجبلية الغارقة في الضباب.. العاشقة القاتلة.

- وكيف ندهتني وجئتي بي إلى هنا وها أنت تتحدثين معي؟.. سألت مندهشًا.

ابتسمت بحزن وقالت:

- وماذا في ذلك.. كلنا موتى في الحياة، ونحيا ونحن موتى..وكما علمتُ بعدما متُّ، بأن الذين أرسلتهم لتتبع أثر ابني الثعبان، قد كذبوا ولم يقولوا الحقيقة..فابني نزل إلى إحدى البحيرات وصار ثعبان البحيرة. وقِيل إنه يُخرج رأسه على سطح الماء كثعبان ثم يقترب من الجرف ليخرج شابًا وسيمًا يذهب إلى الغابات المنتشرة حول البحيرة، ثم يرجع ليدخل البحيرة، لكنه يتحول إلى أفعى ويغوص في الأعماق. وقيل لي إنك ميتٌ أيضًا، وأن قلعتك قد تحولت إلى فندق اسمه „فندق باب السماء".

- أأنا ميت الآن؟ سألت مستغربًا.

- نعم.. ألم تنتبه لطريقة وصولك إلى هذه القلعة..؟

ووجدت نفسي أصحو من موتي في تابوتي. أنا هناك الآن، وأنا هنا في هذه القاعة، كيف هذا؟

٢

آدم الغشيم يروي وقائع
من حياة السيدة حواء المنكوب

حرّكتُ يديّ بصعوبة ودفعتُ سقف التابوت الذي كان يطبق عليّ. رفعته إلى الأعلى. حركت جسدي قليلًا ، ورفعت قسمي الأعلى خارج التابوت. تلفّتُ حولي. كان الظلام مهيمنًا على القاعة، إلّا من بعض شموع تضيء في الزاوية.

بقيت جالسًا لدقائق. ثم خرجت نازلًا من التابوت المستقر على طاولة حديدية كبيرة. أدركت لحظتها أنهم تركوني هنا في التابوت وغادروا. وربما سيأتون صباحًا لأخذي إلى الدفن..!

استغربتُ ذلك..! هل تُرى أنا مسيحي؟ لا أذكر أنني كنت مسيحيًا. فلماذا وضعوني بمثل هذا التابوت الأنيق، وبكامل ملابسي وليس ملفوفًا بكفن خانق يشد الجسد فلا يستطيع الجثمان الحراك حتى لو عاد للحياة، كما يقوم بذلك المسلمون.!؟ شخصيًا لا أذكر أية هوية دينية لي..!.

هل أنا العازرُ الذي استيقظَ من الموت وعادَ للحياة؟ إذن ياتُرى أين المسيح الذي أيقظني من موتي؟

بل كيف نهضت من موتي وكأنني لم أمتْ؟

ومع ذلك أعي بأنني ميت على الرغم من وجودي في الحياة..! نعم. أنا آدم الغشيم، هكذا كانوا يلقبونني.. أو أنا آدم ظل الشجرة، هكذا كانوا يلقبونني أيضًا. ولا أعرف من أين جاء لقبي هذا.

أقولها بصراحة مع وعيي بأنني ميت وعدتُ إلى الحياة، أو أنني استيقظتُ وأنا في تابوت، لكني لا أتذكر شيئًا عن موتي؟ وكيف ومتى؟

حتى أنا الذي ترآى لي، وكنته في قمة جبل السماء والذي التقى الأميرة الجبلية لا أعرفه جيدًا، لكني أعرف أنه أنا! ومع ذلك لا أعرف اسمه!

من كل حياتي السابقة أذكر أنني كنت كاتبًا لعرائض الشكوى في باب مجمع المحاكم الذي يقع في المقابل لأكبر متنزه في المدينة. تعرّفت على مئات بل آلاف الشكاوى والحالات من الظلم الإنساني والقساوة البشرية حتى كثيرًا ما فكّرت في جدوى هذه الحياة وهي بهذه البشاعة والرعب، بينما كوكب الأرض جميل والكون أجمل.

ذات يوم صيفي صحوت من نومي واستغربتُ، فسألت نفسي: كيف للموتي أن يناموا وهم موتى.!؟ لكن الأمر لا علاقة له بالنوم الجسدي وإنما بالغياب والاختفاء في العدم ومن ثم الحضور وكأنه اليقظة.

المهم..كانت الشمس حارقة ونحن في أول النهار. حينها نصبتُ طاولاتي التي تطوى فتصير قطعة واحدة، في منطقة ظليلة بالشارع الجانبي الذي يقود إلى أبواب أخرى للدخول. وما إن رتبّت أوراقي على الطاولة حتى رأيت امرأة تقف أمام طاولة الكتابة.

كانت امرأة سمراء، متوسطة الطول، ذات ملامح مثيرة، بصدر ناهد، تلبس بنطالًا أسود وقميصًا أبيض شفافًا وعليه سترة سوداء مفتوحة، تستدعي الناظر إلى التركيز على نهديها الممتلئين والنافرين بحيث تكاد أزار القميص تقفز عن مكانها، لكنه أيضًا ينتبه لشخصيتها وحضورها. وقبل أن أقول شيئًا جلستْ على الصفيحة التي اتخذتُ منها كرسيًا للمداولة مع زبائني، فبادرتني قائلة دونما سلام أو تحية مباشرة:

- أريدُ أن تكتبَ لي رسالةً موجهة إلى قاضي القضاة توضح له فيها حالي باسمي أنا حواء المنكوب.

استغربتُ أولًا حضورها المفاجئ وكأنها خرجت من عالم آخر موازٍ لعالم الموتى الذي نعيش فيه نحن الموتى الأحياء، ثم جلوسها وطلبها الغريب دونما تحية أو سلام، ثانيًا. فسألتها:

- هل تريدين أن أكتب لك عريضة شكوى.!؟

نظرت إليّ بعينين زائغتين وقالت:

- أنا لا أشتكي من أحد. ولا أشتكي لأحد غير شكواي إلى الخالق القدير وحده. خذ ورقك واكتب ما أمليه عليك الآن..اكتب عريضة توضيح لقاضي القضاة يسمع فيها نبرة لغتها صرختي المكتومة.

ارتبكتُ من نظرتها الآمرة ونبرتها الصارمة، فأخذتُ رزمة من أوراقي وقلمي ونظرت إليها بما يعني أنني أسمعك، فقالت:

- أنا حوّاء المنكوب. أنا حواء التي كافحت وناضلت من أجل أن تكوّن شخصيتها ومكانتها الأدبية والاجتماعية..أنا من هؤلاء المقيدين بالسلاسل الغليظة منذ قرون، ومن تلك الكائنات المنسية في حظيرة الخنازير التي تسمى الواقع والمجتمع والحياة. لا ليلنا ليل ولا نهارنا نهار. ما شممنا نسمةَ صباحٍ ندِي، ولا عرفنا النورَ في هذه العتمة. نحن الذين اختنقنا اجتماعيًا بنتانتنا الكريهة، وفقدنا ما يمكن أن يُصنّفنا كبشر.

صمتتْ للحظاتٍ. لم أفهم ماذا كانت تريد أن تقول، فعادة أنا استمع الشكوى شفويًا من المراجعين ثم أصوغها لهم كتابةً وبطريقتي، لكن هذه المرأة فرضتْ عليّ أسلوبها ولم يكن أمامي سوى أن أكتب ما تُملي عليّ. ولا أدري إن كانت قد عرفت ما خطر في بالي لحظتها، بيد إنها واصلت الحديث عن صرختها المكتومة مباشرة::

- يا قاضي القضاة المُبجَّل..أنا حواء المنكوب، الوليدة البكر لوالديّ. كنّا أربعة أخوة وأخوات.. توفي ولد وبنت وبقيّ لي أخ. أيها القاضي الذي لا يرى الحياة وإنما القوانين التي يحفظ أرقام بنودها ونصوصها، أقول لك إن طفولتي كانت قاسيةً جدًا بسبب هجران أمي لأبي.... نعم..أمي التي زُوِّجَت قسرًا لأبي الذي كان يكبرها بثلاين عامًا زواجًا تقليديًا. ومع ذلك أتذكر وأنا في الرابعة من عمري كنت المُدللة عندهما. ما زلت أفتقد دفء بيت الطفولة في الشتاء مع وجود المدفأة النفطية من ماركة (علاء الدين).

كنت أحب النظر لتلك المدفأة لا سيما حين تضع أمي عليها قوري الشاي. إنها كوشم في ذاكرتي..أتذكر أيضًا وأنا ما بين السادسة أو السابعة كنّا نلعب لعبة

عسكر وحرامية. كانت ثمة خرائب على مشارف حيّنا..كانت تلك الخرائب مرتعًا نلعب فيه نحن الصغار.. أتذكر إلى الآن بأنني كنت مغمضة العينين، فوجئت بأحد الأطفال يسحب رأسي ويقبلني. كان يكبرني قليلًا. حينها لم أفهم لماذا فعل ذلك إلّا إنني خفت وخجلت فهربت راكضة. كانت تلك أول قبلة في حياتي..عد سنوات عندما لمحت ارتفاع صدري قليلًا أحببت شكلي، لكني خجلت منه..!

بعد هجران أمي لأبي بقيت وأخي مع أبي..كيف أفسّر ذلك..أمي كانت امرأة جميلة وعاشقة، لكنها كانت أنانية، ما فكرّت بنا وإنما بحياتها وحبها وتعاستها، كانت تفكر بنفسها فقط. ولأكن صريحة، كانت تَكرَه أبي ولا تطيقه بحيث إنها كرهتنا نحن أيضًا من شدة كرهها لأبي. لذا بقيتُ أنا من يعتني بأخي وأبي، ولهذا السبب ذهبتُ للمدرسة في عمر متأخر، فقد بدأتُ الابتدائية في عمر العاشرة..! سنوات المدرسة هي أجمل أيام حياتي لأنني على الرغم من البؤس العاطفي الذي كنت أعيشه فقد تفوقتُ دراسيًا.

في ذلك العمر أحببت جارًا لنا..كنتُ منتبهة قليلًا لأنوثتي، لكن خوفي على نفسي جعلني ابتعد عن كل شاب يحاول التقرب مني..! واجهتُ مغريات كثيرة لكني أبيتُ أن تغويني وانجرف معها لكوني كنت أُمًا صغيرة، مسؤولة عن تربية أخي الصغير، وقبل كل ذلك من أجل والدي وحبه وثقته بي.

سكتتْ للحظات، ثم فتحت حقيبتها الجلدية وأخرجت هاتفًا نقالًا، تصفحتْ ما فيه من أخبار ورسائل للحظات ثم أعادته إلى الحقيبة، بينما كنت أنظر صامتًا، متأملًا، إلى هذه المرأة الغريبة، التي انتبهت لي، فواصلت من دون أن تعتذر عن انقطاعها أو تبرره، وإنما نظرت إليّ مباشرة سائلة:

- أنت تستغرب من سلوك أمي..أليس كذلك؟ أنا الآن أفهم سلوكها. كانتْ شابة جميلة، بل كانت بالنسبة لأبي كأنها ابنته بل ةحتى حفيدته، ويبدو إنها زُوجت عشائريًا، وإنها كانت تحب شخصًا قبل تزويجها من أبي، لذا كانت تتمرد على أبي المسكين الذي كان يعشقها، بل وكان ضعيفًا أمامها، فتهجر البيت لأشهر عديدة لتعيش علاقاتها السرية مع حبيبها، لكن الوضع العشائري يجبرها على أن تعود

لتبقى أشهرًا مع أبي، وإذا ما بدت علامات الحمل عليها فإنها تبقى حتى الولادة لتختفي بعد ذلك.

كانت تكره أبي بشدة ولا تخفي ذلك، فكانت تترك أطفالها رُضّعًا وتختفي تاركة أبي معهم. ولأنني كنت الكبيرة فكنت أقوم بمقامها في رعاية أخوتي وأخواتي..

لكننا بمرور السنين فقدنا إثنين منهم. غريبة المرأة أحيانًا حين تتعلقْ برَجلٍ أو حين تتأجج الشهوة في جسدها..! ومع كل سلوكها المشين كانت هي التي تقرر مصيرنا، مع أنها تعيش بعيدة عنا.. المهم..دعنا عن كل ذلك ولنعد إلى رسالتي الموجهة لقاضي القضاة..اكتبْ مواصلًا قصتي وشكواي له..اكتبْ إن هذه المرأة التي استنكرُ سلوكها، والتي هي أمي، حطمتني من البعد..فما إن دخلتُ طور المراهقة حتى أحببتُ جارًا لنا وأحبني، وتقدَّم لخطبتي، لكن معارضتها، وهي بعيدة، أنهتْ كل شيء..، بل زوّجتني لرجل أكبر مني بعقود، وأنا في الخامسة عشر من العمر فيما بعد.

فبعد أن تطلقتْ من أبي بعد سنوات، عاجلت بالزواج من الرجل الذي أحبته، ومع ذلك كانت لا تأبه لأي حب ووفاء لزوجها الحبيب، إذ كان لديها عشيق آخر كبير في السن. ولكي تحتفظ به قريبًا منها زوّجتني إياه..وكانت ليلتي الأولى معه مرعبة.. آه.. كم أتمنى الآن أن أتذوق طعم ليلة الزفاف الأولى مع رجل أحبه.

توقفتْ ثم فتحتْ حقيبتها الجلدية ثانية وأخرجت علبة سجائر. سحبتْ سيجارة بكفٍ مرتعشة.. أوقدتها بكفٍ مرتعشة، ومسكتها بكفٍ مرتعشة، لكن بعد أن سحبتْ نفسين طويلين ونفثتهما استرختْ ملامحها وواصلتْ:

- أتعرف يا كاتب العرائض..كم كانت الحياة قاسية معي، وكم عانيت بسبب أمي..! كنت أعاني بسبب سلوكها المثير للأقاويل المهينة والشائعات، وأعاني حين أرى أبي ضعيف الشخصية يقبل كل شيء بِذُلٍ يثير غضبي منه وعليه..!. لقد تفتَّح جسدي في عمر مبكر، لكن لم تكن هناك أم تعلمني كيف أتعامل معه ومع تغيراته. تزوجتْ أمي من عشيقها وحبيبها بعد أن تطلقت من أبي. طلبت من أبي ذلك، بل أمرته ففعل، إذ هو لا يعصي لها أمرًا مهما كان أخلاقيًا أو لا أخلاقي، اجتماعيًا أو

غير مقبول اجتماعيًا، فقد كان ضعيف الشخصية بل منعدم الشخصية أمامها.. كان ظِل إنسان.. لكنه كان أبًا طيبًا جدًا..طلقَها وهو يبكي..!....ومع أني أعرف أمي وأكرهها وأحب أبي كثيرًا لكنني ذهبت إليها مع أخي حينما طلبتنا لنعيش معها.. أبي لم يعترض بل هو من أرسلنا إليها بعد أن أمرته بذلك. وهناك سمعت بعض الحديث المفضوح عن الجنس بينها وبين زوجها، وهذا جعلني لا أتقرب من والدتي، بل وأحس بالنفور منها، غير أني أبرها لله فقط كونها أمي.

ربما أنا معقدة بسبب طفولتي والظروف التي عشتها ومررتُ بها. فأنا لا أحب أن اسمع أي كلام في الجنس أمامي حتى بعد أن تزوجت، لأنني أعدّ العلاقة الجنسية حالة مقدسة وتأتي عبر الاتصال الروحي والحب، وربما اشمئزت نفسي من الجنس لأن أمي كانت تلهث وراء الجنس، لأنها كانت تحب رجلًا آخر غير أبي..! لكن حبي لأبي أعماني من رؤية حقها في أن تكون مع الرجل الذي أحبّت، لكن الغريب في الأمر أنها زُوّجت قسرًا لرجل لا تحبه بعمر والدها، لكن حبيبها يكبرها بالعمر أيضًا وهو يكاد يكون بعمر أبي.

ربما تسأل يا قاضي القضاة من أين وكيف تعلَّمت معنى الحب وأنا وسط هذه الكراهية والخيانات الموجعة؟ سأجيبك ببساطة: من الكتب..! نعم القصص الرومانسية والعاطفية للمنفلوطي وجبران والمازني التي هذبت مشاعري وجعلتني أحلم بحب يرتبط بالفضيلة والروح أكثر مما له علاقة بالجسد..!

كانت تتحدث ولا تنظر إليّ أبدًا. كانت تتحدث عن حالها، لكنني كنت أدوّن ما تقول بشكل آلي، كانت تواصل حديثها وكأنها في عالم آخر:

- حين كنتُ في الصف الثاني الابتدائي كنت اشتري قصص الأطفال من مصروفي، لم أكن صغيرة حينها.. فقد ذهبتُ كما قلت لك إلى المدرسة وأنا في العاشرة. كنت أقرأ الروايات الرومانسية والاجتماعية الذي تحمل الحب والعائلة والمغامرات الصعبة.. كتبتُ حينها قصة وأنا في الصف السادس الابتدائي.... عرضتها على معلمي فشجعني على هذا، ولأنها كانت حينها قصة حب فقد لاقتْ معارضة أمي وأخوالي الذين قرأتها لهم..!

أذكر إنني في ليلة زفافي كنت هادئة جدًا وحنونة ومسؤولة، ربما لأنني لقيت تربية دينية منذ صغري، فقد بدأت الصلاة والصوم وأنا في التاسعة، ولُقّنت معنى طاعة الزوج، لذا كرهتُ أمي لما قامت به مع أبي وفيما بعد مع زوجها الذي كان حبيبها وعشيقها.

كنتُ أحب أن أكون قريبة من الله ولا أعرف سر هذه الرغبة.!؟ ربما كَرَد فعل على تصرفات أمي التي هجرتنا لكي تكون مع عشيقها، وربما لرفضي سلوكها في حينها صرت لا أؤمن بأحد.. ومع ذلك لا أنكر أنني كنت الأولى والمفضلة لدى عائلتي، وكل أقاربي كانوا يولونني أهمية أكبر من عمري، فلم أشعر يومًا أنني مهملة مع أنني ترعرعت ممزقة بين حبي لأبي ضعيف الشخصية وبين خضوعي اللا إرادي لأمي.

لم أشعر بجمال الطفولة والا الصبا لا ولا المراهقة في حياتي. حين فرضتْ أمي عليّ الزواج كنت أتعس بنت خُطبت لتتزوج. وكا أسلفت فأن من رشحته أمي ليكون زوجي كان عشيقها..! كانت تخاف من أن تفقده ولكي تربطه بها زوجتني إياه..! أنا أكره أمي لكني كنت عاجزة عن التمرد ضدها.

زوجي كان مهووسًا جنسيًا. أتعبني وآذاني، ولم أكن ارتاح منه إلا في شهور الحمل الأخيرة وفترة النفاس..! واستمرت السنوات وأنا في دوامة هذه العلاقة المقيتة. فلم أكن زوجة وإنما خادمة رخيصة. لكن الصدمة العظمى حين اتضح أنه متزوج ولديه أبناء بعمري وأكبر مني.!!.

بعد صدمتي بوجود عائلة أخرى له حاولتْ الطلاق، لكن لا أحد ساندني، ولم أكن أعرف إلى أين أذهب كي يقف إلى جانبي؟ زوجته تركته حين سمعتْ أيضا بزواجه مني..!، لكنها أدركتْ فيما بعد بأنه خدعني ولم يخبرني عنها، فتعاطفت معي. وحينما عرفتْ أن لديّ أطفال وافقت أن أكون ضرتها واشترطت عليه في حال رجوعها إليه أن نعيش في بيت واحد، هي وأبناؤها في الطابق الأسفل وأنا وأطفالي في الطابق الأعلى، وهكذا عشنا في بيت واحد.

لكن زوجي المهووس جنسيًا أنهكني فعلًا بممارسته اليومية العنيفة، إذ كان يشرب الخمر ليلًا ليأتي بعدها إليّ ليمارس كل عدوانيته الجنسية والسلوكية

معي..حتى وصل الأمر بي إلى أن اشتكيه إلى زوجته ورجوتها أن تنقذني من هوسه الجنسي العدواني.. ولم ارتاح منه إلا بعد أن أُصيب بمرض خطير، حيث صار لا يستطيع الاقتراب مني.. بل يبدو إن الموت يهذب الأخلاق أحيانا..فصار يصلي، مع أنه كان آخر الليل يبدأ بتناول المشروبات الكحولية..وبدلًا من هوسه الجنسي صار لديه هوس آخر لتعذيبي، إذ كان يوقظني في ساعات الفجر كي أعدّ له طعامًا أو أشوي له لحمًا على نار الفحم..إلى أن طلبت من أبنائه الكبار من زوجته الأولى بأن يقنعوه برمي يمين الطلاق عليّ، وهذا ما حصل..وبعد ذلك بشهرين توفي..!

كان أبنائي حينها قد كبروا..ابني الأكبر لم يواصل دراسته، وإنما بدأ العمل ليعينني في المعيشة بينما أخذتُ أنا أعمل في مصنع للنسيج. تحسنتْ الحال. استأجرت بيتًا خاصًا بنا.

ومرّتْ السنوات..وحدث، مصادفة، أنني قابلت رجلًا كبيرًا في السن، في حدود السبعين، مثقفًا، أنيقًا، ميسور الحال. أخذنا الحديث فرويت لي قصتي..استمع لقصتي بتعاطف كبير، ثم بنبرة طيبة ومتعاطفة أخذ يحدثني عن نفسه، أخبرني بأنه رجل غني، ولديه أموال كثيرة، وأنه من الأفضل لي أن أتزوجه كي استمتع بماله من جهة، وأرث كل أملاكه وأمواله بعد موته، فهو لن يُعَمِّر طويلًا، كما أكدّ لي بل وعاهدني بأنه لن يمسني جنسيًا.

واختلطت الأمور، ما بين رغبتي في الاستقرار والأمان الاقتصادي وبين الطمع في ميراثه، فتزوجته. لكنه منذ الليلة الأولى أراد أن يمارس الجنس، وحين ذكَّرته بوعده وتعهده لي أنكر ذلك، وحين رفضت ضربني. وتكشفتْ الأمور عن خديعة كبرى، فلا هو بالثري، ولا أملاك لديه سوى ثروة هائلة من الكلام البليغ وقوة الإقناع..! وهكذا صرتُ أتلاطم بين خيباتي..ومع ذلك فأنا أحب أمومتي وأشعر أنني ملكة في حب أبنائي.

كانت تحدثني وكأنها تحدّث نفسها أو تحدّث شخصًا ما في أعماقها أو شخصًا حاضرًا تراه هي لا أنا.. لأنها كانت تنظر إليّ أحيانا بنظرات غامضة، تراني ولا تراني في الوقت نفسه.. كانت تتحدث بلا توقف:

- أنا أحب ارتداء الألوان الغامقة فأغلب ثيابي لونها بني فاتح، ونيلي، وزيتوني، وأسود، أو اللون الشبيه بالثياب العسكرية، كما أحب اللون الأبيض جدًا.. أحب العطور الهادئة وأحب الكاكاو.. والشاي..أحلم بأن أكمل دراستي ويكون لي بيت أعيش فيه مع من أحب..!.أريد الحرية فهي عندي أن اتحرك بلا قيود حولي. في خيالي الكثير من الجنون، فمثلًا أحب أن أركب الخيل كل صباح وأطير في سرعتي، أو أن أعيش قريبة من البحر لأنه يمنحني الإحساس بالغوص في أعماقي.. لدي رغبات مجنونة..وأحلم بالحب..

أنا امرأة قليلة الحظ نشأت في عائلة مفككة.. أب ضعيف الشخصية إلى درجة بائسة وأم متمردة لدرجة الفجور، لذا حلمتُ كباقي البشر ببيتٍ آمن. الجميع من حولي خانوني..غدروا بي.. فوجدت نفسي وحيدة، خائفة من الغدر ثانية، بل صرت لا أصدق أحدًا..!

ومع أنني طيبة وحنونة جدًا لكنني لا أستطيع أن أغفر لمن يسيء إليّ، بل تبقى الإساءة في ذاكرتي على مر السنين، فذاكرتي ذاكرة الجمل.!..

أنا لست خبيثة لكني ماكرة، بل وغامضة بعض الشيء، فلا يعرفني من يعاشرني مع أنه يتوقع أنني واضحة أمامه.

أكره النفاق جدًا ولا أحب التملق، ولا أحب الكلام من وراء الظهر..ومع أنني أحلم بالحب لكن لا عشيق لديّ على الرغم من كثرة من يحومون حولي ويسعون لإقامة علاقة معي..! ربما أنا مريضة نفسيًا، لأنه يعجبني رؤيتهم وهم يتمنون لمسي واختراقي بينما أنا أرى الرغبة المتأججة في عيونهم، بل أشعر باللذة في تعذيبهم، لا إرضاءً لغروري وإنما لأنني أرى في الرجال حيوانات تشتهي جسدي ولا أحد منهم يلتفت لروحي. بل ويحدث أحيانًا أن يعجبني أحدهم لكنني لا أمتلك الجرأة على التواصل معه.

أثناء عملي في المصنع كنت أذهب إلى العمل بسيارة المصنع. وكان هناك شاب بعمر ابني بل ربما أصغر منه، ربما في الثامنة عشرة من العمر، يراقبني وينظر إليّ بشغف أعرفه غريزيًا.. وبعد شهر أخذ يسعى للجلوس على المقعد المقابل لي. ثم صار يحجز المقعد المجاور له كي أجلس إلى جانبه..ثم سعى إلى أن يتبادل معي

بضع كلمات..إلى أن صرت أفكر فيه، واستحضره في أعماق الليالي المظلمة.

لم انتبه لنفسي إلا ذات يوم حين صعدتُ الباص المخصص لنا ولم أجده فشعرت بالفقدان.. واختفى ليومين كنت فيها كالمجنونة..لا أعرف كيف أسال عنه ولا أعرف حتى اسمه..وعرفت أنني أعشق هذا الفتى الذي بعمر ابني.

صرت لا أنام. أخرج إلى موقف الباص قبل موعده بنصف ساعة منتظرة وكلي شغف عسى أن أجده في الباص. ومضت ثلاثة أيام وأنا أتعذب. وفي اليوم الرابع صعدتُ إلى الباص فرأيته جالسًا وقد حجز لي مقعدًا. لا أعرف كيف أصف فرحتي. كانت تجتاحني رغبة في أن أنحني عليه وأقبّله وأحضنه وأعاتبه على ما قاسيته من عذاب بسبب غيابه المفاجئ.

لكنني طبعًا لم أستطع فعل ذلك، بيد أني ما إن نزلنا حتى سرت بجانبه وسألته عن سبب غيابه فحدثني بأنه كانت لديه بعض الأشغال الخاصة، فاضطر إلى أن يذهب لطبيب من معارفه ليسجل له إجازة طبية لثلاثة أيام، ولا شعوريًا فلتت مني جملًا عن قلقي عليه لغيابه المفاجئ وأنني لا أعرف حتى اسمه كي اسأل عنه، فقال إنه آدم الذئباوي، وإنه يعيش في ستوديو يتألف من غرفة واحدة مع ملحقاتها، وأخذ يصف لي المنطقة وكيف أن غرفته منعزلة ومن يزوره لا يرى بقية الساكنين ولن يروه، وكأنه كان يغريني بزيارته ويزيل مخاوفي ويزيح ترددي، ثم قال بجرأة شديدة: «كم أتمنى أن تزوريني ونجلس ونتحدث ونقضي وقتا».. وكنت مع كل عِفتي متلهفة لزيارته والانفراد به في غرفة واحدة، فتبادلنا أرقام الهواتف..

لا عمر للعشق..الإنسان يعشق في أية مرحلة من عمره، ولا يهم من سيكون موضوع عشقه.. كنت أشعر وكأنني أعشق وأحب بجنون..لم أستطع أن أنام الليالي التالية على ذلك الحديث الذي زلزلني وأفقدني توازني. حاولت أن أقنع نفسي بأنه أصغر من ابني عمرًا، وأنني أسيء لنفسي بهذه العلاقة، لكنني لم أستطع الوقوف أمام اندفاعاتي النفسية والجسدية، لذا اتصلت به ذات يوم وقلت له بأن يأتي ليأخذني كي أزور بيته. وهذا ما حصل.

أنا مجنونة..لكن مع كل شغفي ووضوح رغبتي وبطلبي الشخصي، فإنني ما

سمحت له بامتلاكي كليًا، إذ أقنعت نفسي بأنني ما زلت على ذمة رجل وأن موضوع طلاقي منه لم يحسم في المحاكم، وإذا التحمت به فسيُعد ذلك زنى..!

تتأجج في داخلي رغبة مستديمة في أن يشار إليّ بأني أفضل أم، وأفضل شخصية نسائية يكتب التاريخ عنها، بل يصل الشوق بي والرغبة في أن أموت شهيدة أثناء قيامي بعمل خيري.

ومع هذا كله فأنا سريعة النوم وهادئة جدًا ولا أتقلب في الفراش، ولا أعرف الأرق، ويراوني حلم مزعج يتكرر دائمًا هو أني أتيه في منطقة غامضة أزقتها ضيقة، وهناك باب أصل إليه لكنه مغلق ولا أستطيع فتحه فأعود من حيث أتيت، وأبقى أدور في المكان الغريب الذي اكتشف فيه فجأة دكاكين وبوابات، لكن حدث ذات ليلة، وأثناء هذا الحلم الغامض المتكرر إذ فتح لي أحد هذا الباب المغلق..فوجدت أمامي نهرًا صغيرًا وعلى ضفته كراج للسيارات، وحشد من الناس. لم أستطع الوصول إلى الكراج لأستقل سيارة إذ استيقظت من حلمي. هذا الحلم يتكرر..!

أخاف يوم الحساب..أحب أن أموت والله راضٍ عني..نعم أحب الحياة وأحب أن استمتع بكل لحظة..أحب الطبيعة جدًا لأنها تعني لي راحة البال والرومانسية.. أحب الأزهار البيض وأحب عطر الورد الجوري الأحمر، مع أني لا أحب اللون الأحمر أبدًا..وإذا أردت أن أوجز القول فيمكنني التعبير بجملة واحدة: أحب أن أرى نفسي مشهورة وأن أكون شخصية مهمة في التاريخ حتى ولو شخصية غامضة لكنها مشهورة بغموضها.

توقَّفَتْ عن الكلام. شخصيًا وجدت نفسي منسجمًا مع حديثها عن نفسها، فكنتُ مستمتعًا وأنا أكتب، ولم أقاطعها قط. توقفتُّ عن الكتابة منتظرًا أن تسترسل في الكلام، لكنها فجأة قالت لي وكأنها انتبهت إلى أنها كانت تتحدث إليّ وأنا أدون ما تقول:

- هل كنتَ تدون كلامي..؟ أطلبتُ منك أن تدون حديثي حقًا؟! تلك شقشقة هدرتْ في لحظة مراجعة مع النفس..! أعطني هذه الأوراق..!

فوجئتُ بطلبها. كنت قد كتبتُ صفحات عديدة. ولا إراديًا أعطيتها تلك الأوراق. ومن دون أيما توقع مني مزقت ما أعطيتها من أوراق إلى قطع كبيرة، ثم واصلت

التقطيع حتى صارت مِزقًا صغيرة جدًا، ثم اخرجت من حقيبتها جداحة فأشعلتها ومدتها تحت الأوراق فحرقتها، بحيث ألقتها أمام أقدامها. ونظرت إليّ، وحين لمحتْ استغرابي الممزوج بتوتر مكتوم قالت لي:

- كل هذه الحكاية التي سمعتها غير صحيحة..سأروى لك حكاية أخرى لحواء أخرى..ليست أنا وربما أنا.!؟

شعرت أنني أمام امرأة غير طبيعية. وعلى الرغم من أنني ميت وأمارس حياتي، إلا إنني لم أقابل شخصية متقلبة المزاج مثل هذه المرأة التي تسمي نفسها حواء المنكوب، والآن ألغت هذه الشخصية لتروي لي عن حواء أخرى، حواء من مملكة الموتى الأحياء..

الموتى لا يغضبون بسهولة، لذا تحملتُ تقلبات مزاجها، لأستنفد كل ما لديها من حكايات..ويبدو أنها أدركتْ ما يدور في ذهني، فابتسمت ابتسامة غامضة وكأنها تقول لي إنني أعرف من أنت، ثم أخرجت من حقيبتها دفترًا ومدته لي قائلة:

- دَوِّن الآن ما سأقرأه عليك من هذا الدفتر..هنا تكمن الحكاية الحقيقية..دَوِّن ما وددت قوله عن القصة الغامضة التي يومًا ما ستثير العالم.

أخذت الدفتر الذي مدته لي. وجدت فيه صفحات مليئة بالكتابة، إلى أن وصلت إلى الصفحات البيض، فقد كنت استجيب لها بطريقة سحرية. حين رأتني جاهزًا للكتابة بدأت تقرأ بتلقائية وهدوء وأنا أدوِّن ببساطة ما أسمعه منها:

- ذات يوم كنت في الشارع الرئيس بالمدينة، انتبهت إلى أنني صرت بجانب محل مشهور بصناعة الحلويات قرب منعطف شارع المتنبي الشهير ببيع الكتب. وفي تلك اللحظة بالذات، وكأن صوتًا نده إليّ بأن التفت للجهة الأخرى الموازية لجانب الطريق الذي أسير فيه. ورأيته. كان واقفًا ينظر إليّ وخلفه يمتد طوليًا زقاق على زاويته المطلة على الشارع فندق تمتد على جدرانه الخارجية لافتة تحمل إسمًا غريبًا ,,فندق باب السماء".

استغربتُ من نفسي، فقد بدا الرجل لي وكأنني أعرفه منذ سنين طويلة، لا سيما أنفه الذي يشبه منقارًا كبيرًا بارزًا، لكني مع ذلك لم أستطع أن أحدد من هو..! كان

يبدو كأنه يعرفني، بل كأنه يتأهب ليناديني عبر الطريق الفاصل بيننا. كنت أدراك بأنني أراه لأول مرة..، ومع ذلك شعرت بانجذاب نحو هذا الرجل الأربعيني، كمن يرى صديقًا قديمًا مصادفة. وفجأة، قطع الطريق نحوي موقِفًا السير للحظات، بل كادت إحدى السيارات أن تدهسه.. وقفت أنا بانتظاره.. وكلما يخطو خطوة أحس بحرارة تواصلي معه وكأنني أعرفه. حين وصل صافحني بقوة وقال لي:

- لقد عرفتكِ منذ أول لحظة. متى وصلتِ..؟ هل عرفتِني..؟

طبعًا لم أكن أعرفه، لكني أبديت بأنني أعرفه وفي اللحظة نفسها كنت أفكر فيه عسى أن أتذكر من هو. فأجبت بارتباك أخفيته بمرح مزيف:

- طبعًا.. طبعًا..

نظر إليّ نظرة مخاتلة وكأنه عرف أنني لم أتعرف عليه، وقال مبتسمًا:

- إذا كنت ترينني فأنتِ تعرفينني بلا شك، وإذا كنت لا ترينني وإنما تشعرين بوجودي فأنت لا تعرفيني بلا شك أيضًا..!

استغربت قوله ولم أفهمه جيدًا. فسألته محاولة استدراجه للتوضيح:

- هل هذه مزحة؟ طبعًا أراك.. وكيف لا أراك..! ها أنت تقف أمامي..

نظر إليّ وعلى شفتيه ابتسامة وقال:

- بعض الموتى لا ذاكرة لهم..فقدوا ذاكرتهم..إذا رأيتني فهذا يعني أنني ميت وأنت ميتة أيضًا، وتعرفين أنني ميت وأنك ميتة..!، ففي مملكة الموتى الأحياء لا يمكن لأحد أن يرى الموتى أحياءً سوى الموتى..! ورؤيتك لي يؤكد لي بأنني ميت وإنك ميتة..!

فزعتُ من قوله، وأدركت أنني أمام مجنون بلا شك، فأنا لست ميتة وإنما أنبض بالحياة مثلما هو يقف أمامي حيًا نابضًا بالحياة بينما هو يقول عن نفسه بأنه ميت..! ويبدو أنه أدرك ما يدور في ذهني من خواطر، فقال لي:

- تعالي أستضيفك على فنجان قهوة وبعض الحلوى..!

ومن دون أن ينتظر جوابي توجَّه نحو محل الحلواني المجاور داخلًا، فوجدت نفسي أتبعه وكأنني سائرة في النوم..وحين جلسنا أشار للنادل من بعيد طالبًا منه فنجاني قهوة وصحن حلوى مشكلة من أنواع البقلاوة..كان يتحدث مع النادل وكأنني غير جالسة أمامه.

كنت لحظتها على يقين بأنني أمام مجنون..لكنه مجنون وسيم ومسالم. كل حركاته وملامحه ولغة جسده لا تشي بأي شعور عدواني أو يشكل خطرًا..كنتُ في حيرة كيف أبيّن له بأنني لا أعرفه وأني حاولت تذكره ولم أفلح. وما إن أتى النادل بالقهوة والماء وصحن الحلوى حتى بادرته بالسؤال المخاتل:

- هل تذكر كيف التقينا؟ وآخر لقاء لنا كيف كان؟ أنا ذاكرتي صارت ضعيفة؟

ابتسم بطيبة وقال لي:

- أنتِ تعرفين أننا لم نلتق منذ عقود..! أنا كنت خارج البلاد لسنوات..ونحن اتخذنا من هذه الكذبة البيضاء حجةً لتعارفنا الآن.. ورغبتنا في أن نكون قريبين من بعضنا.

شعرتُّ بالارتباك لصراحته الحازمة ووضوحه الحاسم. انتبه هو لارتباكي فقال لي:

- لا عليكِ.. سأقدم لكِ نفسي.. ومع أننا لم نلتقِ قط لكنني على الرغم من ذلك فإنني أعرفك..!

- تعرفني؟ كيف تعرفني وأنت تقول إننا ما التقينا..!

- نعم.. أعرفكِ.. لكن دعينا من هذا الآن... سأحدثكِ عن نفسي..

كنت متلهفة إلى التعرف إليه، ومع أن هناك ما يشبه اليقين بأنني أمام مجنون عاقل، لكني كنت أهاب كلماته التي تنطوي على حكمة غامضة وحقيقية أتهرب من التفكير فيها والتوجه إليها. وسمعته يقول:

- أنا آدم الطائر. والطائر ليس لقبًا لي فحسب، وإنما هو توصيف حقيقي لي، فأنا طائر، أو لأقل أنني كنت طائرًا في حياتي السابقة على موتي، كما في عقائد

الهنود، فقد كنت غرابًا أبيض..هل رأيتِ يومًا ما غرابًا أبيض!!؟.لا.لا.لم أكُن غرابًا أبيضَ بل كنت عاشقًا، قبل تحولي لغراب، تم عقابي من خلال سحري وتحويلي إلى غرابٍ أبيضَ وليس أسودَ، كي يلاحقني الصيادون..فهو غراب نادر تستخدم عظامه ودمه الأسود في السحر!.. ثم صُيّرتُ إنسانًا وأخذتُ اتنقل بين البلدان والمدن والعواصم..!

أيقنت أنني أمام مجنون. أردت الإنسحاب، لكنه بدا وكأنه قرأ ما دار في ذهني فقال:

- أنت تظنين بي مس من الجنون..! أليس كذلك؟

لم أستطع أن أجيبه مباشرة، بل حاولت أن أتفادى المواجهة، وأن أنسحب بسلام، لكنه كان يبدو كانه يقرأ كل ما أفكر به، فواصل:

(٣)

حكاية العاشق الغراب الأبيض آدم الطائر

أنا آدم الطائر..غراب أبيض في الأربعين.. عِشت في مدينتي الجنوبية التي تظللها البساتين ويلتف حولها نهر عظيم..! عِشت طفولة لا يمكنني وصفها بأنها طفولة سعيدة ولم تكن تعيسة أيضًا.. مع أني كنت يتيمًا..!

لا أذكر تفاصيل وجه والدي، بل قام أخي الكبير بمقامه. فقد فتحتُ عينيّ على الدنيا وهو معِيلنا الوحيد. وكما فهمت من أحاديث أمي فإنه ترك دراسته المتوسطة وهو يافع ليعيل عائلتنا بعد موت أبي.. أنا كنت في الثالثة من عمري حين مات أبي. كان أبي ينتمي لحزبٍ معادٍ للسلطة.. أُعتقل وسُجن، ومن السجن سِيق إلى جبهات الحرب.

قِيل لي بأنه استشهد في جبهات القتال وعُدّ من الشهداء الخالدين، وتنعّمنا بموته من خلال مكرمات رئيس البلاد لذوي الشهداء...شخصيًا كنت ومنذ صغري أتميز عن أقراني بشَعري الذي يشبه شعر الزنوج الأفارقة. وكان لي أنف كمنقار الغراب.. طويل ومعقوف، لذلك كنت أسمع منذ الصغر تعليقات وهمسات بأني كنت قبل ولادتي غرابًا..ولأني كنت أبيض البشرة ولست داكنًا لذا سُميّت بالغراب الأبيض. كنت مشاكسًا منذ طفولتي.. مرِحًا.. متشيطنًا، أعمل المقالِب للآخرين، أقوم كالمهرج بتقليد أصوات الجميع بشرًا وحيوانات.. نساء ورجالًا.

وقد نَمَتْ هذه الموهبة حتى صار تقليد الآخرين، حركاتهم وأصواتهم، فقرة ترفيهية، أقدمها عندما يأتينا أي ضيف مهما كان مقامه، بل وصل الأمر إلى جاراتنا اللواتي إذا أحببن قضاء فترة ترفيه يزورننا في البيت ويطلبن من أمي أن أقدم نكاتي وأقلّد المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات وبعض شخصيات الجيران.. واستهوتني هذه الموهبة فصرتُ أتعمق فيها وأشاهد الأفلام السينمائية التي يسمح لي بالذهاب إلى دورها يوم الجمعة فقط. وهكذا صرت أشهر ممثل في

المسرح المدرسي، وكانت تُخصص لي فقرة خاصة لتقليد الأصوات في برامج مهرجانات النشاط المدرسي، مع أن الأجواء كانت حزينة بسبب الحرب.

ولأول مرة سمعتُ حينها بأنني موهوب وسأكون ممثلًا جيدًا، وأنّ عليّ أن أذهب إلى معهد الفنون الجميلة لدراسة التمثيل. وربما أن قدري قد كتب لي من خلال هذه القدرة في تقليد الآخرين.. وغرابة شكلي.. شَعري ومنقاري... وحدث أن نزل في البيت المجاور لنا عائلة من رجل وامرأته وابنهما الذي في السادسة أو السابعة، وكنت حينها مراهقًا في الخامسة عشر من عمري. أذهلني جمال الزوجة وشعرت بأنني أتأجج شبقًا عند رؤيتها. بل إنني صِرت أمارس أحلام اليقظة معها متخيلًا إياها في أوضاع ومشاهد وقصص مختلفة معظمها أجد لها مرجعية في الأفلام والمجلات التي كان بعض الفتيان يتبادلونها أحيانًا.

ووجدت نفسي ألّح على أمي كي تقوم بواجبات الجِيرة وأن تدعوها أو تزورها. وطبعًا لم تفطن أمي أول الأمر لرغبتي هذه إلا بعد شهور. جارتنا وزوجها رحبّا أيضًا بالانفتاح عليهما.

وفي يوم بعد زيارة أمي، ومصادفة، قابلت جاري عند باب بيتهم وهو يخرج من داره، وكنت أحمل في يدي كتاب «دون كيخوته» لسيرفانتس. حييته فحياني مبتسمًا وسألني عن كتابي، فناولته له ليتصفحه، فقال لي بأنه قد قرأ الرواية حينما كان إنسانًا، تعجبت من جملته «حينما كنت إنسانا»، فنظرت إليه مُحرَجًا، ابتسم بحزن وقال لي: « تفضل عندنا مساء اليوم الساعة الثامنة، سأنتظرك وسنتحدث عن الأدب والفن.».. وهذا ما حصل. وتكررت زياراتي المسائية، ومما أسعدني في تلك اللقاءات أن جاري كان يعاملني كرجل ندّ له، وأعجبني أن أُعامل كرجل بالغ مما زاد من تعلقي بهذه العائلة.

كان جارنا رجلاً حزينًا منكسرًا.. وأحسستُ أنه يُخفي سِرًا وراء حزنه هذا، لا سيما بعد أن وثَق بي وأطمأن إليّ حيث صارت دعوتي المسائية لقضاء السهرة في بيته أمرًا أعتياديًا، مع أن الفارق العمري بيننا كبيرًا. وحينها انتبهت إلى أن شرب الخمر طقس ثابت في سهرته، لكنه بعد أن يرتشف نصف قنينة منه ينقلب إلى

شخصٍ آخر.. يتحول إلى إنسان حنون ومضيء مع حزن وشعور بالذنب يوصله في آخر السهرة إلى البكاء، مع أني لم أتجرأ على أخذ رشفة من الخمر.!.

كنت مندفعًا للتقرب منه لغرض واضح في نفسي وهو رؤية زوجته التي اعتادت وجودي في السهر مع زوجها والاقتراب منها. كان أحيانًا يصل إلى حد الثمالة فنحمله كلانا إلى غرفة النوم. كانت تلك أجمل اللحظات بالنسبة لي لأنها تتيح لي بعض التماسات الجسدية المقصودة مني وغير المقصودة من قِبلَها أثناء حملنا له إلى السرير.

كنت أحيانًا أبدي اهتمامًا وحزنًا عليه مستفسرًا عن سبب بكائه.. وذات مرة، بعد أن صرت وكأنني أحد أفراد العائلة، أخبرتني بأنه كان شيوعيًا ثوريًا ينتمي لمجموعة منشقة تؤمن بحمل السلاح، وتم اعتقاله، وأجبروه على التخلي عن معتقداته وإلا فإنهم سيعتقلوني ويغتصبونني أمامه، فتخلى عن السياسة ووقّع تعهّدًا بعدم ممارستها، بل ومن شدة خوفه من التعذيب صار ملكيًا أكثر من الملك، فانتمى لحزب السلطة وتدرّج فيه، مع شكهم في إخلاصه، وهكذا حين يثمل يتذكر ما كان عليه فيبكي، لذلك يردد بأنه كان إنسانًا.

صرتُ أعطف عليه، لكن حالته تلك قرّبتني من زوجته جدًا، فأخذت تروي لي عن نفسها وأهلها وحياتها..وأشارت لي بطريقة غير مباشرة بأن زوجها منذ فترة اعتقاله وتحوله صار غريبًا عنها..! حتى من ناحية الرجولة صار ضعيفًا، وتعتقد هي أنهم عذبوه بالكهرباء في الأماكن الحساسة من جسده ودمروا ذكورته..!.

كنت أعيش آلامًا وصراعًا أخلاقيًا كبيرًا. فمن جهة أنني أريد أن أصل إلى جسد الزوجة، لكني كنت أشعر بالغم والإحباط حين أفكر بفارق العمر بيننا، فأنا في الخامسة عشرة من العمر وهي امرأة في منتصف العشرينات، وكنت أعتقد أنها لا تفكر بمراهق مثلي فلربما تنظر إليّ كأخيها الصغير، ومن جهة أخرى كنت أمقت نفسي لأنني أخون ثقة الرجل الذي أدخلني بيته بطيبة بينما أنا أدوس عليها.

ويبدو إن جاري وجد فيّ رفيقًا طيبًا بريئًا يستطيع أمامه أن يرجع لوجهه الثوري القديم، النظيف، المفقود، الذي يَحِن إليه لأنه يمثله، لذا صار يدعوني لبيته ليس في المساء وإنما لأشاركهم فترة الظهيرة أيضًا، وبشكل شبه يومي تقريبًا.

أتذكر أنه أحيانًا كان ينسى انتمائه لحزب السلطة فيحدثني عن جيفارا وهوشي منه، ومجتمع العدالة، ويؤكد عليّ بحرقة بألّا أخسر نفسي وأبقى إنسانًا..وفي الحقيقة لقد أفادتني تلك الأحاديث الثملة وأغنتني عن قراءة عشرات الكتب غير المتداولة والممنوعة والتي اختزنها هو في ذاكرته، وصارتْ علاقتنا أكثر وثوقًا وتلقائية.

وطبعًا خلال تلك اللقاءات كنت أقدم فقرتي الترفيهية، فصارت هذه الفقرات أهم من نقاشاتنا أحيانًا، لا سيما بالنسبة لزوجته المثيرة التي كانت تبتهج وتضحك من أعماق قلبها حين أقوم بتقليد المغنيين والمغنيات والممثليين والممثلات، بل أحيانًأ كانت تطلب مني أن اقوم بتقليدها هي..! وكانت تلك من الفقرات التي تغمرها بالفرح..! لكني طوال الأسابيع والأشهر التي مرَّت على علاقتنا كنت هائمًا بزوجته وأعتبر نفسي عاشقًا لها وفارسها وحبيبها على الرغم من فارق العمر لأنها كانت تودني بصدق وكنت أثيرًا جدًا لديها..!.

وحدث ذات مرة أن سافر الزوج إلى العاصمة لبضعة أيام، لم يخبرني هو بسفره، لكنها أرست لي بأنه سافر مع أعضاء الحزب الحاكم للمشاركة في تظاهرة سياسية كبيرة يشارك فيها الجميع من كل أرجاء البلاد بمناسبة ذكرى انتصار الحزب القائد. حينها فكرت بشكل محموم في استغلال الفرصة للتقرب المباشر من زوجته والبوح لها بحبي إلا أنني لم أعرف كيف أذهب إليها بغياب زوجها..! وكما في أي سيناريو لفيلم هندي مضت الأحداث على غير توقع إذ إن المبادرة جاءت منها، حيث طلبت من أمي بأن أقوم بتدريس ابنها خلال أيام غياب والده، وهكذا ذهبت إليها في بيتها.

كنت لا أراديًا مستمتعًا بتلك القصة التي يرويها هذا الغراب الأبيض، ووجدتها قريبة إلى نفسي، فأنا امرأة رومانسية، تعيش أحيانًا قِصصًا غريبة وأحداثًا مثيرة لكنها تدور كلها في رأسي، ولا تتعداه، لذا سألته بلهفة حاولت كتمانها:

- وماذا حصل..؟

سرّح نظراته في البعيد وكأنه يسترجع تلك اللحظات وذلك المشهد وقال:

- قمت بما يجب، أقصد تدريس ابنها الأشياء البسيطة بالنسبة لي، وتحمّستُ

في التدريس حيث إن الطفل قال لأمه بأني أدرّسه أفضل من أبيه المعلم. رمقتني الأم بنظرة خاصة، وكأنها تراني لأول مرة، وأعدّت لي عشاءً شهيًا، وحينما لم أجد ما أفعله، طلبتْ مني أن أقوم بتقليد بعض الممثلين الذين تراهم في التلفزيون. ومرّ الوقت، فذهبتْ بابنها إلى الغرفة الثانية من دون أن تشير لي بأن أذهب وإن السهرة قد انتهتْ، لذا بقيتُ جالسًا في الصالون. تأخرتْ قليلًا. حينها منّيت نفسي بمشاهد فضائحية رائعة مقبلة. لكن حين رجَعَتْ وصِرنا وحدنا كانتْ أكثر ارتباكًا، فهي بغريزتها الأنثوية قد قرأت الشبق والرغبة المحمومة في نظراتي وكياني. والحقيقة أنا لا أريد أن أسيء إليها ولوفائها لزوجها، لكني أحسستُ أنها كانت سعيدة بوجودي معها في تلك الساعة المتأخرة من الليل. كنتُ حينها، برغم مخططاتي الإيروتيكية، مرتعبًا من وجودي وحدي معها.

لحظتها انتبهتُ إلى أنها حين عادتْ من غرفة نوم ابنها، بدا أنها قد تزيّنت قليلًا حيث مررت قلم الكحل على عينيها، وبدا لي بأنها وضعت أحمر الشفاه على شفتيها لكنها مسحته فبقيت آثاره الخفيفة على شفتيها. أسعدتني تلك الإشارات، لكني كنتُ أرتجف من كثافة التوتر والارتباك، ومن ضغط الرغبة الجنسية. بيد أني كنت واهمًا في مسألة رضاها، لأنها قالت لي بأن الوقت تأخر، وإنها تريد أن تنام، وإنها تنتظرني في الغد، لأن زوجها سيأتي بعد الغد.

رجعتُ حينها غاضبًا من نفسي ومنها، ولعنتُ نفسي بأني لم أبادر لاحتضانها، وقررت مع نفسي أن أقوم بذلك في الليلة المقبلة. وهذا ما حدث..! فقد تكرر المشهد نفسه، من تدريس الطفل، والعشاء الشهي، والجو المشحون بالشبق، وانتبهت إلى أنها ارتدت ثوبًا ضيقًا نوعًا ما يكشف عن تفاصيل جسدها، وكذلك عنايتها بتصفيف شعرها، بل وشممت رائحة عطر تفوح منها حينما فتحت لي الباب ومرقت داخلًا... تكررتْ الأحداث والتفاصيل بشكل متقارب، زاد عليها أنها أعدّت الحلوى.. لكن خاتمة اللقاء اختلفت، فعند الباب وهي توصلني لتغلقه بعد خروجي، بادرتُ على غفلة منها، فاحتضنتها، ومسكت نهدها ومددت يدي بين فخذيها بسرعة خاطفة، فدفعتني عنها بقوة، وقالت لي بحزم وغضب: „ماذا تفعل، أهذا جزاء الثقة التي أولاك إياها زوجي أن تحاول الاعتداء على زوجته!؟”. فلم أطق صبراً فخرجت

هاربًا، خجلًا، خائفًا من أن تخبر زوجها بما جرى وأروح في ألف داهية...

كنتُ استمع له متماهية بالسرد المثير لذكريات هذا الرجل الغامض والذي يسمي نفسه بالغراب البيض، بل شعرت نفسي كأني أعيش دور تلك المرأة المثيرة التي لم يبح حتى باسمها، لكني وجدت نفسي اسأله بفضول واضح:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لم يحدث إلاّ ما كان يمكن أن يكون...

- ماذا تقصد..؟

- بعد يوم عاد زوجها..لم ألتقيه خوفًا وخجلًا.. لكني فوجئت بأنه أرسل ابنه يدعوني إليهم..فقلت لأمي بأن تخبرهم بأني غير موجود فاستغربتْ أمي ذلك، لكنها مع ذلك قالت لابنه بأني لست موجودًا. وكل ليلة كان يرسل ابنه داعيًا إياي لقضاء السهرة عندهم، وكنت أطلب من أمي أن تعتذر بطريقة محببة بأنني غير موجود أو خرجت مع أصدقائي، ومرّت ثلاثة أيام من التوتر والتساؤل، إلى أن فاجأتنا زوجته في مساء اليوم الرابع داخلة، وكنت في الباحة أقرأ رواية „زوربا" لنيكوس كازانتزاكيس، بل ما زلت أذكر الجملة التي كنت أفكر فيها من تلك الرواية الرائعة:

«إن الإنسان بهيمة؛ بهيمة كبيرة، إذا كنتَ سيئًا معه احترمك وخافك وإذا كنتَ طيبًا فقأ عينيك، حافظ على المسافات ولا تشجع البشر كثيرًا، ولا تقل لهم إننا جميعًا متساوون وإن لنا جميعًا الحقوق نفسها وإلا فإنهم سيدوسون حقك أنت ويسرقون خبزك ويتركونك تفطس من الجوع»...

كنت منهمكًا مع الرواية معجبًا بشخصية زوربا لكني من ناحية أخرى كنت أحسده لأن عدميته وعشقه اللامحدود للحياة ينبع من مشاعر الأصالة والنبل في شخصيته، وليست كلمات جميلة يقتبسها ويراها في الكتب فتشعر بجمالها لا غير.. كما أحببت عشقه للنساء. المهم تركت أصالة ونبالة زوربا اليوناني و جسدّت ما قاله: «إن الإنسان بهيمة..».

حينما رأتني عاتبتني بمودة شديدة وتلهف لأنني نسيتهم ولم أفكر بهم وانشغلت

عنهم، وعلقت مازحة بأنهم يحسدون الذي يسلب عقلي وخطفني من عندهم..! وكان في ذلك عزاء عظيم لي وإشارة واضحة لا تقبل التأويل لغفرانها ما فعلت عند الباب..! وحينما ذهبت أمي إلى المطبخ كي تعد لها الشاي، قالت لي هامسة، بألّا أزعل منها نتيجة ما قالته تلك الليلة فقد كان رد فعلها طبيعي على ما حدث، وطلبت مني أن أزورهم دونما دعوة، لأن انقطاعي ربما سيثير شكوك زوجها، وقالت إنها تنتظرني...ثم جاءت أمي..!

حينها تركتها مع أمي ودخلت غرفة نومي، وأخذت أرقص، أرقص، أرقص، كما رقص زوربا.. إذ إنني لم أحلم قط بهذا الانتصار العظيم... وزرتهم.. وحينما عاتبني زوجها تحجّجت أمامه بأنني معتكف على مجموعة من الكتب ولم أخرج، وإذا ما خرجت فالذهاب إلى المدرسة، ثم تدريبات الفرقة المسرحية المدرسية. وخمنّت بأن أمي انتبهت لعودتي إلى قضاء السهرة عند جيراننا بعد زيارة الزوجة.

صار دخولي إلى البيت أكثر كثافة، بل صرتُ أذهب نهارًا حين لا يكون الزوج والابن في البيت، واكتشفت أنها كانت أكثر لهفة مني للخلوة بيننا، واعترفتْ لي بأنها في المرة الأولى تحصّنتْ خوفًا من الانهيار لا سيما بعد أن مسكتها من بين فخذيها، لكنها ظلت تستعيد ذلك الموقف المثير ولم يفارقها خلال تلك الأيام اللاحقة، وشعرتْ بأنها تريديني جريئًا لا يرعوي للمواعظ الأخلاقية، ولا أسمع لها حتى لو رفضت صارخة بل علي أن أمضي كرجل يحرث أرضًا مِلكَه متلهفًا لزراعتها ونثر البذور فيها، واعترفتْ بأنها تمنّت لو أنني لم ارتبك وأخجل من كلامها وكنت أكثر جرأة ولم أستمع لكلامها في تلك الليلة.

وصارت بيننا أفراح جسدية، لكنها لم تمكني من نفسها برضاها قط، بل كنا نفعل كل شيء إلا الالتحام الكامل، وكانت ترفض وتقول لي: لا. لا. لا تفعل هذا، لكنها في اللحظة نفسها كانت تستجيب وتشاركني القُبَل والأحضان..إلى أن تجرأت ذات مرة، وأثناء احتضاننا وخلال حمى القُبَل مددتُها على أرضية الصالة وولجتها، ومع أنها كانت تلهث معي لكنها كانت تقول: «لا.. لا. لا تفعل هذا»، بينما الفعل قد تم وتم ولوج بوابة اللذة الجهنمية..! كانت تحضنني وتقبلني بشبق وتصيح: «لا.لا.لا تفعل هذا»..!

وهكذا أنهيت سنتيّ الأخيرتين في الثانوية وغادرت مدينتي إلى العاصمة طالبًا في معهد الفنون الجميلة قسم المسرح، فرع التمثيل، بمساعدة من زوجها الحزبي الذي استخدم كل علاقاته في ذلك وأعطاني تزكية حزبية، مع أني وغد لا يصلح للسياسية ولا لأي شيء غير إرضاء منقاري الأسفل.

صَمَتَ للحظات وهو يرتشف قهوته، ويشير إلى النادل رافعًا الفنجان بمعنى أنه يريد القهوة مرة أخرى، خَجِلَ لأنه لم يسألني عمّا أريد، لكنه انتبه إلى أنني لم أمِسّ فنجاني بعد وإنما قضمت شيئًا من الحلوى، فقال لي ربما يطلب لي فنجان قهوة ساخنة أو أي شيء آخر فشكرته، وبعد أن أتى النادل بقهوته واصل حكايته بسلاسة:

- في العاصمة نسيتُ حياتي في مدينتي الأولى. ونسيتُ جارتي التي كنت أعشقها. وصرت لا أذهب إلى أهلي إلا نهاية كل شهر ليوم أو يومين استلم فيه مصروفي الشهري من أخي وزنبيلًا محملًا بالأكل وبعض الحلوى الشعبية التي تعدها أمي لي خصيصًا. في الأشهر الأول كنت أزور جيراني، وكانوا يستتقبلونني بحفاوة، بل يدعونني إلى عشاء خاص احتفاءً. كانوا سعداء بحضوري سعادة حقيقية. وكانت هي تكتم سعادتها لكن عيونها ونظراتها تفضحها أحيانًا، لذا حاولتْ بكل الوسائل أن تنفرد بي ولو للحظات لكني، ولا أعرف لماذا، ربما لطبيعة النذل الرعديد الذي في أعماقي، كنت أتهرب من ذلك بحجج شتى، مرة أو مرتين مارست معها وقوفًا في المطبخ..بل صارت من أجل إغرائي تمنحني مالًا، وشعرت أنها صارت تعشقني فعلًا وليست علاقتنا لها علاقة بالحرمان الجنسي فقط..! لكني نذلٌ خسيس، فقد صرت أحيانا أزور أهلي ليوم واحد وأرجع في فجر اليوم التالي دون عِلم جيراني..!

وعلى الرغم من وجود سرير لي في القسم الداخلي للطلبة الوافدين من المحافظات، إلاّ إنني استأجرت غرفة مع صديق في منطقة شعبية قديمة في العاصمة، عند عجوز أرمنية، فصرت أقضي هناك نهايات الأسبوع أحيانًا. وطبعًا أخبرت أمي بأنني استأجرت مع صديق لي غرفة، فكانت تساعدني هي بطريقتها بقليل من النقود أيضًا، طبعًا من دون عِلم أخي الكبير الذي كان يجتهد لتوفير ما يستطع لتسديد نفقاتي الشهرية، وأيضًا أعدتُ علاقتي المنتظمة مع جارتي، وهذا

جزء من نذالتي، فصِرتُ في زياراتي إلى مدينتي أتشكى لجارتي التي أخذت توفر لي مصروفاً شهريًا أيضًا تستقطعه من مصروفات عائلتها، وطبعًا كنت أقدِّم لها المتع الجنسية الملتهبة، لكنها كانت تقوم بمساعدتي المالية بكل حب ونقاء مشاعر من دون مشاعر أو تفكير يشترطان المقايضة.

الحياة الجديدة في العاصمة، والفتيات الذكيَّات الحالمات بالنجومية في المعهد، والمومسات الفاضلات اللواتي يمتهنَّ الدعارة سرًا فيدورن على المنازل حيث يسكن الطلبة القادمون من المحافظات، وأفكار اليسار التي كانت مهيمنة على المعهد، مع أني من المنتمين لحزب السلطة وفق تزكية جاري، نقلتني إلى عالم جديد تصاعد ضبابه بحيث بالكاد صِرت اتذكَّر وجه جارتي، التي كنت أحنّ إليها أحيانًا لما لديها من حنان وطيبة افتقده حتى عند أمي.

جاري أرسل معلومات جيدة عني عبر المنظمة الحزبية إلى العاصمة، ومن هناك إلى تنظيم المعهد، وتم التواصل معي من قِبَل المنظمة الطلابية الرسمية في المعهد باحترام شديد، ومُنحت مركزًا قياديًا في التنظيم الطلابي في المعهد التابع للسُلطة. والحقيقة أنا لست سياسيًا وأمقتُ السياسة، لكن حينما تعرفتُ على زميلات لي في التنظيم إزداد حماسي من أجل الظهور والبروز..! ويبدو لي أنه على الرغم من كل رومانسية الأفكار ذات العبق اليساري التي تشبعت بها من خلال بكائيات جاري المعلم الشيوعي السابق والبعثي المتحمس الحالي، إلّا إن في تفاحة قلبي ثمة دودة نجسة تنخر فيه. فقد كنت أبالغ في حماسي الثوري القومي الشوفيني العنصري، ليس عن قناعة وأنما للوصول إلى قلب زميلة لي باهرة الجمال، بدت لي وكأنها إحدى الممثلات المصريات الملائكيات، ناهيك عن كونها كانت من عائلة ثرية..! ومع أن بيتها لم يبعد كثيرًا عن المعهد، لكنها كانت تصل بسيارة العائلة مع سائق خاص. كانت فنانة تشكيلية وتدرس في قسم الرسم، ولم تكن مهتمة بي، فعلى الرغم من كونها تنتمي للحزب القائد والتنظيم الطلابي الذي هو واجهته في المعهد، لكنها كانت طبقية في سلوكها ولبسها، وتمقت الرعاع الذين صاروا يحكمون باسم الحزب، فقد كان والدها عسكريًا كبيرًا، شارك في انقلاب الحزب ضد زعيم الجمهور قبل عقود، لذا هي تحتقر أبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة الذين صاروا

قادة في التنظيم الطلابي، ومعظمهم من الوافدين على العاصمة من المحافظات.

❊❊❊

توقفت حواء المنكوب عن تلاوة قصة الغراب الأبيض آدم الطائر. حتى ظننت أنها ستكشف لي سر تلك الفتاة الثرية، بأنها هي. لكنها صمتتْ. ومع أني كنت متشوقًا لسماع بوح هذا الغراب الأبيض أيضًا، لكنني أشفقت على زوجة جاره المعلم. وحقدتُ على هذا الزنيم التافه آدم الطائر. لكن صمت حواء المنكوب لم يطل، ولم تبح بأي شيء خاص وإنما واصلت بوح هذا الغراب الأبيض مسترسلة في قراءة ما روي في الدفتر عن لسان المرأة التي لم تبح باسمها إلى الآن:

-لم يكن هذا الغراب إنسانًا حقيقًا، بل هو مزيف وفارغ وثعلب كريه، وغد حقيقي، نذل زنيم، لكن فضيلته أنه كان صادقًا في بوحه وفي مواجهته لنفسه ولدنائتها. كان مُدركًا لنذالته وخسته، فقد كان لسلوك زميلته في المعهد والتي أغرم بها تأثير سلبي عليه، حتى من ناحية استعراضاته الثورية... كان آدم الطائر، كما روى، قد وصل إلى مكانة قيادية في التنظيم الطلابي والحزبي من خلال حماسه الثوري الفارغ الذي كان جوهره نيل إعجاب زميلته الثرية، لذا تحول إلى كائن عدوانيٍ لكن بصمت، لا سيما بعدما اكتشف علاقة تلك الفتاة بزميل آخر ضمن التنظيم نفسه، إذ أخذ يبعد تلك الزميلة من المشاركة في النشاطات الهامة، والسفرات، والمهرجانات التي يقيمها المعهد. ثم أخذ يبث الشائعات عنها بأنها مدسوسة في التنظيم وأن أخوها الأكبر مسؤول في تنظيم معاد للحزب والثورة.. وأن معلوماته جاءت من جهات تنظيمية عُليا. ومن جهة أخرى أخذت روحه تتورم، وتشققت روحه الانتهازية. فقد انقلبت شخصيته، وتفجرتْ دمامل القيح في روحه. فصار يزور مدينته نهاية كل أسبوع ليس حبًا بأهله أو مدينته وإنما ليثبت وجوده، المحتقر من قبل زميلته الثرية، أمام جارته المثيرة التي أهملها بطريقة أو بأخرى، والتي كانت تعاني من إهماله لها ورغبتها فيه، لذا كانت هائمة بقصة حبها معه. وكان هو قد أدرك ذلك واستغله، لا سيما في فترة العطلة الصيفية. حيث كان مضطرًا إلى البقاء في مدينته لفترة أطول.

وواصلت حواء المنكوب تروي بلسان تلك المرأة التي التقت آدم الطائر في تلك الحكاية الغامضة قائلة:

- حين سألتُه: وماذا جرى بعد ذلك.. وكيف وصلت لما أنت فيه؟ أجابني مع ابتسامة ماكرة:

- عن طريق النساء.. هل قرأت قصة موبسان „بيل- آمي" عن ذلك الجندي الوسيم المغمور والتائه في أفريقيا، الذي يرجع يائسًا جائعًا مشردًا إلى باريس، ليلتقي ذات مساء مصادفة بصديق وعريف سابق معه في أفريقيا، حيث لاحظ أنه قد صار غنيًا، ومن خلاله يتعرف على زوجة صديقه، فيصير عشيقها، لكنه ذات مرة يروي ما عاناه في افريقيا فيعجب ذلك زوجة صديقه وعشيقته الرومانسية، التي تجد في ذلك مغامرة شيقة، والتي أخذت تدون ما رواه بأسلوبها الرشيق، وتساعده من خلال زوجها، وأيضًا من خلال عشيقها السري رئيس تحرير إحدى الصحف السياسية المهمة، على نشر ما تكتبه هي لهذا الوغد الوسيم وباسمه، فيصير نجم صالونات النساء الارستقراطيات التي تساعده عشيقته زوجة صديقه، برغبة مجنونة منها لإسقاط صديقاتها من النساء الارستقراطيات، في الوصول إليهن، وهكذا يتدرج في الثراء والمناصب والنساء إلى أن يغوي ابنة إحدى عشيقاته التي كانت متدينة جدًا، وتابعها بل وتحرش بها في الكنيسة، إلى أن جاءته ذات يوم وهي تبكي وتقول أنها تعرف سقوطها، ثم يتعرف على زوجها ومن خلال عشيقته يتعرف على ابنتها المراهقة ويتزوجها سرًا ويضع أمها وأباها أمام الأمر الواقع. وهكذا يصير صاحبنا أحد أهم الشخصيات الباريسية.

حينها تذكرتُ القصة، بل وتذكرت الفيلم المأخوذ عنها، وقلتُ له:

- نعم.. نعم.. أتذكر تلك الرواية التي نشرت بالإنكليزية بعنوان فرعي أيضا: „قصة وغد"..!

ابتسم بمراورة وقال لي بحزن:

- أنا هو ذلك الوغد الوسيم..!

ابتسمتُ من جملته لكني لم استطع إلا أن أوضح سبب ابتسامتي فقلت بلطف كي لا أزعجه:

- لكن، واسمح لي القول، أنت لست وسيمًا إلى تلك الدرجة بحيث تتهافت عليك الفاتنات..!

رفع رأسه ونظر في وجهي بشكل جريء وقال:

- نعم.. أعرف ذلك لكن لي طريقتي في الغواية، كما أن منقاري السفلي جارح وأكبر بكثير من منقاري الذي في وجهي.. وهو سر نجاحي.

أحسستُ بالارتباك من صراحته الفجة واستعارته الخبيثة، فأردتُ تدارك الوضع وسألته:

- وكيف حصل كل هذا؟ وكيف سافرتَ إلى خارج البلاد؟

ابتسم وكأنه يستذكر شيئًا:

- ببساطة حاولت أولًا عن طريق الحزب والتنظيم الطلابي لكني لم أفلح، لأن العلاقات المناطقية والجغرافية والعشائرية والمذهبية كانت عائقًا، فعلى الرغم من شعارات المساواة لكن هذا كلام في شبك. لذا صرت عضوًا في فرقة الدولة المسرحية، وتقربت كثيرًا من زوجة المخرج المعروف مدير الفرقة الذي كانت لديه علاقات قوية بالقيادات الحزبية وبالمسؤولين عن البعثات الدراسية.. وكانت زوجة المخرج ممثلة أيضًا.. امرأة شبقة، شكلها ينضج إثارة، وفي الوقت نفسه كانت متحررة، بل سمعت الكثير من الشائعات والنكات عن علاقاتها بزوجها الذي يكبرها بسنوات عديدة، وأيضًا عن علاقاته الجانبية وعدم اهتمامه بها، ومن هذا الباب دخلت عالمها الخاص. بدأت خطتي من وصف جمالها، وموهبتها، وتأسفت لعدم حصولها على أدوار رئيسية في المسرحيات التي تقدمها الفرقة، وكنت أبالغ في مديحها، إلى أن صارت تفرح بوجودي قربها.

كانت تفرح وتصدق أكاذيبي عن موهبتها، مع يقينها بأنها لا تمتلك تلك الموهبة الكبيرة وبأنني أتملقها لا أكثر. وشيئًا فشيئًا صارت تسرنّي بأسرار

علاقتها مع زوجها وأسرار بقية أعضاء الفرقة، وعلاقة كل ممثلة بفلان الفلاني في القيادة، فتجرّأتُ أكثر في سؤالي عن علاقتهما الحميمة، فحاولت التهرب من الإجابة الواضحة، لكن إجابتها بأنها غير مرتاحة وغير مكتفية، فبدأت أعزف مرة أخرى على وتر جمالها وشبابها وحرمانها، وإهمالها.. إلى أن أخذت تبكي ذات يوم فاحتضنتها برفق وحنان، ثم تجرأت إلى تقبيلها بحرارة، رفضت في اللحظات الأولى ثم استرخت وتجاوبت..! لكنها فجأة انسحبت وصفعتني وقالت بألاّ أكرر ذلك ولا استغل لحظات ضعفها، فهي تشمئز مني ومن شكلي، ولا يمكنها أن تتخيل نفسها بين أحضاني، لكنها مع ذلك تودني، وحذرتني بألا أكرر ذلك وألا أتجاوز حدودي، فأخذت ألقي خطبًا بلهجة تمثيلة عن حبي وشغفي بها وعشقي الصامت لها وهوسي بجمالها وأنني سأكون خادمها المطيع لو سامحتني.

ومع أنها كانت تعرف بحكم خبرتها بأنني أقوم بمشهد تمثيلي لكنها ابتسمت وقالت لي بأنها تسامحني هذه المرة، وقالت لي بشكل عفوي إنها مرتاحة لطاعتي لها واستسلامي أمام جمالها لكن منقاري لا يعجبها، فتجرأت بشكل انتحاري وقلت لها بأن منارقي الآخر في الأسفل سيعجبها.. استغربتْ ولم تفهم فخفضت بصري للأسفل إلى ما بين فخذي وأشرت بحركة يدي إلى منقاري الأسفل.. بهتت متعجبة لجرأتي، بل إن جرأتي اربكتها وخلخلت اتزانها، فقالت لي بلا وعي منها: دعني أراه..! لم أصدق ما سمعت لكن الجو المتوتر المليء بالشبق دفع منقاري إلى الانتعاض ونزعت بنطالي.. وحين رأته جحظت عيناها تعجبًا ورغبة ودون توقع مني مسكته وقالت لي بلهجة حاسمة: „ستكون خادمي المطيع وسيكون منقارك لي.. لي وحدي فقط وإذا ما تشممت خبرًا أو حتى شائعة بأنك تلعب بذيك ومنقارك مع غيري فسأحطمك وأقطعه من بين فخذيك..! هل فهمتني الآن!..فنزلت إلى الأرض وأنا أمسك بكفها وأقبلها وأردد بحماس: „أنا خادمك.. أنا عبدك المطيع.. أنا النعال الذي تلبسينه، أفعلي بي ما تشائين إن خنتك..!" .. وتهورت أكثر في تلك اللحظات فهجمت عليها، وأنا ألقيها على أريكة قديمة كانت في غرفة الأثاث والديكورات المنعزلة، لأطعمها من منقاري..! وهكذا صارت تعبد منقاري..!

كنتُ في سنتي الدراسية الأخيرة حين تمكّنتُ منها وسيطرتُ عليها، لذا

وبطريقة مخاتلة أخبرتها برغبتي للسفر إلى إلى الخارج لدراسة المسرح..فوجئت لكنها طاوعتني وقالت إن القيادي الفلاني يزورهم في البيت أحيانًا ويتعشى ويسهر عندهم مع بقية أفراد الفرقة وستطلب منه بشكل خاص وشخصي أن يدرج اسمي في قائمة البعثات الحزبية.

لم أصدقها، وأخذت أتحرى عن مصداقية قولها وفعلها، لا سيما قد انتبهتُ إلى ابتعادها النسبي عني حيث صارت تقلل من اللقاء معي، ولاحظتها من دون أن تراني تتحدث مع شاب وسيم جدًا التحق بالفرقة مؤخرًا..وبعد شهر قالت لي بأن عليّ استخراج جواز سفر والاستعداد للسفر فقد تم قبولي في براغ..

- وجارتك.. ماذا حل بها..؟ سألته بفضول.

نظر إليّ نظرات مستفسرة مليئة بالألغاز وقال:

- أحقًا لا تعرفين ماذا حلّ بها؟ ومن هي؟ لكن دعك من هذا سأواصل لك حكايتي..

استغربتُ من جوابه الذي كان مثل ضربة منجنيق على جدار سميك من الثلج المتجمد. ولم يتركني لأسأله عن قصده بإمكانية معرفتي بجارته وما حلَّ بها، إذ واصل:

- لم يكن الأمر سهلًا عليّ في تلك البلاد.. بل يمكنني القول إنه حدث انقلاب في حياتي...

فسألته ناسية السؤال عن الجارة:

- كيف؟ ماذا تعني؟

صمت للحظات كأنه يفكر مع نفسه لتوضيح ما سيجيبني، ورفع رأسه ناظرًا في وجهي وهو يسألني:

- هل حدث لك إن فقدت القدرة على التعرف على نفسك؟

فوجئت بالسؤال، فقلت مستفسرة بارتباك:

- ماذا تقصد؟

- أحيانًا كنت استيقظ بعد منتصف الليل لأتبول..وحين أدخل الحمام وأنظر في المرآة أرى فيها شخصًا لا أعرفه. أحدّق فيه بانتباه وأقرب وجهي من المرآة متفرسًا.. ومع ذلك لا أعرف الشخص الذي في المرآة..الشخص يشبهني لكني لا أعرفه، ولم يخيفني ذلك لحظتها، لأنني أخرج من غرفة الحمام لأعود إلى سريري وأتمدد فيه كأن شيئًا لم يحدث!! لكن بعد أن استيقظ أبدأ باستعادة تلك اللحظات التي تبدو لي كحلم ما، وأسأل نفسي من هو ذلك الذي كان في المرآة..! لكن ليس هذا فحسب من علامات ذلك الإنقلاب الذي حدث في نفسي وإنما ما رأيته في تلك البلاد، إذ كأنني هبطت إلى كوكب آخر.. وأول ما يثير الانتباه هو جمال النساء.

حين هبطُت إلى المطار „براها" كما يلفظها أهلها أي „براغ"، واجتزت شباك تفتيش التأشيرات وعبرت إلى صالة الخروج رأيت هناك مندوبَة من اللجنة الطلابية الخاصة بالبلاد المضيفة، وكانت فتاة فاتنة، وهي تحمل لافتة عليها اسمي واسم بلادي، اقتربت منها فحيّتني بالإنكليزية، وأخبرتني بأن مندوبًا عن سفارتنا ينتظرني في الكافتريا، وخلال ذلك جاء رجل متكرش بشاربين كثين، عرفته مباشرة بأنه رجل السفارة. تحدثا هما بينهما باللغة التشكية، ثم التفتت الفتاة إليّ وأخبرتني بأن عليّ الذهاب معها إلى الفندق الذي يستقبل الطلبة الأجانب أولًا.

لم يعترض رجل السفارة وحياني وأخبرني إن هذا إجراء روتيني لا يستطيعون هم التدخل فيه، وأعطاني بطاقة فيها عنوان السفارة وطلب مني الاتصال وزيارتهم في السفارة، وأضاف بأن مندوبًا من تنظيم الحزب القائد سيأتي إليّ لألتحق بالمنظمة أينما أكون في هذه البلاد.

فجأة، وفي تلك اللحظات، لمحت ثلاثة أشخاص بينهم فتاة. انتبه رجل السفارة لهم وقال لي محذرًا: „هؤلاء شيوعيون وعليّ الاحتراس منهم..!". ولحظتها تذكرت جاري الذي يكون شيوعيًا حينما يسكر، بينما حين يصحو يكون رفيقًا يمجد الحزب القائد والثورة. ومع ذلك سررت جدًا من أنني سأذهب مع الفتاة التشيكية وحدي، لكن هذه المسرة لم تدم، فما إن خرجنا من مبنى المطار حتى رأيت سيارة باص فيها طلبة آخرون وصلوا قبلي من بلدان أخرى.

أخذوني مباشرة إلى الفندق المعني الذي يستقبل طلبة البعثات الدراسية ليومين.. في اليوم الثاني جاءت اللجنة الطلابية التابعة للشبيبة الشيوعية وقامت بتوزيع الطلبة على المدن والجامعات وفق قوائم يعرفونها هم.. واتضح أن قبولي كان في العاصمة..!

في هذه البلاد انقلبتُ على نفسي ولم يكن هذا الأمر سهلًا.. فقد مررتُ بتحولات نفسية نتيجة صدمات واجهتها.. صدمتي الأولى كانت مع جمال النساء في هذه البلاد الجديدة، ثم جمال المدينة ذات الجسور العديدة والأنيقة، وفيما بعد تعرفت على جمال طبيعة البلاد.. هذا الجمال الذي أثّر في نفسي كثيرًا..

جمال الطبيعة الساحر دفعني لاستعادة مفهوم الجنة الديني..، وحينما استعدت توصيفاتها في الكتب المقدسة، وبالتحديد في القرآن، وجدت أن الطبيعة بجمالها الذي كنت أراه في براغ وضواحيها ساحرة ومختلفة وأبعد بكثير عن أنهار الحليب والخمر والعسل والحوريات العاريات والمقهى الفردوسي الذي على هؤلاء الذين دخلوا الجنة أن يجلسوا على الآرائك وهم يلبسون ملابس خضر...!

وطبعًا لم يكن التغيير سريعًا من أول وهلة، وأنما أخذ شيئًا فشيئًا يؤثر فيّ لا شعوريًا.. ليس هذا فحسب وإنما سهولة إقامة العلاقات مع الفتيات والنساء الناضجات. فأحيانًا كنت معهن في السرير وأنا غير مصدِّق بأنني مع هاتيك النساء لجمالهن غير العادي، وكأنني في حلم فردوسي.

التأثير الآخر جاء لا إراديًا على الرغم من كل اعتراضاتي له. ففي دورة اللغة كانت معي تلك الفتاة الشيوعية التي رأيتها في المطار مع زملائها، والتي حذرني رجل السفارة منها. فقد كانت معي في دورة اللغة منذ اليوم الأول لبدء الدراسة.

عرفت أن اسمها حواء النجمي، وكان بيننا توتر وخوف متبادل خارج عن إرادتنا. فكما يبدو أن زملاءها كانوا يعرفون رجل السفارة، وحين وجدوني معه عرفوا الجهة التي بعثتني للدراسة، وعند تقديم أنفسنا والتعريف بها في اليوم الأول، قدمنا أنفسنا بأن كلانا من البلد نفسه، لكننا كنا مضطرين للتواجد اليومي في قاعة الدرس. كانت تذكرني بجاري المعلم الذي تعرفينه.

فوجئت بكلام الغراب الأبيض فسألته مستغربة:

- وكيف لي ذلك؟ أنا تعرفت عليه وعليها من خلال كلامك عنهما..!

قلت له ذلك، لكنه لم يرد عليّ في حينها وإنما نظر إليّ بإستغراب حقيقي وواصل:

- بالتأكيد تعرفين ذلك لكنك تتجاهلين الأمر.. ولا أعرف لِمَ تفعلين ذلك..! وكأنك لست طرفًا في كل ما أرويه.!؟ عمومًا دعينًا من هذا.. فبعد أسبوعين من بدء كورس اللغة وصل شاب وسيم ملتحقًا بصفنا اللغوي، واتضح إنه زوج الفتاة العراقية، وإنه تأخر بسبب تأخر تأشيرة الدخول. والحق يقال كان وسيمًا جدًا وكأنه نجم سينمائي، بينما كانت هي سمراء بعينين واسعتين لكنها كانت ذات جسد مثير، وأكثر ما أثارني فيها مؤخرتها. ومع مجيء الزوج صار من النادر رؤيتهما. بل أحيانًا كانت هي تأتي بينما يغيب هو. وذات يوم، بعد مرور ثلاثة أشهر، دخلتُ مقهى جميلًا، قيل لي إنه كان سابقًا صالونًا تابعًا لأحد قصور الارستقراطيين، وبعد مجيء الشيوعيين إلى الحكم صار «مطعم ومقهى الشعب». جلستُ على مقربة منهما، يفصلنا حاجز صغير خشبي، فلم ينتبها لي، لكني سمعتهما يتشاجران، وكانت تقول له بأن حياتهما لم تعد تُطاق، وإنهما يجب أن يضعا حدًا لهذه المهزلة التي تسمى الحياة الزوجية، وإنها تعرف أنه يقيم علاقة مع إحدى الفتيات التشيكيات، وإنه يتغيب عن دروس اللغة ليقضي الوقت في شقتها، بينما لا يقترب منها كأنها جثة نجسة، وإنه يهينها بذلك.

كان هو لا يرد، بل يرد بكلمات تبريرية غاضبًا ومرتبكًا في الوقت نفسه، إلى أن قامت وغادرت المقهى والدمع يترقرق في عينيها، وحين مرت من جانب طاولتي لمحتني، ففوجئتْ، لأنها أدركت إنني سمعت كلامهما، لكنها تجاوزتني وخرجت، بينما بقي زوجها جالسًا، وما إن مرت النادلة من جانبي حتى دفعتُ ما عليّ مع بقشيش كبير، والحقيقة أنا كنت مرفهًا من الناحية المادية لأني كنت أقبض بالدولار من سفارة بلادنا كمرتب المنحة وأصرف الدولارات في السوق السوداء، فيكون مرتبي خمسة عشر إلى عشرين ضعفًا مما يتقاضاه طلاب البعثات الحزبية من الدولة التشيكية.

صمتَ للحظات طويلة، حتى إنني ظننت إنه ربما نسى الحكاية أو إنه يختلق الحكاية ويفكر في ترتيب الأحداث في ذهنه، أو يمنتج الأحداث ويفكر بالضروري الذي عليه أن يبوح به والضروري الذي عليه أن يخفيه، لكنه فجأة انتبه إلى أنه قطع الحكاية فواصل وكأنه لم ينقطع للحظات:

- رجعت ماشيًا إلى القسم الداخلي، وفي الطريق كان عليّ أن أعبر جسرًا، وما إن صرت على الجهة الأخرى حتى وجدت أمامي طريقا مظللًا بالأشجار.. والتفت فرأيتها جالسة على مصطبة نُصبت على الطريق، وأقصد هنا حواء النجمي زميلتي، وانتبهت إلى أنها كانت منحنية الرأس وتضم وجهها بين كفيها.

اقتربت منها. لم تنتبه لي إلا حين صرت أمامها تقريبًا، ووقفت. رفعتْ رأسها، وسارعت لمسح عينيها من آثار البكاء. وسألتني بنبرة مستاءة عمّا أريد. فأجبتها :„لا أريد شيئًا منك، لكني رأيتك تبكين لذلك أردت أن أسالك إن كنت تحتاجين لأية مساعدة.".

لم تقل شيئًا، وكأنما خجلت من نبرتها المستفزة معي، فاستفدت من صمتها وواصلت موضحًا : «صحيح إننا نختلف سياسيًا لكننا أبناء بلد واحد»، وأخبرتها بأنني سمعت حديثهما دون إرادة مني، فارتبكتْ لكنها لانت، واستمرتْ في صمتها، فتجرأت وجلست إلى جانبها.

لم تعترض، بيد أنها كانت متوجسة، وسألتها مرة أخرى بلطف وحنان إن كان بإمكاني أن أساعدها، ولما انتبهت إلى كمية الحنان في صوتي، نظرتْ إليّ ثم بكت مثل طفلة صغيرة وهي تصرخ:„أريد أن أرجع إلى أمي.. هذا الرجل يذلني ويهينني.. لم أعد أستطيع التحمل..!".

لا أعرف من أين هبطت عليّ تلك البلاغة، ربما استذكرتُ لا إراديًا حوارات المسرحيات التي أعرف، فأخذت أحدّثها بأن ما تفكر فيه غير صحيح إذ إن لديها فرصة تاريخية في الدراسة، لا سيما وهي جاءت لتدرس الطب. وأن عليها أن تلقي كل مشاكلها وراء ظهرها..بل عليها أن تنفصل من زوجها وتواصل حياتها.

ارتعبتْ حين سمعتْ كلمة „الانفصال"، إذ اتسعت عيناها دهشةً واستغرابًا وخوفًا..لكن بعد عشرين دقيقة من خطبتي المجلجلة والحكيمة، أحسستُ بأن بعض

أفكاري منحتها الهدوء. ومشينا سوية إلى القسم الداخلي، وودعتها عند المصعد.

كانت هي في الطابق التاسع وأنا في الرابع..وصار بيننا شيء من الإلفة.. تلك الإلفة التي ولدتْ في منعطف شعوري صعب بالنسبة لها، بينما أنا كنت أخطط للطريقة التي عليّ أن استدرجها كي تأتي إلى غرفتي.. وهذا ما حصل بعد شهر وصار بيننا سلام وتحية حين تلتقيني في الصف وتكون وحدها، لا سيما وأن زوجها اختفى نهائيًا، الذي علمت فيما بعد بأنه سافر إلى موسكو..

وذات ليلة.. ومن دون توقع طرقتْ باب غرفتي حاملة قنينة نبيذ محلي وقالت لي بأنها جاءت لتحتفل بخلاصها.. فقد انفصلت عن زوجها.. أي إنها لم تكن زوجته الشرعية وفق المحاكم وإنما زواج عبر التنظيم الحزبي، وإنه انتهز ذلك للحصول على المنحة الحزبية للدراسة في الخارج مستغلًا وضع عائلتها من ناحية علاقاتها الحزبية. وكانت هي تعرف بأنني جئت بمنحة عبر الحزب الحاكم في البلاد وأخبرتني بذلك جهارًا لكنها لا تأبه لذلك الآن فهي لا تنسى وقفتي معها ذلك اليوم..

انتهينا من قنينتها لكن كانت لدي قنينة من الفودكا الروسية..وبعد عدة كؤوس صغيرة.. كانت في سريري، وبعد جولات حارة وشبقة من قبلنا، وبعدما همدنا، أخذت تبكي بشدة، لكنها في النهاية عانقتني، وقالت أرجو ألّا تتركني أنت أيضًا بعد أن قضيت وطرك مني وأخذت ما تشتهيه بل وما كنت أمتنع أن أمنحه له، وكانت تقصد اختراقها من الخلف، ثم فجأة قالت لي هل تتزوجني..؟ عندها وجدت أنني وقعت في فخ عليّ التخلص منه!

- وماذا فعلت؟ هل تزوجتها فعلا؟. سألته مع إنني ارتبكت من تلميحاته الجنسية الواضحة.

نظر إليّ مستغربًا سؤال، وقال:

- لا طبعا.. هل أنا مجنون..! ثم ما ساعدني هو أنها فوجئتْ بما قالته وانتبهتْ هي لذلك، فتراجعت عن طلبها فورًا قائلة لي بأن عليّ ألا آخذ الأمر بجدية، فما قالته كان في لحظة ضعف، وإنها قطعت علاقتها مع جماعتها السياسية، وهم ينظرون لها الآن كمنبوذة، مستغربين انفصالها عن رفيقها وتحولاتها، بعد مغادرته براغ

إلى موسكو، لا سيما بعد أن شاهدوها مرة معي في كافتريا الجامعة، واشتبهوا في طبيعة علاقتها بي، علمًا هي لم ولن تثق بي لأني من مبعوثي الحزب الحاكم ومن رواد السفارة، على الرغم من تقديرها لتعاطفي معها في لحظة انهيارها. لكن علاقتنا صارت تأخذ شكلًا هادئًا وطبيعيًا. كانت تأتي لأضاجعها، لكنها لا تبدي هدفها من زيارتها لغرفتي إلآ بعد أن تسكر سكرًا شديدًا، فتطلب مني أن أمنح جسدها الهدوء.. لكني انتبهت إلى إنها صارت مدمنة على الجنس، إذ لم تعد تسكر للتعرى وتمارس معي، بل صارت تأتي أحيانا ظهرًا إلى غرفتي لأمارس معها، ومرة رأيتها في كافتريا القسم الداخلي مع شخص من أميركا اللاتينية، ومرة أخرى مع غجري تشيكي، لكن حدث ذات يوم إن وُجِدَتْ مقتولة بعد اغتصابها تحت أحد الجسور، محزوزة العنق بسكين، فنشرتْ الصحف الحادثة، وتم استدعائي للتحقيق وأخبرت المحقق بكل ما أعرفه عنها من جميع النواحي. وبعد أسبوعين تم نشر صورة لشابين ممن يتعاطون المخدرات والسرقة واتهموهما باقتراف الجريمة.

شعرتُ برعشة تسري في جسدي، وخفت من هذا الغريب الذي يروي حكايته دونما طلب مني، وسألته:

- وماذا عنك..؟

شعر بوخز السؤال، وكأن سؤالي غير مرغوب فيه وقال:

- ماذا عني..؟ لقد واصلت دراستي، وتنقلت بين عشرات بل مئات النساء إلى أن تعبت وانبثقت فيّ رغبة في الاستقرار فتزوجت من فتاة نمساوية، اسمها إيفا مجدولينا فايس، كانتْ تدرس النقد المسرحي في المعهد نفسه ببراغ، وهاجرتُ مع زوجتي إلى النمسا، وهناك أخذت لقبها رسميًا، فصار اسمي آدم فايس، والغريب أن هذا اللقب يعني الأبيض أيضًا!؟ وبعد سنوات حصلت على الجنسية النمساوية، لكنني انفصلت عن زوجتي بعد أن وجدتني مع صديقتها في غرفة نومنا. ثم أخذت أعمل في فرقة مسرحية رسمية „كومبارس"، ونسيتُ أصلي وفصلي، وغرقتُ في قروض البنوك لأني اشتريت بيتًا بعد أن صار لدي طفلان..لكن طلاقي وانحياز المحاكم النمساوية لصالح طليقتي جعلا مني صفرًا على الشمال. فقد بقيتْ هي في البيت مع الأطفال وخرجت أنا صفر اليدين، وعلى إثر ذلك تعرضت لجلطة

قلبية، لكن بعد سنة أُصبتُ بالمرض الخبيث..وحدد الأطباء نهايتي، فتفجر الحنين في روحي لرؤية بلدي ومدينتي. لكن الغريب إنهم حددوا تاريخًا لما تبقى لي من العمر، بل وحددوا يومًا اعتبروه أقصى ما يمكنني أن أعيشه، وكأنما بيدهم أسرار الحياة والموت!!.

في اليوم الذي يفترض فيه أن أغادر العالم وفق رؤية الأطباء استيقظت في سريري الأبيض وغرفتي البيضاء، لكني لم أكن أنا وأنما وجدت نفسي في هيئة غراب أبيض..! إذن عدتُ لأصلي..فقد قِيل لي منذ الطفولة بأنني كنت غرابًا أبيض، بينما كنت أظن أنهم كانوا ينعتونني بالغراب الأبيض لطول أنفي الذي يشبه منقار الغراب ولون بشرتي..! ومع أن هيئتي حين استيقظت في يوم موتي كانت هيئة غراب أبيض إلا أنني كنت أعرف أنني آدم الطائر..!

حين دخلتْ الممرضة غرفتي لتتأكد من أنني قد متّ، لم تجدني على السرير وإنما وجدت غرابًا أبيض على حافة الجهاز الذي علقت عليه بعض المواد الكيماوية. ظنت أنني متّ وجاء من أخذني من سريري، إلا إنها ما إن شاهدت الغراب الأبيض حتى فتحت النافذة كي أطير..فطرتُ مغادرًا المستشفى، بل وقطعت بلدانًا عديدة، وفي إحدى الليالي اضطررت إلى المبيت في إحدى الخرائب المنتشرة في إحدى الغابات على الطريق إلى بلادي..وهناك فوجئت بحشود من الغربان السود الذين استغربوا وجودي بينهم في تلك الخرابة. والغريب، مع أنني إنسان واسمي آدم الطائر وقد تحولت إلى غراب أبيض فإنني كنت أعرف لغة الغربان وبقية الطيور..!

وفي تلك العتمة المضيئة تقدم مني غراب يعرج قليلاً لكنه غراب مهاب بين حشود الغربان التي كانت هناك، وأيقنت أنه حكيم الغربان، وقال لي:

- هل أنت منّا معشر الغربان؟ أعرف إن الغراب الأبيض يعيش في قارات بعيدة وليس هنا في هذه الأنحاء..! أم أنت غراب لم يغادر طفولته ولم يتحول ريشه من الأبيض إلى الأسود؟

ولأني أعرف لغة الغربان منذ أن صرت غرابًا فقلت له:

- أنا من جنس آخر كما يبدو، كنت بشرًا ويوم موتي صرت غرابًا أبيض..!

تعالت ضحكة حكيم الغربان وقال:

- البشر..؟ أكنت بشرًا؟ هذا أصل لا يشرّف الغربان حتى..! خطيئة الخطايا أن تكون إنسانًا. نحن علّمنا البشر كيف يحفروا القبور ليدفنوا موتاهم.. نحن الغربان عشاق الأشياء الملونة واللامعة، لا أحد يمتلك صفاء أعيننا ولا ذاكرة بلورية مثل ذاكرتنا، هؤلاء البشر لا يمتلكون ذاكرة كذاكرتنا.. هم ينسون الحروب التي يشعلونها، وينسون ملايين الضحايا التي سقطت في تلك الحروب، لكنهم لم ولن ينسوا إقامة مهرجانات النصر وتوزيع الأنواط والدروع على الجنرالات..! البشر كائنات مجبولة على الشر والحروب والنفاق والأكاذيب والغدر..! لا ذاكرة لديهم كي تحفظ لهم الأخطاء، بل ولا ذاكرة لديهم كي يحفظوا الجميل الذي يقدم لهم..! لا يشرفك أيها الغراب الأبيض أن تكون إنسانًا. هؤلاء جنس نتن.. هم خراب هذه الكوكب..! لولانا لم أستطاعوا أن يأكلوا الخبز.. نحن من ننقذ الحقول من الديدان والحشرات التي تأكل زرعهم ومع ذلك يتطيّرون منا..! قليلو الوفاء هؤلاء البشر..!

في تلك اللحظة تقدم غداف منتوف الريش وقال:

- أنا ساحر قبيلة الغربان هـذه..! أقول لك بأنك أخطأت..! فأصلك لا يعود للبشر، فأنت كنت في حياتك الأخرى طائر نقار الخشب..! لكنك أخذت تنقر في الشجرة المقدسة فعاقبتك آلهة الغابة وحولتك إلى غراب أبيض..وحينما صرت غرابًا أبيض عوقبت على خطيئتك لمحاولتك إغواء أميرة الغربان البيض التي كانت تعرف أنك طائر نقار الخشب وقد تحولت بسبب آثامك، فعاقبتك بأن حولتك إلى إنسان..! خطيئة الخطايا وأشد العقاب هو أن تكون إنسانا من فصيلة البشر..!

- هل أنا إذن طائر نقار الخشب.!؟ سألت بغرابة واستفهام صادق.

- نعم.. قال ساحر الغربان بثقة.

- لكني أتذكر بأني كنت إنسانًا، ودرست المسرح في مدينة اسمها براغ، وتزوجت من نمساوية وهاجرت معها إلى بلادها، وتجنست. ثم انفصلت عنها، ومرضت بالمرض الخبيث.. ويوم موتي أفقت فوجدت نفسي غرابًا أبيض..! تمتمت بارتباك.

أشار حكيم الغربان برأسه لساحر الغربان منتوف الريش بأن يبتعد، ثم توجه إليّ قائلًا:

- سواء كنت طائر نقار الخشب أو إنسانًا أو غرابًا أبيض، إلى أين تريد الآن أن تتوجه، فلا مكان لك بيننا.!؟

- أريد أن أذهب إلى مدينتي..إذ حلمت بأنني عدت كإنسان..لكني مت في غرفتي هناك..غرفة في فندق مجهول اسمه فندق باب السماء..!

- إذن أرحل..وواصل رحلتك الميمونة إلى فندق باب السماء..ومت هناك بسلام.

وهكذا طرت طوال أيام إلى أن وصلت هذه المدينة الغامضة. لكني وجدت نفسي على ناصية جدار مقابل فندق „باب السماء" في الشارع الرئيس بالمدينة. وحين حل الغروب، نزلت إلى زاوية خربة وتحولت إلى كائن بشري، رجل في الأربعين يحمل حقيبة صغيرة فيها دفتر يضم تفاصيل الرحلة ودخلت الفندق لأستأجر غرفة. لكني لم أمت بعد..لا..أنا ميت منذ زمان، وأنا الميت الحي سعيد لرؤيتك ياحواء لأنك أعدتيني إلى ذاكرتي وذكرياتي..والآن جاء دورك.. حدثيني عن زوجك المعلم، مالذي صار معه؟ وكيف أنتِ هنا؟

فوجئت بكلامه فقلت مستغربة:

- أي زوج..؟ وأي معلم..؟

نظر إليّ وكأنه يقول لي كفى تقنعًا وتغنجًا:

- ماذا تقصدين بأي زوج؟ وأي معلم؟

فقلت له بثقة وجديّة:

- أنا لست ممن تتوهمها..! أنا حواء أخرى..! أنا حواء المنكوب..!

لم يستغرب ما قلته له، فجأة فتح الحقيبة الجلدية التي يحملها معه وأخرج دفترًا، وقال لي بهدوء وبنبرة جادة:

- احتفظي بهذا الدفتر لديكِ، فربما سأضيعه في الفندق..

ثم قام من حول المائدة وخرج حتى دون أن يدفع ثمن القهوة وصحن الحلوى مع أنه هو الذي دعاني.

(٤)

ذاكرة حواء الجحش المُستعادة

أنا كاتب العرائض آدم الغشيم الذي وجد نفسه مسجى في تابوت، والجالس الآن عند بوابة المحكمة العليا، أكتب ما تتلوه عليّ هذه المرأة التي اسمها حواء المنكوب وهي تقرأ في دفترها عن آدم الغراب الأبيض والمرأة التي التقاها بشكل عابر قبالة الفندق ودعاها إلى فنجان، وسرد عليها حكايته، وها هي تواصلها قراءة هذه الحكاية الغريبة:

- حين عدتُ لشقتي، وأخرجتُ الدفترَ، وقرأته، هالني ما فيه من غرابة، فهو يتحدث عن شخص يصحو من الموت في تابوته، فيجد نفسه في مغامرة غامضة مع أميرة جبلية، ثم هو نفسه يصحو وهو في تابوته بقاعة فارغة، ليجد نفسه ذات صباح كاتبًا لعرائض الشكوى عند باب المحكمة الكبرى..! وأن هناك امرأة ظهرت عند طاولته اسمها حواء المنكوب، وطلبت منه أن يكتب عريضة شكوى، لكنها بدأت تتحدث مع نفسها عن سيرة حياتها، بينما كان كاتب العرائض يدوِّن ما تقوله، ولما انتبهت لذلك طلبت الأوراق التي دوَّن فيها ما حكته عن نفسها ومزقتها، ثم إنني، لا أدري إن كنت أنا حواء المنكوب أو أنا حواء أخرى، لأن المدعو آدم الطيار تحدث عن جارته زوجة المعلم، لكنه أوحى لي لأكثر من مرة بأنني هي جارته وعشيقته السابقة وأنني أعرفها، بل سألني مباشرة عن المعلم وما جرى معه؟ كما أكد لي بأنني ميتة أيضًا؟ لكنني لستُ ميتةً..!

من أنا حقا؟ أأنا حواء المنكوب أم أنا حواء الجحش..؟ يا إلهي.. أأنا حواء الجحش، جارته التي تحدث عنها حقًا..؟ أأنا حواء زوجة المعلم آدم الزيتوني، عشيقة الغراب الأبيض آدم الطائر، حقًا كما قال؟ نعم.. نعم.. ياه يا لغبائي.. أيمكن للموتى أن يكونوا أغبياء أيضًا؟ كيف نسيتُ مَن أنا؟

نعم هو عرف من أنا وقالها لي، لكني الغبية لم أفهم واعتقدت أنه مجنون..! نعم لقد قالها بوضوح: «بعض الموتى لا ذاكرة لهم.. فقدوا ذاكرتهم.. إذا رأيتني فهذا يعني أنني ميت وأنتِ ميتة وتعرفين أنني ميت وأنك ميتة؟ ففي مملكة الموتى الأحياء لا يمكن رؤية الموتى أحياءً سوى الموتى..! ورؤيتك لي يؤكد لي بأنني ميت وأنت ميتة!».. لحظتها لم أفهم قصده، لكن ما الذي حلّ بي بعده؟ وكيف متُ؟ وكيف جئت إلى هنا وإلى هذا المكان بحيث أقابله عند فندق باب السماء.!؟

نعم نعم.. الآن وبشكل مفاجئ أستعيد كل شيء..يا لتعاستي..كيف لم أعرفه؟ كيف لم انتبه لحبيبي آدم الطائر؟ مع أنه كان يحدثني عن نفسي.. وظنَّ أنني اتجاهله وأخفي شخصيتي الحقيقة.. مع تأكيده بأنني ميتة مثله..!

أكيد هو كان يعرف بأنني كنت فاقدة لذاكرتي التي استعيدها الآن بعد مغادرته، وكما بدا لي إنه كان يعرف ما عانيته بعد انتقاله إلى بغداد، حيث تعذبت لفراقه وصرت أفتقده بشدة، بل صرت أوفر له المال لأجذبه وأشدّه نحوي، لا سيما بعد أن انتبهت إلى تغّير مزاجه نحوي، فكنت أتعذب غيرة من فتيات العاصمة الجميلات والمتحررات. وكنت انتظر فترة الصيف التي كان مضطرًا فيها للبقاء في مدينتنا عند أهله، فكان يقضي معظم وقته معي ومع زوجي ليلًا.. بل إن مجرد وجوده في مدينتنا كان يمنحني السعادة. إلى أن طار الطائر..! طار الغراب الأبيض إلى خارج البلاد. لكن كيف التقيه الآن ونحن بأعمار متقاربة بينما بيننا فارق في العمر في حدود عشر سنوات.!؟

لكنه لم يعرف بقية القصة. فقد بدأت الحرب بعد رحيله إلى خارج البلاد بأشهر قليلة. وتغيرت الحياة، وصار للون الأسود حضور في حياتنا وأحلامنا وشوارعنا وثيابنا، إلا زوجي فقد صار زيتونيا، وصار لقبه آدم الزيتوني لأنه لا يفارق البدلة الزيتوني حتى وهو في جلسات السكر والنشوة مع ضيوفه الحزبيين.

كان مرعوبًا من أن يُساق إلى الجبهة الشرقية، فقد صار لا يؤمن بأي شيء سوى أن يبقى حيًا دونما ألم. واكتشفت خصالًا غريبة في زوجي لم أعرفها. فقد كان هشًا ومهزوزًا بل وجبانًا رعديدًا. يخاف كل شيء.

لا أخفي أن زوجي ضغط عليّ كثيرًا من أجل أن انتمي للتنظيم النسوي التابع للحزب الحاكم، وحين رفضت ذلك ضربني وهددني، ثم ركع باكيًا بأن رفضي يشكل خطرًا عليه، فالمسؤولون يحققون معه ويسألونه: «لماذا زوجتك لا تنتمي لنا؟ أهي معادية للحزب والثورة ولقائد الأمة؟». وانضممت لهم. بل طلب من ابني الذي صار في حدود العاشرة أن يكون في الطلائع وهي تنظيمات للصبيان يتم تدريبهم وتربيتهم وفق نهج قائد البلاد..

وكلّما يمضي الوقت كان زوجي ينهار أكثر، وصار ممسوسًا بهاجس الخوف من تأريخه، وأنه معرّض للإعتقال في أية لحظة لأنهم يشكُّون في ولائه وعليه أن يثبت الولاء لهم.!؟

كان يضع صورة كبيرة للرئيس مؤطرة بإطار ذهبي في صدر الصالون، ويعلقها على حائط السلّم ونحن نصعد، وكذلك في غرفة النوم وغرفة الضيوف وغرفة ابننا. كان مرعوبًا من السلطة.

وللتخلص من هذا الرعب صار يبالغ في الشرب وصار مدمنًا، ومع إدمانه صار لا مبالياً، ثم فجأة، ولا أعرف كيف حصل ذلك وعن أي طريق، تغير عالمه وصارت حالته المادية جيدة جدًا، ولم أعرف حينها من أين أخذت تنهال عليه الأموال، حتى إنه استقال من التعليم ليصير مقاولًا، وحين كنتُ أسأله عن ذلك كان يقول لي هذه من بركات الحزب والرفاق..!

وانتقلنا إلى بيتٍ جديد أكبر وأوسع قد اشتراه، وأخذ يستضيف مسؤولين في البيت الجديد، ويقيم الولائم والسهرات، لكنه لم يعد يبكي نزاهته وتراجعه عن مبادئه كما كان في نهاية السبعينات، مع أن الخوف من عدم الولاء ظل هاجسًا مرافقًا في كل حركاته وتصرفاته وتفكيره، وهمّه صار كيف يثبت لهم الولاء والطاعة العمياء.

ومع أني لا أفهم في السياسة كثيرًا، لكني أمقت هؤلاء الذي صبغوا حياتنا بالخاكي والزيتوني، ومدّوا راية السواد على حياتنا من خلال حروبهم المجنونة، فكنت أخافهم وأرتعبُ منهم منذ أن أُعتقل زوجي حينما كان شيوعيًا، وهددوه باغتصابي أمامه، بل وحتى بعد أن صرتُ أنا في منظمتهم النسوية..!

هذه التقلبات والتحولات التي مر بها زوجي آدم الزيتوني، انعكست على شخصيته، فصار من جهة عدوانيا وقاسيًا مع نفسه، ومن جهة أخرى لا مباليًا حتى في الأمور الأخلاقية والشرف الشخصي والاجتماعي..!

كان يعاني من انهيار أخلاقي على الرغم من كل التماسك الظاهري الذي يبديه أمام نفسه وأمامي، فقد كان يخاف الحزب والسلطة، وكان يتملق المسؤولين. وحين كان يدعوهم إلى جلسة ما فأنه يكون عديم الشخصية أمامهم، ليس من باب الكرم والضيافة، وإنما خوفًا وتملقًا، متحملًا تعليقاتهم الفجّة، لا سيما حينما كان يجبرني على الدخول لإلقاء التحية عليهم والجلوس وخدمتهم أثناء الأكل وإعداد موائد الشرب، وكان يرى كيف كانوا ينظرون إليّ بوقاحة بل ولم يترددوا في إلقاء النكات الماجنة التي تمسني وتمس جمالي الجسدي، بينما كان هو يبتسم ببلاهة مهرج مسكين، ثم يقولون مدارين الموضوع بأنني رفيقتهم الماجدة.!!

كان يتهرب من مواجهتي من خلال الولائم والدعوات البيتية التي صارت تقام يوميًا، بل وفي الأماسي التي يكون بيتنا خاليًا من أية وليمة أو جلسة شرب فأنه يذهب ليسهر عند أحدهم..! وطبعًا سواء كانت الولائم في بيتنا أو عند أصدقائه فأنه يأتي ثملًا لينام، وربما يبالغ أحيانًا في تمثيل دور الثمل كي لا أفتح معه أي موضوع أو أناقشه عما يجري..!

كارثتي التي حطمتني كانت في موت ابني ومقتله الغامض.

ابني الذي منحته كل حناني، ومنحني وجوده الدعم النفسي لأتحمل حياتي البائسة. ابني الذي كان يغرق بالضحك الطفولي البريء فأغرق بدوري في فرح غامض وسعادة وحب للحياة، ابني الذي مجرد رؤيته تعيد لي توازني وتنسيني حاجاتي ورغباتي وتدفعني للتحمل، ابني الذي كان يميل لحبيبي آدم الطائر جدًا ويحبه ويتصارع معه ببراءة أحيانًا، ابني الذي أجبره والده على أن يكون ضمن الفتيان الطلائع، فصار يقضي الوقت لأيام وأسابيع في مقرات الطلائع وصيفًا في معسكراتهم، حتى صار يلقب بآدم ابن الحزب، ابني الذي ولد في داخله شيطان غريب، حتى أن زوجي، خلال سنوات الحرب الأولى، قال لي مرة بألّا ننطق بشيء

يمس الحزب الحاكم والسلطة أمام ابننا آدم، ابن الحزب، فقد صار الأبناء يتجسسون على أهلهم، علمًا نحن في كل الأحوال نخاف مجرد التفكير في ذلك، ابني الذي صرنا نهابه ونحترس منه، والذي كبر وصار فتىً ناضجًا، وصار طالبًا جامعيًا يعيش في العاصمة. فصرنا لا نراه الا قليلًا، ابني الذي تحول من طفل حنون رقيق إلى فتىً شرسٍ، ثم إلى قائد طلابي في جامعته فصار بالكاد يزورنا، ويمكث يومًا أو يومين بيننا يقضيها في انتقادنا لأننا أقل ولاء منه للحزب والثورة وقائدها العظيم، بل حتى في العطلة الصيفية صار يبقى في العاصمة لاهيًا وملتهيًا مع فتياته وصديقاته، إلى أن حلّت الكارثة.

إلى الآن وأنا في مملكة الموتى لا أعرف شيئًا عمّا جرى. لقد كان موته تحطيمًا حقيقًا لحياتي وسقوطي وانهياري. لكنها ميتة تشبه ميتتي. في النهاية كلنا أموات. سواء كنا في الحياة، أو بعدما نموت موتًا جسديًا، أو عودتنا من عالم الأموات لنعيشَ موتى في الحياة.

قِيل لنا إنه قُتل في شجار بينه وبين رفيق له أثناء سهرتهم نتيجة خلاف حاد حول فتيات جاءوا بهن للسهر في شقته..! لم نعرف الحقيقة. قِيل لنا إنهما تراشقا بالرصاص وقتلا بعضهما البعض، بل حتى بقية الفتيات قد قتلن، إلّا واحدة كانت في حالة خطيرة وهي التي روت الحادثة. ميتة عبثية، لكنها حطمتني وألقت بي في عالم اللامبالاة والعبث.

صارت حياتي فارغة. مليئة بالمرارة، والحرمان، وسقوط الأحلام، وخيبة سواء في الزوج والابن بل وحتى في نفسي. صارت أيامي باهتة، مكررة، حتى صرت أحضر اجتماعات الماجدات في المنظمة الحزبية شكليًا وكأنني غير موجودة، وكانت القائدة لنا تغض الطرف مداراة منها لوضعي النفسي والكارثة التي حلّت بي بمقتل ابني.

بعد موت ابني العبثي فكرتُ في الانتحار. لكن الانتحار يتطلب شجاعة لا امتلكها، إذ إن مجرد فكرة الانتحار تملؤني رعبًا، لكن كيف لي أن اتعامل مع هذه الحياة التافهة المليئة بالخيبات والاحباط.!؟ كيف لي ألآ أكون أنا وأفقد قيمتي الإنسانية.

أن أكون ظلّا باهتًا لا يُرى، فهذه الحياة لا تعبأ بي أصلًا ، فهي تسير جارفة معها مليارات البشر مثل طوفان جبار.

وقررت ألا اهتم بشيء وإلّا ستكون حياتي كابوسًا مرعبًا، وفعلا اخترت اللامبالاة.. ومع ذلك لم يكن الأمر سهلًا .. فلست آلة تتحرك بأزرار.

وجدت نفسي في دوامة، أحيانًا كنت أسمع صوتًا في داخلي يقول لي ألّا أفكر بأي شيء، وإن عليّ أن أعيش حياتي بلا مبالاة وكما تقودني الحياة، لا أتوقف عن المسموح وغير المسموح، ولا عند الأخلاقي وغير الأخلاقي. طز في كل شيء.

وفعلًا وجدت كل تفاصيل حياتنا تدفعني إلى الطز.. إلى اللامبالاة. لا سيما وأن الفجوة قد امتدت بيني وبين زوجي، الشيوعي السابق والبعثي العتيد اليوم، الهوة التي اتسعت بشكل لا يمكن القفز عليها لعبورها، لذا ألغيت ذاكرتي وقفزت إلى مستنقع الحياة اليومية ومباهجها العفنة، مثل زوجي وولائه لرفاق الحزب أو سُكرِه اليومي معهم ومن دونهم.

إزدادت وقاحة رفاق زوجي في التحرش العلني بي أمامه، وإطلاق نكاتهم التي تبدو في ظاهرها مديحًا لي لكنها في الجوهر تنطوي على تحرش جنسي صريح، فمثلا يقولون له: „مالك..؟ نراك مكتئبًا، بينما نحن نحسدك، إذ لديك هذه المُهرَة التي تحتاج لجواد أصيل، لو كنا في مكانك لما خرجنا من بيوتنا، إنها مثل نجمات السينما الايطالية". فكان زوجي يبتسم ببلاهة مبتلعًا الإهانة الواضحة لرجولته وكرامته، خوفًا وتملقًا، فقد كان رجلًا مرعوبًا ومكتظًا بكوابيس السلطة والقصص التي يعرفها عن أساليب تعذيبهم التي لا أشك أنه كان يشاركهم مشاهدها.

لا أنكر، أحيانًا، كانت كلمات الإعجاب ونظرات رفاق زوجي الشبقة تدغدغني وتمنحني شعورًا بأنني ما زلت الأنثى المحبوبة والمرأة المشتهاة، ومن جهة أخرى أشعر بالسوداوية والوحشة من هذا العالم الوسخ المليء بالجثث والموت والعفن والحروب التي لا يبدو لها آخر، والكرامة المسحوقة بالأرض، والإهانات التي عليك أن تبتعلها كما تبتلع قيحًا إلى أعماقك..! فراودتني فكرة الانتحار مرارًا، لكنني كما قلت كنت جبانة، وربما هاجس الخوف والرعب الذي يعيشه زوجي منذ سنوات

مسّني بالعدوى، فصرت ارتعب من اللاشيء أيضًا. ارتعب من ظل القائد الضرورة وصوره التي تصدمنا حتى حينما نغرق في النوم، ارتعب من اللون الزيتوني. ارتعب من أخبار الحرب في الجبهات. ارتعب من سماع صوت أية سيارة تمر من أمام بيتنا، بل ومن سماع حركة رتاج الباب حينما يدخل زوجي ليًلا وهو سكران..!

كنتُ على شفا الانهيار النفسي والسقوط الأخلاقي، وكان لا بد من المواجهة مع زوجي آدم لمناقشته عن الوضع الذي وصلته عائلتنا المفككة، لا سيما وقد انتبهت إلى إنه صار يعاني من شعور بالذنب المركَّب، فمن جانب كان يدرك حالتي النفسية المكبوتة منذ سنوات بسبب عجزه الجنسي، ومن ناحية أخرى ضياعه وخوفه وفقدانه ملامحه القديمة ومعاناته الفكرية السابقة، فقدانه ظل الإنسان الذي كان فيه والذي كان يبرز في لحظات السكر والثمالة، فقد صار لا يبكي كالسابق ولا يتذكر نفسه، وإنما كان مليئًا بالكوابيس، ولا يفكر في غير المؤامرات الوهمية التي تحاك له وحوله وإمكانية أن يُساق متهمًا بعدم ولائه للحزب والثورة والقائد الضرورة..

اعترف أنني كنت دونه في المستوى الثقافي، فأنا لم أواصل الدراسة، وإنما اكتفيت بشهادة المرحلة المتوسطة، وكنت منبهرة به حينما كان شيوعيًا. كنت حينها شابة فتية في العشرين، فكان أحيانًا يجتمع مع ثلاثة من رفاقه بسرية، وكانوا يدخلون غرفة المكتبة ويتحدثون، وكانت نقاشاتهم عن أشياء بالكاد كنت أفهمها، عن الأهوار وثورة الفلاحين، والكفاح المسلح، وأشياء لم أفهمها في ذلك العمر، لكنها كانت نقاشات حامية. ثم بدأت هذه الاجتماعات تتقلص بل صارت نادرة، وانعدمت، إلى أن ألقي القبض عليه. يومها طرق بابنا أحد أبناء محلتنا، ففتح هو له وكنت أنا أقف خلفه، فقال الجار له مباشرة أنه مدعو لدردشة في مديرية الأمن، وعليه أن يذهب معه، وأن رجال المخابرات أرادوا اقتحام البيت لكنه أوقفهم وطلب منهم بأن يقوده هو إليهم طائعًا وبدون شوشرة..!

كنت أمسك بظهر زوجي بكفي، فشرعت بارتجاف جسده الواضح. ولحظتها التفت إليّ فوجدته مصفر الوجه مرعوبًا. ومن حسن حظه أنه كان في كامل هندامه، فخرج وهو ينظر إليّ بخوف فقال الجار لي: «لا تخافي سيرجع بعد قليل إذا كان

مطيعًا لهم، ولا يركب رأسه ويعاندهم، أو يتقمص دور البطل..!».. حينها لم أفهم ما يدور بالكامل لكني كنت أعرف أن خطرًا كبيرًا داهمنا، وأن زوجي سقط في فم الأفعى أو في بيت العنكبوت..!

بعد ساعتين عاد زوجي. أعادته سيارة الأمن إلى باب بيتنا. وكانت بعض نساء المحلة قد خرجن من بيوتهن ليتفرجن على هذا المنظر الصامت والمثير. وما إن دخل زوجي البيت وأغلق الباب حتى انهار في بكاء، بل في نحيب ونشيج كالأطفال. لم أفهم سِر البكاء والنحيب، فلا أثر للضرب أو التعذيب بادٍ عليه، كما أنه لم يمكث عندهم طويلًا، هي مجرد ساعتان. لكنه كان يتمتم مع نفسه: «لقد سقطت.. سقطت.. لم أصمد وأتحمل حتى صفعة واحدة..!».

أتذكر أنه بعدها عاش أيامًا صعبة لم يكلمني خلالها ولم يذهب إلى المدرسة. بعد ذلك حدثني ذات ليلة بأن أحد رفاقه من الذين كانوا يأتون إلينا ليجتمعوا في بيتنا كشيوعيين كان وكيلًا لجهاز المخابرات، مندسًا بينهم، وكان رجال الأمن يعرفون أدق التفاصيل والأحاديث التي كانت تقال في تلك الاجتماعات، بل إن إثنين آخرين من رفاقه قد تبرئا عن أفكارهما ووقّعا على التعهد بعدم ممارسة السياسة والالتحاق بحزب السلطة.

بالنسبة له فقد أنكر في البداية أية علاقة له بالسياسة، فقدموا له التقارير وتعهدات رفاقه، وحينها ظن إنها وسيلة من وسائل الحرب النفسية بإختلاق مثل تلك الوثائق لكنهم أخذوا يصفونني له ويصفون حتى ألوان الثياب التي كنت ألبسها في كل مرة حين أدخل عليهم لأحمل صينية الشاي أو صحن الفواكه، ووصفوا له أثاث الغرفة التي كانوا يجتمعون فيها، وهدّدوه بأنه إذا لم يستجب لهم فسيأتون بي أمامه ويغتصبونني أمام عينيه.. فانكسر ووقَّع على التعهد بالتخلي عن أفكاره الثورية وعدم ممارسة السياسة، بل وقبل التعاون معهم. وظل هذا الأمر يسمّم حياته إلى أن انتقلنا إلى الحي الذي كان يسكن فيه آدم الطيار فوجد زوجي فيه ربما صورةً لشبابه.

لقد جرى الذي جرى بيني وبين ذاك الفتى المراهق، الذي وجدتُ فيه أسرار

رغبتي، ودِفء الأمومة وهوى الشباب، بل معه وجدت أثمن شيء وهو الأمان..! ولكن تلك العلاقة لم تستمر أمام حكم الزمن، فقد انتقل هذا الفتى إلى العاصمة ليدرس، وحينها بعدما ابتعد، تأكدت من أنني أحبه ومتعلقة به، ولم تكن علاقتي معه مجرد نزوة وكبت جنسي ونفسي أعيشه معه ليرويني، لكن طعنتي الكبرى حين غادر البلاد لغرض الدراسة، إذ كنت أقنع نفسي بأني أراه واتواصل معه ولو مرة في الشهر حين يأتي ليزور أهله أو صيفًا ليضطر قضاء العطلة في مدينتنا.

بمقتل ابننا بهذه الطريقة العبثية الغامضة انهار كل شيء بيني وبين زوجي. صرنا لا نتحدث مع بعضنا إلا قليلًا. لا أريد القول بأنه لم يتأثر ولم ينهَر بموت ابننا، لكنه استفاد منه أيضًا حزبيًا وماديًا، فقد أُجريت لابننا بعد مقتله في مدينتنا مراسيم تشييع مشرفة وانتشرت شائعة رسمية تؤكد بأن أعداء الحزب والثورة من الحاقدين والموتورين قاموا باغتياله.

المهم بعد مرور فترة قصيرة من مقتل ابني، آدم ابن الحزب، صار زوجي مسؤولًا حزبيًا مرموقًا في حزب السلطة، لكن في أشهر قليلة من ذلك تحول تحولاً كليًا، إذ صار مرعوبًا وخائفًا مع إنه من رجال السلطة.!!

كان يتلفّت وينتبه لأية حركة في الشارع أو لصوت مرور سيارة، أو حركة الريح وصريرها.. وكأنه يرى أشباح جاءت لتقبض عليه..!، لكن مع ذلك كانت الأموال تتدفق عليه. بل اشترى بيتًا أكبر وأوسع وأكثر أبهة من الذي لدينا، ومع ذلك صار يفقد ذاته أكثر وينكمش، ولم أعد أعرف الرجل الذي تزوجته فيه، بل صرتُ أعيش مع إنسان ضئيل وجبان بكل معنى الكلمة. وبصراحة صرت أمقته ولم أعد احترمه، سيما وأنني كنت شاهدة على خذلانه ووصوليته وتملقه وانتهازيته وفقدانه كرامته وكبرياء الزوج حينما كان جسدي لوحة لنظرات وتعليقات رفاقه الحزبيين الذين يدعوهم إلى بيته..!

وذات ليلة طلب مني بشكل مفاجئ لي بأن أسهر معه لأنه يريد أن يحدثني عن أمر مهم. أخذ يشرب بشراهة، وكنت انتظر ما ينوي أن يحدثني به. فجأة انقلبت ملامحه إلى الجدّية الفائقة للعادة، وقال لي بأنه يعترف بأنه حمّلني فوق طاقتي

نتيجة عجزه الجنسي، لكنه كان مرتاحًا حينما كان جارنا آدم الطائر يقوم بتلبية هذه الرغبات..!!حينها امتقعَ لوني فهذا يعني أنه كان يعرف بعلاقتي بآدم الطائر ويغض الطرف عنها، لكن الذي أرعبني ما قاله تاليًا، بأنه بعد سفر آدم الطائر إلى خارج البلاد لغرض الدارسة، فأنه لم يجد، لفترة طويلة، شخصًا مناسبًا يأتمن شرفه عليه، فهو يعرف بأنني لم اتخذ عشيقًا بعد آدم الطائر!! لذا فأنه يمنحني الحرية بأن أتخذ أيًا من أصدقائه المسؤولين الأعلى منه عشيقًا لي، بشرط أن يأتي هنا إلى البيت وبعلمه بحيث هو يتفق معه على موعد وفي الوقت المحتوم ويذهب هو إلى مكتبه في مقر المنظمة الحزبية، بينما أنا ارتوي مع صديقه!!، وهو بهذا يعبّر عن حبه لي.

فوجئت بكلامه بل صُعقت عن مدى انهيار وسقوط هذا الرجل، واحتقرته في أعماق نفسي أكثر وأكثر، لكن كما يبدو فأنه كان قد اتفق مع صديق مسؤول في حزب السلطة على القيام بهذه المهمة، وكنت آخر من يعلم..!

رفضتُ طبعًا، وقلت له: «أنا استطيع السيطرة على رغباتي. لا أريد أن أكون مع أي شخص، لا سيما وكل هذا يجري بعلمك!!. لست عاهرة رخيصة إلى هذه الدرجة ولا أريدك أن تكون ديوثًا أو قوادًا..!». لكنه لم يكن يسمعني..!

ظننت أن الأمر انتهى عند حدود نقاش تلك الليلة، وكنت على خطأ، فذات يوم ناداني وقال لي هامسًا بأن أجهز نفسي، ثم خرج. لم يوضح أكثر، وكنت غير مصدقة كلامه وبقيت أشكك بفهمي لما قال. كنت حينها أصارع نفسي، لكنني، ومن شدة احتقاري له وجدتُ نفسي، لا شعوريًا، تنزع لتخيل الأمر كيف سيكون، وأخذت أحطّم اعتراضاتي النفسية بحجة أن زوجي هو من اقترح ذلك، وإن كل شيء يجري بعلمه..!

ووجدت نفسي أذهب إلى الحمام وأدخل تحت دوش الماء وأتحمم وأحلق الأماكن التي فيها شعر وأعطّر زواياي. هل صرت عاهرة بإرادتي..!؟ لا..لكننا نحن البشر نبحث عن أية ذريعة وحجة نبرر بها آثامنا وخطايانا وأخطائنا، حتى مع علمنا بأن ذلك غير صحيح، وإن كل تلك الحجج والذرائع واهية ومتهافتة، لكننا نتشبث بها على الرغم من ذلك..! وأنا وجدت في سقوط زوجي الأخلاقي ودناءة

نفسه وعلمه، بل وتخطيطه لذلك، ما يجعلني أنسى هول ما سأقوم به. والغريب إنني لا شعوريًا أخذت استعرض كل رفاقه الذين أعرفهم من خلال المآدب التي كان يقيمها باستمرار لهم..! وأخمّن من يكون بينهم..! الوحل كان في داخلي أيضًا..

وُطرق الباب..كنتُ أرتعش خوفًا وتوترًا وانفعالًا..صارعت نفسي جاهدة بالآ أفتح الباب. كنت أخمّن أنه أحد رفاقه الحزبيين الذي اتفق معه على هذا الموعد. لحظتها لا أعرف طبيعة المشاعر التي اجتاحتني، فهي ما بين الخوف، والرغبة في خوض التجربة، ومشاعر اللامبالاة والعبث. كنت كمّن يلقي بنفسه في حوض ماء من دون أن يعرف السباحة. وفتحتُ الباب.

واجهني رجل خشن، لم أرتح له، ملامحه القاسية أخافتني. قال إن اسمه آدم الوحش. وكان وحشًا حقيقيًا. ولم يكن هذا الوحش يضيع أي دقيقة، فما إن دخل وكان خلفي حتى احتضنني وأخذت كفه تجتاح جسدي وتعصر صدري دون أن يمنحني فرصة للحديث أو حتى تهيئة الجو والتعارف الشخصي معه، ومن دون أية كلمة "ثنى" جذعي الأوسط على طاولة الطعام في الصالة.. رفع ثوبي وسحب سروالي إلى الأسفل، وأحسسته يخترقني. ومع أني كنت أرفض الفكرة أساسًا، لكني لحظتها كنت استنكر طريقته الوحشية فقط..!. وملأني بمائه، ثم سحب حاله وهو يقول لي: «من اليوم أنتِ لي.. أنتِ قحبتي أنا..أفعل بكِ ما أشاء ومتى أشاء وفي أي وقت..هل فهمتني..!؟. لقد أعطيت زوجك مقاولات تخص الحزب ستجلعكما من أصحاب الملايين مقابل أن تكوني لي..وستكونين لي دائمًا وأبدًا فلقد اشتريتك منه..هل فهمتِ..؟». وسحبني من شعري بقوة وقسوة وهو يصيح بي: «هل فهمتي..؟ هل فهمتي؟» ووجدت نفسي أقول له خوفًا ووجعًا: «فهمت.. فهمت».

وغادرني وأنا منطوية على العار الذي أعيشه. حتى راودتني فكرة أن أقتل زوجي وانتحر. وذهبت سريعًا إلى غرفة الحمام ودخلت بثيابي إلى تحت الدش. وبدأ الماء ينهمر على جسدي، لكنه لم ولن يستطيع أن يغسل عاري، ولا والأدران التي امتلأتْ بها أعماقي وتلوثتْ بها روحي.

حين عاد زوجي لم ينظر في وجهي، لكنه في آخر الليل، جاءني ثملًا وسألني

بتردد: «كيف كان الأمر..؟». ولم أجد سوى بصقة كبيرة أبصقها في وجهه، فأنهال عليّ ضربًا.

أحيانًا كنت أفكر ما معنى حياتي الآن؟ لماذا أعيش؟ الرجل الذي أحببته مع أنه اصغر مني عمرًا سافر وتركني لمشاعري البائسة والوحيدة، وابني الذي حملته برحمي وملئته حبًا وحنانًا تحول إلى وحش مخيف حتى صرنا أنا ووالده نتجنب أن ننطق كلمة تمس السلطة وعقيدتها أمامه خوفًا من أن يتهمنا بعدم الولاء للسلطة وللقائد شرف الأمة، ومهما كان ابني وحشًا فقد حُطمت بموته..! وها هو زوجي قد تحول إلى قوّاد وديوث يمنحني لمن يشاء مقابل مقاولات يمسكها لتزداد ملايينه، بينما يبدي لي وكأن ما يقوم به هو تعبير عن حبه لي وإدراكه بعجزه الجنسي..!

نعم أنا محرومة جنسيًا وأريد التمتع باللذة وأتمنى أرواء جسدي المكبوت والمتعطش للحب، لكن ليس على حساب كرامتي، ليس من خلال امتهان إنسانيتي لأقوم بأداء دور العاهرة المملوكة لقوّادِها. هذه ليست أنا. أنا حواء الجحش، أنا السفينة المنخورة في صحراء رملية قاحلة على مدّ البصر.

أنا البومة العمياء المفقوءة العينين، أنا العاهرة التي رجمها التاريخ وكل زناة العالم، لا مسيح دافع عني ولا نبي، أنا العارية أمام عار التاريخ، أنا الميتة الحية في هذا الوطن المقبرة.. فما معنى أن أعيش..!؟.

كان هاجس الانتحار يراودني، وكنت أعرف أنني جبانة ولا أمتلك الشجاعة لوضع نهاية لهذه الحياة الحقيرة المنحطة، ومع ذلك ظل الهاجس يرافقني..! وكنت أتمنى لحظة شجاعة واحدة، لحظة واحدة لا أكثر..!

ذات مساء..بعد أيام من اللقاء الأول..كان زوجي في الصالة وهو يستعد للخروج. طُرق الباب فخرج زوجي وإذا به يعود مع ذاك الرجل المسؤول الذي قدَّم نفسه باسم آدم الوحش. وما إن صارا في الصالة حتى اعتذر زوجي، وهو يرمقني بنظرات مرتبكة ومتهمة وخائفة،وقال بأنه تأخر عن موعد مهم له، وغادر البيت، بينما كان الرجل الآخر يقهقه ساخرًا وهو يقول له: «بلغ الرفاق تحياتي»، ثم التفتَ إليّ وقال لي: « إن حذائي يساوي هذا الديوث الذي باعك مقابل بضعة مقاولات»..

وأكد لي بأنني الآن ملكه هو ومن حقه أن يفعل بي ما يشاء..وقال لي بأنه سيأخذني لقضاء سهرة مع رجال يحتلون مراكز مهمة في السلطة..سيغدقون عليّ بالمال، فهم أصحاب مزاج رائق..سنلتقيهم في الأسبوع مرة أو مرتين لقضاء سهرة أُنس في بيت أحدهم..وقال لي لا تخافي سأكون معك..ثم قال لي أريدك الآن عارية بالكامل، ففي المرة السابقة لم أر جسدك..! وأخذ يدفعني إلى الطابق الأعلى حيث غرفة النوم..فقد كان واضحًا له بعدم وجود أية غرفة نوم في الطابق الأسفل سوى صالة كبيرة للاستقبال وزاوية طعام..وعلى سرير زوجي اخترقني ذلك الرجل العنيف من كل ثقوبي وجهاتي. أحسست أنني أغرق في مستنقع نتن، وأسقط في هاوية لا قرار لها، أو مثل خنزيرة تتمرغ في الخراء..!

ومع كل هذا كنت مستغربة من استسلامي المخيف أمام هذا الرجل الذي يوحي بكم من الأشباح خلفه، حيث صرت عاهرة رسمية للحزب ورفاق الحزب. هل أنافق نفسي وأنكر ما أنا عليه؟ هل أذل نفسي تأنيبًا للضمير أو تبريرًا للسقوط المدوي..؟ هل أريد أن أكون قحبة وأتعذر بإلقاء اللوم على زوجي وموت ابني وسفر حبيبي، أم تُرى في أعماقي ثمة عاهرة مومس وقحبة رخيصة.!؟

لا. لا. لست كذلك وإلا لكنت اتخذت عشيقًا سريًا منذ سنوات يُهدئ لي شهوتي المتأججة بعد سفر حبيبي إلى خارج البلاد..!..لستُ رخيصة إلى هذه الدرجة..أنا أعيش في مجتمع عاهر، ومع رجل عاهر، رجل فقد ظله. رجل يعوِّض عجزه عن إرواء شهوته الجنسية بشهوة المال وشهوة السلطة التي يعيش مرعوبًا منها في الوقت نفسه.!

حين تركني الرجل الكريه الوحش عارية في سرير زوجي قال لي :«اذهبي استحمي وجهزي وسأنتظرك في الصالة كي نذهب لقضاء السهرة..!»..أين أنا؟ وفي أي مجتمع للعبيد أعيش؟ لست عبدة ولا هذه البلاد سوقًا للنخاسة كي أباع وأُشترى فيها، ومع ذلك يبدو أنني كنت واهمة..!

لا أدري لماذا استحضرتُ خيال حبيبي آدم الطيار، ووجه ابني حينما كان طفلًا في السابعة وليس الفتى المراهق الذي تحوَّل إلى وحش شرس ومخيف. كانت

نظرت ابني تائهة، ونظرات حبيبي مليئة باللوم والأسى لهذا المصير الفاجع. لقد صرت قحبة مسلوبة الإرادة بعِلم زوجي.

حين وصلنا الى الشقة المعنية ودخلتُ رأيت امرأتين أعرفهما..فوجئت بل صُدمت، فواحدة منهما تدعى حواء الشريف، تقيم مجلسًا دينيًا بقصرها كل يوم خميس ومساء الجمعة، وكانت معروفة بتقواها ورئاستها لعدد من الجمعيات الخيرية، خمّنتُ أن مجلسها، كما يبدو، هو فخ لاصطياد النساء وجمع المعلومات عن حياتهن الأسرية. والثانية، حواء السمائي، إعلامية معروفة ومسؤولة عن صحيفة ونادي للفتيات تابع للحزب الحاكم. واستغربتا هما أيضًا حينما دخلتُ. كان هناك أيضًا أربعة رجال. ومع الرجل الكريه الذي رافقني صاروا خمسة، وكانت هناك مائدة عامرة بقناني الويسكي الخمر والمقبلات وصواني المشويات.

استمرت السهرة الداعرة. كانت حواء الشريف، صاحبة المجلس الديني ترقص في وسطنا بعد أن شدت شالًا على حوضها، وكانت الأخرى في أحضان أحدهم يغمرها بالقبل الحارة.

فجأة، أخذني أحد الرجال إلى الغرفة المجاورة.. ومن دون أي كلام ولا حتى سؤال عن اسمي للمجاملة، ألقاني على السرير، فصرت متمددة عرضيًا ونزع ملابسي دون أن ينزع هو شيئًا، وبسرعة فتح أزرار بنطاله وحزامه إلى الأسفل، وأولجه فيّ بطريقة عنيفة أوجعتني. شعرت أنني اتمزق وحين انتهى مني لمّلم نفسه وزرر بنطاله وخرج، ولم أكن أفيق على نفسي حين دخل الآخر..لحظتها لمحتُ في الغرفة عددًا من البنادق الرشاشة الحديثة والمسدسات.

أحسستُ بالانحطاط الكامل مع أنني أخذت أقنع نفسي بأن هاتيك النساء المعروفات بالورع والمكانة الاجتماعية ليستا سوى عاهرتين أيضًا فلماذا أحزن أنا.!؟

الرجل الذي دخل كان شابًا يافعًا قياسًا لبقية الرجال..وعلى خلافهم نزع هذا الرجل ملابسه كلها وصار عاريًا. اقترب مني، فتح ساقيّ وحاول أن يخترقني لكنه عجز..! كان عضوه مرتخيًا كخيط..أشفقت عليه..أخذتُ أساعده كي يلجه فيّ لكن بلا فائدة.. كنتُ عاهرة فاضلة..!

أثناء ذلك دخل الرجلُ الكريه وكان سكرانًا. التفتَ الرجل الذي معي إليه فانتبه الرجل الكريه إلى عضوه المرتخي كخيط، فأخذ يسخر منه بأنه مخنث وأنه ليس برجل بل هو يحتاج لمن يطأه... وبتهور وبرعونة الرجل العدواني حين يسكر، نزع بنطاله وكأنه يهم بوطئ الرجل العاري وهو يقهقه قهقهة عصابية تشي بعدوانية وتهور جامح.

رأيت ملامح الغضب الوحشي تتفجر في وجه الشاب العاجز..وفجأة، نظر إلى الأسلحة وقام وهو عار فأخذ رشاشًا، وقال للرجل الكريه: «أنت تطأني أيها القذر، أنا الآن متعب ولا يمكن لأيري أن ينتصب لأننا البارحة كنّا مع زوجتك وابنتك.. ثقباناهما من كل الجهات..».. ورشّه بسيل من الطلقات في اللحظة ذاتها التي بادر الرجل الكريه بسحب مسدسه والمباشرة بالرمي، بيد أن رصاصة الرجل الكريه استقرت في صدري.

كانت ثوان لا أكثر رأيت فيها جسد ابني وهو مثقوب بالرصاص على منضدة التشريح في الطب العدلي التي تسمى مشرحة بغداد. شعرت بالبرد يغمرني وبسلام عجيب وغرقت في الظلام.

نعم..أنا ميتة..الآن فهمت كلام حبيبي آدم الطائر، أو آدم فايس، الغراب الأبيض، حين سألني حين التقينا عند محل الحلويات ومقابل فندق باب السماء عن نفسي، وحينما أخبرني بأني ميتة مثله..

لكن لماذا كنَّا في أعمار متقاربة؟ وكيف عرف أنني حواء الجحش عشيقته السابقة؟ ولماذا في مملكة الموتى لم استذكر نفسي، ولا تلك الميتة البشعة الفاضحة.!؟ عليّ أن التقي حبيبي آدم الطائر ولا أدعه يفلت مني ويطير هذه المرة.

***

٥

حيرة آدم السيد

توقف آدم السيد عن القراءة. ظَلَّ يُفكِّر بما جاء في هذا الدفتر. انتبه إلى أن الخط يختلف عند تدوين حكاية حواء الأميرة الجبلية عن الخط عند كتابة حكاية السيدة حواء المنكوب، وعن خط كاتب عرائض الشكوى.

لكنه عرف من خلال ما قرأ بأن الجثة، وفق أقوال السيدة الأخيرة في حكاية الدفتر الأول حواء الجحش زوجة آدم الزيتوني، تعود لشخص من هذه البلاد لكنه اغترب لعشرات السنين، وعاد، واسمه آدم الطائر، لكنه تزوج هناك وغيّر لقبه إلى آدم فايس.

ومع ذلك استغرب الحكاية، كيف مات ونهض من التابوت، وكيف أنه كان في رحلة سحرية غامضة قابل فيها أميرة القلعة الجبلية الغارقة في الضباب، وكيف أنه كان طائرَ نقار الخشب، ثم غرابًا أبيض.

من هو يا تُرى..؟ فهنا كل شيء يشير إلى أن الشخص وفق ما ورد في الدفتر هو آدم الطائر، فهو نمساوي يحمل اسم آدم فايس أيضًا ويتكلم العربية، لكن لقبه فايس وليس تسفايغ..!

ولا إراديًا أعاد قراءة اسم المرأة التي جاءت بالدفتر الأول في الصفحة الأولى، ثم أخذ هاتفه النقال وطلب رقم مع الرائد آدم عبد السميع.

- مرحبًا سيادة الرائد آدم..

فجاء الصوت من الطرف الآخر مرحبًا:

- أهلًا دكتور آدم.. هل من جديد..؟

- لدي سؤال..

- تفضل..

- ما اسم المرأة التي جاءت بالدفتر المرقم (١)..؟ وأيَّ اسم أطلقتْ على الرجل الذي تم العثور على جثته في الفندق؟

مرت لحظات سمع خلالها خشخشة أوراق فأدرك أن الرائد يفتش في الأوراق التي أمامه، ثم جاء صوته قائلًا:

- المرأة التي جاءت بالدفتر قدَّمت نفسها بأنها حواء الجحش، وقالت إن صاحب الصورة هو آدم الطائر، وإنه تغرّب ودرس في براغ، ثم تزوج زميلته النمساوية وغيّر لقبه إلى آدم فايس، وغادر معها إلى فيّنا.

صُدم آدم السيد من جواب الرائد آدم وقال بتوتر واستغراب:

- لكن كما جاء في الدفتر فإن هذه السيدة ميّتة، لقد قُتلت بطريقة فضائحية في شقة للمتعة.!. هنا في مدينتنا وقبل سنوات خلال فترة الثمانينات!.

- ماذا تقول..؟ هل أنت متأكد؟ جاء صوت الرائد مستغربًا.

- كل التأكيد..؟ هذا ما ورد في الدفتر. بأن المدعوة حواء الجحش وهي تتحدث عن نفسها كانت عشيقة آدم الطائر وأقصد آدم فايس.. وقُتلت في مشاجرة سكارى في شقة للمتعة؟!

صمت الرائد للحظات ثم جاء صوته:

- لكن كيف يمكن تقبل ذلك منطقيًا بينما هي بنفسها جاءت إلينا وسلّمتنا الدفتر..؟ كيف هي ميتة؟ هناك شيء ما غير دقيق ومعقول فيما تقوله يا دكتور آدم..!

صمت آدم السيد للحظات مُحرجًا من هذه المفارقة المنطقية، وقال بارتباك:

- أنا لا أستطيع أن أحسم الإجابة الآن، لأن الأشخاص في الدفتر يتحدثون عن موتهم بشكل طبيعي جدًا، لكن ما يحيرني أن الأحداث تجري خلال سنوات الحرب في الثمانينات مع الدولة المجاورة..! أي لا بد وأن تكون هذه المرأة هرمة ونحن في العام ٢٠١٠.

- لا.. هي امرأة في الأربعين..!

- لا أدري ما أقول لحضرتك سيادة الرائد..أعتقد أن عليّ قراءة بقية الدفاتر عسى أن تفيدني في فك اللغز؟ لكن ما هو اسم المرأتين الأخرتين..! والاسم الذي منحتاه لصاحب الجثة؟

- لحظة..

انتظر آدم السيد للحظات، ثم جاءه صوت الرائد مجيبًا:

- المرأة الثانية اسمها حواء آل عيون السود، وقالت إن صاحب الصورة اسمه آدم آل عيون السود، وأنه أخوها من أم أخرى لكنه سافر إلى النمسا وتزوج من امرأة نمساوية وأخذ لقبها فصار اسمه آدم غراس.

صمت آدم السيد للحظات قصيرة وسأل بفضول:

- والثالثة..؟

- الثالثة اسمها حواء الهاجر، وقالت إن صاحب الصورة هو آدم المؤمن وحصل على بعثة للدراسة في النمسا وهناك تزوج وصار اسمه آدم كلاين..

- طيب حضرة الرائد آدم.. مع أني كنت قد قررت زيارة هاتيك النساء وفق العناوين التي اخبرتني بها، لكن كون المرأة الأولى هي كما جاء في الدفتر الأول ميتة، سيجعلني أؤجل زيارتي إلى ما بعد قراءة الدفترين، عساني أصل إلى نتيجة مؤكدة..

- وهو كذلك.

ظل الخبير آدم السيد صامتًا بل ساكنًا للحظات طويلة. لم يكن يفكر بشيء، وكأن ثمة هواء يملأ جمجمته. وعلى غير توقع منه انبثقت صورة جارته حواء اللبَان أمام عينه الداخلية، وتمنى لو أنها الآن موجودة عنده، فهو يشعر بالألفة معها، حتى لو لم تفعل شيئًا، فمجرد حضورها يمنحه مشاعر الأمان والدفء والرغبة، حضورها يمنحه الحنان لأنها تذكرّه بأمِّه، وهي الوحيدة التي تشاركه ذكرياته عنها، وجسدها المثير يذكره بفحولته.

قام من مكانه متجهًا إلى المطبخ، ومع أنه كان يتحرك ويُعِد الشاي لكنه لم يشعر بوجوده الجسدي، فهو كتلة من الأفكار الغامضة التي تشكَّلت نتيجة قراءته للدفتر

الأول. ولا إراديًا سمع صوت فحيح وشهقات جارته حواء اللّبان حين كانت مع عشيقها.

ولأنه دخل في مملكة الموتى الأحياء، وتركه الدفتر الأول في نفسه من هواجس وتأملات، وفضوله الشديد كي يواصل القراءة في الدفتر الثاني، ولكي يستعد لذلك لذا فإنه أعدّ لنفسه دورقًا من الشاي الثقيل، مصممًا بقوة على قراءة الدفترين الباقيين وإيجاد الصلة بين كل هذه الدفاتر والجثة الغامضة.

انتظر في المطبخ لبعض الوقت حتى أخذ الشاي يغلي قليلًا. فأطفأ النار عن عين الطباخ الغازي. فتح الخزانة الجدارية وأخذ كوبًا كبيرًا. صبَّ لنفسه الشاي في الكوب، وأخرج علبة السُكَرِين فوضع في الكوب خمسة حبات منه. حمل كوبه واتجه إلى مكتبه وهو يعد نفسه بمفاجآت غامضة.

حين جلس على كرسيه حول المكتب. اعتدل في جلسته كأنه يعد نفسه لمهمة خطيرة. وضع الدفتر الذي قرأه جانبًا وسحب الدفتر الثاني (٢) في التسلسل. وفتحه، فواجهه العنوان: (وقائع حياة يومية عادية.. عادية جدًا). وواصل القراءة:

الدفتر الثاني
وقائع حياة يومية عادية.. عادية جدًا

(١)
كابوس آدم آل عيون السود - آدم غراس

لا أريد أن أكون بطلًا، تعبت من البطولة وأوزارها..! هم يريدون ذلك، أبي وعمومتي..

هم يريدونني أن أقتل وأغسِل عارهم، بينما هم الجبناء ليس لهم سوى دفعي إلى اقتراف هذه الجريمة.

أي كابوس مرعب هذا!

بعض الأخطاء تُغتَفَر وبعضها لا يمكن غفرانها قط..! نعم إنها تلك الأخطاء التي ترافقنا بلا مغفرةٍ وأسفٍ حتى آخر لحظة في الحياة..!

لا تزال نظرات أمي مليئة بالدهشة والرعب وهي تنظر إليّ وأنا أوجِّه المسدس إليها.

أحن إلى حضن أمي، حتى وهيّ في القبر.

يعنيني هاملت وسؤاله „أكون أو لا أكون"..

أنا أريد ألّا أكون، وليس أن أكون..!

حنيني لأمي يتدفق كشلال عظيم..

شك أسود سمّم حياتي والندم يحاصرني ويخنقني ويقبض على روحي في اليقظة والمنام.

لقد تعبت من نفسي.. تعبت من البطولة والتبجح العائلي بشجاعتي..!

ليتني كنت نسيًا منسيًا.

***

حينما متُّ وأنا في الأربعين من عمري، كنت أرى على وجه أبي الهِرَم، قابيل آل عيون السود، ووجوه أختيّ وزوجتيّ أبي حزنًا عميقًا. كانت جثتي قد تُركت في غرفة الضيوف، بينما جلس الجميع في الصالة ينتحبون بصمت. ومع أنني أدرك بأنني ميتُ لكني كنت أرى أهلي. وانتبهت إلى أن أعمامي آل عيون السود بدأوا يتوافدون على بيتنا. كان الرجال يصغون إلى أنين بعضهم البعض. كان المسنون منهم يرتجفون قليلًا من شلل رعاش، كانوا مترعين بالحزن.

كنت ما أزال مسجًّى في غرفة نومي حينما دخلت امرأة اِرتعش لها قلبي الميت وغمرني ندم وخجل روحاني، بينما هي أدركت كل شيء، فابتسمتْ لي بطيبة وحزن وعتاب. كانت أمي.

قيل إن الموتى لا يتذكرون، لكني أتذكر الآن كيف أيقظني أبي قبل سنوات بعيدة صباحًا. فزِعتُ حين رأيته عند سريري. كان مرتبكًا. ولأول مرة أراه قلقًا وينظر إليّ بارتباك، فليس هذا من عادته، فهو دائمًا متنمّر مع الآخرين، وينظر بقسوة حتى لو كان جالسًا وحده ولا أحد قربه، ولا ينطق إلا آمرًا.

حين فتحت عينيّ ورأيته في ذلك الحال شعرت بانخطاف وهلع في نفسي. انتبه هو إلى نظرات الهلع التي كنت أنظر بها إليه، فقال لي وهو يحاول ألّا يركِّز على وجهي:

- انهض.. أعمامك موجودون في الصالة، وهم يريدون الحديث معك..!

لم أجرؤ على أن أقول شيئًا، وحينما انتبه إلى أني أود مغادرة السرير، غادر الغرفة على عجل وهو يقول لي:

- أسرع.. فالأمر مهم.

أحسست أن شيئًا جللًا قد حدث. السكون يعُم البيت. لا ضحكات أخواتي يصلني من المطبخ، ولا أية منهن تدخل لتوقظني بحنان ومزاح.

ولا إراديًا أحسست بمغص في معدتي. لكني لم أذهب للمرحاض وإنما، ومن دون أذهب لغسل وجهي، لبست بنطالي وارتديت قميصًا ثم توجهت إلى الصالة.

قبل أن أدخل الصالة سمعت همهمة أعمامي آل عيون السود وهم في غمرة نقاش بينهم، فتوجست شرًا. وما إن خطوت مجتازًا عتبة باب الصالة حتى صمت الجميع. فازداد ارتباكي.

***

أنا آدم قابيل آل عيون السود الابن الأكبر والوحيد لأبي من أربع زوجات له. وأنا الابن الوحيد لأمي. أمي التي تشاجرت مع أبي وطلبت الطلاق منه لكنه رفض، فغادرت المنزل إلى أهلها، وكان ذلك طعنة لأبي الذي يعتقد نفسه بأنه الرجل الوحيد في العالم ولا أحد غيره، فكيف تتحدى رجولته وفحولته امرأة شابة مثل أمي.

أبي طاغية. لكنه أيضًا طاغية طيب. رجل مستبد برأيه. أمره مطاع، وماله وفير، يشتري طاعة الآخرين به، بمن فيهم أخوته، وأصدقائه، وزوجاته، إلاّ أمي التي تنحدر من عائلة ثرية فقد هزأت به وبماله. وغادرته غير آسفة.

كنت أتذكرها امرأة جميلة جدًا. تصغر أبي بعقود كأنها ابنته. وفي صباي كنت أفكر أحيانًا بالسرّ وراء زواجها منه. وعرفت من أخواتي من زوجته الأولى اللاتي يكبرنني، بأن أبي كانت لديه أعمال مشتركة مع أخيها الكبير، وكانت هي صغيرة، ربما في بداية الثامنة عشرة من العمر، لأنني وأنا في السادسة عشرة كنت أراها صبية قياسًا إلى أبي الذي كان على مشارف الستين.

حينما كنت صغيرًا أُصبتُ بالحُمَّى، قِيل لي بأن أمي ألحّت أن تأخذني إلى عيادة طبيب اختصاصي تعرفه عائليًا، فرفض أبي لأن غِيرته من إلحاح أمي على هذا الطبيب بالذات دفعه للرفض والاستهانة بالحمى التي أصابتني، لكن بعدما اشتدت الحمى بي مساء اضطر لأخذي إلى مستوصف طبي قريب، وكان هناك مضمد خفير زرقني إبرة تسببت في شلل إحدى ساقيّ. وبعد جهد جهيد وعلاج طبيعي طويل ومساجات يومية طويلة الأمد صار لديّ عرج خفيف في ساقي اليسرى. هذا الأمر زاد من تصلب أمي وجفائها لأبي وحمّلته ما أصابني.

لقد كنت مركز حبها واهتمامها وحنانها ودلالها، وكانت تخاف علي من

الجميع، بمن فيهم أبي، فلأنه متعدد الزوجات ولديه بنات عديدات من نسائه، فهو ربما يوزع حبه لأبنائه، وربما تركيزه عليّ لأني ابنه الوحيد، وسط أربع بنات.

لكنها لم تكن سعيدة بزواجها من أبي قط. فأبي شخصية متعجرفة وذات كبرياء فارغ يعتقد أن الرجولة في ألآ يبتسم المرء وأن يكون قاسيًا وجافًا وبلا عواطف مع النساء. لكني أعرف أيضًا أنه يفعل ذلك مع زوجاته الأربع وبناته فقط، بينما يتحول إلى مراهق مع النساء الأخريات حتى وإن كن بعمر بناته.

***

كل أعمامي آل عيون السود كانوا، سابقًا، يعاملونني كطفل كبير نوعًا ما، فما الذي جرى الآن؟ فما إن رأوني عند عتبة باب الصالة حتى قام الجميع لي احترامًا.

كنت مرتبِكًا وخجِلًا بشكل لا إرادي من عرجي الخفيف. لكن كل ذلك زال خلال ثوان. فقد كنت عادة أقبّل أياديهم تبجيلًا وأدبًا، أما الآن فما إن اقتربت من أول أعمامي لأحييّه وأقبّل يده حتى أخذني بالأحضان وقبلني على وجنتي كما يقبل الرجال بعضهم في أعراف عشيرتنا، وهكذا فعل أعمامي جميعهم، وهم يعلنون بكل فخر بأني صرت رجلًا يُعتمد عليه.

كان أبي بينهم أيضًا. لكنه كان محرجًا ويتجنب النظر إليّ. احترتُ أين أجلس فوسّع لي أصغر أعمامي مكانًا إلى جانبه، وكان بمواجهة أكبر عمومتي. انتبهت إليهم جميعًا وهم يتبادلون النظرات المستفسرة والمليئة بالأسرار فيما بينهم، وكأنهم مرتبكون كيف يبدأون الحديث عمّا يريدونه. فجأة، تنحنح أكبر أعمامي، وبدأ كلامه بهدوء متوجهًا إليّ:

- ابننا آدم.. سأسألك سؤالًا واحدًا وأجبني عليه..فأنت الآن رجل يمكن الاعتماد عليه والأخذ برأيه في كل ما يخص شرف العائلة..

شعرت بقشعريرة تسري في جسدي حين سمعت عبارة "شرف العائلة"..!، لكن سرعان ما استعدتُ حماسي، لا سيما بعد هذا الاستقبال الذي حظيت به، أي أنهم يعتبرونني الآن رجلًا، وعليّ أن أكون عند حسن ظنهم بي، فقلت بنبرة حماسية

وواثقة وأنا أستعيد بيتًا شعريًا للشاعر المتنبي:

- شرف العائلة؟ إذا كانت القضية تمس الشرف فهنا كما قال الشاعر: لا يَسلَمُ الشّرَفُ الرّفيعُ منَ الأذى حتى يُراقَ عَلى جَوَانِبِهِ الدّمُ.

صاح الجميع بصوت واحد:

- أحسنت.. أحسنت..

بينما انتبهت لأبي وهو يخفض رأسه للأسفل مرتبكًا. لم أفهم الوضع، لكني كنت منتشيًا بالحماس. وكنت انتظر سماع الأمر الذي يأخذون رأيي فيه، وقد حدّست أنه أمر جلل ويخصني..! فحمحم عمي الأكبر من الجميع وقال:

- نحن اجتمعنا اليوم كلنا.. كل رجال عائلة آل عيون السود وكبارها.. وجئنا إليك بأمر..

وقبل أن يكمل قام أبي مقاطعًا ومخاطبًا أخاه الأكبر:

- يفضل أن تخبروه في غيابي.. فهذا الأمر صعب عليّ سماعه بحضوره..!

تبادل عمي الأكبر النظرات مع بقية أعمامي وقال:

- لن يكون إلا ما اتفقنا عليه.. توكل أنت على الله.. وحينما ننهي الكلام سنخبرك..!

لم أفهم الأمر جيدًا، راودني شعور غامر بالأهمية الشخصية لدى أعمامي أكثر من أهمية والدي، بدليل ليس مُهِمًا أن يحضر ما سيدور من حديث كنت لا أدرك ما سيكون.

في تلك اللحظة بالذات نظرت من نافذة الصالة العريضة المُطّلة على حديقة البيت الخلفية، فرأيت غرابًا أسود أستقر على السور الذي يفصل حديقتنا عن حديقة الجيران.

لا أعرف لماذا ركّزت نظري على الغراب بينما كان عمي الأكبر يفكر كيف يفاتحني بما جاءوا إليه. ثم فجأة، طار الغراب واتجه إليّ وأنا في الغرفة، بحيث أقبل في سرعة مذهلة فاصطدم بزجاج النافذة وسقط صريعًا بينما تشقق زجاج النافذة.

فزّ جميع أعمامي. ظنوا أول الأمر أن هناك من أطلق النار عليهم، فقد كان ارتطام منقار الغراب الأسود بالنافذة قويًا. بعد لحظات قام أحد أعمامي وفتح أحد

أظلاف النافذة ورأى الغراب الأسود. وتمتم لا إراديًا:

- يا ساتر..غراب البين الأسود ينتحر عند النافذة..!

تمتم عمي الأكبر بصوت مسموع:

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

صمت الجميع للحظات. وكأن انتحار الغراب بهذه الطريقة كان إشارة غيبية لهم، فقال عمي بصوت حازم:

- اسمع يا بني آدم..هذا الغراب كان إشارة من الغيب لنا بإنهاء هذا الوضع.. نحن جئناك لأن الأمر يخصك أولًا، ثم يخصنا جميعًا..يخص أباك وعمومتك كلهم، وشرف العائلة وآل عيون السود كلهم.

أحسستُ برعشة تسري في جسدي. خفت من هول ما لم يعلنوه إلى الآن. هل الأمر يمس أخواتي؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا خرج والدي من هذا الاجتماع المهم والمصيري كما يبدو؟

- الأمر يتعلق بأمك حواء.. حواء بنت آدم الأخضر..!

ولا إراديًا قلت بصوت احتجاجي مليء بالحنق:

- ما لها أمي؟ ما بها؟ ماذا فعلت؟

فوجئ الجميع من ردة فعلي. صمتوا جميعًا وأخذوا يتأملوني ليفسروا ردة فعلي هل كانت احتجاجًا لأنهم مسّوا عرضها وذكروا اسمها؟ أم أني غاضب منها لأن اسمها جاء مدانًا في قضية تمس الشرف؟. وبعد لحظات واصل عمي كأنه قرر أن يلقي ما لديه على كاهلي ويتركني أواجه الحقيقة العارية وجها لوجه، فقال:

- سأروى لك الأمر بكل جوانبه.. إنه أمر قديم، قبل أربع عشرة سنة، منذ أن كنتَ طفلًا في الثانية حين اصابتك حُمّى قوية.. حينها أصرّت أمك على أن تأخذك إلى طبيب معين وبالاسم.. طبيب اسمه آدم الأحمر! والدك رفض، فقد أخذته الغِيرة وسألها: لماذا هذا الطبيب بالذات؟ فلم تستطع أن تبرر حينها بما يقنع أباك، فلم

يذهب بك إلى الطبيب الذي أصرّت هي على الذهاب إليه..! ومساء ذلك اليوم ارتفعت حرارتك بشكل خطير فأخذك أبوك إلى المستوصف القريب، ولم يكن هناك سوى مساعد طبي، فاستهان بالأمر وزرقك إبرة، وعلى إثرها أُصبتَ بالشلل في إحدى ساقيك.. كان الأمر صدمة.. أمر بسيط ومشاكسة بين زوجين سببت لك شللًا. لكن الأمر لم يمض مرورًا عابرًا.. أنت تعرف أن أباك رجلٌ شكّاك، لا يثق بأحد، حتى نحن أخوته لا يثق بنا كما يجب، وهو يقولها في وجوهنا بأنه لا يثق بأحد..!

الشكوك أخذت تقود عقل والدك، فبحث عن اسم الطبيب وتابع سيرته وتفاصيل حياته الشخصية بمختلف الوسائل القانونية وغير القانونية، وتابع لغز إصرار أمك عليه في حينها.. ووصل إلى نتيجة رهيبة وهي إن الطبيب كان يعرف والدتك أيام الجامعة، فمع إنها درست في كلية الآداب قسم اللغة العربية وهو كان طالبًا في كلية الطب، لكن بطريقة ما صارت بينهما علاقة. وحينما أنهى كلية الطب وكان قد حصل على زمالة لمواصلة دراسة الطب في موسكو تقدم لخطبة والدتك، غير إن أخوانها رفضوه، إذ كان واضحًا إنه شيوعي التوجه، لذا كان لقبه في الجامعة بآدم الأحمر.. ويبدو أن هذا ليس لقبه الحقيقي لكنّه تبناه لفكره الشيوعي الأحمر الهدام.

ومضت السنون. وتزوجت أمك من أبيك، على الرغم من رغبتها، إذ إنها رفضت الزواج، لكن ضغط أخوتها كان كبيرًا. وبعد سنوات رجع ذلك الطبيب الأحمر..، وكنت أنت قد جئت إلى الدنيا.. لكن كما يبدو قد عادت العلاقة بينهما، وكما يبدو كانت عبر الهاتف. ويبدو أنهما قررا أن يعيدا علاقتهما بشكل أوثق..

على مدى سنوات كان والدك يعيش في الشك القاتل، لكنه لم يمسك شيئًا ملموسًا فقد كان قد منع أمك منعًا كاملًا من الخروج ومغادرة البيت، حتى إلى بيت أخوتها. وربما كان هذا عزاؤه الأخير.. فما دامت لا تخرج ولا تراه أو تلتقيه فلا ضير.. لكن العلاقة بين والدك وأمك صارت جامدة كالثلج وكانت الشجارات بينهما مستمرة.. أعتقد إنك لمحت أو سمعت شيئًا من هذا؟

لم أجب بأية كلمة، فقد كنت استعيد طفولتي، واستذكر فترة صباي، واستعيد مشاهد ومقتطفات سريعة من ذاكرتي عن مشاجرات خافتة الصوت بين أبي وأمي

في الفراش، فقد كنت اسمع أنها تقول له: هذا اغتصاب وليس معاشرة زوجية.. وقد ترسّختْ تلك الجملة في رأسي ولم أفهم معناها..! لكن عمي الأكبر واصل:

- كانت أمك قد انتبهت لغياب حبيبها، الطبيب آدم الأحمر، وبدأت تبحث عنه بطريقتها وحسب المعلومات التي لديها. لكنه اختفى من دون أثر.. قِيل إنه سافر إلى خارج البلاد، أو انتقل إلى بلد مجاور بعد أن قبل عرضًا مغريًا.. ولكن أمك لم تصدِّق أي من المعلومات عن غيابه المفاجئ، لا سيما وأن أباك قد واجهها بشكوكه عن علاقتهما- طبعًا هي أنكرت ذلك إنكارًا قاطعًا، لكنها لم تنكر أنها كانت تحبه عندما كانت طالبة في الجامعة، وأنه تقدم لها طالبًا يدها، لكن أخوانها رفضوه لكونه شيوعيًا.. وربما أنت لم تكن تعرف إن أمك كانت تقول بأن الطبيب قد قُتل، وتتهم والدك علانية بقتله والغدر به. هذه هي الحقيقة التي يجب أن تعرفها.

صمت عمي الأكبر، ومع كل جملة كان سمّ الحقد يقطر في أعماقي ضد أمي. وكنت أشعر كيف إن هذا السم يلتهم كل المشاعر الجميلة نحوها. لكن مشاهد الحنان في عينيها لم ولن يستطيع كل سم العالم أن يذيبه. وانتبهت إلى عمي الأكبر وهو يواصل تقطير السم وشحني ضد أمي التي حملتني في رحمها وتشكلت من دمها ولحمها:

- صارت مواجهات بين أمك وأبيك. وفي لحظة غضب اعترف أبوك بأنه فعلاً حرّض على قتله من خلال وشاية لدى جهاز المخابرات والمنظمة الحزبية بأنه شيوعي خطير وناشط متآمر على الحزب والثورة. ومنذ ذلك اليوم انقلبت الأشياء.. إذ أخذتْ والدتك تزور المنظمة النسوية التابعة للحزب القائد بحجة إنها تراجع طبيبًا..وكما يبدو فقد قررت أمك الانتقام. عمّتك التي تعيش بينكم وفي بيتكم، كلّفها والدك بمراقبتها وعرف منها بأن أمك تسجل لنا كل كلامنا، مع إنه كلام عائلي، وأحيانًا نتطرق فيه إلى زيارة الأئمة، وربما نتداول بعض المظالم التي يتعرض لها بعض الذين نعرفهم من اعتقالات أو اعدام..وأنت تعرف هذه الأشياء تحدث في بلدنا بشكل يومي.. لكن الغريب أن عمتك أخبرت والدك بأن أمك ما زالت تتهاتف مع الطبيب آدم الأحمر، وهذا ما جعل والدك لا يعرف الهدوء فقد كلّف أصدقاء له في المخابرات والمنظمة الحزبية عن نشاطات الطبيب المريبة.. وبعد فترة

أعطاهم الكثير من المال كي يعدموه.. وأخبروه أنهم أنجزوا المهمة وصار الرجل في العالم الآخر، لكن حين أخبرهم بأن الطبيب الأحمر لا يزال حيًا أخذوا يبتزون والدك طالبين المال بكميات أكثر كي يتأكدوا ويعدموه ثانية..! أخذ والدك يفقد أعصابه حين قال له بعض المسؤولين بأنهم تأكدوا من إنه لم يمت، فقد اتضح بعد التحقيق معه بأنه لم يكن شيوعيًا، أو كان شيوعيًا في الجامعة، لكنه أُعتقل وقبْلَ أن يُصفع كان قد اعترف على رفاقه الذين تسبب في اعدام بعضهم وصار يتعاون مع المخابرات.. وحينما أبلغ والدك عنه وعن نشاطاته الوهمية كان مدفوعًا بهاجس الغِيرة العمياء، وهؤلاء الضباط في المخابرات والمنظمة الحزبية كانوا يعرفون ذلك، لذا أخذوا يستغفلونه ويبتزونه بالمال، وكان هو يدفع بكرم دافعه الحقد والغيرة..! وأخذ المسؤولون من أبيك مبالغ كبيرة جدًا لتلفيق تهمة خطيرة له وسوقه إلى الاعدام مرة أخرى. عمتك كانت تؤكد بأنها كانت تسمع أمك تناجيه وتتفق معه على اللقاء ثم بعد ذلك تتحجج بأنها تذهب إلى المنظمة النسوية.. بل سمعهتا تقول له بأنها تسجِّل أحاديث والدك وأحاديثنا حين نلتقي هنا في هذه الصالة.. وكيف أننا نتحدث بشكل سيء عن الحزب القائد والقائد الضرورة.

صمت عمي الأكبر لدقائق كانت ثقيلة جدًا.. ثم قال:

- هذه هي كل القصة وما فيها.. فليس الأمر إن أمك لطَّخت شرفنا في الأرض وأمامنا جميعًا وبتحدٍ سافر، وإنما صارت خطرًا على أبيك وأعمامك وكل آل عيون السود..فأنت تعرف النظام وقسوته المرعبة.. إذ ربما يبديوننا جميعًا.

ووجدت نفسي أقول بحقد وكأنني لستُ أنا:

- سأقتلها وسأشرب من دمها.. الحقيرة..لن أدعها تمس شعرة من رأس أبي وأعمامي!

فقام عمي الأكبر من مكانه، وأخذ وجهي بين كفيه الخشنتين وقبَّل رأسي وهو يقول:

- أنت بطلنا ورفعت رأسنا التي تريد تلك المنفلتة أن تنكسه وتجلله بالعار..

ثم رجع إلى مكانه، وكأنما شيء مخطط له قام جميع عمومتي بتقبيل رأسي، وبعد أن انتهى طقس تقبيل الرأس تنقل عمي الأكبر بنظراته مع أخوته وقال:

- أنت تعرف إنك في السادسة عشرة من العمر.. يعني إنك دون سن البلوغ.. وأي حكم عليك سيكون باعتبارك قاصرًا.. لذا اتفق الجميع، أبوك وأعمامك كلهم أن تقوم أنت بغسل عارنا وعارك أيضا.. وسنقف جميعنا معك وسنوكل أفضل المحامين لتخفيف الحكم عليك ما استطعنا، ولا تهتم من هذه الناحية إذ سنجعل من سجنك نزهة وكأنك تقيم في فندق..

فقلت بحماس:

- هذا ما سيكون.. ولو بيدي سأقتل ذلك الخائن معها..!

***

لم ينفضّ اجتماع رجال العائلة، فقد كان الجميع ينتظرون تحقيق المهمة الموكلة لي. وما إن خرجتُ من الصالة وأنا أجّر رجلي اليسرى بطريقة حاولت ألا ينتبه لها أحد، حتى دخل أبي إليها وأغلق الباب خلفه. بينما كانت زوجتا أبي وأختيّ ينظرن إليّ كشخص مهم جدًا ولست ذاك الفتى الذي كن يمازحنه يوميًا وأحيانًا يسخرن من شلله بشكل بريء وغير مُهين.

كنت أشعر بنفسي كالطاووس، بل كفارس العائلة الذي أوكلتْ إليه مهمة الحفاظ عن شرف العائلة وحياة الأب والأعمام وكل آل عيون السود.

توجهت لغرفتي. جلست على سريري. وما هي إلا لحظات حتى فُتح الباب ودخلت أختي، التي من زوجة أبي المتوفاة، وهي تحمل صينية فيها القشطة والشاي والخبز الحار والعسل. استغربتُ، فهذه المرة الأولى التي يأتون لي بالفطور إلى غرفتي. ابتسمتْ أختي الصبية وقالت: „إنك الآن بطل العائلة وأملها، والمدافع عن شرفها".

أبي كان قد تزوج أربع نساء. واحدة ماتت بالسرطان ولديها ابنتان. وأمي التي هجرته وتحدته وحطمت رجولته وها هو مع أخوته يريدون القضاء عليها، وزوجتان أخرتان، أحدهما كبيرة بالعمر جدًا طلَّقها لأنها لم تنجب، لكن حين صار لديه أطفال من زوجته التي توفيت أرجعها لتربي ابنتيه، أما الزوجة الأصغر، وهي في بدايات العشرينات، فكانت ابنة صديقه، وشهد هو ولادتها وترعرعت وكبرت

بل وكانت وحيدة والدها ويتيمة إذ إن أمها ماتت وهي طفلة، ولأن أبي كان نديمًا لوالدها فقد كان الرجل الثاني في حياتها، وحين بدأت مراهقتها صارت مشاعرها الأنثوية متجهة نحو أبي وتعلقت به، وذات مرة رأهما والدها وهي بين أحضان صديقه ويقبلها كأنثى وبشبق، فانقلبت الدنيا ولم تقعد، واتهم والدها أبي بالخيانة والغدر، لكن ابنته تحدته وقالت بأنها هي التي تعلقت بأبي وإنها تحبه بل تعشقه وتريد أن تكون زوجته، فغضب والدها ولعنها وتبرأ منها، ولم يكن أمام أبي سوى الزواج بها عرفيًا لأنها قاصر من الناحية القانونية. إلى أن بلغت سن البلوغ فعقد عليها في المحكمة. هي حقًا جميلة جدًا وتختلف عن بقية زوجاته، من حيث إن أمها ليست عربية وإنما من الإثنيات الموجودة في البلاد.

***

حين صرتُ وحيدًا في غرفتي وجدت أن جذوة الحماس التي كانت متأججة في نفسي أمام عمومتي قد خفّت قليلًا. صرت أفكر بغضب ممزوج بالحقد، بأمي. هل ما يقولونه عنها صحيح؟ أنا ابنها وقد قضيت معظم وقتي معها لم ألاحظ في سلوكها ما يريب سوى تعاليها وجفاءها مع أبي، فكيف يمكن أن يحدث كل هذا وأنا لم انتبه إليه؟

ثم إنهم يتهمونها بأنها تسجل لهم أصواتهم وهم يبدون عدم رضاهم عن الوضع والسلطة. لو كان صحيحًا لما بقي منهم أي شخص حي إلى الآن؟ وإلا لماذا تنتظر هي ولم تبلِّغ عنهم!؟ لا سيما وهي الآن في خلاف مع أبي، وقد رجعت إلى بيت أخيها الأكبر منذ سنوات.!؟ لكن من جهة أخرى، لو لم يكونوا متأكدين من ذلك لما اجتمعوا اليوم وبلغوني بالأمر!؟ لو لم يكن الأمر صحيحًا لكان والدي فقط من يسعى لذلك، فلماذا تدخل جميع أعمامي في الأمر؟.

أنا محتار.. أريد أن أراها وأسألها بنفسي؟ لكن هل يسمح لي أبي بلقائها؟

أنا أحب أبي كثيرًا. وإذا ثبتت خيانة أمي فيجب عليّ أن أقتلها. لا أريد أن يمشي أبي وهو منكّس الرأس لأنها مرّغت شرفه بالوحل كما يقال.

❊❊❊

منذ أن كنت في السابعة فرض أبي عليّ الصلاة، وحين بلغت التاسعة فرض عليّ الصيام. بيتنا بوجود أبي أشبه بالمسجد. لا يسمح لأختي إلا بالحجاب حتى إذا كان ضيفنا امرأة من الجيران. لنساء العائلة عالم خاص فهن يعشن في عالم منفصل عنا. لهن صالونهن وغرفهن. لا يشاركننا إلّا بايصال الطعام إلى غرفة الضيوف أو الشاي أو العصائر حيث تقف إحداهن عند باب صالون الضيوف لتناديني أو تنادي والدي ليأخذ ما تحمله إلى الضيوف.

حين صرت أفهم ما يدور حولي عرفت بأن لدى أبي عمارات مؤجرة وبيوت وأسواق يلمّ إيجارها شهريًا، ومساهمات تجارية مع مسؤولين في الدولة، لذا كنّا في وضع نحسد عليه من ناحية المال، لكننا كنا نعيش داخل البيت وكأننا خارج التاريخ.

❊❊❊

كنتُ غارقًا في تساؤلاتي المحيِّرة حينما دخل ثلاثة من أعمامي وأبي عليّ في غرفتي. ويبدو أنهم تشاوروا فيما بينهم للاستعجال بالأمر، فلربما تخور نفسي وتفتر عزيمتي وأبدأ بالتفكير في الأمر، فأبي وعمومتي يخافون كل من يفكر بعقله ويخافون الأسئلة ويخشون كل من يسأل. هم يحبون الطاعة العمياء دونما تفكير. ويسيرون على مبدأ: „نفذ ثم ناقش".

نزلتُ عن سريري ووقفت لهم احترامًا. أبي أخذني بالأحضان وقال لي:

- كنت أعرف أنك سترفع رأسي أمام عمومتك.. وكما أخبرك عمك الكبير فإننا لن ندع أي شيء يمسك بسوء، فقد هيئنا لك كل شيء. واتفقنا مع أعلى الشخصيات ممن لهم علاقة بالأمر بحيث ستحصل على أقل ما يمكن من الحكم وستقضيه في سجنك، بل ستكون وكأنك في فندق بدرجة خمس نجوم..! لكن علينا الإسراع بالتنفيذ..

من جديد انتفخت وتوهجت بالحماسة، لا سيما بعد احتضان أبي لي أمام أعمامي، فقلت:

- أنا جاهز.. يمكن أن ننفذ الآن..!

- لا. لا. غدًا إن شاء الله..

قال عمي ذلك وهو ينظر لأبى وأخوته. فقال عمي الأكبر:

- سنعلمك كيفية الرمي بالمسدس الآن. وسنخبرك كل شيء الليلة.

***

حين أفقت ذلك اليوم انتبهت إلى إن كل شيء طبيعي وعادي، ولا أثر ينبئ بقرب حدوث عملية القتل. فالبيت هادئ.

خرجت من غرفتي وأردت النزول إلى الطابق الأرضي، وكنتُ لحظتها على السلّم حين سمعت صوت والدي يتحدث مع أخوته، لا سيما وأنهم جميعًا باتوا الليل عندنا. فهمت من الكلام بأن اليوم مساءً هو التنفيذ، لكن كيف وقد قاربنا منتصف النهار. وسمعت والدي يقول: „أنا سأرافقه إلى بيت خاله". وقد عرفتُ بأن خالي قد أخذ زوجته وأطفاله وذهب إلى أهل زوجته في المحافظة القريبة من العاصمة. مساءً سيكون الوقت مثاليًا لإنجاز هذه المهمة.

أحسست بالخوف، وتجمّدتُ في مكاني..! حين أكون وحدي أشعر بالخوف، ويتسرب الشكُّ في نفسي وأسألها عن حقيقة هذه التهمة، بينما حين أكون مع أبي وعمومتي أتحول إلى بطل لا يهاب شيئًا؟.

سمعت أحد أعمامي يؤكد على كلام والدي بأنهم رصدوا البيت منذ أيام.. واليوم صباحًا تأكدوا من سفر خالي الكبير الذي تعيش أمي في بيته، ولم يبق في البيت سوى أمي والمرأة التي تخدم لديهم وتساعدها في انجاز شؤون البيت، لكنها تذهب عادة في المساء إلى عائلتها. لذا كان مساء ذلك اليوم هو ميقات التنفيذ المثالي.

***

أتذكر تفاصيل تلك الليلة جيدًا. وما زلت أتذكر ذلك حتى بعد مرور أكثر من عقدين على ذلك. كانت الساعة تشير إلى التاسعة وأربع دقائق حينما سألني أبي ونحن في السيارة التي تضم أبي وعمي الأكبر وأحد أعمامي الذي جاء معهم:

- هل أنت جاهز..؟

- أنا جاهز... تمتمت بنبرة مرتعشة.

حين خرجتُ من السيارة شعرتُ بالبرودة، فقد كان الجو باردًا. تقدّمتُ من

الدار. ضغطتُ على جرس البوابة التي تبعد عن مبنى البيت ببضعة أمتار. انتظرت قليلا. لم يفتح أحد. ضغطت مرة أخرى، وأثناء ذلك فُتح باب البيت الداخلي وأطلت منه أمي. نظرتْ إليّ بتفحص فعرفتني، وكانت ملامح الدهشة على وجهها، فقد فاجئها مجيئي لأني لم أزرها منذ أكثر من ثلاث سنوات. آخر مرة التقيتها كان لقاءً عابرًا لربع ساعة وغادرته مستاءً، ولا أتذكر لِمَ كنتُ مستاءً ومعبّئًا ضدها..!

أمي كما أذكرها كانت أنيقة دائمًا، حتى حين تكون في البيت ولا تخرج فالأناقة طقس من طقوسها. وفي ذلك المساء كانت ترتدي ملابس أنيقة. تنورة سوداء تصل إلى ما تحت الركبة، وبلوزة سوداء، وعليهما سترة صوفية سميكة أقرب ما تكون إلى معطف قصير. انتبهت لأناقتها.

توجهتْ هي لتفتح بوابة البيت. وحين اقتربت مني كان على وجهها ابتسامة استغراب، لكن عينيها كانتا تشعان بفرح أمومي أكبر من زعلها وعتابها لعدم زيارتها لثلاث سنوات.

حين رأيتُها وهي تقبل عليّ انتبهت لجمالها وأناقتها وكأنها تستعد للموت بأناقة.. نعم أتذكرها أنيقة دائمًا لكن لا أعرف لماذا أحسستها في تلك الأمسية أكثر أناقة من المرّات كلها، إذ لم أرها في حياتي بهذه الأناقة، ويبدو أن تحفّظ والدي وتطرفه الديني لا سيما فيما يخص شؤون المرأة لم يدعها أن تلبي كل ما في نفسها من توق للأناقة وتأكيد أنوثتها كما تشاء. مع إني أذكر إنها كانت أنيقة على الرغم من حصار والدي الديني لها. المهم.. حين صارت عند البوابة شممت عطرها المريح للنفس.

ابتسمتْ لي ابتسامة ملائكية وقالت لي كأنها غير مصدقة أن تراني عندها قادمًا بنفسي:

- ابني آدم..!؟

فتحتْ الباب الخارجي وهي تحتضنني وتقبلني وتتشممني. أحسست بالضعف وأردت أن أهرب راجعًا. لكنها كانت قد أغلقت الباب. خطر ببالي إنها ربما تفكر بسِر مجيئي إليها ولمحتُ الريبةَ والتساؤل الغريزي في عينيها. كان ثمة مصباح ينير الباحة ما بين المنزل والبوابة. مشت أمامي. وما بين البوابة والباب الداخلي كنت أقول لنفسي: „أمّا الآن وإلا فلن أستطيع فعلها".

فتحتْ الباب الداخلي. دخلتْ بل وقفتْ في الباحة الضيقة تنظر إلي وكأنها تدعوني للدخول.. لكني لم أدخل وإنما شهرت المسدس في وجهها.

لم تفعلْ شيئًا. شلّتها المفاجأة. لا. لا. رفعتْ يدها نحو الأعلى باتجاهي بعد أن رأت المسدس متوجهًا نحوها. كانت مذهولةً ومرتبكة. لكنها عرفت إنني قاتلها. بل ربما لم تعرف لحظتها ما عليها أن تفعل.. هل تصرخ أو تهجم عليّ لتأخذ المسدس مني أو تهرب من أمامي؟ لكنها لم تكن قادرة على الحراك، وكأنها استسلمت لقدرها التعيس الأعمى من دون أن تفهم لماذا أريدُ قتلها؟ وما الذي فعَلَته من أثم بحيث يتوجب على ابنها أن يقتلها؟

كانت عيناها الخضراوان تتساءلان وكأنها تقول: „لماذا تريدي قتلي يا بُنَي؟ لماذا ورطتَ نفسكَ في هذا الأمر؟.. لماذا لم يقتلني أبوك قابيل آل عيون السود لو كان شجاعًا؟ لماذا ورّطكَ بهذا؟".

لا أدري كيف ضغطتُ على الزناد. لأنها وبلمح البصر انهارت على الأرض قرب الباب. انهارت بارتخاء سريع.

لم أصدق أنني فعلت ذلك. فأنا لم أشعر بإصبعي وهي تضغط على زناد المسدس لمرتين. فقد كانت يدي ترتجف بل كان جسدي كله يرتعش من هول الموقف، ومع ذلك لا أدري كيف ضغطتُ على زناد المسدس.. سمعت صوتًا مدويّا ورأيت كيف أنها خرّت كخرقة إلى الأرض. هكذا ببساطة..! هذا هو الموت بسيط وسريع مهما كان قاسيًا.

حين انتبهت لنفسي ولها وهي ملقاة على الأرض. هربت راكضًا بارتباك، مغادرًا الدار، توجهت نحو سيارة أبي ودخلتها. وأول سؤال كان:

- هل ماتت؟ أم جرحت..؟ أين سدّدت رصاصك؟

- في صدرها.

***

مباشرة، ويبدو أن كل شيء كان معدًا من قبل أبي وعمومتي، فقد توجهنا إلى

البيت. بقية عمومتي كانوا في الانتظار.

حين دخلنا قام الجميع فرحًا واحتضنوني وقبّلوني. وكانت تلك الليلة كأنها عرس عائلي. بينما كنت أنا كالمشلول أو التائه. أحسستُ بالخسران الحقيقي. وعلى الرغم من التشجيع والحفاوة والتكريم العائلي لكني كنت حزينًا في أعماقي، فأنا بالنهاية قد قتلت أمي بسبب كراهية عمياء من قبل أبي وبسبب خوف وهلع على النفس من قبل أعمامي.

لا أدري كيف نمت تلك الليلة. فقبل هذه الليلة كنت استمتع بطمأنينة الشخص اللامبالي، فبرغم الحياة المحافظة التي أعيشها، والتي كنت مقتنعًا بها، كنت بلا هموم، فأنا المدلل لأبي والمطاع من قبل أخواتي اللاتي يكبرنني بسنوات قليلة جدًا. كنت لا أحتاج لشيء إلآ ويكون أمامي، بل أحيانًا كان الجميع يسعى لتقديم كل ما يفرحني، وكان والدي وأخوتيّ كأنهم يقرأون أفكاري، إذ أجد الأشياء التي فكرتُ بها أمامي قبل أن أسأل عنها أو أطلبها. لكن منذ هذه الليلة فقدتُ راحتي النفسية. فكل شيء صار مُرّا في نفسي وفي فمي. حياتي صارت مزرعةً من الحنظل.

منذ تلك الليلة جرى انفجار في حياتي خلّف هاوية سوداء مظلمة. ومنذ تلك الليلة ولسنوات طويلة بعدها صار حياتي كابوسًا مخيفًا، فكل فرح العالم، وكل احتفاء عائلتي بشجاعتي، وسعي أبي للمبالغة في تدليلي، لم يجعلني ابتسم من القلب. بل صرت سريعَ الغضب وأميل إلى العدوانية، حيث، وبسرعة، أمد يدي إما ضاربًا أو مهشّمًا ما أجده أمامي. لن ولم استطع أن ألغي أو أمحي أو حتى أن أهرب من صورة وجه أمي حينما رأتني وأنا أوجه المسدس نحوها.

قِيل لي عمّا جرى بعد ذلك، وبالتحديد من حواء البزاز التي كانت صديقة مقربة لأمي، بأنها لم تمت مباشرة. فقد سمع الجيران صوت الطلقتين فخرجوا ورأوني وأنا أفرّ هاربًا، فاتصلوا بسيارة الإسعاف وبالشرطة، وأدلوا بشهادتهم بأنهم رأوا شابًا مراهقًا يركض هاربًا، لكن بدا لهم إنه أعرج فقد كان يجرّ قدمه اليسرى جرّا. وبعد تحقيق سريع عرفوا إنه أنا..

لم يكن هذا الأمر مهمًا لأبي وعمومتي لأنهم قد هيئوا كل ما يلزم من الناحية

القانونية. لكن المهم هنا، كما روي لي، إنها لم تمت مباشرة، بل حين نُقلتْ إلى المستشفى كانت تردد اسم والدي باعتباره القاتل أو السبب، فهي لم تشأ، وهي في آخر لحظات عمرها، أن تورطني بجريمة القتل، لأن قلبها لم يطاوعها، وكانت كما يبدو تدرك بأنني مدفوع ومشحون من قبل أبي.

في الساعات الأخيرة من تلك الليلة جاءت سيارتان للشرطة واعتقلوا أبي وعمومتي كلهم، بينما أنا بطريقة لا إرادية قفزت إلى حديقة الجيران التي يفصل بيننا سور ليس عاليًا واختبأت عند شجرة عالية بحيث لا يراني أحد، وحين ذهب دورية الشرطة مع أبي وأعمامي رجعت قافزًا إلى بيتنا.

الأمر كان شكليًا ومتوقعًا، لأنه بعد تنفيذ الجريمة اتصل والدي وعمي الكبير بمحامي آل عيون السود وبرجل كبير في الدولة وآخر في منصب كبير في جهاز الشرطة. وفي تلك الليلة نفسها جاء المحامي إلى بيتنا بعد اعتقال أبي وعمومتي، واصطحبني إلى مركز الشرطة للاعتراف باقتراف الجريمة لا سيما وإن صفات القاتل الهارب تنطبق عليّ. وتم إخراج والدي وعمومتي بكفالة في صباح اليوم التالي.

وفي نهار اليوم الثاني انقلب كل شيء. وبسرعة مذهلة، وخلال أيام قليلة، تمت إحالتي إلى المحكمة وحكم عليّ بسنتين من السجن لأني قاصر ودون سن البلوغ ولأني انتقمت لشرفي وشرف العائلة. ونُقلت إلى سجنٍ كان والدي وعمومتي قد اشتروا مديره وزبانيته كلهم بالمال، بمن في ذلك الخفراء الذين يتناوبون الخفارة عند الباب. فعشت في زنانة كأنها غرفة في فندق، كان لديّ هاتف نقّال، وكان الطعام يصلني يوميًا من البيت، وبعد شهر صرت أقضي ليلة الجمعة في البيت عند أهلي، بشرط ألّا أخرج من البيت..! حيث تأخذني سيارة الشرطة إليهم ثم تعود في مساء اليوم التالي لتأخذني مرة أخرى إلى السجن. ولا غرابة أن يجري هذا في بلاد يظهر رئيسها على شاشات التلفاز وبيده كتيب صغير هو دستور البلاد ويقول: ما هو القانون.. ما هو الدستور؟ إنه حبر على ورق، ويمزق الكتب، وملايين الناس تنظر مبحلقة في شاشات التلفزيون..! وهكذا مرت سنتا سجني.

***

في اليوم الأول لخروجي وجدتُ سيارةً في آخر الموديلات تنتظرني عند باب البيت.!. هذه هدية أبي. وحين دخلت البيت وأردت التوجه لغرفتي، قادني أبي إلى حديقتنا الخلفية الكبيرة، ورأيت بناءً جميلاً لمشتمل تابع للبيت، فقال لي أبي: „هذا المشتمل لك وحدك، بنيته خصيصًا لك. ولم يبق سوى أن أزوجّك". لكنني مع كل هذه الهِبَات كنت حزينًا حزنًا أسودَ.

بعد مرور أيام علِمتُ بأنه خلال هاتين السنتين ازدادت أموال أبي إلى الضعفين، وبنى عمارة جديدة. كما علمتُ من إحدى أخواتي بأن علاقته مع أعمامي لم تعد وثيقة كما كانت قبل قتل أمي..!

سعى أبي إلى طلب يد بنت عمي فرفضت، وتوجه لعمي الآخر، فرفضت ابنته أيضًا، كلاهما قالتا: „إنني إنسان قاسي ومجرم، مَن يقتل أمَّه لن يكمن أن يثق به أحد.."! كنت حينها في الثامنة عشر من عمري. وبعدها بسنتين انقلبت حياتي.

❊❊❊

كل هذا حدث وأنا في الثامنة عشرة من عمري. لكن الآن، وعلى الرغم من مضي إثنين وعشرين عامًا على خروجي من السجن وبعد سنتين من تلك الليلة التي لا تنسى، فإن روحي حُبست في قمقم تلك الليلة المشؤومة، بل وسجنت في ذلك الموقف القصير الذي لم يتعد الدقيقة، بل بمشهد واحد لا يتجاوز الثواني فيه وجه أمي وهي تنظر إليّ وأنا أوجه المسدس إليها.

ثمَّة سور جليدي قد صار بيني وبين العالم. لا سيما وقد أكتشفت براءة أمي بعد خروجي من السجن، وأن كل ما جرى هو غِيرة عمتي العمياء من أمي، لأن عمتي عانس وقبيحة الشكل، وجاهلة بالقراءة والكتابة والإتيكيت، بينما أمي خريجة جامعة ومن عائلة ثرية وارستقراطية في سلوكها، وتعرف لغات أجنبية، وفوق هذا كله كانت جميلة جدًا بعينين خضراوين، وكانت أنيقة دائمًا ولا تخرج من غرفتها لتشاركهم تفاصيل يومهم إلا وهي في كامل أناقتها، فالأناقة جزء من شخصيتها، كل لديها أتيكيتها في تقبل الأشياء وهذا ما كان يثير حقد عمتي عليها.

عمتي الحقود قد حشّت رأس أبي بمعلومات كانت كلها تلفيقًا وزورًا وبهتانًا، والمصيبة أن أبي كان هو الذي كلفها بمراقبة أمي، ويبدو أنه كان نفسيًا محتاجًا إلى أن يسمع الأخبار الكاذبة، لذلك كانت عمتي تعتقد بأنها إذا لم تخبره بشيء فسيظن أنها أهملت ما كلفه بها، لذا كانت تؤلف وتختلق الأخبار الكاذبة التي هي نتيجة حقدها وغيرتها أيضًا.

كل هذا كَشَفته لي بكل صراحة ابنة عم أبي الذي تصغره بعشرين عامًا.

الكل يبحث عن الحقيقة، لكن الحقيقة أحيانًا تكون كابوسًا. لو لم أعرف الحقيقة لعشت منتشيًا، مدللًا، فخورًا ومكابرًا بما اقترفته، لأنني دافعت عن شرف أبي وحياة أعمامي وكل آل عيون السود..! لكن منذ أن عرفت الحقيقة صارت حياتي كابوسًا مرعبًا، طويلًا امتد لأربعة وعشرين عامًا.

بعد إنهاء محكوميتي وعودتي إلى البيت. وجدت نفسي في حالة بطالة فكرية واجتماعية ونفسية. فلست سوى شخص قتل أمه لغسل العار، فهي جريمة شرف، وفي مجتمعنا من يسمع بأن شخصا ما قام بجريمة شرف وغسل العار لا ينظر إليه كمجرم، بل ينظر إليه كرجل مفعم بالرجولة ومحاط بإعجاب وهيبة..!

ومع ذلك كنت أعيش لحظات غامضة، لحظات شك في كل ما جرى وقيل، بيد أني لم أكن أمتلك الشجاعة للتوغل متتبعًا شكوكي لمعرفة الحقيقة. فأن تشك وتبقى مطمئنًا مستمتعًا بحياتك وتلتف على شكك بالعبث واللا مبالاة شيء، وأن تتبع شكك وتمتلك الشجاعة للمضي معه لمعرفة الحقيقة لهو شيء آخر. لكن كيف لي أن أعرف الحقيقة والكل صامت وكأنه طوى تلك الصفحة؟ أو على الأقل هناك اتفاق على الصمت المطبق أمامي..!

حواء البزاز تصغر أبي بعشرين عامًا، فهي بمقام ابنته، لكنها كانت امرأة مختلفة عن كل النساء اللاتي عرفتهن من آل عيون السود. الغامض في الأمر أن علاقتها بأبي غريبة جدًا. بل صارت مركز اهتمامي أنا اللامبالي.

ما يربطها بأبي هو صداقة غريبة. فهما شخصان مختلفان جدًا. هو محافظ لحد التطرف والتعصب الديني والأخلاقي بينما هي متحررة وساخرة من كل

تحفظاته. يتشاجران ويختلفان في كل مسألة وكل تفصيل صغير سواء في الرأي أو في السلوك، ويحتدان على بعضهما، حتى تجد نظرات الغضب والحقد بينهما عند النقاش واحتدام الأمور سافرة بلا أقنعة، لكنهما مع ذلك منجذبان لبعضهما ولا يطيقان الافتراق عن بعضهما، فأحيانا تزورنا هي وتقولها:

«صراحة إنني اشتقت لقابيل كوكب آل عيون السود بل واشتقت للشجار معه».
بينما هو يتحول إلى مراهق يضج بالحياة والرومانسية والاهتمام حينما يراها. بل أحيانًا تنشغل هي بعملها أو بزوجها، فيختلق أبي مناسبة عائلية كي يدعو الجميع وعلى رأسهم هي، وكلنّا في البيت نعرف أنه اصطنع تلك المناسبة من أجل دعوة ابنة عمه الشابة حواء البزاز التي أخذت لقب زوجها، حتى صار إذا مرت فترة دون أن يراها ينقلب مزاجه ويتحول إلى كائن عصبي يثور لأتفه الأسباب ويبحث عن المشاكل في البيت، فتعرف أخواتي وزوجات أبي بأنه يفتقد ابنه عمه حواء البزاز، فيحاولن أن يخلقن مشهدًا عابرًا كأنه عفوي لكنه مدروس من قبلهن بعناية يسألن فيه عن طول غياب حواء البزاز وعدم معرفتهن بأخبارها، وشوقهن لرؤيتها، فيعطين المبرر لأبي كي يقيم الوليمة أو يطلبن منه الاتصال بها ودعوتها لمعرفة أخبارها فهن مشتاقات لها..!

أبي وحواء البزاز من هؤلاء الناس الذين يحبون بعضهما البعض بقوة وعنف لكنه حب يمازجه كره وغيرة، وفي الجوهر فإن هذا الحب ربما هو أنانية شخصية وحقد دفين مُقنَّع من قبلهما. لكن اختلاف حواء البزاز عن جميع نساء العائلة كشف لي الجانب الآخر من قصة أمي.

ذات يوم، ولم يكن قد مضى على خروجي من السجن سوى أيام قليلة، كنت في المبنى الخاص بي في الحديقة الخلفية الكبيرة من البيت، جاءت أختي إليّ بصينية طعام الغداء، وبطريقة ربما غير مقصودة قالت إن ابنة عم أبي ضيفتنا اليوم على الغداء، ثم أخذت تواصل حديثها بطريقة لم اكتشف حينها إن كانت عفوية أم مقصودة، بأن حواء البزاز، هي الوحيدة في العائلة التي وقفت ضد أبي وأعمامي وقالت إن أمي بريئة.

كان ذلك صدمة بالنسبة لي، فلأول مرة مرة أسمع أن هناك من قال إن أمي بريئة من التهم المنسوبة إليها..! بل ووقفت ضد أبي وأعمامي جهارًا..!

راودني شوق بأن التقيها وأفهم منها، مع أنها كانت تزورنا باستمرار، حتى بعد مرور سنتين على الجريمة!. وحين سألت أختي إن كان أبي موجودًا الآن في البيت، ضحكت أختي وقالت: «وهل يجرؤ ألاّ يكون موجودًا..؟، فلو كان مسافرًا وسمع أنها موجودة لدينا لعاد من سفره»..! فقلت لها سآتي إليكم بعد الغداء. استغربت هي لكنها بطيبتها المعهودة قالت: «سنضمك ببطن العين».

حين دخلت إلى الصالة وجدت أبي وابنة عمه وزوجتيّ أبي وأختّه. قامت حواء البزاز باستقبالي وضمي وتقبيلي بحفاوة وإطلاق كلمات الحفاوة البريئة برجولتي وجمالي، وأجلستني إلى جانبها، لكن الغريب أنني لمحت عدم ارتياح في نظرات أبي وملامحه، بينما كان الفرح والارتياح باديًا على وجه بقية الحاضرين لهذا الاستقبال واللطف.

انتبهتُ لجمال حواء البزاز المميز، فأنوثتها طاغية، لكن حضورها الشخصي يشع بقوة أكثر من أنوثتها. ويبدو أنهم كانوا يتحدثون عني حينما أبلغتهم أختي بأني سألتحق بهم، وأنني أريد أن أرى ابنة عم أبي..!

وحدث أنني قبل أن أطأ أرض الصالة سمعت جملة تقولها بحزم وبنبرة اتهام، كأنها كانت موجهة لأبي: „إنكم أجرمتم بحقه أنت وأعمامي.. دفعتموه لقتل أمه التي ربته وأنجبته، وهي بريئة من كل اتهاماتكم..". لذا حين دخلت صمتوا وانقطع الكلام..! ولكي تمضي الجلسة على طبيعتها سألتني عن أحوالي، وكيف أقضي وقتي، وهل أقرأ كتبًا.!؟

فقلت محرجًا بأني أحب القراءة لكن الكتب التي عندي معظمها دينية ودواوين الشعر القديم، فقالت عليّ بقراءة الروايات وكتب الفكر والفلسفة وعلم النفس، فأحسست إنها فتحت لي أفقًا لم أفكر فيه قط، فأنا تعبت من كتب السيرة اللامنطقية ومن شكوكي فيها. وحينما لاحظت صمتي لكن رضاي عمّا تقوله قالت لي: „تعال زرنا، وستجد في مكتبتي الكثير من الكتب، أو سأحمل أنا لك كتبًا مما

أجدها قد تفيدك..!".

انتبهتُ لامتعاض والدي من كلامها، فقال لها وبنبرة فيها توبيخ مبطن: "اتركيه في شأنه يا حواء.. كتبك ستسمم عقله". وفي تلك اللحظة بالذات انقضت حواء البزاز عليه غاضبة وقالت له: "ألا يكفيكم أنكم جعلتموه يقتل أمه ظلمًا..! تريدونه أن يبقى سجين تلك الأوهام التي زرعتموها في رأسه..!".

صُدمت للنبرة الغاضبة والموبخة من قبلها والتي وجهتها لأبي المقدس.. انزعجتُ لحظتها فأنا لا أقبل تقليل الاحترام لأبي عند الخطاب، لكن ما أثار استغرابي أن أبي ظل صامتًا مرتبكًا، فواصلت هي هجومها: «أعمامي الجبناء خافوا على انفسهم.. بالوا في سراويلهم حينما سمعوا من أختهم العانس القبيحة الحقود بأن حواء بنت آدم الأخضر تسجل أحاديثهم..! يا تُرى ألم يسأل أحدكم أين هو الجهاز الذي سجلت فيه أحاديثكم..؟ هل وجدتموه؟ من رآه منكم وتأكد من ذلك؟ ألم تسألوا أنفسكم هذا السؤال بأنها لو سجلت أحاديثكم وأوصلتها إلى الحزب القائد لما بقى منكم أثر يُذكر؟ فكيف هي كانت تسجل لكم؟ ثم إنك شخصيًا رشوت أصدقاءك من الحزبيين ورجال المخابرات من أجل أن يقتلوا الرجل المسكين الطبيب آدم الأحمر.. وأنت في حينها تأكدت من ذلك..! فكيف صدقت أنها تتواصل معه؟ أتتواصل معه وهو في العالم الآخر؟ ثم لأزيدك علمًا أنها ما كانت تذهب للمنظمة النسوية الحزبية واتحاد النساء حينما تخرج، لكنها كانت تعرف إنك ستعترض والجميع سيعترض، ولأنها تعرف إنكم جبناء حينما يتعلق الأمر بالحزب القائد، لذا اِدّعتْ ذلك لأنها تعرف إنكم ستبدون موافقتكم وستصمتون حتى لو لم توافقوا.. بينما الحقيقة إن المرأة المسكينة كانت تراجع طبيبة نسائية لأنها كانت تعاني من شبهة سرطان الرحم والذي تأكد في ما بعد..! وكنت أعرف بهذا ومع الأسف أنا كنت مسافرة مع زوجي إلى بلد مجاور حينما قمتم بمؤامرتكم ضدها ودفعتم ابنها لقتلها..! كم أنتم جبناء.. لو كنتم شرفاء حقًا لقام أي منكم بقتلها وليس دفع ابنها لقتلها..!».

كان الجميع صامتًا كأنما على رأسهم الطير كما تقول الجملة التراثية التي

وصلتنا من زمن البداوة..! ورأيت أبي صامتًا يكتم غضبًا لوقاحتها في مواجهته أمامي، ومرتبكًا لتأييده المبطن لما قالته، بينما البقية كانوا في حالة ارتباك ما بين الإعجاب بحواء البزاز لشجاعتها في مواجهة سيدهن المستبد، هو وأخوته علنًا.

لكن هذه العلاقة بينهما هنا، بين أبي وابنة عمه، برزت في أعلى تجلّياتها.. إذ قال أبي بهدوء بعد لحظات صمت: «أنت محِقَّة يا حواء.. لقد ظلمناها.. اعترف إنني ظلمتها.. قبل أكثر من سنة عرفت تلك الحقيقة.. عرفت إنها كانت بريئة من التهم التي وجهت إليها، بل وعرفت قصة مرضها. وحين واجهت أختي للتحقق من قصة التسجيلات اعترفت لي بأنها لم ترَ أي جهاز تسجل ولم ترَ إنها كانت تقوم بالتسجيل، لكنها خمنّت ذلك من طريقة تنصتها وسماعها لما تقولون..! وكان هذا سبب ضربي لأختي وطردي لها من البيت، حيث كما تعرفين تعيش الآن مع أخي الكبير في بيته، وهذا هو السبب أيضًا للجفاء الذي صار بيني وبين أخوتي منذ أكثر من سنة..! ولأزيدك علمًا إنني سأقوم هذه السنة بالحج لها، ثوابًا على روحها. أنا أخطأت وسأتحمل ذنبها إلى يوم القيامة.. وأرجو من الله أن يعفو عني.. سأقدم الأضاحي والنذور والعطايا للفقراء ثوابًا ورحمة على روحها..!».

لم أستطع تحمل تلك الحقيقة المرعِبة. أبي الآن يعترف بأن أمي كانت بريئة بينما أنا بتحريض منه هو وأخوته قتلتها! هربت من الصالة راكضًا متوجهًا إلى مبناي الخاص وسط دهشتهم جميعًا. ومنذ ذلك اليوم خرج من الغيب جدار ثلجي شفاف صار في أعماقي بيني وبين أبي.

❊❊❊

كنت مصدومًا بما سمعته، وواجهني السؤال المُعذِب: «كيف أقدمتُ، أنا الابن العاق والضال، على قتل المرأة التي لم أعرف منها سوى الحنان، والتي حملتني ببطنها وغذتني من دمها ومن لحمها، بتحريض من أب غيور أراد الانتقام لفحولته العمياء، وأعمام جبناء ارتعدوا من شبهة وشائعة لا أساس لها من الصحة ألّفتها عانس قبيحة تغار من الجمال والأناقة والكبرياء الأنثوي.؟! كيف لم أفكر ولو للحظة بتلك الأسئلة التي سمعتها من فم حواء البزاز..؟».

كنت مأخوذًا ومندهشًا بجرأة وشجاعة حواء البزاز في قول الحقيقة وكشف أسرار ما جرى..!، وكنت مستغربًا انهيار أبي، هذا الجبروت المستبد، وصمته وهزيمته أمام هذه المرأة الجبارة. ووجدت نفسي اشتاق لرؤية حواء البزاز مجددًا وأن أكون قريبًا منها واستمع لها.

لا أدري إن كان الأمر له علاقة بالتخاطر الروحي والفكري أو الاستشعار عن بعد أو له علاقة بالمصادفة وحدها، إذ لم تمض دقائق حتى سمعت طرقًا خفيفًا على باب غرفتي، فصحتُ من مكاني على السرير:

- أدخل.

فُتح باب غرفتي ودخلتْ حواء البزاز.

***

هناك خطوات أو حركات تنقلك من عالم إلى عالم ومن مرحلة إلى أخرى بسرعة ضوئية، وهكذا كانت خطوة حواء البزاز عند فتحها باب غرفتي، لأنها بذلك فتحت باب حياتي على أفق جديد لم أعرفه قبلها أبدًا. لقد أعادت تشكيل كياني المخيف.

هل أصِف حواء البزاز؟ هي امرأة مثيرة الشكل، متوسطة الطول، ممتلئة لا عن بدانة وإنما لطبيعة جسدها، حيث لديها ساقان تميلان للإمتلاء وتنتهيان بحوض مثير يعلوه خضر منحرف ضامر ليصعد إلى صدر أبرز ما فيه النهدان المستديران البارزان، وعنق أهيف ناحل يثير الانتباه. لديها عينان ذكيتان جدًا تشعان من خلال نظراتها بالفكر والتأمل والعمق والشجاعة، ولديها ابتسامة مغرية، شهية، وودودة.

ما يميزها أنها طاغية الأنوثة لكن ليست سهلة، وإنما ذات شخصية قوية تفرض على المقابل أن يتعامل معها بجدية ولا يتورط معها بمغامرة وتحرش بما يمس كرامتها وشخصيتها لأنها ستظهر رجولة لا يمكن لأي رجل أن يتوقعها. رجولة الأنثى التي تعي ذاتها، ومع كل هذا فهي تكشف عن غنج أنثوي رزين..!

حين فتحتْ الباب ودخلتْ وقفتْ عنده من الداخل. أغلقته بظهرها واتكأت عليه

وهي تتفحصني بنظراتها الطيبة. حركتها تلك كانت فيها غواية وإغراء أنثوي واضح.

لا أعرف بماذا كانت تفكر حينها، لكنني من هيبة حضورها الأنثوي الطاغي واحترامي لشجاعتها الفائقة غادرت السرير ووقفت عنده.

دارت بنظرها في أرجاء الغرفة. نظرت للرّف الصغير المثبت على الحائط الذي يضم القرآن وكتبًا دينية أخرى ودواين شعر تراثي قديم. لم تقل لي شيئًا، وإنما توجهت نحو رّف الكتب ونظرت إلى عناوين الكتب من ظهرها. ثم أخذت تسحبها وتقرأ عناوينها بصوت عال: „مختصر التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" للإمام القرطبي، „النذير الصارخ حول الموتى وأهل البرازخ"، „حياة القبر عذاب أم نعيم؟"، „مشاهد القيامة في القرآن" لسيد قطب، „شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور" للإمام جلال الدين السيوطي.

ثم التفتتْ إليّ ورمقتني بنظرة ثاقبة فيها تأنيب واستغراب واستهانة، وقالت:

- هل هذه كل كتبك، وكل ما تقرأه؟

لم أجبها، لكن صمتي كان جوابًا كافيًا، وشعرت لحظتها إن نظرتها رقّت وامتلأت اشفاقًا ولطفًا وحنانًا. وتقدمت نحوي وهي تقول:

- يا آدم.. أنت تسجن نفسك في قبر وأنت على قيد الحياة..، لكن قل لي: هل تخاف الموت؟

فطأطأت برأسي وقلت:

- وهل هناك من لا يخاف الموت؟

صمتتْ للحظات. كانت واقفة بالقرب مني، فشممتُ أريج عطرها الزكي، ومن دون أن أقول لها شيئًا جلستْ على حافة السرير، وقالت تعال أجلس ولنتحدث. ارتبكتُ وقلت لها:

- خذي راحتك، لا يضير أن أبقى واقفًا.

فقالت مُصِرّة وهي تضع كفها على السرير على مقربة منها:

- لا.. تعال اجلس إلى جانبي، أحب أن نتحاور قليلًا..

تقدمتُ وجلستُ إلى جانبها وأنا مأخوذ بشخصيتها البسيطة، والقوية في الوقت نفسه. استدارتْ بجسدها نحوي وعدّلت من جلستها بشكل أكثر استرخاء وسألتني:

- هل تعرف أننا نعيش حياتنا هذه مرة واحدة؟ وأن علينا أن نعيشها بكل جمالها وروعتها، بحلوها ومرّها..؟ وأن كل هذا الهراء عن عذاب القبر يسمم حياتنا ويجعلها كابوسًا معاشًا؟ أنت قد حوّلت غرفتك هذه إلى قبر في الحياة، وهذه الكتب السخيفة تحول الحياة إلى كابوس.

صُدمت لكلامها، وتحفزت، إذ لم أسمع قط من يتحدث بهذه الإستهانة عن هذه الكتب، فقلت بنبرة فيها زعل وغضب مكتوم:

- هي كتب لعلماء دين أفاضل..

نظرتْ إليّ وبعد لحظات قالت:

- هل مات هؤلاء العلماء ودفنوا ثم رجعوا إلى الحياة فكتبوا هذه الكتب عن أهوال ما يجري في القبور؟

نظرتُ إليها مستغربًا سؤالها فوجدت ملامح الجدية مرتسمة على وجهها، وبدا أنها لم تسال ذلك السؤال للسخرية، فقلت:

- كيف ماتوا ورجعوا؟ الميت ينتقل إلى العالم الآخر ولا يرجع..

فردت بجدية:

- إذن كيف كتبوا تفاصيل ما يجري في القبر؟ من أخبرهم؟ هل توجد أية في القرآن الكريم تتحدث عن عذاب القبر؟، بينما هناك آيات كثيرة تروى في وصف العقاب والثواب.

صمتُّ لحظات مستذكرًا، وقلت:

- توجد أحاديث تروى عن الرسول..

فقالت بانتباه وجديّة:

- ألم يقرأ الناس عن دفن الموتى سورة „يس" كتقليد إسلامي؟

- نعم.

نهضت عن مكانها، توجهت لرف الكتب وأخذت كتاب القرآن الكريم، وجاءت إلى حيث أجلس. لم تجلس وإنما ظلَّت واقفة. فتحت القرآن، وبحثت حتى توقفت عن صفحة تريدها، وقالت:

- ألم يأت فيها الآيات التالية، ثم قرأت: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)»..

- صدق الله العظيم.. ثم ماذا؟ ماذا تريدين أن تقولي من هذا..؟

نظرت في وجهي وقالت بإصرار:

- يعني كانوا نيامًا وصحوا من نفخة الصور ليواجهوا الحساب! علمًا هو يتحدث عن الكافرين هنا الذين يخافون الحساب..! يعني لم يتحدث عن عذاب وإلّا لما ارتعب الموتى من نفخة الصور!.. وأنا لا أريد أن أناقشك هنا عن البعث والمعاد والنشور والحساب والعقاب وهل هذه الأشياء موجودة حقًا أم لا.. وإنما عن عذاب القبر الذي تخافه أنت أكثر من الموت نفسه، أو أي شيء آخر.

أغلقتْ الكتاب ومشت لتعيده إلى مكانه، ثم جاءت فجلست على الموضع نفسه من حافة السرير. لم أجد ما أقول، فواصلت هي:

- أنت تعرف أن الهندوس والبوذيين يحرقون أمواتهم، ويـذرون رمادهم في النهر المقدس أو يحفظونها في جرار صغيرة. الهنود واليابانيون وشعوب شرق آسيا، والصينيون، يشكلون أكثر من أربعة مليار إنسان، كلهم يحرقون موتاهم، أي أكثر من نصف البشرية لا توجد لديهم قبور، فكيف يتم حسابهم في القبر إذا لا توجد لهم قبور..؟

لا إراديًا تمتمت:

- لا أدري.. لم أفكر بهذا..

كنت مندهشًا منها، فلم يخطر ببالي قط أنها تعرف القرآن، أو قرأته أو لديها

أية علاقة بالدين. صدمتني أكثر حينما واصلت:

- أنت يا آدم تعذب نفسك لأنك تعرف إنك اقترفت جريمة كبرى، وأزهقت نفسًا بريئة، وأية نفس؟ لقد قتلت أمك البريئة..

- هي ليست بريئة.

لا إراديًا صرخت بعناد وبصوت حقود، فنظرت إليّ وكأنها تستكشفني وقالت:

- أنت سمعت ما قلته لأبيك، بل وسمعت أيضًا ما قاله والدك بأنه تأكد إنها بريئة، وسيقوم بالحج ثوابًا لروحها..! هو وأخوته حرّضوك على قتل أمك، وملأوا قلبك غِلًّا وحقدًا ونفثوا سمومهم المميتة في نفسك، وها هم كما تراهم..أعمامك مستمرون في حياتهم وتنفسوا الصعداء بعد قتلك لأمك، أما والدك فتشفى وانتقم لرجولته التي تحدّتها أمك..أنت يا آدم لا تعرف أمك..إنها امرأة رائعة، جميلة، ذات شخصية قوية، وعقل متنور.. وأكثر تطورًا وثقافة من والدك المتخلف العشائري المستبد، والمتبجح بماله وسطوته..! أمك كانت أفضل من عشرات الرجال بشخصيتها القوية وطيبتها ونزاهتها. هل تعرف شيئًا عن التهمة الأخلاقية التي لُفقت لها عن علاقتها برجل ما..؟

- لا..قلت بغضب مكتوم.

نظرت لي للحظات وقالت:

- لقد لفَّق والدك تهمة خبيثة ضد الرجل الذي كان زميلها في الجامعة، والذي تقدَّم لخطبتها فرفض أخوتها بتحريض من والدك الذي كان صديقهم، لكن أخوالك رفضوا طلبه فسافر الرجل بعد فترة إلى خارج العراق للدراسة، وبعد سنوات حين عاد وافتتح عيادة كانت أمك قد تزوجت أباك، بل وأنت كنت موجودًا وفي السابعة من عمرك، لكن والدك برغم قوته الظاهرة فهو إنسان هش ومجوف ومهزوز من الداخل، فما إن سمع بعودته وبدأ اسمه ينتشر كطبيب ممتاز ومتخصص بجراحة القلب كما أذكر، حتى بدأت الكوابيس تغزو عقل ونفس والدك.. فبدأ الشك يتأجج في عقله لا سيما وأن علاقة والدك بأمك لم تكن جيدة أبدًا فهي لم تكن تحبه، بل أجبرت على الزواج منه بضغط من أخوتها، لكنها كانت امرأة فاضلة فلم تخنه

أبدًا وحافظت على نفسها، أما قصة إلحاحها حين أصابتك الحمى وأنت في عامك الثاني بأن يأخذوك إلى عيادته فهي تلفيق من ابنة عمي، من عمتك، التي كانت تعيش عندكم وتغار من أمك، ولأن أمك كانت مترفعة في سلوكها ولم تتقرب منها أو تشاركها النميمة واغتياب الاخرين، لذا اختلقت قصة إلحاح أمك بأن تأخذك إلى صديقها الطبيب..، فالرجل الطبيب الأحمر كما يسميه والدك كان في ذلك الوقت خارج العراق يكمل دراسته..وحين ارتفعت حرارتك في المساء المتأخر أكثر أخذوك إلى عيادة شعبية ولم يكن الطبيب الخفير موجودًا وإنما مساعده، وهناك زُرقتَ بإبرةٍ من مساعد الطبيب سببت لك شللاً، وهذا الأمر زاد من جفوة أمك بأبيك. وتحمّلته من أجلك لسنوات وسنوات، ولما كبرتَ وصرتَ قادرًا على العناية بنفسك، وبعد مرضها وأجراء العملية الجراحية من أجل استئصال رحمها، والمشاجرات التي صارت بينهما، وما وصلها من شائعات حول سمعتها وعلاقتها غير الحقيقية بالطبيب، تركت البيت ذاهبة إلى بيت أخيها. وبالمناسبة والدك، وهو ابن عمي أيضًا، مجرم، فقد استغل نفوذه وعلاقاته مع رجال المخابرات والمسؤولين الحزبيين فلفق تهمة لذلك الطبيب المسكين بعد عودته من الخارج، فاختفى الطبيب في أقبية المخابرات..لا أريد أن أعيد تفاصيل هذه القصة لأنني قلتها في وجوههم جميعًا وأنت كنت شاهدًا على ذلك.. الآن والدك يعترف بأنها كانت بريئة، لكن اعترافه الآن لا يعني شيئًا.. سيذهب للحج بحجة التكفير عن ذنبه ومنح ثواب حجه لروح أمك.. كم رخيصة هي حياة البشر..! ومن بين هؤلاء جميعهم أنت الخاسر الأكبر.

ومع أني قد سمعت معظم هذا الكلام قبل قليل حينما كنتُ في الصالة مما دفع أبي للاعتراف بأن أمي كانت بريئة، لكن لوقع الكلام الآن تأثيرًا أكبر. ولأنه موجه لي أنا فقد وجدت نفسي أستعيد تفاصيل ما جرى منذ إيقاظ والدي لي في ذلك الصباح ودعوته للنزول إلى الصالة للجلوس مع أعمامي لأمر جلل. وما ترتب خلال ذلك الاجتماع وتدريبي على الرمي بالمسدس وإعداد كل شيء، وتنفيذ الجريمة..!

نعم الآن اتضح لي أنها جريمة بشعة.. آه.. ما زال وجهها ونظراتها إليّ تحضر أمامي عين أعماقي الآن.. والآن فقط فهمت معنى تلك النظرات، كانت نظرات أم

لا تريد لابنها أن يتورط في جريمة قتل ويدمّر حياته.. فقد أدركتْ في لحظتها بأني مدفوع ومشحون بأكاذيب مسمومة تدفعني لاقتراف جريمة قتلها. ومع ذلك ما زال شيء من الشك في نفسي.. ربما هو عناد مني لتبرير الجريمة التي اقترفتها بحق أقرب إنسان إليّ في هذا الكون..!

وانتبهتُ لهذه المرأة الشجاعة التي كشف المستور وباحت بالحقيقة عارية، وواجهت أبي المستبد الذي تخاذل أمامها وضعف واعترف مُنكِسًا رأسه بأنه أخطأ بحق أمي، وبأنها بريئة من كل ما أتهمت به من سوء سلوك وعلاقات مشبوهة..!

وانتبهت لنفسي كيف أني لم اقترب منها خلال كل هذه السنوات..! ولم اكتشف شخصيتها المذهلة..! ولم يكن اكتشافي له علاقة بما قالت فقط وإنما انتبهت لها كامرأة في غاية الروعة والأنوثة. وراودني إحساس خانق، فأنا لم اتعرف على أية امرأة مع أني الآن في العشرين من عمري..!

ارتبكت وخجلت من نفسي، وبدأت حبّات العرق تتجمع على جبيني. ويبدو أن هذه المرأة من الخبرة والذكاء وقوة الحدس بحيث أدركت ما أحسّه به، فسألتني بجرأة اربكتني أكثر لكنها نقلتني إلى مرحلة جديدة من حياتي:

- هل يمكنني أن أسألك سؤالًا شخصيًا..؟

ارتبكت أكثر فوق ما أنا فيه من ارتباك، وشعرت بشيء من الخوف لأنني أجهل ما تود أن تسألني إياه، لكني حاولت تمالك نفسي فتمتمت:

- تفضلي..

- هل لديك علاقة عاطفية ما..؟ حبيبة.. صديقة؟

صُعقت من السؤال. لكني وجدت نفسي أجيب بشكل لا إرادي:

- لا طبعًا.

- ولم تقم بعلاقة مع أية أنثى، أو أية امرأة؟

خفت من أسئلتها ووجدتني مهزوزًا من الداخل، فتمتمت بخجل:

- لا..

- هل فهمتني.. هل فهمت ما أقصد؟

شعرت بالخجل لكني لا أدري لم وجدت نفسي، فجأة، أعجب بشكل غامض بأسئلتها، فقد كانت أسئلتها تكسر أقفالًا لتفتح أبوابًا ونوافذ في داخلي المعتم.. وراودني شعور بألّا اتراجع أمام أسئلتها مهما كانت محرجة، وألّا أخيب ظنها فيّ، فقلت:

- لا أدري.. فهمت أنك تقصدين علاقة عاطفية.. حب.. أو شيء من هذه السخافات..

نظرت إليّ للحظة ثم قالت وعلى وجهها ابتسامة فيها غنج:

- وهل الحب سخافة؟

لم أجبها، لكني أدركت أن جوابي استفزها، لم أجد ما أجيب به، فكنت مثل الفأر المحاصر، فغضبتُ من نفسي، ومن تهوري في قول شيء غير دقيقي.. فقلت بغضب مكتوم:

- نعم سخافة وحرام وابتذال.. علاقات محرمة يتم التستر عليها بكلمات عاطفية: كالحب وما شابه لكنه في النهاية فسق وفجور..!

كنت اتحدث لكن في الوقت نفسه أحس أن شخصًا آخر كان يتكلم في داخلي، فليس هذا ما أود قوله لأرضي به هذه المرأة الفاتنة.

كانت هي تنظر إليّ وكأنها تعرف أنني أقول أشياء لا أؤمن بها بشكل يقيني، وإنما قرأتُها في هذه الكتب التي لديّ، وأنطق بها كخطيب مبرمج. فقالت جملة حطّمتْ جدران الجليد في داخلي، مع إن الجملة كانت في غاية البساطة، لكنها كانت جريئة:

- يعني هذا أنك لم تلمس جسد امرأة قط، ولم تكن في علاقة حميمة مع امرأة؟

جملة بسيطة وتلقائية قالتها بعفوية وببساطة وكأنها تسأل هل أعرف القراءة والكتابة، لكنها أحدثت انكسارًا في مرآة نفسي وحطمت جدار الجليد الذي يسد باب أعماقي الساخنة. ووجدتني عاريًا أمامها، وضعيفًا، مثلما كان أبي حينما

واجهته ببراءة أمي. كانت تنظر إليّ وكأنها تقرأ ما يدور في نفسي. وقالت:

- ليس عيبًا ألا تكون قد جرّبت ذلك.. لا سيما لو أخذنا بنظر الاعتبار الظروف التي مررت بها. لكن هذه العلاقات ليس فجورًا يا آدم.. الحب مشاعر بين اثنين، تأخذ أشكالًا مختلفة حسب مكانة ووضع الآخر بالنسبة لنا، قل لي: ألا تحب أباك؟

- أحبه طبعًا.. أجبتُ لا إراديًا.

- وأخواتك..؟

- أحبهن طبعًا.. كيف للإنسان ألا يحب أهله؟

- وأمك؟

- أكرهها...

صمتتْ للحظات. ثم سألت:

- أتكرهها حتى بعد أن عرفتَ أنها بريئة؟ حتى بعد أن سمعتَ أباك يقول بنفسه إنها بريئة وإنه سيحج إلى مكة ثوابًا لروحها عسى أن تغفر له..؟

- نعم.. أكرهها.. أكرهها.. أكرهها..

وأخذت أصرخ لا إراديًا بصوت أقرب للبكاء وبغضب وحقد وانكسار وذلة وانحنيت ملقيًا بنفسي على السرير وأنا أصرخ: أكرهها أكرهها..

ظلت هي صامتة. بينما أنا واصلت بغضب صراخي، ثم أخذت أبوح لا إراديًا بما لم استطع قوله منذ سنوات:

- لماذا تركتْني وذهبتْ إلى بيتِ أخيها؟ لو كانتْ تحبني لتحملتْ قساوة أبي وبقيتْ من أجلي؟ ولماذا حين سمعتْ بما يُشاع عنها من أكاذيب لم تطلبني لمقابلتها لتشرح لي؟ وحين رأت المسدس بيدي لِمَ وقفت تنظر إليّ بعينين مليئتين بالاستغراب والرأفة والحنان... أنا أتعذب منذ سنوات.. نظراتها ووجها وأنا أشهر المسدس بوجهها يعذبني في كل يوم وكل ليلة وكل ساعة وكل دقيقة..! لم يكن وجهها ونظراتها نظرات امرأة أذنبت وتواجه العقاب، وإنما نظرات أم تعرف إنها لن ترى

ابنها ثانية..! كانت تنظر إليّ بعينين مليئتين بالشفقة والرأفة والحزن الكبير..! أكانت لأن ابنها قام بقتلها وإنها لن ترى وجهه الحبيب إليها ثانية.!؟

كانت هي صامتة طوال حديثي. لم تعلّق. وخلال استلقائي على السرير كالذبيحة، التفتُّ برأسي نحوها، كانت تنظر إليّ بشفقة وحنان، وفجأة مدت يدها لتداعب شعري برقة وقالت:

- أنت تحبها إذن.. تحبها كثيرًا.. وهي كانت امرأة تستحق الحب يا آدم.. صدقني يا آدم كانت امرأة رائعة وطاهرة..!

أحسستُ بكلماتها وكأنها تنكأ دمامل متقيحة في روحي، بل إنها فجّرتها ونظفتّها وطهّرتها بكلماتها ودفاعها الجليل عن أمي، فوجدتني أقول، ولم أصدق نفسي وأنا أقول ما أقول:

-لا تعذبيني أكثر.. أعرف إنها بريئة.. أعرف ذلك منذ اللحظة التي شهرت المسدس في وجهها.. لم يكن وجه امرأة آثمة.. كان في نظراتها الكثير من الحب والشفقة عليّ وكأنني أقوم بلعبة الموت الخطرة وتكون هي الضحية ومع هذا تقبلتْ موتها..! لقد كنت في تلك اللحظة في صراع بين أن أتوقف وألقي المسدس وأفرّ هاربًا، وحينها سأجلل بالعار من قبل أبي وعمومتي، أو أنجز ما أقدمت من أجله.. ولا أدري كيف ضغطتُ على زناد المسدس..! والله لا أدري.. فقط رأيتها تخرّ أمامي كخرقة بالية..!

كانت هي تواصل تسريح شعري بكفها الرقيقة، ولأول مرة أحس وكأن تيارًا مخدرًا مسَّ جسدي. وشعرتُ براحة لم أعرفها منذ سنين. ذكرتني لا إراديًا بأمي حينما كأنت تأويني للفراش وتمسّد شعري برقة وحنان. لكن فجأة، وكأن شيطان خرج من قمقمه في داخلي، إذ راودني شعور مضاد بألاّ أضعف وتهون شجاعتي ورجولتي أمامها، بل شعرت بالندم لأنني عبّرت عن نوع من الندم وكشفتُ عن حب طفولي نحو أمي، لكن سرعان ما تلاشى هذا الشعور أيضًا، فقد كانت تيارات الخدر تسري في روحي أكثر مما تسري في جسدي، وشعرت برغبة في النوم، فأنا منذ تلك الليلة المشئومة قبل أربع سنوات من هذه اللحظة التي مسّدت حواء البزاز فيها شعري وسرحته لم أنم بشكل طبيعي. نوم كان مليئًا بالكوابيس المخيفة، أما

وجه أمي ونظرتها الأخيرة تلك فقد كانت تعذبني في المنام والصحو.

لا أدري إن كان سحرًا ما جرى، لكنه جرى، ولا أعرف سرَّ ما جرى، لأنني شعرت وكأنني خارج المكان والزمان، وكأنني غفوت، ولا أعرف كم استغرق ذلك، لأنني حين فتحت عيني أدركت أنني ربما نمت نومًا عميقًا، وانتبهت إلى أن المرأة التي مسّدت شعري، والتي يفترض أن تكون حواء البزاز ليست هي ذاتها وإنما هي أمي، أمي هي التي كانت تمسد شعري، فصُدمت، كيف هذا؟ أنا الذي قتلتها وسُجنت لسنتين عقابًا، بينما هي الآن تمسد شعري؟ أأنا في حلم..؟

نظرت إليها فزعًا. انتبهت هي لنظرتي والفزع الذي ينطق في عيني. ابتسمت بطيبة وكأنها تواسيني وسألت برقة:

- ما بك يا بُني؟ هل رأيت كابوسًا؟

لم أصدق ما سمعتُ، فهذه نبرة صوتها فعلًا، وهذه ملامحها، وهذه هيئتها.. كيف هذا؟ ظننت أنني في حلم، لكن كيف هذا وهي قد سألتني بصوت مسموع..؟ ثم قلت لنفسي هذا يحدث في الحلم، وما دام الأمر حلمًا فلأواصل حديثي معها لأعرف الحقيقة منها، لذا أجبتها بنبرة فيها تردد وخوف:

- رأيت كابوسًا مخيفًا؟

نظرت إليّ بتركيز وقالت بارتباك وحزن:

- هل راودك الكابوس بأنك تقتلني بتحريض من أبيك وأعمامك.. أليس كذلك؟

- كيف عرفتِ؟ قلت مندهشًا ومرتبكًا.

فارتسمت ابتسامة حزينة جدًا على وجهها وقالت بنبرة حزينة ومليئة بالشفقة:

- لأن هذا الكابوس راودني أيضًا. رأيت إنني كنت في خلاف مع أبيك، وكانت أخته العانس قد لفّقت الأكاذيب عني بأن لديّ علاقة مشبوهة مع طبيب تأمر عليه والدك من خلال علاقاته فاختفى، وأن أباك تشاجر معي وأهانني بتلك التُهم الملفقة، فذهبت إلى بيت أخي، وإنني أردت أخذك معي لكن والدك رفض ذلك وهددني بالقتل إذا ما أخذتك معي..! واشتكيت في المحاكم لكن علاقات والدك

الكبيرة ودفعه الرشاوى جعلت كل جهودي هباءً..! وذات مساء، بعد سنوات من عدم تواصلنا، جئتَ لتزورني ففتحتُ لك البوابة الخارجية لكنك وقبل أن تدخل البيت وقفت عن الباب الذي يقود إلى الداخل وأشهرت مسدسًا وأطلقت منه طلقتين عليّ، ولأنني لم أمت مباشرة إذ سمع الجيران صوت إطلاق النار فهبوا ليعرف ما جرى، لا سيما وأنهم رأوا شابًا مراهقًا يعرج قليلًا على ساقه اليسرى، واتصلوا بسيارة الإسعاف، لكن الأطباء لم يستطيعوا فعل شيْ، لذا مت بعد نصف ساعة..! وحتى لو جرى ذلك في الواقع يا ولدي فإنك لم تقتلني وإنما قتلني من حرضك على ذلك ونسج عني الأكاذيب والشائعات..! وسواء قتلتني في المنام كما رأيتَ أنتَ وكما رأيتُ أنا، أو جرى ذلك في الواقع، فإنني صحوت من موتي ووجدت نفسي في غرفتي هنا في هذا البيت..! أي أن كابوسي يشبه كابوسك لكن كل منا رآه من جهته..! بيد أني لم آخذ الأمر بشكل جاد لأن الجيران أخبروني بأنهم رأوا مراهقًا يعرج على ساقه اليسرى فحمدت الله لأن الأمر مجرّد كابوس، لأنك لست أعرجًا كما كنت في الحلم..!

ولا إراديًا تحسستُ ساقي اليسرى فلم أشعر بالإعاقة فيها.. ما الذي يجري معي؟ هل أنا ما زلت نائمًا وسادرًا في الحلم حقًا؟

ثم انتبهت لأمي وهي تبتسم لي ابتسامتها المشرقة الطيبة الحنونة والمثيرة وهي تقول لي:

- استيقظ يا آدم.. آن الأوان أن تصحو..

- دعيني أغفو لدقائق أخرى.

لم تجبني. كنتُ مغمض العينين، كنت أتوقع أن تواصل دلالها لي ومناغاتي حين كنت طفلًا فتدغدغني ببراءة وطفولة وتلعب معي، لكني لم اسمع شيئًا، بل كان ثمة سكون ثقيل.

استمر السكون للحظات أطول، ففزعت، وحين أفقت من غفوتي لم يكن هناك من أحد، وأنا كما كنت في وضعي على السرير، حيث ساقاي تتدليان قليلًا من حافة السرير وأنا ممدد على جنبي، لكن أهم ما انتبهت له هو أني صحوت مرتاحًا راحة عظيمة، وكأني نمت نومًا طويلًا وعميقًا كنوم أهل الكهف.

كنت مستغربًا ما حدث لي، سواء زيارة حواء البزاز لي في غرفتي وحديثها عن براءة أمي، أو حضور أمي ونفيها كل ما جرى وتأكيدها بأنه مجرد كابوس عانتْ منه هي أيضًا، إلى اختفائهما. وشعرت بأن غشاوة ضبابية تغطي على ذاكرتي وعلى نفسي. وغرقت في ضباب ندي.

لا أدري كم استغرقت كل هذه الرؤيا التي مررت بها وكم غبت عن وعيي، لأنني حين أفقت وحين حركت جسدي كي استدير وجدت نفسي مرة أخرى مستلقيًا باستقامة على سرير وثير وليس كما كنت قبل غفوتي متدليًا بساقي من السرير في غرفتي في المبنى الخاص في بيت أبي.

وانتبهت إلى أن الغرفة حديثة ونظيفة ومضاءة كأنها غرفة في مستشفى. وأن سريري عالٍ وإلى جانبي خزانة تشبه خزانات المستشفيات..! أين أنا يا تُرى؟

لم أكن استوعب ما أنا فيه فظننت أنني أحلم وأني ما زلت مستغرقًا في نومي..! فجأة، سمعت جلبة خارج الغرفة، ومن دون أن يطرق أحد الباب فقد فُتح ودخل رجل فضي الشعر يضع نظارات طبية وتتبعه امرأتان ورجل وكلهم بمعاطف الأطباء البيض. وبدون مقدمات حيّاني بالألمانية قائلًا:

- السيد آدم غراس نهارك طيب..! هل أفقت..؟ هذا جيد.. آسفون لما حدث لزوجتك.. لم نستطع إنقاذ السيدة غراس، فقد عانت من نزيف داخلي لم يتمكن الأطباء عندنا من ايقافه والسيطرة عليه..!

تأكدتُ من أنني في حلم. فأنا لست السيد آدم غراس ولستُ متزوجًا. ولا أعرف أصلًا أين أنا.. ولا أعرف اللغة الألمانية، مع أني فهمت ما قاله لي جيدًا. والغريب إنني حاورتهم بالألمانية أيضًا وكنت أجيدها بشكل ممتاز، إذ سألتهم وأنا في الحلم:

- أين أنا؟ أنا لست آدم غراس وإنما آدم قابيل آل عيون السود.. وأنا غير متزوج..؟

نظر الطبيب المسؤول إلى زملائه الذين يرافقونه نظرة خاصة، وقال لي:

- يبدو أنك تعاني من فقدان الذاكرة قصير المدى ياسيد غراس.. لا تخف ستتم معالجة الأمر.. هذا من أثر صدمة الحادث المريع..! والغريب أنك لم تُصب بخدش واحد بينما توفيت زوجتك.. نحن آسفون.. الحمد لله على سلامتك.

وخرجوا جميعهم. لكني انتبهت إلى أن إحدى المضمدات كانت واقفة عند الباب. حين خرجوا تنحت جانبًا احترامًا للشخص الأول ذي الشعر الفضي، لكنه لم ينتبه لها مثلما لم ينتبه لها الآخرون.

دخلت المضمدة التي بدتْ في منتصف الخمسينات والبدينة من دون ترهل إلى الغرفة وعلى وجهها ابتسامة مشرقة. ومنذ دخولها، مع أني لا أعرفها تعاملت معي كأنها تعرفني منذ زمن طويل فقالت لي:

- الحمد لله على سلامتك.. مضى عليك يومان وأنت في غيبوبة.. وأنا آسفة لخسارتك..

- لكني لستُ متزوجًا وأنا لستُ السيد غراس..!

نظرتْ إليّ بدهشة واستغراب وقالت بنبرة فيها تأنيب مبطن:

- كيف تقول ذلك؟ زوجتك لم تمت سوى منذ يومين بينما أنت تتنكر لها.!؟

نظرتْ إليّ كأنها تدرسني ثم سرعان ما استرخت ملامحها وارتسمت ابتسامة مشرقة على وجهها وقالت وكأنها تداري طفلًا قالت:

- بلى.. أنت السيد آدم غراس.. وزوجتك إيفا ماريا غراس وهي نمساوية وأنت أيضًا صرت نمساويًا بعد مرور سنوات من زواجك منها. لقد سمعت كلام الدكتور آدم مندلسون عن فقدان الذاكرة، لكني أعرف مثل هذه الحالات وعلاجها بمواجهتك بالوقائع التي أنت عليها، فربما تساعدك.. لذا بعد الحادث في طريق المطار كانت الشرطة هناك وهم نقلوكما إلى هنا. وكما هو واضح أنت كنت تنوي السفر إلى بلادك لأنهم وجدوا بطاقة سفر باسمك وجواز سفرك وكذا كل الوثائق التي تخصك وتخص زوجتك. وحتى عنوان بيتك هنا في «فيينا». أنت تحتاج للهدوء والراحة الآن وستستعيد ذاكرتك. أنا متأكدة.

المعلومات التي قالتها شوشتني. أولًا أنها كانت تتحدث بثقة كبيرة وقناعة وبنبرة واثقة ومليئة بالثبات، وثانيًا أنها لم تنكر كوني أجنبيًا وحصلت على الجنسية النمساوية بعد سنوات من زواجي..!!.

صرتُ أشك بكل معلوماتي عن نفسي. وفكّرت، بما إنني أحلم فسوف أواصل

مغامرتي في الحلم دونما خوف وتردد فأولًا وأخيرًا سيختفي كل شيء حين أستيقظ من نومي، لذا قلت للمرضة التي انتبهت إلى إنني كنت أفكر بما قالته لي، وظنت أنني أستعيد ذاكرتي:

- لي طلب بسيط، وأعتقد إنه من حقي.. أريد أن أتأكد من كل ما يقال لي.. أريد أن أرى جثة تلك التي يقال إنها زوجتي..!

نظرت إليّ بتساؤل للحظات ثم افتر وجهها عن ابتسامة غامضة وقالت:

- هل تريد أن تلقي نظرة على زوجتك.!؟

- نعم.. هل يمكنني ذلك..؟

- نعم بالتأكيد... وأقولها لك إنه من خلال تجربتي مع حالات مثل حالتك.. أول ما يطلبونه للتعرف على أنفسهم أي اثبات قوي وملّح يرتبط بهويتهم المنسية..! لكن هذا أمر جيد.. دعني أرتب الأمر قليلا.. فليس لي الحق في ذلك إلّا بأمر من رئيس الأطباء الدكتور آدم مندلسون الذي هو رئيس المستشفى في الوقت نفسه، وهو الرجل ذو الشعر الفضي الذي كان هنا قبل قليل.. لكن قسم حفظ الجثث قريب جدًا من هذه الغرفة في الممر المجاور.. سأرى إن كان بإمكاني أن آخذك إلى هناك.. الليلة عندي خفارة وسأسعى إلى ذلك. سأمر عليك بعد التاسعة ليلًا وآخذك إلى هناك.

قالت ذلك وخرجت. وبقيت وحدي. وجدت نفسي غارق في البياض. بياض الجدران والباب والستائر والطاولة والسرير والملاءات على السرير. فاستلقيت على فراشي وغبت في البياض.

***

أفقتُ. فتحت عينيّ. ظننت إنني صحوت في غرفتي بمبناي الخاص في بيتنا وفي غرفتي حيث كنت أتحاور مع حواء البزاز، لكن لا.. كانت العتمة تلف كل شيء في الغرفة. وثمة أصوات لجنادب تأتي من خلف النافذة. وشيئًا فشيئًا أدركت أنني ما زلت في غرفة المستشفى.

حاولت من خلال العتمة أن أتبين تفاصيل المكان. واستغربت إنني نمت كل هذا

الوقت، فقد كان دخول الأطباء والممرضة صباحًا، بينما الآن العتمة تلف المكان. فالوقت ليل.

قررت أن أغادر سريري وأضيء مصابيح الغرفة من خلال زر الكهرباء. لكن، وأنا أهمُ بذلك، فُتح الباب وأضيء المكان. كانت الممرضة البدينة من دون ترهل، قد دخلت وضغط على زر الكهرباء المجاور للباب. وابتسمت لي قائلة:

- يبدو إنك نمت نومًا عميقًا. لقد جئتكَ وقت توزيع وجبة العشاء فوجدتك نائمًا، لذا لم أود ايقاظك لأن النوم يساعدك في تنظيم عالمك النفسي. المهم.. الآن الساعة التاسعة. إذا شئت فحاول أن تأكل شيئًا. سأعود إليك بعد قليل لنذهب معًا إلى حيث وعدتك.

خرجتْ. كنت أتأمل جسدها المتناسق دون ترهل. وراودني شعور وكأني أعرف تفاصيل هذا الجسد، وأراه عاريًا من خلف الثياب.

حين غادرتْ، بعد أن أقفلت الباب خلفها، نظرتُ إلى صينية الطعام الموضوعة على الطاولة المجاورة. لم أكن جائعًا لكنني مددت يدي إلى الفاكهة التي تصاحب كل وجبة، فمددت يدي وأخذت التفاحة الخضراء التي كانت ضمن وجبة الطعام. مسحت التفاحة بمنديل ورقي. فكرتُ بقضمها لكن فجأة فقدت الرغبة في ذلك فأعدتها إلى الصينية. نظرت إلى صحن الطعام فوجدت قطعة من لحم الدجاج، وقطعة زبد وقطعتان من الخبز. لم أجد الرغبة في أن أتناول أي شيء.

بقيت وحدي مرة أخرى من دون أن أفعل شيئًا. لم أشعر بأنني تعرضت لحادث ولا أذكر ذلك، بل حاولت أن أتذكر شيئًا مما قيل لي عن الحادث لكن من دون جدوى، بل إنني لم أتذكر حتى شكل زوجتي المزعومة. بقيتُ جالسًا في سريري لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل، وماذا ينتظرني في هذا الحلم الغريب..!

لم تمض سوى دقائق قليلة حتى فُتح الباب ودخلت الممرضة نفسها، ولم تقترب وإنما أشارت إليّ بكفها وهي تقول بهدوء وكانها تحاول ألآ يسمعنا أحد:

- هيا انهض.. دعنا نمضي إلى حيث قاعة حفظ الجثث..!

ونهضتُ على عجل. لبستُ نعالي وتبعتها. انتبهت إلى إنني كنت عاريًا، وعليّ مئزر طبي مقفل من الأعلى في الخلف بشريط لاصق مخيط ضمن المئزر، لكنه كان مفتوحًا إلى حد كبير، بحيث يمكن رؤية ظهري ومؤخرتي. وفكرت لحظتها „لا ضير ما دام الجزء الأمامي من جسدي مغطى".

ومع إنها قالت لي بأن قاعة حفظ الجثث في الممر المجاور لغرفتي، إلا إنني مشيت معها في ممرات خالية متداخلة، تسعة ممرات ينعطف كل منها إلى ممر جانبي آخر، والغريب أن هذه الممرات خالية، لا أثر لإنسان ولأي مخلوق آخر، مع أننا كنا نسمع وقع خطى في الممر الذي نقترب من منعطفه، وحينما نلّتف فيه لا نرى أثرًا لأي مخلوق وتختفي الأصوات، بل ونسمع وقع خطوات قريبة في الممر الذي تركناه للتو، وكأن هناك مخلوقات لا مرئية تمشي في هذه الممرات.!؟

وأخيرًا وقفتْ أمام باب حديدي عريض. أدارتْ مقبضه فَفُتح، ودخلتْ، ثم أشارت إليّ بالدخول فدخلت. كنتُ أشعر برهبة الموقف على الرغم من إنني في حلم.

كانت هناك خزانات تصطف بشكل منتظم على جدران القاعة شبه الكبيرة هناك. وكان واضحًا أن فيها جثثا محفوظة، لكن في وسط تلك القاعة كان ثمة سريران يحملان جثتين، كل منهما مغطاة بشرشف أبيض.

اقتربتْ من إحدى الجثتين والتي يفترض أن تكون جثة زوجتي المزعومة، وكنت أنا إلى جانبها، فرفعتْ الغطاء عنها. وكانت بالنسبة لي صدمة هائلة. تراجعت للوراء من هول الصدمة. فقد كانت الجثة تعود للمرضة التي ترافقني نفسها.

لا شيء يدل على جروح في الجثة. جسد ممتلئ شهي، نهدان عامران، وبطن مشدود على الرغم من امتلائها البسيط، وشعر عانة أشقر يغطي ما بين فخذيها، وساقان ممتلئتان مثيرتان، بل وكان الجسد الأبيض المائل للوردي لا يبدو ميتًا بل وكأنها تنام لا أكثر.

نظرتُ إلي الممرضة التي ترافقني خائفًا، وفكرتُ كيف هي ميتة وكيف هي تقف إلى جانبي؟ لكن وكأنها أدركتْ ما فكّرت به فابتسمت وقالت بنبرة هادئة وطيبة:

- نعم هذه أنا يا آدم.. أنا إيفا ماريا غراس زوجتك الحبيبة..!

- كيف هذا؟ كيف أنت حية وتتحدثين معي وأنت جثة؟ بينما أنا لا أعرفك أصلًا..! أنا لم أتزوج بعد..!

ابتسمت لي بطيبة وقالت:

- أنت ما زلت تحت تأثير الصدمة..نحن متزوجان منذ ثمانية عشرة عامًا.. بعد عامين من وصولك إلى النمسا، وقد تعارفنا هنا في هذه المستشفى حينما جئت لإجراء عملية الزائدة الدودية، كنتَ حينها لاجئًا سياسيًا، وعلى الرغم من إني أكبر منك بستة عشرة عامًا لكنك أحببتني وأحببتك وتزوجنا، وأخذت لقبي «غراس»... لكن تعال معي.

واقتربت من سرير الجثة الثانية ووقفت قربه، والتفتتْ إليّ وقالت: ,,لا ترتبك". فاقتربت منها، وحين صرت إلى جانبها، رفعت الغطاء عن الجثة، فرأيت نفسي ميتًا، رأيت جثتي عارية. كدت أقع مغشيًا عليّ من هول الصدمة، فمسكت بذراعي وقالت:

- هوّن عليك ياحبيبي..أنت ميتٌ أيضًا ..لكن مع ذلك نحن صحونا من الموت، فدعنا نذهب.. لنغادر المستشفى الآن ونذهب إلى شقتنا، لكن علينا أن نأخذ حقيبة سفرك وحقيبتي اليدوية من غرفة المقتنيات ونغادر.

أخذتْ بيدي وكنت مقادًا لا إراديًا، ومن دون أن نمر بالممرات التسعة، وجدت نفسي معها عند غرفة الحوائج ومقتنيات المرضى قرب مكتب الاستعلامات. ومن دون أن تقول شيئًا أخرجت من إحدى الخزانات ثوبها الذي كان ممزقًا قليلًا، وخلعت أمامي مئزر الممرضات، فرأيت عريها المثير على الرغم من عمرها الخمسيني. وأشارت برأسها إلى الخزانة التي أمامي ففتحتها ورأيت ثيابي. نزعت المئزر الطبي، وقفت عاريًا، انتبهت إلى إنها تنظر إلى عريي برغبة مكتومة، بينما كنتُ منشغلًا بلبس ثيابي. وحملتُ حقيبة سفري بينما تناولت هي حقيبتها اليدوية، وغادرنا المستشفى.

كان المستشفى خاليًا من أي موظف أو خفير ومكتب الاستعلامات كان خاليًا

من أي موظف. وحين صرنا عند الباب الرئيسي للمستشفى جاءت سيارة تاكسي ووقفت أمامنا. ومن دون أن يخرج السائق فُتح باب السيارة الخلفي فوضعت حقيبتي. ودخلنا إلى الجزء الخلفي من السيارة.

تحركت السيارة، ولم تمض أقل من تسع دقائق حتى وقفت أمام مبنى غير عالٍ في شارع هادئ وساكن وخال من المارة. ما أن خرجنا، وأردت أن أمنح السائق أجرته حتى غادرت السيارة دون أن أرى السائق حتى.

كان المبنى محاطًا بسياج واطئ من جهة المدخل. حين فتحتْ البوابة الواطئة ودخلنا رفعتُ رأسي إلى المبنى كي أتأمله، انتبهت إلى أن جميع نوافذ الشقق في المبنى مضيئة، وخلف كل نافذة ثمة ظلال لشخص ما، شخص غير واضح الملامح لأن الضوء يرسم ملامحه من الخلف. لكن هناك عيون فسفورية كانت تتقد من تلك الوجوه، ضوء أخضر يميل للزرقة يتوهج خلف تلك النوافذ ويتوسط وجوه هؤلاء الأشخاص.

كانت الشقة في الطابق الأرضي. ما إن دخلنا حتى وجدت نفسي في مكان أعرفه إلى حد ما فلم أشعر بغربة المكان.

كانت هناك صالة مفتوحة عريضة، تنتهي بباب يطلّ على شرفة، والشرفة تطلّ على حديقة ليست كبيرة، تحيطها أشجار البتولا المزروعة على جدول يحيط بالحديقة ويمتد إلى ما تحت الجدار الفاصل مع حديقة الجيران. وعلى جانب الصالة الأخرى يقع المطبخ الكبير الذي فيه مائدة الطعام أيضًا، بل وزاوية مؤثثة بمصاطب مريحة تشكل زاوية لشرب الشاي أو الجلوس أو التمدد بعد الأكل، أو قبل إعداد المائدة.

لا أعرف لماذا كنت عجولًا على فتح حقيبة سفري. أحسست بأني بدأت أستعيد نفسي، كمّن تم تخديره والآن بدأ المخدر يفقد تأثيره فيستعيد الشخص شيئًا فشيئًا وعيه وإرادته.

لا أعرف أين اختفت الممرضة التي اتّضح بشكل غامض في هذا الحلم بأنها زوجتي إيفا ماريا غراس. تلفّتُ فرأيت في أعماق الزاوية التي تنفتح من الفسحة بين المطبخ والباب الرئيسي ثمة غرفة، ورأيتها تتعرى وتأخذ مناشف من خزانة قريبة وكأنها تعد نفسها لأخذ حمام ساخن.

ووجدتني أفتح حقيبة سفري، لم يكن فيها الكثير، لكن ثمة دفتر مجلد بشكل جميل، وأدوات حلاقة، وقنينتي عطر رجالي، وبعض القمصان وبنطلونين وحذاء وبعض أزواج الجوارب الجديدة التي لم تفتح بعد، وبعص الألبسة الداخلية. وكتابًا بالعربية واضح العنوان. وقرأت عنوانه „دون كيخوته دي لامانشا" لثرفانتس. من أين أتى هذا الكتاب؟ ولماذا يرافقني في رحلتي؟

أخذت الدفتر بغلافه الجلدي الأسود وتصفحته، فرأيت عنوانًا غريبًا عليه „وقائع حياة وقائع حياة يومية عادية..عادية جدًا".. وتحته عنوان فرعي: „كابوس آدم عيون السود- آدم غراس". وانتبهت إلى أن تاريخ الصفحات الأولى غريب وغامض، فهي مكتوبة في مكان آخر وزمن آخر كما يبدو، فأحببت مواصلة القراءة قليلًا لأنني أدركت بأن هذا الدفتر فيه هويتي الشخصية، فقرأت:

«حينما متُّ كنت أرى على وجه أبي، قابيل آل عيون السود، ووجوه أختيّ وزوجتيّ أبي حزنًا عميقًا. كانت جثتي قد تركت في غرفة بينما جلس الجميع في الصالة ينتحبون بصمت. ومع أني أدرك أنني ميتُ لكني كنت أرى أهلي. وانتبهت إلى أعمامي من آل عيون السود بدأوا يتوافدون على بيتنا. كان الرجال يصغون إلى أنين بعضهم البعض. كان المسنون منهم يرتجفون قليلًا من شلل رعاش، كانوا مترعين بالحزن.

أتذكر الآن، مع إن الموتى لا يتذكرون، كيف أيقظني أبي قابيل آل عيون السود، قبل سنوات بعيدة صباحًا. فزعت حين رأيته عند سريري. كان مرتبكًا ولأول مرة أراه مهزوزًا وينظر إليّ بارتباك، فليس هذا من عادته، فهو دائما متنمّر مع الآخرين، وينظر بقسوة حتى لو كان جالسًا وحده ولا أحد قربه، ولا ينطق إلا آمرًا.".

أغلقتُ الدفتر. أحسستُ أن من يتحدث هو أنا، لكن كيف أقول أنا بينما أنا ميت، وفي الوقت نفسه أقول إنني أرى أهلي حولي؟. ثمة شيء غير واقعي وحقيقي في هذا البوح والسرد.. لكن هل هناك شيء حقيقي فعلًا في هذه الحياة؟

أأنا الآن حقيقي وواقعي؟ ألم أرَ جثتي في قاعة حفظ الجثث وكنت أنا واقفًا إلى جانبها؟ من مِنّا هو الميت؟ أأنا الآن ميت؟ هذا لم يعد حلمًا وإنما هو كابوس مخيف..! ورغبت في مواصلة القراءة، لأني فكرت بأن عليّ أن أبحث عن نفسي، ولن ينقذني سوى هذا الدفتر.

تركت كل شيء على حاله وأخذت الدفتر متوجهًا إلى الشرفة. جلستُ هناك على كرسي خشبي أمام طاولة خشبية دونما أي شيء وسادة لتكون تحتي أو خلف ظهري. وبدأت القراءة بشكل مونتاجي.

أردت أن أعرف كيف وصلت إلى هنا!؟ وإذا ما كان ما أراه حلمًا، فكيف يمكن للحلم أن يكون مِثل مذكرات أو يوميات أو اعترافات شخصية من الواقع؟. وفتحت صفحة لا على التعيين وقرأت:

«فتحت عينيّ وكأنني أفيق من غفوة عميقة. لم يكن أحد في الغرفة. تذكّرت بأن حواء البزاز كانت موجودة، ثم رأيت أمي بدلًا عنها، وحدثتني بحنان، ورأفت بعذاباتي بأن أنكرت جريمتي بقتلتها، وقالت لي بأن هذا كان كابوسًا مريعًا لي ولها. ثم اختفت.

ولا أدري لماذا اشتقت كي أرى حواء البزاز، ألأنها سخرت من كل مخاوفي عن عذاب القبر؟ وتصدّت لأبي الذي كنت ارتعب حين أكون أمامه؟ صحيح أنني أحب أبي جدًا، وهو يحبني أيضًا ويدلّلني ولم يبخل عليّ قط، لكني مع ذلك أخافه، ليس من باب الاحترام وإنما من باب الخوف الحقيقي، فهو مستبد، يحب نفسه كثيرًا. ولو خُيِّر بين نفسه وبيني لاختار انقاذ نفسه بالتأكيد.. على العكس من أمي..! هذا الرجل المستبد المتطرف دينيًا والفاسق سرّا تصدت له حواء البزاز واتهمته بالظلم واقتراف الجريمة بحق أمي وبحقي لأنه هو وعمومتي استغلوا عمري القاصر للتحريض على الجريمة.

ومرت الأيام والأسابيع. وصارتْ علاقتي بحواء البزاز طيبة جدًا وقريبة. أخذتْ تزورنا ثلاث مرات في الأسبوع، تسلم على أختيّ بشكل عابر وزوجتي أبي، وأحيانًا على أبي إنْ كان موجودًا، وتأتي إليّ في المشتمل الملحق بالبيت الكبير. وأخذت تأتيني بالكتب، وتناقشني، وبصراحة على يديها ولدتُ من جديد.

سابقًا، وقبل لقائي بحواء البزاز كنت مولعًا بكتب التراث، والكتب الدينية. وعدا ذلك أعده سخفًا وترهات، بل فسقًا وإنحلالًا أخلاقيًا، وكنت متعصبًا للتراث الشعري، وكنت أعتقد بأن لا أحد يستطيع أن يجاري التراث الشعري القديم، ولا

مرحلة يمكن أن تعلو على فترة الخلفاء الراشدين. بيد إن حواء البزاز كانت تحطم قناعاتي بكل بساطة وبلا تعقيدات كثيرة، قناعاتي التي اتضح أنها هشة ولا تصمد للنقاش الطويل.

وأتذكر أنها سألتني ذات مرة عن رؤيتي عن الحملة الإيمانية التي أطلقها رئيس البلاد، فقلت لها إنه يحاول أن يقلد الخلفاء الراشدين الذي مثلوا أفضل وأطهر فترة عرفتها الخلافة الإسلامية..! فابتسمت لي بطيبة وسألتني إن كنتُ مقتنعًا حقًا بأن فترة الخلفاء الراشدين أفضل فترة قدمها التاريخ الإسلامي، فارتعبتُ من الجرأة في طرح هذا السؤال، وأخذتني الحماسة لتأكيد ذلك، بل وزدت عليه بخطبة عصماء عن الفساد الذي نراه اليوم وعلى مر التاريخ الذي أعقبهم..! فسألتني ببساطة كيف مات الخليفة الثاني؟ فقلت مقتولًا بطعنة خنجر؟ فسألت: والخليفة الثالث؟ فقلت مقتولًا بطعنات السيوف من أقرب الصحابة إليه، فسألت: والخليفة الرابع؟ فقلت مقتولًا بضربة سيف؟ فعقّبتْ: وحتى الخليفة الأول بعض كتب التاريخ تقول أنه مات مسمومًا؟ بينما أنت تسمى هذه الفترة بالذهبية والراشدية!!؟

وهكذا توالتْ نقاشاتنا عن الدين والتاريخ، ومنها لأول مرة سمعت بمصطلحات فكرية وفلسفية وأدبية كانت جديدة عليّ..بل سمعت بأسماء شعراء وكتّاب وفلاسفة ومفكرين من عظماء الحضارة العربية الإسلامية ومن الغربيين ومن أقصى الشرق..، منهم ابن الراوندي وأبي بكر الرازي الكبير وابن المقفع والمعتزلة والجهم بن صفوان ومعبد الجهني والحلاج وابن عربي والسهروردي المقتول الذي أدخلني سبب موته في محنة حقيقة.. حيث ألتف عليه عتاة الفقهاء ليسألوه: هل الله قادر على أن يبعث نبيًا بعد نبينا محمد، فقال لهم: إن الله على كل شيء قدير.. فقالوا لكن نبينا محمد يقول: لا نبي بعدي..! فهل تنكر الحديث النبوي؟..واتهموه بالهرطقة والكفر..! وهو سؤال وفخ كبير لكنه من جانب آخر معضلة حقيقة إذ يضع الفقهاء كلام النبي محمد فوق قدرة الله!؟. ومنها سمعت بأسماء مفكرين أوروبيين حتى كان نطق أسمائهم عليّ صعبًا..! لكن هذه اللقاءات لم تمر دون منغصات ومشاكل.

فحين أخذت حواء البزاز تتقرب مني وتعيد صياغتي من جديد توتر الجو

في بيتنا. في بداية الأمر فرح الجميع لِمَا لاحظوه من تغيرات واسترخاء في لغتي الجسدية، وظلال ابتسامة مريحة ترتسم على وجهي، بمن فيهم أبي، لكن استمرار زياراتها لأسابيع متتالية إليّ شخصيًا، وحملها الكتب، وقضاء معظم أوقات زيارتها في غرفتي أو جناحي في المبنى الخلفي من بيتنا أثار في البداية صمتًا وعدمَ رضا وتعليقات، ثم غيرةً تطورتْ إلى شكوكٍ بوجود ما يريب بيننا..!

ولم يقف الأمر في أعماق كل من في البيت وإنما سعت زوجة أبي الصغرى إلى التلميحات لأبي، الذي حاول كبتْ غِيرته، إلى أن استدعاني ذات يوم، واجتمع بي لوحدي في الصالة، وبعد لحظات إحراج وغضب مكتوم قال لي بنبرة تشي بالسرية والخطورة:

- لا أريدك أن تتواصل مع ابنة عمي حواء البزاز..؟

- لماذا؟ سألته.

- لا أريد أن أقول شيئًا سوى إنني أطلب منك ألّا تتواصل معها..! وإذا ما جاءت إليك لتنفرد بك فقل لها بأنك مشغول أو تجد أيَّ عذرٍ يحول دون انفرادها بك..!

وحينما لمح استيائي من طلبه قال لي بنبرة فيها غضب مكتوم يكاد ينفجر:

- إنها خطيرة..ستجرّك، بل ستجرنا جميعًا إلى داهية لا نجاة منها.! إنها ملحدة. وربما هي شيوعية خطيرة!..

تركتُ القراءة. أخذت أتأمل نفسي واستعيد هويتي وكأنما غشاوة انقشعت من أمام عين ذاكراتي، إذ استرجعت حياة صاخبة عشتها في نهاية ثمانينات القرن العشرين.

عدتُ للدفتر كي أواصل قراءة ما جرى، وكيف وصلتُ إلى هنا؟ وهل أنا حيٌّ أم ميت؟ فقرأت:

,,وفق ما علِمت من أختي حواء فإن أبي يكبر بنت عمه بعشرين عامًا، أي أنها حين كانت في الخامسة عشرة من العمر بينما هو كان في الخامسة والثلاثين، وهو العمر الذي يجذب بعض الفتيات المراهقات. ولا أحد يعرف ما جرى بينهما في تلك السنوات، لكن بعد عقود من الزمان، وبعد أن تزوجت حواء البزاز من زميل لها في

الوظيفة، وتزوج أبي عددًا من النساء، وولدنا نحن، أختاي وأنا، وزوجتاه، انتبهنا إلى طبيعة العلاقة بينهما وإلى غضب أبي الشديد وعصبيته لأنها تزوجت..!

أبي كائن مستبد، الكُل يعرف بأن بينه وبين ابنة عمه مودة خاصة جدًا، لكن بينهما أيضًا شيء من الحقد المُبَطّن والتحدي الغامض، مزيج من الكُره والتحدي والنرفزة والميل إلى العقاب. كان هذا الحب هو أقرب للكُرْه، فما الذي جرى بينهما وجعلهما متعلقين ببعضهما من جهة، وجعلها تتحداه كأنها تريد أن تحطم جبروته وتهينه إهانة مبطنة من جهة أخرى.. ماذا وراء ذلك من أحداث خفية نجهلها جميعًا؟

لم تكن تعلم هي بلقائي مع أبي لذا جاءت كعادتها، فأخبرتها بما دار بيني وبينه، فابتسمت لي كأنها تسمع نكتة وقالت:

- أتعرف يا آدم.. ربما إنك، بل وكلكم، تشعرون بأن والدك رجل متدين وإنه يعمل الخير ويساعد الآخرين ويوزع المال على المحتاجين، لكنه في الحقيقة ليس خيِّرًا، وإنما يسعى إلى أن يعطي الانطباع بأنه إنسان مؤمن ويفعل الخير.. إن والدك إنسان منافق يسعى إلى تعزيز مكانته الشخصية، ويسعى إلى الهيمنة، فهو منافق حتى في تواضعه، بل هو يقرّب المحتاجين منه، ويقوم باحترامهم ليس لأنه يحترمهم من أعماق نفسه وإنما هو يعرف تمامًا بأن هؤلاء البسطاء سيتحدثون عن تواضعه. كل أفعاله مزيفة.. أنا أعرفه أكثر من أي إنسان آخر، أنا أعرف وجهه الحقيقي.

أحسستُ بالإحراج من كلامها الذي يُسقِط مكانة أبي في الوحل، ويهشّم تمثاله الشامخ أمامي بكلمات بسيطة، فسألتها بتهور:

- ما الذي بينك وبين أبي..؟ أنتما قريبان من بعضكما، وهو متعلق بكِ مثل أي مراهق، ومع ذلك احس بأنكما في صراع خفي..! أنتما أقرب صديقين في آل عيون السود، ومع ذلك فكل منكما، بل أنت على التحديد تكنين في أعماقك غضبًا وحنقًا ضده..! فهو حين يسمع بأنك موجودة يترك ضيوفه وعمله ويسرع إلى البيت ليلتقي بك..! هو يسمع كلامك بل ويطيعك ومع ذلك ثمة توتر خفي بينكما..! ثمة أسرار لا يعرفها غيركما..!

كانت خلال حديثي تنظر إليّ نظرة متفحصة كأنها تقرأ ملامحي وتعبيرات

وجهي أثناء الكلام، وما إن انتهيت حتى قالت لي بنبرة جادة محايدة:

- هل انتهيت في التعبير عمّا يدور في رأسك من شكوك وخواطر؟ ولا أدري هل هي من عندياتك أم سمعتها من نساء البيت.!؟

خجلتُ أن اعترف لها بأنني فعلًا سمعت هذه الشكوك في المطبخ من زوجتيّ أبي وأختيّ..! لكني بقيت صامتًا لا أجيب. انتظرت هي للحظات ثم قالت:

- لكي لا نثير الشكوك حول اللقاءات التي تجري بيننا يفضل الآ نلتقي هنا وإنما صار عليك أن تزوني إلى البيت..! هل أنت موافق؟

- وزوجك؟

نظرت إليّ نظرة خاصة وقالت بنبرة فيها بعض التعاطف والدفء:

- هذا أمر لا يخصه، وإنما يخصنا أنا وأنت وهو متفهم جدًا. سنلتقي ثلاث مرات في الأسبوع، مرتان خلال أيام الأسبوع، وفي نهاية الأسبوع تسهر عندنا..! أنتَ لستَ غريبًا. هل أنت موافق..؟

- وهو كذلك.

وحين صارت عند الباب التفتت إليّ وقالت:

- سأنتظرك غدًا الساعة الرابعة عصرًا.

- لكنك تنهين عملك في الرابعة..؟

- سأخذ إجازة زمنية وسأنتظرك في البيت..

وخرجت.

***

في تمام الرابعة من اليوم التالي طرقتُ باب بيتها. كانت تعيش في بيت منفصل في منطقتنا التي تُعد من أحس مناطق المدينة تاريخيًا. في بيت ليس بعيدًا عن بيتنا، إذ يمكن خلال عشرة دقائق الوصول إليه مشيًا. وعلى غرار بعض البيوت ذات الطراز

المعماري الخاص فلا يمكن الدخول إلي البيت إلّا عبر بوابة حديدية وسياج يحيط بحديقة البيت الأمامية، ثم تأتي باحة صغيرة تقود عبر باب آخر إلى داخل البيت.

استقبلتني بترحاب حار. مشيت خلفها إلى أن دخلنا المبنى السكني فوجدت نفسي في صالة أنيقة. أشارت إلى أريكة عريضة وطلبت مني الجلوس. كان الارتباك واضحًا على كل منّا، لكنها كانت أكثر تحررًا في حركتها فهي بحكم عمرها، وأيضًا بحكم علاقتها بالمكان تشعر بالإنسجام مع نفسها. ويبدو إنها كانت قد هيأت كل شيء. فما هي إلا لحظات حتى ذهبت إلى المطبخ وعادت مع عربة صغيرة أشبه بالطاولة المتحركة عليها صينية فيها دورق الشاي مع الأكواب وبعض الحلوى. وصبّت لنا الشاي دون أن تسألني.

خلال ذلك تجوّلتُ بنظري في الصالون فرأيت صورة نصفية لها مع رجل آخر خمّنت إنه زوجها. تمعنت في الصورة فأدركت إنها كانت فتاة جميلة مع إنها إلى الآن تبدو امرأة مثيرة، لكن الرجل الذي معها ليس وسيمًا أبدًا، ولا يمكن تخيلهما كعاشقين أو زوج وزوجة.

انتبهتْ إليّ وأنا أنظر للصورة. فأدركتْ بأن عليها أن تقول شيئًا بصدد ذلك. نظرت إليّ وهي تصب الشاي وقالت:

- هذا زوجي آدم البزاز..

سكّتُ، فواصلت هي:

- قصتنا صعبة لا يصدّقها أحد.

- لماذا..؟

وبلا مبالاة أخذتْ ترتشف الشاي من كوبها، بينما أخذت أنا أديرُ السكرَ بالملعقة في الكوب، وأخذت تتجول بنظراتها في المكان كأنها ليست صاحبة المنزل، وقالت:

- زوجي آدم كان زميلي في الجامعة وله الفضل الكبير في تحريري من قيود الخرافات وثقل التقاليد وكوابيس الدين وأشباح ما بعد الموت..! أحببتُه في حينها..

وحبي كان من طرف واحد. كان هو يهتم بي جدًا، ويعيرني الكتبَ لقرائتها، بل كان يحرص على أن يناقشني فيها..! لكن مشاعري له كانت مزيجًا من الإعجاب والشعور بالامتنان... فمنه سمعت بأسماء كتاب ومفكرين وفلاسفة، ومع إنه كان حذرًا جدًا في ألّا يبدي أيّ رأيي سياسي معارض، بل على العكس، يبدي التأييد المحايد، لكني كنت أعرف إن ما يفكر به صراحة لهو شيء آخر... كنت أتمنى أن يفاتحني بالحب بل حتى بالجنس، لأني كنت مأخوذة به، وكنت في ذروة حماسي في الرفض والتمرد، لكنه كان مترددًا. كنت أعرف إنه يشتهيني، ولكونه يعرف أنه بطلي والرجل المثال فكريًا وأخلاقيًا، لذا كان حريصًا على أن يحافظ على هذه الصورة أكثر مما كان يريد أرواء رغبته معي... أمك، صديقتي المقربة التي كنتُ أودعها أسراري، كانت تعتقد إنني أحبه من دون وعي مني، وطلبت مني أن أصارحه بطريقة ما مِن دون أن أرعبه بالمواجهة..! لكني حين عزمت على ذلك، وقبل أن أبدأ، اختلفت الأمور..! كان هو شخصية معقدةً جدًا، طبعًا لِما عاناه عائليًا، فالحرب أكلت إثنين من أخوته، لكن العائلة لم تستلم جثتيهما، وكان لدى أحدهما طفل.. أما زوجة الآخر فكانت فتاة جميلة بلا أطفال. كان لديه أخ أصغر ضغطت العائلة عليه أن يتزوج أرملة الأخ أم الطفل، وحدث ذلك، لكن هذا الأخ الأصغر مع أنه صار أبًا لطفل ثان من زوجة أخيه، إلّا إنه أقام علاقة مع زوجة الأخ الأخرى، الأرملة التي من دون أطفال، والتي كانت بلا أهل لها لذا ظلَّت في بيت العائلة، وحدث إن حملت من الأخ الأصغر، وحدثت فضائح عائلية ومشاجرات بين الأرملتين. لكن المفاجئ والذي تعقدت الأمور بعده وقادت إلى كارثة عائلية هو ظهور زوج الأرملة أم الطفل والتي تزوجت الأخ الأصغر فتعقدت الأمور بشكل مخيف.. كانت صدمة للعائلة، فها هو الأخ العائد من الموت يرى زوجته قد تزوجت أخاه وأنجبت منه..! ولأن الزوجة جزء من الملكية الخاصة في هكذا مجتمع، وبحكم التراتبية العائلية اضطر الأخ الأصغر إلى الانفصال عن زوجته وإرجاعها إلى أخيه، وتزوج من زوجة أخيه الأرملة الأخرى التي حملت منه وأنجبت له فتاة، لكن الأمور جرت كأنها أحداث في فيلم هندي نموذجي، إذ إن زوجة الأخ الذي عاد زوجها استمرت في علاقتها الجنسية مع الأخ الأصغر، لا سيما وأن الأخ العائد من الحرب كان محطمًا نفسيًا

وعاجزًا جنسيًا. وحدثت الكارثة الأكبر حين عاد زوج الأرملة الثانية، التي كانت بلا أطفال من الأسر ووجد زوجته قد تزوجت من أخيه الأصغر وأنجبت منه فتاة..! وجرت أحداث كارثية ودرامية، بحيث دخلت الغِيرة والأعراف والتقاليد بين الأخوة وزوجاتهم، فقام الأخ الثاني العائد من الأسر بقتل زوجته السابقة وأخيه الأصغر والانتحار في الوقت نفسه.

صُدمتُ بسماع هذه الأحداث فسألت ببساطة ولا إراديًا:

- وزوجك آدم أين كان من كل هذا؟

صمتت للحظات وبدت وكأنها تتأمل الماضي وتستعيد الأحداث، ثم واصلت بنبرة محايدة وكأن الأمر قد اعتادت على روايته:

- كان قد ترك الجامعة ملتحقًا بالأنصار في الجبل.. وسافر إلى المدينة الأقرب من الجبال حيث كان عليه أن يلتقي هناك بصديق شيوعي وعده بأن يوصله إلى الجبل.. بقى لأشهر هناك ينتظر هذا الصديق.. واتضح بأن هذا الصديق قد استشهد دون أن يعرف هو..! وحدث، لكن بطريقة عجيبة، أن أُصيب بحمى غامضة وهو في فندق قديم في منطقة القلعة القديمة والشهيرة. وحين نقل إلى المستشفى، وبعد تحليل الدم ودراسة الأعراض اتضح إنه مصاب بالتهاب الكبد الوبائي، وهو مرض خطير، لكنه كان في الدرجة الأولى منه، فاضطروا إلى حجزه لأشهر خوفًا من نشر العدوى. ومع ذلك أصَرّ هو على أن يلتقي بصديقه الشهيد..! فاضطر إلى أن يهرب من المستشفى ويتخفى على الرغم من وضعه الصحي، وفي محاولة منه للسفر والانتقال إلى مدينة أخرى انفجرت سيارتهم بعد أن داست على لغم لا يعرف أحد كيف زُرع هناك؟. والغريب إن جميع الركاب ماتوا باستثنائه وسائق السيارة الذي لم يصبه شيء. بالنسبة له فقد طارت إحدى قدميه. وبعد أشهر طويلة من الرقاد في مستشفى المدينة القريبة من مكان الانفجار خرج وهو بساق واحدة ومتكئًا على عكاز.. وعاد إلى هنا.

تأثرت بالحكاية العجيبة وهذا المصير المأساوي، لكني انتبهت بأنني على الرغم من تأثري بالأحداث الغريبة التي بدتْ كفيلم سينمائي، إلاّ إنني كنت تواقًا لسماع أخبارها هي وكيف ترزوجته وما طبيعة علاقتهما.

- وأنتِ؟ ألم تعرفي بكل هذا؟ ألم يودِّعَك حين ترك الجامعة؟ سألت باهتمام.

- لا.. لقد اختفى فجأة.. كانت سنوات سوداء مظلمة ومخيفة لا يتجرأ أحد أن يسأل عن أحد، لا سيما ممن في ظلال الشبهات..!

فقاطعتها وفي داخلي يتنامى شعور بالغيرة عليها:

- وكيف التقيتما مجددًا؟

ويبدو أنها انتبهت لأحاسيس الغيرة والاهتمام، فنظرت إليّ متفرسة، ثم واصلت:

- ذات أصيل كنت عائدة من أحد متاجر الملابس في منطقتنا، فرأيت رجلًا عند زاوية فرع ضيق. كان في وضع حرج.. وانتبهت إلى إنه بساق واحدة. أردت مساعدته، وحين اقتربت منه لأعرض عليه مساعدتي عرفته مباشرة..! إذ لا يمكن لامرأة أن تنسى وجه رجل أحبته. ويبدو إنه عرفني أيضًا. لا أطيل عليك.. أخذته مباشرة إلى مستشفى مدينة الطب. وبالمناسبة.. اتصلت بأبيك في حينها، فقام بالواجب حقًا. فأنت تعرف إنه يهب بكل حماس لتلبية أي شيء أطلبه منه.. وطبعًا من خلال علاقاته أمّنّا له غرفة وعلاجًا وحصلنا له على رجل اصطناعية سويدية، فقد كانت البلاد تستورد مئات الألوف منها لأننا كنا نخوض حربًا في تلك الفترة..! هل أنا مجنونة أم لا؟ لا أعرف.. فقد استفاقت مشاعري فجأة، ووجدت نفسي أمام التزام أخلاقي لا سيما بعد أن قصّ عليّ كل تفاصيل ما جرى له ولعائلته..ولا أدري ما الذي أردت أن أثبته لنفسي؟ هل أردت أن ألعب دورًا بطوليًا أجسد فيه اسمى مشاعر الالتزام والحب والتضحية؟ وفاتحت والدك بأنني سأتزوج آدم البزاز..!

صُدِمتُ وأعجبني وضوحها ووضع احتمالات دافعها للزواج من رجل مريض مرضًا خطيرًا وهو بساق واحدة.. لكن في خضم هذا توقفت من جملتها بمفاتحتها والدي في أمر زواجها وليس أي شخص آخر، فسألت:

- والدي؟ ولماذا والدي بالذات؟

نظرت إليّ بارتباك وقالت:

- هذه قصة أخرى..المهم هو غضب بل أخذ يصرخ بي بأنني مجنونة وأنانية،

أفكر بنفسي فقط، وبأني أريد أن يشار لي بالبنان ويتردد اسمي في المجالس بأني الإنسانة المضحية العظيمة؟ وقال لي حينها بأنه يعارض ذلك ولن يساعدني في مواجهة أهلي وأعمامي وكل آل عيون السود... لكن بعد أن توسلت إليه رقّ لحالي ووافق وساعدني، لا سيما بعد أن أكّدت له بأنه زواج شكلي لا يمكن أن تكون فيه أية علاقة جنسية فهو مريض، ومرضه خطير..! وطبعًا هذا لا يعرف به سوى والدك.. وأنت الآن تعرف ذلك.. وبالمناسبة هو لن يعمّر طويلًا.. مسألة أشهر أو سنة، إلّا إذا أخذته إلى أوروبا..!

صُدمتُ بهذا الكم من المعلومات والأحداث الدرامية. وعلى الرغم من عمري العشريني بدوتُ كطفلٍ كسيح أمام هذه الحياة وقساوتها ووجوهها البشعة. ووجدتني أسألها:

- ولماذا لا تأخذينه إلى أوروبا؟

نظرت إليّ بإمعان وأجابتني بسؤال كان نقلة في حياتي:

- من الصعب الحصول له على جواز سفر وتصريح بمغادرة البلاد لماضيه السياسي، لكن لماذا لا تذهب أنت إلى أوروبا لتعيش، وتكون نفسك وتعيد بناء حياتك؟

مفاجأة لم أتوقعها ولم تخطر ببالي قط:

- أنا؟

- نعم أنت.. قالت بهدوء وثقة.

- ولكن.. قلت مرتبكًا.

فقالت من دون أن تترك لي محاولة التبرير:

- بدون لكن.. مع أن ظروف السفر صعبة لكن والدك يستطيع من خلال علاقاته أن يحصل لك على الموافقات بالسماح لك على مغادرة البلاد ويضمن لك التأشيرات أيضًا.. عليك أن تسافر وسأكلمه أنا أيضًا وألح عليه..!

جملة واحدة.. جملة واحدة فقط "ولماذا لا تذهب أنت إلى أوروبا لتعيش، وتُكَوِّن نفسك وتعيد بناء حياتك" غيّرتْ أفق حياتي ووجدتني تحت سماء أخرى.

صِرتُ التقيها في بيتها. أتغيب عن بيتنا بحجة الذهاب للترويح عن نفسي، أو أختلق محاضرات مسائية غير موجودة. ربما فاتني الذكر بأن أبي شجعني على الجلوس في البيت وعدم مواصلة الدراسة الجامعية بحجة أننا أثرياء وأنني ابنه الوحيد فلِمَ أتعب نفسي وأوجع رأسي بالدراسة..! لكني منذ تقربي إلى حواء البزاز شجعتني على مواصلة دراستي الجامعية في جامعة مسائية خاصة، وهذا ما صار على الرغم من عدم رضا والدي لكنها أقنعته بالحجة الدامغة بعد اتهامه بأنه يحطم مستقبلي بهذا التصرف..! وبدأت تساعدني في البحث عن جامعات ومراسلتها، وأبي من جانبه أخذ يتحرك ضمن علاقاته القوية.

تكررت زياراتي لها بحيث صرت كأني أحد أفراد العائلة، بل وتعرفت على زوجها وعلى أسرار هذه العائلة وطبيعة علاقتهما الزوجية لا سيما بعدما لاحظت أنهما ينامان في غرفتين منفصلتين وليس في غرفة واحدة كمعظم الأزواج..! وطبعًا أدركت إن الأمر له علاقة بمرضه الخطير.

كانت علاقتهما فيها الكثير من الاحترام والرقّة. وكان شلله واضحًا على الرغم من وجود ساق اصطناعية يستند عليها في المشي، لكن الإصفرار في بياض عينية كان مخيفًا.

وذات مساء، وفي وقت لم يكن متأخرًا، نهض عن مكانه المخصص في الصالة وودعنا بنبرة فيها ما يشبه الاعتذار والتعب الواضح قائلًا:

- أعتذر.. أحس برغبة قوية في الاستلقاء بغرفتي كما عليّ أن آخذ أدويتي..

فقلت له مرتبكًا:

- خذ راحتك أنا سأذهب أيضًا..

فقاطعتني زوجته وهي توجه الكلام له أيضًا:

- لا. لا. أبق.. أحتاجك في أمر مهم.. (وتوجهت لزوجها قائلة) هل تريد شيئًا أحمله

إلى غرفتك؟ في كل الأحوال أنا موجودة هنا، وإذا غادر آدم فسأكون في غرفتي..!

- لا أعتقد إنني أحتاج شيئًا .. أريد أن أتناول أدويتي وأنام.. أنام بعمق..

وترك الصالة.

وطبعًا لم يكن لديها ما تحتاجه مني فعلًا سوى رغبتها ألا تكون وحيدة.

***

أحيانًا تمر بنا لحظات مجنونة، متهورة، لا نحسب لها الحسبان، مثلها مثل طلقة نطلقها فإما تخطئ أو تصيب، وهذا ما حدث..! إذ وجدتني ذات زيارة أسألها بتهور:

- ثمة سؤال يحيرني..

- ما هو..؟ قل ولا تتردد.. قالت لي بنبرة مشجعة فعلًا.

- ما هي علاقتكِ بأبي..؟ لا تقولي لي إنه ابن عمك فهذا أعرفه.. لكن ما الذي بينكما.. فهو لا يستمع إلا لكِ ولا يحسب حسابًا لأحد إلا لكِ ولا أعتقد أنه يحب أحدًا سواك..!

صمتت. فوجئَت بصراحتي وبسؤالي. خفضت عينيها وأسبلت جفنيها كأنها كانت تنظر لأعماقها أحسست أنها محرجة أو أنها تصارع نفسها كي لا تبوح بالسر!!. لكنها أخيرًا قررت ذلك، ويا ليتها لم تبح بسر تلك العلاقة التي أفقدتني كل صلتي بما كنت عليه..!

نظرت إلي وقالت:

- أنت فاجأتني بهذا السؤال؟ لكني واضحة مع نفسي..لكن الوضوح لا يعني القوة بالضرورة..! فأحيانًا أعاني كثيرًا من أجل أن أقول شيئًا حقيقيًا وواضحًا بنبرة طبيعية..! لذا أصطنع القوة فألبس خوذة المحارب وانطلق في حديثي الجريء والحقيقي كما ينطلق المحارب إلى الميدان.. فمن يراني لا يدرك ما عانيته أو أعانيه من أجل قول الحقيقة! كما أن البعض يراني قوية وصلبة ومتسلطة، بل وعادلة بحيث أطلب من الآخرين أن يعبّروا عن أنفسهم بوضوح وقوة وأن يكونوا مثلي، لكنني في الحقيقة أعرف صعوبة ذلك، بل ولا أريدهم أن يكونوا كذلك، لأنني

أريد أن أكون المتفردة، وأن تبقى نظرة الانبهار والإعجاب وحتى الحسد بأنني القوية والجريئة في قول الحقيقة بوضوح.. نعم هذه أنا.. أنا المصابة بأرق أبدي مخيف..! لذا سألبس خوذتي الآن وأنزل لميدانك كي أقول الحقيقة بوضوح، لكن عليك تقبلها وتحمل ثقلها..!

نظرت إليّ كأنها تنتظر مني جوابًا، لكني كنت كمن فقد القدرة على الكلام..، فواصلت هي:

- الحرية مخيفة..الكل ينادي بها، لكنها مخيفة حقًا..فأحيانًا تكون الحرية دربًا نحو المجهول.. مثل قفزة في الفراغ..رحلة نحو كوكب الوحشة والعزلة النفسية..! وأحيانًا تكون ولادة جديدة.. حياة ليست كما تلك التي نسميّها: الحياة..! وكثيرًا ما تكون الحرية أكثر من حياة..! ومع ذلك هناك بعض البشر يخاف الحرية ويهرب منها إلى كهوفه المظلمة، بل ويخاف وجهها السافر لذا يرى هذا البعض أنها الانحلال والفجور والفسق..لكن الحرية نور..لذا ارتبطت بالفجر والصباح والنهار والشمس.. فليس للحرية ليل ومن عشقها تجسَّدت له بجمال المرأة وبالثورة والمشاعل والرايات الحمراء كما في لوحة ديلاكروا... وكذا الحقيقة.. الحقيقة أحيانًا تكون مثل دوامة هائلة تبتلعك وتقودك إلى الأعماق المظلمة، نحو عالم الغرقى الغامض وتكشف لك خديعة عالمك..! لكنها مع ذلك تكون هي أحيانًا في أعماقك أكثر ثباتًا واستقرارًا من واقعك..! وقبل أن أقول شيئًا أحاول أن أتحصن بهذا الكلام عن الحرية والحقيقة.. عسى يمكنني أن أقول الحقيقة.. حقيقة علاقتي بأبيك..

- أية حقيقة..؟

تمتمت لا إراديًا وكأني شعرت بوقع تلك الكلمات في مواجهتي لحقيقة جريمتي في مقتل أمي..! لكني كنت أعرف أنها تعني حقيقة علاقتها بأبي. وفجأة أطلقت غراب أسرارها:

- أنا عشيقة والدك..!

لم أشعر وكأني سمعت جيدًا مع أني حقًا قد سمعت الجملة بوضوح، لذا سألت وكأني أريد سماع ذلك مجددًا:

- ماذا..؟

- مثلما سمعت.. أنا عشيقة والدك..صحيح هو ابن عمي..وأكبر مني بعشرين عامًا..لكني صرت عشيقته.. أحببته.. هو ليس حبًا.. أنا نفسي ومنذ أكثر من ربع قرن أحاول أن أفسِّر طبيعة علاقتي به ولم أصل إلى يقين في ذلك..!

- لم أفهم..!

أحسّت بأن عليها أن تفسّر وتشرح لي فهي مكتظة بالمعلومات والأفكار والمشاعر التي تخص تلك العلاقة التي لا أعرف عنها سوى جملة صادمة..! لذلك بدأتْ بإطلاق أسراب الغربان.. غربان الأسرار، فقالت:

- كان والدك رجلًا وسيمًا، ثريًا، مُهَابًا. وكان يزورنا كثيرًا.. أذكره منذ أن كنت طفلة.. لكن كان لديّ شك بأنه على علاقة مع أمي. ولأكُن أكثر دقة كانت أمي شابة في منتصف العشرينات بينما أبي، عم والدك، في منتصف الخمسينات، أي أكبر من أمي بثلاثين عامًا. كنت حينها في الخامسة، أي إن والدك كان بعمر والدتي، وهذا ما قرّب بينهما نفسيًا وعاطفيًا. لكني لا أذكر إنني رأيتهما في موقف مريب وفاضح، سوى مرة حين كنت في الخامسة حينما سهر عندنا ذات ليلة، وكنّا على السطح ليلًا، وكان وجود والدك لا يثير أية ريبة وحساسية وشك، بل على العكس، فلأن والدي لا يتواجد في البيت دائمًا فكان أحيانًا يطلب هو من أبيك أن يسهر معنا.. وفي ليلة صيف، وفي العتمة.. كنت متمددة على فراشي بينما هما يجلسان على أريكة مخصصة لقضاء الأماسي على السطح، وأمامهما طاولة صغيرة عليها صحن فيه عنب وصحن أكبر فيه بطيخ أحمر..وكانا يتحدثان بأشياء تخص العائلة وذكريات أخرى.. كانا يظنان إنني نائمة لكن نظري كان حادًا في الظلمة، إذ رأيت والدك يمسك كفها وهي بدورها مسكت كفه، ويحني رأسه ويقبلها، ثم رفع كفيهما ووضعهما في حجرها وأخذ يداعب ما بين فخذيها، وسمعت لهاثًا ثم تم كتم ذلك اللهاث، ومرت لحظات صمت طويل..! لحظتها خفت فرفعت رأسي وطلبت ماء ففزا وارتبكا. ومن حينها أحسست بأن بينهما شيئً ما. ولم أفهم شيئًا ولماذا كانت أمي تلهث. لكنهما صارا أكثر حذرًا أمامي. وانتبهت إلى أن أمي كانت تنظر لي أحيانًا

نظرات خاصة كأنها تدرسني. لكني تعلقت بأبيك كثيرًا فهو يداعبني ويلعب معي ويحمل لي الحلوى ويضعني في حجره. لكن في عمر التاسعة رأيتهما وهي تودعه عند الباب، فأخذ وجهها بين كفيه وقبلها من فمها بشبق، بينما ألقت هي بنفسها بين أحضانه بشوق، ورأيته يفتح حزام بنطاله.. تقرفصت أمي جالسة أمامه وأدخلت شيئًا ما في فمها..وبعد دقائق قليلة جدًا أوقفها، ثم أدارها إلى الحائط وأحنى جذعها ورفع ثوبها والتحم بها..صُدمت..فهربت من الموقف..! لكن من كل ذلك المشهد لم يثر انتباهي سوى القبلة من الفم..!.

وفي يوم من الأيام، بينما كانت أمي تساعد أبي في أمر ما بغرفة النوم كان والدك يمزح معي ببراءة.. كنت بين أحضانه فألقيت بنفسي عليه وقبلته من فمه.. صدّني مرعوبًا.. خفتُ حينها.. أدركتُ أنني قمت بفعل غير مقبول. ظلَّ ينظر إليّ بتمعن وتفرّس لدقائق وكأن كان يدرسني إن كنت أعي ما فعلت أم لا..ثم قال لي: "لن أخبر أحدًا..لكن لا تكرري ذلك..اتفقنا"..فطأطأت رأسي لكني وقبل أن أذهب، قلت له بشيطنة الطفولة: "لماذا فعلت ذلك مع أمي إذن؟".. فشحب لونه حينها وخاف وغادر بيتنا ولم يظهر ليومين متتاليين..!

ومع إني كنت صبية في التاسعة لكني كنت متعلقة به ربما أكثر من أمي..بل هل تصدقني إذا ما قلت بأنني في التاسعة كنت أشعر نحوه برغبة جنسية..!؟ وبعد فترة من تلك المواجهة الأولى بيننا تزوج والدك زوجته الأولى وبدأ في التجارة والاستثمارات والسفر إلى البلدان المجاورة.. ويبدو إن أمي تحطّمتْ نفسيًا بعد زواجه وابتعاده ومن غيرتها عليه صادقت زوجته الأولى وصارت تبحث عن أية حجة كي تزورهما وكانت تكتفي برؤيته حين تزورهم ويكون موجودًا..!

ومرتْ السنوات.. كنت قد انشغلت عنه بمغامرات المراهقة وعشق الممثلين ونجوم السينما، لكنه كان يتفوق عليهم جمالًا ورجولة.. وحصل إن كنت في الرابعة عشرة من عمري حين تعرضتْ أمي لمرض خطير في العظام لم يمهلها سوى أشهرٍ قليلة جدًا تعذبت فيها من أوجاع لا يطيقها البشر ورحلتْ عنا.. ولأن والدك كان قريبًا منّا، على خلاف علاقتنا ببقية أعمامنا من آل عيون السود، فقد زارنا..وكان

لقاء بعد سنوات.. كنت امرأة البيت بعد رحيل أمي.. وانتبهت إلى إنه كان يتابعني بنظراته، بل كان يلتهمني..!

وصار يتردد على دارنا أكثر.. وعرفتُ بغريزتي الأنثوية إنه معجبٌ بي الآن، وأنه يزورنا من أجل أن يراني.وقد أسعدني ذلك. وكلما ابتعدنا عن فترة المأتم والأربعين كلما إزداد اهتمامي به..ووجدت نفسي أغرق في حبه..لكن هذه المرة ليس من طرف واحد وإنما من الطرفين..! واستمرت الأيام والأشهر، بينما النظرات الخاصة المليئة بالكلام والأحاديث التي تخص حياتي وتفاصيلها..بل كان يقتنص عدم وجود والدي ليزورني صباحًا.. كان يتصرف مثل أي مراهق..! وذات يوم دخل عليَّ في المطبخ وبسرعة احتضنني من الخلف وأخذ يقبل رقبتي وشعري ويده تعصر صدري وهو يقول لي بأنه لم يعد يستطيع أن يتحمل أكثر.. كنت ذائبة في مشاعري المتأججة واستجبت له وأخذ يقبلني وأخذني إلى غرفة نومي.. وعرفت طعم الجنس ولذة الرجل وارتعاشة الأنوثة.. لكن والحق يقال لم يفضني مع إنني في لحظات الشبق كنت أقول له: „أدخله”، وأبدي استعدادي لذلك، لكنه كان يغضب مني.. وأحيانًا يتوقف عن الاستمرار في الممارسة معي.وحين صرتُ في الخامسة عشرة عامًا.. وفي إحدى المرات لم يسيطر على نفسه وفضني. ومنذ ذلك الحين أقسمت على نفسي أن أكون له وحده.. وهذا ما حدث..لقد رفضتُ الكثير ممن تقدموا إليّ بمن فيهم أحد أبناء عمومتي.وكنت معه حين طلَّق زوجته الأولى وتزوج الثانية التي ماتت بنفس المرض الذي أصاب أمي.. سرطان العظام.. وتزوج أمك وكانت إنسانة رائعة وصديقتي..! ثم تزوج ابنة صديقه الصبية وأرجعَ زوجته الأولى.. وهكذا.! لذا حين أردت إسكات أفواه العائلة بسبب تأخري في الزواج فكرت بصديقي آدم البزاز، وحملت اسمه. عارض في البداية لكنه أدرك بأن هذا الأمر أفضل لكلينا.

***

كنتُ منذهلًا وكأني اسمع شيئًا لا استوعبه، بل وجدت نفسي مغفلًا ، لأنني كنت انظر لأبي كمقدس، وتبعته كالأعمى لأقتل أمي البريئة، بينما هو كان يمارس الجنس

مع فتاة قاصر وفضَّها، وعاش معها كعشيق وزوج. وشعرت نحو حواء البزاز بنظرة فيها شيء من الغضب المكتوم المشوب برغبة جنسية غامضة.. وأدركتْ أنها أيضًا كانت مقنعة على الرغم من حديثها عن الحقيقة وعن لبس الخوذة.. وراودني سؤال: لِمَ لم تلبس هي خوذتها طوال تلك السنين بينما أطلقت غربان أسرارها من المغارة المظلمة الآن ولي فقط..؟ أتريد أن تقوم بدورها معي كما قام أبي بدوره معها.؟!

ووجدتني غريبًا عن هذه العائلة.. لذا غادرتْ المنزل من دون أن أعلّق على كلامها شيئًا.. صُدمتْ هي من صمتي.. وفي تلك الليلة لم أرجع إلى البيت وإنما أردتُ الاختفاء فاستأجرت غرفة في فندق اسمه ,,فندق باب السماء".

وبعد أيام عدت إلى البيت. رأيت الدنيا قد انقلبتْ. أبي وأعمامي يفتشون عني.. ومع كل علاقاتهم بالمسؤولين والجهات الأمنية لكنهم لم يجدوني في هذا الفندق.. بل لم يعرفوا بوجود هذا الفندق..؟ أبي كان غاضبًا جدًا، لكن ما إن رآني حتى اختفى غضبه.. فالمهم بالنسبة له هو أنني حي بلحمي وشحمي أمامه.

وخلال أيام كنت قد أنهيت كل ما يتعلق بسفري. ويبدو أن حواء البزاز أخبرت أبي بأنني أعرف سرّ علاقتهما. لكنه لم يناقشني أبدًا عن ذلك بل بدا خجلًا نوعا ما.. ومنحني مبلغًا محترمًا، بل ورافقني إلى بلد مجاور، ومن هناك توجهت إلى فيينا.

***

عشتُ في فيّنا أجمل الأيام. تعرفتُ على مختلف الناس والقوميات والثقافات.. واحتجت لفترة كي اندمج في ذلك المجتمع.. اتقنتُ اللغة الألمانية بلهجتها النمساوية، ومع ذلك لم يكن سهلًا عليّ التواصل مع والدي. وانفقت كل ما لدي.. فالمبلغ الذي منحني إياه والدي كبير جدًا في بلادنا، لكنه مبلغ غير كبير هنا في هذه البلاد.. ولأني لم أعمل في حياتي لذا عانيت من وضعي ووضع إقامتي، إلى أن نصحني البعض من الأصدقاء الأجانب الذين تعرفت عليهم في فيّنا بأن أقدم على طلب اللجوء السياسي، وهذا ما حصل.

لم أكن سياسيًا، لكن أصدقائي نصحوني بالمشاركة في المظاهرات التي تنظم

ضد السلطة والحكومة في بلادي، وأن أحرص على التقاط صور فوتوغرافية لي واسلمها للمحامي كي يثبتْ أمام المحاكم النمساوية بأنني معارض سياسي وأنه بعد التقاط هذه الصور صار من الصعب عليّ الرجوع إلى بلادي وإنني استحق قرار اللجوء السياسي..! وحصلت فعلًا على اللجوء السياسي وعرفت جانبًا من مهزلة السياسة..!

لكن حدثَ أن تعرضتُ لإلتهاب الزائدة الدودية فنُقلت إلى المستشفى. وحدث إن تعرفت على ممرضة نمساوية تكبرني بستة عشرة عامًا. وخلال أيام تواجدي في المستشفى توطدت علاقتنا، وأخذنا نتواصل بعدما تعافيت وخرجت. وأخذتْ تدعوني لبيتها. وصارتْ عشيقتي. تعلقت بها لأن لديها عينا أمي. أحببتها وعشت معا سنينًا طويلة. لكن الغريب لم يحصل لنا أطفال، فمع إنها سليمة من الناحية الطبية وكذلك أنا، لكننا لم نستطع أن ننجب.. وحصلتُ بعد سنوات على الجنسية النمساوية، ولكي ألغي تاريخي الأسود مع آل عيون السود أخذت لقبها.. أنا آدم غراس.. آدم «العشب»..!

ومرت السنوات.. وذات عام تابعت كيف أن الجيوش الأجنبية قد احتلت بلادي واسقطت نظامه، لكني لم أعد لزيارة أهلي، بيد أننا أخذنا نتواصل هاتفيًا، وفيما بعد عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

لم أتواصل مع حواء البزاز، وإنما بشكل نادر جدًا مع أختي حواء، وعرفت منها بأن آدم البزاز زوج بنت عم والدي قد توفي، وأن حواء البزاز، مع الأسف، انتقلت إليها عدوى المرض بدرجة أشد وأخطر، وحين عبّرت لأختي عن رغبتي في الحديث معها، قالت لي بأنها مريضة ولا قدرة لها على الكلام. لكن اليوم أفقت نهارًا وبي شوق غريب لبلادي.

***

البارحة، في المنام، راودني حلم، كأني قد متُّ في حادث اصطدام ونحن في طريقنا إلى المطار حيث أرادت زوجتي إيفا ماريا أن توصلني كي أزور بلادي. وإنني في المستشفى التقيت زوجتي أيضا، وقادتني إلى صالة حفظ الجثث فرأيت جثتينا، جثتها وجثتي أيضا..! شيء من اللامعقول.

سمعت رنين الموبايل. لم يكن قريبًا مني بل وضعته في المبطخ وأوصلته بقابس الشحن. ذهبت إليه. وحين ضغطت على زر استقبال المكالمة جاء صوت أختي.. سألتها عن الجميع.. وحين وصلت إلى حواء البزاز سكتت، فألححتُ عليها، فقالت بصوت حزين:

- حواء البزاز ماتت منذ شهور طوال ولم نخبرك..

قطعت الاتصال. ووجدت نفسي في ذلك المشهد حينما باحتْ لي بكل أسرارها. اتصلت بزوجتي إيفا ماريا غراس وأخبرتها بضرورة سفري وشرحت لها الموقف فتفهمته، وقامت هي بحجز التذاكر.. وفي اليوم التالي توجهنا إلى المطار. لم أخبرها بالكوابيس التي رأيتها. مثلما لم أخبر أهلي بأنني في طريقي إليهم. لكن حدث الذي حدث في طريق المطار.

ومع ذلك وجدت نفسي في مدينتي حيث ولدت. وبعدما وصلتُ توجهت إلى الفندق الذي سكنتُ فيه ليلة مغادرتي لبيت حواء البزاز.. „فندق باب السماء". لكن هذه المرة سكنته باسم آدم غراس وبجواز سفر نمساوي.

لا أدري لِمَ تجنبتُ مواجهة أهلي، لا سيما أبي على الرغم من شوقي إليه، ربما تجنبا للحديث عن حواء البزاز، أو عن مقتل أمي، فقد صرت قادرًا على مواجهة الأمر. لكني اتصلت بأختي وطلبت منها إبقاء أمر وصولي سرًا بيننا. لم توافق لكني أقنعتها بأني أحتاج لبعض الوقت كي تستقر نفسيتي لمواجهة ولقاء الجميع.

قابلتها مرة، وكان لقاء دراميًا عاطفيًا. التقيتها في مطعم شهير بمنطقتنا، وبعد الأحضان والقُبَل والدموع، هدأتْ مشاعرنا. كانت منبهرة بالتغير الذي طرأ على شكلي، فقد غادرت وأنا في العشرين وعدت وأنا رجل ناضج في الأربعين.

لم أسألها عن نفسها، وكذا لم اسأل عن أختي الأخرى، لكني سألتها بالتفصيل عن موت حواء البزاز، وطلبت منها أن تذهب معي لزيارة قبر أمي. والغريب إنها أخبرتني بأن لا أحد يعرف سابقًا مكان قبر أمي، واتضح إن حواء البزاز هي الوحيدة التي كانت تعرفه وتزوره بين فترة وأخرى منذ سنوات، وأنها اشترت قطعة أرض مجاورة، حيث دفنت زوجها وطلبت دفنها هناك أيضًا.. وقد أخبرتهم حين

دفنتْ زوجها بأن القبر المجاور هو لحواء الأخضر، أمي، أو حواء المغدورة كما كانتْ تسميها.

أعطتني العنوان ودليل الوصول إلى حفّار القبور الذي يعرف تلك القبور وأماكنها. ووعدتها بأني حين عودتي سأزور العائلة، وأني قبل رجوعي إلى النمسا سأترك لديها دفتر يومياتي وبوحي لتحتفظ به لديها..

وسافرتُ إلى المدينة التي تضم أكبر مقبرة في البلاد. وزرت قبر أمي وقبر حواء البزاز وزوجها.

كان الوقت ظهرًا. شعرت بدوار وانخفاض في ضغطي، وكاد يغمى عليّ في المقبرة.. اضطررت إلى أن أذهب إلى فندق قريب في الشارع المواجه للمقبرة التي صارت جزءًا من المدينة. نمتُ بضع ساعات. ثم أستأجرت تاكسيًا إلى مدينتي. لكن الليل أخذ يرخي سدوله.

وفي منطقة تُعد على مشارف مدينتي أوقفتنا دورية مريبة. طلبوا منا النزول. نزلنا، وفجأة غرقنا في الظلام.

فجرًا صحوت على محاولات صاحبي وهو يحاول أن يصحّيني من غيبوبتي. فتحت عينيّ فوجدت نفسي جالسًا على الأرض ومتكئًا بظهري على السيارة. الدم قد بلل قميصي، وثمة خسف في صدري. كنت أحس بالوجع مع كل شهيق وزفير، بينما السائق مدمى الوجه مخسوف الأنف. ولم استوعب لحظتها أين أنا وما جرى.

بعد فترة لا أعرف كم امتدت عدنا لوعينا بشكل ملحوظ، وعرفتُ أننا توقفنا، ليس بسبب أوهام سيطرة غامضة أوقفتنا، وإنما السائق لم ينتبه فصدم بقرة تائهة كانت تعبر الشارع في ذلك الليل.

حالتي كانت سيئة، كنت أحس بآلام في صدري. السائق قال لي بأن علينا الذهاب إلى المستشفى، لكني طلبت منه أن يأخذني إلى فندق „باب السماء".

حين وصلت الفندق كان الوقت لا يزال فجرًا، لكنه فجر قد ودّع العتمة، فصار ينتمي للنهار. وحين صرتُ عند مكتب الاستقبال لم أجد أحدًا. كنت أحس بألم شديد

في صدري، ربما كنت أعاني من نزف داخلي، لذا أخذت بنفسي المفتاح من صندوق حفظ المفاتيح على جدار مكتب الاستقبال. وذهبت إلى غرفتي وأنا بالكاد أمشي من شدة الألم. فتحت باب غرفتي وألقيت بنفسي على سريري وغبت في اللا شيء.

***

أفقت على ضجيج المنظِّفات في ممر الفندق. كنّ يتضاحكن من نزلاء الفندق الموتى..! خُيل إليّ إنني مشوش الذهن ولم أدرك ما قِيل بشكله الصحيح. كان لديّ صداع ثقيل. أردتُّ القيام عن سريري فشعرت بألم كبير في فقرات قفصي الصدري. لم أستطع من شدة الألم أن أتحرك بل أنهدّ جسدي مرة أخرى على فراشي. وغبتُ في اللا شيء..

فجأة، وجدت نفسي قد متّ. أدركتُ حقيقة موتي..وكنت ما أزال مسجى في تابوتي حينما دخلت امرأة ارتعش لها قلبي الميت وغمرني ندم وخجل روحاني، بينما هي أدركت كل شيء فابتسمت لي بطيبة وحزن وعتاب. كانت أمي.

وتحركت في تابوتي. وشعرت بألم كبير. فتحت عيني، انتبهت إلى إنني في سريري بالفندق. ولم تمض سوى لحظات حتى طرقَ البابَ فتى مراهق يعمل نهارًا في مكتب استقبال الفندق، كان الباب شبه مفتوح، فكما يبدو أنني حين دخلت الغرفة فجرًا لم أغلق الباب خلفي بالمفتاح. ومن عند فتحة الباب قال لي الفتى بأن هناك امرأة تطلبني على تليفون الفندق وتقول إنها أختي.

حين كنت في مكتبْ الاستقبال جاءني صوتها قلقًا وهي تسأل عن زيارتي لقبر أمي وقبر حواء البزاز وعاتبتني لعدم اتصالي بها لأخبرها برجوعي، فقلت لها بشكل مقتضب بأننا تعرضنا لحادث اصطدام، فزاد قلقها لكني هدأتها وطلبت منها أن نلتقي فقالت لي ليس من السهل عليها الخروج، لكنها وافقت إن كان المكان قريبًا لأنها يمكن ان تخرج بحجة شراء ملابس وكماليات نسوية من المحلات القريبة بالمنطقة، لذا طلبت منها أن نلتقي في مقهى قريب بمنطقتها بحيث لا تضيّع وقتها بالمجيء إلى المنطقة حيث يقع فندق ,,باب السماء".

كان الموعد قريبًا، لذا لم أحتج سوى الطلب من عامل الفندق أن يأتي بكوب من الشاي الثقيل. ورتبتُ وضعي ونظفت نفسي من آثار الاصطدام. وخرجت حاملًا معي دفتري.

ومع إني أخذت تاكسيًا خاصًا ليوصلني إلى المكان إلا إنني بالكاد وصلت في الوقت المحدد. رأيتها تنتظرني. في حينها كانت منشغلة تنظر إلى الجهة الأخرى حيث كانت تتوقع أن آتي منها، لكن السائق جاء بي من خلال طريق آخر، فرأيت كيف إن بعض الشبان كانوا يلتفتون إليها وينظرون إليها بشبق، وبينما أنا أنزل من السيارة سمعت أحدهم يتغزل بمؤخرتها. ويبدو إن حياتي في النمسا قد هذبت مشاعري وغضبي، لأني لم أعط الأمر أهمية خاصة باعتباره يخص شرف العائلة.. فقد شبعت سجنًا وكوابيسًا من هذا الشرف..!

وجلسنا في مقهى قريب وأنيق هناك. حين جاء النادل طلبت أنا عصير ليمون بالنعناع، فسألني عما تود المدام أن تشرب.!؟ ابتسمت، لأنه ظنها زوجتي، فسألتها عما تود أن تشرب فطلبتْ هي عصير برتقال.

رويت لها ما جرى معي فقلقتْ جدًا وطلبت أن نقوم فورًا كي نذهب إلى الطبيب فلربما صار معي نزيف داخلي من دون أن انتبه أو كسر في الضلوع، أو ارتجاج في المخ؟ هدّأتها، واعتذرت إلى إنني بحكم الظروف التي عشتها كنت منغلقًا على نفسي، وإني أدين بالفضل لحواء البزاز لأنها أعادت صياغة شخصيتي وواجهتني بجريمتي، وأعادت تثقيفي، وخلصتني من كوابيس عذاب القبر..! لذا لم انتبه لمشاكلهما هي وأختي الأخرى، وكذا زوجتا أبي..!

فقالتْ لي إنها كانت تتمنى أن احتضنهما باعتباري الأخ الوحيد لهما، وأن أقف إلى جانبهما واستمع لهمومها، فلكل منهما قصة موجعة وأسرار لا يمكنهما أن يبوحا بها لأحد.. لكنهما كانتا على استعداد أن يقصا له كل ما كانتا أن تعانياه..!

فقلت لها أود أن تحكي لي كل شيء..ومع إنها ارتبكت لكن عينيها التمعتا، ونظرت في وجهي مركزة وقالت:

- هل تريد أن تعرف ما مررنا به فعلًا أم تريد أن تطيب خاطري وتجاملني..؟

فقلت لها بحماس:

- على العكس.. أنا فعلًا أود أن استمع لك..

- ربما ما يشجعني على أن أبوح لك بكل شيء هو إنك بعيد عنّا منذ عشرين عامًا وكنت في أوروبا كل هذه السنوات وبالتالي غيرك ذلك المجتمع وجعلك رجلًا مختلفًا، وربما متفهمًا بعض ما هو مستهجن في مجتمعنا من سلوك.. ولذلك لا أشعر بالتردد للبوح لك.. إذن اسمع حكايتي بل حكاياتنا..!

الدفتر الثاني
وقائع حياة يومية عادية.. عادية جدًا

(٢)
كوابيس حواء آل عيون السود

- أنت تعرف أنك كنت الابن المدلل، وفخر العائلة، مع أنك، ولا تزعل مني، قد اقترفتَ جريمة بشعةً بحق من حملتكَ في بطنها لتسع شهور طويلة، وسهرت الليالي طوال السنين وأنت طفل رضيع وصبيٌّ يافع.. لكن أبي المستبد وأعمامي الجبناء من آل عيون السود دفعوكَ لذلك، ولا أريد هنا أن أدينك أو أُعاتبك، فنحن أيضا كنّا موهومين وساهمنا في نقل الإشاعات عن أمك.. لكن هذا هو قَدَر المرأة مع الأسف..!

المهم.. وضعك الخاص عند أبي، لا سيما سجنك لسنتين وخروجك من السجن، وعزلتك في مبناك الخاص الذي بناه أبي لك لتسكنه منفردًا، والسيارة الجديدة الفارهة، ووضعك النفسي المتعالي علينا، وهيمنة الدين عليك حتى أننا صرنا نخاف منك. وهذا ما جعلك بعيدًا عن هموم العائلة ومصائر وأقدار أفرادها.. لا سيما ما كنّا نعانيه نحن نساء العائلة.

صدمتني هذه المقدمة مع إني لم أتاثر مما قالته، فهي الحقيقة. هكذا كنتُ أنا. لكن قولها إنهم كانوا يخافون مني أثار فضولي، إذ لم يطرأ هذا الشيء في ذهني قط، فسألتها:

- أكنتم تخافون مني حقًا؟

اطمأنت حينما انتبهت إلى أنني لم أتأثر بمقدمتها بل كنت طبيعيًا جدًا، فتشجعت للبوح أكثر، وقالت:

- نعم.. كنتَ سلفيًا أصوليًا متطرفًا، ويبدو إن جريمة غسل العار أثّرت عليك بشكل كبير فصِرتَ لا تثق بأحد، بل صارتْ كل النساء خائنات في نظرك. ولأنك كنت منعزلًا، ولا علاقات شخصية لديك، ولا تعرف نساء أخريات غيرنا، أنا وأختي وزوجتي أبينا، لذا كنا كلنا في نظرك مشاريع خيانة..! ونحن ندين للمرحومة حواء البزاز التي لعبت الدور الأكبر في تغيير آرائك المخيفة..!

شعرتُ بالارتباك لصراحتها، وفي الوقت نفسه فرحت لأنها تكشف عن شجاعة ووعي بالذات، لذا قلت لها بنبرة محايدة تشي بالتعاطف:

- نعم.. أعترف كنت وحشًا آدميًا..!

صمتت للحظات. كانت كما بدا لي مكتظة بالأفكار ولا تدري من أين تبدأ، لكنها واصلت:

- مأساتنا أن المرأة مهما بلغت من العلم والمكانة الإدارية والأكاديمية فإنها تظل مقيدة بألف قيد، لا لشيء سوى كونها امرأة.

- هذا هو الواقع الشرقي مع الأسف.. وهذا بالمناسبة ليس في الشرق فقط وإنما حتى في بعض البلدان التي تعد نفسها متحضرة!.. قلت مشجعًا كي تستمر في الحديث.

نظرتْ إليّ بمودة لأنها بدأت ترى شخصًا آخر أمامها يختلف جدًا عن ذلك المتزمت والمعقد، فواصلتْ:

- هذا هنا وفي كافة بلدان الشرق والإسلامي، ومن خلال قراءاتي أعرف إن الأمر هكذا في بلدان أخرى أوروبية حيث للدين وشرائعه قوة وهيمنة على عقول الناس.. مهما كان البلد متقدمًا من ناحية التنظيم الإجتماعي والإداري والتقني.

لاحظت أنها على الرغم من هذه المقدمات العامة فقد كانت متلهفة للحديث عن نفسها. عن حياتها. فواصلتْ:

- أنت تعرف نحن أختان من أم واحدة، وتعرف أجواء البيت الدينية المتطرفة وأنت كنت أحد أشباحه. هكذا كانتْ طفولتنا، وربما أنت محظوظ، لأن أمك الجميلة المرحومة حواء الأخضر كانت امرأة متعلمة ومن عائلة متعلمة لذا اهتمتْ بك جدًا،

بل هي على الرغم من سلفية أبينا وتطرفه الديني فقد كانت تتحداه بجلب الألعاب وآلات الموسيقى لك. أما نحن البنات والنساء عمومًا فقد كان قدرنا أسود.

سأتحدث عن نفسي وطفولتي وكأنك لا تعرفني، لأنك على الرغم من عيشنا المشترك، لكن مسارات حياتنا كانت مختلفة وكأنك لم تكن معنا.. أنت تعرف أن أمي كانت الزوجة الثانية لأبينا، فقد تزوج الأم الكبيرة وعاش معها سنوات لكنها لم تنجب، فتزوج أمي التي كانت تصغره بخمسة عشرة عامًا. لكن الغريب إن السيناريو الذي جرى مع أمي تكرر مع أمك أيضًا. فقد كان أبي صديقًا لأخيها. وربما لا تعرف بأن مظاهر التدين لأبينا هي مظاهر منافقة لا أكثر، فقد كان في شبابه فاسقًا، سِكِّيرًا، وداعرًا، وما تشدّده الديني معنا إلا للتعبير عن خوفه علينا من الآخرين لأنه يقيس الآخرين بنفسه وما يعتمل فيها وبما اختزن من تجارب فاسدة مع النساء. وأعذرني إن كنت أتحدث بهذه الطريقة.. فلربما يسوؤك سماع ذلك. وسأقولها لك صراحة إنني أكرهه.. فهو ثعلب محتال. أفعى غادرة. أفعى لا تكتفي بلدغك فحسب، وإنما تلتهمك.. ما هو اسم الأفعى الكبيرة تلك التي تلتهم البشر والبقر وتهشم عظامهم؟.

استغربت أنني لم أتأثر بما قالته عن أبينا، ووجدت نفسي أمنحها الحق في أن تعبر عمّا يجول في نفسها، فأنا قد غِبتُ عشرين عامًا عن البيت، بينما هي وأختها بقيتا تحت ظلمه وقمعه واستبداده، ولا أعرف بالضبط ما عاشته معه، لذا لم أعبِّر عن أي استياء ضد ما مقالته، بل وحين سألتني عن اسم ونوع الأفعى التي تلتهم البشر والحيوانات، انشغلت مع ذاكرتي في تذكر اسمها وقلت لها بحيادية:

- أفعى الأناكوندا.. وهي فعلًا لا تلدغ فريستها من البشر والحيوانات وإنما تلتهمها وهي حية.

فقالت بأسى:

- نعم أفعى الأناكوندا.. فهو قد التهم الأب قابيل آل عيون السود حياتنا ونحن أحياء... (صمتت للحظات) أتعرف.. لسنوات طويلة كنت أعتبره إلاهًا يمشي على الأرض. كنت أقدّسه بعد الله.. حتى إنه حين طلَّق أمي بعد سنوات من تمردها عليه ورجوعها إلى بيت أخيها كنّا، أنا وأختي، نكره أمنا ولا نزورها، بل وحتى بعد أن

أصيبت بسرطان العظام، وكانت على وشك الموت، لم نزرها إلّا من باب الخوف من غضب الله، لأن خالنا أخبر أبي بأنها تحتضر وتريد أن ترى ابنتيها. كنّا ابنتي أبينا، لذا حملنا حقدًا دفينًا ضد أمنا لأنها تركتنا واختارت حياتها. هي لم تترك أبانا لأنها تكرهه أو لأن لديها حبيب تريد الزواج منه، فلو كان ذلك صحيحًا لتزوجت، بينما بقيت ما يقارب الثلاثين عامًا من دون زواج، بقيت قابعة في بيت أخيها، مثل أمك بالضبط، وكانت تفضّل هذه الحياة كمطلقة ذليلة على العيش مع أبينا... لم نفهم هذا الأمر إلا بعد سنوات وسنوات.. بعد أن أعدنا تكرار المأساة وعرفنا ما معنى الزواج، وما معنى الاختيار الخاطئ..!

هل تصدق إننا حين زرناها وهي تحتضر نظرتْ إلينا بعينين ترقرق الدمع فيهما وكأنها رأت فينا جمالها الضائع، إذ أننا نشبهها كثيرًا في الشكل.. حينها قالت لنا، بمعاناة امرأة تحتضر، إنها آسفة لأنها لم تكن قريبة منّا كل هذه السنوات، ولم تشبع نظرها من رؤيتنا ولا أذنيها من سماع صوتنا، وها هي ترانا شابتين ناضجتين لكن قبل أن ترحل وتغادر الدنيا.

ومع ذلك عقّبتْ بأنها غير آسفة على تركها لذاك الوحش الكريه والنتن النفس..! وكانت تقصد زوجها ذلك الثعبان الذي أغرقنا بالمال والثياب والسفرات الصيفية والعمرة إلى مكة.. ولم ننتبه لأمّنا كأم وإنسانة قط، ولم نسأل أنفسنا لماذا تركتنا وتركت بيتها وذهبت لتعيش عند أخيها، ولم ننتبه إلى أنها امرأة فاضلة وليست لعوبًا ومستهترة كما أراد أبونا أن يصورها لنا، حيث كان يسمّم آذاننا بجملته المتكررة بأنها لو كانت أمًا حقيقية لما تركتنا وذهبت، ولم نفكر بالأسباب التي دعت امرأة تترك طفلتيها وتهجر بيتها لتعيش كعبء في بيت أخيها..!

بل فاجئتنا بحقيقة كشفتْ عن مرض أبينا النفسي ووحشيته وجريمته بحقنا، حينما أخبرتنا بأنها اشتكت على أبي في المحاكم من أجل الحصول على حقها في رؤيتنا، ونالت الحق لكن أبانا كان يرشي القضاة والشرطة المكلفين بالتبليغ ولا يخبرنا بشيء.. حتى إنها يأست من المحاكم فطلبت من أخوتها التدخل وفعلوا لكن أبي كان قاسيًا بحيث لم يستجب.. وقد استغل كل علاقته الحزبية بالمسؤولين وكل أمواله لشراء ذمم الآخرين. بينما كان يعبئنا ضدها بأنها لا تود أن ترانا..! ولقد

تفهمّنا، فيما بعد، موقف أمك بهجره وموقف أمنا كذلك..! أي وحش هذا الزوج بحيث تضطر الزوجة إلى تركه مبتعدة عن فلذة كبدها..! وقد تفهمنا لماذا وهي في آخر لحظات حياتها لم تشعر بالأسى أو الندم على ما أقدمت عليه من تركه.. وهذا مع الأسف قد تكرر مع والدتك.. وأعتقد لو كنّا أنا وأختي ذكورًا لدفعنا والدنا إلى قتل أمنا أيضًا، مثلما فعل معك..! فهو لا يطيق أية أمرأة تتحدى فحولته، بل يكشف عن الوحش الذي في داخله مباشرة.. ومع الأسف أنت كنت ضحيته..! ونحن اكتشفنا ذلك بعد سنوات.

كنت استمع لها بانفعال لأنها فتحت الغرفة الموصودة في ذاكرتي والتي أغلقتها منذ سنوات، وكنت أظن إنني هدمتها أصلًا، لكن اتضح إنها لم تُهدم وإنما كانت خرائبها موجودة وغرفها موصودة، وها هي قد فُتحت ومعها فُتحتْ ذاكرتي العتمة، وعلى تلك التفاصيل المرعبة. وأدركت عمق خيبة أختي وغضبها الذي يغلي في داخلها غليان الحمم في قلب البركان الموشك على الانفجار.

لم أكن أعرف بأن هذه المرأة الهادئة والجميلة بل والمثيرة في شكلها وأناقتها وجسدها، والتي هي أختي التي لم ألتقيها منذ سنوات طويلة، هي الآن محبطة ومختنقة إلى هذا الحد..!

استمعت إليها وهي تواصل بوحها:

- أنت تعرف أجواء البيت عندنا والفكر الديني المتزمت المسيطر عليه بتأثير والدنا، علمًا هو يبيح لنفسه السهر والخمور والنساء خارج البيت، بينما منذ أول خطوة يطأ فيها باحة البيت يتحول بيتنا إلى مسجد أو تكية للدراويش..! فكل شيء يجب أن يرافقه دعاء أو آية أو حولقة أو بسملة.. حتى رغباتنا يجب ألآ تتجاوز حدود المنزل، بل إن كل علاقتنا بالعالم تتم من خلال شاشة التلفزيون ومن خلال المسلسلات، ومع ذلك، وهذا أمر عجيب، فهو لم يحرمنا من الدراسة الجامعية..! على العكس منك، فقد أرادك ألآ تتعب نفسك بالدراسة لأنك وريثه الشرعي ولديه البيوت والشركات والعمارات وتجارته ماشية، لكنه رحمنا بالسماح لنا كي نواصل تعليمنا..!

بيد أننا حتى في مدارسنا وجامعاتنا كنَّا نخاف الحديث مع أحد ما سواء كانت

فتاة أو فتى..! بالنسبة لي لم أقم بأية علاقة مع أي شخص على الرغم من محاولات الشبان المستميتة لإثارة انتباهي، فقد كنت متدينة عن قناعة أو بدقة أكبر عن موروث وتربية وحصار وضغط تحول إلى استسلام لا واع اشبه بالقبول والرضا بالمقدر.. لكن من غرائب الحياة إن معظم الشبان الوسيمين لم يستطيعوا إثارة انتباهي بينما وجدت نفسي اتجاوب مع فتىً قروي شكله وهيئته القصيرة والضئيلة تذكّر بطفل أو صبي أهبل، هذا الشخص تقدم إلي وقال إنه رآني وأحبني ويريد أن يتزوجني، وسأل عن أهلي.

كنت ساذجة وغبية ومتزمتة دينيًا، بل ومعقدة من قصص النساء والهجر وخيانات الحب التي رأيتها في الأفلام ومن المسلسلات التلفزيونية ومآسي الطلاق الذي عشته من خلال وضع أمي وأمك، وفكّرت بأن هذا الفتى متدين جدًا، ويبدو مثل أهبل لا يعرف شيئًا في الدنيا، ربما سيكون إنسانًا نظيفًا وليس وحشًا كوالدي، وإنه رجل صالح لن يخونني ويؤذيني ويهينني أو يسبب لي أوجاعًا في حياتي، وسيخاف الله من سوء معاملتي، والتلاعب بمشاعري، فقد كان هاجس الخيانة التي تؤدي إلى القتل وإلى الطلاق وإنفصال الأم عن أطفالها كابوسًا مرعبًا يطاردني..!

لا أعرف لحد الآن كيف وافقتُ، بحيث أعطيته عنوان بيتنا. وهو على الرغم من صورة الهبل التي تبدو عليه، لكنه كان خبيثًا في جرأته، فجاء إلينا ذات مساء وطرق الباب، وطلب مقابلة أبي. جاءت مُساعدة البيت لتبلغ أبي وجود شاب يريد مقابلته.. وأنت تعرف أبي فهو يستقبل حتى الشيطان عسى أن يحتاج لهذا الشيطان ذات يوم. فوافق على استقباله.

الصورة البلهاء لشخص آدم السراي، وهذا اسمه، وملامحه القروية البسيطة، وتملقه وتمسكنه ونفاقه من خلال التمسك بالدين وأحكام الشريعة في كل جملة، بل ووقاحته في الإدعاء بأنه عالم جليل يعرف الدين ومتبحر في علوم الفقه دفع أبي إلى أن يستمع إليه، بل ويميل إليه، فقد وجد فيه خروفًا ضائعًا يمكن أن يعقله من رجليه وينحره في أية لحظة. بل والعجيب في كل هذا إنه وافق عليه، فتصور كم خبيث هو هذا الأهبل، وكم هو ممثل جيد بحيث يخدع والدنا الذي رضع الشر من ثدي الأبالسة..!

بعدما خرج ناداني وقال لي جاء المدعو آدم السرّاي طالبا يدك، ويقول إنك اعطيته العنوان، وهذا يعني ضمنيا موافقتك!!؟ فقلت له أنا أردت التخلص من إلحاحه، لكني لم أعطه الموافقة، فقد كان يتردد على نادي الجامعة باستمرار ليزور أصدقائه من السلفيين، وتقدم من طاولتي وقال لي إنه يريد طلب يدي، فتجنبت الرد عليه، لكنه ألح وبصوت عال، فخجلت وقلت له البيوت تطرق من أبوابها وباب بيتنا موجود، وأبي هو من يقرر ذلك..! كان بعض الطلبة والطالبات ينظرون إليّ فأحرجني فاعطيته العنوان، لكني لم أكن أصدّق أن يفعلها ويأتي، وهذا لا يعني موافقتي.. لكن جواب أبي لحظتها قد صدمني حين قال لي: „إنه يناسبك. هذا عديم الشخصية سيكون كالتراب تحت قدميك، إلى جانب إنه متدين ومتمسك بشكل ساذج بالدين، وهذا يجنبك الغيرة فتعيشي حياة مستقرة حيث كل شيء تحت سيطرتك"..! لحظتها ابتسمت حين قال جملته بأنه سيكون ترابا تحت رجليّ..! أنت تعرف أن موافقة أبي هي قانون ومعارضته جريمة..!

وبطريقة ساذجة وتافهة جدًا صار زواجي..! إذ كان أبي قد أخبره ذلك المساء بأن عليه أن يأتي بأهله.. وجاءوا..كانوا قرويين سذج، عادة يستنكف أبي أن يصافح أمثالهم، لكنه الآن يريد تزويج ابنته، أي أنه تشمم الثروة التي لديهم ربما..!

أبدى أبي سماحة أذهلتني..فقد ساعد بنفسه كثيرًا في تهيئة الأثاث والبيت حتى شعرت بأنه يريد التخلص مني أنا وأختي..! فقد قال لأختي مباشرة أثناء مراسيم خطبتي وقبل زواجي بأنه جاء دورها هي الآن..وسألها بلا خجل إذا ما كان هناك من سيأتي ليطرق الباب طالبًا يدها كما صار معي.. وفي ذلك اتهام ضمني بأنني كنت أقيم علاقة مع آدم السراي وأنا التي دبّرت كل شيء وأرسلته إلى أبي..!

والغريب أن والدي فرض دمج فترة الخطوبة بالزواج، مؤكدًا بأنه لا مجال للعب عندنا.. ولا مجال للتعارف واللقاءات.. الخطوبة والزواج معًا.

وهكذا وجدتُ نفسي امرأة متزوجة..!

لا أريد أن أقول لك بأنه تم فرض الزواج عليّ بالقوة..فكل شيء كان برضاي، ليس لأن أبي فرضه وإنما لأني اقتنعت بوجهة نظر أبي..إلى جانب كوني ساذجة،

ودماغي قد أصيب بلوثة التدين السلفي بحيث لم أشعر بشيء ولم أفكر أبعد من أن أكون زوجة مطيعة يكون زوجي فيها بمرتبة بعد الله حتى لو لم أحبه..!

لم أكن امرأة شبقة ولا أميل إلى الجنس كثيرًا لكني بدأت اكتشف نفسي وجسدي، بل وبدأت اكتشف زوجي.. فقد اتضح إنه إنسان طفيلي، يعيش على الآخرين، كسول ومخادع، وكذاب، ولا يعرف من الدين شيئًا سوى القشور وقد برع في اتخاذه قناعًا.. بل إن لديه عقدة كبيرة يحاول أن يكتمها ويخفيها وهي أن يكون مثقفًا وكاتبًا.. فكان يشتري الكتب والروايات ويكدّسها من دون أن يقرأها. كان يتصفحها فقط..!

كان دعيّا بلا خجل أو حياء، يدّعي حين يزورنا أحد من أصدقائه أو أقربائه ويسألونه كيف يقضي وقته، فيجيب بأن جلّ وقته ينفقه في القراءة والتبحر في أعماق الكتب والمؤلفات الرصينة. وإنه يكتب شعرًا ومقالاتٍ ودراسات ستهز المجتمع والفكر الديني والأدبي وستغير من الاتجاهات الفكرية، وحينما يسألونه لِمَ لا تنشر شيئًا مما تكتب ولو مقتطفات، فيجيبهم بكل ثقة وتبجح بأنه يخاف أن تسرق كتاباته وأشعاره وأفكاره إذا ما نشر منها شيئًا..! فكنتُ أشتعل في داخلي غيظًا لأني أعرف أنه لا يقرأ قط، بل يتصفح الكتب ويواصل ليله ونهاره على النت..!

الفائدة الوحيدة من عقدة المثقف التي كان يعيشها هو إنني قرأت عشرات الكتب التي كان يأتي بها. بل كان يحاول أن يقلد المتنورين العلمانيين فيأتي بكتبهم أيضًا، لكنه لا يقرأ شيئًا منها، فكنت أقرأها، ومع كل كتاب كنت ابتعد عنه نفسيًا عشرات الكيلومترات.

أتعرف.. الكتب جعلتني متناقضة، أعيش التناقضات لا إراديًا، لكنني كنت أدرك بأنني صرت كائنًا منقسمًا إلى ضدين. أعيش مع كل منهما بانسجام، وكلما كان يطول بقائي من أحد الضدين كلما أشعر بالتشتت ويصعب شد خيوطي إلى الواقع.

ومع أن معرفته لنفسه بأنه دنيء وكذاب ومحتال وبخيل إلا إنه كان يعتبر نفسه مقياسًا للخير والشر. مقياسًا للأخلاق، فكل ما لا ينسجم مع نفسه الضئيلة يعدّه شرًا. كنا نعيش في بيت صغير بالقرب من بيتنا، وأقصد بيت أهلي. كنا أنا وهو، وكان الخوف ثالثنا.

كان فيروس الكذب قد تغلل في كريات دمه. حتى حين يروي الأشياء الواقعية والحقيقية لا بد أن يضيف عليها ويغير فيها ويصوغها بطريقة تبدو غير حقيقية.

بل حتى حين يحاول أن يعبر عن حبه لي فهو لا يستطيع ألا يكذب، بل أكثر المواقف عريًا لكذبه هو حينما يبوح لي بحبه، حينها أحس إنه في أعمق أعماقه يكرهني ويغار مني ويحاول إهانتي وإذلالي.

اتسعت الهوة بيننا. صرتُ أخافه وفي الوقت نفسه احتقره. وصرت أخاف على حياتي معه.. وأسأل نفسي إلى أين أمضي؟ ولمَن أتجه ليساعدني في الخلاص من محنتي؟ لا أحد يسمعني.. أبي يعتقد أنه إنسان طيب، وإذا ما حصل بيننا توتر ما فهو على يقين بأنني السبب لأني ربما أتعالى عليه..!

وهو الثعلب الماكر حين نزور أهلي يتذلل لهم ويبدي سلوك الرجل الصالح والخادم الأمين والزاهد المتواضع..! ويكيل لهم المدائح حتى يثملون انتشاء بها، لكن ما إن نغادر البيت وعلى بعد خطوات من العتبة يبدأ بملاحظاته السامة وانتقاداته لهم..!

ذات مرة تشاجرنا، ولحظتها غضب بشدة بل انفجر كاشفًا عن كل ما في أعماقه من وحل ونتانة، فقال إنه قروي، وإنه حين كان يزور أصدقائه الإسلاميين في الجامعة لمحني.. وشعر بالحقد والكُره نحوي، كَرِهَ أناقتي، وجمالي، ومسحة الاستعلاء التي تظهر على ملامحي والتي ورثتها من أبي.. وامتلأ غِيرة حين سمع عن تفوقي.. وقرر أن يتحداني ويكسر كبريائي واعتزازي بنفسي.. ولم يجد أسهل من قناع الحب وتمثيل دور العاشق النبيل.

حين أعطيته العنوان بعد إلحاح قرر، وحسب تعبيره، أن يكسر أنف هذه العائلة الارستقراطية، وتلبس دور المؤمن المتواضع..! إلى أن تمكن من أبي المتزمت والمتشدد... فتصور خبث هذا الأهبل الذي خدع مخادعًا كبيرًا، حتى إنه أقنع أبي بحاله فدفع أبي كل شيء لتأثيث بيتنا بل إن البيت الذي نسكنه هو أحد البيوت العديدة لوالدي، أي لا ندفع إيجارًا أبدًا.

شخصيته أشبه بتلك اللعبة التي كانت لدينا ونحن صغار، تلك الدمية الصغيرة

التي يوضع ثقل من الحديد الممغنط في قاعدتها، وكلما رميتها تجلس قائمة بشكل صحيح.فزوجي عند الملحدين ملحد، وعند المتصوفة والزهاد والدراويش متصوفًا ودرويشًا، وعند العلمانيين يسخر من الدين، لكنه مع كل هذه الأدوار إنسان فارغ.. ومع المتشددين المتطرفين قائدهم..إنه لا أحد..ضئيل.. يعرف أنه تافه، يحلم أن يكون شيئا مميزًا، بل صدّق نفسه بأنه شخص مميز.

***

كنت أستمع لأختي بانتباه شديد، بيد أن نبرة الإحباط والغضب في صوتها جعل كل كلمة تنطقها كأنها قطرة ماء مغلي تسقط في أعماقي فتخلف ندوبًا وأكياس مائية مؤلمة، فوجدتني غاضبًا، وسألتها بحنق:

- ولماذا لم تحاولي الانفصال عنه..؟

لم تفاجأ بهذا السؤال بل بدتْ كأنها كانت تتوقعه، فقالت:

- وهل تعتقد إنني لم أحاول؟ أتعرف.. مرة فاتحت أبي بحضور زوجتيه فنهرني، وقال لي بأنني السبب في توتره، وأن متطلباتي عالية، وأني لا أعامله باحترام كزوج..! لذا صار كل فترة يملأ جيوبه بالمال.. ظنًا منه إنه سوف يحسّن من معاملته معي!.. أهلي ساعدوه في التمادي بإهانتي، لا سيما ذات مرة جاءوا إليّ وأمامه انهالوا علي بالبتأنيب والتقريع والإهانة.. وكان هو يبتسم بل وبين الحين والآخر يبدو طيبًا فيقول جملة ليدافع عني وكأنه يحمّلني إحسانًا بتلك الجملة..!

- وماذا جرى بعد ذلك.. كيف استمرت حياتك معه؟

- كنت محتاجة لك.. محتاجة لأي إنسان يحتضنني ويواسيني أو حتى يستمع إليّ بتفهم..!

- لكنك لم تشيري إلى أي شيء من ذلك حين بدأنا نتواصل بعد سقوط النظام وإمكانية التواصل الهاتفي والألكتروني..!

- نعم.. كنت حينها قد بدأت اعتمد على نفسي ومشيت في درب خاص بي.. ولم يعد يهمني رأي أحد..!

- ماذا؟ هل وجدت عشيقًا؟

فصاحت بصوت مسموع انتبه له الآخرون:

- واو.. هذا أنت آدم آل عيون السود حقًا؟ لا أصدق؟ أنت الذي قتلتَ أمك لأنك سمعت شائعة مسمومة عن علاقة لها بشخص ميت أصلًا، أنت الآن تقولها ببساطة إن كنتُ قد وجدتُ عشيقًا؟؟ لقد تغيرت كثيرا يا أخي الحبيب..تغيرت ١٨٠ درجة وانقلبت على الإنسان الذي كنته!

شعرت بلحظة ارتباك لأن الآخرين تلفتوا نحونا، وتجاوزت ذلك قائلًا لها:

- إنني أعني ما أقول..!

نظرت إليّ بإمعان، أرادت أن تقول شيئًا لكنها ترددت، أدركت أنها خجلت من البوح الصريح، لكنها أدارات الموضوع بحكمة امرأة ذكية وقالت:

- ذا مرة قرأت رواية لنجيب محفوظ.. هل قرأت له..؟

- نعم.. قرأت بعض رواياته.إنه كاتب كبير.

- في إحدى رواياته التي أعتقد إنها „قلب الليل" يقول عن لسان بطله: „جرِّب الحياة بشجاعة إن استطعت. اقتحم الأبواب بجرأة، لا تتمسكن فكل ما تحتاجه هو حق لك، هذه الدنيا ملك الإنسان، ولكل إنسان، عليك أن تتخلى عن عاداتك السخيفة، هذا كل ما هناك".. وهكذا فعلت أنا.

كنت انتظر أن تحدثني عن أسرارها الخاصة والحميمة جدًا لكنها لم تفعل، وإنما أخذت تحدثني بالمبادئ والأفكار والأشياء التي تخص الآخرين وليس عما سألته بوضوح.. فقالت:

- تحولتْ بشكل حاسم حين عرفت أن زوجي آدم السراي مراوغ خطير، واكتشفت أنه مخبر لدى جهاز الأمن والاستخبارات في النظام السابق، وانتمى إلى الأحزاب الإسلامية في النظام الحالي، لكنني أظنه يعمل سرًا مع الإرهابيين..!

صُدمت ممّا قالت، فسألت:

- كيف ذلك؟ وكيف تعيشين معه؟ ولِمَ لم تخبري أبانا.؟!

- ههههه.. ألا تعرف أن أبانا كان يتعاون مع جهاز المخابرات والأمن سابقًا، وعلاقاته كانت مع رؤوسهم البارزة، وحين سقط النظام انقلب وصار من كبار المتعصبين لطائفته، ويتبرع بالأموال لأحزابهم.؟! والغريب هو لا يقتصر تبراعاته على حزب معين وإنما يتبرع لكل الأحزاب وكأنه يودع أموالًا في بنوك مختلفة سيحصد عليها فوائد من الجميع..!

حين أدركت إنها لا تفصح عن حياتها الخاصة جدًا سألتها بشكل مفاجئ:

- وماذا عن أختك؟ كيف هي؟ وماذا جرى معها؟

أحسست إنها شعرت بالراحة من سؤالي عن أختها وعدم إلحاحي في السؤال عن حياتها الخاصة، فقالت:

- حياتها تعيسة مثلي، بل أتعس من حياتي.فقد نشأت جميلة جمالًا لافتًا، بل وكانت أكثرنا حيوية وتحررًا، حيث كانت تقلد المطربات في الغناء وتلبس بحرية، وطعبًا داخل البيت، فأرعب ذلك والدنا الذي يسيء الظن بكل النساء..! لذلك زوَّجها لرجل غريب مع إنه كان يعرف إنها تحب ابن عمنا الكبير، بل كانت بينهما لقاءات وربما ملامسات، لكن أبانا الذي شك بوجود هذه العلاقة قرر معاقبتها بتزويجها لابن أحد أصدقائه المسؤولين ممن تقدم لخطبتها..!

- طيب.. وماذا في ذلك.!

نظرت إليّ بارتباك وكأنها تخفي سرًا ثم قالت:

- لقد اتضح أن زوجها رجل شاذ.. لوطي.. وأن أهله أرادوا تزويجه بأي شكل من الأشكال من أجل ألا تنتشر الأقاويل عن سلوكه.. لكن المأساة إنه واصل لوطيته مع زوجته، حتى ليلة الدخلة طالت ولم تتم، وبعد التساؤلات والغضب من أبي لأن ذلك يشكك بشرف ابنته، وغضب أهله لأنه يشكك برجولة ابنهم، ففضها بعد ثلاث ليال بإصبعه، ولوث قطعة القماش ليعلن فحولته! لكنه استمر يمارس معها من الخلف كأي صبي، ولم يجامعها على مدى سنة ونصف وجها لوجه، إلى أن تم اغتياله إبّان الصراع الطائفي في البلاد.

صُدمت من هذه الأخبار. لا أعرف ما كان عليّ أن أفعل، وكيف أواسيها وأجعلها تتقل مواساتي لأختها.

أحسست بوجع هائل في صدري. انتبهت هي لذلك، فارتسمت ملامح القلق على وجهها. طلبت مني أن نذهب إلى المستشفى مباشرة. لم أفعل، وإنما طلبتُ الحساب. دفعتُ الفاتورةَ مع مبلغ كبير زيادة حتى هي انتبهتْ لذلك، وأبدت ملاحظة بأنهم استقطعوا نسبة الخدمة ضمن الحساب.

حين خرجنا أحسست بأنني في حالة طيبة. لكن كما يبدو أن الوقت قد تداركنا، إذ نظرت لساعتها اليدوية ولمحت القلق والانزعاج يرتسم على وجهها، فرفعت رأسها نحوي وقالت لي:

- مع أن الوقت قد تأخر عليّ لأنني أريد أن اكون في البيت قبل وصول أبي.. لكنني مستعدة أن آتي معك إلى المستشفى..!.

- لا لا عليك... أحس إنني في أحسن حال.. أحتاج إلى الاستلقاء في غرفتي بالفندق.. لكن قبل ذهابي أريد أن تأخذي هذا الدفتر معك.. احتفظي به.. كنت أريد تسليمك إياه قبل سفري، لكني شعرت بضرورة أن تحتفظي به الآن.

أخذَتْ الدفتر وهي مستغربة كأنها تفكر بما موجود فيه من أسرار، ثم قالت لي بأنها ستتصل بي لتطمئن على وضعي.

أوقفت لها سيارة تاكسي. ركبته. كنت أنظر إلى جسدها المعطل وهي تدخل إلى المقعد الخلفي في السيارة. بعدها أوقفت سيارة تاكسي لي وطلبت من السائق التوجه إلى فندق „باب السماء".

***

رجعت من لقائي مع أخي. كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حين نامتْ أختي الصغرى بعد أن قضتْ وقتها في الحديث مع مَن هيّ في علاقة معهم من خلال الفيس بوك والماسنجر ووسائل التواصل الاجتماعي الأخرى. وأنا لا أعفي نفسي من ذلك.

بعد ذلك فتحتُ الدفتر الأسود الذي أعطاني إياه أخي آدم غراس كما يُسمى الآن. كنت منبهرة من اللقاء، لكني كنت خَجِلَة من عدم صراحتي معه، إذ أنني أخفيت عنه الكثير مما يخصني، وحاولت أن اظهر من خلال شخصية المرأة الضحية فقط..! وأن أبيّن له بأنني صرت مثقفة وقرأت الكثير وواعية. لكني لم أمتلك الجرأة للبوح الحقيقي.

قرأتُ كل ما كتبه في الدفتر الأسود، واندهشت، لأني وجدت أنه يأتي على ذكر حديثنا في المقهى اليوم..!؟ كيف جاء الحوار كله بحذافيره، وبكل التفصيلات الدقيقة، بينما كان الدفتر ملقى على الطاولة أمامه.!؟ كيف حدث هذا؟ حتى لحظة وداعه لي كانت موجودة؟ لكن إشارته في أول اللقاء عن الكلام الذي قال الشباب عني وعن مؤخرتي لم اسمعه أنا، وكذا إشارته إلى جسدي المثير حين دخلت السيارة راجعة إلى البيت أثارتني..! هل هو معجب بي كأمرأة..!

تركت الدفتر جانبًا وأخذت أسترجع حياتي. ولا أعرف لماذا خجلت من أن اصارحه بكل ما جرى معي وماذا فعلت خلال تمردي على حياتي الزوجية المقرفة..! بل لا أعرف لماذا أخفيت عنه ولعي بالسحر والجن والأشباح، وهي أشياء لا تُخجِل فهي طبيعية عند الكثير من الناس..! وكذلك وسر الأسرار الذي أخفيته عنه وهو أنني ميتة، وأن الأخت التي التقاها هي أنا الميتة.. فأنا ميتة منذ سنوات.. فقد حدث وسَقَطَت قذيفة عشوائية على بيتنا وكنت أنا في المطبخ فقتلتني شظية اخترقت صدري. ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش بشكل طبيعي في بيتنا لكني ميتة..! لكن كما اتضح من الدفتر هو ميت أيضًا. مات بحادث سيارة وهو في طريقه إلى المطار في فينا مع زوجته كما جاء في الدفتر.

***

حين انتهى آدم السيد من قراءة الدفتر الثاني أحس بتشويش حقيقي. فلم يَعُد يركز. تأمل الخطوط فوجد أنها تختلف. حتى تداعيات حواء آل عيون السود بعد قراءة دفتر أخيها آدم غراس موجودة في الدفتر. فيا تُرى مَن كتب توصيف تداعياتها؟ علمًا أن الخطوط تختلف في رسم حروفها.

وتوقف عند السؤال المحير الآخر.. هو إن إثنتان من هاتيك النساء اللواتي سلمّن دفاترهن ليستا على قيد الحياة..! كيف هذا؟.

في تلك اللحظات رنّ جرس الباب. قام من كرسيه واتجه نحو الباب. ظنَّ أن جارته حوّاء اللبّان ربما جاءته بشيء ما، فواكه أو مما تطبخه من لذيذ الطعام.

حينما فتح الباب صُدم من هول المفاجأة. لقد كانت أخته مع أطفالها الثلاثة وخلفها صبي في الثامنة بدا عليه العَتَه، فعرف أنه معاق ومصاب بالظاهرة المنغولية، لكنه لم يعرف بأن لأخته ابنًا بهذا العمر، فحين جاءت عند وفاة أمه مع زوجها كانت مع أطفالها الثلاثة.. أحدهما كان في سنته الثانية وآخر في الرابعة وابنه في السادسة.

لم تمض سوى لحظات حتى استوعب الموقف. فقد جاءت أخته إليه لاجئة من دون زوجها. فتح الباب دون كلام فمرقت مع أطفالها الأربعة داخلة.

الفصل السابع

أسرار الدكتورة حواء آل مظلوم

لم تكن علاقة آدم السيد بأخته وثيقة بسبب فارق العمر الذي بينهما، فهي تصغره بخمسة عشرة عامًا. وكما يتذكَّر هو إذ كان بينهما عدد من الأخوة والأخوات الذين غادروا الحياة وهم أطفال صغار. لم يبق لأمهما سواهما لا سِيما وأن الأب غادر الحياة وأخته طفلة رضيعة.

هو يذكر يوم ولادتها. كان هو مراهقًا. وكان يذهب كل يوم جمعة عصرًا لمشاهدة أحد الأفلام الهندية أو أفلام الكابوي أو تلك الأفلام التاريخية المأخوذة من المثيولجيا الإغريقية والرومانية والتي تعرَّف عليها بشكل أوضح فيما بعد. ويتذكر حينما عاد وجد عددًا من نساء الجيران في بيتهم، وما إن دخل حتى قالت له إحداهن بأن أمه ولدت بنتًا، فلم يعد وحده وإنما صار لديه أختًا.

لم يأبه للأمر. فقد بدأ في تلك الفترة التعرف على عالم السياسة والنضال السِري. وبدأ العلاقة مع بعض اليساريين وانتظموا في تنظيم طلابي على الضد من التنظيم الطلابي للسلطة.

حينها انتبه لِلَون أخته المختلف عنه. كانت الطفلة الرضيعة بيضاء كالقطن، بينما هو أسمر داكن السمرة كأنه من أفريقيا أو جنوب الهند، فأحسَّ بغربة لا إرادية عنها. ومرتْ السنوات.

كان انهماكه في السياسة بحماس قد أنساه وضعه العائلي، فأمه وأخته تعيشان على مرتب تقاعد والده. وحين أُعتقل بسبب اعتراف آدم الحديدي كان هو في السنة الأولى من الجامعة. ترك السياسة بعد توقيع التعهد بعدم ممارسة السياسة، ثم ترك الدراسة الجامعية وقرر السفر إلى لندن، وقد ساعده في استحصال جواز السفر صديقه الضابط في حينها آدم عبد السميع، الذي كان زميله في الثانوية لكن

كان يسبقه بمراحل دراسية، والذي دفعه حين اعتقاله مع رفاقه إلى كتابة التعهد وتخليص نفسه من إشكالية سياسية عويصة في حينها.

كان هو خلال سنوات تواجده في الغرب بعيدًا عن كل ما له علاقة ببلاده، لا علاقة له بالمعارضة ولا بالسفارة وأعوانها، السفارة تظنه محايدًا لدقة معلوماتهم عنه والتي وصلتهم من بلاده، لكن المعارضة كانت تشك فيه وتعتبره من مخبري السفارة أو من أتباع الحزب الحاكم. هذا الأمر لم يكن يعنيه ولا يثير اهتمامه.

حتى في غربته لم يكن يتصل بأمه سوى في الأعياد الدينية. كانت يعيش لا مبالاة حقيقية ويستمتع بعبث الوجود، لا سيما بعد أن تعرَّف على مؤلفات ألبير كامو..! كان يعتقد بأنه على الرغم من عبث الوجود لكن هذه الحياة هي المعطاة لنا بحكم قوانين الوجود، وعلينا أن نستمتع بجمال الحياة والزمن وجمال هذا الكوكب وما يحيطه. علينا التمتع بضوء الشمس وبالمطر وحتى بالظلام.. ففي الظلام تتجلى النجوم بكل توهجها، ونلتحم بأعماق السماء إذ في النهار وتحت ضوء الشمس الباهر لا يمكننا أن نرى أعماق السماء.

ومع أنه اكتشف مبكرًا خرافة الأديان، وتجاوز بلا مبالاة حقيقية قضية العقاب والجزاء، لكن بعض الترسبات أبقت في لا وعيه بعض الكوابيس عن الموت وعالم القبر. كانت حياته في لندن جادة ومثمرة على المستوى الدراسي والعلمي الأكاديمي والثقافي.

كان عاشقًا للموسيقى. كان يعشق موتسارت، لذا حين عرف بعرض خاص لتقديم أعمال موتسارات خلال موسم افتتاح دار أوبرا الدولة في فيّنا قرر السفر إلى هناك لحضور تلك العروض، لا سيما وقد أنهى دراسته الأكاديمية وحصوله على الدكتوراه في الفلسفة بتخصص علم النفس- وبتخصص أدق هو الجرافولوجي وهو علم دراسة الشخصية من خلال خط اليد والكتابة والتوقيع. ولم يكن يعرف أن تلك الزيارة ستحدد مصيره اللاحق لسنوات أخرى.

حين دخلت أخته الشقة تصرفتْ بتلقائية كأنها لا تزال تخصها. وضعت ابنها الذي كانت تحمله على الأريكة. نزعت العباءة السوداء. أخذت ابنها الذي في الرابعة إلى المطبخ فتبعتها ابنتها، بينما جلس ابنها المعاق عند أخيه الصغير.

فتحت الثلاجة. اخرجت قنينة ماء بارد وسقت أطفالها. وعادت إلى الصالة. جلست على الأريكة حيث ولديها، وأدركت أن عليها أن توضح موقفها أمام أخيها.

كانت لا تعرف من أين تبدأ فساعدها هو سائلًا:

- خيرًا..؟ ما الذي جرى..؟ لماذا وحدك من دون زوجك؟ هل جرى شيء ما لا سامح الله؟

فجأة، ومن دون أن تجيب، انخرطت في البكاء. احتار هو. „لا بد وأن مصيبة حصلت" هكذا فكّر، لكنها بدت وكأن البكاء جزء من السيناريو، لأنها توقفت عنه فجأة، واتخذ وجهها ملامح جادة وقالت:

- لقد جلّلني آدم الميكانيكي بالعار يا أخي. كان من خيرة الرجال. ومن الفحول. وهو الذي أغواني كي أهرب معه وأترك أمي وحيدة.

صُدم آدم السيد بهذه المعلومة. فقد كان هو في لندن حينما عرف أنها تزوجت، لكن أمه لم تخبره بأنها هربت مع رجل تزوجها فيما بعد. فسألها مستغربًا:

- هل هربت معه؟ ألم يتزوجك زواجًا اعتياديًا؟

فوجئت هي بكونه لا يعرف ذلك، ظنت أن أمهما قد أخبرته. وأحسَّت بأنها فاهت بما لا يحمد عقباه في موضوعها الحالي، لكنها واصلت بجرأة:

- ظننت أن أمي أخبرتك..كان في حينها عاملًا في محل تصليح السيارات ولم يكن يملك محله الخاص..ولم تقبل أمي حين تقدَّم لي لأنها قالت إنني صغيرة ولست في عمر الزواج وإنه لم يكوّن نفسه بعد..لكني كنت أحبه، ولكي نضع أمي أمام الأمر الواقع، هربت معه..المهم بعد سنة ورث عن أبيه دكانًا في المدينة التي نعيش فيها الآن، وباعه وفتح محل تصليح سيارات وميكانيكي ونفخ دواليب السيارات بالهواء وما شابه. كان عقاب الله لعصيان والدتي أنني ولدت ابني الأول معاقًا كما ترى. أنت لم تره، لم آتِ به عند وفاة المرحومة أمي. لكن الله أنعم علي بأطفال أصحاء بعد ذلك.

- ما الذي جرى إذن؟ قال آدم السيد بنبرة فيها غضب مكتوم ونفاذ صبر.

- جللّني بالعار يا أخي.. يا لفضيحتي.. أين عليّ أن أنطمر وجهي من هذا العار.!؟

تضايق آدم السيد من محاولاتها ألآ تفصح عن مشكلتها فقال بصوت حازم يشي بشيء من العصبية:

- هل يمكنك أن تقولي لي ماذا جرى بدل هذه الولولة التي لا معنى لها..؟ ما الذي جرى وكيف جلّلك بالعار.!؟

- اتضح إنه ليس رجلًا سليما وإنما ما تسمونه أنتم الرجال.. مأبون.. مأفون..!

- ماذا؟ ماذا تقولين؟ فهّميني.. صاح بعصبية وغضب مكتوم.

- إنه مجنون.. يقول إن له علاقة بمخلوقات من الفضاء..؟

تضايق من طريقة كلام أخته ومن كمّ هذه المعلومات المتناقضة، فقال لها:

- إهدأي وفهّميني.. ما معنى كلامك هذا..؟

سرَّها إنه أبدى اهتماما بها، فقالت:

- مثلما سمعته.. لقد تشاجر الأطفال، ابنتي مع أطفال الجيران الذين أخذوا يسخرون من أخيها المعاق، وحينما خرجتُ أعاتب جارتي على تصرف أولادها، لم تعتذر وإنما أخذت تدافع عن أولادها، حينها لم أسيطر على نفسي فتشاجرت معها، لكن العاهرة شتمتني وقالت لي بأن أولادي هم أولاد حرام، وإن أبوهم ليس رجلًا، وإن المدينة كلها تعرف بأنه مأبون أو مأفون، وإنه يأتي بالصبيان إلى ورشته ليفعلوا به..! فلم أطق صبرًا فضربتها بحجر شجّ رأسها وأسال دمها.. لحظتها ارتعبت فأخذت أطفالي وهربت..!

- وزوجك..؟ سأل آدم السيد أخته وهو مصدوم مما سمع.

ارتبكت وأخذت تتمسكن في كلامها ونبرتها لتبدي بأنها ضحية وليست معتدية، فقالت:

- لم أكن أعرف إلى أين أتجه وماذا عليّ أن أفعل بعد مصيبتي السوداء بضرب جارتي؟. فكرت بالهرب من المدينة.. فكرت أن آتي إليك لتحميني..!؟ لكني مررتُ عليه قبل أن أتوجه لمحطة السيارات المتوجهة إلى هنا، وأخبرته بما جرى فعلًا،

حتى إني سألته عن معنى كلامها بأنه مأبون وإنه يأتي بالصبيان إلى ورشته ليفعلوا به..! فارتبك.. لكن وأنا أتحدث معه لمحت عينًا كبيرة أطلت بشكل موارب من خلف باب مكتبه.. بدت عين فتىً قصير القامة برأس كبيرة صلعاء.. اختفتى فجأة خلال ثوان.....التفتَ هو لأنه انتبه لي وأنا انظر إلى تلك العين الكبيرة. سألني: ,, ما بك" فقلت له : ,, رأيت عينًا كبيرة لشخص قصير أصلع الرأس".. فقال منفعلًا : ,,لا أحد هنا".. لكنني كنت متأكدة من رؤيتي له.. لذا إنكاره أيقظ الشك في نفسي، فسألته: ,,من هذا؟".. شحب وجهه وارتبك وأخذ يبحث عن الكلمات وقال إنني صرت أتوهم أشياء غير موجودة.. فقلت ما قصة الصبيان الذين تأتي بهم إلى الورشة؟ ماذا تفعل معهم، وماذا يفعلون معك؟ فأحمر وجهه..فلم أصبر فتخطيته متجهة لغرفة المكتب لكني وللحقيقة لم أجد أحدًا قط..! خجلتُ من تصرفي..هو لم يتحرك من مكانه، وحين رجعت إليه كان شاحبًا ووجهة متعرق.. وحين قلت له بأنه لا يوجد أحد في المكتب انفرجت أساريره.. لكني لم أنس سؤالي، فطلبت منه أن يوضح لي ما معنى إنه يأتي بالصبيان إلى الورشة ليفعلوا به؟ فحاول الإجابة بلا مبالاة وقال هذه العقول المريضة تتخيل ما تشاء..فأحيانًا تكون الأشغال كثيرة ولكي لا تتراكم عليه، لأنه وحده لا يستطيع أن ينفق الوقت في أعمال لا تحتاج لتخصص وخبرة كبيرة، لذا يُكَلِّف هو بها صبيًا ليقوم بها..! وصدّقني يا أخي، مع أني لم أجد منه إلا الخير، لكني لم أصدّق كلمة واحدة مما قال لي..وحين قلت له إنه يكذب صار عصبيًا واراد أن يضربني لولا إنه رأى إنني أحمل ابني الصغير على ذراعي، وأخذ يشتمني على تهوري وضربي للجارة بالحجارة..وقال إنه سيسوي الأمر عشائريًا. ثم شدّد عليّ بأن أختفي، وطلب مني أن أذهب عند أخته الأرملة التي تسكن العاصمة أيضًا والتي أعرف عنوانها لأننا عند وفاة أمي وقبل رجوعنا إلى مدينتنا قمنا بزيارتها..! بيد أني جئتك أولًا قبل أن أذهب إليها لأخبرك بما جرى لي فربما سأحتاج تدخلك ومساعدتك (وبخجل وهي تحني رأسها) ولتتأكد من القضية الأخرى التي تخص سلوكه..!

لحظتها لم يجد آدم السيد ما يقول. استغرب من لا مبالاته الداخلية بما سمع، بل شعر مع نفسه بأن ثمة أنغام من السيمفونية التاسعة لبيتهوفن تتسرب في أعماقه وتصعد إلى أذنه الداخلية وتتعالى شدتها. وسأل نفسه لثوانٍ عن معنى ذلك.

انتبهت أخته حوّاء السيد إلى أن ملامحه مرتبكة، لكنها توحي بأنه يصغي لحوار داخلي، وأنه يفكر بشيء ما يخص مشكلتها وكيفية حلها. انتظرتْ منه أن يقول شيئًا. استمر هو للحظات في سكوته، ثم قال بطريقة مفاجئة:

- كم مضى على زواجك من الميكانيكي..؟

- تجاوزنا السنوات العشر.. لماذا؟

- هل شككت يوما في سلوك زوجك؟

- ماذا تقصد..؟

- أقصد.. هل كان حين ينام معك كرجل طبيعيًا..؟ لم تشكّي يومًا في سلوكه.. تصرفاته.. رجولته؟

ارتبكتْ قليلًا لصراحته ووضوحه، ثم قالت:

- بصراحة.. لم أشك فيه أبدًا.. معي كان رجلًا طبيعيًا.. وكان يقوم بواجباته الزوجية على أحسن وجه ولم ألاحظ أي شيء مريب في سلوكه..! سوى كلامه المجنون عن علاقاته بكائنات فضائية..! لكن كلام جارتنا لم يكن شتيمة فحسب، وإنما كان كأنه كشف للمستور الذي أجهله.. كانت واثقة جدًا مما تقوله عنه.. الآن قلقة عليه.. لا أدري ما الذي سيجري..!

صمت آدم السيد ولم يستجب لقلقها الأنثوي. ظل يفكر بما قالته الجارة عن زوج أخته بأنه مأبون ومأفون.. فهو من خلال تجربته في أوروبا حيث كل شيء تتم مناقشته عبر وسائل الإعلام بحرية، يعرف بأن هناك رجال متزوجون ولديهم أطفال، وفي أواخر عمرهم تحولوا إلى نساء وأخذوا يتزينون كالنساء ويلبسون ملابسهن، ويذهبون مع اللوطين ليفعلوا بهم.. بل بعضهم ترك عائلته.. وبعضهم عائلته تبرأت منه، وبعضهم يعيش الإزدواجية من دون أن تعلم عائلته بالأمر..! فلِمَ لا يكون زوج أخته واحدًا منهم.!؟ شخصيًا هو لا يدين الأمر فهذا أمر نفسي وبايولوجي، لكن هذا الأمر في مجتمع شرقي متزمت سيكون عارًا اجتماعيًا لعائلته وربما يقتل من قبل أخوته أو أبناء عمومته أو أفراد عشيرته، مع أن الأمر كما هو يعلم منتشر في المجتمعات الشرقية وبحدة..

رثى لزوج أخته، لكنه لم يعلن عمّا فكر به لأخته، وإنما قال لها:

- أنت اهدأي.. سأتحدث معه هاتفيًا، وأفهم منه كل ما جرى وكيف عالجَ الموقف أو سيعالج أمر ضربك لجارتك وإساحة دمها..! لا أدري إن كانتْ جارتك قدَّمت شكوى عند الشرطة أو إن الأمر سيأخذ منحىً عشائريًا كما هو السائد..! يمكن البقاء هنا الليلة أو تحبين أن أوصلك إلى بيت أخت زوجك.. هل لديك عنوانها؟

- نعم.. قلت لك قد قمنا بزيارتها حينما كنا هنا بمناسبة وفاة المرحومة أمي..

لا يعرف آدم السيد لِمَ قال لها: "أوَ تحبين أن أوصلك إلى بيت أخت زوجك".. فقد شعر بتأنيب ضمير عابر، وفكر مع نفسه: "ربما ستسيء فهمي وتشعر بأنها غير مرغوبة في بيت أمها ومرتع طفولتها، وإنني أتخلى عنها في محنتها.!؟ لكن من الأفضل لها ولي أن تذهب إلى بيت أخت زوجها..فأنا لا أطيق الأطفال وصخبهم.. كما أن عليّ أن أتحدث مع زوجها بصراحة حول ما يشاع عنه.. وبوجودها لن أكون مرتاحًا في حديثي المفتوح معه!".. ومع ذلك، كانت خاطرة تأنيب الضمير عابرة.

أخته تهابه، وبحكم فارق العمر ولعدم تواصلهما لعشرين عامًا تقريبًا شعرت بالذنب أيضًا، لأنها جاءت من غير أن تتصل به وتخبره مسبقًا بمجيئها، فهي تعرف أنه مشغول دائمًا، وحين يكون بلا شغل يميل إلى العزلة. وانتظرت منه أن يطلب منها البقاء لكن ها هو يخيرّها بين البقاء أو الذهاب عند أخت زوجها الأرملة التي تعيش لوحدها في بيت واسع كما تذكر، لا سيما وحين سألها عن معرفتها لعنوان كانت بالنسبة لها إشارة فهمتها بأنه يفضل أن تذهب إليها، لكنها مع ذلك لم تزعل منه، فهي تعرف أنها مع ابنائها الأربعة ستكون حملًا ثقيلًا عليه، لا سيما وأن أطفالها يتحركون كثيرًا وابنها المعاق يلعب بأية حاجة يراها ويريد أن يمتلكها. فقالت له وهي تكرر جملتها السابقة بالايجاب:

- أعرف مكانها ولديّ عنوانها، ومع أنها شابة في منتصف العشرينات لكنها أرملة ولديها بيت واسع، لذلك يفضل أن أذهب إليها، لا سيما وإن زوجي قال لي بأن أتوجه إليها فربما هو سيتصل بنا هناك.

لم يستطع آدم السيد أن يخفي ارتياحه من قرار أخته، لكنه في الوقت نفسه

أحسَّ بالحرج. فقال لها، قبل أن تذهبي، أعدّي العشاء لأطفالك، وبعدها سأوصلك أنا بسيارتي.

شعرت حواء السيد بفرح غامر من مبادرة أخيها لكي يوصلها بسيارته، ووجدت في ذلك اهتمامًا خاصًا وكرمًا منه. فقامت لتعدّ العشاء. وسألته إن كان يشتهي شيئًا مخصوصًا يمكن أن تعدّه له، فشكرها وقال لها بأن عليها أن تفكر بالأولاد أولًا فهو غير جائع.

في تلك اللحظات، وقبل أن تدخل حواء السيد إلى المطبخ رنَّ جرس الباب. فوجئ آدم السيد، فقام وتوجه ليفتح الباب، ووقفت أخته في مكانها تنتظر معرفة هوية الطارق. وسمعت أخاها يقول:

- تفضلي.. تفضلي..

فوجئت المرأتان لرؤية أحدهما الأخرى. كانت حوّاء اللبان تحمل صينية تتصاعد منها رائحة المشاوي، وعطر الريحان. نظرت المرأتان لبعضهما البعض بتفرس للحظات، وحانت التفاتة من الجارة إلى الأطفال فاطمأنت، وانتبه آدم السيد للوضع فقال لجارته:

- هذه أختي وأطفالها جاءت في زيارة خاطفة.. أعتقد أنكما تعرفان بعضكما.. كانت هي وزوجها هنا أيام عزاء المرحومة أمي..

- نعم نعم.. يا أهلًا وسهلًا.. أعذرني لم أعرف أنها مع أطفالها هنا لذا جئتك بما يخصك.

وضعت الصينية على الطاولة وقالت لأخته:

- دقائق وسيكون العشاء حاضرًا..

- لا تتعبي نفسك سأعد العشاء بنفسي للأطفال.. قالت الأخت.

- لا.. لا يمكن.. كيف أنتِ هنا وتعدين العشاء..

نظرت إلى آدم السيد نظرة خاصة ثم التفت لأخته مبتسمة وهي تغادر:

- عشر دقائق وسيكون العشاء جاهزًا..

وغادرتْ وهي في حالة نشاط ودفق شعوري متوهج.

***

أحسَّ آدم السيد بالحرج لما أبدته جارته من كرم في ضيافة أخته وأولادها، فخلال فترة قصيرة امتدت مائدة طويلة فرشت لها بساطًا من النايلون على الأرض، حيث صينية المشاوي وصحن مما تبقى من وجبة الظهيرة، واللبن والطرشي المخلل وصحن الطماطم المشوية بالدهن مع الكاري والخبز الحار. وجاءت أخت جارته معها لمساعدتها، وحينما أتمت حواء اللبّان المائدة انسحبت مع أختها. ويبدو إن الأطفال لم يروا هذا الكم من الطعام على مائدة واحدة، فأخذوا يتنقلون بأيديهم بين الأطباق، بينما أخذ آدم السيد لنفسه طبقًا من الطماطم المشوية بالدهن والمضمخة بالكاري مع صينية المشويات التي جاءت بها الجارة أول الأمر.

طوال الطريق حاولت الأخت أن تدير الحديث مع أخيها عن الجارة ومناقبها وطيبتها، وتلمّح إلى ميلها نحوه. وكان هو يفهم مقاصدها الأنثوية لكنه تجنب الحديث عنها، وتحدث عنها ضمن الحديث عن العائلة ككل وعن طيبة زوجها أيضًا، لكن ما إن دخلوا إلى المنطقة السكنية لأخت زوجها حتى أدارتْ الحديث عن أخت زوجها الأرملة، عن جمالها وثقافتها، ووضعها الاقتصادي الجيد، وكأنها تلمّح له بالتفكير فيها كزوجة، لكن آدم السيد كان يلتقط المعلومات من دون أن يستجيب للتفاعل معها. كان منشغلًا بأفكاره عن شخصيات الدفترين اللذين قرأهما، ويحاول أن يجد الرابط بينها. وداهمته رغبة لمواصلة قراءة الدفتر الثالث، لذا كان يستعجل نفسه بإنهاء هذه المهمة الملزمة.

وصل آدم السيد مع أخته وأطفالها إلى المنطقة، ووقفت السيارة عند باب البيت المقصود. لم يكن الوقت متأخرًا حيث كان الوقت غسقًا.

في اللحظة التي وقفت السيارة عند باب البيت ذي البوابة العريضة خرج فتى في العشرينات من باب البيت المجاور والملاصق تقريبًا وهو يحمل كيسًا للمقامة وضعه قرب بابهم. انتبه للسيارة التي توقف عند باب البيت المجاور والتي لا تبعد

سوى مترين عن بابه. لم يتحرك من مكانه وظل واقفًا مع فضول لمعرفة مَن في السيارة وماذا يريدون؟

نزلتْ حوّاء السيد من السيارة وطرقت الباب. لم يستجب أحد ولم تشعل الأنوار في أية من نوافذه الداخلية. حاولت مرة أخرى بطرقات أشد قوة. كان آدم السيد والأطفال في السيارة ينتظرون ظهور العمة الأرملة. مرَّت دقائق ولا استجابة للطرق. تقدم التى الجار إليها وقال لها بمبادرة توضيحية منه:

- لا أحد سيجيبك..السيدة حواء آل مظلوم متوفية منذ سنوات، ولا يأتي إلى هنا سوى رجل يدّعي إنه أخوها..وهو لم يأت منذ فترة شهرين تقريبًا..! يأتي ليبقى ليلة ثم يختفي.

صُدمت حواء السيد لما قاله الفتى الجار، لكنها لم تعِره انتباهًا. ارتبك الفتى ولم يكن أمامه سوى أن يدخل بيته ويغلق الباب خلفه بالرتاج، بينما استمرت هي في الطرق على الباب ثم انتبهت لجرس كهربائي على جانب الحائط فضغت عليه. لم يستجب أحد فقد بدأت العتمة تهبط على المدينة ويغطي البيت الذي تفصله عن الباب الخارجي ممر وحديقة أمامية.

اقتربت حواء السيد من أخيها وقالت:

- أنا متأكدة من أن هذا هو البيت..لكن ابن الجيران صدمني..يقول إن حوّاء آل مظلوم، وهذا لقب زوجها، ميتة منذ سنوات، ولا أحد في البيت لكن يأتي بين فترة وأخرى رجل يدّعى بأنه أخوها..! بينما أنا كنت هنا عند وفاة أمي قبل شهرين تقريبا..!

أثناء حديث الأخت مع أخيها أُضيئت نافذة من المبنى الداخلي للبيت والذي يعتبر صالة البيت. صُدم آدم السيد لما سمع، لا سيما وهو طوال اليوم يقرأ في دفاتر بأناس هم موتى لكنهم يمارسون حياتهم العادية.!

انتبه آدم السيد وهو في مكانه إلى الضوء في نافذة صالة البيت، فقال لها:

- هناك من في الداخل..أطرقي الباب مرة أخرى أو اضغطي على الجرس.

اتجهت الأخت نحو الباب وقبل أن تضغط على الجرس فُتحت باب البيت، وظهرت سيدة في الأربعين، ترتدي ثوبًا أبيض أنيقًا. ورحبتْ مباشرة بحواء السيد

ودعتها إلى البيت، وفي تلك اللحظات نظرت إلى السائق، فأحس آدم السيد بشعاع خاص انطلق من عينيها نحو عينيه ونظرت إليه بتفحص.

حملتْ الأم ابنها ذي العامين، وأنزلت الآخر الذي في الرابعة، الابنة والمعاق نزلا من الباب الآخر، ولم يجد آدم السيد نفسه سوى أن ينزل ليلقى التحية لياقة على العمة الأرملة، لكنها كانت قد دخلت تتبعها أخته وأطفالها. أحسَّ بالحرج والارتباك، ومع أنه كان يريد العودة إلى شقته مباشرة ليواصل قراءة الدفتر الثالث، إلّا إنه وجد نفسه منجذبًا لهذه السيدة. لا سيما وأن حديث الجار شوَّشه قليلًا. لكنه وجد نفسه يقف عند الباب المفتوح ولم يجرؤ على الدخول، فالسيدة الأرملة لم تدعه، بل لم تتعارف معه، بل حتى إنه لم يلق عليها التحية.

وخلال انشغاله مع نفسه عادت السيدة إليه. اقتربت منه ومدّت يدها لتصافحه، وهي تقول معتذرة:

- عفوًا دكتور آدم.. لم انتبه لوجودك.. أعذرني.. تفضل.. تفضل..

حين مستْ كفه كفها أحس بما يشبه الضربة الكهربائية الخفيفة. كانت يدها باردة، لكنه ضغط عليها بترحاب واضح، وقال لها وكأنه يعتذر عن الدخول:

- لا أريد أن أسبب لك إحراجًا في هذه الساعة من المساء.. أردت أن أوصل أختي لأنها تعتقد أن زوجها سيمُر عليها هنا.

ابتسمتْ له ابتسامة طيبة وأحسَّ على الرغم من العتمة وكأن ثمة هالة من الضوء الذي لا يعرف مصدره تضيْ وجهها الأنيق الملامح الذي تمتزج فيه الأنوثة والأنفة الارستقراطية، وقالت:

- لا ضير.. تفضل أنت.. يسرني أن أتعرف على حضرتك.. فقد سمعتُ عنكَ كثيرّا أثناء وجودك في الخارج.

لم تترك له فرصة، إذ استدارتْ ماشية أمامه إلى داخل البيت فتبعها بعد أن أغلق الباب خلفه.

***

قامت حواء آل مظلوم بواجب الضيافة. استمعتْ لما حصل من أحداث في ذلك اليوم من دون أيّما تعقيب ونقاش من قِبَلِها. وبعد أن هيأت لهم غرف النوم العديدة، دعتهم لأخذ راحتهم بعد هذا اليوم المتعب، وقالت لزوجة أخيها إنها تحب أن تدردش قليلًا مع الدكتور آدم، فهي قد سمعت الكثير عنه. هذا الأمر أسعد الأخت التي كانت تتمنى أن تتشكل بينها وبين أخيها علاقة وثيقة، لذا وافقت أخت زوجها مدَّعِية التعب الشديد على الرغم من حبها للثرثرة النسوية.

كانت الضوء الخافت يمنح الصالة طقسًا يشبه الضوء في لوحات رامبرانت. هكذا شعر آدم السيد لحظتها، فقال:

- يبدو أنك تحببين الأضواء الخافتة.

- صح..وأحب النبرة الخافتة أيضًا..وكذلك أحب الأسرار التي يكتنفها الغموض حتى لو أعلن عنها..!

- لماذا؟

- لأنني مليئة بالأسرار..ولأن الحياة مليئة بالأسرار، وسر أسرار الحياة هو الموت..!

شعر آدم السيد بأنه أمام شخصية كأنها خرجت من الدفاتر الثلاثة التي تركها في البيت..! فسألها بشكل خارج سياق الحوار:

- ما هي مهنتك بالظبط.!؟

نظرت إليه وعلى وجهها ابتسامة حزينة وقالت:

- مهنتي التفكير، كما قالها راسكولنيكوف في رواية «الجريمة والعقاب» عندما سؤل عن مهنته في التحقيق..!

نظر إليها متأملًا. بدت مهيبة وحزينة في جلستها وانطواء ساقيها فوق بعضهما كلوحة زرقاء شهيرة للشاعرة آنا آخماتوفا، وقال لها:

- إنها مهنة صعبة وثقيلة جدًا. وقد كان كافكا دقيقا حينما قال: "إن العالم الذي في رأسي أكبر من العالم الذي رأسي فيه".

فجأة نظرت إليه، فانتبه إلى شعاع بارد انطلق من عينيها، وكأن عيونها من زجاج بارد، وقالت له:

- أنت تعرف أن جوابي السابق عن مهنتي هو مجرد استعارة للتعبير عن انهماكي بأفكاري.. فأنا متخصصة في الرياضيات.. وربما يخطر في ذهنك لِمَ أنا أرملة وبهذا العمر..!؟ ومَن كان زوجي؟ وربما سمعتَ من جاري بأنني قد أُعدِّمتُ قبل سنوات..!؟ أليس كذلك..!؟

ذهُل آدم السيد وأحس أن الأمر غير طبيعي، لكنها استمرت وعلى وجهها ابتسامتها الحزينة:

- أنا الدكتورة حواء آل مظلوم، أخت آدم الميكانيكي زوج أختك، وزوجة الدكتور آدم آل مظلوم، وهو عالِم معروف في الطب. تزوجنا بعدما رجع من الخارج، وبالتحديد من ألمانيا، حيث تخصص في فرع طبي خطير مرتبط بالبايولوجيا والتحليلات المختبرية. كنتُ حينها قد حصلتُ على الدكتوراه في الرياضيات من لندن. كنت متفوقة على كليتي في النصف الأول من السبعينات، وكنت حينها نشيطة سياسيًا في كليتي. كنت ماركسية، فأرسلني الحزب الشيوعي في زمالة دراسية إلى موسكو لدراسة الرياضيات أنهيتها ورجعت إلى البلاد، وعُينت معيدة في كلية العلوم. وحدث إن التقيت بزوجي الدكتور آدم ذي الميول اليسارية أيضًا، لكنه الليبرالي الذي كان يرفض أن يحبس بآيديولوجية ما. لقد أثار إعجابي الشديد بحسه الإنساني العالي وثقافته النخبوية جدًا من دون تعالٍ أو غرور..، لكن كما تعرف تدهورت الأمور السياسية في البلاد في السنتين الأخيرتين من السبعينات، ومع الثمانينات اشتعلت الحرب على البوابة الشرقية كما أطلق كاتب عربي على شرق البلاد. وسقط مئات الألوف من الضحايا، وتمتْ عسكرة البلاد بكل مفاصلها. ولأن تخصص زوجي كان الطب، وفي تخصص دقيق هو التحاليل الكيمياوية، لذا ساقوه إلى الجبهات، ومع اشتداد المعارك أخذوه إلى المختبرات، وكان هو مُجِدٌّ في عمله، ولأنه عالم حقيقي، ولحسّه الإنساني، ولكثرة الضحايا، فقد تقدم بمقترحٍ علميٍ لافت وهائل وهو محاولة تطوير فصائل الدم وتوحيدها، بحيث يمكن

أن يحولها جميعًا إلى فصيلة «O» كي يمكن استخدامه للجميع، لأنه الدم القابل للامتزاج مع جميع أصناف الدم الأخرى. لكن الحرب وهستيريا السلطة لم تمنحه الفرصة، فقد نُقل إلى السماوة، وبالتحديد إلى سجن نقرة السلمان الذي كان فيه المئات من شباب المساكين الذين أجبروه على أن يجري عليهم تجارب جرثومية كيمياوية، وطُلب منه أن يسحب دمائهم كي ترسل إلى المستشفيات المتنقلة في جبهات القتال.

كان آدم السيد يستمع إليها بانتباه شديد، فخلال هذه الفترة لم يكن هو موجودًا في البلاد ومعلوماته مبتسرة عمّا جرى، لذا راوده شك في حقيقة ما حدث، ولكي يهرب من شكوكه سألها:

- وماذا جرى؟ ماذا فعل أمام هذه المحنة الأخلاقية؟

صمتت للحظات، ثم واصلت:

- لا شيء.. لكنه تذمر ربما في لحظة تعب أو لحظة ضعف إنساني، فعبّر أمام حارسٍ مرافقٍ له من أبناء منطقة السلمان عن تعاطفه مع هؤلاء الشباب المساكين الذين تم تهجير أهاليهم إلى بلد مجاور، بينما هم في هذا السجن العريق، في هذه القلعة المهجورة في الصحراء، حيث يتم استنزاف دمهم، وكذلك يتم اجراء التجارب الجرثومية عليهم.. فأسرع ذلك الحارس الجاهل ليبلِّغ المنظمة الحزبية هناك عمّا فاه به زوجي فتم اعتقاله...

بعد أيام، وذات فجر طُرق الباب، ظننته جاء في إجازة، لكني فوجئت بضابط وخلفه سيارة فيها سائق ينتظر. انتبهتْ إلى أنني أثرت أعجابه وذلك من نظراته الفضولية المليئة بالرغبة الناعمة. سلّمني مغلفًا أصفر اللون، عرفتُ أن فيه كتابًا رسميًا. شحب لوني وارتعشتُ خوفا.. فقال لي بنبرة متعاطفة: "اقرأيه"..! لم أود ذلك فبادر هو فأخبرني بمضمونه شفويًا، بأن زوجي آدم آل مظلوم هو خائن وقد تم إعدامه وهذه شهادة وفاته..!

تمايلتُ يأسًا وجزعًا وكدت أسقط على الأرض، فاحتضنني بحركة امتزجت فيها المبادرة مع الرغبة في الاقتراب مني ومسي. بعد لحظات نفرتُ من بين

ذراعيه. والغريب إنني لم أبك أو أصرخ أو أندب، لكني كنت مرعوبة جدًا..

ومن دون أن ينتبه السائق أخذ الضابطُ المغلفَ من يدي وكتب عليه رقمًا.. ومدّ لي المغلف ثانية، وقال لي: "إذا أردت رؤية جثة زوجك اتصلي بي على هذا الرقم، ويُفضل أن يكون اليوم لأن غدًا ربما لا تجدين الجثة.."! ثم صعد سيارته وغادر...

يمكنك أن تتصور حالتي في ذلك الفجر المخيف..! عدتُ لهذه الصالة التي نجلس فيها الآن. كنت صامتة، وخائفة، ووحيدة، وجامدة الأعصاب.

هل تصدق إنني أردتُ أن أبكي حسب متقتضيات الحالة، لكني لم أجد دمعة في جفنيّ..!! وعلى غير العادة ارتديتُ ملابسي واحتسيت قهوتي بهدوء كئيب، وغادرت البيت إلى الكلية مبكرة جدًا. حتى بوّاب الكلية استغرب وصولي مبكرة.

المهم.. انتظرتُ إلى الساعة التاسعة، فاتصلت بالرقم الذي أعطاني إياه الضابط فرفع الهاتف وكأنه كان ينتظر اتصالي وسألني: "أين أنت؟" فقلت له: " أنا في الجامعة"، فقال: " سأنتظرك عند الجهة المقابلة للباب الرئيسي بعد ساعة".. وهذا ما جرى..!

ربما لا تستطيع أن تتخيل الحالة التي كنتُ فيها.. رعبٌ حقيقي بل شلل في التفكير المنطقي، وجمود عاطفي مخيف.

هل يمكنك أن تتخيل امرأة تستلم إشعارًا وشهادة وفاة بإعدام زوجها العالم الجليل باعتباره خائنًا!!، بينما ترتدي هي ثيابها لتذهبت مبكرة إلى الجامعة من أجل أن تتصل بالضابط الذي حمل إليها شهادة الوفاة، ناهيك عن إنها تدرك إن هذا الضابط لا يقدم مساعدته لوجه الله ولإرادة الخير فيه، وإنما لأنها أثارت إعجابه ورغبته..!

المهم.. وفي الموعد المحدد كنت انتظر في المكان، بل كنت هناك قبل الموعد بعشر دقائق. وفي الموعد جاء. أشار لي بأن أصعد السيارة فصعدتُ.

ما إن تحركتْ السيارة حتى قال لي بأنه يخاطر من أجلي فما يقوم به يستحق الإعدام، لكنه منذ النظرة الأولى لي شعر إنه يحبني، وأنه يعتذر لقول ذلك بينما

أنا في مثل هذه الحالة..لكنه إنسان واضح..وأنا دكتوراه في الرياضيات وأعرف أن أحسبها بالطريقة الصحيحة: ماذا تعني مساعدته لي ومغامرته من أجلي وكم يكون نتيجة حسابها..! كان كلامًا جنسيًا مفضوحًا بلغة الرياضيات..!

قاد السيارة في منعطفات غريبة وكأنني أدور في مدينة غريبة وليس المدينة التي ولدت وترعرعت فيها. وفجأة، التفّت السيارة لتدخل مكانًا مغلقًا يشبه الكراج الخاص الطويل. ووقفنا أمام ما يشبه دكان مقفل يقف عنده رجل مدني. نزل الضابط من السيارة فأدّى المدني التحية له، ولا أدري بماذا حدّثه إذ بعدها انحنى الرجل فرفع كابينة الدكان، فبدتْ صالة طويلة كأنه لا نهاية لها، تتمدد فيها على طولها من الجوانب والوسط أسرّة تحمل جثثا مغطاة!! عشرات، بل مئات الجثث..! حين دخلت وجدت نفسي في مكان تفوح منه رائحة الموت الباردة وعطن الجثث وزنخ الدماء.. وعرفت إنني في مشرحة، أو مكان سري لحفظ الجثث، وأن جثة زوجي الحبيب هنا..!

تقدَّم الضابط بينما كنت أسير خلفه كأنني نائمة ومسلوبة الإرادة ومفرَّغة المشاعر. وقفنا عند سرير حديدي فوقه جثة مغطاة بشرشف ملوث بالدماء..! ويبدو إن السرير قد أُستخدم لعشرات الجثث. أدركت لحظتها إنني أقف عند جثة زوجي... أزاح الضابط الشرشف عنه. كان وجهه مشوهًا من التعذيب ومحري عينيه فارغين إذ اقتلعوا عينيه..!

نظر الضابط إليّ فرأى إنني صرت شاحبة بل زرقاء اللون. وكان الحارس المخبر واقفًا على مبعدة، فقال الضابط لي ليسمع ذلك الحارس: «هل هذا زوجك؟ لقد أعدم لخيانته للحزب والثورة»..! وألقى الشرشف على وجهه. وغادرنا ذلك المكان المخيف.

حين غادرنا المكان أعاد وكرر لي الكلام نفسه عن مخاطرته التي قد تلكفه حياته وأن عليّ تقدير ذلك، وأضاف بأنه يعرف بأنني سأكون مراقبة، لا سيما وأن المعلومات عني لا تبشر بخير، فهم يعرفون بأنني كت شيوعية، وأن سفارة بلادنا في موسكو قد أرسلت تقارير عني وعن نشاطي هناك، وأنهم لم يعتقلوني حينما عدتُ

لأن الوضع السياسي في البلاد لم يسمح بذلك، لكن الآن وبعد إعدام زوجي فقد تم فتح ملفي القديم.. وإنه سيحميني، وإذا اقتضى الأمر يمكنني أن أعيش في شقة خاصة يملكها على أن يمر عليّ حسب ظروفه كي لا ينتبه الجيران لغيابه..! وقال: «نحن نتجه الآن لأريك الشقة»..!، فاعتذرت منه بأن لديّ محاضرات وقد تأخرت ويمكن تأجيل ذلك لمرة أخرى لكنه كان متوترًا وربما لم يشأ أن يفلت فرصة وجودي معه في السيارة، فتوجه بالسيارة إلى حيث تقع شقته كما يبدو.. وفي تلك اللحظات صارت أمامنا سيارتان أجبرتاه على أن يخفف السرعة، لكني انتبهت إلى أن وجهه صار شاحبًا. حاول التملص والهرب منهما، وفي لحظة ما أوقف السيارة وقال لي: «انزلي بسرعة وغادري». ولم يتحرك سوى عشرين متًار حتى تم إطلاق الرصاص عليه وعلى سيارته التي اصطدمت بجدار اسمنتي..!

عرفت أنه كان مراقبًا، ربما نتيجة وشاية حارس المكان والتبليغ عن مجيئنا لرؤية الجثث. في تلك اللحظة أخذتُ سيارة أجرة وجئت إلى هنا، إلى بيتي. أخذتُ بسرعة شديدة كل ما لديّ من أموال وبعض القطع الذهبية وغادرت.

كنت أعرف أن رفاقي القدماء، الذي ابتعدت عنهم منذ رجوعي من موسكو وزواجي من الليبرالي الدكتور آدم آل مظلوم يعيشون في ظروف صعبة وهبطوا إلى القاع والعمل السري. ووجدت نفسي لا إراديًا أتمنى التوجه إليهم. لكن كيف وأنا لا أعرف أين أجد أحدًا منهم..!؟. وفكّرتُ مع نفسي بأن مهمتي الآن أن أعيش متخفية في العاصمة. توجهت إلى الشارع الشهير الذي تباع فيه أنواع الملابس والأقمشة. دخلت محلًا لبيع العباءات وخرجت وأنا في عباءة سوداء.

كان لديّ مبلغ جيد يكفيني لشهور عديدة. فجأة انتبهت لأمر غاب عن بالي تمامًا، إذ أنني لتوهاني فاتني أن آخذ جواز سفري ووثائقي معي. وقرّرتُ أن أتسلل إلى البيت ليلًا. ولكن إلى أن يأتي المساء ساعات طوال. كنت مخذولة ولا أعرف إلى أين أذهب، ووجدت نفسي لا إراديًا أجوب أسواق فأدخل المكتبات وأطيل بقائي فيها، فصار أصحابها ينتبهون لهذه المرأة التي في العباءة التقليدية بينما هي تطيل في تقليب الكتب من دون أن تشتري كتابًا.

رجعتُ إلى سوق الأقمشة والذهب، فانتبهت إلى رجل يلاحقني. ربما ظنَّ أني عاهرة. فقد كان وقحًا في النظر إليّ بل إنه استغل زحمة السوق الضيق فأطبق بجسده عليّ بالكامل من الخلف. ولم يكتف بذلك وإنما مسكني من مؤخرتي. أردت أن أصرخ به وأضربه، لكني انتبهت فورًا إلى أن ذلك سيلمّ الناس عليّ، وربما سيقودني ذلك إلى ما لا يحمد غقباه. فحاولت تجنبه جهد الإمكان. ولأنني لم أصرخ فيه أو أضربه فقد ظنَّ ذلك الأحمق بأني راضية لكني أبدي التمنع غنجًا، فزاد من تحرشه الجنسي..، إذ ما إن خرجت من السوق حتى اتجهت إلى الساحة القريبة التي يتوسطها تمثال شاعر معروف، ووقفت عند موقف محطة الباص، وحين جاء الباص صعدت فقط لكي ابتعد من المكان وانتقل الى الجانب الآخر الغربي من المدينة حيث بيتي.

كان الباص مزدحمًا بشكل غريب في تلك الساعة من الظهيرة. فجأة، صرت محصورة بين مجموعة من الأجساد الخشنة المتلاصقة لرجال غلاظ. ولكي أتشبث بالعمود الموجود قرب أحد الأبواب الداخلية وجدت نفسي وقد صرت في أحضان رجل من الأمام بطريقة مثيرة، بحيث التصق صدري بصدره وبطني ببطنه وتماس أسفلي بمنطقته الوسطى. أُحرجت، وحين أردت أن أزحزح نفسي من هذا الوضع الجسدي تأملته لأرى كيف هو يشعر، ففوجئت به لأنه كان الرجل الذي تحرش بي في السوق نفسه. كان قصيرًا بالنسبة لي، لكنه كان ينظر إلي بوقاحة لم أفهم من أين أتى بها، ولماذا هو ينظر إليّ وكأنني شخص يعرفه..!

هناك الكثير من الرجال الوقحين والمتهورين، لكنهم من الأذكياء والعارفين بالسلوك البشري. وقد كان هذا الرجل منهم. ولأنه كان يعرف بأنني لا يمكن أن أصيح وأصرخ، ومن جهته لديه تبريره بالزحمة الحقيقية في الباص، بل وربما سيقلب الأمر عليّ بأنني من تحرش به وأدعي الفضيلة، لذا فقد مد يده مباشرة إلى ما بين فخذي وكأن الأمر ليس بإرادته. صُعقت وأردت ضربه، لكنني كنت في وضع خطير، وفي وضع نفسي لا يمكنني الاهتمام بمثل هذه الأمور إذ أن حياتي على المحك.

حاولت أن أزحزح نفسي بطريقة عنيفة نوعًا ما حتى إن بعض الذين يحيطون

بي التفت نحوي، ومنهم من دردم مع نفسه بكلمات غير واضحة. المهم أزحت نفسي كي أتهيأ للنزول في المنطقة المقبلة فقط تخلصًا من الوضع الذي أنا فيه، فاستدرت بالكامل لكني فوجئت به يلتصق بي بقوة من الخلف، بل انتبهت لقضيبه المنتعظ وهو يضغطه بقوة على مؤخرتي، بل ومد ليرفع عباءتي من الخلف ويمد يده من الخلف بين فخذي، فلم أستطع الصبر فضربته بكوعي بحركة قوية إلى الخلف فجاء كوعي في وسط وجهه، فصرخ صرخة توجع وابتعد عني. وبينما أخذ البعض ينزل أسرعت بالنزول.

أخذتُ أتجول في المنطقة الأخرى بعد الجسر، ولأني لا أعرف لبس العباءة فقد كنت أحيانًا أتعثر بها، وتنزلق عن رأسي. لو كنت رجلًا لهان الأمر، إذ كنت أجلس في مقهى، أو بار، أو أدخل مطعمًا، أو أقضي الوقت بقاعة لعرض الأفلام، لكنني امرأة..!

تصور حالتي في ذلك اليوم. كنت تائهة حقيقية وأشعر بالضياع. امرأة، أستاذة جامعية، يُعدم زوجها بعد تعذيب بشع لسبب غامض، ويحاول ضابط حقير يبدي طيبته من أجل أن يتخذها عشيقة، ثم يتحرس بها رجل قميء منحط ويعاملها بابتذال كأنها عاهرة سوقية، وتتوه في المناطق السكنية والأزقَّة لا تعرف إلى أين تمضي..! تصور كيف كنت أشعر حينها..!

الإنسان كائن غريب. تصور الوضع الذي كنت فيه، ومع ذلك كنت أفكر كيف أنقذ نفسي، حب الحياة غريزة طاغية، لقد كان فرويد محقًا. لم أفكر في دفن زوجي فمحاولتي البحث عن جثته تعني موتي وإعدامي أيضًا، كذلك لم أتصل بأخي الذي كان في المدينة نفسها ولم ينتقل بعد زواجه إلى مدينته الحالية، ولم أفكر بالضابط الذي قتل لأنه ساعدني في رؤية جثمان زوجي، ولا في وضعي الجامعي. كنت أفكر في إنقاذ نفسي، إنقاذ وجودي البايولوجي الجسدي. وفجأة، قررت مع نفسي أن أمشي إلى بيتي وأراقبه من بعيد فلربما لا أحد هناك.

حين وصلتُ إلى عند مقر نقابة الفنانين ومحطة الباصات والسيارة التي تتوجه إلى دمشق وعمَّان راودتني فكرة أن أسافر إلى الشام أو عمَّان، المهم أن أذهب إلى البيت وآتي بجواز سفري.

كان الوقت غروبًا، لذلك أردت تمضية الوقت إلى أن يحل الظلام. فتجولت في الأسواق الموجودة في منطقتي إلى أن عتمت السماء فتوجهت ماشية إلى منطقتي القريبة من هناك. وحين وصلت الشارع الذي نحن فيه الآن كان الظلام قد حل.

انتبهت جيدًا إلى أن الشارع كان فارغًا. اقتربت من بيتي هذا. ووقفت أمام الباب ونظرت من خلال البوابة لأتأكد من أن البيت فارغ فعلًا.

فتحت البوابة ودخلت مسرعة. حين صرت في داخل البيت، ذهبت مباشرة إلى غرفة المكتبة، ومن هناك فتحت دولابًا خاصًا للوثائق، فأخذت جواز سفري ووضعته في حقيبتي الجلدية، كما أخذت شهاداتي العُليا مع ترجماتها المصدَّقة ووضعتها في مغلف كبير ووضعتها أيضًا في حقيبتي الجلدية.

فجأة سمعت ضجيجا خفيفًا جاء من الطابق تحت الأرضي، الذي كان زوجي قد حوَّله إلى مختبر شخصي له يجري فيه تجاربه وتحليلاته. كان الصوت أشبه بسقوط كأس زجاجية. ارتعبت ووقفت خلف الباب. ظننت أن رجال المخابرات قد دخلوا البيت وهبطوا إلى الطابق تحت الأرضي.

كنت خائفة.. لكني لم اسمع أية نأمة، ولا صوت كلام ولا حركة نشيطة. ومع ذلك حذري أجبرني على أن انتظر أطول فترة ممكنة، لكني لم أسمع أية أصوات مريبة أخرى.

وما إن هممتُ أن أخرج من مكمني خلف باب غرفة المكتبة، وأحاول أن أتأكد من المختبر، حتى سمعت صوت باب غرفة في الطابق تحت الأرضي يغلق. وصوت حركة ما تتجه نحو الدرج، فتأكدت من وجود أحد ما تحت، وأنه قرر الصعود.

بقيت جامدة بل وضعت كفي على فمي كي لا أصرخ لا إراديًا. فجأة أحسست بالباب يُدفع نحوي قليلًا. إذن هناك من يريد دخول الغرفة. ومن مكاني انتبهت مرعوبة إلى أني نسيت حقيبتي الجلدية على المكتب.

أحسست بوجود شخص ما أمام الباب عند عتبة غرفة المكتبة. ويبدو أنه كان ينظر إلى المكتب وشك بوجود شخص ما. صار الشخص أقرب. فجأة سحب الشخص الباب نحوه ودخل، وصار واقفًا عند المكتب. ما إن رأيته حتى كاد يغمى

عليّ. فقد كان الشخص هو زوجي الدكتور آدم آل مظلوم، وبحركة سريعة جدًا التفتَ ناحيتي. وجمد كلانا. لم أصدق الموقف. ولولا أنه نطق باسمي وسمعت صوته لظننته شبحًا. قال لي بصوت متوتر وخائف:

- حواء أنتِ هنا؟ أين كنتِ؟ خِفت إنهم اعتقلوك؟

- أنت حي أم شبح..! تمتمت بصعوبة.

- أنا زوجك آدم..! ما بك؟

- رأيت جثتك اليوم؟

- رأيتي جثتي..؟

أخذني من يدي وضمني إليه. كنت من هول المفاجأة مسبلة الذراعين، لكني انتبهت لذراعيه تحيطانني، وفجأة سحبتُ نفسي من بين ذراعيه وابتعدت خطوات وأنا أنظر إليه، وقلت له:

- اليوم استلمت إخبارًا وشهادة وفاتك بالإعدام باعتبارك خائنًا للحزب والثورة..! ورأيت الجثة مقتلعة العينين..!

- أعرف..

- تعرف؟

ابتسم لي برقة وأخذني من كفي وجئنا إلى الصالة، إلى هذه الصالة، جلست أنا حيث أنا الآن جالسة، وجلس هو على المقعد الذي تجلس أنت عليه الآن، وكأنني استعيد المشهد كله الآن في حضرتك..!

أتعرف..! كان طبيعيًا جدًا وكأن شيئًا لم يحصل، كنت أنتظر أن يفسر كل ما حدث، لكنه قبل أن يروي لي الحكاية، سألني عن كتاب "أصول الرياضيات" لبراتراند رُسل، وعن سؤاله عن تطابق المنطق بالرياضيات..! وكيف كان الصراع بين الفلسفة والرياضيات يدور حول المنطق، لا سيما بعد أن اقترب المنطق من الرياضيات وظهور ما يسمى بالمنطق الرياضي..! ولأن المنطق هو جوهر

الرياضيات فهذا ما جعل الصراع حول المنطق مقبولًا من جهة، ومن جهة أخرى لا مبرر له...! لكنه من جهة أخرى حدثني عن الأعداد.. وسأل عن جوهر العدد، ومعنى رموزه.. ومعنى التوالي.. ومعنى الأعداد الصحيحة والأعداد الحقيقية والأعداد النسبية، ولكنه عقّب بأن علاقة المنطق بالرياضيات لا يزال معضلة، ثم كيف أن الفيزياء على خلاف الرياضيات اقتربت من الفلسفة، لا سيما في عالم الكوانتات، لكنه عاد إلى مفهوم العدد لا سيما الصفر والعدد واحد ١. ثم عاد لفكرة أن كل شيء في الكون قائم على وحدة وصراع الأضداد، إلا الرياضيات فهي تسعى إلى المنطق الرياضي وعدم التناقض..!

كنت أستمع إليه مذهولة، فاختصاصه إلى حد ما يتضمن الرياضيات من دون تخصص وتعمق في أسئلتها. وعلى الرغم من تمتعي بحديثه إلّا إني كنت انتظر أن يحدثني ويفسِّر لي أحداث ما جرى اليوم الذي كدت أن أتحول فيه إلى عاهرة..! ومع ذلك قال إنه من خلال الرياضيات اقترب من نتائج بحثه في توحيد فصائل الدم إلى صنف واحد. لحظتها قاطعته قائلة بطيبة:

- حبيبي آدم..أنا متخصصة بالرياضيات كما تعرف ويعجبني تفكيرك بهذه المسائل التي هي ليست بعيدة كثيرًا عن تخصصك العلمي..لكني أريد تفسيرًا للأحداث التي جرت اليوم..؟ ما معنى كل هذا؟ ما معنى قصة إعدامك ورؤيتي للجثة في المشرحة السرية، وقصة الضابط الذي أرادني أن أذهب معه إلى شقته ومن ثم قتله ومحاصرة سيارته.. وفوق هذا كله أنت هنا الآن بكامل صحتك وعافيتك..!

نظر إليّ بعيون مليئة بالطيبة، وقال لي:

- نعم حبيبتي حواء.. كل ما جرى كان حقيقيًا.. لقد تم إعدامي نتيجة وشاية من حارسي ومرافقي في موقعي، ومَن مِن أبناء المنطقة..! وكما تعرفين وأخبرتك ذات مرة بأن مليء بما يقارب ٧٠٠-٨٠٠ من الشباب الذين تم تهجير أهلهم إلى بلد مجاور..! وكان عليّ أن أقوم بمهمتين، الأولى أن أسحب دمائهم يوميًا، وأن أرسل أكياس الدماء تلك إلى مستشفيات العاصمة، وهم بدورهم يرسلونها إلى الجبهات.. كان هؤلاء الشباب مثل الأبقار المدجنة، نسحب من كل واحد لترًا من

الدماء ونتركه لبضعة أيام يسترجع فيها دمه لنأخذ منه الدم مرة أخرى، إلى جانب إجراء التجارب الكيماوية عليهم..! تجارب الأسلحة الجرثومية..! حيث كانت محارق الجثث التي تموت متقدة على مدار اليوم..!

وذات يوم انهار شاب في الثامنة عشرة من العمر ولم يصمد نتيجة هبوط حاد في القلب، فتأثرت، وأبديتُ تعاطفي مع هؤلاء الشباب قائلا: "لا يمكنني رؤية كل هذا الموت المخيف والمجاني"، ولم يخطر في ذهني ونحن في أقاصي الصحراء أن تصل همسات تعاطفي إلى أذن السلطة المرعب..! ففي الليلة نفسها جاءت سيارة عسكرية وأخرى مدنية لتأخذني من فراشي بعدما انهالوا عليّ بالضرب الموجع. وجاءوا بي مباشرة إلى العاصمة..! وهنا وفي القاعة تحت الأرضية التي فيها صالة الجثث حيث كنتِ هذا الصباح، هناك أحاطني الرجال بالبدلات الزيتونية، وأخذوني إلى غرفة جانبية، وقالوا لي: "أنت لا تستطيع رؤية الموت المجاني للخونة والجواسيس.. سنجعلك لا ترى شيئًا أولًا..". الغريب كان بين الذين عذبوني طبيبان أحدهما ممارس يعمل في إحدى المستشفيات والآخر كان أستاذًا في كلية الطب.. أعرفهما لكنهما تصرفا وكأنهما لا يعرفاني أبدًا.. وهكذا تم اقتلاع عيني من محجريهما..! قام بها الطبيبان تحت أعين ووجود الرجال في الملابس الزيتونية.

كنت أستمع إليه بينما الخوف يسري في كل جسدي، لكن أوضح لك.. كان خوفًا فيه توجس وبعض الأمان..! على الرغم من خروجه عن كل معادلات المنطق العقلي. وانتبه للخوف الذي لامس روحي، فقال:

- لا تخافي..أنا ميت نعم..لكني عدت للحياة..ربما لا تؤمنين بذلك لكنه حقيقة.. ها أنتِ تجلسين معي وتسمعين حديثي وترينني.. بينما رأيتِ جثتي مسجاة على السرير الحديدي المتحرك صباح هذا اليوم..والحقيقة أنا أريد أن أواصل تجاربي في توحيد فصائل الدم، لذا جئت لآخذ ما أستطيعه من آلات التحليل والمزج والتجارب لأنقلها إلى الفندق الذي استأجرت غرفة فيه ستكون ملجأي ومختبري.

- فندق؟ ولماذا فندق؟ وأي فندق..؟

انتبهت لنفسي بأنني أتعامل معه كواقع حي فعلًا. ابتسم هو لي بطيبة وكأنه أدرك ما مرق في ذهني من خاطر، وقال:

- نعم نزلت في فندق بالمدينة القديمة.. فندق اسمه «باب السماء».. لا يمكنني البقاء هنا ولا أنتِ..اتصلي بأخيك ليجيء إلى السكن هنا، وسجلي معه عقد بيع رسمي كي لا تتم مصادرة البيت..! وأنتِ حاولي السفر إلى سوريا، ويمكن الرجوع إلى موسكو أو تتجهين إلى أوروبا..! شخصيًا سأكون معكِ دائمًا.. وتعرفين مكاني الذي سيكون دائمًا في فندق «باب السماء».

استغرب آدم السيد حديثها، وسألها بدهشة:

- فندق «باب السماء»؟

- نعم..

- هل كنتِ هناك؟

- نعم فيما بعد قبل سنوات بعد رجوعي..! لماذا تسأل..؟

ارتبك آدم السيد ولم يستطع أن يحدثها عن جثة الأجنبي الذي وُجِدَ ميتًا في هذا الفندق ولا عن شخصيات الدفترين اللذين قرأهما..وفي تلك اللحظة ودّ لو كان قد قرأ الدفتر الثالث فلربما عندها يستطع فك اللغز.. لكنه وجد نفسه يقول لها:

- واصلي دكتورة حواء حديثك..

نظرت إليه باسترخاء وطيبة وسألت إن كان يود أن يشرب شيئًا، لكنه اعتذر بالاكتفاء، وأن عملًا مهمًا ينتظره، فابتسمت ونظرت إلى الأرض، بينما ملامح وجهها تشي بمعرفتها بما يرمي إليه من عمل.. وقالت:

- أعرف أن لديك مهمة خاصة بحكم تخصصك المهني ولن أطيل عليك.. المهم زوجي طلب مني توقيع عقد بيع الدار لأخي عند مكتب من مكاتب العقارات وإلا فأنهم سيصادرونه، وبعد أن تنتهي من مسألة بيع الدار عليّ السفر مباشرة إلى سوريا ومنها إمكانية سفري إلى بلاد أخرى..

أحسَّ آدم السيد بالتشويش، وفكّر مع نفسه بأنه ربما يحلم تحت تأثير الدفاتر التي قرأها، والتي تكتظ بالموتى الأحياء، فما معنى عودة زوجها المعدوم، وما معنى قولها إنها أُعدمتْ بينما هي جالسة تحدثه؟ وأراد أن يسألها، لكنه أجّل السؤال هذا لأنه أراد أن يعرف حكايتها، فسألها:

- وهل سافرتِ في ذلك اليوم حقًا؟ وإلى أين؟

ابتسمت لأنها أدركت أنه مهتم بحكايتها وأعجبها ذلك، فقالت:

- نعم سافرت إلى سوريا أولًا.. بقيت فيها ما يقارب السنة، لكني خلالها سعيت للبحث عن عمل كأستاذة جامعية في الرياضيات فلم أجد فرصة، وراسلت جامعات عربية، فحصلت على فرصة في بلد عربي شمال أفريقي. بقيت هناك أربع سنوات، ثم انتقلت لبلد مجاور له أربع سنوات أخرى، ومن هناك سافرت لبلد أوروبي، لكني لم أحصل على فرصة عمل، فطلبت اللجوء السياسي، وبقيت لسنتين انتظر الموافقات إلى أن صار وضعي قانونيًا، لكني فقدت الرغبة في التدريس والعمل، وأردت أن أعيش حياتي، لا سيما وأنني توجهت عميقًا إلى الفلسفة التي أعادتني مجددًا إلى الرياضيات والمنطق والفيزياء. ووجدت القوة في المعرفة..!

- كيف هذا..؟ سأل آدم السيد بفضول مستزيدًا معرفة ما جرى.

- المعرفة قوة.. قولي هذا ليس بجديد، فقد قاله المفكر فرنسيس بيكون وردده مؤكدًا عليه بعده المفكر توماس هوبز الذي كان صديقه وسكرتيره.. القوَّة ليست في العضلات. صحيح إن النساء أضعف من الرجال من الناحية العضلية، لكنهن أقوى من الرجال في تحمل الألم، أتعرف إن آلام مخاض الولادة لا يستطيع الرجال تحملها!

القوة لا تظهر عادة في العضلات أو في الضخامة، وإنما تكمن في القوانين، فرافعة صغيرة والتي نسميها "جك" يمكن أن نحملها بكف واحدة، نستطيع بها وفق قوانين المعرفة أن نرفع شاحنة عملاقة عند تبديل إطار من إطاراتها.. بل إن المعرفة أقوى بما لا يقاس من البشر والرافعات، سواء كانت صغيرة أو عملاقة، فالقوة الحقيقية هي في معرفة القوانين الفيزياوية والرياضية...

ومع ذلك لا يمكننا أن نعرف جوهر المعرفة. فهي ليست طاقة غير مرئية ولا أشعة فوق وتحت بنفسجية، وليست افرازات للدماغ تحمل صورًا ومعادلات، بل هي جوهر غيبي، عدمي، لكنه حاضر وموجود مثل العدم الذي يمتد فيما وراء المجرات والكون والوجود والذي يتخلل الوجود أيضًا.

هي القوانين التي تمسك الجسر وناطحات السحاب وتحرك المركبات الفضائية، وتمسك بالوجود المرئي وغير المرئي وتدير دورة الأفلاك والمجرات ودوران الألكترون حول النواة داخل الذرة..

المعرفة التي نعرفها بكل تجلياتها في التخصصات العلمية والإنسانية جميعها ما هي إلا نسمة وأثر ونفحة لتجلِ العقل المطلق والروح المطلق الذي تحدث عنه هيغل، أو تجلٍ للجوهر الحر الذي هو الله كما قال سبينوزا.. أو كما قال ابن عربي: "هو الظاهر لنفسه والباطن عن نفسه، ليس في الوجود من يراه غيره، وليس في الوجود شيء باطن عنه، فهو الظاهر لنفسه والباطن عن نفسه".. نعم لا أحد يعرف كنه المعرفة غير المعرفة نفسها..

كان آدم السيد ينصت باهتمام وفضول، وانتهز توقفها للحظة، فسألها:

- لكنك تقولين كل هذا، وفي الوقت نفسه تقولين إنكِ ميتة..!؟

نظرت حوّاء آل مظلوم إليه وكأنها كانت تتوقع سؤاله، فقالت:

- نعم أنا ميتة، حية، وهل تعتقد إن الموتى موتى؟ لا. لا. إنهم أكثر معرفة بجوهر الحياة من الأحياء، وهم قد عرفوا السر في موتهم، فقد التحموا بالعدم العظيم.. بمحيط المعرفة اللامتناهي والروح الكوني.. هذا ما لا يعرفه الأحياء إلا بعد موتهم..!

وفي تلك اللحظة، سُمع بكاء الطفل الصغير، فقامت بارتباك قائلة:

- هذا الطفل بقي لساعات حيًا قبل أن يلتحق بالعائلة كلها التي ذُبحت عند أطراف العاصمة بغداد..!

- ماذا تقصدين..؟ قال مندهشا بخوف.

أرادت حواء آل مظلوم أن تصدمه أكثر، فقالت بتلقائية:

- أختك وأطفالها كانت عند أمك في زيارة.. وحين رجعتْ أوقفتهم سيطرة طائفية وهمية على أطراف بغداد وذبحتهم كلهم. وحتى الطفل الصغير أصابه جرح عميق، لكنه مات فيما بعد بأقل من ساعة..

فقال آدم السيد مرعوبًا:

- أتريدين القول بأني أختي وأطفالها موتى، وأن هذه ليست أختي.. أم ماذا؟

ابتسمت حواء آل مظلوم وقالت:

- بلى هي أختك وهؤلاء أطفالها، لكنها ميتة، بل كلهم موتى، أو لأقل إنهم موتى أحياء، مثلي ومثل زوجي..!.

شعر بانقباض في صدره وارتعاشة في قلبه، كأنه مقبل على جلطة قلبية أو إغماءة مفاجئة، وأراد مع ذلك أن يسألها، لكن قبل أن يفتح فمه غادرت الصالة، وانتبه إلى أنها ما إن اجتازت المدخل الذي يؤدي إلى الغرف الأخرى حتى انقطع صوت بكاء الطفل وانطفأ الضوء وغرقت الصالة والبيت كله في ظلام دامس.

***

لم يعرف آدم السيد كم مضى عليه من الوقت وهو جالس في الظلام الدامس منتظرًا الدكتورة حوّاء آل مظلوم. كان يود أن يسمع عنها تفاصيل رحلتها لسنوات، لكنه أيضًا كان في توق للذهاب إلى البيت لقراءة الدفتر الثالث. ولم يعد يطِيق صبرًا على الانتظار أكثر، فقام متجها إلى المدخل بين الصالة وبقية الغرف. وقف هناك مرتبكًا. كان الظلام دامسًا. نادى من مكانه بصوت متردد لكن مسموع لمن في الغرف الأخرى:

- دكتورة حوّاء..دكتورة حوّاء..

ظلَّ واقفاً ينتظر ردًا، وحين لم يأته أي جواب، كرر مناداته ثلاث مرات أخرى. وبعد لحظات غادر الصالة، وتوجَّه إلى الشارع.

حين كان في السيارة سأل نفسه عن حقيقة ما رأى وما جرى من أحداث في هذه الليلة. ولكنه فسَّر ذلك بأنه وقع تحت تأثير الدفاتر التي قرأها وغرابة حكاياتها. وأسرع في قيادة السيارة مستعجلًا الوصول إلى البيت كي يقرأ الدفتر الثالث.

***

في غرفة المكتب كان آدم السيد ساهيًا. فزَّ على صوت مفتاح في رتاج باب

الشقة. كان مكتبه في مواجهة الصالة وبمقابل الباب، يعني أنه عادة يرى من يدخل إلى الشقة حين يكون في مكتبه.

في تلك اللحظات فُتح باب الشقة ودخل هو نفسه. كان يرى نفسه وهو يدخل الصالة ويتجه إلى المطبخ.

فجأة، انتبه للأحداث التي جرت منذ لحظة مجيء أخته المفاجئ واحتفاء حوّاء اللبان جارته وأختها بها، وتوصيلها إلى منزل الدكتور الأرملة أخت زوجها.. وها هو يرى نفسه داخلًا؟ من هو إذن؟ هل آدم السيد هو الرجل الذي دخل أم أنه هو الجالس الآن في مكتبه ويفكر..؟

ولكي يتأكد مما يجري له فقد قام وتوجه بحذر شديد إلى المطبخ. كان المطبخ مضاءً لكنه يبدو خالٍ من الكائن الذي دخل..! تجرأ قليلًا وخطى إلى المطبخ.. وعندما صار عند عتبته انكشف المشهد أمامه. لا أحد هنا.. لقد كانت كوابيس يقظة عاشها. ولم يسترح أيضًا لهذا الاستنتاج، فقرر أن يسأل جارته، لكن كيف والوقت متأخر؟ إذن عليه أن يختلق حجة تتيح لجارته أن تأتي إليه.

بعد وقت قليل لا يتعدى الدقائق الخمس طرق آدم السيد باب جيرانه المقابل. وحين فُتح الباب وجد ثلاثة وجوه نسوية تفتح له الباب معًا. كانت جارته وابنتها وأختها. فارتبك حين رآهم، وهنَّ استغربن أيضًا، لكنهن كن فرحات لرؤيته، فقال مرتبكًا:

- عفوًا.. آسف لإزعاجكن.. لقد نفد الغاز في القنينة وأحتاج لاعداد الشاي لأني أسهر عادة.. فهل لديكم قنينة احتياط..!؟ وغدًا سآتيكم بواحدة أخرى.

بهتتْ النساء الثلاث عن سماع ذلك استغرابًا، وقالت له حواء اللبّان:

- مع الأسف لا قنينة احتياط لدينا.. لكنك أعطيتنا فكرة جيدة، فعلينا شراء قنينة غاز احتياط لمثل هذه الطوارئ.

لم يعرف هو لحظتها أن يمد بالحديث، لكن فجأة قال لجارته:

- أنا أشكرك على حفاوتك بأختي..

استغربت جارته تلك الجملة.. لكنها سألت:

- أنا لم أقم بشيء ومع الأسف لم تُتَح لي الفرصة كي أقوم بذلك.. فهي غادرت مع زوجها في اليوم الثالث بعد دفن المرحومة مباشرة..!

أيقن آدم السيد بأن أخته لم تكن موجودة، ولم يجر أي شيء من حضور أخته وأطفالها ولا من حفاوة لها، لكنه مع ذلك أراد أن يكون على يقين من هذا الغموض، فقال لأختها وهو يعنيهما:

- لقد أرسلت لكما السلام..!

ابتسمتا، لكن الأخت علّقت:

- لكني لم أتشرف بمعرفتها ولم أقابلها يومًا..

تماسك آدم السيد على الرغم من صدمة ما يسمع، وقال:

- على أية حال.. آسف على الإزعاج..

انسحب. دخلت الجارة وأختها بينما ظلت الأبنة الجامعية تتابعه بعينيها إلى أن فتح باب شقته، وقبل أن يدخل التفت إليها فابتسمت خجلة كأنه أمسك بها وهي تتلصص عليه فدخلت، ودخل هو.

الفصل الثامن

بلاد الخرافة.. الموتى الأحياء.. والقطط الحكيمة والأشجار

حين صار آدم السيد في شقته، جلس على الأريكة قلقًا، وأخذ يفكر بنفسه، مستفسرًا عمّا يجري معه؟

وتراكمت الأسئلة واحتشدت في ذهنه:

هل أنا مجنون أو إنسان متوحِّد أرى ما لا يراه أحد غيري، بحيث اتخيل عالمًا واقعيًا حيًا لكن بكل وَعيّ بلا منطقيته؟

كيف يمكنني أن أرى نفسي في رحلة إلى الجانب الآخر من الواقع، أو في عالم لم يبدو لي افتراضيًا أبدًا، فهو صلب وواقعي كصلادة الواقع الذي أعيشه وأعيهِ، لكنه أيضًا سائب ومتلاش كالوهم؟

أتُرى ذلك كله بتأثير ما قرأت من دفاتر غامضة؟ كيف لي أن أكون هنا في مكتبي وهناك في الخارج في ذلك البيت الغامض؟ ولِمَ فضحتُ نفسي بالذهاب إلى شقة الجيران الآن لأسأل كذبًا عن قنينة الغاز؟ أتُرى إنني أريد أن استفسر من حوّاء اللبّان عن لقائها بأختي حقًا أم هناك دافع آخر خفي، في أعماقي المظلمة..؟

أتراني منجذب لها وأريدها لي على الرغم من أنني نأيت بنفسي عنها بعد أن سمعتها تلهث تحت ضربات عشيقها الجسدية في مواقع لذَّتِها، لكن هل أنا اتحجج الآن بمسألة أختي كي أراها هي على انفراد؟

لماذا حين واجهتها بعد ذلك المشهد، وتذلّلَت لي وأبدت موافقتها العلنية على أن تكون عشيقتي، رفضت وتعاليت على الموافقة، بينما لا شعوريًا الآن ألهث وراءها متقربا لها..!

لقد ظننتُ أنني أعرف نفسي بأنني لستُ مثل بعض الرجال الذين تطغي عليهم الشخصية الدونجوانية، فيركض وراء المرأة وحين تقع في شباكه وتحبه يشعر بالانتصار، لكنه سرعان ما يفقد حماسه نحوها، فلا يكون منها سوى اللهاث خلفه متمنية التفاتة منه أو كلمة يلبي دفق مشاعرها المتأججه نحوه.

لا.. لست من هذا النوع من الرجال..! بل هناك نساء من هذا القبيل أيضًا، ينجذبن لرجل ما، ويحاولن التقرب إليه من خلال خطط معقدة من المكائد التي تبدو مصادفات عابرة، بحيث تتمكن من اللقاء به والتعرف إليه، وتواصل متابعته والإلحاح في ذلك، وتعمّق علاقتها به، وحين تشعر أنه صار نجمًا يدور في مدارها، تهمله، متعففة أخلاقيًا، أو ربما تتجه إلى شخص آخر.. أنا لست من هذه النماذج.. لكن كيف أفسر لهاثي خلفها وعطشي لرؤيتها.!؟

أتُرى هي المرأة التي أحلم بها.!؟ فما رأيته منها إلى الآن متناقض مع ما أحلم به لحد اللعنة.

لكن حذاري يا نفسي.. حذاري يا آدم السيد، حذاري من المرأة النرجسية ذات المزاج المتقلب، امرأة تهيمن على عالمها النفسي حساسية مفرطة، فهي من جهة عفوية، وطيبة، وتلقائية، وصارمة أخلاقيًا، بل ومفعمة بالعاطفة، فهي أقرب ما تكون إلى طفلة دلوعة وفتاة مجنونة..وفي الوقت نفسه، هي امرأة متناقضة المشاعر والتصرفات، بحيث لا تستطيع فهم نفسها وتناقضاتها.ومع ذلك فهي امرأة تتحرى الكمال في كل شيء.. صعبة الرضا.. لكنها تجهل كيفية التعامل مع الآخر مع أن العلاقات الاجتماعية من أساسيات حياتها.. وعلى الرغم من أنها تسعى لفهم نفسها، لكنها دائمًا مزاجية، ومزاجيتها تجعلها غير أصيلة ومواظبة في الاشتغال على فهم نفسها، إذ في الجوهر لا يهمها أن تفهم نفسها وإنما لتقنع نفسها بأنها إنسانة صادقة مع نفسها وتسعى لفهم ذاتها..امرأة تلبس قناعًا في حفلة تقيمها لنفسها في غرفتها متعددة المرايا.وحوّاء اللبّان واحدة من هاتيك النساء..

هكذا قال آدم السيد لنفسه.

وكان في غمرة تلك التساؤلات والتحليلات الذاتية لنفسه ومشاعره ورغباته عندما سمع طرقًا على الباب. استغرب للحظات وتسائل من عساه يكون؟

حين فتح الباب وجد حوّاء اللبّان وبيدها صينية فيها دورق للشاي الساخن الموضوع على موقد صغير جدًا تتوسطه شمعة كي يبقى الشاي ساخنًا. قالت له إنها لا تستطيع أن تنام بينما هي تفكر بأنه سيسهر من دون أن يشرب الشاي الذي يحبه لذا أعدّته له، فشكرها وقال لها بأنه مُحرَج أن يدعوها إلى الدخول في مثل هذا الوقت تجنبًا لسوء الفهم والإحراج العائلي، لكنها كانت تتمنى أن تكون معه في مثل هذا الوقت الذي يفح لا إراديًا بالشهوة، مع أن ما قاله أثار إعجابها به أكثر، بيد أنها في الوقت نفسه أبدت استعدادها لأن تجلس معه لوقت قصير..! وفعلًا دخلتْ وفي أعماقها مشاعر مختلفة تتصارع، بين الرغبة والخوف وانتظار ما سيأتي.

جلسا في الصالة بعد أن وضعت صينية الشاي على الطاولة.

سألها آدم السيد مباشرة إن كانت اليوم قد التقت أخته وأطفالها عنده هنا في البيت!؟ فنفتْ ذلك وسألته عن سبب سؤاله، فتحدث إليها بسرعة وإيجاز عن حضورها وكيف أوصلها إلى بيت أخت زوجها، لكن اتضح إن الجميع أموات، فأراد التأكيد من إنها قد قابلت أخته اليوم فعلًا أم هي هلوساته لأنه مشغول بقراءة أمر له علاقة بالأموات الأحياء.

ومرة أخرى نفت اللقاء لكنها لم تستغرب حكاية الموتى الأحياء. وسألته إن كان يشك بوجود موتى لكنهم أحياء يمارسون حياتهم اليومية بشكل اعتيادي..؟

لم يجب وبعد لحظات قال لها: "لا أدري، لقد اختلطت عليّ الأمور..ودراستي وعلمي يرجحان عدم تصديق ذلك..!".

ابتسمت له وهي تقوم قائلة: "أنا أؤومن بذلك جدًا".

استغرب وحين سألها بدهشة وفضول: "كيف؟".

ابتسمت وقالت إن عليها الذهاب لأن زوجها سيأتي وسيكون الوضع محرجًا لها..وإنها ستحدثه عن ذلك غدًا.

فيما بعد.. وبعد أن ذهبتْ فكر آدم السيد مستغربًا من نفسه، وانتبه إلى أن المشاعر مثل طبقات جيولوجيا التربة، فحتى لو كان الإنسان متحفظًا، فهذا هو الظاهر، هذا هو سطح التربة، فكلما تعمقت العلاقة وتوغلت المشاعر تظهر

طبقات جديد، قد يظهر الفحم، وربما النفط، أو الماء زلال، بل ربما يظهر الرمل أو الأحجار الكريمة. المهم، مهما ستظهر مشاعر جديدة كانت قابعة تحت طبقات من أقنعة السطح المغلفة بالتحفظات والمعاذير.

شعر آدم السيد بفرح غامر اجتاح أعماقه بعد مغادرة حوّاء اللبّان، فقد اكتشف بأنه يريدها عشيقة وصديقة، وكذلك لأنها وعدته أن تحدثه عما يقلقه، فهي قد أبدتْ تفهما لقضية الموتى الأحياء..! ولم تفاجأ حينما حدثها عن الدكتورة حواء آل مظلوم وزوجها وعن مقتل أخته وأطفالها..!

ووجد في نفسه الرغبة والحماس لقراءة الدفتر الثالث الأخير، فعسى أن يصل إلى نتيجة بصدد الجثة الغامضة التي وجدت في فندق "باب السماء"، فتوجه إلى مكتبه وهو يحمل صينية الشاي، وجلس على كرسية حول الطاولة التي عليها الدفاتر الثلاثة، فوضع الصينية عليه، ثم قام فجأة وذهب إلى المطبخ حيث أخذ كوبًا كبيرًا، فهو لا يستخدم الاستكانات إلا نادرًا لأنه يرتشفها تقريبًا في رشفتين، بينما الفترة أطول مع الكوب.

جلس ثانية على كرسيه، وصبَّ الشاي في الكوب حتى امتلأ، بل واندلق منه على الصينية، فأخذ منشفة ورقية. سحب الدفتر الثالث وفتحه فقرأ:

الدفتر الثالث

وقائع حياة يومية عادية.. عادية جدًا

١

عربيد البستان... وآدم الرهوان - كلاين

كان يَامَا كان، في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، وفي مدينة جنوب العاصمة فتىً اسمه آدم الرهوان. كان يكتب الشعر لنفسه ويُسَوّد الأوراق بحكايات غريبة، مملة، عن البشر والجان، وكان يكتبها بلغة مليئة بسجع الكهان ومحسِّنات البلاغة والبيان.

ذات يوم، وفي قيلولة العصر ذات صيف، أيقظته أمه من النوم، وقالت له بأن صديقه آدم الأخرس يطرق الباب، وهو يحمل مجلة بيده، ويؤشر بيديه ويتأتئ من أجل أن توقظه. فقام من سريره واتجه لصديقه الأخرس. وقبل أن يطلب منه الدخول إلى غرفة الضيوف أخذ المجلة منها وفتحها على الفهرس، فقرأ اسمه موجودًا ضمن فقرة القصص والسرد، حيث نشرت المجلة مقاطع من روايته «الرواية الناقصة لآدم المؤمن».

حين جلسا انتبه لتأشيرات صديقه الأخرس وهو يحرك يديه بما يشير له بقراءة ما منشور. ابتسم آدم الرهوان لصديقه بينما الفرح يشع من عينيه لأنه أخيرًا نشر نصًا سرديًا طويلًا في مجلة عربية معروفة وشهيرة في بيروت.

أشار لصديقه الأخرس بأن يهدأ فهو يريد أن يقرأ النص بنفسه، لكن الأخرس حرك يديه بما معناه أنه يطلب منه أن يقرأ له النص المنشور بصوت عال، فهو يود أن يسمع الرواية الناقصة بصوته هو لا سيما وأنه يمثل الحوارات ويلوّن النص والسرد بنبرات مختلفة.

وافق آدم الرهوان على طلب صديقه، لكنه قبل أن يقرأ غادر الغرفة وجاء بصينية فيها صحن مليء بالبطيخ الأحمر، وشوكتان. وجلس إلى جانب صديقه على الطرف الآخر من الصوفا وأخذ يقرأ بصوت فيه تلوينات شعرية:

مخطوطة آدم المؤمن

أنا أكثر المحيطات هدوءًا. أنا آدم المؤمن. أنا اللحظة الخارقة، أنا الزمن الميت الحي، جئت من العدم، كنت شيئًا لا متناه من عناصر الوجد التي تغلغلت في جسد أبي وتشكلت كحيمن في خصيتيه. حيمن غير مرئي مع ملايين الحيامن.. لكن ولسبب أجهله سبقت الجميع لأخترق بويضة في رحم امرأة صارت هي أمي، وصرت البويضة أنا.

لماذا صرت أنا الحيمن البطل لا أعرف..؟ ولماذا كنت أسابق ملايين الحيامن للوصول إلى مكان ما؟ هل كنت أعي سباقي واندفاعي المحموم؟ ولماذا أنا وليس حيمنًا آخر؟ أكان الأمر مصادفة؟ لا أعرف. ولا أحد يعرف.

قِيل إن الله يعرف..لكني وبعد سنوات طوال من الغوص في كتب الدين الصفراء، والاعتكاف في زوايا التكيَّات والمساجد، كدرويش، وكطالب عِلم لاهوتي لم أصل إلى جواب يقيني.

أنا آدم المؤمن. أنا الرواية الناقصة والراوي الذي كتب رواية ناقصة عن نفسه.. نعم لديّ رواية ناقصة حقًا..!

بعض الناس يظن نفسه موهوبًا ككاتب وشاعر، ويكون مليئًا بمشاريع جبارة من الروايات والمجاميع الشعرية والكتب الفكرية، ويعتقد أنها ستكون نقطة تحول في أدب زمانه، لكنه يقضي العمر، وتمر السنوات دون أن يكتب حرفًا واحدًا، وحينما يُسأل عن روايته التي ينتظرون، يقول إنه معتكف عليها ولم ينجزها بعد..!

وهذا ما جرى مع صديق كاتب كتب رواية عن صديق يدّعي كتابة رواية لم تنشر قط، وفعلًا مات ذاك الصديق الدعي، فاشتكى أهله بأن الصديق الكاتب الذي كتب الرواية عن الكاتب الدعي بأنه سرق روايته.. ووصل الأمر إلى المحاكم..! ولولا أن القضية قد أقيمت في بلاد يحكمها القانون لراح صديقي الكاتب في داهية، وضاع دمه بين القبائل.

الروايــة الناقصــة لآدم المؤمن

(١)
أزقة مظلمة وحكايات غامضة

كانت الظلمة تطوي الزقاق القديم بجناحها الثقيل، وكان للسكون صوت خفي يبعث الارتباك البارد في النفس. لم يُسمع في تلك الساعة من الليل سوى صوت جريان مياه الغسيل في الساقية الموحلة التي تتوسط عكد الأكراد في مدينة الكوت، فعادة في مثل هذه الساعة من الليل، مع أنها العاشرة، يقفر الزقاق وكأنه مقبرة مهجورة.

فجأة، سُمع وقع خطوات خافتة أخذت تأتي من ناحية مدخل الزقاق، وكلما توغلت في الزقاق سُمع وقعها أكثر.

توقفت الخطوات عن الاستمرار. طُرق أحد الأبواب. خيط من الضوء استلقى على أرضية الشارع الإسفلتي، ثم مات بعد لحظات، وعاد الظلام من جديد، والسكون البارد صار أكثر ضراوة وقسوة.

دخل الزقاق رجل يرتدي دشداشة سوداء مع سترة معتمة، معتمرًا على رأسه يشماغا مرقطا بالأسود والأبيض. هبّتْ نسمات باردة أتت من ناحية الشرق، وترددت أصداء صافرة الحارس الليلي البعيدة.

كانت خطواته حذرة وخافتة. وكان يمشي بمحاذاة الجانب الأيسر من الزقاق. لم يدخل إلى عمق الزقاق، إلا إنه قطع مسافة غير قليلة حتى طرق أحد الأبواب الخشبية طرقات منتظمة وكأنما تم الاتفاق عليها. بعد دقائق فُتح الباب، وبلمح البصر دخل الرجل ثم أغلق الباب خلفه بهدوء.

***

يسترعي الناظر إلى الزقاق من بعيد عدم التوافق والتناسق في اصطفاف البيوت، إلى جانب قدمها، حتى أنها تبدو كالأطلال بالرغم من أن هذا الزقاق هو النواة التي نمت من رحم الأرض وكبرت حتى صارت مدينة الكوت. وكبرت المدينة، وعلت القصور وترامت في أطرافها، وأطلّت الحدائق التي تتوسطها نافورات المياه الملونة. إلا إن الزقاق بقى مثلما كان، ويوم بعد يوم، وعام بعد عام تمسه الشيخوخة والهرم.

أمّا سكان الزقاق فهم كالعادة من الكسبة، حوذين، حدادين، بقالين، مضمدين، حمالين، عرفاء، شرطة، بائعات الخبز، وخياطات، ثوريين، زناة، أرامل. ففي هذا الزقاق تتجلى الحياة بكل تنوعاتها وغناها، إلّا إنه في الليل يقفر بشكل مرعب، ولكن كل هذا السكون في الخارج فقط، ففي أعماق البيوت تكمن الحياة بكل عنفوانها وشراستها.

في الصيف تقوم البلدية ببعض النشاطات في هذا الزقاق، فتضع على عمود الكهرباء مصباحا، وتبدأ برش النفط الأسود على الساقية الموحلة التي تتوسط الزقاق، ولكن ما أن تمر الليلة الأولى حتى ترى المصباح قد كُسر في اليوم التالي. كيف تم ذلك؟ لا أحد يعرف، بيد إن الهمسات تنتشر بين النسوة في أن (آدم بن مجيد) هو الذي كسره كي يطبق الظلام ثانية على الزقاق، ولا يرى أحد (حواء المديرة) زوجة جارهم (آدم حسين المضمد) وهي تدخل دارهم. ولكن ليس هناك من رأى العاشق يكسر المصباح، فهو في السابعة والعشرين من العمر، ولا يأتي بمثل هذه الأعمال علانية، إلّا إنه يوصي أخوته الصغار ليقذفوا المصباح الكهربائي بالحجارة. ولقد كانت علاقته هذه مبعث للأقاصيص الماجنة المنتشرة على ألسنة نسوة الزقاق ورجاله.

وهكذا... موسم يأتي وموسم يمضي، والزقاق يهرم ويشيخ مثل رجل مشلول. فكم من حكاية وُلدت بين أحضانه ولكنه طواها برفق وهدوء، وكم غيمة هطلت عليه ولكنها لم تستطع أن تزيل عنه شحوبه، وكم طفولة نُحرت على أعتابه، ولكن الشيخوخة ظلت مرتسمة على وجهه الحزين، الحزين، الحزين.

(٢)

خريطة منسية لمدينة منسية

ينتبه الزائر لسوق مدينة (الكوت) إلى هذا الخليط الغريب بين القرية والمدينة، لاسيما أيام الجمعة، حيث يكتظ بالقرويين والرعاة القادمين من القرى القريبة على المدينة حاملين معهم السجاد والأغنام والحبوب لبيعها في المدينة وليشتروا بأثمانها ما يحتاجون إليه لفترة طويلة نسبيا، وليزوروا المرضى والموقوفين في مراكز الشرطة، وليراجعوا الأطباء. أما القرويات فيستفدن من هذه الفرصة لزيارة المشعوذين والفوالين وقارئي الحظ والسحرة، ومنهن من ينتهزن هذه الفرصة لإرواء ظمأهن الجسدي في زوايا الخانات وفي أعماق الدكاكين المظلمة، وفي مطاحن الحبوب. وأحياناً يكون السوق مكانا للقاء العشاق القرويين، وساحة لقتالهم بأخذ الثار وغسل العار أيضا. وغالبا ما تكون ساحة السوق هي المركز لهذا الاحتدام والزحمة.

وساحة السوق ليست سوى رصيف دائري لا تتجاوز مساحته العشرة أمتار، إلا أنها عالم مليء بالحيوية، فعليها يزدحم بائعوا الأقفال والمفاتيح القديمة، والسكاكين، والأدوات المنزلية القديمة، وإلى جانبهم بائعوا الملابس القديمة المستعملة، وبائعوا الدراجات الهوائية، وهناك تفترش (حواء الأمينة) العجوز الأرض بصناديقها الكارتونية المليئة بالبيض، وهناك ترابض أيضا مفرزة من الانضباط العسكري.

من هذه الساحة تتفرع سبعة دروب. أربعة منها أسواق رئيسية، وثلاثة أزقة تقوم بنفس مهام السوق. فمن ناحية الشرق يمتد السوق المنتهي بساحة (العامل)، وبموازاته يمتد زقاق ضيق ينتهي بمقبرة للانكليز وسجن الكوت الشهير. أما من ناحية شمال الساحة فيمتد الشارع المؤدي إلى محلة (المشروع) وبموازاته يمتد

الزقاق المؤدي إلى مركز الشرطة الرئيس في المدينة، ويمتد سوق الأقمشة من غرب الساحة حيث تتفرع منه أسواق صغيرة جانبية لبيع الأقمشة والسوق المسمى سوق (بيت أبو الهوى) المختص ببيع الأعشاب البرية والأدوية الشعبية. أما من ناحية جنوب الساحة فيمتد السوق الرئيس للمدينة الذي يسمى (سوق الخضر و اللحم) والمنتهي بمحلة الشرقية، ومن جهة أخرى يمتد سوق السمك الذي ينتهي بالساحة المسماة بساحة السجن حيث يمتد منها الشارع المؤدي إلى سجن الكوت وساحة العامل، وحيث تبدأ من هناك الأزقة المؤدية إلى محلة (الجديدة) و(عكد الأكراد).

وربما تكون الصورة واضحة إذا ما رسمنا معالم الساحة بكاملها، فمن جهة الشمال وفي المسافة بين الشارع المؤدي إلى محلة (المشروع) وبين الزقاق المؤدي إلى مركز الشرطة يطل على الساحة فندق (القصر الأبيض) وهو بناية قديمة كالحة الواجهة من كثر ما طلي بالأصباغ، حيث يحتاج الداخل إليه إلى بعض الوقت ليتعرف أين تقع بابه الحديدية الصدئة، لكن أجمل ما في واجهة الفندق هي تلك اللوحة الخشبية الكبيرة التي خُط عليها وبشكل أنيق اسم الفندق واسم صاحبه. أما تحت الفندق فتمتد مقهى (النصر) التي يصطف أمامها عدد غير قليل من صباغي الأحذية. في الجهة القابلة للفندق والممتدة ما بين السوق المؤدي إلى (ساحة العامل) والشارع المؤدي إلى (المشروع) فيطل (فندق الأمير الحديث) الذي لا صلة له بالحداثة، فواجهته الوسخة لا توحي للناظر إلا بالكآبة، أما تحت الفندق فيمتد دكانان متجاوران أحدهما للأقمشة والآخر لبيع الأحذية. أما من ناحية الشرق وفي المسافة الممتدة بين الشارع المؤدي إلى ساحة (العامل) والزقاق المؤدي إلى (مقبرة الأنكليز) فتطل بناية قديمة متشققة الجدران آيلة للسقوط، لا يسكنها أحد، وتحتها ترى حركة مزدحمة عند مطعم (آدم عبدكة) بائع الكباب و(آدم حسن عنفوص) بائع شربت الزبيب، وبجانبهما ثمة دكان لا يستقر له حال فكل شهرين أو ثلاثة تتغير مهمته، فمرة للبقالة وأخرى لبيع الأحذية ثم أخرى لبيع الحاجات المنزلية أو النسائية ورابعة مكتبة للقرطاسية وأحيانا يبقى فارغا لأشهر، وبجانبه مكتب صغير يقوم بمهمة إدارة المقاولات ومعامل الطابوق التي يديرها (الحاج آدم عبد ربه)، وأمام هذا المكتب ينشر (آدم محمد الركاع)

أدواته البسيطة وماكنة خياطة الجلود، وعلى مقربة منه يفرش (آدم غالي) لفائف صوف الأغنام والجلود المقددة، وقبالته على الجهة الأخرى وأمام (الخان) يفرش كل من (أبو آدم) و(آدم ميرزا) لفائفهم من الصوف والجلود أيضا.

و(الخان) هذا بيت قديم مهجور قد تداعت غرفه فأستأجره بعض البقالين ليحفظوا فيه أكياس التمور وحاجاتهم الأخرى وليكون أيضا مكانا للزنا واللواط، أما مقهى (الحرية) والتي تُعرف باسم صاحبها (مقهى آدم سكران) بالرغم من بروز اللافتة الخشبية التي تحمل اسم المقهى، فتقع إلى جانب (الخان) في المسافة المحصورة بين الزقاق وسوق السمك.

وأمام المقهى يأخذ البقال (الحاج آدم عبد الله) مكانه بعربته الخشبية الزرقاء، وبالمقابل وعلى الجهة الممتدة بين السوق الرئيسة وسوق السمك فيمتد مقهى (الإمام الصادق) والتي يزدحم أمامها بائعوا الفجل والكرفس والخضروات الأخرى، وبموازاتها على الجهة الممتدة ما بين سوق الأقمشة وسوق الخضرة واللحم يطل (مخبز أمير المؤمنين) الذي يملأ السوق بهديره الصاخب، وإلى جانبه تصطف عدد من الدكاكين الصغيرة لبيع الحبال والأحذية والتبغ لتغطي المسافة ما بين سوق الأقمشة والزقاق المؤدي إلى مركز الشرطة.

والغريب أن الفنادق المطلة على الساحة فارغة أكثر الأوقات، ولا يسكن فيها إلا رجال الأمن والموظفين المنقولين مدن أخرى، بل حتى المقاهي في الساحة ما هي إلا أوكار للمخبرين والمهربين والعاطلين عن العمل والقرويين القادمين من الأرياف المجاورة.

(٣)

عائلة عادية...

في الأيام الأولى من بدء العطلة الدراسية الصيفية تنظر عائلة (آدم شاكر) قدوم ابنتهم الأرملة (حواء العطية) وبناتها الثلاث من ناحية (علي الغربي) حيث تعيش معهم مع أهل زوجها بفارغ الصبر. وما أن يصلوا حتى يضيء الفرح في وجوههم الحزينة الطيبة. فلقد خصت العائلة (حواء العطية) وبناتها بمحبتها لترملها المبكر ولكون بناتها الثلاث متعلقات بعائلة الجد أيما تعلق.

لم تكن (حواء العطية) هي البنت الوحيدة للعائلة، فهذه العائلة تتألف من بنات ثلاث تزوجت كبراهن من قريب لهم، ولديها خمسة أطفال، وهي تسكن في مدينة (النعمانية) القريبة، وهناك البنت الصغرى وهي الوحيدة التي لم تتزوج بعد، وكذلك ثلاثة بنين الأكبر والملقب بالشيوعي وهو في الثلاثين من عمره، طويل، نحيل،وسيم الوجه، يشتغل عاملًا في شركة للبناء أخذت على عاتقها بناء مصنع النسيج قرب المدينة منذ سنوات. ولقد سُجن هذا الأبن منذ سنوات، في بداية الستينات أثر انقلاب دموي حدث في البلاد، بعدها هرب إلى ايران وبقى هناك سنوات عدة وعاد بعد أن هدأ الوضع السياسي قليلا وأسقطت الأحكام بحقه.

ومع أنه يُعد مثقفا سياسيا إلا إنه لا يعرف القراءة والكتابة إلا اسمه الذي تعلم كتابته عندما كان يخدم جنديا في الجيش خلال فترة حكم الزعيم عبد الكريم قاسم. وبعدما عاد ذهب إلى بغداد ليفتتح مطعما متواضعا في منطقة (الشورجة)، إلا إنه رجع بعد سنة وليس معه ما يكفيه لمصرف شهر واحد، حيث كان ينفق معظم ما لديه على المومسات، ويروى عنه بأنه كان يعيل عشيقة له.

وهناك الأخ الذي يلي هذا الابن الشيوعي واسمه (آدم الأسمر) مستمد من من سمرته الشديدة، وهو طالب في الصف المنتهي من الدراسة الإعدادية،

يمارس رياضة كمال الاجسام، فالبيت مليء بأقراص الحديد والمساطب الخشبية والقضبان الحديدية، وكثيرا ما تتحول الدار إلى نادي رياضي له ولأصدقائه ممن يمارسون هذه الرياضة. و(آدم الأسمر) هذا فتى وسيم في العشرين، متواضع، كثيرًا ما كان يذهب مع أصدقائه من أبناء المحلة إلى نهر دجلة الذي يلتف حول المدينة كالأفعى ليسبحوا فيه أو ليصطادوا السمك، أو ليزرعوا المناطق الغرينية القريبة من الجرف. وفي الليل كانت دار السينما هي ملجأهم الوحيد، وكثيرا ما كانت نساء المحلة يسعين للتواصل معه إلا إن خجله كان يبعده عنهن.

وهناك آخر العنقود (آدم المؤمن) وهو أصغر أفراد العائلة، نحيف بحيث كان يثير شفقة العائلة دائما، شاحب الوجه بالرغم من عينيه البنيتين الجميلتين النابضتين بالحيوية، والذي كان كثيرا ما يصاب بصداع قوي وغشاوة تلقي به على الأرض دون أن يقوى على رفع رأسه، والذي كما أكد طبيب المستشفى بأنه مصاب بفقر الدم، إلّا إن أمه لا تعتقد ذلك، فقد كانت تلجأ إلى امرأة بسيطة، أمية، اسمها (حواء العلوية) حيث كانت هذه تأخذ منها النقود مؤكدة لها كل مرة بأن الإمام الفلاني طاف عليها في المنام طالبا نذره كي يشفي الصغير.

كان الفتى آدم المؤمن مدلل العائلة الفقيرة، وقد أطلقوا عليه لقب (المؤمن) لميله الشديد للقراءة، ولذاكرته القوية جدًا حيث كان يحفظ المعلقات، والقصائد الشعرية، وسورة عديدة من القرآن وآيات كثيرة من سور أخرى يذكرها في المناسبات والمناقشات العديدة التي تجري عائليا، كما يحفظ الأحاديث والجمل وبعض الخطب التي وردت في ,,نهج البلاغة" المنسوب لعلي بن ابي طالب، وكان هذا مبعث فخر وفرح لوالديه. ومع أنه بلغ الرابعة عشرة عامًا فأن أمه ما زالت تناغيه أحيانا بأغاني الطفولة وكأنه في الثانية من العمر. وكان أبوه يخصه بعنايته ويغدق عليه بحبه الأبوي المتميز، فكان يأمره بالمجيء إليه يومياً ليذهب به إلى (آدم عبدكه) ليشتري له الكباب ويسقيه الشربت عسى أن يكسي هذا الهيكل العظمي بشيء من اللحم، وفي المساء كان يعطيه درهما كي يذهب إلى السوق ليأكل شيئًا من الكبد المشوي، فكان يشتري بنصف المبلغ ويدخر ما تبقى ليجمعها وليشتري بها كتبا تتضمن قصص ألف ليلة وليلة أو ليذهب يوم الجمعة إلى السينما،

فقد كان يحب القراءة بشكل يحير جميع أفراد العائلة، فهو لا يكتفي بقصص ومجلات الأطفال التي كان يشتريها، بل كان يتجرأ على قراءة أشياء لا يفهمها من القصص والمسرحيات والروايات العالمية التي كان أخوه آدم الأسمر يستعيرها من أصدقائه أو من مكتبة المدرسة. وعادة القراءة هذه منحته وضعا خاصا بين أقرانه في المحلة، فكانوا يلقبونه (بالمثقف) مع أنه كان يشاركهم جميع ألعابهم المعروفة في تلك الفترة كلعبة الكريات الزجاجية، وكعوب العظام ورمي السهام، وكان يذهب معهم إلى الجدول القريب من البستان لتعلم السباحة، كما كان أحد أعضاء فريق المحلة لكرة القدم، بل لقد منحته القراءة امتيازا بين نساء المحلة إذ كن يهرعن إليه لقراءة الرسائل أو كتابتها، وهذا كان يعني دخول البيوت المختلفة في المحلة ومعرفة أسرارها.

لقد كان أبناء المحلة الذين يكبرونه ببعض سنوات يهرعون إليه لكتابة رسائلهم العاطفية لصديقاتهم، فكان حينما يكتب لهم يسطر كل الجمل التي حفظها من الكتب ليبث لواعجه في الرسائل، وكانت الفتيات يعرفن بأنه هو الذي يكتب لأصدقائهن، أما هو فقد كان لا يكتب أية رسالة لصديقته (حواء السلام) لأنها ببساطة لا تعرف القراءة.

أما الأم، حواء الفرج، فكانت امرأة على مشارف الستين تميل إلى البدانة وتحتفظ ببقايا جمال جلي، وتتميز بعينيها الواسعتين، البنيتين، الحالمتين. وهي ككل نساء المحلة لا تعرف القراءة والكتابة، تصلي الفروض في أوقاتها لكنها لا تعرف من سور القرآن سوى (الفاتحة) والتي تقرأها بشكل غير صحيح. وعلى الرغم من أنها سكنت مدينة الكوت منذ عشرات السنين إلا أنها لا تعرف منها سوى شارعهم المؤدي إلى السوق، ولو تُركت على بعد مائتي متر من الشارع لما عرفت الطريق إلى البيت. بل وكانت تعاني من أعراض الروماتيزم وأوجاع العظام، حيث إنها ومنذ سنوات تغسل جلود الأغنام وأصوافها التي تلوثت بالدم عند الذبح بالماء البارد حافية القدمين لعدة ساعات يوميا وفي الشتاء الشديد البرودة. وكانت هذه الأم قد أنجبت اثني عشر طفلا مات ستة منهم وبقي من تبقى ليؤلف العائلة الحالية.

وكانت الأم حواء الفرج تنهض فجر كل يوم لتذهب بخفة إلى المخبز الحكومي (الإعاشة) لتشتري أقراص الرغيف المدعوم من قبل الحكومة، ثم تحضّر الشاي. وما أن يستيقظ الأبناء ليفطروا الخبز والشاي حتى تهرع إلى السوق لتنفخ جلود الماعز والأبقار قرب الخان حيث يفتتح رب العائلة عمله.

أما الأب فهو على مشارف الستين، وسيم الوجه رغم التعب الذي يرتسم على محياه. يحب النساء بشاعرية وجموح برغم سني عمره، بحيث يمكن لنظرة لعوب أن تجعله مراهقًا، أو يمكن لإلتفاتة جيد، أو ارتجاج نهد أو هفيف ثوب أن تجعله خارج رزانة الستين. ومع هذا فهو بسيط حد الطفولة، طيب حد السذاجة، لكنه عصبي المزاج، حالم، يتصور أن الأشياء يجب أن تسير وفق ما هو يحب أو يفهم، وإذا ما خالفه أحد الرأي تأخذه سورة من العصبية فيبدأ بالصراخ والسب والشتم. وقد عاش حياة مغامرة متنقلا بين أحضان النساء، وبين مختلف المهن، فمن بقال إلى قصاب، إلى حارس ليلي، إلى عامل، إلى صباغ، إلى مهرّب أقمشة وشاي وكرزات بين العراق و إيران، إلى صاحب دكان، إلى بائع جلود وأصواف. ومع أن الحياة قد لعبت به لعبة كرة القدم فقد كان رقيقا جدًا، محبا لعائلته بحيث إذا مرض أحد أفراد العائلة فأنه يحضنه ويقلق عليه بنعومة، فهو مزيج متجانس بين دكتاتور وطفل في آن واحد، وهو كريم بإسراف وبشكل مبالغ فيه، فإذا ما جاءه ضيف ولم تكن النقود بين يديه فأنه يهرع للاستدانة من العطار (الحاج آدم العاشور) ليوفر لضيفه وليمة شهية.

وهكذا.. كان الفقر يجثو على صدر العائلة كالكابوس، والأحزان تنتظرها، وهي تكابر وتواجه الصعاب شاقة طريقها في الحياة، مثلما تشق شجرة البلوط الصخر الذي يعترض جذورها القوية الواثقة.

(٤)

آدم المؤمن واعتقال آدم المطير

في الصباح المبكر خرج الفتى آدم المؤمن إلى الشارع متجهًا إلى دكان (الحاج آدم العاشور) القريب ليشتري السكر، فهو الأصغر في العائلة وعليه تقع مهام تنفيذ الطلبات العائلية الصغيرة التي كان يؤديها من دون تذمر وكأنها تحصيل حاصل فهو الأصغر. وحينما وصل رأى الدكان مغلقا، وثمة رجل قاسي الملامح حسن الهندام يقف عنده.

- ماذا تريد في هذا الصباح؟ صرخ الرجل بعصبية.

ارتعب الفتى لا إراديًا فأخرس ولم يستطع الكلام، أحس بأن رجليه لم تعدا تقويان على حمله، وبشكل غريزي عرف بأن هذا الرجل الغليظ هو من هم هؤلاء الرجال القساة الكريهين الذين تتكلم عنهم العائلة أحيانا.

- أريد شراء سكر..

تمتم بحروف متقطعة وهو لا يستطيع النظر إلى الرجل. انتبه إلى أن سيارة من طراز (فولكس فاغن) تقف أمام بيت (آدم المطير) وقربها رجل آخر حسن الهندام أيضا.

كان الشارع مقفرًا في هذه الساعة من الصباح. انتبه الرجل إلى الصبي الذي كان ينظر إلى السيارة بوجل واضح، فصرخ به شاتمًا:

- اذهب إلى بيتكم وإلا أرجعتك إلى كس أمك؟

وضربه بكفه على مؤخرة رأسه فتعثر ثم هرول إلى البيت مرعوبًا، وقبل أن يصل إلى الباب التفت فرأى (آدم المطير) ببجامته، أشعث الشعر، يقوده ثلاثة رجال ثم يدخلونه السيارة عنوة، وكان أحدهم يقبض على مسدس في يده، ولمح أمه تتوسل إليهم وسمعها تترجاهم بأن يسمحوا له بارتداء ملابسه على الأقل، فدفعها أحدهم

بقوة وضربها برجله فتدحرجت مرتطمة بالباب، ورأى المقبوض عليه يحاول أن يتضارب معهم إلا إنهم امسكوه بقوة تمنعه القيام بأية حركة سوى أن يبصق عليهم.

- الله يخرب بيوتكم يا أولاد الزنا، ويفجع أمهاتكم فيكم..

صرخت بهم الأم المنكوبة فرفسها أحدهم شاتما:

- اسكتي يا عاهرة.. من علم ابنك تهريب التبغ.. ها تكلمي؟

- أي تبغ وأي تهريب يا كلاب.. يا أولا الكلاب..تخافون أن تقولوا إنه شيوعي وقندرته تعلو فوق رؤوسكم يا أنذال؟

فرفسها الرجل ثانية على بطنها بقوة، وكانوا قد أدخلوا ابنها إلى السيارة وأغلقوا بابها، فصعد الرجل الأخير إليها، وانطلقت السيارة بأسرع ما يمكن، مخلفة الأم تبكي وتضرب رأسها وهي متكومة على الأرض، وحينما مرت السيارة قربه، حينما كان متسمرّا عن بابهم خففت من سرعتها وصرخ به أحدهم:

- ادخل ابن القحبة.ادخل...

فما كان منه إلا إن قفز إلى دارهم كالفأر المرعوب، ولكنه استعاد أنفاسه بعد لحظات بعد أن سمع السيارة قد اجتازت شارعهم.

ما إن قفز إلى داخل الدار حتى رأى العائلة قد تجمعت لفطور الصباح جالسة على الأرض كعادتهم، وكانوا بانتظاره ليأتيهم بالسكر، فلما رأوه شاحبًا مرعوبًا خالي اليدين حتى صرخت أمه:

- ابني.. ماذا بك؟

لم يعرف من أين جاءت دموعه في تلك اللحظة، وما الداعي للبكاء، أحس أنه يشرق بالدمع، وربما أحس بأنه يبكي على نفسه لإحساسه بالجبن وهو الذي كان يعتقد بنفسه شجاعًا، ومن خلال الدموع قال لهم:

- الأمن أخذوا آدم المطير..

أطلق الجميع آهة، صمتوا للحظات، ثم بادره أبوه مداريا الموقف:

- وأنت أيها العصفور النحيل لماذا تبكي؟

- أنا لا أبكي.. لكن الشرطي ضربني وشتمني..

فقالت أمه بغضب:

- كسر الله يده

واستمر أبوه يداعبه، لا ليزيل عنه الخوف وإنما ليزيل الارتباك عن العائلة كلها التي تعكر مزاجها من الخبر..

- كفى.. أنت بطل.. تبكي من كلام شرطي.. يا للأسف..

أحس آدم المؤمن بالخجل من كلام أبيه، وكأنما لا يليق به، وهو ابن الرابعة عشرة من العمر، البكاء من كلام شرطي أمن حقًا. احتضنه أبوه وأخذ يقبله، لكنه انتبه إلى أن العائلة قد ركزت أنظارها على أخيه الأكبر الذي كان متهيئا للذهاب إلى العمل. وسمع أمه تترجاه ألّا يذهب إلى العمل هذا اليوم، لكن الابن الأكبر كان يضحك من مخاوف أمه. ثم قامت أمه لتشتري السكر بنفسها، فقال لها آدم المؤمن بأن الحاج آدم العاشور لم يفتح بعد لكنها لم تستمع إليه، فذهبت..وبعد فترة وجيزة عادت بالسكر.. فكّر ربما الحاج آدم العاشور فتح دكانه بعد رحيل رجال الأمن.

روت أمه لهم ما جرى وهي تصب الشاي، فقال أبوه معلقا:

- السفلة يريدون تحطيم مستقبله فآدم المطير شاب طيب، وشجاع، وهؤلاء الأنذال لا يتركوه لحاله..لا يتركوه يكمل جامعته.. ولا يتركوه ليعمل وليعيل أهله.. أنذال.. أولاد حرام..

فقاطعهم آدم الأسمر الذي كان يصمت في مثل هذه النقاشات :

- لا عليكم.. آدم المطير شجاع..لن يستطيعوا أن يجعلوه يحني رأسه لهم..وهذا يكفي..

فأجابه الأب بألم :

- يكفي..؟ أية كفاية هذه يا بُني..وهذه العائلة الكبيرة التي تركها من سيطعمها ويكسيها..أي حياة هذه... يخرجونه لأيام من السجن ليزجوا به مرة أخرى عشرة

أشهر ..مرة يتهمونه بالتهريب، ومرة بزيادة الأسعار في دكان أبيه، ومرة بالبضاعة المغشوشة، وهذه المرة الله أعلم مذا أعدّوا له من تهمة..! ماذا يعني هذا..؟ هل الناس بهائم حتى يصدقونهم..؟ لماذا لا يتركوه في سلام كي يكمل دراسته الجامعية في بغداد.؟ ..أية حياة هذه..!! كلنا يعرف أنهم يعتقلونه لأنه شيوعي..والله هذا آخر الزمان، ستنقلب الدنيا مما فيها من ظلم..

كان الابن الكبير الشيوعي قد ذهب إلى العمل رغم توسلات أمه، لذلك واصل الأب حديثه:

- وهذا أخوكم الكبير..لماذا اعتقلوه..؟ ألأنه هتف مع الآلاف ضد انقلاب البعثيين العام ٦٣؟ ..إذا كان آدم ابن عاصم المطير يدرس بالجامعة في بغداد، وأنه متعلم ومثقف، فأخوكم الكبير رجل لا يقرأ ولا يكتب..! لماذا اعتقلوه وخربوا بيتنا..؟ هل تدري أيها الأسمر بأننا لحد الآن، وبعد سنوات من سجنه وهروبه، غارقون في الديون بسببه..!!فعندما هرب إلى ايران وجاء الحرس القومي يطلبونه مني لم استطع إسكاتهم إلا بالمال.. ومن أين لي بالمال..؟ استدنت..ودفعت الرشاوي..وما أزال تحت صخرة هذه الديون..! إيه يا بني، العين بصيرة واليد قصيرة.. والله على كل شيء قدير...

هكذا ختم الأب هذه المناقشة وكأنما انتهت ولا حق لأحد الاستمرار بالحديث في هذا الموضوع..ولكن الابن الصغير انتبه إلى أن لهجة الأب كانت هادئة ومشحونة بالألم كغير عادته حينما كان يتكلم..فأحس برهبة وشعر بأن هناك أشياء وأشياء تجري في هذا العالم وهو لا يعرف عنها شيئا.

(٥)

من يوميات آدم السلمان

- استكان من الشاي من فضلك..

قال (آدم السلمان) ذلك وهو يجلس على التخت الخشبي في مقهى (النصر)، فقبل دقائق نزل من الفندق وعليه أن يشرب الشاي ليذهب بعدها إلى عمله.

كانت الحركة قد بدأت تدب في السوق، فقد أخذ البقالون يتوافدون من (علوة الخضروات) القريبة، وقد اشترى كل منهم شيئًا مما يتوفر فيها، لذا ترى كل منهم تتبعه عربة يجرها الحمالون.

وبينما العم صاحب المقهى منشغل في إحضار الشاي. ذهب آدم السلمان إلى المخبز القريب فاشترى رغيفًا ثم مَرَّ على بائعات الألبان فاشترى شيئًا من القيمر وعاد إلى المقهى فوجد أن العم قد وضع الشاي على الطاولة الحديدية الصغيرة حيث كان يجلس.

تذكَّر آدم السلمان، فجأة، أنه نسي تحت وسادته بعض الأوراق المهمة التي كان يقرأها البارحة، فترك فطوره وصعد مسرعًا إلى غرفته التي تطل على ساحة السوق. صعد الدرج الذي يكاد ينتصب مثل زاوية قائمة مسرعًا، أراد أن يسبق الفتى القروي الذي ينظف الغرفة ويرتب السرير. دخل الغرفة وهو يلهث فانتبه إلى الفراش المبعثر فعرف أن الفتى المنظِّف لم يدخل الغرفة بعد.

اتجه مباشرة إلى الوسادة، ومدّ يده متلمسًا الأوراق الشفافة، أحس بنعومتها بين أصابعه، أخذها وخبأها في الحقيبة التي يحتفظ فيها بملابسه ويضعها دائمًا تحت السرير، أقفل عليها بالمفتاح، ثم نزل مطمئنًا إلى المقهى ليواصل فطوره. أحسَّ من نظرات صاحب المقهى إلى أنه انتبه إلى غيابه المفاجيء، وما إن اقترب منه حتى بادره مبتسمًا مصطنعًا المرح:

- نسيت محفظتي في الغرفة..

ابتسم صاحب المقهى بطيبة وقال مازحًا:

- كيف اشتريت الخبز والقيمر إذًا؟.. على أية حال حياة الغربة لا تراد.. لكن لماذا لا تتزوج وتخلص من حياة العزوبة هذه.!؟

ابتسم آدم السلمان بطيبة قائلًا:

- ما زلنا أطفال على الحياة يا عم، لم نرَ شيئًا من الدنيا بعد..

ابتعد العم صاحب المقهى حاملًا الاستكانات الفارغة. نظر هو إلى ساعته اليدوية ثم نهض بعد أن وضع عشرين فلسًا على المنضدة الحديدية وأسرع الخطى باتجاه (المسطر) الذي يتجمع فيه عمال البناء، فربما سيجده.

كان المسطر مزدحمًا. أخذ هو يبحث بنظراته عسى أن يلقى (آدم الجبار). صحيح أنه اتفق معه في المرة السابقة على اللقاء عصر هذا اليوم وفي مكان بعيد، لكن ثمة هاجس قوي يدفعه لرؤيته الآن.

لم يعثر على أي وجود لصديقه، وأحسَّ أن الوقت يداهمه فالشمس أخذت ترتفع في الأفق، لذا اتجه إلى سيارات الأجرة التي تقل الشغيلة إلى منطقة في مدخل المدينة حيث يعمل هناك.

ما إن اقترب من السيارة التي أخذت دورها في مقدمة طابور السيارات لِتُقلّ الراكبين حتى لمح رجلين يرابطان قرب السيارة ولا يصعدان، بل ينظران بخبث إلى الراكبين. فجأة، شعر بانقباض في معدته وبرودة تجتاح جسده، فتراجع مسرعًا من دون أن ينتبه إليه أحد، ومشى باتجاه المعمل قاطعًا أكثر من خمسمائة متر ثم وقف منتظرًا إلى أن جاءت إحدى سيارات النقل فصعد إليها.

عند العصر أخذ آدم السلمان طريقه باتجاه السدَّة الترابية التي تلتف مع النهر حول المدينة، وهناك، ومن فتحة في سياج البستان الطيني دخل، ومشى بحذر نحو شجرة توت كبيرة، فلمح رجلًا في دشداشة سوداء وسترة معتمة، معتمرًا يشماغا مرقطًا بالأبيض والأسود. اقترب منه مصافحًا إياه بحرارة وشوق، ثم التفتا بحذر،

وذهبا ليجلسا في زاوية مظللة بالأغصان الوارفة بحيث يبصران من خلالها كل من يمر دون أن يراهما أحد، مع أن البستان مقفر في مثل هذه الساعة.

- ما هي الأخبار يا رفيق؟

قال آدم السلمان ذلك وهو يتوجس شيئًا، فأجابه الآخر بصوت خافت حزين وهو يتلفت حوله:

- أمس اعتقلوا الرفيق آدم المطير مرة أخرى بحجة تهريب التبغ.. موقفه جيد إلى الآن.. الرفاق الذين على علاقة به في أمان دون أية ريبة.. بالرغم من أننا اتخذنا التدابير اللازمة احتياطًا. كما تم استنساخ العدد الجديد من الجريدة.. أرسلنا بعض النسخ إلى قضاء الحي... تنظيميًا تم تشكيل خلية للأصدقاء في شركة الجميلي.. و..

كان آدم السلمان يستمع بانتباه شديد، وما إن انتهيا من تبادل الأخبار والمعلومات هذه حتى أخذ يسأله عن زوجته وأمه وطفله الصغير، فأجاب رفيقه آدم الجبار مازحًا:

- والله يا رفيق آدم لا أدري ما أقول.. الطبيب يقول لنا بأن نشتري الحليب المجفَّف للطفل، ومعنى ذلك علبتان في الأسبوع، وهذا يعني ثلاث دنانير شهريًا للحليب فقط، ماذا يتبقى من الراتب. العنزة التي ربتها أمي تعطي حليبًا وافرًا إلا إنه لا يلائم الطفل لأنه يسبب له الإسهال.. المشكلة الجديدة هي أن أحد أبناء العمومة قد هرب مع فتاة من عشيرة أخرى، وأبناء العشيرة يطالبون الآن بأخذ الثأر وغسل العار، علمًا إن الفتاة هي أخت أحد رفاقنا الفلاحين، ولكن ماذا يفعل هو أمام العشيرة المسعورة كالذئاب.. على كل حال سنرى ماذا سيحصل..

تألم آدم السلمان لأوضاع رفيقه العائلية وبارك في نفسه هذه القوة التي يبديها في مواجهة المشاكل. تبادلا بعض التفاصيل الأخرى، واتفقا على موعد قريب آخر، تصافحا بحرارة مرة أخرى، وأنسل آدم السلمان من نفس الطريق الذي جاء منه تاركًا رفيقه آدم الجبار في مكانه ليخرج بعده، وحينما صار خارج البستان نزل عن السدَّة الترابية مُغيّرًا طريقه الذي جاء منه مختفيًا بين منحنيات السدَّة الترابية، بينما هبط الغروب على المدينة كالكابوس.

(٦)

الأميرة اللعوب

عند الظهيرة كان الزُقاق مقفرًا إلا من بائع المرطبات الثلجية الذي يحتمي بالظِّل هووعربته، حينما أطلت (حواء الأميرة) زوجة عريف الشرطة (آدم العبود) بثوبها الأزرق، كان آدم المؤمن يرش الماء على أرضية الشارع الإسفلتية أمام بابهم الخشبي. فتحت الباب ثم انحنت لترش الأرض بالماء أيضًا ولتبرز عن عمد صدرها من فتحة الثوب العريضة.

منذ ثلاثة أشهر وهو يراقبها، وهي بدورها انتبهت لنظراته واهتمامه والشبق الذي يطل من عينيه. في بداية الأمر كانت تسخر منه وتنظر إليه باستغراب واستفهام، وبلا مبالاة أحيانًا، فهو فتى في بداية سني مراهقته. لكنها انتبهت لنفسها منذ أسبوعين تقريبًا بأنها هي أيضًا تراقبه وتنتظره، فهي تفتح الباب متعمدة حينما يكون هو أمام بابهم واقفًا لوحده أو مع صديقه.

في بداية الأمر كانت حينما تراه ينظر إليها بشبق تغلق الباب في وجهه بعنف كجواب على نظراته كأنها تصفعه، ولكن ها هي الآن، وفي هذه الظهيرة الساخنة، تبتسم له بخجل ابتسامة خفيَّة. التفت هو إلى الوراء ليتأكد من عدم وجود شخص آخر، نعم هي تبتسم له هو.

دخلت حواء الأميرة إلى بيتها، لكنها وبعد دقائق أطلَّت مرة أخرى وقد غيرت ثوبها الأزرق، وها هي تلبس ثوبًا أخضر شفافًا يكشف عن جسدها النحيل المتناسق كله. ابتسمتْ له بدلال ودخلت. انتظرها بفارغ الصبر لكنها لم تطل مرة أخرى. بقى هو يرش الماء إلى أن ناداه والده أن كفى، فدخل وهو يحس بتيار اللهب يسري في جسده.

آدم الرهوان: كتبت فصلًا رويت فيه ما جرى بين هذه المرأة الشبقة اللعوب وذاك الفتى المراهق. لكني آثرت أن أحذفه لفضائحيته.

(٧)

الحب في زمن العشائر

هبَّت نسمات باردة من دجلة باتجاه الشرق، أحس آدم الجبار بالبرودة فأخذ يُسرع في المشي، لاحت له أضواء الفوانيس في أكواخ القرية مثلما لاحت له بقع داكنة السواد بالقرب من الأكواخ متناثرة فعرف أنها البيوت المُشَيّدة حديثًا والتي لم تكتمل بعد.

كانت الساعة تقارب الحادية عشر ليلًا، وهذا يعني أن أهله نيام، ولكن أمه تنتظره عادة إلى أن يجيء. أحس بدفق من مشاعر الحنان نحو أمه وزوجته وطفله حيدر. تمنى في هذه اللحظة لو أنه هناك في الكوخ. وبالرغم من أن الفقر يُكَشِّر أنيابه في كل زاوية من زوايا الكوخ إلا إنه أحسَّ بالحب لهذا الكوخ الذي يمنحه الأمان. ابتسم لنفسه، حثَّ خطاه، اقتربت الأكواخ، وابتعدت أضواء المدينة خلفه. وصلت سمعه أصوات ولهاث وقهقهات ماجنة، كان هو يسرع المشي على السدة الترابية المرتفعة عن مستوى النهر من جهة، وعن مستوى البراري من جهة أخرى. وبرغم الظلام الذي يحتضن البراري فإن جانبي السدة كان أشد ظلمة.

وقف آدم الجبار مصغيًا بسمعه متلفتًا، محدّقًا جهة الأصوات، فرأى ظلال سيارة. راودته رغبة في معرفة ما يحدث، نزل قليلًا عن السدَّة الترابية، تردد أول الأمر، ماذا سيحصل لو انتبهوا له، ربما هناك سكارى وربما هم مسلحون، فلماذا يزج بنفسه في مشكلة، لكن كيف له أن يطفيء هذا الإلحاح الذي أخذ يقبض على نفسه لمعرفة ما يجري.

ما إن خطى بضع خطوات حتى طمست رجله في التراب فانغمر حذاؤه فيه. ارتبك. فمع حركته أخذ التراب ينهمر عن جانب السدّة إلى الأسفل محدثًا صوتًا مسموعًا. ولحسن حظه لم يسمعه الآخرون.

بقى في مكانه ولم يتقدم أكثر، بل جلس مقرفصًا محدّقا في الظلمة. هكذا بقى لفترة ليست قصيرة وهو في مكانه، أحسَّ بتشنج رجله اليسرى، ندّت عنه صرخة سرعان ما كتمها وجلس على الأرض، أحسَّ بالخجل من تصرفه هذا وتأسف لضياعه الوقت في هذا البرد. هَمَّ بالوقوف لمغادرة المكان فاتكأ على الأرض بكفه ملتفتًا إلى الوراء، وبلمح البصر قفز متأهبًا ومرتدًا للوراء. كان شبحان على السدة يحدقان به وراءه تمامًا. مرت ثوان من دون أن يحدث أي شيء. حدّق جيدًا. لم يكن ثمة أحد على السدة. أغلق عينه اليسرى وأبقى عينه اليمنى مفتوحة. لم يكن ثمة أحد. صعد السدة الترابية وجال بعينيه في الأرجاء، لم يكن هناك أحد، فكر مع نفسه باحثًا عن تفسير لما حدث، ربما التعب.

واصل سيره مسرعًا، وحينما وصل الأكواخ استقبلته رائحة الروث الذي لم يجف بعد، واستقبله جرو صغير بالنباح. أحس بأمان كبير كأنه تخلص من مطاردة خطيرة. دلف إلى كوخه، دفع الباب الصفيحي بخفة جاهدًا ألّا يوقظ أحدًا، لكنه فوجيء بأن الجميع مستيقظين، وفجأة بادرته أمه العجوز قائلة:

- هذا أنت.. لماذا تتأخر يا ولدي؟!

أحس بدفق من الفرح والاطمئنان فقال:

- بعض الأشغال يا أمي.. لماذا لم ترقدوا بعد.. الوقت متأخر؟

فبادرته زوجته الناحلة التي كانت تحتضن طفلها النائم:

- كنا ننتظرك.

- تنتظروني؟

فأجابته والدته بعد أن نزع عنه الحذاء وجلس بالقرب منها:

- جاء عمك قبل ثلاث ساعات. إنه في ورطة ولا يعرف ماذا يفعل.. الدنيا مليئة بالعجائب يا ولدي.. من كان يفكر بأن أبن عمك الصغير الذي لم يملأ عين أية فتاة في القرية، يخطف بين ليلة وضحاها واحدة من الفتيات الجميلات ومن عائلة طيبة ذات حسب ونسب.. عجيب هذا العشق.

أنهت كلامها بحسرة مطرقة إلى الأرض، ثم التفتت إلى كنتها قائلة:

- قومي حضري لنا إبريق الشاي، النوم لا يأخذ بجفوني الليلة..

فقاطعها ابنها، وكأن وجهه ونظراته تشي بأنه يفكر بأشياء بعيدة:

- يا أمي.. أنا لا أريد أن أدافع عن ابن عمي وعن الذي قام به، ولكنه ليس بالشاب السيء، على العكس إنه شاب طيب، يحاول أن يتعلم ويستفيد. صحيح إنه ليس مثل بقية أخوته فلاحًا يعمل في الحقل ليل نهار، لكنه يدرس ويتعلم في المدينة، ويوميًا يخرج صباحًا على الدرَّاجة الهوائية ذاهبًا للمدرسة وراجعًا مساءً. أحيانًا يساعدهم في الحقل وأحيانًا يكون مشغولًا بدراسته، وإذا كان لا يملأ عيون بنات القرية فهذا ليس لنقص فيه، بل لأنه هادىء ولا يدخل مشاجرات العوائل ومشاحنات العشائر، وإلا كيف أحبته هذه الفتاة وقبلتْ أن تهرب معه متحملة الفضيحة وخطر الذبح إذا لم تجد فيه الرجل الذي يستحق التضحية.

كانت أمه تستمع إليه بكآبة هازة رأسها بالإيجاب:

- صحيح الذي تقوله يا ولدي، ولكن الناس لا تنظر للأمور مثلك، أنتم الرجال عنيدون. صدقني يا ولدي، أنا أمك أقول لك هذا، نحن النساء نفهم العشق والعشرة الطيبة. وأنا أقول إن ابن عمك أثبت رجولة بهذا العمل، ولكن أنتم الرجال، لا أقصدك أنت بالذات، ولكن أعمامك وأبناء عمومتك وعشيرتك وعشيرة الفتاة وأهلها لا يفهمون هذا.. أتدري يا ولدي.. حينما كنت أنت صغيرًا، وكان أبوك، عليه الرحمة، في عز شبابه. حدثت مشكلة مشابهة، فلقد كان في قريتنا يعيش أحد أبناء عمومتنا، وكانت لديه بنت سبحان الذي خلقها، جمال وأدب وحشمة، أحبَّت راعِي الأغنام في العشيرة المجاورة لنا، ولا أخفي عليك، كان الراعِي من خيرة الشباب، أنعمت الدنيا عليه بالشباب والجمال ولكن ليس بالمال.. والحق يقال إن الأب لم يرفض الراعِي، لكن العشيرة وشيوخها رفضوا تزويجها قائلين بأن هذا الأمر يلحق بهم العار ويقلل من هيبتهم فهم لا يتصاهرون مع رعاة العشائر الأخرى، وهكذا يا ولدي.. تقبل الأب قرار العشيرة بصمت، وبعد أشهر تعالى الصراخ في القرية، فلقد هربت الابنة مع الراعي إلى المدينة، وظلَّ عودة وحيدًا، يتلقى سخريات رجال

العشيرة الذين عقدوا الاجتماعات والمجالس للأخذ بالثأر. وذات يوم اختفى الأب أيضًا، وبعد فترة جلست العشيرة واتخذت قرارًا بالتبرؤ منه وطرده من العشيرة، فلقد تبين لهم إنه هو بنفسه كان قد دبّر هروب ابنته مع الراعي، وقد رحل إليهم ليقضي بقية عمره معهم، ولحد الآن لا نعرف عنه شيئًا. مع أن أبناء العشيرة لا زالوا يبحثون عن الراعي لقتله وغسل عار ابنة العشيرة.

نظر آدم الجبار إلى أمه بحب، ولكنه خجل من إظهار عواطفه فقال:

- وماذا يريد عمي الآن.. لماذا جاء؟

فقالت زوجته التي كانت قد أوقدت (البريمز) الذي بدأ هدير يتعالى:

- أنت صديق ابنه وجاء يستفسر منك.

فقاطعتها أمه:

- اسكتي أنت.. ما هكذا تناقش الأمور..

ثم التفتت إلى ابنها ناظرة إلى وجهه وكأنها تبحث عن أيسر السبل لمناقشته من دون أن ترهقه، فهي لا تريد أن تزيد من متاعبه، وهي تعرف جيدًا أن أبنها ضد كل العادات العشائرية التي تدعو للانتقام، بل هو يحاربها علانية، لذا فهي تشعر بصعوبة أن تفاتحه بطلب عمه الذي جاء من أجله، وأخيرًا حزمت أمرها لتخبره.

(٨)

الإنزلاق

اليوم صباحًا خرجت لقضاء بعض الأمور، لقد عَلِمتُ بأن آدم الجبار اختفى عند أقاربه في الريف، وكذلك عدد آخر من الرفاق، كما علمت بأن حلقة الأصدقاء صارت مقطوعة عن التنظيم. الأخبار تأتي من داخل دائرة الأمن هنا، وكذلك في بقية مناطق الوطن، السجون امتلأت. هناك اقتراح بتغيير مكان سكني، وإذا اقتضى الأمر ترك العمل والاختفاء، لكن الأمر مرهون بتقديري للخطر المحيط بي.

ليس هناك من يعرفني في هذه المدينة إلا نفر قليل، أما في العمل فهم لا يعرفون عني شيئًا مهما، ربما هناك شكوك حولي، لكن الانطباع السائد عني هو أني غبي نوعًا ما، أو رجل بسيط من أهل الله كما يقال بالعامية.

في الفندق لا يعرفون عني شيئًا مهمًا أبدًا، سوى أني من أهالي بغداد، وعليّ إعالة أهلي لأني الأكبر في العائلة، لكن أحداث هذه الليلة دقَّت ناقوس الخطر المحيط بي.. لا أعتقد أن عريف الاستخبارات آدم الكاظم لم يسأل عني ولم يترصدني، بل ربما فتَّش غرفتي في غيابي وبتواطيء مع صاحب الفندق الذي يخاف المشاكل مع الحكومة، لكني أتجنب الجميع هنا في الفندق ولا أقيم علاقة مع أحد، عليَّ البقاء في المدينة، عليَّ البحث عن حلقة الأصدقاء وإيجاد الطريقة للوصول إليهم، لكن ربما عليَّ تغيير السكن دون إثارة أي شكوك لدى صاحب الفندق وعريف الاستخبارات.

أفُقٌ من الدم يلوح في سماء الوطن.

آدم الرهوان: كتبت الكثير من حكايات التعذيب والاعتقال والتهديد باغتصاب الزوجات والبنات والأخوات أمام ذويهم من الرجال الشيوعيين وحتى الإسلاميين إذا لم يعترفوا عن رفاقهم، أو لم يتعاونوا مع أجهزة المخابرات، لكني وجدت تكرار هذه المشاهد تجعلني اكتب ريبورتاجًا عن التعذيب، فحذفت هذه القصص والحكايات لا سيما وهناك معلومات عن خيانة وانهيار الكثير من الأسماء البارزة. أو هروبها إلى خارج البلاد، بينما صار اصطياد الرفاق والمريدين كما يتم سوق الأغنام إلى المسلخ، بعد أن يدخلونها في دروب ضيقة ملتوية، فتدوخ، وعندها يسهل عليهم نحرهم.

(٩)
أطفال الجِن

في ذلك المساء كان بيت (آدم الشاكر) مكتظًا بالضيوف. كانوا خمسة رجال، وصلوا ظهر ذلك اليوم مُلَثمِين. فتحت الأمُ لهم الباب. لم تعرفهم أول الأمر، ورغم ذلك رحبت بهم، إنهم قادمون من الجبال الحدودية المجاورة التي هي موطنهم. بعد أن دخلوا وجلسوا وكشفوا عن وجوههم عرفت أحدهم الذي هو (آدم الياور) الابن الأصغر للأخ الأكبر لزوجها، أما بقية الأشخاص فلم تراهم قبل هذه المرة، مع أنها سمعت عنهم.

كان (آدم الياور) أصغر الرجال الخمسة عمرًا، فهو في الثانية والعشرين من العمر، أما بقية الرجال فمن نفس تلك الأنحاء، وقد جاءوا ليعملوا وليجمعوا شيئًا من المال. وحينما وصل الأب بعد ظهر ذلك اليوم رحب بضيوفه أشد الترحيب، بل بكى مستذكرًا أخاه الأكبر وطفولته في الجبال المجاورة التي تشكل حدودًا بين بلده والبلد المجاور.

لم يستطع أحد من العائلة أن يتفاهم معهم بلغتهم الكوردية سوى الأب والأم وآدم الشيوعي الذي عاش خلال هروبه بعد الانقلاب العسكري في البلاد بينهم.

آدم الرهوان: سوف أترك هذا الفصل لأعود إليه لاحقًا.. فهو يتطلب العودة لبعض المصادر التاريخية عن جغرافيا البلاد وتقسيم الحدود بين الإمبراطوريتين العثمانية والصفوية.

(١٠)
الأرملة

كانت شمس الضحى البهيجة تملأ باحة الدار المكشوفة للسماء، وعشرات العصافير على شجرة السدر تزقزق فتملأ الدار بضجيج عذب، وتحت فيء الشجرة وضعت الخبازة الأرملة جرَّة كبيرة مليئة بالماء وفرشت بساطًا رثًا تزينه النقوش الفاقعة اللون والتي فقدت بريقها من جراء الاستعمال ومن كثرة الغسيل. كانت قد أنهت مائة رغيفًا من الخبز وأرسلتها بيد صبي صاحب محل الكباب (آدم عبدكة). وهو كان شغلها اليومي الوحيد الذي تعتاش منه، وأيضًا من إيجار الغرفة الأخرى التي في الدار، والتي صار غرفة آدم السلمان.

على مقربة يتعالى صوت (البريمز) حيث وضعت فوقه إبريقًا لغلي الماء، وتحت الشجرة على بعد خطوات كان آدم السلمان يغط في نوم عميق على سرير مصنوع من أقفاص خشبية مصفوفة بعناية وترتيب ومشدودة بالحبال التي يمكن الحصول عليها من البقالين الذين يحملون فيها الرطب والرمان.

نهضت الخبازة الأرملة بهدوء بعد أن سبحت باسم الله لمرات عديدة واقتربت من السرير، وبرِقَّة الأم أيقظته، فلقد بدأت الشمس تمس أطراف السرير.

فتح آدم السلمان جفنيه فاستقبلته أم آدم المعلم بابتسامة حنونة وداعبت شعره كأنما تداعب طفلًا صغيرًا، ودَعَتُّه إلى أن يسرع بالنهوض فالفطور شبه جاهز.

منذ سنين والخبازة الأرملة تعيش في وحدة شبه كاملة، رغم وجود ابنها الوحيد المجنون آدم المعلم وتردده على البيت بين فترة وأخرى. لقد فقدت زوجها بعد سنوات قليلة من زواجها، ثم فقدت ابنها المعلم بعد ذلك بسنين. لقد كان ابنها معلمًا للغة العربية في المدرسة الابتدائية القريبة من البستان، وبعد أيام من الانقلاب الدموي على زعيم الجمهورية الأولى أخذوه مع مَن أخذوا، ولم يعد مِن الذين تم أخذهم الكثير، لكن ابنها عاد إليها.. مجنونًا.

ومنذ ذلك الحين وابنها المعلم يدور في شوارع المدينة بدشداشته الرثّة حافي القدمين يفتش بهوس عن علب السجائر الفارغة وخيوط الأحذية القديمة، وحينما يمُر بأزقة المدينة يتبعه الصبيان هاتفين ومزغردين ومشاكسين، هذا يجر ثوبه وذاك يقفز على ظهره متعلقًا برقبته وثالث يركض أمامه ورابع يمسك يده وهناك من يرشقه بالحجارة، ورغم ذلك فهو لا يخرج عن ذهوله، فهو سادر في رعبه وكوابيسه التي قذفت به إلى الضفة الأخرى من الواقع.

أحيانًا يتحدّث آدم المعلم مع نفسه بحكايات لا يستطيع السامع أن يفهم منها شيئًا. فَجُمَلَه غير مترابطة وشخوصه كالأشباح، وأحيانًا ينطق بالحكمة والأشعار المؤكدة والمحققة في كتب التراث، لكنه يفككها ويخلط بين الأبيات الشعرية، فقد كان ينشد أشعار مجنون ليلى بكاملها من دون أيما خطأ، وكان يقرأ الأشعار حسب الطلب، بل حتى الصبيان كانوا يسألونه أن يقرأ لهم الأشعار فيقف لينشد القصائد.

وآدم المعلم لا يعود إلى البيت إلا نادرًا. فهو ينام ليلًا في زوايا السوق الكبير. ولقد تعودت أمه على ذلك بمرور السنين، ففي السنوات الأولى بعد عودته مجنونًا كانت تفتش عنه في الطرقات والأزقة، لتعود به قائدة إياه من يده مثل طفل في الرابعة وهو يسير معها مبتسمًا ببراءة. وفي البيت تطعمه وتُبدِّل له ثوبه، لكنه في معظم الأحيان كان يسبقها في الاستيقاظ فينّسل مثل الظل مختفيًا في الأزقة والأسواق. وبمرور الزمن استسلمت أمه للواقع الذي وجدت نفسها وابنها فيه وفَتَر حماسها وهمتها في متابعته بعد أن يأست من حاله، وأخذت تعيش وحدتها في هذا البيت الواسع بالنسبة لها.

الدار واسعة، تتوسطها باحة عريضة جدًا تأخذ معظم مساحة الدار، وفي جانب منها تقف شجرة السدر شامخة عالية تملأ الباحة بالظل، وفي الدار حجرتان طينيتان متقابلتان تفصل بينهما مسافة عريضة. ولفقدان معيلها أخذت تؤجر إحدى الغرفتين وتعمل بغزل الصوف بعد أن تشتريه من جارتهم أم آدم الشيوعي التي تسكن الدار المجاورة لهم، لتبيعه بعد ذلك بثمن أعلى.

ومنذ أكثر من شهر طُرق بابها، وعندما فتحت الباب وجدت رجلًا ومعه

صبيان، حيّاها الرجل بأدب واحترام، وقبل أن يقول شيئًا عن مقصده أخبرها الصبيان بأنه جاء لتأجير غرفتها الفارغة والتي انتقلت العائلة كانت تسكنها منذ شهر تقريبًا. عند ذاك أخبرها الرجل بأن اسمه آدم السلمان، وأنه غير متزوج ومن مدينة أخرى ويعمل ملاحظًا في معمل النسيج، ويمكنها أن تسأل عنه في المعمل أو أي شخص تشاء.

من أول نظرة ارتاحت الأرملة لملامحه وحضوره الرجولي الذي منحها مشاعر مخدرة لطيفة، وهكذا سهّلت الاتفاق على الإيجار، كما طلب منها أن تشتري له متراسًا وغطاءً للنوم فليس لديه أي أثاث سوى ملابسه وأعطاها مبلغًا لتقوم بذلك، وفي اليوم الثاني جاء آدم السلمان حاملًا حقيبته التي تضم ملابسه وحاجاته الأخرى وبعض الكتب.

كانت الخبازة الأرملة في البداية متوجسة منه توجسًا أنثويًا غريزيًا، فقد كانت تراقبه بحذر، وتتبادل معه بعض الكلمات ولا تسترسل معه في الكلام، على الرغم من ارتياحها الغزيزي الأنثوي له من أول لقاء بينهما.

امتزجت في أعماقها العواطف والمشاعر الغامضة والغرائز المحتدمة، لقد كانت ترى فيه شباب ابنها الضائع، وربما كان حذرها يعود لطبيعتها الخجولة المنطوية على النفس والناتجة عن الفقر في معظم الأحيان، وأيضًا بتأثر خوفها الغريزي النابع من أنوثتها المكبوتة، فقد تخاف ايقاظ المرأة الأنثى في داخلها، بينما هي دفنت رغباتها الأنثوية في أعماق الأعماق.

بيد إنها وبمرور الأيام تعودت عليه وأصبح جزءًا من عالمها، فأخذت تغدق عليه من خزين حنانها الأمومي المكبوت، وأنوثتها التي تدفعها لكي تكون أنثى في بعض تصرفاتها، فقد أخذت من جانب تنتبه لحالها وتعتني بمظهرها، ومن جانب آخر تتصرف كأنها زوجته، فأخذت تغسل ملابسه وتعد له الطعام وترتب له السرير وتتحدث معه أكثر، وهو بدوره كان يعاملها بمنتهى اللطف والاحترام ويساعدها في انجاز بعض الأمور البيتية التي يصعب عليها القيام بها مثل ترميم الجدار ولطشها بالطين أو شراء بعض الحاجات الضرورية من السوق، ولكنه مع ذلك ظلَّ غامضًا

بالنسبة لها، فهو ليس كالآخرين، يقضي معظم وقته في البيت، إما يقرأ في الكتب التي جلبها معه أو يجلس معها متحدثًا، وبعض الأحيان يختفي منذ بداية الصباح ولا يأتي إلا بعد منتصف الليل، لكنه لا يعود ثملًا أبدًا، بل متعبًا بشكل رهيب فيوقظها برفقة ورجاء، لتعد له الشاي الذي يحبه جدًا، هذا إذا ما أخذتها الغفوة قبل أن يعود، فقد كانت تعامله مثل ابنها المجنون وتقلق عليه إذا ما تأخر.

كانت الخبازة الأرملة تخاف عليه من شيء لا تعرفه هي بالضبط، فهي تخاف عليه من عيون الناس وحسدهم لها، كانت تخاف أن تفقده فلا يدفء مشاعرها وجود رجل في بيتها وعالمها، حتى وإن لم يكن بينهما اي شيء، ففي النهاية هي تكبره ببضع سنوات.

كانت تخاف عليه من المتاعب في العمل، تخاف عليه من الظلمة وعتمة الطرقات حين يعود بعد منتصف الليل، بل أحيانًا كان الخوف يمتلكها وهو جالس في حجرته يشرب الشاي ويقرأ الكتب، تخاف عليه من الكتب، فلقد حذّرته مرارًا من أن الكتب تأتي بوجع الرأس، وتحكي له عن ابنها آدم المعلم حينما كان طالبًا، وبعد ذلك معلمًا، وكيف كان يقضي الليل وهو يقرأ على ضوء الفانوس، وكيف داهم الشرطة ورجال الحرس القومي دارهم، وقلبوا الدار آخذين معهم كتبًا عديدة، بعد أن مزقوا العشرات منها ورموها وسط الدار. ولم يجد آدم السلمان إجابة على كل كلامها سوى الابتسامة بطيبة وحنان، مخمنًا بأن ابنها المعلم المجنون كان أحد رفاقه، شارحًا لها بأن الكتب تأتي بوجع الرأس لكن يعقبه بعد ذلك عافية للروح.

كان يحدثها بلغة مفهومة بسيطة، بأن الكتب تتحدث عن الحق والباطل وعن الخير والشر، ومعظم الكتب تدعو للخير الذي يخاف منه رجال الأمن والحرس القومي، فكانت تؤمن بكلامه لكنها تعلق بأن الحق والباطل والخير والشر لا تحتاج لقراءة الكتب، فكل إنسان يعرف ما هو الخير وما هو الشر، فلماذا وجع الرأس هذا!

مرة سألته لماذا لا يتزوج، فحاول التملص من الإجابة بالابتسام والضحك وإطلاق النكات، لكنها مع ذلك لم تسأله عن أهله وذويه، لم تشأ أن تعرف عنه كل شيء، لا لكونها لا تريد ذلك بل لكونها لا تريد أن تشعر بأنه غريب عنها وأنه ابن لأم أخرى، وربما يحب امرأة ما.

وإذا ما صادف أن التقى بابنها المعلم المجنون عندها فإنه كان يعامله باحترام وهدوء ويتحدث معه كأنه في كامل قواه العقلية، وكانت ترى الأسى يعتصره حينما يتحدث معه، وأحيانًا كان يشرد بفكره ونظراته عنهما وهو يتأمل ابنها بعمق.

انتبهت ليلة أمس لنفسها، ولثورة جسدها اللا إرادية. استيقظت ووجدت نفسها رطبة من منطقتها السفلى..فزعت. كانت واعية إلى أنها كانت معه في الثوان الأخيرة قبل أن تَفِز. استغفرت الله. لكنها وجدت نفسها لا تستنكر ما راودها من مشاعر جنسية في النوم، بل غمرها خدر لم تشعر به منذ سنوات.

أمس جاء قبل منتصف الليل بقليل، بدا لها مُتعبًا، شاحبًا، مهمومًا، شارد البال، وعلى الرغم من كل محاولاته أن يكظِم ذلك وأن يبدو بحالة طبيعية. لم تعرف بالضبط ما الذي اعتصر قلبها حين دخل عليها الغرفة، أحست بأنها تطير في الفراغ هابطة للقاع، وأن قلبها يكاد أن يتوقف عن النبض. جلس من دون أن يتكلم، وحينما انتبه لحاله بعد لحظات بدأ الكلام بهدوء:

- غدًا الجمعة والحمد لله.

ثم صمت، لم تجبه أول الأمر ورمقته بصمت، وشعرت بأن عليها أن تخفف عنه، ليتحدث بما يثقل قلبه، فأجابته بمرح مصطنع، رغم نبرة الحزن الواضحة في صوتها:

- سوف تشبع نومًا، فأنت تنام قليلًا، خاصة في الأيام الأخيرة..

نظر إليها متأملًا، ثم برقت عيناه وقال:

- أود أن أتحدث معك حديثًا خاصًا، يعني.. حديث يجب أن يبقى سرًا بيننا.

فاجأها حقًا، لكنها أحسَّت براحة خفية وغمرتها سعادة مضطربة في أن تكون مفيدة له ويشاركها أسراره، وقبل أن يسترسل في الكلام قالت بمرح:

- انتظر حتى أخدّر الشاي وأعد العشاء..

فابتسم مؤيدًا كلامها، وامتنع عن الحديث إلى أن قامت وأشعلت (البريمز) ووضعت إبريق الماء لتسخينه قبل أن تدلقه في إبريق مخصص للشاي، ثم انزوت

لتقدم له شيئًا من الطعام، وكانت ذلك اليوم قد أعدت باقلاء خضراء واشترت رمانًا أحمر، وما إن أعدّت هذه المائدة المتواضعة حتى كان الماء يغلي، فأعدت الشاي في الإبريق الآخر.

كان آدم السلمان يأكل ويتأملها في الوقت نفسه، انتبه لِلَمعة الفرح الأنثوي في عينيها، ولأول مرة انتبه لجمالها الأنثوي، لقامتها الممتلئة من دون سمنة، لإستدارة ساقيها وتناسق مؤخرتها وهي تنحني هنا وهنا.

تضايق من أفكاره الجنسية حولها، لكنها كانت مشاعر لا إرادية. ومع ذلك أحسَّ بفرح مفاجيء وبالأمان، أما هي فما إن رأته قد أنهى أكله حتى صبَّت له الشاي، وحينما همَّ بالحديث أوقفته قائلة بأن عليه أن يكمل شرب الشاي أولًا، وبعد ذلك يطيب الحديث، وبعد أن شرب كأسين من الشاي بادرته قائلة:

- الآن يمكنك الحديث براحة.. قل ما عندك.. اعتبرني من تعتبرني.. سأكون حافظة سرك الأمينة.. أنت عزيز وغالي لدي مثل ابني.

غمره ظل من عدم الرضا لمقارنته بابنها، ومع ذلك ابتسم هو من صميم قلبه قائلًا:

- لو لم أشعر بأنك كذلك لما قررت مفاتحتك..

سرها كلامه وانفعلت به ومن أجل أن تخفي انفعالها عاجلته:

- قل ما عندك..

صمت قليلًا ثم بدأ الحديث:

- لدي صديق حصل له ما لا يسرني. وهو وعائلته الآن في وضع صعب.

ثم صمت، كانت تود أن يستمر في كلامه، حينما لاحظت أنه يفكر كأنما ينتقي الكلمات، فبادرته:

- قل ما عندك بلا خوف.. أتخاف مني..؟ أعرف إنك في ضائقة.. إن ذلك مرسوم على وجهك.. قل ولا تخف.. وسترى صدري مثل بئر بلا قرار لأسرارك.. قل مَن هو صديقك هذا.. ماذا به؟

واصل آدم السلمان صمته ثم نظر في عينيها مباشرة قائلًا:

- أتعرفين عائلة آدم المطير؟

ما إن ذكر لها هذا الاسم حتى ارتسم الاضطراب على وجهها، وشعرت بخوف حقيقي، بل لقد مستها رعشة خفيفة سرت في أنحاء جسدها. نعم إنها تعرف هذه العائلة وكل ما يتعلق بها، خاصة أن خبر اعتقال آدم المطير كان من الأحداث المهمة بالنسبة لأهل المحلة.

أحسَّ آدم السلمان بانفعالاتها وأراد أن يداري الموقف لأنه شعر أيضًا بأنه ربما لم يحسن الدخول للموضوع، فأشعل سيجارة وأخذ ينفث دخانها في الهواء ثم يحرك يده في الهواء محاولًا تبديد الدخان.

لاحظت هي بأنه أحسَّ بارتباكها، لذا يحاول التراجع عن الكلام وهذا ما لا تريده، فقالت:

- وما به آدم المطير..

- لا شيء..

أحست أنه بدأ بالتراجع وأنه يتجنب الحديث فسألته:

- هل هو الصديق الذي في وضع صعب..؟

صمت لحظة ثم نظر إليها بشرود قائلًا:

- نعم..

فاحتارت كيف تجره إلى الكلام فسألته:

- هل تعرف أين هو الآن؟

- نعم..

- أين؟

- في المستشفى..

فوجئت بجوابه فسألته:

- في المستشفى؟ هل أنت متأكد..

فقال لها بخفوت وهو يفكر في نفسه بأن يجد مدخلًا آخر للحديث:

- نعم..

- ولكنهم اعتقلوه منذ أكثر من شهر ونصف.!؟

- أعرف..

- يعني أنه الآن خرج من المعتقل..؟.

- لا.. إنه سجين.

- أنت تقول إنه في المستشفى..!

- لا فرق.. لقد عذبوه لدرجة إنهم بأنفسهم قرروا نقله إلى المستشفى..!

ضربت هي على صدرها تعبيرًا عن التعاطف والاستنكار وقالت :

- يا ويلي على قلب أمه.. ولكن قل لي من أين تعرفه.. إنه شاب طيب، عين الله تحرسه، ولكنه خطر.. التعرف به لا يجلب سوى المشاكل، إنه كما يقولون شيوعي أحمر.!؟

شعر بتعاطفها من نبرة صوتها ونظراتها المتقدة بالحنان والطيبة، فابتسم لها، ثم انطلق بالحديث:

- أنا أعرفه منذ فترة طويلة، تعرفت عليه في بغداد، أنتِ تعرفين بأني من سكنة بغداد، وكان هو طالب في الجامعة هناك، وأثناء السفر إلى بغداد لزيارة أهلي تعرفت عليه أثناء سفرنا معًا وجلوسنا جنبًا إلى جنب في السيارات المسافرة بين بغداد والكوت.. إنه شاب طيب جدًا، ولا يريد سوى الخير للناس.. والآن هو في المستشفى.

ثم صمت، فأحست إنه يريد أن يكلِّفها بشيء لكنه يتردد. شعرت برغبتها أن تشاركه كل شيء، كل شيء، وثمة رغبة قوية لا إرادية تدفعها إلى ذلك، فحزمت أمرها وسألته:

- ما المطلوب مني أن أعمل.. قل فقط ولا تخف..!

- شكرًا.. كل ما أريده هو أن تمري على أمه.. فهم يسكنون في شارعنا نفسه، وأريد أن تسلميها هذا المبلغ البسيط..!

لم تفهم هي لحظتها شيئًا، لا سيما وأنه أخرج المبلغ من جيبه. فسّرت هي الأمر بأنه يريد ربما تسديد دين بذمته، أو أن يقدم مساعدة لا أكثر، فقالت:

- سأمر عليها ولكن ماذا أقول لها.. من أين هذه الدنانير ومن أرسلها..؟

صمتت للحظات. أحست بجسدها يسخن، وكانت لا تعرف ما الذي يجري في داخلها، فهي تكن له محبة عظيمة، وكأنه رجل حياتها بعد ابنها المجنون. وسمعته يقول لها:

- إذا ما سألتك أمه قولي لها بأن هذا المبلغ مساعدة مِن جماعته.. مِن رفاقه..!

شعرت بتدفق الدم في شرايينها، وقالت بصعوبة كأنها بالكاد تتنفس:

- مِن رفاقه..؟ أنت وحدك ترسل النقود ومن راتبك الخاص ثم لا تذكر اسمك، وتقول من جماعته؟

ابتسم آدم السلمان من أعماق قلبه وقال:

- نعم مِن جماعته.. مِن رفاقه.. فلست الوحيد الذي دفع، هناك أصدقاء له دفعوا أيضًا..

أحسَّت بأن الهواء بينهما صار مكهربًا والمسافة بينهما مشحونة بتيارات لا تعرفها لكنها تجذبها، ولكي تتجنب التفكير في ذلك سألته:

- وإذا سألت عنك..؟ قصدي عن جماعته.. ماذا أقول لها.!؟

نظر إليها وهو يشعر بأن هذه المرأة التي لا يخفى جمالها على أحد على الرغم من لباسها الشعبي التقليدي صارت جزءًا من حياته واسراره، وأنها قريبة منه جدًا مع أنها تكبره ببضع سنوات، ولكنه ليس في موضع للمشاعر الذاتية، فعليه انجاز هذه المهمة بسلام، فقال لها:

- لا تقولي لها شيئًا.. فقط قولي إنها من رفاقه لا أكثر.. ثم لا تخافي فأنها لن تسأل مثل هذا السؤال..

- وهل أقول لها شيئًا آخر غير هذا..؟

- لا.. سوى أن تسألي عنه وعن أخباره وقولي لها بأن تبلِّغه تحياتنا إذا ما ذهبت لزيارته في المستشفى..!

لا تدري هي من أين جاءت الدموع لتنهمر، فقد وجدت نفسها تبكي من دون أن تريد ذلك. وما إن رآها على هذه الحال حتى مد ذراعه ليحضنها ويضع رأسها على كتفه، ويقبل جبينها. جرى الأمر لا إراديًا. ووجدت هي نفسها في حالة خدر لذيذ لم تعرفه طول عمرها، وأغمضت عينيها لتستقبل كل ما سيجري معها، لكنه لم يفعل سوى أن رائحة أنوثتها هيمنت عليه، وفجأة ولا إراديًا مد ذراعه ليمسك بكفها القريبة منه ويضغط عليها بقوة، وبمشاعر محتدمة يبدو تسربت إليها. فوجئت هي، ولا إراديًا مسكت كفه بحرارة ولا إراديًا ومن دون أن تدرك ما تفعل رفعت كفه إلى شفتيها وقبلتها بحرارة وشبق مكتوم. ارتبك هو ولم يود أن تقبل يده، فسحبها، وأثناء هذه الحركة مسَّت ذراعه جانبًا من نهديها، فأحسهما طريان ونافران، بينما ندّت عنها آهة شبقة لا إراديًا. لكنه انتبه لنفسه ولم يفعل شيئًا أبعد من ذلك.

الغريب أنهما لم يشعرا بأنهما يفعلان شيئًا لا أخلاقيًا أو خارج العادة وإنما كأنه كان متوقعًا وتعبيرًا عن مشاعر كل منهما نحو الآخر.

ظلت هي صامتة، لكنه قام خائفًا من تواجده فلربما لن يسيطر على رغبته فيأخذ الوضع مسارًا آخر. وحينما قام ليذهب إلى غرفته، قالت له:

- غدًا سيكون كل شيء مثل ما تريد..!

خرج آدم السلمان من غرفتها والفرح يغمر قلبه، بينما ظلت هيَّ ساهرة ومشعة بمشاعر أخرى غير مشاعر الأمومة، وإنما كانت مثل فتاة مراهقة، فلم يغمض لها جفن.

في صباح اليوم التالي استيقظ آدم السلمان من نومه متأخرا قليلًا. كانت هي قد أعدت الشاي وأحضرت الخبز الحار، وجلست تنتظره تحت شجرة السدر، اقترب

منها وألقى عليها تحية الصباح، فأحس بها أكثر حيوية ووجهها قد اصطبخ بلون وردي على غير العادة، وثمة خيط من الكحل يبرز عينيها ويمنحهما جمالًا خاصًا.

حينما جلس تحت شجرة السدر بالقرب منها صبتْ له الشاي. وبينما هو يدير الملعقة ليذيب السكر في استكان الشاي سقطت حصاة بالقرب منهما، فقفزت هي مسرعة إلى الشارع وهي تلعن الشياطين الصغار الذين يرشقون الشجرة بالحجارة بلا انقطاع دون أن يفكروا في أن حجارتهم ممكن أن تفقأ عين أحد أو تشج رأسه، علمًا أن الأطفال يدركون أنهم لا يستطيعون جني الثمار المتساقطة من الشجرة.

وحينما أقبلتْ ثانية، كان سلمان قد صبَّ لنفسه الشاي ثانية، فقالت مبتسمة، مع أنها حينما تصرخ بالصغار فإنها تريهم غضبها من تصرفهم الطفولي الأرعن:

- كان هذا (عواوه) بن العلوية، هو الذي رشق الشجرة بالحجارة..

- ليس في الأمر ما يخيف.. إنهم أطفال لا يجدون ما يلهون به.

جلست هي ثانية بالقرب منه، لاحظ بأنها ليست على طبيعتها، ثمة كلام خفي في عينيها، فكَّر ربما أنها مرتبكة من المهمة التي كلفها بها، لم يشأ أن يربكها بالسؤال، لكنها لم تستطع أن تقفل على أسرارها أكثر، فقالت له:

- أم آدم المطير تبلغكم السلام..

فوجيء، نظر في أعماق عينيها باحثًا عن تفسير:

- كيف.. هل..؟

لم تدعه يكمل جملته، إذ بادرته مبتسمة، فرحة كطفل أنجز عملًا بنجاح وينتظر الثناء:

- نعم.. ذهبت إليها فجر هذا اليوم..

انتابته انفعالات قوية لم يستطع أن يكتمها فأراد أن يسألها، إلّا إنها بادرت بالحديث وكأنها تعرف لهفته لسماع ما جرى:

- لقد ذهبت فجرًا حيث كان الناس نيامًا، طرقت بابهم، لم يفتحوا لي أول

الأمر.. طرقت ثانية، خفت أن يستيقظ الجيران.. بعد قليل سمعت صوت أم آدم المطير تسأل عن الطارق.. فقلت لها أنا أم المعلم المجنون.. فهذا هو اسمي الشائع في المحلة. فتحت لي الباب على حذر.. لقد كان الاستغراب هو الذي يقوله وجهها. كانت تنظر إليّ بشكٍ وعدم ثقة أول الأمر، لكنها لم تفقد أصول اللياقة في التعامل معي حيث سألتني إن كانت تستطيع أن تفيدني بشيء أو إن كان ثمة مكروه قد حصل.

ابتسمتُ كي أخفف من شكوكها، وقلت لها بأني جئت لضيافتها من قبل أصدقاء لهم.. لا أدري إن كانت قد فهمت الأمر مباشرة لكنها حدّقت في وجهي للحظات، وأخيرًا طلبت مني الدخول.

تعرف أن بيتهم يتألف من غرفتين، الأولى لمنام آدم وأخوته، والأخرى للأم وابنتها، لكني فوجئت بأن الجميع كان مستيقظًا.. كانوا قلقين..، فليس هناك من يزورهم في مثل هذه الساعة من الفجر غير رجال الأمن والشرطة..!

أحسستُ بالخجل للحظات.. دخلت مع أم آدم المطير إلى غرفتها بسبب خصوصية المهمة، لكنهم جميعًا دخلوا أيضًا. لقد كنت في حيرة: كيف أبدأ..؟ ومن أين..؟ ولكني أبصرت في عيونهم أملًا وترقبًا وحنانًا كأنهم يعرفون أنني جئت من قبل جماعتهم.

أرادت الأم أن تخرجني من حيرتي فأخذت ترحب بي مرة أخرى، فما كان مني إلّا إن حزمت أمري وقلت لهم: إني جئتكم من عند رفاق آدم.

وما إن تمتمت بالكلمة الأخيرة حتى تألقت عيونهم وأشرقت وجوههم وارتسمت الابتسامات عليها.. وقالت أمه وهي تبتسم: „أهلا وسهلا بك وبهم".

لقد تعجبت وأحسستُ بالفرح في قلبي.. تعجبتُ لكونهم لم يسألوني عن أسمائكم، وفرحت لأني وجدت نفسي بأني أصبحت قريبة منهم ومن أسرارهم، ومنك أيضًا، وكأني وجدت عائلة أخرى.

صحيح إننا نعيش هنا منذ أكثر من خمس عشرة سنة، وعلاقتنا طيبة، إلا إني اليوم فقط، وفي تلك اللحظة بالذات شعرت وكأني صرت من العائلة..

المهم.. بادرني أخو آدم قائلًا، وهو يبتسم: „لقد كنت أتوقع مجيئك. فنحن نعرف إن الرفاق يتابعون وضع العائلة ووضع آدم باهتمام".

استغربت من كلامه أول الأمر، فلقد كان يتكلم كأنه يعرف من أرسلني. ونهضتْ الابنة لتعمل الشاي فتعذرت بألف حجة ولكن دون جدوى.. كانوا يكررون كلمات لم أفهمها جيدًا. ولكني كنت أخمن أنها تعبر عن الاحترام والتقدير.

وحينما أعطيتهم المبلغ أحسست بارتباكهم وقالوا: „لماذا تكلفون أنفسكم".

انتبهت إلى إنهم شملوني بالخطاب وكأني منكم.. وقالوا شيئًا لم أفهمه.. لقد كانوا ينتظرون مني أن أحدثهم.. وبماذا أحدثهم أنا؟.. من أين أجيء بالكلام..؟ المهم شربت الشاي عندهم.

كان الضوء قد بدأ يكشف السماء، فقلت لهم يجب أن أذهب، جميعهم أوصلوني إلى الباب لكن عند الباب قال لي الابن الأكبر: „أخبري الرفاق بأن آدم في حالة صحية صعبة لكن موقفه جيد وبلغيهم شكرنا.. لكن لحظة.. انتظري".. ثم استوقفني وذهب إلى الغرفة الثانية، تركني الجميع فجأة وحيدة، وبعد قليل عاد وسلمني هذه الورقة المطوية وقال لي: „سلميها له".. فسألته بصوت خافت ومتوجس: „لمن أسلمها..؟".. فقال لي: أنت تعرفين ذلك.. لِمَن سلمك المبلغ..".

خفت.. لم أجد ما أجيبه، خفت وكأنهم اكتشفوا سرًا خطيرًا..!

حين خرجت كان الشارع لم يزل خاليًا من السابلة.

قالت ذلك بينما وضعت الرسالة المطوية أمامه.. وبلمح البصر تلقف الرسالة وفتحها.. وحينما أرادت أن تواصل حديثها رأت وجهه شاحبًا فعرفت أن في الرسالة شيئًا خطيرًا.

آدم الرهوان: الحقيقة أنا كتبت الرواية كاملة لكني حذفت الفصول اللاحقة، فمن المؤكد إن القارئ أعجب بشخصية المناضل آدم السلمان، والأرملة الشجاعة التي استأجر عندها غرفة، وسبب حذفي للفصول العشرة اللاحقة هو رغبتي ألاّ أشوّه الصورة التي تشكلت عن هاتين الشخصيتين. لأن ما جرى لاحقًا في الواقع ربما سيشوش على هذه الصورة.

فآدم المطير يموت تحت التعذيب. وعلاقة آدم السلمان بالأرملة لا تصمد أمام اندفاعات الغريزة، فذات ليلة تأججت الشرارة الكهربائية بينهما بطريقة جنونية، إذ لا يتحمل كلاهما ثقل الرغبة المجنونة التي تتقد في جسديهما فيحدث التماس ويخترقها بكل عنف بينما هي تفرش نفسها بشبق ولهفة تحته مثل أرض عطشى للمطر.

ومرت أيام وليالٍ وأسابيع كان فيها المطر مِدرارًا. ولأنها كانت قد تجاوزت الأربعين بقليل فظنت احتمالات الحمل ضعيفة، لكن حدث الذي حدث فحملت. والحقيقة لقد اسهبت في رسم تفاصيل الرغبة وتطورها إلى لحظة الاندماج الجسدي، وكتبت تفاصيل ما جرى في مشاهد متعددة، لأن الأرملة كشفت عن جوع جسدي تاريخي، بل أخذت تريد آدم السلمان بشكل محموم، بشكل فقدت فيه الكثير من وقارها وحشمتها.

الأوضاع السياسية في البلاد انهارت كليًا وتحول العرس الجبهوي إلى مذبحة. وأُلقي القبض على آدم السلمان نتيجة اعتراف ووشاية من قِبل عامل شيوعي معه، كان يعمل في معمل النسيج. ولم يصمد آدم السلمان تحت وطأة التعذيب فانهار، ووقَّع على استمارة التعهد بعدم ممارسة النشاط السياسي إلا من خلال الحزب القائد للثورة. لكنه من شدّة احتقاره لنفسه ولضعفها لم يعد إلى بيت الأرملة، ولم يكن يعرف أنها حامل منه وسافر إلى بغداد ثم دبَّر أمره للسفر إلى خارج البلاد.

بقيت الأرملة الحامل وحيدة مع مصيبتها، ولم تكن تعرف شيئًا عن آدم السلمان، وحينما مرّت أسابيع ولم يظهر، دخلت المطبخ.-أغلقت بابه وشبابيكه بإحكام، وفتحت كل عيون الطباخ الغازي، وبعد فترة فترة أوقت عود ثقاب فاشتعل المطبخ بما فيه ومن فيه.

آدم الجبار اختفى وضاع بين المدن مفتشًا عن ابن عمه الذي تفتش عنه العشيرة لقتله. أما عائلة آدم شاكر فقد تم تهجيرها إلى البلد المجاور لإدعاء السلطة بتبعيتهم إلى الدولة المجاورة.

والحقيقة أنا حذفت معظم الفصول لأنها كانت فاضحة ومكشوفة لا سيما في العلاقة بين الأرملة وآدم السلمان، وأيضًا النقاشات التي كانت تجري بينه وبينها لا سيما فيما يخص المقدسات، فمثلًا كان يحدثها عن التفاوت الطبقي بين الأغنياء والفقراء وعن اللا عدالة والإستغلال، وقال لها ببساطة وعفوية بأن الأمر من الله وإنه هو من يوزع الأرزاق ويفضل بعض الناس على الآخرين، ويبسط الرزق لمن يشاء.. كله مِن الله، التفاوت بين الأغنياء والفقراء كله مِن الله وبإرادته، «وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ «.. أو « إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا... وحين أخذ يحدثها عن هذه الآيات وعن نشوء الأديان، أحسّت بالخوف من جرأته، فكان يهدئ مخاوفها بالسفر في جسدها وإطفاء اللهيب في دمها وأعصابها، وكانت تئن وتتأوه تحته ناسية الدين والأديان والجنة والنار والملائكة والشيطان.

ومن جانب آخر وجدت أنني أتتبع أساليب الرواية الكلاسيكية، بينما أنا أتشدق بالحداثة وبما بعد الحداثة، وباللا إنتماء بينما روايتي ذات بعد سياسي واقعي اجتماعي..!

انتهت

❊❊❊

أنا آدم الرهوان. أنا أشك إذًا أنا موجود..!عقلي مليء بالشك، وشكوكي ليست حول البشر، فأن أعرف تفاهة وكذب وحقارة الكثير الغالب منهم، مثلما أعرف جمال أرواح البعض منهم..! لا شك لدي حولهم، لكن شكوكي تتوجه للأديان كلها. لا سيما تلك التي تدعي إن تعاليمها نزلت من السماء.

شكوكي تبدأ بالمنطق الشكلي. „اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ".. فماذا كان قبل خلق السماوات والأرض؟ وكيف يمكن أن يكون الكل جزءً ممتدًا بين السماء والأرض؟ بل وكيف يكون الخالق جزءً من مخلوقاته.؟

ثم إذا كان لا بد من وجود سبب لكل شيء، ما سبب وجود الله؟ وإذا كان يمكن أن يوجد أي شيء من دون سبب، هل يمكن أن يكون كذلك أيضًا بالنسبة إلى الله؟

نحن نتوجه إلى الله مباشرة كبشر ضعفاء وحسب تصوراتنا عنه، ونتحدث معه ونشكو إليه، فلماذا لم يتوجه هو إلى النبي محمد مباشرة من دون وسيط كما حدث مع موسى، أي، لماذا أرسل له ملاكًا اسمه جبريل؟

ثم، ماذا يحدث حينما يفقد الإنسان معتقداته فجأة، ويجد نفسه ينتهي إلى الفراغ؟

ليس الواقع دائمًا كما هو حسبما نعتقده،. الواقع شيء آخر مختلف، ومع ذلك فصحيح أن عقولنا هي التي تخلق تصوراتنا عن الواقع الذي في أذهاننا، لكن الواقع كما هو واقع بعيد عن تصوراتنا، وهو موجود خارج عنا..!

ومع كل شكوكي، لماذا أعتقد بأن ثمة شيء غامضًا يتخلل الوجود والكون كله، هذا الشيء هو قوة غامضة، عاقلة، عبقرية، توجه حياتنا وكل الكائنات والمجرات!

مرة قرأت لنجيب محفوظ رواية يقول عن لسان إحدى شخصياتها: „جرب الحياة بشجاعة إن استطعت. اقتحم الأبواب بجرأة، لا تتمسكن فكل ما تحتاجه هو حق لك، هذه الدنيا ملك الإنسان، لكل إنسان. لذا عليك أن تتخلى عن عاداتك بشجاعة. هذا كل ما هناك”.

نعم.. وقد فعلت.. أنا آدم الرهوان، عِشت الحياة طولًا وعرضًا، عِشت حياة الزُّهاد والمتصوفة وتركتها بعد أن اكتشفت لا معناها وخوائها، فقد وجدت من يتخذ منها قناعًا ووسلية، وهناك من توجه إلى الزهد والتصوف عجزًا واستكانة وقناعة سلبية..! واقتربت من عالم الأحاسيس والرغبات والشهوة، فوجدت الناس في جوهرهم يحتفون بها.. اللحم.. اللحم.. اللحم.. فحتى لو وجهنا قوانا وطاقاتنا نحو العمل والثروة والسلطة ففي النهاية كلها من أجل توفير أكبر كمية من اللحم.. من الفرُوج..! الجحيم هو الفرْج.. والجنة هي الفرج..! هذه فلسفتي.

أنا مجنون. ولقبي الرهوان. هو ما وصِفت به من قبل الأصدقاء، حيث كنت أتمايل وأتمهَّل في المشي وهي صفة البغل الذي يمشي بسهولة وبساطة. وهذه إحدى

صفاتي.. فقد كنت أتبع أي مقترح لمغامرة، مهما كان نوعها وشكلها.

لكن كل هذا كان في صباي ومراهقتي، وحينما بلغت الثامنة عشرة عامًا صِرت أميل للهدوء والمحافظة، وأبحث عن صيغة ما لشخصيتي، لكنها في الجوهر لم تخرج عن طبيعتي الأولى، فقد كنت لا أخاف من تغيير اتجاهي..!

لا أهل لدي. لم أعرف لي أمًا ولا أبًا. لا أذكر شيئًا من طفولتي. تبدأ ذاكرتي بالنشاط وتقديم الصور من لحظة خروجي من البستان وأنا بعمر الرابعة عشرة عامًا.

هو بستان على حافة المدينة بل يحدها من جنوبها. فجأة، وكأني خرجت من الغيب، فوجدتني أمشي في درب على جانبيه أشجار النخيل والتين والبرتقال. من أين جئتُ؟ ومن أنا؟ لا أعرف.

كان البستان مسوّرًا بسياج طيني عالٍ، وعلى حافته العُليا غرست أعقاب القناني الزجاجية المكسورة وشظاياها كي لا يتمكن أحد من أن يتشبث بالسياج. وفي زاوية ما هناك فتحة ضيقة بمثابة المنفذ من وإلى البستان.

ولا أعرف تفسيرًا للأمر.. وجدت نفسي قرب شجرة رمان، لكني انتبهت إلى التفاف عِربيد ضخم حول غصن مثقل بثمار التين الأزرق البنفسجي.

كيف وجدت نفسي هنا؟ لم يعد هذا السؤال يقلقني فقد ارتعبت من العِربيد الملتف على الغصن بطريقة غريبة، لا سيما وقد كانت عيناه كبيرتان بشكل مخيف، بدتا وكأنهما قطعتان من ماس أسود بارد. بل وبدا كأنه يفهم كل ما يجري حوله، إذ كان ينظر إليّ بانتباه يشبه الانتباه البشري المتوجس، لكني مررت من على بعد مترين منه، خفت أن يقفز عليّ، مع علمي أن هذا وهم، لأنه متلف على الغصن على شكل ظفيرة شعر متداخل وسيحتاج لوقت كي يفك نفسه من هذا الالتفاف.

وما إن اجتزت الشجرة حتى بدأت أركض خائفًا، مرعوبًا، لأخرج من هذا البستان، فحانت مني التفاته فرأيت العربيد يفك التفافه عن الغصن لينزل كي يلحق بي.

زادت سرعتي أضعافًا، بل رأيته من بعيد وقد رفع رأسه عن الأرض وهو يتلوى بطريقته الأفعوانية كي يلحق بي، فأخذت أصرخ بما يشبه البكاء الطفولي، لكني

كنت قد سبقته بمسافة طويلة، واتجهتُ إلى الفتحة التي كانت بمثابة باب صغير يقود إلى خارج البستان ومرقت من خلالها. ونظرت خلفي فرأيته قد توقف في منتصف المسافة بين المكان وبين الفتحة الطينية للبستان، بل ما أذهلني أن العربيد حينما التفتُ إليه التفاتة أخيرة، كان منتصبًا إلى ما يقارب نصف المتر، ثم فجأة استقام واقفًا وتحول إلى رجل مخيف الشكل. نظر إليّ وكأنه يسخر مني وكشَّر كاشفًا عن نواجذه، ثم أخذ يقهقه ساخرًا مني، وبعد لحظات استدار وقفل راجعًا ليختفي بين أشجار البستان مواصلًا ضحكه الساخر.

حين خرجت من البستان وجدتني أمام خلاء واسع أشبه بملعب ومجموعة من الفتيان بعمري وأكبر مني قليلًا يلعبون كرة القدم، وقد انقسموا إلى فريقين وحدد بالحجارة ملامح الهدف لكل منهما. وعلى مبعدة مائة متر تقريبًا تبدأ منطقة سكنية بشارعين خلفها ساحة خالية عريضة لتبدأ شوارع أخرى.

وكان هناك شخص يقف متفرجًا هذا السباق المحموم بين الفريقين. انتبهت إلى أنه نظر إلى جهة البستان حين خرجت منه.

بهدوء اقتربت من الفتى المتفرج ووقفت إلى جانبه. كان يتأملني بتوجس. عرف أنني غريب عن المكان والمنطقة لكنه ظلّ ينظر إليّ بتوجس كأنه يتجنبني. لكنه لم يطق تحمل هواجسه، فسألني:

- هل كنت في البستان؟

- نعم..

- ألم تخف..؟ ألم يمسك بك حارس البستان؟

- لا..لم أر أحدًا..

- كيف.. ألم ترَ عربيد البستان؟

- نعم رأيته وخفت كثيرًا..

أحسست أنني أثرت فضوله. فجأة صاح باللاعبين:

- اسمعوا.. أوقفوا اللعب.. هذا يقول إنه رأى حارس البستان العربيد..

فجأة توقف الجميع عن اللعب ولم يلحق أيًا منهم الكرة التي ابتعدت. واقتربوا جميعهم مني وأحاطوني وهم يتأملوني، إلى أن بادر أحدهم سائلًا:

- هل رأيت العربيد حقًا..؟

فتمتمتُ بتلقائية:

- نعم..

فسألني أكبرهم الذي لاحظت أن المجموعة تقدّره وأنصصت لما قال:

- صِف لنا كيف كان.. لا أحد يستطيع دخول البستان.. ومن يدخله لن يخرج منه سالمًا.. وإذا ما خرج سيكون مجنونًا يهذي بالأعاجيب.. فماذا رأيت أنت؟

رويت لهم منذ لحظة ظهوري من الغيب ورؤيتي للعربيد الذي تحول إلى رجل إلى لحظة وقوفي بينهم. فسألني فتى كان هو الأصغر بينهم سؤالًا تضمن مجموعة أسئلة متسلسلة، فأخرسني:

- من أنت؟ وما اسمك؟ ومن أين أتيت؟ وكيف دخلت البستان؟ وما معنى ظهورك من الغيب؟

ارتبكت. لم أجد ما أقوله حقًا، فأنا لا أعرف مَن أنا، ولا أعرف اسمًا لي، ولا كيف وجدت نفسي في البستان؟ وأخبرتهم بذلك. لم يصدقوني بل شعرت بهم كأنهم خافوا مني، حتى إن أحدهم قال لي:

- ربما أنت العربيد حارس البستان وتتخفى في هذا الشكل؟ فقد قيل إنه يتحول كما يريد في صورة إنسان أو حيوان.. وكثيرًا ما كان يمر مساءً من هنا، أو عند الظهيرة، والكثيرون رأوه وسلم عليهم، لكنهم انتبهوا إلى ذلك حين يسلم عليهم ثم يختفي من أمام أعينهم فجأة..

أقسمتُ لهم بأنني لست العربيد حارس البستان، بل أنا نفسي كنت أصرخ من الخوف..! أحسست أنهم صدّقوني، بل وتعاطفوا مع محنتي بعدم معرفتي لنفسي ولا

بكيفية ظهور ونسيان اسمي، فجأة قال أكبرهم وكان في حدود السابعة عشرة عامًا:

- اسمع.. بما أنك من دون اسم، فلنسميك على اسم أول البشر: آدم.

فسأل الصغير بمكر:

- وماذا سيكون اسم أبيه؟

هنا تدخل الشاب المتفرج الذي حدثني أول مرة، وقال:

- لا يحتاج لأب.. وبما أنه جاء ماشيًا بهدوء وبساطة وتحدّث برهاوة عن كل ما جرى له، فلنسميه آدم الرهوان..!

فقال له كبير الفتية مثنيًا عليه:

- لأول مرة يا آدم الأعرج تقول شيئًا صحيحًا..!

منذ تلك اللحظات صار اسمي آدم الرهوان. لكنهم كانوا محتارين بمصيري. فجميعهم بلا استثناء أخذوا يتناقشون فيما بينهم عن مصيري واين سأنام وكيف سأعيش. والتفتوا إلى الفتى الأعرج وسأولوه إن كان يعرف خانات فارغة يمكن اللجوء إليها آخر الليل فهو حمَّال ويقضي وقته مع البقالين، وأكيد يعرف خاناتهم، فأبدى استعداده للتفكير في الأمر، لكنه قال لكبيرهم بأن والده لديه فندق، فلماذا لا يطلب منه أن يشغله كعامل في تنظيف الغرف أو تلبية طلبات النزلاء من شاي أو اية طلبات أخرى.. فارتبك الفتى الكبير وقال ربما سيسأله عن أصله وفصله، ولا يصدق قصته ونقع في مشكلة.. وظل الفتيان الرائعون يفكرون في وضعي، فأحسست بدفء مشاعرهم وطيبتهم، على العكس من الشكوك والتوجس الذي قابلوني به في البداية.

وحدث ما لم يكن بالحسبان. إذ مرت امرأة شابة في بداية العشرينات، ملتفة بعبائتها التي تكشف عن جسد متناسق مثير، وكانت تحمل حقيبة جلدية متوسطة الحجم على كتفها.

نظرت المرأة ناحية الفتيان المتجمعين في نصف قوس حولي. استغربت تجمعهم وليس لعبهم في فريقين من خمسة أفراد مع حامي هدف كل فريق. وبدا أنها تعرفهم جميعًا بشكل جيد، وقالت لهم:

- ما لكم متجمعين هكذا ولا تلعبون؟

فجأة همس الفتى الصغير لهم قائلًا، ليسكن عند حواء الحوراء، فهي وحدها مستأجرة غرفة في البيت القصي. ولا أحد سينتبه. وكالبرق استلم الفتى الكبير الاقتراح وقال لها:

- الحقيقة يا حواء لدينا مشكلة ونتمنى أن تساعدينا..!

توقفت المرأة التي اسمها حواء ثم اقتربت منّا. وما إن رأتني حتى ارتبكت وسألت مباشرة:

- من هذا؟

فتقدم منها الفتى الأكبر بالمجموعة وقال لها متملقًا:

- هو الذي نريدك أن تساعدينا في حل مشكلته..

- وما مشكلته..!

وروى لها قصتي من ألفها إلى يائها، وهي قصة ليست بالطويلة ومعلوماتها مبتسرة جدًا، تتألف من بضعة جمل لا أكثر.

صمتت المرأة التي كنتُ أثناء حديث كبير الفتيان معها منشغلًا بتأمل وجهها وقراءة ملامحها، وكأن مصيري صار مرتبطًا بانبساط وانقباض ملامح وجهها وحركة شفتيها بالكلام. وكانت هي بين دقيقة وأخرى تلقي عليّ نظرة متفحصة كأنها تدرسني لتقرر مصيري.

وأخيرًا ارتسمت على وجهها ملامح التفكر والقرار، وبعد لحظات ابتسمت، وتوجهت نحوي سائلة:

- ما اسمك أيها الفتى الجميل..

- لا أعرف..

فانبرى الفتى الصغير قائلًا:

- اسمه آدم.. آدم الرهوان.

- آدم الرهوان.. رددتْ متبسمة. ثم قالت وهي تمد إليّ بالحقيبة الجلدية متوسطة الجحم، وتواصل قولها:

- خذ هذه الحقيبة وتعال معي..وأنتم أعلن عليكم من الآن بأن آدم الرهوان أخي الأصغر.. اتفقنا.

- اتفقنا.. جاء صوتهم جميعًا.

ومشيت خلفها. كان الفتية سعداء بأنهم وجدوا حلًا لوضعي. وما إن تحركنا حتى تعالى صياحهم ليرجعوا إلى لعبتهم. وتوزعوا على تلك الأرض التي كانت بالنسبة لهما ملعبًا. تعالى صياحهم فالتفت إليهم فرأيت الغبار يتعالى من أرض الملعب المفتوح، لكن كانوا في عمق الغبار فلم أستطع رؤية اي منهم، لكني كنت أسمع أصوات نداء بعضهم لبعض كي يناوله الكرة يأتيني ضعيفًا.

رافقني الفتى آدم الأعرج إلى أن وصلنا بيتًا من الطابوق من طابق واحد، بابه من الحديد المصبوغ باللون الأزرق السمائي. عند الباب ودعني الفتى الأعرج وقال إنه سيمر عليّ غدًا بعد أن ينتهي من عمله. حين التفت نحو ساحة اللعب كان الغبار قد انقشع والجو صاف، لكن لم يكن هناك أي أثر للفتيان.

حين دخلت الدار شعرت كأنني انقطعت عن العالم. فأنا لم أر بيتًا سابقًا قط ومع ذلك كان كل شيء لدي مألوفًا.

وجدت نفسي في بيت باحته مغطاة ببلاط حجري مربع الشكل. من جهة اليمين ثمة غرفة ذات باب حديدي أزرق سمائي أيضًا يتوسط جدار المطل على الباحة شباك مصبوغ باللون السمائي نفسه. ومقابل الباب التي تفضي إلى الخارج يوجد يوجد سلم من الطابوق تحته ما يشبه الغرفة الصغيرة، وعلى الجانب الأيسر هناك ما يشبه الأيوان وإلى جانبه غرفة بدا لي واضحًا أنه المطبخ

وقفت المرأة التي اسمها حواء وسط الباحة، وألقت عنها العباءة في اللحظة التي أنزلت أنا فيها الحقيبة الجلدية ووضعتها على الأرض. هالني ما رأيت من جمال مثير بشكل صارخ. انتبهت هي لي وأنا أتفرس في جسدها وتفاصيله، من

نهديها إلى بطنها وانحناءة البطن إلى ما بين فخذيها من خلال تحديدات ثوبها الأسود الملتصق بجسدها. وحين نظرت إلى وجهها رأيته بهيًا ومثيرًا سوى بعض الحور في عينيها الذي هو السبب الذي دفع الفتية لتسميتها بالحوراء.

ابتسمت لي وسألت:

- قبل أن تحدثني عن قصتك، هل أنت جائع؟

لم أجب، لكني أردت أن أمنح نفسي بعض الوقت كي تستقر وأجيبها، فأومأت برأسي، فواصلت:

- طيب.. يمكنك أن تجيبتي مرة أخرى بلسانك كي أسمعك..! ولكن قبل ذلك علينا أن نطعم سكان البيت الآخرين..

استغربت كلامها، فليس في البيت أي أثر لكائنات أخرى غيرنا. لكنها فتحت الحقيبة، وأخرجت منها كيسًا فيه حبوب ما، وضعته فوق الحقيبة ثم ذهبت إلى الغرفة وعادت بصحون تسعة من الألمنيوم، ووضعت قرب الدرج بالترتيب. وأخذت الكيس، فتحته وملأت الصحون بالحبوب. وأطلقت صوتًا كأنها تنادي قططًا:

- بس.. بس..

وخلال لحظات نزلت من الدرج تسع قطط مختلفة الألوان، ما بين قطة سوداء وأخرى مرقطة بالأسود والأبيض، وثالثة رمادية اللون، ورابعة شقراء، وخامسة بيضاء بالكامل، وسادسة مرقطة كالنمر، وسابعة حمراء، وثامنة مرقطة كالأفعى الخضراء المصفرة، وتاسعة مثل الزبرا، خيوط بيض وسود تلتف على الجسد بشكل جميل.

واصطَّفت القطط في جلسة طاعة أمامها، فأشارت بأصبعها نحو الصحون، فذهبت القطط واصطَّفت كل منها أمام صحنها، وبدأت بالتهام ما هو موجود في الصحون.

نظرت حواء الحوراء نحوي وانتبهت لاستغرابي فابتسمت لكنها لم تقل شيئًا، واتجهت نحو جهة المطبخ والأيوان الذي بدا وكأنه صالة صغيرة ينزل المرء إليها ببضع درجات، حيت ثمة دكة اسمنتية ملتصقة بالجدار وتدور معه من كل الجوانب، وأمام

جانب منها ثمَّة طاولة صغيرة لشخصين. وينفتح هذا المكان على المطبخ مباشرة.

حين صرنا في الإيوان، أشارت بي بذراعها أن أجلس، وقالت:

- أنت أجلس هنا وأنا سأعِد الطعام. لكن عليك أن تعرف أنني أعيش حياة بسيطة، وطعامي بسيط لكنه لذيذ، سأعدّ صحنًا من البيض والطماطم مع البهارات والكاري والبصل. وسنبلل رقائق الخبز، وبعد أن نشرب الشاي ستحدثني بقصتك..!

بعد أن أكلنا، وكان الطعام شهيًا جدًا، وكانت تزقني باللقيمات زقًا كأني طفل صغير، جاءت بصينية الشاي، وشربت شايًا، ولم أكن سابقًا أعرف لذة الطعام والشراب..!

وقامت بتنظيف المائدة والمطبخ، ثم جاءت لتجلس قبالتي على الدكة. نظرت إليّ بطيبة وتلقائية وقالت:

- الآن حدثني بصدق وبلا تخاريف وهلوسات عن العربيد الآدمي؟ من أنت؟ وما هو اسمك؟ ومن هم أهلك؟

فوجئت بأنها لم تصدق حكايتي التي رواها كبير الفتيان، بل سألت نفسي لماذا إذًا قبلتْ أن أسكن لديها وأدعت بأني أخيها الأصغر. ومع ذلك ليس لدي من حكاية غير هذه الحكاية التي تعدها هي تخارف وهلوسات..! وحكيتها مجددًا.

كانت هي تنصت وتتأملني بنظرات ثاقبة من دون أن تحرّك رموشها تقريبًا. لم تقاطعني قط. ولم تستفسر عن أي شيء. فجأة نظرت إلى الباحة وصاحت بالقطط:

- بس.. بس.. تعالوا إلى هنا.

فجأة اقتربت القطط وأخذت تدخل الأيوان وتجلس على الدكة التي صارت جنب الجدار الذي يتوسط المكان. جلست القطط بشكل منتظم واحدة إلى جانب الأخرى، وبجلسة ملوكية. نظرت هيّ إليها وقالت:

- أعتقد أنكن سمعتم ما رواه آدم الرهوان..!

استغربتُ حينما هزت القطط رؤوسها بالإيجاب. فواصلت هي:

- هل تصدقون حكايته..!

فجأة، نطقت القطة المخططة كالزبرا وقالت بصوت مسموع ومفهوم:

- نعم نحن نصدقه.. وكلنا نعرف قصة حارس البستان، العربيد الآدمي.. وحتى أنتِ تعرفين القصة.. لكننا لم نره ولم نرَ أيًا من تجسداته ولا نعرف هل هو خيّر أم شرير..! لكننا نصدق ما رواه آدم الرهوان..!

صمتت حواء الحوراء قليلًا ثم سألت:

- وماذا عليّ أن أفعل معه..؟

فجاء صوت القطط التسع وكأنه صوت واحد متانغم:

- عليكِ أن تتآخي معه فعلًا وتربيه وترعيه وتساعديه على أن يشقّ طريقه في الحياة فربما هو مخلوق جاء من كوكب آخر، أو من بعد آخر من أبعاد الزمان، من العالم اللامرئي للبشر..!

- طيب وهذا ما سيكون والأيام ستكشف لنا مَن هو، عسى أن يتذكر يومًا طفولته وأمه وأبيه..!

- لكن نحن لدينا مشكلة صغيرة... اختلاف في الرأي.. فهل لنا أن نسمع رأيكِ فيها..!

نظرت المرأة إلى القطط نظرة استفهام وقالت:

- كما أعرف إنكنّ أخوات الصفا وخليلات الوفا.. فما الذي جرى.!؟

انبرت القطة المخططة كالزبرا شارحَة الموقف:

- هنا بالضبط اعتراضنا.. القطة السوداء قد قرأت في الرسالة الثانية والعشرين من رسائل "أخوان الصفا وخلان الوفا" ما يشير إلى إننا معشر الحيوانات قد خُلقنا من الطين قبل خلق آدم من الطين بآلاف السنين..! ولما خلق الله آدم جعله وذريته أسيادًا علينا؟ لماذا جعله سيدًا علينا؟ علمًا بأننا أكثر منهم بملايين المرات عددًا..؟ ثم إنهم في المناظرات بين معشر الأنس ومعشر الحيوانات ذكروا هم بأنهم أفضل منّا وأكرم، لأنهم لا يفنون وسيدخلون الجنة أو النار وسيكونون في الجانبين خالدين فيها، بينما نحن نتفسخ ونفنى؟ لكنهم من جهة ثانية لا يدركون

إنه ليس هناك فناء، إنما هناك تحول من شكل إلى آخر، وأيضًا تمتْ الإساءة لنا نحن والكلاب من بين جميع الحيوانات لأننا نتملق البشر ونتبعه ونأكل من فضلات طعامه. نأكل الميتة، ونشرب الحليب مثل البشر..!

- وماذا تريدين أن تسمعي مني.!؟ سألت حواء الحوراء.

- نريدكِ أن تشرحي لنا هذه الإشكالية.. والحقيقة أن رأي القطة السوداء يثير لدينا جميعًا بعض الرضا والاتفاق، لا سيما مسألة جدوى خَلقِنا نحن الحيوانات أو بالتحديد نحن القطط!! هل نحن خُلِقنا لخدمة الإنسان بينما نحن وجدنا على الأرض قبله بملايين السنين.! ثم ما أفضليته علينا، لا سيما وأن أخوان الصفا يقولون أننا خلقنا من الطين أيضًا..؟

صمتت حواء الحوراء قليلًا ثم قالت:

- هي أسئلة عميقة طرحتها القطة السوداء، لكنني كنت قبل تسعة أيام عند شجرة سدر وحيدة حينما ذهبت لجلب الحليب من الفلاحين عند النهر، وكنت قد تعبت فجلست تحت ظلها الوارف، فأخذت الشجرة تحدثني حديثًا فلسفيًا أشبه بحديثكم هذا وسألت عن جدوى وجودها وحياتها..؟ وقالت إن هناك أكثر من ثلاثمائة مليار شجرة على هذا الكوكب بينما البشر هم سبعة مليارات، وهم من يتحكَّم بكل شيء..! وقالت إن الأشجار خُلقت ووجدت قبل الحيوانات وقبل البشر بعشرات الملايين من السنين! وإنها أفضل من البشر لأن هي تمنح الجنة قيمتها، فالجنة تتشكل من الأشجار، وهي لا تعرف الحساب والعقاب..! لذا فهي أفضل المخلوقات، لكن تلك الشجرة كانت تشعر بالوحشة لأنها وحيدة..! فوعدتها بأن أزورها بين فترة وأخرى وأدردش معها، لكنها أكدتْ لي إن وحشتها الحقيقة تكون في الليل ولا تعرف لماذا هي موجودة وحيدة هنا قرب النهر وليست في غابة؟... أما فيما يخص أخوان الصفا وخلان الوفا فيا أخوات الصفا هيا بنا إلى غرفتي كي نفصِّل تلك الرسالة الثانية والعشرين من رسائلهم التي تجاوزت الخمسين بإثنتين.

في تلك اللحظة قالت القطة الشقراء:

- أنا لا مشكلة لدي مع البشر، فالقطط كائنات مسالمة أكثر بكثير من البشر،

لكن السؤال الذي يحيرني هو حول الأشجار.. فالأشجار موجودة في الجنة قبل خلق البشر والحيوانات، كما أنها لا تتعرض للحساب ولا للعقاب، وهي خضراء وموجودة في الجنان والفراديس. ناهيك أنها لا تتبول ولا تتبرز مثلنا نحن، حيوانات وبشرًا، فهي أطهر مِنَّا.. وسؤالي هو حول دلالة الأشجار بالنسبة للخالق القدير..ألا يشكل وجودها في الفردوس قبل ظهورنا على الأرض تشكيكًا بكل الأساطير عن الفردوس.. فهل الجنة موجودة على الأرض ما دامت هي تتشكل من الأشجار والأنهار!؟ القدير جميل لأنه خلق الأشجار، وأنا كقطة تمنيت لو كنت شجرة.

وقامت من مكانها فقفزتْ القطط ماشية بتسلسل خارجة من الإيوان ومتجهة نحو غرفة حواء، بينما التفتت هي إليّ قائلة بأنه علي أن أرتب مكانًا لي في الإيوان صيفًا أو فوق السطح، وشتاءً سأنام تحت ما يشبه الغرفة أسفل الدرج، وإن عليها أن تناقش القطط الحكيمة وبعد ذلك ستأتي إليّ.

ما أثار غرابتي، أن هذه القطط الحكيمة التي تتحدث بلسان البشر، كل منها ما إن تدخل الغرفة حتى تتحول مباشرة إلى جسد وكيان امرأة فتية بملابس زاهية شفافة.! واجتاحتني الأسئلة عن القطط وعالم الحيوان، وعن الشجرة الناطقة وأسئلتها، بل وعن حوّاء التي تتحدث مع القطط ومع الأشجار..! وعن القطة التي تتمنى أن تكون شجرة.

***

ومرتْ الأيام، واعتدتُ الغرابة والظواهر الغامضة. وصارت أمورًا عادية. وتعرّفتُ على المدينة وشوارعها وأزقتها من خلال علاقتي مع آدم الأعرج، الذي كنت أدور معه أزقة المدينة بعدما ينتهي من عمله كحمَّال.

لكني ذات مرة، وفي الهزيع الأخير من الليل سمعت طرقات خفيفة على البوابة الحديدية الخارجية. خفت حينها. لكني انتبهت إلى حواء وهي تفتح غرفتها بهدوء وخِفّة كأنها لا تريد أن يستفيق أحد. وحين صارت قرب الباب توقفتْ، وخمّنت أنها تنظر نحو الإيوان لتتأكد من نومي. وبهدوء فتحتْ الباب وخرجت، ثم اطبقت الباب دون اغلاقه كليًا. وسمعت إنها تتحدث مع شخص ما عرفت من نبرته إنه صوت رجل.

قمت من على الدكة التي استلقي عليها، ومشيت حافيًا، متسللًا كلص، ووقفت قرب الباب، وأنصّت للحديث بينهما. وسمعت إنها تقول له بأنها غير قادرة على أن تدخله غرفتها لأن أخيها الأصغر موجود، ولا يمكنها ذلك من الآن وصاعدًا، فسمعته يسأل مستغربًا عن هذا الأخ الذي ظهر فجأة، وقال لها بنبرة فيها غيرة، ربما هو عشيق لها وتعيش الآن معه مدعيّة إنه أخوها، فقالت له إنه مراهق في الرابعة عشرة من العمر، وإنها فعلًا آخته، وتريده بحكم وظيفته في دائرة نفوس المدينة أن يستخرج له وثيقة ويسجله في صفحتها المدنية، وأنها ستكون له ولن تنسى جميله هذا، فقال لها بنبرة فيها مزاح ووقاحة بأن عليها أن تدفع مقدمًا عربونًا، فقالت بغنج وماذا عليها أن تدفع، فقال لها أن تمنحه جسدها الآن وفي هذه العتمة، فهو متعطش لجسدها المتناسق كتمثال أفروديت التي رأى صورته في ألبوم فني، فقالت أريد أن أرى هذا الألبوم، فقال لها إذن عليّه أن يرسل زوجته إلى أهلها في المدينة القريبة ليخلو لهما الجو وتتسلل إليه ليلًا لتعود لبيتها فجرًا قبل طلوع الشمس. وانقطع الكلام، وابتعد الصوت قليلًا، وتعالى اللهاث، وسمعتها تبربر بكلمات فيها توسل كي يريحها. ثم انقطع اللهاث، وبعد قليل من الصمت قالت له ماذا عليها أن تجلب معها له غدًا بصدد تسجيلي..! فقال لها بأنه سيحتاج لصورة شمسية، والاسم الكامل، وبما إنه لا شهادة ميلاد لدي فسيكتفي بالمعلومات الشفوية من لسانها، وقال لها إنه يقوم بمغامرة من أجلها، فقالت له بغنج إنها لن تنسى ذلك. وبعد دقائق، فُتح الباب، وانسلّت بهدوء ومشت على أطراف أصابعها ودخلت غرفتها وأغلقتها بهدوء شديد أيضًا.

صحوت صباحًا على تدافع القطط حولي ولعبها في الأيوان، ثم سمعت حركة حواء الحوراء إلى المطبخ بينما كنت أتمطى من التثاؤب. نهضت وتوجهت لزاوية الحمام قرب الدرج. حين عدت وجدت صينية الطعام والشاي والبيض المخفوق في الدهن مع العسل على الطاولة. صبّتْ الشاي في الإستكان الذي أمامي وقالت علينا أن نذهب لالتقاط صور لي والذهاب لدائرة النفوس والجنسية من أجل تسجيلي في صفحتها واستحصال وثيقة رسمية لي.

لم يكن على وجهها أي ارتباك أو توجس لما قد جرى في الهزيع الأخير من

الليل. أما القطط فقد تسربت واحدة بعد الأخرة متجهات لغرفة أختي حواء.

كنت أراقب القطط وهي تدخل الغرفة في طابور منظم. أدركتْ هي أنني أفكّر في لغز هذه القطط الحكيمة والناطقة كالبشر، فقالت لي بصوت محايد ومتعاطف:

- أنت تستغرب ما ترى، أليس كذلك؟

- نعم..

- هذه القطط ليست قططًا، إنهن نساء جميلات حكيمات، غادرن حياتهن السابقة، وعدن إلى الحياة ثانية كقطط حكيمة. ولكل منها حكاية غريبة..! إحداهن تلك المخططة كالحمار الوحشي الزبرا، هي ابنة وحيدة لتاجر ملياردير ورئيس عصابة في إحدى العواصم الكبرى، أحبّت شابًا وسيمًا وابن عائلة محترمة، عَشِقا بعضهما وعرف الأب، ولم يشأ أن يكسر قلب ابنته الوحيدة، وأيضًا كان خائفًا أن تقوم ابنته بمغامرة تهدّد مكانته، لذلك استدعى الفتى، وزوجه ابنته وجعله مشرفًا ومديرًا لكل أعماله وشركاته وكشف له جلّ أسراره. وولدت ابنته صبيًا، لكن بعد سنوات اختفى الزوج الفتي، لم يظهر أبدًا في أي مكان ولا في أية مناسبة وانقطع تواصله مع أهله الذين كانوا يعيشون في بلاد أخرى، ولأن أهله من عِلية القوم أيضًا ولديهم علاقاتهم الواسعة، فقد اتصلوا بمعظم الجهات المؤثرة لتفاتح أب الزوجة، التي هي الآن القطة المخططة بالأسود والأبيض، لكن دون جدوى. اختفى الرجل الوسيم، والزوج العاشق، وحين مات الأب بقيت هي وحيدة مع ابنها وعشرات الشركات، لكنها مع ذلك اعتزلت الحياة واتجهت للقراءة الفلسفية والتاريخية العميقة.. وصلت لما يشبه الموقف العبثي.. فما معنى كل هذه الأموال والشركات والسلطة بينما هي الآن وحيدة، بل عرفت إن زوجها قد قتل..!

- قُتل؟.. مَن قتله؟

- والدها- كما باحت لي- هو مَن قتله انتقامًا، فقد كان بحكم تجربته في عالم الجريمة والعصابات لا يثق بأحد، وذات يوم فكَّر في أن يضع مراقبين يتجسسون على زوج ابنته، فعرف منهم بأنه يؤسس لنفسه مجموعة من رجال العصابات بعيدًا عن مجموعته، كما عرف وهذا السر وراء مقتله، بأن لديه عشيقة فقرر قتله. وهكذا

اختفى.. لكن بعد أقل من سنة.. وكانت هي في مكتبتها العامرة، وتقرأ في رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا، وبالتحديد في الرسالة الثانية والعشرين، إذ دخل عليها رجل ملثم يبدو إنه ممن لا يُشك في ولائه لذا يدخل قصرها من دون شك، وأطلق عليها رصاصة قاتلة بمسدس كاتم للصوت. وفجأة وجدت نفسها وقد تحولت إلى قطة مهووسة بالفلسفة، ووجدت نفسها في المدينة التي ولد فيها والدها.

احترت أكثر فيما سمعته، فراودني الفضول في السؤال عن القطة السوداء، فسألتها:

- وماذا عن القطة السوداء التي اعترضت على وجودية القطط في الحياة.!؟

- أف.. تلك كانت كاتبة روائية شبقة، اتعبتها التجارب الجنسية والشبق المحموم وانهكتها، فاتجهت لطريق الخلاص عبر التصوف والزهد، لكنها انتهت نهاية ماساوية، إذ قتلت أيضًا..!

- قُتلت؟

- نعم.. كانت، كما روت لي، تعيش في أسرة غير متجانسة، فأمها كانت تحب ابن خالتها، لكنه سافر وتركها، فاضطرت للزواج من أبيها. كانت الحياة الزوجية عبئًا ثقيلًا على الزوجين، وكان الزوج ينوي الانفصال حينما، بعد أشهر ثمانية من الزواج، ولدت الطفلة.. القطة السوداء.. في بداية الأمر كرهها الأب لأنه كان يريد ولدًا، ثم إنه شك ربما هي ليست من صلبه، لكن بعد أشهر قليلة تعلق بها الأب كثيرًا، بينما كرهتها الأم لأنها كانت تمنّي النفس بالطلاق، لا سيما بعد أن عاد الحبيب من السفر وعادت علاقتها معه أقوى من الأول، مع أن اللقاءات كانت متقطعة، وكانت القطة السوداء تعتقد أن أمها صارت عشيقة ابن خالتها رسميًا، فهي تجاهر بحبها له أمام أبيها. وكبرت القطة السوداء وصارت شابة جميلة ومثيرة لأعين الرجال وشهواتهم الوحشية، ولما وجدت الأم أن عشيقها ينظر إلى ابنتها باعجاب زادت غيرتها منها، وصار البيت جحيمًا على الفتاة، ومرت السنوات حيث أنهت الثانوية ودخلت الجامعة لتدرس الفلسفة، لكن شبقها الجنسي وتمرد جسدها جعلها تتجه إلى التصوف وشيوخه ومشعوذيه، ولأنها تربت في عائلة دينية متزمتة، فقد كانت ذاكرتها مليئة بالنصوص الدينية، وعالمها على الرغم من دراستها للفلسفة لم يكن

فلسفيًا وإنما دينيا، ولأنها تعي متطلبات جسدها، ولأنها كانت تخاف فكرة الخطيئة التي كانت تجد نفسها مدفوعة لها بقوة مغناطيسية هائلة، فقد تفادت ذلك بالزواج من قريب لها تقربَ لها لفترة قليلة. لكن هذا الزواج بحكم قلة خبرتها وبحكم فقدان الثقافة الجنسية في التعامل مع الجسد، صار مجرد حفلات للاغتصاب المقبول شرعًا. والغريب إنها بعد سنة ونصف لم تحمل، واتضح بعد مراجعة الأطباء إنها عاقر، وهذا ما كان مبررًا لكليهما، هي وزوجها بأن ينفصلا، وفي يوم ذهابهما إلى المحكمة طلب زوجها منها بأن يضاجعها فلم تقبل، فاغتصبها بشكل عنيف.

وهكذا انفصلت، لكنها وجدت في نفسها الرغبة أن تكتب رواية عن نفسها وعن تجربتها في الزواج، وفعلًا كتبت رواياتها، لكنها وجدت صعوبة في أن تواجه الحياة بمفردها كمطلقة، لا سيما وأن أمها صارت تعاديها بشكل هستيري مرضي، وتطاردها في الأماكن لتهينها وتشتمها بأبشع الكلمات السوقية المبتذلة وتصفها بالعاهرة، حتى صارت لا تتحسس من توصيفها بالعاهرة من كثر من وصفتها أمها به.

لكنها توغلت في فلسفة العبث وصارت لا تمانع من تجربة كل شيء ومع أي كان، ووجدت في نفسها نزعة أخافتها في حينها إذ اكتشفت أنها في سلوكها لا تختلف عن العاهرات، فقد كانت تذهب مع من يصرف عليها ويأخذها إلى الفنادق الراقية والمطاعم المشهورة، وطبعًا مقابل مضاجعتها، فكانت العاهرة المثقفة التي تبدأ باصطياد العشيق من خلال النقاش الثقافي والحديث الصوفي والفلسفي وقراءة أشعار جلال الدين الرومي. ثم بدأت تبحث عن الصحافيين وأصحاب دور النشر، وفعلًا ضاجعت أحدهم فنشر لها روايتها، وضاجعت صحفيًا كتب عن الرواية وأجرى معها حوارًا، بل إن ذاك الصحفي أخذ يكتب عنها مقالات بأسماء مستعارة، ومع كل مقال كان عليها أن تبقى عنده لأيام في شقته كعاهرة وخادمة.

لكنها تعبت من الشهرة والتنقل بين العشّاق الذين تضطر أحيانًا لمضاجعتهم دون أي تقبل نفسي منها، وانتشرت رائحتها الممزوجة بشهرة الكاتبة مع بعض العفونة في أرجاء المدينة بل وفي أرجاء البلاد، لكن مع الأسف، في الوقت الذي قررت فيه فعلًا أن تهجر هذه الحياة وان تعتكف للفلسفة والفكر وأن تكتب رواية

جادة ورصينة باغتها الموت، فقد قتلها المجتمع قبل أن يقتلها طليقها في صفها الدراسي وأمام تلامذتها، إذ إن الناس كانوا يسمعونه كلامًا عن سلوكها والتفاصيل التي كان عشاقها يرونها عن سلوكها الجنسي في الفراش، مما أفقده صوابه، فهي في كل الأحوال كانت زوجته، وهي قريبته أيضًا، لا سيما وإن أمها ذهبت إليه وشتمته لأنه بلا كرامة، وإن ابنتها عاهرة لكن الناس حين يتحدثون عنها يذكرون إنها زوجة فلان، أي يربطون عهرها باسمه، فلم يسيطر على نفسه وذهب إليها وهي تلقي محاضرة فلسفية عن „أخوان الصفا"، ليطلق عليها ست رصاصات من مسدسه غير المرخص ويردبها قتيلة مضرجة بدمائها، لكن الجميع سمعها تقول كلمة واحدة وهي تغادر الحياة: „أشكرك". ولأنها صديقة للقطة المخططة بالأبيض والأسود، فقد رافقتها كقطة هنا أيضًا.

ذهلت مما سمعت، وراودني سؤال فقلت لها:

- هل لكل قطة من هذه القطط التسع حياة سابقة؟

- نعم.. فمثلًا تلك القطة الشقراء كانت فتاة من بلد مجاور. أرسلها أهلها إلى مدينتنا عند جدها الوحيد وهاجروا هم إلى بلد اسكندنافي، وهنا أحبَّت هي فتىً من أبناء المدينة، وحين قرر الفتى أن يقترن بها رفض أهله، وبعد أن مات جدها التحقت بطريقة ما بأهلها. هناك أنهت دراستها الإعدادية ودخلت الجامعة وتخرجت، وأثناء ذلك تقدم إليها شاب كان قد التقاها في حفل زواج لجاليتهم. ولأنها من عائلة محافظة تخاف على بناتها من أخلاقيات المجتمع الذي التجأوا إليه، ولأنها تسمع والدها فقد وافقت من دون أية مشاعر على الزواج ممن تقدم إليها، وكانت قد قررت أن تضغط على نفسها كي تحبه لأنه سيكون زوجها، لا سيما وأنها يأست بالكامل من الحب..!

لكن صدمتها كانت كبيرة فيه..! فقد تكشّف عن إنسان عديم الشخصية، لا يتحرك إلا بإشارة من أمه، وعليه أن يروي لأمه كل كلمة دارت بينهما إذا ما التقى بها، أو حادثها بالهاتف النقال، بل إنها اكتشفت بُخلَه المزعج واستغفاله لها، فكما روت إنه يعيش مع أهله في العاصمة بينما هي تعيش في مدينة صغيرة في الضواحي،

وذات مرة اشتكى لها بأنه نسي محفظته في البيت، وكانا يريد أن يوصلها بنفسه إلى مدينتها فأعطته بطاقتها البنكية من دون أن تفكر بشيء سيء، فاستخدمها في شراء بطاقتين، وحدث أن نسيت البطاقة لديه حين قفل هو راجعًا، وبعد يوم تذكرت إنه لم يرجع البطاقة إليها، وحين فاتحته أرجعها لها بطريقة فيها تمثيل بأنه قد نسي ذلك، وبعد أن راجعت حسابها، اتضح إنه لم يكتف بشراء بطاقة القطار الداخلي وإنما أنفق من حسابها في مطعم وملهى وسوبر ماركت وبمبالغ تؤثر على ميزانتيها الشهرية التي تأتيها كمنحة ومساعدة من الحكومة الدنماركية.. ثم اكتشفت غيرته المرضية وشكوكه الساذجة وتدخله في طبيعة لباسها، وحين اقترب موعد الزواج حدثت مشادة كبيرة بين العائلتين حول الفستان وحول عدد المدعويين وقيمة ونوعية الحلقتين للعروسين، وتطورت المشادة إلى شجار، والشجار إلى نزاع وصل إلى إلغاء الزفاف، بل وإلغاء الزواج كليًا، وبما إن العقد تم أولًا إسلاميًا ولم يسجل في المحاكم المدنية الدنماركية، فقد اضطروا إلى استدعاء الشيخ الذي كتب لهم عقد الزواج الإسلامي. ولم يمض أسبوع على الطلاق حتى جاء أحد أقربائهم من العاصمة وأخبرهم بأن ذاك الفتى متزوج لمرتين من فتيات كن في معسكرات اللجوء، وفي كل مرة يصل الأمر إلى الزفاف حتى تتدخل أمه وتنهي تلك العلاقة.. فهي متعلقة بابنها ولا تستطيع أن تتخيل إنه سَيُحِب امرأة أخرى ويعيش معها....... وحين عاتب الأب ذلك القريب لصمته عن هذه المعلومات أخبره الآخر بـأنه ظن أنهم يعرفون وإلا كيف يزوجون ابنتهم لشخص من دون الاستفسار عنه................ ومرت الأسابيع، وإذا ظنت أنها تحررت من هذه العلاقة، لكنها اكتشفت أنه يلاحقها، بل وقد كلّف بعض أصدقائه لمراقبتها. تضايقت جدًا. ولكي تنتقم منه قررت أن تجاري أحد الذين يراقبونها نكاية به كي يقهره، وفعلًا استلطفت أحد الذين يراقبونها من أصدقائه وتقربت منه وصارت صديقته، لكنها لم تتقن اللعبة إذ وجدت نفسها تنغمس في العلاقة بشكل حميمي، وأعجبها ذلك حتى قررا أن يتزوجا .....حين عرف الخطيب الأول ترصدها، وجاء مدينتها، واختفى في زاوية خلف الأشجار في البارك الذي عليها أن تقطعه إلى مجمعها السكني حيث أهلها، وهناك خفية أطلق عليها الرصاص وهرب راجعًا بالقطار إلى العاصمة، لكنه لم يخبر أحدًا، وكم تمنى أن

يكون قد أصابها إصابة غير مميتة، لكن خبر وفاتها كان في نشرة الأخبار بالعثور على جثة فتاة تعرضت لإطلاق نار من مجهول.....انهار باكيًا لأنه كان يحبها فعلًا، واعترف لأمه التي منعته من الاعتراف لأي كان، لكنه لأول مرة يتمرد على أمه وهيمنتها، فتوجه إلى الشرطة واعترف بجريمته. ولم يكن أمام هذه الفتاة إلّا أن تحلق روحها عائدة إلى مدينة حبيبها الأول، لكن على هيئة قطة.

***

حصلتُ على وثائق وهوية تثبت أنني الأخ الأصغر لحواء الحوراء. ولم تمض تسعة أيام على ذلك حتى سألت حواء عن غياب القطط عن وجبة الإفطار. فقالت لي جملة غامضة:

- لقد حلقت القطط طائرة إلى الغابة..!

استغربت جملتها فسألت بدهشة:

- القطط لا تطير.. ليس لديها أجنحة وهي تمشي على الأرض..! لا تنتمي لجنس الطيور..!

- أتظن ذلك صعبًا عليها..؟

- أعتقد ذلك..؟

- ما رأيك إذا ما قلت لك بأنني أستطيع الطيران أيضًا..!؟

- أنتِ؟.. كيف؟

لم تجبني وإنما فجأة رأيتها ترتفع شيئًا فشيئًا عن الأرض. نظرت مباشرة لقدميها فرأيتهما لا يمسان الأرض، وأخذت تصعد بهدوء وهي تنظر إليّ وعلى وجهها ابتسامة طيبة.

ومرت السنوات كلحظة غامضة. كانت قد بنت لي غرفة على السطح كي اختلي بها مع نفسي وأنهي فيها واجباتي المدرسية. وخلال هذه السنوات رأيت من الأعاجيب ما لم أجد له تفسيرًا. ففي فجر اليوم الذي بلغت فيه الثامنة عشرة من

عمري، وهو يوم افتراضي احتسبناه كيوم ميلادي، سمعتُ ضجة عند الباب. أفقتُ. وحين نظرت من السطح إلى وسط الدار رأيت حواء الحوراء تقف وإلى جانبها شجرة جميلة. نظرت إليّ مبتسمة وقالت لي:

- انزل لتحييِّ ضيفتنا الشجرة..!

نزلت مرتبكًا. ما الذي يجري؟ صحيح إنها ذات قدرات سحرية وعجائبية غامضة، وإنها تتحدث مع الأشجار لكن أن تأتي بالشجرة إلى البيت كضيفة وتطلب مني أن أحييّها فهذا ما لم اتوقعه..! وحين صرت في وسط الدار قالت لي:

- احتضنها وقبلها فهي صديقتنا وحبيبتنا. ومن كثر من حكيت لها عنك أحبت أن تزورنا لتراك..!

ارتبكت فعلًا فكيف أحتضنها ومن أين أقبّلها، واتنبهت هي لي وقالت:

- تعال إليّ لأعلمك كيفية الاحتضان والتقبيل..

اقتربت منها وفي توتر داخلي غامض، وأوقفتني أمامها. كان نهداها المثمرين أمام عيني. ولمحت بعض بعض صدرها ولحمه المائل للوردي، ووجدت انفاسي تتقطع، لكنها فجأة ضمتني إليها. وقالت لي:

- احضني بقوة..

أحسست بنهديها ينهرسان على صدري وبطني تمس بطنها ولا أعرف كيف صار فخذي بين ساقيها.. ونظرت في وجهي والتقمت شفتي برقة أولًا ثم اشتدّت قوة القبلة حتى صارت تذوقًا للشفتين، ثم التهامًا لهما. ولا إراديًا إنتعظ شيء ما بين فخذي، وانتصب صلبًا، ضغطتْ هي عليه قليلًا ثم فجأة أوقفتي مبتعدة، وسط دهشتي وإحباطي من ايقافها لاحتضاني، وقالت:

- عليك الآن الآن تحتضن الشجرة.

كنت مرتبكًا وأنفاسي متقطعة، ولهاث خفيف اسمعه، بل سمعت دقات قلبي في صدري، ولكي أخفي ارتباكي من الإنتعاظ بين ساقيّ، توجهت للشجرة التي كان جذعها أملسًا وجليًا كجسد رشيق واحتضنتها.

في اللحظة التي احتضن فيها الشجرة، نزلت أغصانها لتغطيني، وذهلتُ حين نظرتُ إلى أعلى الجذع فرأيت وجهها. رأيت وجه الشجرة. كانت وجهًا إنثويًا جميلًا غارقًا في محيط من الخضرة. عيناها واسعتان ونظراتها في غاية الرقة ومليئة بالحنان. وقربت شفتيها من شفتي وأغمضتْ عينيها وتلامست شفاهنا في قبلة رقيقة جدًا.

وفجأة أحسست بأن جذع الشجرة تحول إلى ما يشبه ساقي امرأة طرية، امرأة عارية. وشعرت معها بارتعاشة كبرى وتدفق مائي. ظلت الشجرة ممسكة بي. ثم ارتخيت. وشيئًا فشيئًا هدأ كل شيء، وسمعت الشجرة تهمس في إذني:

- أنت حبيبي وصرت الآن زوجي.. سألد آلاف الأشجار من بذورك التي زرعتها في رحمي..!

حين فككتُ نفسي عنها رأيت حواء الحوراء تبتسم لي، وعيناها مترعتان برغبة أنثوية تتألق وتعطي بريقًا مخدرًا.

ومرت الأشهر والسنوات. صار مجيء الشجرة للعناق اعتياديًا، وصار تعليمي من قبل حواء الحوراء في الاحتضان متكررًا في كل مرة، بل ازداد قوة وامتد لوقت أطول.

وانهيت دراستي الجامعية. ومع ذلك لم أكن أعرف من تاريخي سوى ظهوري المفاجئ في البستان وملاحقة العربيد لي.

كنت قد حصلت في الجامعة على أعلى الدرجات، ومقارنة مع الجامعات الأخرى كنت المتفوق أيضًا، فتأهلت لمنحة دراسية إلى بلد أوربي، طبعًا بتدخلات من حواء وعشيقها الرجل الطويل الرياضي وعلاقاته بالمسؤولين وأصحاب القرار، وحصلت القرعة أن أدرس اللغات في النمسا، لا سيما وقد أنهيت دراستي في كلية الآداب بقسم اللغات وبتخصص اللغة الإسبانية. ولكن لا أدري لِمَ رفضت حواء الحوراء المنحة الحكومية، وقالت ستدرس على نفقتك. تهاجر إلى هناك وتدرس، وستضمن هي لي كل الالتزامات المادية إن وجدت.

ليلة سفري كشفتْ حواء الحوراء لي السِر. كانت قد رتّبتْ لي حقيبة سفري. ومنحتني مبلغًا كبيرًا جدًا يغنيني لسنوات.

وفي الهجيع الأخير من الليل، سمعتها تناديني بصوت خفيض نسبيًا لكنه مسموع بوضوح. نزلت إليها. رأيتها واقفةً في أسفل الدرج. شعرها مصفوف بتسريحة ساحرة ومنطلق على كتفيها، وهي ترتدي ثوبًا أسود شفافًا. ومع أن الوقت ليلًا لكن جسدها كان واضحًا بكل تفاصيله وكأن هناك إضاءة جانبية تتجه نحوها فتكشف عن ثمارها الناضجة.

نزلت بهدوء ومع كلة درجة على السلّم كنت أفكر في لغز ما يجري. كانت عارية تحت ثوبها الشفاف. وحين صرت عندها. نظرت إليّ فانتبهت إلى توهجها وارتباكها. فجأة، مسكت كفي وقادتني إلى غرفتها.

ومع أني عشت معها سنوات طويلة لكني لم أدخل غرفتها قط.!؟ بل حتى هذه السنوات الطويلة جرت كأنها لحظات، لكن حين نظرت إلى التقويم ونمو جسدي اكتشف أنها كانت سنوات عديدة.

كان ثمة سرير عريض تنتصب على قوائمه الأربعة ما يشبه العمود المرتفع نسبيًا، وقد أسدلت عليه شراشف خفيفة جدًا تتدلى كستائي من كل الجوانب. وكانت الغرفة تفوح برائحة البخور الهندي ودهن العود. وثمة منضدة منقوشة كأنها منضدة فرعونية على شكل فن الأربسك عليها صينية من الفضة مليئة بالفواكه المختلفة. وثمة آرائك ومصطبات ومقاعد وصوفات تمتد على جانبي الغرفة التي كانت تبدو مرة ضيقة وكأنك ما أن تدخلها حتى تكون قرب السرير، وأحيانًا تبدو كأنها صالة رحبة والسرير بعيد في منظر مهيب ومثير.

أخذتني من كفي واتجهت إلى السرير وقالت لي:

- غدًا ستسافر إلى بلاد الغربة، وربما لن تلتقيني مرة أخرى بل ربما آتيك إلى هناك حيث ستكون! لكني أريدك أن تعرفني جيدًا.. أنا لست أنا..ربما أنت لم تسأل نفسك لم قبلت أن تعيش معي منذ أول ما التقيتك في الساحة حيث كان الفتيان يلعبون.!؟ وأن أهيئ لك كل ما تحتاجه.. أنا كما قلت لك لست أنا ولست كما تتوهم أن تراني.. لا تخف مني، ولا تخف من كل ما ستراه من جسدي..

كان الجو مشحونًا. كانت ترتدي ثوبًا أسودَ مفتوح الصدر وشفافًا جدًا. انتبهت

لشعر عانتها الخفيف، أحسست بالشبق يضرب صدغي من خلال نبضات متناوبة، وتدفق الدم في عروقي.

كانت تتحدث وفي الوقت نفسه تنزع عني قميص بيجامتي وبكفيها راحت تمس صدري. وأخذت كفي ووضعتها على نهدها. وقالت: أنا لك الآن.. خذني. واقتربت مني وأخذنا نقبل بعضنا وتصاعد الشبق في جسدينا، فأزاحت ثوبها وفتحته فاتضح أنه مفتوح من الأمام وبحركة بسيطة نزعته وصارت عارية بين ذراعي، واستلقت وأخذتني إليها بينما بيديها أخذت تنزع عني سروال البيجاما.. وبحركة خاطفة صرت بين فخذيها وولجتها. أنّتْ تتأوه من اللذة. وصارت تلتهم شفتي ووجهي بالقبل. لكني شعرتُ أن جسدها لم يعد جسدًا بشريًا، وخلال العناق حانت مني نظرة سريعة خاطفة إلى القسم السفلي فرأيت إلتفاف أفعى ضخمة على جسدي الأسفل كأني دخلت فيه والتحمت معه، لكن وجهها ما زال وجه حواء الحوراء الجميل وثدياها المتكنزان والطريان ينهرسان تحت صدري. وغرقت بين أمواج تلك اللذة المتلاطمة، وتدفق مائي فيها بينما كانت هي تتأوه من اللذة والشبق العنيف.

وفجأة هدأ كل شيء. وانسحب ذيل الأفعى الذي كان يشدني، وشيئًا فشيئًا رأيت حواء الأنثى راقدة إلى جانبي. نظرت إليّ بمحبة وقالت:

- عليك الرحيل إلى العاصمة. اتجه مباشرة إلى المطار. جواز السفر والبطاقة لديك، وكل شيء معدّ ومترتب على أحسن وجه. والآن سأخبرك من أنا. أنا زوجة عربيد البستان..! وحين سمعت حكايتك من الشبان الذين كانوا يلعبون الكرة صدّقتك مباشرة. فكل ما رويته أعرفه بينما الشبان شكّوا في أمرك. تركت زوجي عربيد البستان لأنه عشق شجرة التين التي رأيته ملتفًا عليها. خذ.. خذ اشرب من هذه الكأس نبيذ النسيان.

وقدمت لي كأسًا من الفضة فيه شراب أرجواني يفوح عطره. شعرت بالنعاس فورًا، وغبت في رقدة مفاجئة.

أفقت على صوت امرأة أنيقة تقول لي:

- أفق يا أستاذ.. هذا هو النداء الأخير لركاب الطائرة المتوجهة إلى فيّنا.

وفجأة انتبهت إلى نفسي، ورأيتني جالسًا على مقعد في قاعة بمطار العاصمة. انتبهت إلى أني قد مررت برجال الحدود وختمت جوازي، وسلمت حقيبتي إذ انتبهت للشريط الذي فيه رقمها ملصقًا مع بطاقتي. قمت متتبعًا للمرأة التي يبدو إنها كانت من طاقم الطائرة. لكني انتبهت إلى أن حضوري في المطار يشبه حضوري في البستان.

***

وجودي في النمسا كان بمثابة خلق وولادة جديدة لي..لآدم الرهوان. كنت ما أزال رهوانًا، منبسطًا وكأني أعيش في عالم آخر، ببعد زمني آخر. وكأني لست ذاك الفتى الذي وجد نفسه فجأة في بستان، وقرب شجرة التين وجد عربيدًا ملتفًا عليها، عرف فيما بعد أنه كان يضاجعها. ولا ذاك الذي رعته حتى سفره خارج البلاد امرأة كشفت سرّها له بأنها أفعى وزوجة عربيد البستان.. ولا عاش مع قطط تسع حكيمات، اتضح أنهن نساء قُتلن بطرق مختلفة..! لا ولا ضاجع شجرة..! لا.. ولا ذاك الذي رأى نفسه غافيًا على مقعد في المطار. ومع ذلك كنت ذاك الفتي وما زلت، لكني صرت في عالم أبعد ما يكون من الغرائبي والسحري أو هكذا اعتقدت..!

توغلت في عالم الفكر والفلسفة والعلم والفنون والآداب. تعرّفت على سبينوزا. بل وصل الأمر بي إلى أن أزور امستردام لأتعرف على المدينة التي عاش فيها، وتتبعت أثاره. أثارتني رؤيته للخير والشر، فهي ينفي وجود أية حقيقة ذاتية لوجودهما، فالخير والشر تصور مفاهيمي وعقلي في ذهن الإنسان وحده. فكل إنسان يسمى خيرًا ما هو ملائم له، ويسمي شرًا ما لا يسره.

وخلال بحثي المحموم في نفسي وذاكرتي بحثًا عن هويتي الحقيقة، توغلت في علم النفس، وعلوم الطبيعة، واكتشفت أن الطبيعة مخادعة، والأرض كوكب مخادع.. وحش يلتهم آلاف الجثث يوميًا.. وجمال الطبيعة يظهر على سطحها فقط. فهو غابات.. بحيرات..بحار زرقاء، جبال شامخة، زهور وثمار وأطعمة مذهلة.. لكن كل ذلك على السطح الرقيق، لأننا ما أن ندخل ونتوغل إلى ما تحت جلدها حتى نغوص في الظلام والغموض والشراسة..

أعماق الأرض هي مملكة الظلام.. وليس عبثًا أن البشر أطلقوا على عالم الموتى:

«مملكة الظلام».. عالم الأعماق مثل عالم الطبيعة أيضًا، ظلام ووحل وبراكين فوارة أو رماد وانطفاء.أعماقنا..عالم اللاشعور وفق فرويد، وعالم اللاوعي وفق يونغ، هو المخيف أيضًا وليس عبثًا إن فرويد أطلق على عالم اللاشعور اسم „مملكة الشيطان"..

وأخذت أسأل نفسي: إذا كان لا بد من وجود سبب لكل شيء، فما سبب وجود الله.!؟

ومع أني لا أعرف الله ولا أستطيع تصوَّره وتجسيده إلا كفكرة روحانية خارقة ومجردة، لكن قوة الشك تدفعني إلى يقين وجود إرادة غامضة تمسك بالأكبر الكبير من كون ووجود فيزيائي من مجرات وأكوان متوازية، بل وبالأصغر الصغير من ذرات، الكترونات، ونيوترونات، وبوزات، وكوانتات، وهيزات،.!

فثمَّة شيء غامض يتخلل كل شيء في هذا الكون، قوة غامضة، عاقلة، بل عبقرية، توَّجِه كل شيء بعقرية مطلقة ولا نهائية وجليلة، وفوق مدارك عقل الإنسان، وهذا أمر لا علاقة له بالأديان قطعًا، فما دام الإنسان العادي يستطيع أن يتوجه مباشرة من دون وسيط للغيب، للعدم، لله، فلماذا كان هناك وسيط بينه وبين بعض الأنبياء..! ألم يستطع أن يحدثهم مباشرة كما حدّث موسى؟ ووصلت إلى قناعة راسخة: أنا أشك إذن أنا موجود.

خلال وجودي لدراسة الدكتوراه مرورًا بالماجستير، توجهت إلى دراسة الآداب، لأني اكتشفت في نفسي رغبة في رواية أشياء وتجارب وأفكار تموج بداخلي.

اكتشفت حقيقة البشر، باعتبارهم كائنات هشة، ضعيفة، مسكينة، كل تطورها البايولوجي أهّلها على مدى ملايين السنين إلى أن تعيش على سطح الأرض فقط، وإذا ما أراد البشر تجاوز ذلك، بالهبوط إلى أعماق البحر، أو التحليق في الفضاء، فعليهم أن يهيئوا أنفسهم بشكل جيد وعلمي وتقني.

لكن من أنا؟ قرأت ذات مرة بأن شبح الأم و ظل الأب يبقيان، ويتحكمان في لاوعي الإنسان وبحياته، لكن كيف لمن كان فجر ذاته؟ لمن لا يتذكر شيئًا؟ ماذا يحدث حينما يفقد الإنسان ذاكرته، ولا يتذكر شيئًا قط، وفجأة، ويجد نفسه ينتهي إلى الفراغ.

***

هنا، في فيّنا، ومنذ اليوم الأول لي وانتظامي كطالب للدكتوراه، أخذت أرتاد يوميًا مكتبة الجامعة، لا سيما بعد الانتهاء من ساعات اللغة الألمانية. وهنا رأيت السيدة إيفا ماريا كلاين لأول مرة. وهي امرأة متوسطة القامة بل تميل إلى القِصَر، متناسقة الجسد، ذات وجه رومانسي ونظرات حالمة وشعر أبيض بتسريحية قصيرة مثل تسريحات الممثلات في الخمسينات. هادئة، ومسالمة جدًا، وترتسم الابتسامة على وجهها، لكني اكتشفت أن هذه الابتسامة تكون متألقة ومتوهجة حين أكون أنا موجودًا، فقد انتبهت لها وأنا اراقبها من دون أن تشعر بوجودي بأنها تكون جادة ورسمية وإدارية، لكن حين أدخل المكتبة وتراني سرعان ما تتغير ملامحها وتسترخي وترتسم الابتسامة الغامضة على وجهها!، ولم يراودني الشك أن هذه الابتسامة لي أو على الأقل هي تعبير عن فرحها المكتوم لوجودي.

كنت لا أعرف اللغة الألمانية بشكل يمنحني الفرصة للتواصل بحرية، وكنت أتردد في الحديث وأنا لستُ على ثقة من صحته قواعديًا. لذا كنت أذهب لجناح الكتب الأجنبية أستعير كتبًا غير مهمة، وأحيانًا استعير كتبًا عن اللغة والنحو الألماني. والغريب كانت تؤخرني قليلًا، وأدركت أنها تريد أن تتبادل معي الكلام. كان ثمة استلطافًا بيننا. فالمرأة كبيرة في السن مع أنها جذابة بل ومثيرة، إذ كان لديها ضعف عمري تقريبًا، ربما في النصف الثاني من الخمسينات.

وبعد مرور تسعة شهور على تواجدي في فيّنا. أنهيت فترة دراسة اللغة بمستوى عال جدًا. لغتي تحسنت كثيرًا.. صار بإمكاني التحدث بشكل معقول ومفهوم، وصار بإمكاني تصفح عناوين الكتب وقراءة الجرائد وأخذت أبحث في القواميس على أكبر عدد ممكن من المفردات التي تخص الفن والفكر والأدب من أجل توسيع قاموسي اللغوي، وصار بيني وبين موظفة المكتبة تبادل للحديث الاعتيادي.

كانت علاقتي بها قد توطدت خلال هذه الأشهر السابقة، لا سيما بعد أن انتبهتُ لوجود مكتبة موسيقية هائلة كجناح مستقل في المكتبة، وحينها أخذت أستعير الأقراص المدمجة والكاسيتات وأفلام الفيديو لأستمع إليها وأشاهدها على حاسوبي أو جهاز الراديو الذي فيه إمكانية سماع الكاسيتات، لا سيما أنني

ومن المال الذي بحوزتي اشتريت جهاز يمكنني أن استمع من خلال للإسطوانات المدمجة أيضًا من دون أن أشغّل الحاسوب.

الموسيقى فتحت لي بابًا للعلاقة معها. فذات يوم وأنا أعيد مجموعة من الأقراص الموسيقية المدمجة سألتني إن كنت قد حضرت حفلًا موسيقيًا في الأوبرا هاوس، فنفيت ذلك، فأنا لم افكر بذلك، فسألتني إن كنت أحب ذلك. فأجبت بفرح مؤكدًا رغبتي بذلك. فقالت هي اشترت بطاقتين لها ولصديقتها، لكن صديقتها سافرت بشكل مفاجئ إلى ابنتها في برلين وستتأخر هناك لأكثر من شهر، وإذا أحببت فيمكنني مرافقتها، وسيكون ذلك بعد عشرة أيام. ثم أخذت تسألني عن مكان سكني وعنواني، وسألتني إن كنت أعيش بمفردي. كنت حينها أكثر ثقة في حديثي مع علمي إن لغتي بسيطة، لكنني ومن دون أن أمتدح نفسي كنت خلال هذه الفترة أتحدث بمستوى لا بأس به. ومرت الأيام.

ذات ليلة أفقت مسكونًا بهاجس غريب. إذ رأيت في عتمة الغرفة كأن حواء الحوراء موجودة في الغرفة بثوبها الشفاف لكنه لم يكن أسودَ بل أبيض، وكان عري جسدها واضحًا، وكانت الغرفة تفوح بأريج عطر شرقي مخدر وطيب. تمعنت فيها. ابتسمتْ لي. وخلال لحظات تقدمت مني. وسقطت في غفوتي مرة أخرى.

استيقظت ذلك اليوم متعبًا، منهمكًا، لكن من دون توتر وكأني قضيتُ الليل كله متوهجًا بالشهوة ومتدفقًا كشلال. تذكرت أنه يوم الأحد. وهو يوم عطلة رسميى. فبقيت في سريري. ولم أنوِ الخروج من شقتي. بل تذكرت إنه يوم حضور الحفل الموسيقى لكن السيدة إيفا ماريا كلاين لم تشر إليه منذ يوم فاتحتني بحضور الحفل.

وفي ضحى ذلك اليوم نفسه رنّ جرس الشقة. استغربت لإني لا أتوقع مجيء أحد. فكّرت حينها بأنه ربما هو جاري الأثيوبي، وهو لاجئ سياسي، جاء ليطلب شيئًا، فكثيرًا ما يفعلها من دون اعتبار للوقت إذ يأتي بعد منتصف الليل بساعات، يوقظني من النوم أحيانًا، ليطلب رأس بصل لأنه عاد جائعًا ويريد أن يقلي البيض مع البصل..! أو يوقظني أيام العطلة لحاجته إلى بعض الملح أو علبة طماطم.. لكني ذلك اليوم فوجئت حينما لم يكن هو..!

حين فتحت الباب واجهني وجه إيفا ماريا كلاين، المرأة الأنيقة ذات الشعر الأبيض الفِضي بتسريحته الكلاسيكية الجميلة وبعينيها الخضراوين، وبثيابها الأنيقة، وهي تحمل باقة ورد ويتدلى معلقًا من أحد أصابعها كيس من النيلون بدا ليس ثقيلًا. ارتبكت بل بهتُّ. بقيت للحظات لا أعرف ما أقول، انتبهت لي وقالت:

- هل أنت مشغول؟ هل جئت في وقت غير مناسب ومن دون موعد؟ لقد أردت مفاجئتك لا أكثر..! ظننتك وحدك..!

حينها انتبهت لنفسي في أنني كنت ببيجامة النوم. ومع ذلك رحبت بها مرتبكًا ودعوتها للدخول وأنا ابرر بكلمات وجمل مشتتة، تشي بأنني وحدي، لكني لم أكن متهيئًا لزيارتها.

دخَلَت بثقة امرأة عارفة بما تقوم به وماذا تريد. توجهت للصالون ووضعت كيس النايلون على الطاولة، وسألتني إن كانت لدي مزهرية لوضع باقة الورد، فارتبكت إذ لم يكن لديّ حقًا أية مزهرية، فسألتني عن المطبخ، فأشرت لها، فذهبت بحرية إلى المطبخ وعادت بدورق زجاجي، كنت أملأه باللبن، ووضعت باقة الورد فيه، فبدا مزهرية جميلة وضعتها على الطاولة وهي تبتسم وتقول، في المرة المقبلة سآتيك بمزهرية تليق بالزهور.

كانت تتصرف بتلقائية كأنها كانت هنا مرات عديدة ولا تشعر بغربة المكان. ثم سألتني إن كنت فطرت. فقلت لها أنا لا اشتهي الطعام صباحًا وأكتفي بالشاي، فقالت طيب هل تعرف أن تعد القهوة، قلت لها سأعد لها القهوة، فقالت لي:

- لا.. اذهب أنت أعدد نفسك، لأنني أدعوك على وجبة الغداء.. دلني على مكان القهوة، وأنا سأعدها.

ذهبت معها إلى المطبخ وفتحت الدولاب الملصق بالجدار وأخرجت علبة قهوة النسكافيه، ووضعت ماء من قنينة في غلاية الماء الكهربائة، وخرجت لأغير ثيابي.

حين خرجت من الحمام بعد أن أخذت ملابسي معي واغتسلت وحلقت ذقني. كانت هي جالسة في الصالون وأمامها على الطاولة غلاية الماء الساخن وعلبة القهوة وكوبان.

أعجبتني تلقائيتها وبساطتها. أعدّت لكلينا القهوة. وقبل أن نشرب القهوة، فتحت كيس النايلون وأخرجت علبة متوسطة الحجم من الشيكولاته الغالية. فتحتها برقة واحتراس وكأنها تخاف أن تخدش العلبة.

تناولت هي قطعة ووضعتها في صحنها، وتناولت أنا أيضا واحدة. فجأة سألتني:

- هل زرت كنيسة يوما..؟

- لا..

أجبت مباشرة متفاجئًا من السؤال، فواصلت:

- أتود زيارة كنيسة ما.. اليوم أحد وكلها مفتوحة للأداء الصلاة..

- إذا كان ممكنًا لواحدٍ مثلي أن يأتي فلنذهب..

ثم أخذت تسألني عن نفسي، وعائلتي، دراستي، قراءاتي، وعن الموسيقيين الذين أحبهم، وهل في نيتي الرجوع إلى بلادي للزواج وتكوين عائلة بعد انتهاء الدراسة..! طال الحديث بنا ولم ننتبه لمواعيد الصلاة في الكنائس، فقد تجاوزنا منتصف النهار. فقامت وقالت :

- في الأحد المقبل سنزور الكنيسة ونحضر القدّاس.. والآن لنذهب إلى المطعم فقد دعوتك إلى وجبة الغداء..!

ذلك اليوم كان منعطفًا في حياتي. فبعد الغداء دعتني إلى شقتها، وهناك استمعنا للموسيقى وتناولنا نبيذًا، ولا إراديًا تقاربنا من بعضنا، وكشفت عن غرابة في الممارسة الجنسية، فقد كانت شبقة بشكل أثار غرابتي وتصرخ بصوت عال جدًا لم أتعود عليه، كما كانت تتخذ أوضاعًا أقرب لممارسة اليوغا. لكن بعد أشهر تباعدت علاقتنا، إلى أن صارت صداقة حقيقية لا تعتمد على العلاقة الجنسية. لكن ما إن اقتربت الوقت نحو المساء حتى قامت لتختفي للحظات في إحدى الغرف لتعود وهي تحمل بدلة سوداء تلبس في الحفلات، وقالت لي بأنها لم تسألني عن قياساتي لأن صاحل المحل شاب بعمري وحجمي بالضبط، ومنه عرفت مقاسات ثيابي.

ومنذ ذلك اليوم بدأت حياة مشتركة معها. كنت أقضي معظم الليالي في

شقتها، وحين أحتاج للدراسة والإعتكاف على كتاباتي أختلي بنفسي في شقتي التي أبقيت عقد استئجارها ساريًا.

لكن حياتي الزوجية الحقيقية كانت مع أختي الأفعى حواء الحوراء حين أعود في تلك الليالي إلى شقتي. والغريب أنني طوال بقائي معها لم تحول قسمها الأسفل كما حدث في المرة الأولى إلى هيئة أفعى، وإنما ظلت امرأة شهية بهية مضيئة وشبقة. هل أنا أفعى من دون أن أعرف؟

علاقتي مع إيفا ماريا كلاين استمرت على رتابة إيقاعها، لكنها كانت تتجد كل يوم من خلال حضور الأماسي الثقافية أوالحفلات الموسيقية والحديث عن الكتب الجديدة التي وصلت المكتبة إلى جانب الأحاديث عن عوالم السحر والبارسايكولوجي.. لكنها كانت أبعد ما تكون عن علاقة جسدية بين رجل وامرأة. لأن هذا الأمر تباعد بيننا، وصار أمرًا نادرًا إلى أن اختفى كليًا.

ومع اقترابي من نهاية فترة دراستي، صارحتني بالارتباط، لأن ذلك سيوفر لي الأمان والجنسية النمساوية، ويضمن لي حرية التنقل بين مختلف الدول الأوربية وخارج أوروبا، بل وأقنعتني بحمل لقبها الأوربي „كلاين" لأنه سيجنبني الكثير من الإشكالات في التعاملات الإدارية وحتى عند السفر. وفعلًا تم ذلك. وصرت آدم كلاين.

❋❋❋

حياتي الزوجية معها نقلتني إلى فضاء آخر. كانت مولعة بالموسيقى. لكني انتبهت لإصرارها على حضور حفلات موسيقية لأوركسترا محددة، حتى إذا كانت حفلات تلك الفرقة الأوركسترالية تقام في مدينة تبعد عنا لساعات كانت تصرّ على أن تأخذني معها لنحضر تلك الحفلة، وأحيانًا نكون قد حضرنا تلك الحفلة في مدينتنا. ولم يحدث هذا الأمر مع أية فرقة أوركسترا أخرى.

لم انتبه لهذه المفارقات إلا في السنة التي حصلت فيها على الجنسية النمساوية، وصادف كنت حينها قد أنهيت دراستي وناقشت أطروحتي بتفوق، حين اختفت لبضع ليال.

حين عادت كانت متغيرة في سلوكها وباردة في تعاملها معي، وطلبت مني أن

نجلس لتحدثني، وأخبرتني بأنها رجعت لحبيبها وعشيقها قائد الأوركسترا لتلك الفرقة التي كنا نحضر حفلاتها المتكررة. وأخبرتني بأنها كانت عشيقته لسنوات طويلة، منذ أيام شبابها، لذا لم تتزوج، علمًا أنه متزوج ولديه عائلة.

في السنة التي تعرّفتْ فيها عليّ كانت قد افترقت عن عشيقها بعد أن افتضح أمرهما وعرفت زوجته بعلاقتهما، وفي النهاية اختار هو عائلته، فعاشت هي معذبة، بل هي اعترفت بأنها تعرفت عليّ ليس فقط بسبب الاستلطاف الشخصي لي والخروج من الوحدة، وإنما فكرتْ بمسألة تحديه وإغاظته أيضًا، فأخذتني إلى الحفلات التي يعزف هو فيها كي تستعرضني أمامه وتؤكد له بأنها ليست وحيدة، بل وجدت شابًا يصغره بالعمر.

والغريب أن عشيقها في بداية السبعين، لكنها قبل أيام قرأت بأن زوجته قد توفيت فاتصلت به لتعزية، لكنها لم تكن تعرف بأن كل شيء استيقظ بينهما فجأة، فاقترح عليها أن تعيش معه وتتزوجه، لذا قررت هي الانفصال عني كي تعيش معه..! واحترامًا منها لي، ولأنها ستتزوج الموسيقار الثري، فإنها تتنازل لي عن الشقة رسميًا. ولم أقل شيئًا، لكني لم أغضب، وإنما قلت لها بأنه من حقها أن تعيش سعادتها مع من تختاره. وقبل أن تذهب احتضنتني، وقالت:

- أنا أشكرك على كل تلك السنوات التي قضيتها معك. ومن ناحية الاجراءات سواء فيما يخص الانفصال أو تحويل الشقة فسيتدبر المحامي كل شيء. ربما سنلتقي، وربما سأدعوك إلى حفل زفافي، وإذا لم تكن لديك الرغبة في الحضور فلن أزعل منك أبدًا فأنت صديق نبيل.

مع غيابها غابت في الوقت نفسه حواء الحوراء. فحين عدّتُ تلك الليلة لشقتي لم أجدها بهيئتها الشفافة كما كنت أراها كل مرة، لكني رأيتها في المنام، وكأني كنتُ في بيتنا في الكوت، وكنت اسمعها تقول لي وهي تتوسل منبهة:

- إذهب يا آدم، فلقد جاء عربيد البستان وقبض عليّ. إهرب من هنا إلى „الهناك"، إلى حيث „فندق باب السماء".. سألتقيك ذات يوم هناك.

وحين أفقت وجدتني مبتلًا بعرقي وارتعاشة باردة تسري في جسدي. ووجدت

نفسي في حيرة إذ لم أجد تفسيرًا لدعوتها بالذهاب إلى فندق محدد بعينه في عاصمة بلادي..!

نهضتُ عن سريري وأعددت لنفسي كوبًا من الشكولاته الجاهزة، ثم بعدها دخلت لأتحمم لكني حين صرت تحت تيار الماء المتدفق على رأسي، انبثقت فكرة خطيرة حددت قدري. لقد خطرتْ لي فكرة العودة إلى بلدي، والعمل في إحدى جامعاته. وهذا ما حدث.

استغرق إعداد أوراقي وترجمتها وتصديقها من الجهات النمساوية والخارجية وسفارة بلادي أسابيع بحالها، كما أن إجراءات الطلاق استمرت لأشهر، وبعد ما يزيد على السنة بأشهر كنت في عاصمة بلادي.

❊❊❊

في الطائرة المتجهة من فيّنا إلى استنبول جلس بجواري رجل عراقي على مشارف الستين، فتبادلنا الحديث العفوي. قدّم نفسه باسم آدم الشائع ومنصبه كمدير لمؤسسة ما، فعرفتُ إنه من رجالات العهد الجديد، مع أن أحاديثه كلها كانت عن مشاركاته في جبهات الحرب مع الدولة المجاورة في الثمانينات، التي تطرق عرضًا إلى زيارته العديدة لها.

سألني عن نفسي..! صدمني سؤاله، لأني لا أعرف لي أصلًا أو فصلًا، ولا هوية أو نسبًا.. لكني قدمت له نفسي باعتباري آدم كلاين، نمساوي الجنسية من العراق.

كان الرجل أريحيًا، سألني إن كنت من أهالي العاصمة، فنفيت ذلك، فأنا وجدت نفسي في بستان كبير بمدينة جنوب العاصمة. فأبدى استعداداته لمساعدتي طوال تواجدي في البلاد، وقال لي بأنه يعيش في فندق بوسط المدينة، وأصرّ على أن أذهب معه إلى حيث ينزل، لا سيما وأن وصولنا سيكون فيما بعد الثانية صباحًا.. توطد تواصلنا أكثر في فترة الانتظار بمطار داخلي صغير نستبدل الطائرة فيه والتي ستقلنا إلى بغداد.

سألته بشكل مفاجئ إن كان يعرف فندق „باب السماء". نظر إليّ للحظات نظرة وَجَل وكأنه يريد أن يعرف هويتي. ثم قال بخفوت:

- لا.. لكني في طريقي إلى حيث أسكن سآخذ إلى فندق سياحي في وسط المدينة..وسأمر عليك غدًا وأستضيفك.

وهذا ما حدث، إذ أخذني عند الثالثة فجرًا إلى فندق سياحي معروف في المدينة. في اليوم التالي وبعد أن أنهيت فطوري، وما إن خرجت من قاعة الطعام حتى وجدته ينتظرني في اللوبي وهو يبتسم لي.

قال لي وهو يواصل ابتسامته:

- جئتك وسألت الاستعلامات فقالوا لي إنك في قاعة الطعام.. المهم.. هل أنت مرتاح في هذا الفندق.. كيف يمكنني أن أساعدك..؛ تعال الآن لأخذ في جولة أريك معالم المدينة.

كان يتحدث بسرعة، لكنه كان مرحًا ويحتفي بي بحرارة، بيد إني انتبهت إلى أنه يرمقني أحيانًا بنظرات خاطفة وكأنه يدرسني.

على مائدة الغذاء في مطعم بمنطقة راقية في المدينة، قضينا وقتًا ما بين الطعام الشهي والحديث العملي، فقد أفهمته بأنني عدتُّ لبلادي كي أعمل في إحدى جامعاتها، فأبدى ترحيبه واستعداده من حيث أن عميد إحدى الجامعات في العاصمة هو صديقه الشخصي جدًا، وأن عليّ أن أعتبر مسألة تعييني قد صارت مضمونة من دون تعقيدات. واتفقت معه على أن يجد لي بيتا للإيجار. وهذا الأمر قد حُل في تلك الجلسة أيضًا إذ اتصل بصديق له مباشرة لديه مكتب للعقارات، ووجد لي بيتًا في تلك المنطقة الراقية.

جرت الأمور وكأنها في حلم أو في فيلم سينمائي، وكأن كل شيء مخطط له سلفًا أو الأحداث مكتوبة بترتيب لتصل بالأحداث إلى نهايتها. ففي خلال أسبوع كنت قد تعينت وأستأّجرت بيتًا. واستقر حالي، بل واشتريت سيارة مستخدمة قليلًا.

بدأت عملي في الجامعة الأهلية. واستمرت ولو بشكل متقطع لقاءاتي مع صديقي آدم الشائع الغامض، وأقول الغامض، لأنه كلما سألته عن فندق "باب السماء" تهرَّب من الإجابة مع أنه وكأن بيده كل مفاتيح العاصمة وأنه يعرف الكل، إلى أن قررت بنفسي البحث عن الفندق، وبدأت أسأل لكن ما من إجابة، فإما هناك من

لم يسمع به، أو هناك من ينظر إليّ نظرة غامضة مريبة، ولا يفتح فمه بل يتركني ويمضي، حتى بدأت أشك بنفسي، بأني لم أفهم كلام حواء الحوراء حين جائتني في الحلم بشكل صحيح، فلربما اسم الفندق له دلالة ثانية..!

في بلادي وجدتني مهمومًا بمعرفة ذاتي.. وأصلي.. وهويتي.. وأين كنت قبل ظهوري في البستان فجأة. في تلك الفترة أخذت تراودني أحلام يقظة غامضة ومريبة، أرى نفسي طفلًا في عائلة.. ولكي أقبض على أحلامي بدأت أدونها بشكل روائي كمشاهد حياتية حيى.. فكتبت رواية لكني لم أكملها، لكنها موجودة في دفتري هذا، ولم استطع إكمالها لأني قُتلت.

حدث ذلك بعد أن وجدت وظيفة كاستأذ في إحدى الجامعات الأهلية المشهورة من خلال علاقة صديقي الغامض. وكان عليّ تدريس مادتين أسبوعيًا، ولأن الجامعة غير مختلطة، لذا كنت أقدم أربع محاضرات، إثنتان للطالبات وإثنتان للطلبة.

تعلمت من الأوربيين احترام العمل والانضباط فيه، لذا كنت ملتزمًا بأصول المحاضرات والتعليم الجامعي الذي تعلمته في النمسا، لكن ما حدث معي أثناء تدريسي للبنات كان غريبًا وغامضًا. تجربة شخصية فريدة.

ففي المحاضرة الأولى أوضحت للطالبات بأنني لا أسمح بدخول أي طالبة بعد دخولي القاعة. وأثناء حديثي ذاك دخلت طالبة. سمحت لها طبعًا لأنها لم تكن سمعت بتنبيهي، ووضحت ثانية الأمر.

قالت لي الطالبة التي جاءت متأخرة وهي تعتذر بأنها تعمل في بنك والبنك يغلق أبوابه في الساعة الثالثة، وهو وقت المحاضرة بعد الظهر، لذا عادة هي تطلب من مدير قسمِها في البنك السماح لها بالخروج قبل انتهاء الدوام بربع ساعة، ناهيك إن البنك ليس بعيدًا عن الجامعة فتصل في الوقت المحدد، لكن في فترة دفع المرتبات رأس الشهر لا يسمح لها بالخروج قبل نهاية الدوام، لذا فهي في الأيام التي تصادف المحاضرات فيها تتأخر.

شخصيًا أبديت تفهمًا، لا سيما وأن السبب مقنع وإنساني. وسألتُ إن كانت هناك من لديها وضع مشابه، فرفعت طالبة أخرى يدها وأبدت وضعًا مشابها وقالت

هي تعمل في دائرة الجنسية والإقامة ويحصل أحيانًا أن تتأخر لكثرة المعاملات..!

بعد انتهاء المحاضرة اقتربت مني طالبة منقبة، زوجة سفير عربي وأبدت رغبتها في التعريف بنفسها. وكانت في نهاية الثلاثين تقريبًا. المهم، بعد رحيل كل البنات، انتبهت لبقاء فتاة البنك والفتاة الأخرى. شكرتاني لتفهمي وضعهما.

إحدى محاضراتي كانت عن العوامل النفسية التي تتحكم في الإنسان في عملية تقبل الأشياء، وبعد انتهاء المحاضرة، وخروج الطالبات وانشغالي بالحضور والغياب جائتني إحداهن. ليست التي تأخرت واسمها حواء آل فضة، وإنما الأخرى واسمها حواء المريخي التي تعمل في دائرة الإقامة.

أخبرتني حواء المريخي بأن لديها مشكلة، ولديها إحساس بأني أستطيع حلها. سألتها:

- لماذا أنا وليس غيري من الأساتذة؟

- أنت تبدو متفهمًا للآخرين وتستمع لهم بعناية..!.. أجابت.

- تكلمي.. قولي ما لديك..!

- لا.. أريدك على انفراد فهو حديث طويل.!؟

فوجئت بطلبها فقلت لها:

- هذا غير ممكن في هذه البلاد المحافظة دينيًا وإدارة الجامعة المهووسة بالشريعة..!

أجابتني بجرأة مدهشة:

- هل لديك مانع من أزورك في شقتك؟ أنا سألت عنك وعلمت إنك تعيش وحدك..

راودني هاجس الكشف فقلت مع نفسي: „وما المانع؟" لذلك قلت لها:

- أعتقد أنكِ ما دمت استفسرتِ عن وضعي، فأنكِ تعرفين أين أسكن..؟

- نعم.. لا شيء يخفى عليّ فأنا مريخية..! وذكرت لي اسم المنطقة والشارع والفرع الذي أسكن فيه ولون بابي الخارجية.؟

اندهشت، وسألت نفسي: „أأنا مراقب إلى هذه الدرجة..؟". ويبدو إن نباهتها عالية، فخمنت ردة فعلي فقالت:

-لا تخف.. أنا أعمل في دائرة الإقامة..وبسهولة استخرجت عنوانك من الحاسوب..

بهتُ.. وفي لحظة ما قلت لنفسي: „ربما ستفيدني في أمور ما مستقبلًا..". لذا أبديت قبولًا ضمنيًا باللقاء.. وسألتني إن كان هذا المساء ملائمًا.. الساعة السابعة..! فوافقت.

الساعة الخامسة من ذلك اليوم كنتُ في البيت. وقبل ذلك مررت على السوق الكبير فاشتريت ما استطعت من فواكه وقناني عصير الفواكه والمرطبات الجاهزة. وحين وصلت الشقة، بدأت بترتيبها ولا شعوريًا ذهبت لترتيب سريري في غرفة النوم. وعطّرت الغرف بالرشوش الطيبة.

وكنت أنظر لساعتي كلما مرت خمس دقائق. وكنت مستغربًا من حالتي العاطفية والشعورية التي أمر بها..! ولكي أنفق الوقت، شغلت نفسي ما بين حلاقة وجهي والاستحمام وما بين ترتيب مكتبتي المكتظة بالكتب.

لم يبق على السابعة إلا ثلاث دقائق حين سمعت رنين جرس الباب. فأسرعت إلى الباب الداخلي ومنها خرجت إلى الباحة وصولًا إلى بوابة البيت. وما إن فتحته حتى تنشقت عطر العود الذي يهب من الملابس المبخرة والعطور الشرقية المثيرة. ومرقتْ مسرعة كأن هناك من يطاردها.

حين التفتُ إليها كانت قد وصلت إلى باب البيت الداخلي. وأشرتُ لها بالدخول فصارت في وسط الصالة. وفجأة انتبهت إلى أنها تمسك بباقة ورد كبيرة من ورد الجوري الأحمر وعلبة شوكولاتة من النوع الممتاز. ولحظتها تذكرت أول زيارة لطليقتي إيفا ماريا كلاين. شكرتها بحفاوة وارتباك.

كانت واقفة وسط الصالة وعلامات الحيرة بادية على وجهها. أعطتني باقة الورد ووضعت علبة الشيكولاته على الطاولة الكبيرة التي أستخدمها للكتابة من جهة وللطعام من جهة أخرى. وكان هناك فازة للورد فيها بعض الزهور الذابلة. أخذت الفازة.. وسألتني عن المطبخ فاشرت لها.

ذهبت وبعد دقائق عادت بالفاظة وباقة الورد متوهجًا بلونه الأحمر الأرجواني.. شكرتها على قيامها بذلك، ثم دعوتها لكي تستيرح أينما تحب، فجلستْ على الصوفا. سألتها عما تريد شربه، فدعتني للجلوس كي نتحدث أما شرب الشاي أو القهوة فسيأتي وقتهما في ما بعد..! فجلستُ.

وبعد تبادل كلمات عن رحابة البيت وتنظيمها، وعن راحتي في العمل الجامعي بشكل عام، ومعهن كفتيات في صفها بشكل خاص، أخذت تحدثني عن إعجاب الطالبات بي، وإعجابها بي كشخص يمنح الثقة، وإعجابها بطريقتي في التدريس والإفهام، واستقبلتُ كلامها كمبالغة أو كمقدمة لتقول ما لديها، ولأنها ظلت تتردد في قول ما جاءت من أجله، قررت مبادرتها بالسؤال فقلت لها:

- لقد أخبرتني بأنكِ تحتاجين رأيي في أمر مهم يخصك، وانك تريدين أن يكون الأمر بيننا فقط.. وها أنا أسمعك..!

- هل يمكنني أن أخلع هذه الجبة الخانقة.. أقصد المعطف الطويل هذا.

- طبعًا.. طبعًا.. خذي راحتك وكأنكِ في بيتك..

نظرتْ إليّ بارتباك وأزاحت الحجاب المؤلف من شالين حريرين أحدهما فوق الآخر بحيث صارا على كتفيها، فبانت وكأنها نجمة سينمائية من نجمات السينما الهندية، نزعت التشادور الطويل الذي يسمى (الجبة) أو (البالطو)، فاتضح أنها تلبس ثوبًا أرجوانيًا حريريًا أنيقًا يصل إلى قدميها تقريبا.

رفعت رجلها قليلا لتستقر في جلستها، فارتفع ثوبها الأرجواني الأنيق عن كاحلها المثير والمزيّن بخيط ملون عليه بعض وريقات الذهب الصغيرة بما يشبه جلجل خاص، فشعرت وكأن مسًّا كهربائيًا اجتاحني وشعرت بإثارة لم أتوقعها، ولم أكن أعلم أنها كانت متقصدة في الكشف عن كاحلها لتثيرني أم لا.!؟

ومع معرفتي بأنها هنا معي في الصالة، لكني شعرت كأنني خارج المكان، وكنت أتخيل لنفسي بأنها ستكشف عن نفسها وكأنها حواء الحوراء وقد جاءتني بهذه الطريقة، لكن ذلك لم يحصل.

نظرتُ إليها فانتبهت إلى أنها ذات ذوق راق في المكياج، إذ لم تكن قد زيّنت نفسها كثيرًا سوى ببعض الكحل حول جفنيها، وأحمر شفاه أرجواني يميل للقتامة، وثوب أنيق يكشف عن ملامح الجسد بإثارة، يحدد الساقين والبطن، ويبرز النهدين كاشفًا عن جمالهما، أما تسريحتها فكانت أقرب إلى تسريحات النساء في الخمسينات من القرن العشرين.

ومع أن الشهوة أخذت تضرب صدغي ضربات خفيفة، لكني كنت أسمع في داخلي ما يشبه جرس الإنذار، حيث خطرتْ في بالي بأنها ربما مراقبة من ذويها أو زوجها، وربما هي مرسلة من قبل أجهزة الأمن التي تجّد في اصطياد المعلومات من خلال النساء، لا سيما وأنا جنيستي أجنبية. بيد إن جاذبية الجسد كانت أقوى، ومع ذلك لم تعرض نفسها جسديًا، وإنما هي امرأة ذات شخصية ومكانة، ومع أنها تبدو لي متحررة ومسترخية إلا إنها رزينة.

امتد صمت بيننا للحظات. أدركت بأن عليها أن تبرر مجيئها إلى شقتي، فقالت:

- أنا أدرك بأنك تنتظر مني أن أحدثك بما جئت من أجله..

- نعم هذا صحيح.. كان هذا طلبك من الزيارة.. أليس كذلك؟

ابتسمت مع نفسها كأنها تفكر في أمر ما وواصلت:

- نعم هذا صحيح.. سأحدثك.. القضية وما فيها إنني أكتب الشعر، كما أنني متزوجة وأم لطفلين. انتميت لمجموعة من الشعراء والشاعرات، نقيم اللقاءات والقراءات الشعرية في بيت أحد الموسّرين ممن يحبون الأدب والكتب والقراءة، مع أنه ليس بشاعر وإنما يكتب أبياتًا متفرقة كهواية أحيانًا، لكنه أريحي النفس وكريم. وكان مضيّفنا يدعو بعض أصدقائه من محبي الأدب والشخصيات المؤثرة.. أنا كما تراني أهتم بأناقتي.. وأعتقد إن شكلي مقبول لحد ما...

- بل أنت جميلة... عقّبتُ بحفاوة.

خفضت رأسها خجلًا وعلى وجهها ابتسامة طيبة وواصلت:

- شكرًا لك..هذا من لطفك..المهم.. في هذه اللقاء حدث إن أحد الضيوف،

الذي قيل لي فيما بعد بأنه لا يأتي دائمًا، صار مواظبًا على الحضور بشكل مثير للغرابة. انتبهت إلى إنه يتابعني بنظراته، ويهتم بما أكتبه ويناقشه على إنه شعر مهم وعميق الأفكار، حتى أنني انتبهت لمبالغاته وقصديته في الحديث عمّا أكتبه وألقيه. ومع أن ذلك كان يعجبني ويرضي غروري الشخصي والأنثوي لكني كنت خائفة خوفًا غامضًا. لا سيما وإن هذا الرجل أخذ يستغل أية استراحة لتناول المقبلات والمعجنات بين القراءات ليحدّثني ويتقرب إليّ ويحاول الاختلاء بي في جانب من الصالون.

ولا أخفيك، أنه رجل وسيم وذو مركز إداري مهم في المدينة، وعرفتُ منه أنه متزوج ولديه امرأة غيورة وأبناء، لكنه جريء جدًا، إذا فاتحني بإعجابه الشديد بي وبجمالي وأناقتي وجسدي، وأنه يريد أن أتواصل معه وأكون له، نعم أن أكون له، وإنه سيرفعني إلى أعلى المقامات..!

أخبرته إنني متزوجة ولديّ أطفال، لكنه اعتبر هذا الأمر غير مهم، فهو متزوج أيضًا، وحدثني عن أشياء مخيفة عن الحياة الزوجية لكنها واقعية جدًا، ولم أكن قد انتبهت لها، لكني صرت أدركها وكأنها اكتشاف جديد يدفعني للنظر إلى حياتي..

- بماذا حدّثك..؟ سألتها.

- أخبرني بأن الحياة الجنسية بين الزوجين تصبح باهتة وعادية وروتينية، حتى لو كان الزواج قائمًا على الحب والشغف والرومانسية..! إذ بمرور الوقت والتكرار يبهت كل شيء، كألوان القمصان أو الجدران أو حتى لمعان الذهب والفضة..! فكل شيء يحتاج إلى تنشيط الألوان والجلي لإعادة اللمعان..! والعلاقات العشقية الجانبية كفيلة بذلك، على الأقل لما تخلفه من شعور بتأنيب الضمير والذي يدفعنا لمضاعفة مشاعرنا وحبنا للزوج أو الزوجة، مما ينقذ ديمومة هذا الزواج..!

- ربما.. إنه خبير فعلًا.. ولكن ماذا فعلت أنتِ بكل هذه الغوايات..؟ سألتها مستفسرًا.

- كنت خائفة... أشتهي خوض المغامرة وأخاف عواقبها، فأنا أحب زوجي، وقد تزوجته عن حب بعد علاقة دامت ثلاث سنوات، لكني بعد تسع سنوات من الزواج مللت علاقتي به، حتى إن علاقتنا الجسدية في السرير صارت روتينًا مملًا. ولا

أخفيك أنا أشعر بحاجتي إلى أن أعيش مغامرة كبرى تهز كياني وروحي وجسدي..!

- وماذا حدث بينكما؟

انتبهت لاهتمامي الذي يخفي غِيرة متخفية ولا يمكن الشعور بها إلا لامرأة حساسة جدًا، فقالت:

- سأخبرك بكل شيء...في البداية كنت مترددة وخائفة، بل وبصراحة لم آخذ الأمر على محمل الجد لأني كنت أعتقد بأنني محصنة أمام غوايات الرجال ليقيني من حبي لزوجي ووفائي له، لكن للجسد والنفس والرغبات منطق لا ينسجم مع يقينات الأخلاق والعقل. نحن البشر شخصيات معقدة وكتلة من الألغاز.. فلقد تحركت الغواية وأحاطتني وبدأت تجرني إلى الأسفل من دون أن انتبه لها، مثلما تقوم الرمال المتحركة بجرنا للأسفل من دون أن ننتبه أو حتى لو انتبهنا بالضبط. صرتُ أفكر بالرجل وعروضه الوقحة لا إراديًا، لكني لم استسلم لغوايته. ومع ذلك صرت أتحرق لموعد الملتقى وأشتاق بشغف لرؤيته وسماع غزله الوقح بجسدي وما يكنزه تحت الثياب، فقد كان يعجبني أن يرى جمال جسدي ويتغزل به بوقاحة، مع إني لا أستسيغ ذلك، بل خفت من نفسي حينما بدأ الرجل يخترق أحلام يقظتي ويكون حاضرًا معي بشكل إباحي. وارتعبتُ من نفسي حينما صار يحضر حينما كان زوجي يقترب مني جسديًا، وصرت أؤونب نفسي وأتهمها بالسقوط والعهر حتى صرت أخاف من أحلام يقظتي، وأخاف اقتراب زوجي مني لأني كنت احتضن الرجل الآخر في خيالي..!

- هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟ وماذا فعلت؟ سألتها بحيادية من دونما انفعال.

نظرت إليّ للحظات. وسألتني:

- هل تحب الشاي أم القهوة..؟ أنا أحب القهوة؟

انتبهت إلى إني لم أسألها ماذا تشرب. لذا أردت القيام للذهاب إلى المطبخ كي أعد القهوة، فأوقفتني وقالت:

- أنت سخِّن الماء بالغلاية وأنا سأعِد القهوة بعدها. هل لديك دلّة لإعدادها..؟

- نعم.. كل شيء لدي في المطبخ..!

قامت من على الصوفا فرأيت قامتها المثيرة التي تختفي تحت ملابسها التي تحجب جسدها وقامتها الممشوقة. وراودني سؤال عن زير النساء الغاوي هذا كيف رآها، وخمّنت بأنها من المؤكد كانت تنزع معطفها حتى لو بقيت بحجاب الرأس.

ذهبت أمامي إلى المطبخ. عيناي، لا إراديًا، توجهتا إلى قدمها ذات الحجل الذهبي المثير. في المطبخ غليت أنا الماء وأخرجت لها من الخزانة الحائطية كل ما لديّ من أنواع القهوة، النسكافيه والبن المطحون، والكابيتشينو والشكولاته الجاهزة، وكذلك وضعت أمامها ثلاثة أحجام مختلفة من دلال القهوة. وما إن رأت البن والدلال حتى قالت لي: „إذهب أنت. أنا سأعدّ القهوة وآتيك". فعدتُ إلى الصالة.

بعد خمس دقائق عادت وبيدها صينية عليها فنجانان ودلة صغيرة ووضعتها على المائدة التي استخدمها للكتابة أيضًا.. ذهبت أنا إلى المطبخ وجئت من الثلاجة بقنينة كبيرة من الماء مع قدحين. وجلسنا بشكل متقابل حول الطاولة. فتحتْ هي علبة الشكولاتة التي أتت بها. وضعت فنجان قهوة أمامي والآخر أمامها وقربت علبة الشكولاته بيننا.

ارتشفت شيئًا من القهوة، ويبدو إنها تذوقتها بلذّة، وسألتني عنها فقلت لها إنها مضبوطة فعلًا، ابتسمتْ ومدّت يدها إلى علبة الشكولاتة وأخذت قطعة في فمها.. قضمتها وأخذت تتذوقها بمتعة أثارت انتباهي، لكنها انتبهت إليّ وأنا اتأمل كيف تتذوق الحلوى والقهوة، ابتسمت بحزن، وقالت وهي تواصل حكايتها:

- أتعرف يا دكتور كلاين.. أنني كنت أدرك أنني سأذهب إليه طواعية لو استمر الأمر على هذه الحال.. وكنت أخمّن بأني سأمسي عشيقته، أو إحدى عشيقاته. وكنت أقول لنفسي لو حدث ذلك فسأقدم على الانتحار، وكنت جادة في هذا القرار..! لو كان الأمر قد حدث فإنني كنت سأنتحر من دون تردد..!....لكنني خلال تلك الأيام فاتحت صديقتي المقربة جدًا، والتي كانت منتبهة لاهتمامه بي منذ اللقاءات الأولى، وكانت حينها تلقي على مسامعي بعض الجمل الفكاهية المليئة بالألغاز عن حظي السعيد الذي يأتيني بالمسؤولين ليدللوني.. حينها لم أكن مهتمة لاهتمام الرجل بي لذا كنت آخذ نكاتها على محمل المزاح الأنثوي..

المهم..ما إن رويت لها عروض هذا الرجل الوسيم حتى أخذت تغريني بالتواصل معه وقبول عروضه، والاستمتاع الغرامي معه سرًا، لا سِيما وهي تعرف روتين حياتي الزوجية، بل حرضتني بقوة على الدخول في العلاقة والاستجابة له ومن ثم الاستفادة من نفوذه للشهرة والحصول على منصب مرموق في إحدى الوزارات..!

- وماذا جرى..! سألتها بنبرة فيها غضب مكتوم لا أعرف سببه ومصدره.

نظرت إليّ بتمعن كأنها تريد أن ترى تأثير بوجِها عليّ وهل اتخذتُ موقفًا أخلاقيًا منها، وأجابت:

- لا شيء..

- ماذا تعنين بلا شيء..!؟

صمتت للحظات وكأنها تفكر في الإجابة ثم واصلت:

- كان هو صائدًا ماهرًا للنساء، وخبيرًا في الغواية. فما إن انتبه هو إلى نظراتي ولغة جسدي التي تشي برغباتي المكتومة، حتى أخذ يقلّل من اهتمامه، وهذا ما صار يؤثر على أعصابي، إذ كنت قد أدمنت اهتمامه بي ووقاحته معي، فصرت نزقة وعصبية وأتصرف أحيانا بطريقة لا تنسجم مع شخصيتي ولا تنسجم مع الانطباع السائد عني وعن رزانتي ورقة تعاملي ولطفي. وذات مرة غاب عن اللقاء.. جننتُ حينها، حتى إني غادرت الجلسة بحجة إنني مريضة. وحين صرت في سيارتي اتجهت لا شعوريًا إلى المنطقة التي يسكن فيها، ومررت بالشارع الذي أخبرني أن بيته فيه. وبقيت أدور ليس على هدى. شعرت لحظتها برغبتي فيه، وفي الوقت نفسه شعرت بالراحة وكأنني قربه، مع إني كنت أدور في سيارتي كالمجنونة، وحمدتُ الله إنني لم ألتقيه لأنني لو كنت التقيته لتوسلته أن يأخذني، كلي، ويطفئ لهيب رغبتي.

سكتت للحظات، وكأنها قالت شيئًا ما كان عليها أن تقوله، وحين طال صمتها سألتها:

- وماذا حدث بعد ذلك..!

رفعت رأسها كأنها أفاقت من شيء كان يدور في أعماقها...

- لم يحدث أي شيء. حين عدت إلى بيتي وجدت زوجي يلعب مع الطفلين.

لحظتها شعرت بخستي وانحلالي وانتابني شعور بالذنب. زوجي انتبه لي واستغرب التشتت والتوهان الذي كان باديًا على وجهي وحركاتي. نظر إليّ مستفسرًا وسألني: „ما بكِ؟" فأجبته: „لا شيء مجرد صداع حاد". قبّلت الطفلين بسرعة وتوجهت إلى غرفة النوم. كنتُ أشعر كأني عارية أو مجرمة فُضح أمرها. ألقيت بنفسي على السرير العريض وأخذت الوسادة لأغطي بها رأسي..!

ثم صمتتْ. انتظرتها أن تواصل، وحين طال صمتها ظننت أنها تخفي شيئًا لم تقله، لكنها قطعت الصمت قائلة:

- الغريب أن صديقتي أخذت تتصل بي وتلح عليّ بأن التقيه. هذا ما خلق لديّ ردة فعل لا إرادية، ففي البداية كانت تلمّح مازحة، لكنها الآن تلح بقوة على أن أقيم العلاقة، حتى أخذت أفكر بأنه قد اتفق معها على أن تقنعني.. ومع ذلك فأنا ما إن أتذكره حتى أفقد توازني وتفكيري المنطقي وأجنح لروح المغامرة.. وها أنا ألجأ إليك.. أريدك أن تنقذني.. لم أعد أسيطر على نفسي.

صُدمت. لم أكن أتوقع أن تنتهي حكايتها بهذا الطلب الشخصي. فهي مهيأة للسقوط، ليس لأن هذا الرجل قد أغواها، وإنما لأن روتين حياتها الزوجية والجنسية أفقدها طعم الحياة. وهي كما قالت عن نفسها تتوق للمغامرة التي تمنحها قوة وتجدد أيامها وتخرجها عن إيقاعها الرتيب والممل. فحتى لو لم يكن هذا الرجل بذاته فإنها الآن متأججة العواطف ويمكن لأي رجل جريء أن يقطفها من دون عناء كبير، فهي تريد التغيير والتجديد والمغامرة بأي شكل كان، لكنها لا تستطيع المبادرة.

كانت تنتظر ما أقول. لا أدري لماذا وأنا أنظر إليها تذكرت رواية „مدام بوفاري" لفلوبير. أحسست أنها أشبه ببطلة الرواية المتزوجة والمستقرة في حياة زوجية هادئة ورتيبة، لكن ذهنها الذي عششت فيه القصص الرومانسية والشعر كان يشطح بها إلى مغامرات لم تكن قادرة على مواجهتها، بدليل أنها، بعد أن أقامت أول علاقة جنسية مع جارها الغني الذي يعيش في المزرعة المجاورة، هتفت بفرح: „لقد صار لديّ عشيق.. لقد صار لديّ عشيق". لكن الأمر لم يجرِ كما في أحلامها،

وهذا ما سحبها إلى قاع الحضيض. لكن ما أثار انتباهي إن حواء المريخي كانت واعية لرغبتها المتحررة التي تسحبها إلى القاع.

وسألت نفسي: „كيف تجرأت هي بالمجيء إلى شقتي وهي لا تعرفني جيدًا، بينما مسكتْ نفسها ولم تذهب إلى الرجل الذي هي مضطربة الجسد ومتأججة الرغبة من أجله..! من قال لها بأنني قديس؟ ألم يخطر ببالها بأنها تذهب إلى شقة رجل أعزب، أستاذها، لا تعرف شيئًا عن طبيعة سلوكه، لا سيما وهي امرأة مثيرة؟ ثم أليس من الممكن أن تكون كل هذه الحكاية غير صحيحة وإنها تريد أن تقيم علاقة معي، أو تريد الإيقاع بي.!؟". ولا أدري لماذا كنتُ أبحث عن مبررت تسهل لي استغلال وضعها. بيد إني من جانب آخر شعرت بالخوف من المشهد كله، فهي تعمل في مديرية الإقامة، ومن المؤكد أن لديها العلاقات القوية بالجهات الأمنية. لذا سألتها فجأة:

- وماذا تنتظرين مني.. أي حل يمكن أن أقدمه لك؟

لم يفاجئها سؤالي، فلم تكن قلقة ولا خائفة وإنما ثمة حيرة وتردد ولا قرار في نظراتها. نظرتْ إليّ وقالت:

- أنا نفسي لا أعرف لماذا لجأت إليك؟ أتصدّق إنني جئت بسيارتي ووصلت الجادة الفرعية التي فيها بيتك، لكني استدرت راجعة، وعلى مقربة الاستدارة التي تقود إلى بيتي استدرت وعدت ثانية عائدة إلى هنا.. وحتى هنا عندما أوقفت سيارتي وخرجت منها كنت مترددة.. أردتُ أن أفرّ من المنطقة وأرجع.. ولا أخفيك كانت حالتي وأنا مقبلة نحوك تشبه حالتي حين كنت أحوم حول بيت الرجل الآخر، وكأنك الرجل الذي أريده من دون أن انتبه.

انتبهت لجملتها الأخيرة التي قالتها بعفوية. حسمت ترددي في قول ما أريد والتخلص من هذا الوضع المريب، فقلت لها:

- اسمعيني يا حواء.. من الواضح أنك سئمت حياتك الزوجية أو تشعرين بروتينها وتكرار الأشياء، وإلا ما كنت انجذبت لغواية هذا الرجل..

فقاطعتني:

- أبدًا.. أبدًا..لم أكن أشكو من شيء..كنت أعيش في سلام عائلي، بل كانت بعض صديقاتي يحسدنني على استقرار حياتي الزوجية، وحتى غياب اللذة الجنسية في علاقتي بزوجي لم يكن يشكل لي عائقًا، فقد كنت سعيدة بتلك العلاقة لأنها تسعده، ولم انتبه للروتين في حياتي إلا بعد أن خطوت في العلاقة. وكلما توطّدت علاقتي بهذا الرجل قليلًا انتبهت أكثر لتفاهة حياتي وروتينها. أنا أحب زوجي.. تزوجته عن حب.. وحين أفكر بتعبه وسعيه لراحة عائلتنا، وحبه لطفلينا، ينتابني شعور مدمّر بتفاهتي وسطحيتي وهول خيانتي، فهو يسعى لسعادتنا بينما أنا أفتش عن انتشاء رغبتي ومغامرتي.

- إذن..؟

نظرت إليّ بتساؤل وقالت:

- إذن ماذا؟ أنا خائفة من نفسي يا دكتور كلاين..فأنت الآن سمعتني أتحدث عن تفاهتي وهول خيانتي، وربما ظننت أنني سأمسك نفسي ما دام هذا الشعور يسيطر عليّ.. لا. لا. أنا ضعيفة أمام رغبتي.. بل هي ليست مجرد شهوة رغبة، وإنما تغيير حياة، فأنا لأول مرة أشعر بأنني أريد أن أكون مع رجل غير زوجي، ليس بالضرورة أن يمتلك جسدي ويخترقني.. وإنما أن أكون مع رجل آخر وأعيش حياة أخرى مليئة بالشغف والمغامرة، أن أكون موضع اهتمامه، وأنا أكون مُلكه هو، يأمرني بما يشاء ويفعل بي ما يشاء. وهذا شعور حقيقي وليست مجرد كلمات أقولها، فأنا مستعدة فعلًا لكي أكون هكذا، المهم أن أعيش في مغامرة وشغف مع رجل آخر غير زوجي. وحينما أفكر في إمكانية تحقيق هذه الرغبة مع هذا الرجل بالذات ينتابني الرعب، بل أخاف حتى من نفسي..!

صمتت بشكل مفاجئ للحظات، ثم واصلت:

- سأعترف لك بشيء قد يكون مخجلًا.. لو إنه اتصل بي في هذه اللحظة التي أنا معك فيها وفي شقتك هذه، لَلمّمتْ نفسي وذهبت إليه كالكلبة التي تركض وراء صاحبها..! نعم..

- ياللهول..! قلت بشكل لا إرادي.

فقالت لي مؤكدة ردًا على ما بدر مني كردة فعل على جملتها الأخيرة:

- نعم..لا تستغرب..لذلك لجأت إليك. أنا خائفة من نفسي..وما يوقفني حقًا خوفي من الفضيحة..خوفي على أطفالي من أن يكبروا ويجللهم عاري وفضيحتي إن مشيت في هذا الدرب..خوفي من عيون أبي إذا ما نظر إليّ، وهو رجل طيب ومحترم وسمعته في المدينة نقية كالكريستال،.. خوفي من عتب زوجي وتذكيري بحبنا وبكلمات الوفاء الأبدي التي تعاهدنا عليها معًا..! ما عدا ذلك لا يهمني أو يوقفني شيء..!

صمتُّ. كنت منبهرًا بهذا الاعتراف الجريء، ومن ناحية أخرى رأيت امرأة تقف عند الحافة المطلة على الهاوية، وتلتفت متستنجدة بي. أنّبت نفسي على خواطرها بامتلاك هذه المرأة المهيئة للسقوط بأي شكل..! ومع ذلك ظلت أفاعي اللذة في داخلي تلتف حول نفسها فشكلت عقدة للأفاعي مخيفة، فهربت من خواطري..نظرتْ هي إليّ منتظرة أن أقول شيئًا، صمّتُ للحظة بحثًا عن الهدوء الداخلي وقلت لها:

- سأسلك بعض أسئلة وأتمنى أن تجيبيني عليها بكل صراحة مهما كانت محرجة لك..!

- تفضل دكتور كلاين.. لا تتردد فأنا جئتك ومستعدة لسماع أي شيء منك..!

ومع إنها أبدت استعدادها لسماعي أسئلتي إلا إنني كنتُ مترددًا قليلًا، لكني غامرت وسألتها:

- ما الذي أعجبك في ذاك الرجل بالتحديد؟

فوجئتْ بسؤالي.. ارتبكت قليلًا وصمتت للحظات وكأنما بحثًا عن جواب دقيق، وقالت:

- هل تصدقني إذا قلت لك لا أعرف ما الذي شدّني إليه..فأنا لا أميل إليه شخصيًا، بل أنفر من هؤلاء الرجال الواثقين من أنفسهم جدًا، الذين يجيدون مهنة الصياد، صياد النساء. ذاك الذي نسميه زير النساء. لقد عرفتُ منذ لقائي الأول معه مقاصده ونفرتُ منها، لكني في مواصلتي اللقاء به وقعت دون أن أدري في الشرك.. دخلتُ بيتَ العنكبوت بنفسي..

- لكن لماذا دخلت إذا كنت تعرفين مقاصده..؟ سألتها.

- جرأته حذبتني وأثارت إعجابي. أثارت روح التحدي في أعماقي. دخلتُ كهاوية في اللعبة، وكنتُ واثقة من سيطرتي عليها.. لكني كنت مخطئة وساذجة. وجدتُ نفسي وسط رمال متحركة ابتلعتني على غفلة مني وأخذت تسحبني للأعماق، ووصلتْ الآن إلى كتفي وستبتلعني نهائيًا إذا لم تنقذني أنت وتمد لي يدك..!

فسألتها وأنا في البرزخ ما بين القديس والفاسق، ولم أكن أعي لمن أنتمي لحظتها:

- هل هذا يعني أنه لم يجذبك لصفات أثارت أنوثتك ورغبتك وإنما لجرأته التي أيقظت رغباتك النائمة وفتحت عينيك على روتين حياتك وفقدانك اللذة حتى عند معاشرة زوجك.. وأن حياتك صارت تكرارًا مملًا..!

- نعم هذا صحيح.. قالت باستسلام كأنها لا شعوريًا انتبهت لنواياي الغامضة.

فواصلت اجتياحي وسألتها:

- لو كان أي شخص قام بهذا الدور أكانت النتيجة نفسها..!

- نعم ربما..! قالت باستسلام.

فضربت ضربتي التي لم أكن أعرف هل لإنقاذها أم لاحتوائها، فقلت:

- وبهذا المعنى أنك تريدين علاقة مع أي رجل يمنح حياتك جذوة وتوهجًا بعد أن خمد الحب وانطفأت نيران الرغبة مع زوجك الحبيب..!

ارتسمت ملامح التفكير على وجهها ثم قالت:

- نعم.. ربما أساس دافعي لهذه المغامرة هو ما يجري في لاوعيي بأنني أريد أن أنقذ حبي لزوجي.. فربما مغامرتي لخوض هذه العلاقة ستعيدني لصوابي، فبعد أن تنطفئ الرغبة بماء المغامرة سيشتعل تأنيب الضمير في نفسي ويعيدني لزوجي وعائلتي..!

وخاطرتُ بسؤال مغامر حرّكته أفاعي الرغبة في داخلي، فقلت:

- يعني لو أنك استبدلت الرجل برجل آخر هل يختلف الأمر لديك؟

نظرت إليّ بتساؤل وقالت:

- لم أفهم.!؟ قالت بارتباك وتوجس.

- ما قلته واضح.. أنتِ قلتِ بأن تعلقك بالرجل ليس لشيء خاص فيه يجذبك إليه، وإنما لجرأته ويمكن أن أقول لوقاحته التي أيقظت فيك الشعور وجعلك تنظرين لحياتك..!

- صحيح.. كان وقحًا في الحديث معي وتوصيف جسدي..!

- لكن خوفك في جانب منه إنك تخشينه لأنه زير نساء، وأنتِ مجرد رقم في قائمة النساء المسكينات اللاتي غامرن معه..!

- أف.. أف يادكتور كلاين.. أنت وضعت إصبعك على سر وجذر خوفي الذي لم أعيه بوضوح..! نعم.. نعم.. لا أريد الخوض بمغامرة غير مؤمنة معه.. فهو فاسق وزير نساء وكل كلامه لغوايتي إلى أن يصل لجسدي ثم يرميني ليتجه إلى أخرى، لكن من جانب آخر هي رغبتي المتأججة لتغير حياتي..!

وجدت أنني اقتربت من حدود الغواية فقلت لها:

- لو كان رجلًا آخر غيره.. هل ستغامرين..!

صمتت للحظات وأعتقد أنها انتبهت لما يشي به سؤالي من جانب شخصي، فقالت:

- ربما نعم..لا سيما إذا تعرفت على هذا الشخص بشكل آخر وليس عن طريق الغواية وإنما كإنسان.. هل في ذهنك حل ما تريد أن تقترحه عليّ..؟

ارتبكت لكن جرأتها أعانتني فقلت:

- لأضرب لك مثلًا.. لو أنك استبدلت هذا الرجل بي.. هل كنت ستغامرين معي..!

ارتبكتْ وخجلتْ لكن علامات الارتياح كانت مرتسمة على وجهها ولم تتضايق من جملتي، فقالت بعد لحظات من الصمت:

- لا أدري.. ربما نعم، بل ربما لأسعدني ذلك لأنك رجل رزين وكتوم، ولا علاقات لديك مع إن بإمكانك أن تكون زير نساء، لا أعرف.. هل يمكن أن أعطيك جوابي الصحيح لاحقًا فأنا مشوشة الآن.. غدًا مثلا.. لقد فاجئتني.. ربما في لا وعيي فكرتُ

بذلك لذا جئتك..! ربما هذه كانت حجة لا شعورية مني كي نصل إلى هذه النتيجة.. لا أعرف.. ربما لا أريد ذلك لأنك أستاذي وربما سأكتشف أنك أيضًا من هواة المغامرات لكن بطريقة مهذبة وليست وقحة ومنفرة.. لا أدري.!؟

ارتبكت لعمق نظرتها التي فهمت دوافع الذكر الكامن في، فقلت لها مبررًا:

- طبعًا.. طبعًا.. لا تأخذي كلامي كاقتراح في أن تكوني معي وإنما أنا ضربت لكِ مثلًا لأستوضح طبيعة تعلقك بذاك الرجل..

لكنها فجأة انتقلتْ إلى سؤال مفاجئ، وقالت:

- هل تؤمن بالله يا أستاذ كلاين..؟

فوجئتُ بالسؤال. لم أفكر فيه سابقًا. حتى حينما كنت أزور الكنائس في فيّنا وروما وفلورنسا وكولن وباريس مع طليقتي إيفا ماريا، لكن سؤال الله واجهني ومررت به من خلال الفلسفة..! لا سيما سؤال الماهية والوجود أكثر مما مررت به من خلال الأديان..!، فمن خلال دراستي للأديان وجدت إن الله في الأديان ليس هو نفسه في الفلسفة والعلم، لذا قلت لها:

- لا أدري.. أنا أعرف ثمة تماسك في هذا الكون.. وإذا كانت الفلسفات المادية بكل تياراتها وعلوم الانثربولوجيا والبايولوجيا تؤكد بأن العقل البشري هو أعلى شكل من أشكال التطور، والإنسان أكثر المخلوقات تطورًا وذكاءً، فإن هناك حيوانات مفترسة وطيور جوارح وزواحف وحشرات، كالنحل، والنمل، والوطاويط، والغربان والذئاب والصقور والحيتان، وغيرها من المخلوقات هي أكثر ذكاء من الإنسان..بل إن مملكة الحواس لدى الحيوانات أكثر تطورًا منّا، ولا أقصد هنا مملكة المفاهيم والحكم كما يسميها إيمانويل كانت، كما أن الكون وقوانينه أكبر من فهم عقلنا البشري، فإذا كانت الفلسفات المادية تعتقد إن الدماغ أعلى شكل لتطور المادة، فكيف إن هذه المادة الموجودة في الكون والتي سبقت ظهور الإنسان بمليارات السنين هي أكثر ذكاء منّا بملايين بل بمليارات المرات..! بل إن العلم يتحدث عن الذكاء الكوني الخارق، إذن هناك عقل كوني قدير وعظيم يمسك الكون والمجرات من جهة، ويشكل الأصغير الصغير بعبقرية وعظمة.. لكننا لا نعرف ما هو أو مَن هو.؟!

كانت تنصتْ لي بانتباه، ثم سألتني ببراءة لا تتناسب مع حديثي أو مع الوضع الذي نحن فيه، والغاية التي جاءت من أجلها:

- هل هذا يعني إنك ملحد؟ ألا تصلي أو تصوم..ألم يعلمك والدك الفرائض! عفوًا أرجو المعذرة على تطفلي الشخصي..!

صدمني السؤال. لم أشأ أن أخبرها بأني لا أعرف لي أبًا ولا أمًا..! لكن في تلك اللحظة جاءها اتصال. نظرت إلى شاشة هاتفها وارتسمت علامات الصدمة والخوف واللهفة على وجهها. ونظرت إلي مرتبكة وقالت:

- إنه هو.. كيف تجرأ على الاتصال بي مباشرة على رقمي..؟ بل من أين أتى به؟ أكيد من صديقتي الغبية والمتآمرة معه.

ظل الهاتف يرن. شعرتُ بشيء من الغيرة تنتابني، لا سيما حين لاحظتُ اهتمامها وارتباكها، لكني لم أُبدي اهتمامًا وانتظرتُ لأرى كيف ستتصرف. فجأة لمّلمت حالها وأخذت شالها وما تهدل من حجابها ومعطفها الجبة وسألتني عن غرفة الحمام، فأشرت إليها. ذهبت لدقائق ثم عادت وهي في كامل حجابها مثلما دخلت. وبشكل مرتبك لا علاقة له بكل الانفتاح والاسترخاء الذي كان بيننا منذ لحظة مجيئها، ولم تبد رغبة في معرفة جوابي على سؤالها، إذ مدّتْ لي كفها مصافحة بشكل يكاد يكون رسميًا وباردًا، وقالت:

- شكرا جزيلًا لك دكتور كلاين لأنك استمعت لي وناقشتني بهدوء.. عليّ الذهاب.. أشعر إنني في وضع نفسي أخافه لا سيما بعد هذا الاتصال..!

- هل ستذهبين إليه أو تتصلين به..!

- لا أدري.. أشعر إنني على حافة السقوط الفعلي.. أشعر إنني سأكون عشيقته.. ومع إنني أفضل الموت على ذلك لكنني أحس بنفسي بأنني سأتقبل قدري هذا..! كان بإمكانك أن تنقذني بأن تأخذني وتمتلكني بجرأة ولا تنتظر خجلي وترددي، ولو كنت فعلت ذلك فلربما كنتَ أنقذتني.. خجلك وترددك أحبطني.. تأخرتَ..وداعًا. وشكرًا لك..

ومن دون تردد وكأنها تهرب مني غادرت الصالة. أردت أن أرافقها إلى الباب فقالت لي بصوت حازم وبارد:

- لا ترافقني رجاء.. شكرا لك.. أعرف الطريق.

بقيتُ وحدي في الصالة. للحظات شكتتُ بأن كل ما جرى كان وهمًا لولا وجود الصينية وفنجاني القهوة ودلّة إعداد القهوة وعلبة الشكولاته وعطرها الزكي الشرقي الطيب.

***

أنهيت تلك الليلة بإعداد محاضرتي المقبلة، وأيضًا راجعت النص الروائي الذي الذي كتبته بعنوان „رواية آدم المؤمن الناقصة"، وحذفت معظمه، وفكرت بأن أعيد كتابة نهاية مختلفة عما كتبته سابقًا وحذفته.. بعد ذلك توجهت إلى غرفة نومي. غيّرت ملابسي، ثم استلقيت على سريري العريض.

ولا إراديًا فكرت بحواء الحوراء. وقلت لنفسي أنا الآن في البلاد نفسها، صحيح هي في مدينة أخرى، لكني لست بعيدًا عنها، فقد كانت تأتيني وأنا في فيّنا بينما أنا الآن في عاصمة البلاد..! وتذكرتُ سؤال حواء المريخي عن الله والصلاة.. وأخذت أفكر في أصلي.. فجأة، انبثقت خاطرة في ذهني وهي إنني ربما فاقد للذاكرة.!؟ فليس من المعقول أن أظهر من الغيب وفي بستان فجأة، وأن أكون في حدود الرابعة عشرة من العمر!؟.

لا أعرف كيف غفوت وانجرفت في بحر النوم، فعادة أنا لا أنام بسهولة. ولا أنام مبكرًا قط، لكن في تلك الليلة آويت مبكرًا إلى فراشي وأنا محبط من هذا اللقاء بل ومن نهايته المفاجئة.. لا سيما بعد اعتراف حواء المريخي بأنني تأخرت بسبب الخجل والتردد! وربما في لا وعيي كنت أتخيل مشروعًا ما لكن في كل الأحوال لم يكن بهذه النهاية المفاجئة.

في الساعة الرابعة فجرًا وصلتني رسالة هاتفية. انتبهت للصوت المخصص لوصول الرسائل في الجهاز. تكاسلت أول الأمر وظننت الأمر ربما إعلان من شركات

الاتصال، وأردت مواصلة النوم، لكن هاجسًا راودني بأن أقرأ ما فيها، فليس من المعقول أن ترسل الشركات إعلانات والناس نيام؟. مددتُ يدي إلى الجهاز وفتحت الرسالة، فذهلت:

„ دكتور كلاين..احذر واحترس وانتبه جيدًا. هناك من يحاول أذيتك..إذا لم تكن نائمًا أعطني إشارة كي اتصل لأشرح لك الوضع الخطير..! حواء المريخي".

شعرت كأن هناك من صفعني بقوة. طار النوم فجأة، وصحوت وأنا في كامل نشاطي وتحفزي. وجدت نفسي أعيد قراءة الرسالة الهاتفية لأربع مرات، ثم وجدتني أرسل ردًّا موجزًا: „اتصلي.. لقد استيقظت". ولم تمض سوى ثوان حتى رنّ هاتفي فجاء صوتها قلقًا، مرتجفًا، ولم تعطني فرصة للإستفسار إذ انطلقت تروي ما جرى:

- حين كنت عندك مساء أمس جاءني اتصال منه كما تعرف. لكن ما إن خرجت من عندك وقبل أن أصل إلى سيارتي جاءتي إتصال من صديقتي التي حدثتك عنها. وحين تواصلتُ معها في تلك اللحظة حتى قالت لي منبهة بأن عليّ الحذر فإن هذا الرجل بحكم سلطته ونفوذه جنّد من يتبعني خطوة بخطوة، وإنني لا أستطيع أن أميز من يتبعني لأني لا أعرفهم. ليس هذا فحسب، بل الطامة الكبرى هي أن زوجته عرفت بتعلقه بي وملاحقتي فنشبت بينهما مشادة مدوية، وإنها من غيرتها عليه كانت تتلصص على المنتدى، زرعت شخصًا، شويعرة تريد من خلال علاقتها بزوجة الرجل أن تكسب مكانًا ومنصبًا معينًا، وهذه الشويعرة نقلت لها اهتمامه بك وقضاء الاستراحة في لقاءات المنتدى بالحديث معي.. وهي لن تسكت وستلاحقني وستفضحني.

فقاطعتُها قلقًا وسألت:

- ما علاقتي أنا بكل هذا؟ ومن أين يعرفونني؟ ولماذا عليّ أن أكون حذرًا؟

- إصبر..سآتيك بالحكاية. صديقتي عرفتْ كل هذا من أحد الذين جنّدهم هذا الرجل لمتابعتي..! فهو ابن عمها ورأى صورتي مع ابنة عمه في صفحتنا الفيسبوكية، لذلك حينما كلّفه ذلك الرجل، هو مع لآخرين، فقد أعطاهم نسخة مسحوبة من صورتي الفيسبوكية. ومن هنا فقد أبلغها بكل ما لديه من معلومات بما في ذلك إحتجاج الزوجة وسعيها للإنتقام مني.. لكن فيما يخصك، فالأمر هو إني

حين اتفقت معه للذهاب إليه في شقته ثم رفضت ذلك وزرتك مساء أمس فقد كنت مراقبة من قبل أعوانه، ويبدو إنهم رأوني وأنا أوقف سيارتي وأدخل بيتك.. وبالتأكيد من خلال علاقاته الواسعة جدًا ونفوذه فقد عرف من أنت..! وبعد أن خرجت من عندك مساء البارحة واستلمت الاتصال من صديقتي اتفقت أن أذهب إليها. ومن عندها اتفقنا أن تتصل صديقتي بابن عمها لتستفسر منه ما استجد من أمور..! وفوجئنا بأن هذا الرجل المتهور عرف بأنك تحمل جنسية أجنبية، ولقبًا أجنبيًا، فقرر أن يختطفك..! ويطلب من النمسا مبلغًا كفدية لك..! لذلك انتبه رجاءً..!

حين توقفتْ عن سرد الوقائع انتبهت إلى أنني قد تبللت بالعرق بالبارد. وشعرتُ بتقلصات في أحشائي وركضت إلى الحمام، وقعدت على قاعدة المرحاض، وبدأ الإسهال..!

لا أستطيع وصف تلك المشاعر في ذلك الفجر المريب. أحسست بتفاهة الإنسان بايولوجيا، وتفاهته ولا قيمته في هذه البلاد التي تحكمها أحزاب إسلامية من كل الطوائف. ولم أعد أعرف ماذا أفعل. لا سيما وأن حواء المريخي كانت هي في حالة رعب من زوجة الرجل المسؤول، فقد عرفتْ أن زوجته ستشن حملة تشهير ضدها وستوصل الأمر إلى زوجها وتهدم حياتها الزوجية.

شعرتُ بتقلصات وألم والتشنج في منطقة الصدر، وخدر انتشر على كتفي وذراعي وظهري، وأخذتْ أسناني وفكاي يصطكان، وبالكاد كنت أتنفس، فثمة خفقان سريع في قلبي وتشنجات في كفي اليمنى. وعرق بارد وكثيف يبلل جبيني وظهري، وحالة قريبة من انخراط القلب والإغماء تنتابني. عرفتُ من معلوماتي الطبية العامة إنها ربما حالة أقرب من النوبة القلبية. وغبتُ في غيبوبة. وحين أفقت وجدت نفسي مبتلًا بعرقي البارد.

هل أنا جبان بحيث إن خبرًا مثل هذا يدفعني إلى إغماءة، وإلى ما يشبه النوبة القلبية؟ لا أعرف..! فقد قررت أن أترك كل شيء، وأغادر البلاد لأعود إلى النمسا، هناك حيث الإنسان أثمن قيمة في الوجود، وحيث جمال الطبيعة، وحيث الموسيقى والفن، والمعارض والحياة الكريمة الهادئة.. وسألت نفسي مؤنبًا: „ما الذي أتى بك إلى هذا الجحيم..؟".

ولا شعوريًا تذكرت حياتي السابقة منذ ظهوري من اللا مكان في البستان قرب العربيد الملتف على شجرة التين، وكذلك سنواتي التي قضيتها مع حواء الحوراء والقطط التسع الحكيمة، وكذا سنواتي في النمسا وسياحتي في بلدان أوروبا، وزواجي، وسفرتي الغامضة إلى بغداد..!

لكن فجأة انبثقت في ذهني صورة آدم الشائع، رجل المهمات المستحيلة. لكن كيف لي أن أتصل به في مثل هذا الوقت من الفجر. قلت لنفسي: «سوف اتصل به نهارًا وأخبره بما جرى وبما قررته من مغادرة البلاد».

لم أستطع العودة إلى النوم من شدة القلق، فذهبت إلى الصالة. جلست هناك لا أعرف ماذا افعل. كنت متضايقًا جدًا من عبثية ما حصل.

ولكي أُشغل نفسي وأنفق الوقتَ إلى أن يطلع النهار كي اتصل بصديقي آدم الشائع توجهت إلى المطبخ وأعددت لنفسي فطورًا من البيض المخفوق مع الطماطم والفلفل الأخضر كما أعددت الشاي الثقيل، علمًا بأنني لم أكن جائعًا وإنما أردت إنفاق الوقت والتخلص من القلق الذي يهيمن عليّ بالإنشغال بشيء ما.

حملتُ ما أعددته في صينية وتوجهت إلى الصالة وجلست حول الطاولة التي جلست البارحة حولها مع حواء المريخي. صببت الشاي في كوب كبير وأضفت ملعقتان من السكر وأخذت أذوّب السكر في الكوب بملعقتي.. ولا أعرف كم استغرقت من وقت وأنا أدير الملعقة في الكوب..!

كنت أفكر بأن ما ينتابني ربما هي مجرد أوهام، تذكرت أن أحدَ المفكرين، وأعتقد إنه الإنكليزي جون لوك، يسميها أوهام الكهف... نعم الكهف الذاتي، حيث يعيش كل إنسان في كهفه بعيدًا عن ضوء الطبيعة، إذ لكل منا كهفه..! ومن ناحية أخرى سألت نفسي: «إلى أي حد يمكننا أن نرى الواقع كما هو..؟ ففي الحقيقة نحن نرى ما نود أن نراه من الواقع..! وكل منا يرى الصورة الرمزية التي شكّلها عن الواقع، عن العالم المستقل عنّا..!

كنت أنظر إلى الساعة..كانت قد تجازت الخامسة وتسع دقائق حينما رنّ جرس الباب. فززتُ وشعرت بالخوف. من تراه يضغط الجرس عليّ في مثل هذا الوقت.

خرجتُ من البيت. نظرت من عند الباحة إلى الباب الرئيسي. لم اتبين أحدًا عند الباب. توجهت للباب. وما إن فتحته حتى اندفع ثلاثة رجال ملثمين وبيد كل منهم مسدسًا كاتمًا للصوت.

صُدمتُ. بل وجدت جسدي متشنجًا ولم أستطع النطق أو أن أهرب، بل رفعت ذراعي كما في حالة الاستسلام في أفلام الكابوي. لم ينطقوا بأية كلمة، وإنما أشاروا إلى أن أرجع إلى داخل البيت. لم أستطع التحرك، بل تجمّدت في مكاني. أدركوا إنني تشنجت من الخوف، فمسك إثنان منهم بذراعي وساقوني ثلاثتهم إلى داخل البيت. وهناك في الصالة سحبوا كرسيًا من حول المائدة وأجلسوني عليه.

شدوا وثاقي بشريط لاصق عريض كانوا يحملونه، توجه إثنان منهم إلى تفتيش البيت وغرفة النوم، بينما بقى الثالث شاهرًا مسدسه في وجهي.

لم تمضِ سوى دقائق حتى أحسست بالتشنج في كل جسدي، وتصفد العرق البارد من جبيني، وألم كالنار يجتاح صدري. فصاح الرجل الثالث على زميليه: «الحقوا.. إنه يموت».

***

حين أفقت وجدت نفسي متمددًا على الصوفا، وعلى المقعد المقابل كان صديقي الغامض آدم الشائع جالسًا وهو يحدّق بي مبتسمًا.

لم يكن هناك من أثر الخاطفين. أخذت أتلفت في الصالة وكأني أفتش عن الخاطفين الثلاثة، وفكرت للحظة ربما كل ما كان هو مجرد كابوس. إلّا إن صديقي الغامض أكد لي بأن الأمر لم يكن كابوسًا قط، حين قال:

- أتبحث عن الخاطفين؟

نظرت إليه بتعجب، وسألت:

- كيف عرفتْ؟

- جاءتْ فجر هذا اليوم امرأة جميلة إلى فندق „باب السماء" وطلبت مقابلتي.

وحين وصلت الاستعلامات رأيتها تنتظرني في اللوبي الصغير الذي هو أشبه بباحة الفندق. قدّمت نفسها بأنها حواء الحوراء، أختك، وأخبرتني بأن موعد وصولك إلى الفندق هو فجر هذا اليوم، لكنك تأخرت، ولا أعرف كيف انتبهت إلى إني صديقك، لكنها طلبت مني بأن آتيك إلى هنا، كي آخذك معي إلى فندق „باب السماء“، حيث ستلتقيك هي هناك..

فوجئتُ بسماع ذلك، وبأن حواء الحوراء تنتظرني، إذن حان موعد اللقاء!!، لكني أردت معرفة حقيقة الأحداث التي جرت لي فجر هذا اليوم، فسألته:

- أكنتُ في كابوس أم كل ما جرى كان حقيقة؟

- نعم.. كان حقيقة..؟

- وأين هم؟.. وكيف جئتَ أنت إلى هنا؟ من فتح لك الباب؟

ابتسم آدم الشائع لي بطيبة، وقال موضحًا:

- كانوا هنا.. جاءوا لاختطافك بناء على رغبة الرجل المسؤول المهووس بتلميذتك السابقة حواء المريخي.. كان يحاول أن يتخلص منك لشكه بأنك عشيق حواء المريخي لأنها كانت عندك مساء البارحة، ومن جهة أخرى أراد اختطافك كي يبتز السفارة النمساوية هنا من أجل إطلاق سراحك مقابل مبلغ محترم..!

- لكني لست عشيق حواء المريخي.. ثم حتى لو كنت! أيتطلب ذلك الانتقام مني..؟

- إنه إنسان حقود وجمرة الحقد تتقد من خلال الحسد والغيرة وشعور المنافسة..!

- وعلى ماذا يحسدني؟

- على ميّل حواء المريخي إليك.. فالحسد يأتي من العجز الذي واجهه هو من أجل نيل المرأة التي اشتهاها، بينما هي تذهب لرجل آخر لم يبذل جهدًا لنيلها..! ومن هنا تأتي الغيرة منك..

- لكنها ليست عشيقتي.. وهي لم تأت إليّ لأنها تريديني أو تميل إليّ وإنما لتشكو لي وضعها معه.. امرأة مهووسة بهاجس الطهرانية على الرغم من تأجج شهوتها ووعيها بأنها على وشك السقوط..!

صمّتُ للحظات فواصل هو مبتسمًا:

- لكنك فوّتت الفرصة عليهم..!

- كيف..؟

- لأنك متّ..! تعرضتَ لنوبة قلبية فهربوا..!

لم استوعب كلامه في بداية الأمر فسألت مستغربًا:

- هل تقصد إنني ميت؟

- نعم..

- كيف ذلك وأنا أتحدث معك؟

- هذه ليست بمشكلة كبرى فأنا ميت مثلك أيضًا ومقيم في فندق ,,باب السماء".

- ماذا؟ فندق ,,باب السماء"؟ لقد سألتك عنه فقلت لي بأنك لا تعرفه..!

- نعم لأنك كنت حيًا وهو فندق للأنفس الميتة..!

- لكنك كنت معي في الطائرة التي انطلقت من النمسا متوجهة إلى هنا؟ كيف للموتى أن يسافروا ويتنقلوا بالطائرات..

ابتسم بحزن وقال:

- لي قصة حزينة هناك.. لدي طفلة صغيرة هناك..

- لديك طفلة هناك؟ كيف؟ لماذا هي ليست معك..؟

- هذه قصة طويلة سأرويها لك حينما نكون في الفندق، لكن يمكنني أن أروي فضولك ببعض رشفات من ماء الحكاية.. فأنا كنت ضابطًا عسكريًا في فترة النظام السابق وشاركت في جبهات القتال، ونِلت أنواط الشجاعة، وتكريمًا لي عُينت ضمن الملحقية العسكرية في سفارتنا بألمانيا.. وبعد سقوط النظام ومجيء النظام الإسلامي تم نقلي من برلين إلى الملحقية القنصلية في فيّنا. تزوجت متأخرًا من فتاة تعرفت عليها مصادفة في إحدى زياراتي إلى هنا. وهي تصغرني بربع قرن تقريبًا. أخذتها معي إلى فيّنا. طلبت مني أن أعيّن ابن خالتها في وظيفة ما في سفارة

بلادنا هناك.. وألحّت، إلى أن وجدت له وظيفة صغيرة ما في السفارة. لا سيما وإنه لم يكن جامعيًا وأنما أنهى الإعدادية فقط. وبحكم كونه ابن خالتها صار وجوده في بيتنا طبيعيًا. لكني انتبهت للنظرات المليئة بالألغاز بينهما، فراودني الشك ورجعت لوثائقه وركزت على اسم ونسب أمه، فلم أجد تقاربًا بين جدها من أمها وجده من أمه، فواجهتها ذات يوم بطريقة ما، فارتبكت لكنها كانت ذكية، إذ قالت إن أمها وأمه لا يشتركان في الأب وإنما هما أختان عن طريق الأم.. لكن إجابتها لم تزدني إلا شكًا، فوضعت من دون أن تدري كاميرات سرية في الصالون وغرفة النوم، والمطبخ وصرت أتغيب عن البيت كي يشعرا بالأمان وأرى ما يجري وهالني ما رأيت..!

- ماذا رأيت؟ سألت بفضول ناسيًا حقيقة موتي!

- لم أرَ فيلما بورنوغرافيًا خليعًا إباحيًا في حياتي مثلما رأيته يجري بينهما..! هذه الزوجة التي حين تعرفت عليها كانت محجبة ومتزمتة في سلوكها، بل وسبب تعارفي معها إنها تعرضت لتحرش من شاب بعمرها بطريقة وقحة أحرجتها، وكنت منتبهًا لما يجري فتدخلت بطريقة أدهشتها، إذا اقتربت منها وسألتها أين اختفتْ وأنا أبحث عنها، الشاب المتحرش حين رآني أتحدث معها بهذه الطريقة اختفى بسرعة. هي ظلت مندهشة وفكرت مع نفسها بأني اشتبهتُ بها، فاعتذرتُ منها وقلت لها بأنني كنت أراقب كيف كان الشاب يتحرش بها فأردتُ إنقاذها.. ابتسمتْ لي، ثم دعوتها إلى فنجان قهوة.. ترددتْ أول الأمر ثم وافقت.. وحين جلسنا أخذت تلقي علي محاضرة في الشرف والعفة والأخلاق. وتطورت علاقتنا، وعرفتني على أهلها. هي وأمها وأختها المتزوجة. وخطبتها بسرعة وعقدت القران وصدّقت أوراق الزواج في الخارجية ومن ثم السفارة النمساوية. ورجعت إلى النمسا على أن تأتيني هي بعد أن تحصل على التأشيرة..! وهذا ما حصل... فوجئت بها في أول ليلة لنا بأنها ليست جاهلة في أمور الجنس، وحين قلت لها مازحًا بأنها جريئة في الجنس قالت إن أختها علمتها كيف عليها أن تسعد زوجها..! وماذا يحب الرجال في الفراش؟.. وانطلى عليّ ذلك.. والغريب في الأمر إنني أردت أن آتي بأمها لتعيش معنا لكنها رفضت وقالت أفضل لأمها أن تبقى هناك قريبة من الأضرحة المقدسة ومن أختها. لكنها بعد فترة ألحّت بأن أجد عملًا لابن خالتها الذي لم اعرف عنه شيئًا سابقًا.. المهم..

قاطعته وأنا أتخيل جاري الأثيوبي الذي كنت أرى زوجته تُدخل رجالًا مريبين إلى شقتها اثناء غيابه.. وسألت صديقي:

- وماذا فعلتَ..؟

- لا شيء.. كنت أرى مشاهد غريبة عليّ.. معي كانت ترفض بعض الأوضاع والممارسات بحجة أنها لم تتعود ذلك بل وتستحرمه، بينما كانت معه تفعل الأعاجيب، بل تتوسل عشيقها أن يفعل بها ما كانت ترفضه معي..! وكانت تعطيه مالًا كثيرًا واسمعهما يسخران مني..!

- لكن كيف صبرت..؟ لِمَ لم تطلقها وترجعها إلى مدينتها..!؟

- أردت ذلك.. لكنها فجأة أعلنت بأنها حامل..!

- أف..

- نعم.. ولقد تعذبت تسعة أشهر لأني كنت لا أعرف نسب هذا الجنين لمن؟ لي أم لعشيقها الذي دفعتني بأن أوظفه في النمسا بحجة أنه ابن خالتها والذي تيقنتُ بأنه كان حبيبها وعشيقها قبل أن اتعرف بها..! وسمعتها من خلال الكاميرا الخفية تطلب منه ممارسات وأوضاع معينة مذكرة إياه بأيام زمان حين كانت عذراء وكانا يمارسانها..! كنت انتظر أن يأتي الطفل وبعد ذلك أجري عليه تحليلا الدي إن أي DNA.. وحدث أن ولدت طفلة جميلة أحببتها مع شكي في أبوتي لها.. وحدث ذات مرة إن سمعتهما يتهامسان ثم يأخذان صورة جماعية لهما مع الطفلة.. فخمّنت من إنها أخبرته بأنها طفلته.. لكن ماذا كان يخططان؟ لا أعرف..

وفي مرة من المرات كنت مضطرًا للسفر المهني..وكانت قبل أن أذهب للمطار قد اسقتني عصير برتقال، لم انتبه لما فيه..المهم..في الطائرة شعرت بالاختناق وبالتعرق وخفقان القلب السريع.. وحين وصلت الى هنا لم اتوجه إلى بيت أمها وإنما طلبت من سائق التاكسي أن يأخذني إلى أي فندق في مثل هذا الوقت المتأخر.. فأخذني إلى فندق „باب السماء" .. وفي اليوم التالي جاءت المنظفة لتراني ميتًا بعد ذلك صحوتُ من موتي...ومضت الأشهر..تزوجها هي المدعو ابن خالتها، واحترامًا لي لم ينهوا خدماته الفائضة في السفارة. وهكذا صرت اذهب كل فترة إلى فيّنا لأزور الطفلة وأرجع.. وأظهر في المطارات والطائرات.

- حزينة قصتك صديقي.. مثل أشجار المقبرة في الليل!

- المهم.. دعنا من كل هذا.. الموتى لا يحزنون.. وأهلًا وسهلًا بك في فندق „باب السماء”..

حكايته ساعدتني بأن أتذكر ما جرى فعلًا لا سيما أحداث البارحة، فتذكرت أن نوبة قلبية انتابتني ومتّ. وها أنا أصحو. وساعدني صديقي آدم الشائع في استيعاب حقيقة موتي وعودتي إلى الحياة كميت..!

قال لي بأنه لم يعد لي مقام في هذا البيت وأن عليّ السكن في فندق „باب السماء”. فقلت له إن عليّ أن أترك شيئًا لتلميذتي حواء المريخي. فسألني عنه فقلت له دفترًا أسود أبين فيه كل ما جرى حتى هذه اللحظة، وأتركه هنا، على هذه الطاولة، وفيه دونت الكثير عن سيرتي سوى ما جرى منذ البارحة إلى الآن. فقال لي: „قم وأكتب ولنذهب بعد ذلك إلى فندق „باب السماء”.. وهذا ما فعلت.

(٢)
وقائع حياة يومية عادية..عادية جدًا

حواء المريخي.. حواء الزاهي..
في مقام الكذب والخديعة

أنا لست أنا..لست حواء المريخي..هذا اسمي المستعار الجديد مع أنه اسمي الحقيقي الموجود في الوثائق الرسمية. هو اسم مزيف ككل شيء مزيف في بلادي. فموظف بسيط في دائرة الجنسية بقليل من المال يمنح أي شخص هوية باسم آخر ويدخل الاسم الرسمي في السجلات الرسمية لو أراد. بل بإمكانك أن تستحصل شهادة ميلاد جديدة بدفع رشوة لموظف، أو تستحصل شهادة وفاة وتحملها بنفسك إلى المحاكم تؤكد إنك ميت ولا أحد يسألك من أنت..! كيف تكون ميتًا في الحياة... هنا كل شيء مزيف وقابل للبيع والشراء.

أن تكون نائبًا في مجلس النواب أمر قابل للبيع والشراء. أن تكون وزيرًا يمكنك أن تشتري ذلك من خلال قيادة حزبك. القضاء يباع ويشترى، فيمكنك أن تدين أي شخص وتبرئ أي شخص بالمال.

حين تعرفتُ على الدكتور النمساوي من أصل عراقي آدم كلاين كنت حواء المريخي، وما زال اسمي حواء المريخي، لكني لست حواء المريخي، أنا حواء الزاهي.

قصتي لو بُحت بها ربما ستدينني أكثر ما تشفع لي. لكني تعبتُ من الزيف. أحس إنني في غابة، بل الغابة فيها هواء نقي ومناظر خلابة وأشجار باسقة وغصون خضراء، لذا الأصح أن أقول إنني في مستنقع. روائحه النتنة لا أجد في قواميس اللغة كلمة تعبر عن نتانتها وجيفتها.

الكذب صار هوية هذا المجتمع..الكل يكذب. السلطات الثلاث تكذب. النواب يكذبون. الوزراء يكذبون. زملاء العمل يكذبون. المثقفون أساتذة الكذب. رجال الدين يكذبون. الصحف تكذب والفضائيات تكذب.. الإذاعات تكذب. أساتذة الجامعات يكذبون.. والمناهج الدراسية تكذب.

النساء يكذبن وكذلك الرجال يكذبون، الأطفال يكذبون، الأجداد يكذبون والجدات أيضًا. البائع يكذب، والمشتري يكذب أيضًا. القاتل يكذب، بل حتى المقتول يكذب، الكل يكذب.. كذب.. كذب.. كذب..! الكل يخدع بلا حياء، يكذب بلا حياء. وإذا أردت أن تكون في منجىً من الكذب فعليك العزلة أو الصمت أو أن تكون أبكمًا..!

لا. لا. حتى الأبكم يكذب حين يهز رأسه موافقًا على الأكاذيب التي يسمعها..! الكذب صار فضيلة أخلاقية في هذا المجتمع، ومَن لا يكذب فهو مارق وخارج عن الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس.

وعي الناس للكذب جعلهم لا يصدقون بعضهم البعض أبدًا، لأن الكل يعرف بأن الجميع يكذب، فلا يمكن أن تثق بشيء أبدًا. وحين أقول ذلك فأني اعترف بأنني أكذب أيضًا، وكذّبت كثيرًا وكثيرا، وعشت حياة مليئة بالأكاذيب. بل وصلت الحد حيث صرتُ أكذب على نفسي، أكذب على مشاعري، أعيش مشاعر معينة ورغبات معينة لكني أكذّبها وأكذّب نفسي، وأستعين بأخلاق الكذب الاجتماعي وأتمسك بها. فأنا لستُ أنا.

أنا لست حواء المريخي وإنما أنا حواء الزاهي، بل لدي اسم آخر ووثائق رسمية أخرى استحصلتها بالرشوة، بل إن لرشوة صارت قانونًا فحتي الوثائق التي استحصلتها باسمي الحقيقي دفعتُ رشوة كي أحصل عليها... ربما هنا عليّ أن أتتبع الصوفي النفري وأقول: أوقفني في موقف الكذب وقال لي: الكذب حقيقتك أيها الإنسان.

سأروي حكايتي، وسأسعى أن أقلّص ما أستطيع فيها من الأكاذيب.

كنت شابة في التاسعة عشر حين تعرفت على حبيبي آدم الأجرب. ومع أنه كان وسيمًا جدًا وهذا ما دفعني للتعلق به من النظرة الأولى، لكن لقبه الصادم، كان يسبب له قلقا وضيقًا نفسيًا. مع أني لم أتحسس أبدًا من لقبه هذا.

كنا في السنة الجامعية الأولى. ومع حبيبي آدم عرفت القبلة الأولى واللمسة الجسدية الأولى، وتجربة الجنس الأولى..بل ومعه تعرفت على عالم الفكر والفلسفة والسياسة. لكني كنت أشعر إنه متعصب عقائديًا لفكرته عن عالم العدالة المثالي وعن المجتمع الخالي من الطبقات، حيث الحب حر كالهواء واللذة متاحة كالماء.

المشكلة التي عانينا منها أنا وحبيبي هي إننا ننتمي لعوائل ميسورة جدًا لا تعرف الفقر أبدًا. لكن هذه الأفكار الإنسانية الرومانسية كانت قد تلبّسته، وأنا من أجل أن أكون قريبه منه وأشاركه كل شيء، وجدت نفسي معتنقة تلك الأفكار المثالية، متحمسة لها كأفكار، كقصيدة عن العدالة الإنسانية، من دون أن أعرف وأجرب جوهر معاناة الفقر والجوع والاستغلال والعوز المادي.

كانت أوضاع البلاد المكتومة الأنفاس مخيفة. حياة الناس وبقائهم الجسدي متعلق بالشبهات عن ولائهم للقائد الضرورة وللحزب القائد. وبسبب رومانسيتنا الثورية جازفنا في تلك الأوضاع الكابوسية الخطيرة بالانتماء لتنظيم ثوري سري. والحقيقة لم ننتمِ للحزب الشيوعي، وإنما لتنظيم ثوري يساري، أسسه بعض الشيوعيين الذين لم يقبلوا بتحالف الحزب مع حزب السلطة قبل سنوات، وإنهم لإيمانهم بتلك الأفكار يقبلوا بالتنكيل الذي جرى للحزب ومنظماته وأعضائه، لكنهم لم يرغبوا بالنشاط باسم الحزب فاختاروا اسم „صوت القاع"..! ولم أفهم كيف لتنظيم ثوري يختار اسمًا أقرب للأدب منه إلى السياسة والثورة، لكنهم برروا ذلك بأن الاسم يشي فعلًا بالأدب وليس بالسياسة وهذا يقيهم شر الشبهات المميتة..!

والحقيقة كانت لقاءاتنا الأولى ثلاثية. أنا وحبيبي آدم الأجرب وشخص ثالث هو المسؤول الموجِّه لنا. وكان يعدنا دائمًا بإلتحاق اشخاص آخرين معنا حيث ستتوسع حلقتنا، لكن لم يلتحق بنا أحد.

كان مسؤول حلقتنا الصغيرة كبيرًا في السن قياسًا لنا، فأنا في الثانية والعشرين وحبيبي في الثالثة والعشرين بينما كان هو على مشارف الستين. وقد تعرفنا عليه، حبيبي وأنا، مصادفة حينما كنّا في إحدى مكتبات المدينة نتصفح الكتب الأدبية، فانتبهنا لرجل أبيض الشعر مرصوص البنيان وسيم الوجه ولديه

نظرة مثيرة غامضة، يقف هناك ويتصفح الكتب أيضًا. ولا أدري أي كتاب تناول حبيبي حينما انتبه إلى أن الرجل الآخر اجتاحه الفضول لمعرفة أي كتاب يتصفح. وحينما انتبه لعنوان الكتاب، اقترب منه وبيده رواية لكاتب روسـي، وبتلقائية وسلاسة وكأنه يعرفه، اقترح عليه تلك الرواية.

ارتبك حبيبي لكنه رحب بالإقتراح، وأخذا يتبادلان الكلام، ثم عرّفني حبيبي بالرجل الوسيم، وأذكر إنني كنت قد اخترت رواية لليف تولستوي، فذهب هو للحظات وجاء برواية أخرى للكاتب نفسه واقترح أن أقرأها أيضا. وصار بيننا بعض الاستلطاف.

أخذنا الكتب وتوجهنا إلى حيث قسم الدفع، وفي تلك اللحظات، اصطف هو إلى جانبنا وبيده مجموعة شعرية مترجمة أذكر عنوانها إلى الآن : ,,إلزا وعيون إلزا". فانتبهت للمسة الرومانسية في شخصيته. وحدث إن خرجنا معًا من المكتبه فاقترب منا ودعانا إلى أن نشرب شايًا أو قهوة ونأكل الحلويات في محل مجاور. ولم نتردد في قبول الدعوة. وذلك اللقاء كان هو المدخل للقاءات أخرى متعددة صار تداول الأفكار فيها يتشعب إلى الفلسفة والسياسة. وما إن انتبه لرومانسيتنا الثورية حتى بدأ يحدثنا في الشكل الواقعي لتجسيد أفكارنا. وهكذا، وبعد أن وثق بنا وبأفكارنا بعد ثلاثة أشهر من اللقاء شبه اليومية فاتحنا بأمر التنظيم، على أن تكون حلقتنا مكونة منّا نحن الثلاثة إلى أن يلتحق بنا آخرون.

كانت هذه اللقاءات مدخلًا لعالم جديد من الأفكار الجديدة والفلسفات والأسماء. والحقيقة كانت هذه اللقاءات تكاد تكون أدبية صرفة، فقد كان حديثنا أشبه بلقاء بين أصدقاء يتحدثون عن الكتب التي قرأؤها وتحليلها والكشف عن مضامينها، ومعظم هذه الكتب كانت روايات ومجاميع شعر وأحيانًا كتب في علم الاجتماع والفلسفة.

لكن حدث خلال ذلك انقلاب في حياتي. فقد وجدتُ نفسي، لا إراديا، متعلقة بهذا الرجل الثالث، حتى إن حبيبي آدم الأجرب استشعر الغِيرة منه، وعلّق بشكل لئيم على ذلك، وقد نبهني تعليقه على ما أنا فيه، لكني بإخلاص شديد أقول إنني على الرغم من تعلقي بهذا الرجل لم ينتقص حبي ولو ذرة واحدة لحبيبي آدم الأجرب.

بيد أني إنسانة معقدة. ولا أعرف سببًا ذلك، فحين أكون مع حبيبي أكون بكل مشاعري الروحية والجسدية معه، لكن حين أرى الرجل الآخر أنسى نفسي، وأتمنى أن أكون حبيبته بل وعشيقته.

كنّا نلتقي أحيانًا في مقاهٍ ومطاعم راقية إبعادًا للشبهة. وذات لقاء في مطعم من الدرجة الأولى، وبينما ذهب حبيبي آدم إلى المرافق الصحية وبقينا وحدنا نظر الرجل إليّ بثبات وقال بأنه يريد أن يراني وحدي من دون حبيبي، لأن لديه ما يود أن يقوله لي على انفراد.

ومع كل رغبتي السابقة في أن أكون معه فقد خفت، وراودني شعور بأنني أخون حبيبي. لكن هذا الرجل لم يبالِ بردي أو حتى بموافقتي، وإنما حدد الموعد والمكان، ولم أستطع أن أرفض أو أجيب حتى بالموافقة لأن حبيبي كان قد وصل طاولتنا.

حين صرت وحدي في غرفتي استرجعت كل شيء. أخذتُ أسخر من نفسي ومن إدعائاتنا، فيالنا من ثوريين بينما اجتماعاتنا في المطاعم الراقية التي نذهب إليها بالسيارات الفارهة! وما مضمون هذه الاجتماعات الثورية وهي مجرد أحاديث واستعراض معلومات وتثاقف فيما بيننا نتادولها ونحن نلتهم أطيب الطعام ونلتهم ألذ الحلوى!

هل تصدقوني بأننا، أنا وحبيبي الأجرب، لا نعرف شيئًا عن هذا الرجل المجهول. بل كلما تواصلنا أكثر كلما إزدادت شكوكنا به، وإزاد غموضه بالنسبة إلينا، لا سيما وهو لا يهاب شيئًا ويتحدث من دونما حذر أو احتراز..! ومع ذلك رغبتي الخاصة فيه تزداد لقاء بعد لقاء.

لم أخبر حبيبي بما طلبه الرجل الغامض من لقاء منفرد معه. لكني ذهبت.

كان ينتظرني قرب مبنى المعارض الدولية بسيارته. قبلها كان قد طلب مني بأن أجيء بسيارة أجرة وسينتظرني هو بسيارته هناك. وهذا ما جرى. لحظتها استغربت لأنه كان يأتي اللقاءات بيننا بسيارة أجرة، وأحيانًا كان حبيبي يوصله بسيارته. لكن الآن جاء بسيارته.

كنت مكتظة بمشاعر وأسئلة مختلفة، فمثلًا: „لماذا أراد الانفراد بي، هل لأنه يحبني؟ هل لديه مهمة يود أن يكلفني بها؟ هل أنا مميزة لديه؟ هل هناك أمر شخصي يود أن يحدثني به؟ ولماذا عادة يأتي بسيارة اجرة بينما الآن جاء بسيارته؟ ألا يثق بحبيبي آدم الأجرب؟".. وهكذا.

حين صعدت إلى سيارته راودني شعور غير مريح بأني أخون حبيبي آدم، فهذه أول مرة أخرج مع رجل آخر منذ سنين ومن دون مشاركته أو علمه. ولا أعرف لماذا راودني شك بأن كل قصة التنظيم الثوري ما هي إلا خدعة غامضة، وان ظهور هذا الشخص في حياتنا أبعد ما يكون من قضية فكرية وتنظيم ثوري.

سار بي نحو إحدى الساحات المعروفة في العاصمة ومنها التفّ متجها إلى أحد الأحياء القريبة. وفي فرع ما التف ودخل عبر بوابة بيت مفتوح إلى مرآب سيارت مظلم.

دخل بسيارته في المرآب وظل يسير لفترة ليست بالقصيرة في طريق مظلم وكأننا نسير في نفق، إلى أن لاح ضوء بعيد في نهاية هذا الدرب المظلم، وحينما خرجنا إلى النور انتبهت إلى إننا نسير في درب مُعبَّد مظلل بالأشجار، درب طويل لا نرى نهاية له.

كان هو طوال الوقت صامتًا، أحيانًا يلتفت إليّ ويمنحني ابتسامة لطيفة مغرية تخفف عني مخاوفي وهواجسي، أحيانا قليلة يمسك كفي ليمنحني شيئًا من الدفء والحنان والاهتمام، لكني لم أكن استجيب. واستغربت من نفسي لأنني أيضًا لم أسأله إلى أين نتجه، سوى مرة واحدة، فكانت إجابته: „ستعرفين ذلك بعد قليل".. إلى أن لاح في الأفق بيت منفرد يشبه البيوت الأمريكية الطراز بأعمدته البيض في مدخل.

توقفتْ السيارة. بدا أن البيت خالٍ من أي ساكن. نزلنا من السيارة. وقادني إلى داخل المنزل الذي كان مفاتحه لديه.

جلسنا في الصالة الأنيقة جدًا على صوفا من الجلد الأبيض. وكان في الصالة آلة بيانو من الخشب الأسود، ولوحات لنساء عاريات يقفن على قوقعة محارة أو على زبد البحر.

تحرك هو في البيت بحرية وتلقائية كاملة كمّن أعتاد المكان وينتمي إليه. عاد

بعد قليل بصينية عليها قنينة نبيذ وقدحان. جلس أمامي وسكب في القدحين كمية من النبيذ. رفعهما متأملًا لون النبيذ، ثم مد لي بأحد الكأسين.. وقال لي: "في صحتك".. وارتشف رشفة كبيرة، بينما ارتشفت أنا جرعة صغيرة جدًا. انتبه لي وقال معلقًا:

- اشربي.. خذي رشفة كبيرة لتسترخي..!

وفعلًا ارتشفت رشفة كبيرة كادت تفرغ كأسي. أحسست بالدفء يسري في جسدي وخديّ. لاحظ هو ذلك، ابتسم ثم قال:

- من المؤكد إنك مستغربة لماذا أردت أن نلتقي من دون آدم..؟ وأين نحن الآن؟

- صح..

- سأخبرك لكن قبل ذلك عليكِ أن تعبي كاسًا آخر من النبيذ حتى آخره..!

ومن دون أن ينتظر جوابي صبَّ لي كمية كبيرة حتى امتلأ كأسي، وقال لي:

- اشربيه دفعة واحدة حتى آخر قطرة..!

ووجدت نفسي أنقاد لأوامره لا إراديًا. ارتشفت ما في كأسي حتى كدت أشرق به، لكني شعرت كأني أسمع سريان الدم في عروقي، وشعرتُ باسترخاء ونشوة أقرب للنعاس. لكن ما قاله صدمني بل صحاني من نشوتي القصيرة.. لقد بادرني بحديثه الصادم:

- أنتما ساذجان.. هل ظننتما إنكما ثوريان وتريدان تغيير العالم!؟ وإنكما في ظِل سلطة الحزب الثورة تستطيعان أن تنتميا لتنظيم تخريبيي..؟ هل تعرفيني من أنا؟

- أنت آدم المهنا.. هكذا قدمت لنا نفسك.. أليس كذلك؟

ابتسم برقّة وطيبة وركّز بعينيه الجميلتين للحظات في عينيّ، وقال:

- هذا صحيح.. هذا هو اسمي لكني لست القائد الثوري الذي تظنينه..! أنا آدم المهنا نقيب في المخابرات، وعشيق أمك وقد طلبت مني أن أنقذك من هذا الأجرب المتهور والثوري الحالم الذي سيجرك إلى داهية..!

صُدمت. فقد نطق بأنه عشيق أمي بكل سهولة. أمي أنا السيدة المحترمة وأبي الرجل المسالم، الأستاذ الجامعي في كلية الإدارة والاقتصاد، والمثقف اليساري والذي انتمى للحزب القائد للحكم حفاظًا على نفسه وعلى عائلته..! والذي منه انتقلت الأفكار اليسارية والحالمة إليّ. لكن كيف يكون لأمي عشيق سري..!؟ هذا ما صدمي. لكنه أثناء ذلك ملأ لي كأسي، ومن دون أن يدفعني إلى شرب ما فيه أفرغتُ أنا الكأس، في رشفتين متتاليتين. بينما واصل هو:

- لا تستغربي ذلك. لقد تم اعتقال والدك قبل سنوات، من دون أن عِلم أحد، وأُجبر على توقيع تعهد بعدم ممارسة السياسة، وكنت أنا الضابط الذي حقق معه، كما أجبرناه على أن يتعاون معنا. أنت كنت صبية في طور المراهقة، وكنت ألتقي والدك ليس من باب الصداقة وإنما من باب السياسة فأنا من كان يرتبط بوالدك ليعرف عنه أخبار الجامعة والأساتذة.. والحق يقال إنه لم يؤذ أحدًا ولم يقدم أية معلومات عن أي استاذ معه. لكني خلال ذلك التقيت أمك وبدأت بيننا علاقة نَمَت إلى أن صارت عشيقتي، من حيث أن والدك بعد توقيعه التعهد أصيب بعجز جنسي وكأن ذلك التوقيع أعاقه نفسيا وجسديًا.

- أنا لا أصدق ما تقول..! قلت وأنا مصدومة.

ابتسم لي وقال بهدوء:

- هل هناك شخص يعرِّف بنفسه بأنه نقيب في المخابرات ويكشف عن قِنَاعه أمامك لو لم يكن الأمر كذلك؟

- ولماذا جئت بي إلى هنا؟ وما مهزلة التنظيم الثوري الذي أدعيته وأطلقت عليه اسم „صوت القاع" ..؟ وكل هذه اللقاءات المزيفة والحديث في الأدب..!؟

- هذه عدة الشغل..فنحن بحكم عملنا بين السياسيين، لا سيما طلبة الجامعة، علينا معرفة ما يقرأون من كتب.. ومن خلال محاضر الاجتماعات التي بحوزتنا لاجتماعات الشيوعيين، صارت لدينا معرفة بالأهواء وبالجمل التي يستخدمون والمواضيع التي يثيرون..!

- ولماذا اخترنا نحن ولم تعتقلنا مثلا .!؟ سألت بغضب مكتوم.

- قلت لكِ أنا عشيق أمك ..وهنا على هذه الصوفا ياما عشنا لحظات شغف جارف لكنها ذات مرة أخبرتني بأنها قلقة عليكِ لأنك على علاقة بشاب من عائلة ميسورة لكنه خطر ومتهور وأفكاره هدامة ممكن أن تؤدي بكِ إلى الإعدام.. وبصراحة حين رأيت صورتك تعلقتُ بك من النظرة الأولى..! لذا أخذت كافة المعلومات عنك وعن الأجرب وتتبعتكما لشهر كامل فعرفت أين تلتقيان وأين تقضيان وقتكما وعرفت أي المكتبات ترتادان بشكل دائم.. لذا اقتنصت الفرصة كي أصل إليكما ..!

انتبهت إلى أن النبيذ قد شلني ولم أكن أتصور أنه يفعل ذلك، فقال لي:

- لا تخافي.. وضعت في القنينة مادة منومة سترتاحين هنا ساعة ونعود ..!.

ووجدت نفسي شبه مخدرة. لم أنم كما هو متوقع وإنما كنت منتشية وشبه مخدرة، لكني أتذكر نفسي كيف أخذني من كفي، وساقني إلى غرفة نوم شبه خالية، يتوسطها سرير عريض، وكل جدرانها وسقفها مغطاة بالمرايا.

أتذكر كيف نزع ملابسي مثل طفلة صغيرة، ثم أخذ يتجرد عن ملابسه كمن يتهيأ بهدوء للسباحة على شاطئ هادئ. صعد إلى السرير. شعرت به يتلمس جسدي بيديه وينزلق في انحنائته برقة، ثم شعرت به يقبلني في كل زوايا جسدي.

كنت أرفض في عقلي المشوش لكن جسدي يرغب بذلك. وفجأة شعرت بوخزة ألم تخترقني وفيض من الحرارة واللذة تغمرني. كنت أعي بأنه فضني واخترق بكارتي التي كنت متشددة في الحفاظ عليها مع حبيبي آدم الأجرب. وها أنا أمنحها بشكل مجاني ورخيص لهذا الرجل الغامض..!

ومن دون أن أعرف كيف، رأيت صورة لامرأة تشبهني بالضبط، لكنها في ثوب أسود تنظر إلي نظرة جامدة. وحين التفتُ، بينما الرجل الغامض يلجني بقوة واندفاع، رأيت على الجدار الأيمن صورة لواحدة تشبهني أيضًا، فأدرت رأسي إلى اليسار، فرأيت صورة امرأة ثالثة تشبهني أيضًا، بل كل النساء الثلاث هن نسخ مني!

لم أقوَ على دفع الرجل الغامض عني إلى أن همد إلى جانبي لحاله بعد أن انتهى

مني مخلفًا في مهبلي سيلًا من الدم والمني.....أحسست بجيفة تنطلق من قاعي. نهضتُ راكضةً إلى غرفة الحمام المجاورة عند مدخل الغرفة وأخذت أتقيا في حوض المغسلة. ثم دخلت تحت دوش الماء لأتطهر من هذه النجاسة التي أشعر بها، بل أخذت رشاش الماء الحلزوني ودفعت به في مهبلي كي يغسل كل النجاسة فيه.

فجأة انقطعت الكهرباء وغرقت في الظلام. لم أعد قادرة على الرؤية. وبهدوء حاولت ألّا أقع. خرجت من الحمام ودخلت غرفة النوم باحثة عن ملابسي. أردتُ أن أرتدي ملابسي وأغادر هذا المكان مع أني لا أعرف أين أنا..!

المرايا تفقد قدرتها على احتواء صورتنا في الظلام. الظلام يمكنه أن يسكن المرايا. الظلام فضة سوداء. فجأة جاء التيار الكهربائي وأُضيئت الغرفة، ففوجئت أنني في دشداشة مرقَّطة وأن الغرفة ليست غرفة نوم وإنما هي زنزانة فيها أربعة أسرّة مركبة، على كل جانب سريران واحدهما فوق الآخر، وهناك ثلاث نساء كأنهن نسخ مني، يجلسن على ثلاثة أسرّة منها، وواحد فارغ أدركت إنه سريري..!

كنّ ينظرن إليّ باستغراب مثلما كنت أنا في صدمة من رؤيتهن! فقبل قليل ترآين لي لكنهن كن بملابس سود، الآن يلبسن دشداشات مرقطة مثلي، وكأنني أنا مستنسخة في أربعة أجساد..! وفي تلك اللحظة انتبهت إلى الرجل الغامض يأتي من الرواق خلفي ومعه امرأة غليظة الجسم والملامح. قال لها بنبرة آمرة:

- خذيها لغرفة التحقيق..!

قبل أن تسحبني المرأة من ذراعي أقفلت الباب على النساء الثلاث، ثم جرّتني بحركة عدوانية إلى حيث يفترض التحقيق.

وجدت نفسي في قاعة كبيرة وواسعة وطويلة بحيث بالكاد يمكن رؤية طرفها المقابل. أجلستني على كرسي خشبي قديم غير متماسك الأرجل، يكاد يتهشم وينهار تحتي.

لم أفهم شيئًا مما يجري. أين أنا؟ ومن هذا الرجل الغامض الذي جاء بي إلى هنا؟ أصحيح هو نقيب المخابرات الذي أعتقل أبي؟ لم أراد أن يوحي بأن أبي كان

مخبرًا وكان مكلّفًا بالوشاية على زملائه في الجامعة؟ ولم أخبرني بأنه عشيق أمي؟ أمي المرأة الفاضلة ذات الشخصية القوية والتي كانت تحاصرني بفضائلها وعفتها وإخلاصها لأبي، بينما اتضح أنها عشيقة نقيب في المخابرات قام باعتقال زوجها؟ بل وكلفته بمتابعة ابنتها، وحمايتها بينما هو بدلًا عن ذلك فض بكارتها؟ ولماذا أنا هنا أصلًا ما دام كل التنظيم كان وهمًا ولم يكن سوى لعبة لنقيب في المخابرات؟ ثم من هن هاتيك النساء اللاتي هن نسخة مني؟

نظرتُ إلى عمق القاعة في الجهة المقابلة لأرى من يجلس حول المائدة العريضة الطويلة التي بالكاد أراها فلم أجد أحدًا. نقيب المخابرات آدم المهنا والمرأة التي قادتني إلى هنا وأجلستني كمسمار على هذا الكرسي المتزعزع كانا قد غادرا. أنا هنا وحدي.

انتبهت إلى وجود فتحة مستطيلة على الجانب الأيمن من القاعة. بدت لي صغيرة بسبب بعد المسافة بين طرفي القاعة.وفجأة أحسست كأن للكرسي عجلات متحركة تمشي للأمام وتقربني من المنصة المقابلة.

كلما اقتربتُ أتضح المشهد أكثر، إذ بدا لي أن حول الطاولة الطويلة والكبيرة قرب الجدار المقابل ثلاث نساء، وحين صرت على بعد أمتار عرفت إن النساء الثلاث هن النساء اللاتي كن في الزنزانة معي، شبيهاتي ونسخي، لكنهن الآن بثياب قضاة أنيقة.

صِرت على بعد متر من طاولتهن فانتبهت لوجود ثلاثة رجال يجلسون على الكراسي خلف كراسي النساء بالضبط، بصورة دقيقة حتى من ينظر لأية امرأة منهن لا يرى من خلفها إلا إذا تحركت ومالت عن موضعها قليلًا. لكن الغريب أن هؤلاء الرجال هم نُسَخ من الرجل الغامض آدم المهنا أيضًا.

سألتني المرأة الأولى التي في الوسط:

- من أنت؟

- أنا حواء الزاهي..

ابتسمت ابتسامة غامضة وتلفتت إلى المرآتين على جانبيها وقالت لي:

- أنا حواء الزاهي..؟ فمن منّا حواء الزاهي الحقيقية أنا أم أنت؟

ارتبكتُ وقلت لها:

- الذي أعرفه إنني حواء الزاهي ابنة الدكتور آدم الزاهي..

ابتسمت ونظرت باستغراب لي ثم نظرت باستفهام إلى المرآتين، والتفت إليّ ثانية وهي تقول:

- أبي أيضًا هو الأستاذ الجامعي آدم الزاهي، وقد تم اعتقاله من قبل أحد الخنازير الموجدين خلفنا بسبب أفكاره اليسارية إلى أن مات بحسرته..! أنت نسخة مني! لكن مع ذلك لستِ حواء الزاهي وإنما أنتِ حواء المريخي..!

التفتتْ المرأة التي على اليسار للمرأة التي ادّعت إنها حواء الزاهي وقالت لها معترضة:

- لكني أنا حواء المريخي..!

فقالت لها وهي تنقل النظرات بيني وبين تلك المرأة على اليسار وقالت:

- هي أيضًا ستكون حواء المريخي وستتورط في علاقة مع أستاذ جامعي سيصل من النمسا.. وبسببها سيموت ربيب حواء الحوراء المدعو آدم الرهوان أو آدم كلاين..!

***

فززتُ على جملتها الأخيرة عن موت الدكتور آدم كلاين. كنت أشعر بصداع قوي لقلة النوم. نظرتُ إلى هاتفي النقال فانتبهت لوصول رسالة، فتحتها، فقرأت:

„ ستبقين لي..عشيقك الجبان مات من الخوف..انتابته ذبحة صدرية..أنا قدرك..لقد ترك لك دفتر مذكراته.. الدفتر في الشقة يمكنك الحصول على الدفتر لو قابلتيني في الشقة نفسها.. سأنتظرك.".

مرّ ذلك النهار ثقيلًا. كنت مذهولة بالرؤيا التي حلمتُ بها..! من هو آدم الأجرب

الذي في الحلم كان حبيبي؟ ومن هو الرجل الغامض، نقيب المخابرات المدعو آدم المهنا؟ ومن هُنّ النساء اللاتي يشبهنني؟ وما تفسير تلك الرؤيا؟

وصلتني منه أكثر من رسالة كلها تأكيد على الموعد ومكانه. اتصلتُ بصديقتي وشرحت لها كل شيء فاتصلت هي بصديقها وابن عمها البصّاص، فروى لها ما جرى وقال لها إن مفتاح الشقة لديه..! فطلبتْ منه أن يأتي بالدفتر الأسود الذي تركه الدكتور آدم كلاين..! وعدها بذلك مؤكدًا على سرية ما سيقوم به وخطورته، لكنه تراجع عن رأيه بل طلب منها أن ترافقه، فهو يخاف دخول شقة فيها جثة.!؟ وتحت ضغط إلحاحه وإلحاحي وافقت لأنها تعرف أن ذهابها معه إلى الشقة لن تخرج منه بلا خسائر جسدية..

وقبل موعد اللقاء مع الرجل الغاوي بنصف ساعة كان الدفتر الأسود الذي تركه الدكتور كلاين بين يدي، لكن العجب العجاب هو أنهما لم يجدا جثة في الشقة..! فلم يكن أمامهما سوى أن يفرّا من الشقة خوفًا، بعد أن أخذا الدفتر.

دونتُ كل ما جرى لي في الدفتر.

ومع ذلك وصلتني رسالة من الرجل..ولا أعرف لماذا وجدتُ في نفسي الرغبة في أخوض هذه المغامرة التي أحس أنها مغامرة ستكلفني حياتي..! نعم ستكلفني حياتي.. أريد أن أخوض هذه المغامرة، مع إنني الآن خارج الضغط والتهديد.. الرغبة متأججة في داخلي.

***

وانقطع النص في الدفتر الثالث. شعر آدم السيد بالتيه. فها هو قد انتهى من قراءة الدفتر الثالث من دون أن تتضح أمامه الصورة بل على العكس من ذلك إزدادت غموضًا.

فهو لا يستطيع تحديد شخصيات الأوادم الذين كتبوا هذه الدفاتر، مع العلم إن النساء يؤكّدن بأن آدم تسفايغ الذي في الصورة المنشورة بالصحف عنه هو من يعرفنه حقًا، وهو الذي منح كل منهن دفترًا يذكر فيه سيرته وسيرة المرأة

التي منحها الدفتر، لكن كل واحدة منهن تؤكد بأنه يحمل إسمًا غير المنشور مع الصورة، ويختلف في كل دفتر.

ومن ناحية تخصصه فقد كان في ورطة. حيث لم يستطع أن يحدد طبيعة شخصية أصحاب الدفاتر من خلال خطوطهم، فالشخصيات من خلال خطوط كتابتهم تبدو مرة انبساطية، ومرة منعزلة، ومرة من ذوي الحساسية السادسة، وأخرى مفكرة، أو شعورية شاعرية.

ونماذج الخط المختلفة: الخط الصغير، والخط الكبير، والخطوط ذات المثلثات والزوايا، والإبر والحواف في المنطقة العلوية من الأحرف، أو عدم وجود زوائد خطية في بداية الأحرف والكلمات، أو بساطة الخط، أو كثرة الخطوط الأفقية، أو كتابة الأحرف الكبيرة في بداية، أو.. أو.. أو..! وأحتار في التقرير الذي عليه أن يقدمه.

حمل هاتفه النقال واتصل بالرائد آدم عبدالسميع. وكان الآخر ينتظره إذ جاء التلقي مباشرًا، فقال له آدم السيد بنبرة فيها إحباط واضح:

- تحياتي أستاذ آدم.. لقد انتهيت من قراءة الدفاتر الثلاثة..

صمت للحظات استمع فيها لرد الرائد ويبدو أن الآخر سأله عن النتائج، لأن آدم عبدالسيد قال له:

- لا نتائج تذكر..! فكل دفتر منها مكتوب بعدد من الخطوط التي تشي بأن لصاحب الدفتر أكثر من شخصية وأكثر من خط.. ولا يمكن أن نقول شيئًا خاصًا عنه، فهو غامض فعلًا. فربما هو آدم غراس، وآدم فايس، وآدم كلاين. وربما هو نفسه آدم الشائع..؟! لا أدري.. لا يبقى أمامي هنا سوى أن ألتقي بالنساء شخصيًا لأعرف عنهن وعن صاحب الجثة أكثر..!

ويبدو أن الرائد آدم عبدالسميع أجابه بما صدمه، فبعد لحظات كان رد آدم السيد متوترًا ومستغربًا:

- ماذا تقول سيادتك..؟! أتؤكد تحرياتكم عنهن بأن كل واحدة منهن توجهت

بشكل شخصي ومنفرد إلى فندق „باب السماء"..؟ولم يخرجن بعد..؟ لكن هذا يعني ضرورة توجهي إلى ذلك الفندق بنفسي، بيد أن الوقت الآن متأخر..! ماذا..؟ أسترافقني إلى الفندق أيضا.!؟ هذا أمر جيد فكلما تأخر الوقت كلما ضمنا وجود الجميع هناك.. أنا موجود في البيت..؟ هذا جيد سأنتظرك بعد ساعة في البيت.

أنهى آدم السيد مكالمته مع الرائد آدم عبدالسميع، وشعر بشيء من الرهبة حينما فكر بأنهما سيذهبان إلى ذلك الفندق الغامض الذي هو مستقر وملجأ الأرواح الغامضة والتائهة في دروب الحياة. لكن فضولة في كشف سِر هؤلاء الأوادم الذين في الدفاتر الثلاث، الذين على اختلاف قصصهم، جاءوا من النمسا، وتزوجوا من نساء نمساويات، وحصلوا على الجنسية النمساوية، ثم ماتوا، لكنهن عادوا لبلادهم، وبالتحديد إلى فندق „باب السماء"!؟؟.

لا يدري كيف راوده إحساس من أعمق أعماقة بأنه يعرف هؤلاء وقصصهم بشكل غامض، فهي تترآى له كأنه التقى هؤلاء الأشخاص لا سيما وأنه عاش هناك أيضًا.

خلال تلك اللحظات التي كان هو مندهشًا مع تيار تلك الأحاسيس الغامضة، سمع طرقًا على الباب. فكر من يأتيه في هذا الوقت، فجارته حواء اللبّان لديها المفتاح. حين فتح الباب فوجئ. كان آدم الحديدي واقفًا أمام الباب.

الفصل التاسع

جنون آدم الحديدي

قبل أن يدعو آدم السيد صديقه آدم الحديدي إلى الدخول مَرَقَ الآخر داخلًا واتجه إلى الصالة. وحين التفتَ آدم السيد إليه وجده جالسًا على مقعد منفرد على أحد جوانب الصالة. فجلس هو بالقرب منه مرحبًا ومستغربًا مجيئة في مثل هذا الوقت المتأخر.

انتبه آدم السيد إلى أن جبين ضيفه يغطيه العرق، ظن أنه من سرعة المشي، لكنه انتبه إلى ارتجاف في شفتيه، وشحوب في لونه، لكنه كان يقاوم من يجري في داخله.

سأله آدم السيد من باب المجاملة:

- هل تعشيت..؟

- نعم.. لكن ليس هذا هو المهم.. لدي أنباء أهم..

توجس آدم السيد شيئًا غير مريح. انتبه إلى مشاعر الغضب والحقد المرضي التي تشع من نظراته، فأراد أن يمنح نفسه شيئًا من الوقت، فقال له:

- سأعدّ الشاي أولًا ثم تخبرني ما هي الأنباء المهمة التي لديك..

ولم يترك لآدم الحديدي فرصة أن يواصل الحديث. هو يحتاج لبعض الوقت كي يختلي مع نفسه، فقد سببت له هذه الدفاتر تشويشًا كبيرًا.

حين صار في المطبخ أخذ يعد الشاي، وبقى هناك ولم يعد إلى الصالة تجنبًا للنقاش، وفكر في آدم الحديدي ونظرات الغضب والحقد في عينيه، أخذ يسأل نفسه: „من أين تأتي مشاعر الحقد لدى الإنسان؟ أبسبب الحسد؟ أم الغيرة؟ أم دافع المنافسة؟..الحسد هو إحساس بالعجز مع أننا نبذل جهدًا للوصول لما نصبو إليه، وحين يصله شخص آخر فإننا نحسده، هل لأننا وصلنا لما كنّا نبغي الوصول إليه بينما

هو عجز عن ذلك، لذا فإن آدم الحديدي يحسدنا ويحقد علينا نحن رفاق الأمس..!

أراه إنسانًا روحه قد تسممت بالحقد، فهو غيور من أبسط الأمور، من أثاث بيتي، ورحابة شقتي ونظافتها مع أنها ليست كبيرة، ومن اهتمام جارتي بي ومساعدتي في تدبير أموري. في روحه خليط من مشاعر متعبة، مشاعر الحسد والغيرة التي تحولت إلى كراهية لا واعية..!".

عاد إلى الصالة وهو يحمل صينية عليها دورق الشاي وقدحان وقندون السكر. من جانبه أدرك آدم الحديدي بأن آدم السيد تأخر في المطبخ كونه يتجنب مواجهته، فهو ضيف غير مرحب به في مثل هذا الوقت، لكنه لم يكن يبال بما يحتمل أن يكون آدم السيد قد فكر فيه. فقد جاء خصيصًا ليواجهه بما توصل إليه.. مع إن الأقدار كانت له بالمرصاد.

أخذ آدم السيد يصب الشاي صامتًا. كان آدم الحديدي يتأمله بإمعان ونظرات عدوانية لكنه كان يقاوم ألمًا فظيعًا يعاني منه، فجأة، قال له:

- لم تسألني عن الأنباء المهمة التي توصلت إليها.!؟

أحس آدم السيد بالإحراج، وقال له:

- أردت أن نشرب الشاي أولًا، ثم نتحدث بهدوء..!

نظر إليه آدم الحديدي نظرة فيها غضب مشوب بحقد وهو يتصبب عرقًا، وقال:

- أي هدوء.. لقد سقطت هذه الكلمة من قاموسي منذ سنين..كلنا نمضي للنهاية..ربما الهدوء يأتي بعد النهاية بقليل..

- أف.. أف.. ما هذا يا آدم.. لقد كنتَ أشدنا رومانسية..!

نظر إليه آدم الحديدي ليتأكد من أنه لا يسخر منه حين قال تلك الجملة، وانتبه إلى وجه آدم السيد المحايد إلى حد ما والذي يكتم مشاعر غامضة، قال:

- في الرومانسية سم روحي يوقد الحقد المبطن، والذي يتجسد من خلال شعارت الرفض والتمرد اللفظي. الرومانسية الثورية التي تؤكد على الصراع الطبقي هي في الجوهر حقد طبقي..!

انتبه آدم السيد إلى ما قاله صديقه الحقود، لكنه انتبه للتعرق الشديد الذي غمر وجهه وحالات قريبة من الأغماء يعانيها صديقه.. لكن تداعياته أزاحت انتباهه عن حالة ضيفه الصحية، فهو يتذكر صديقه حينما كانوا شبانًا، فقد كانت رومانسيته تدفعه إلى الغرور لرفضه أن يكون من أتباع أحد، علمًا هو في تكوينه وآرائه خليط من آراء مختلفة لغيره، لكنه يظن إنه الأصل الأصيل..! بل لقد كان حتى في تمرده تقليديًا، فهو يقلد نزعات وتمردات أخرى لآخرين، أو يتمرد على غرارهم، لكنه يغالي في الأمر قليلًا كي يميز نفسه عنهم.

أخذا يرتشفان الشاي بصمت. كان آدم الحديدي واضحًا بأنه ليس على ما يرام صحيًا. وكان الجو بينهما مشحونًا لكنه ساكن.

كان الماضي حاضرًا في ذهن آدم السيد. ففي هذا العمر أدرك أن مشكلة الحب تكمن في خضوعه للغيرة من المنافس. وليس مهما أن يكون المنافس حقيقيًا فكثيرًا ما يكون مفترضًا في ذهن المحب.

وتذكر علاقة ضيفه بزوجته التي تزوجها عن حب، وكثيرًا ما كان هو ورفاقه يفكرون آنـذاك، في سِر حبها له، فهو في رأيهم متحذلق، خيال مآتة، يفتقد الأصالة، حياته وأفكاره وسلوكه ليس أصيلًا، وإنما هو يتلبس كل هذه الأشياء كي يراه الآخرون كما يريدون، وليس كما يريد هو عن رغبة أصيلة. هو صنيعة أذواق الآخرين وآرائهم. وربما سنوات السجن قد غيرته، لا. لا. لقد جعلته أكثر عدوانية ووقاحة وعنفًا وحقدًا على كل شيء.

وبصوت متعب حاول آدم الحديدي أن يجعله قويًا قال بنبرة عدوانية:

- مرة أخرى لم تسألني عن الأنباء المهمة التي لديّ..

ارتبك آدم السيد، وقال بتوتر مكتوم وهو يرد على نبرة العدوانية في كلامه وقال:

- الأنباء لديك وليست لديّ.. هاتِها..

كان آدم الحديدي يتألم بشكل حقيقي، لكنه كان يكابر، وكأن عليه أن ينهي مهمة جاء من أجلها:

- لن يسرك ما سأخبرك به..وعموما لقد بحثتُ عمَّا كنت أريد معرفته من لحظة قدومي إلى هنا.. كنت أبحث عمّن أخبر عني حين سافرت إلى القرية ولقد عرفت ذلك..! أنا كنت في السجن بينما أنتم كنتم تنعمون بالحياة الرغيدة..

توجس آدم السيد شرًّا لكنه تماسك وقال:

- ومن قال لك إننا كنا ننعم بالحياة الرغيدة..أنت واهم ياصديقي..أن تكون حارسًا على باب الفردوس لا يعني أنك في الجنة، فأنت خارجها، عند الباب الخارجي. والسجّان هو سجين أيضًا، لكنه يشعر بأنه حر، مع إنه يقضي وقته كله في السجن، هو في مكتبه داخل بناية السجن حيث البوابات الخارجية مغلقة بالكامل، والسجناء في زنازينهم يقضون يومهم. الحرية شعور وليس إرادة فقط. بعضهم يبقى في مكتبه داخل السجن حتى بعد انتهاء الدوام ولا يود العودة إلى البيت الذي هو سجنه الحقيقي..! كلنا سجناء في دوامة غامضة.

فقال آدم الحديدي بغضب واضح وعيناه تقدحان حقدًا مرضيًا وجبينه يتفصد عرقًا:

- لكنك لا تعرف ما معنى أن تكون سجينًا في زنزانة..هي سترافقك حتى بعد أن يطلق سراحك.. زنزانتك تبقى قابعة في أعماقك ولا يمكن هدمها بسهولة..ستحتاج لوقت طويل، قد يمتد طوال عمرك..!

انتبه آدم السيد إلى أن التوتر بينهما كان واضحًا، لكنه أراد أن يكسر من حدته فقال:

- لكن بعض الأحرار الذين يعرفون إنهم سجنوا نتيجة لأفكارهم التي تدعو إلى التحرر يشعرون بالحرية وهم في زنازينهم..!

نظر آدم الحديدي إلى صاحبه نظرة ساخرة وقال بصوت متعب ومجهد من الألم:

- هذا ما يبدو لك باعتبار إن الحرية هي وعي الضرورة كما كنا نردد في اجتماعاتنا أيام الشباب.. أليس كذلك..؟ لكنك يا أيها الخبير لا تعرف معنى أن تمتلئ ثيابك بالقمل، أو أن تفتقد التدفئة أو التبريد، أو أن يحدد لك من نصف ساعة إلى ساعة كي تمشي فيها، وتأكل الأكل ذاته يوميًا.. أن تتكرر أيامك فيفقد الزمن معناه..! مع إني أتفق معك بأن الحرية في جانب منها شعور وإحساس داخلي عميق..

فقد تكون متمددًا على الشاطئ وأمامك أطفالك أو عائلتك إلى جنبك والفتيات المثيرات يتمشين أمامك، وثمة من يسبح، أو يتمدد على الرمل لتبلله الأمواج، وهناك أطفال يلعبون بمرحٍ، ومع ذلك تشعر بأنك مكبل..مشلول..وربما تتمدد في جحرك الذي لا يتسع إلاّ لجسدك بينما تشعر أنك أسعد مخلوق في الدنيا. لكني كنت تعيسًا في الحب وتعيسًا في السجن وها أنا تعيس وأنا خارج السجن بينما السجن في داخلي...

توقف للحظات أحس آدم السيد بأن ضيفه يعاني من حالة مرضية تشبه المصاب بالكلي أو من يعاني أعرض إلتهاب الزائدة الدودية، فسأله:

- هل أنت بخير..؟ ما بك؟ هل تتألم وتعاني من شيء..؟

نظر آدم الحديدي إليه للحظات وكأنه يتبحث عن الصدق وليس المجاملة في عبارت مضيفه، فقال:

- لا.. لا..لا شيء مهم..دعني أفيض ما لديّ..أعرف أنكم كنت تحسدونني على زوجتي الحقيرة وتستكثرونها عليّ..ومن خلال اجتماعاتكم وإعجابكم الوقح والمعلن بها، بل بجسدها المثير، انتبهتْ هي لحالها، وأدركتْ أنها أقدمت على علاقة من دون أن تفهم معناها، فقد تزوجتني في حالة لاوعي منها.اعجابكم بها ومحاولات الخنزير قائد مجموعتنا دفعها إلى أن تعيد النظر في علاقتها بي..! أنا لستُ دمية ترميها ولا قميصًا تخلعه ولا خادمًا طوع بنانها، ولستُ ممثلًا كومبارسًا العب دورًا تافها في حياتها، اعجابكم وغواية ذلك الخنزير لها بالكلام ووفيض المدائح عن جمالها دفع بها من حافة الجرف إلى الهاوية، وسقطت في أول فخ نُصب لها..!.

ارتبك آدم السيد حين سمع ذلك، فقد كان في الجوهر دقيقًا، لكنه توجس شرًا من وراء البوح فقال له محاولًا التهدئة:

- خفف عنك يا آدم.. مضت سنوات على ذلك..!

فأجابه آدم الحديدي المتصبب وجهه عرقًا بصوت في نبرة غضب وحقد واضح:

- لا..فالموتى لا يعرفون الزمن ولا يشعرون به..! لقد كنتُ ميتًا في السجن بينما أنتم كنتم تتمعون بالحياة..ولقد عرفتُ بأنكَ أنتَ من أبلغ الرائد آدم عبدالسميع عن ذهابي إلى القرية وقد رويتَ لي حكاية كاذبة..!

شعر آدم السيد بأن الأشياء بدأت تتداعى وتنهار، والنهايةُ قد اقتربتْ، فهذا الحاقد حتى الهستيريا والجنون سيقترف جريمة بحقه، لكنه أراد بطريقته أن يسيطر على الوضع، لذا وبطريقة مخاتلة فكر بتجنب أي صدام معه بعد هذه المكاشفة الخطيرة. وفي تلك اللحظة رنّ الهاتف في غرفة المكتب فقال لصاحبه الخطير والذي يعاني من أمر يجهله:

- هل تسمح.. عليّ أن أرد على المكاملة..!

ابتسم آدم الحديدي له بسخربة وحقد وقال:

- تفضل..

ظل الهاتف يرن، لكن ما إن دخل آدم السيد المكتب حتى توقف الرنين. نظر في شاشة الهاتف فرأى أن الاتصال مجهول. على السريع كتب رسالة للرائد آدم عبدالسميع."الوضع خطير..تعال بسرعة فآدم الحديدي ينوي شرًا..الرجاء القدوم فورًا".. ضغط على زر الإرسال، ثم واتته فكرة أخرى فكتب رسالة إلى جارته حواء اللبّان رسالة نصية أيضا:,,إذا كان بإمكانك المجيء فتعالي فورًا..وإذا كنت مترددة فلتجيء أختك معك لكن بسرعة". وضغط على زر الإرسال.

لكنه شعر بقشعريرة تسري في جسده حين سمع آدم الحديدي يقول له من مكانه:

- لن يستقبل الرائد آدم عبد السميع الآن رسالتك..!

أقبل آدم السيد إلى الصالة والهاتف بيده وجسده يرتجف توترًا وغضبًا وخوفًا وقال لضيفه الغريب الأطوار:

- ماذا تقصد..؟

نظر آدم الحديدي إليه بسخرية واستهتار وقال بوقاحة لكن بنبرة متعبة :

- أجلس..أجلس وسأوضح لك..اسمعني أيها الخبير آدم السيد..لقد كنتَ أكثرنا ثقافة في تلك المجموعة الساذجة من الثوريين الحالمين. وكنتَ تدوّخنا بحديثك عن سبينوزا وبقية المفكرين..كنتَ تحفظ مقاطع طويلة من كتبه. كنت أحسدك دائما لثقافتك..وكنتُ أغار منك لأن زوجتي الحقيرة كانت معجبة بك وبثقافتك..

وفي السجن وبعد سنوات صرتُ مقربًا من السجانين بحكم العشرة الطويلة، لذا طلبت منهم أن يأتوني بكتب سبينوزا وغيره..ولم يكن الأمر صعبًا من الحصول على نسخ مستنسخة من تلك الكتب..أذكر إنه يقول في أحدى طروحاته بما معناه بأن الإنسان المرفه، حتى قليل الخبرة، والساذج منهم، يرفض توجيه النصح له، بل يُعد إهانة له لو نصحته بشيء أو أرشدته إلى شيء، لكن في أوقات الشدة، كما نحن فيه الآن، فيتغير كل شيء، إذ يتخبط هؤلاء ويقعون في حيرة، ويفكرون ممّن عليهم طلب النصح.. بل هم يتلمسون النصح والحل وطلب الانقاذ من كل من هب ودب..! مثلما فعلتَ أنت بإرسال رسالة نصية إلى الرائد آدم عبد السميع، وكذلك إلى جارتك، وطلبت منها المجيء مع أختها.. أليس كذلك..!؟

ارتبك آدم السيد وشعر وكأنه داخل الحكايا التي قرأها في الدفاتر الثلاث، حيث لا غرابة للغرابة، وأنما الغرابة في أن نستغرب كل ما هو خارج المنطق. لكنه سمع آدم الحديدي يواصل:

- لقد غمر اليأس براري روحي، وهدرت أمواج الاضطراب.. كنت قبل مجيئك عند الرائد آدم عبد السميع في بيته، فكما تعرف إنه يعيش وحيدًا بعد سفر ابنه الوحيد للدراسة في النمسا. لكني استغربت من عالمه البيتي.. ويبدو لي أن توجهه للشرطة والأمن ليس وجهه الحقيقي..فبيته بدا لي وكأنه مختبر للأحياء، حيث العقارب تدور وتلدغ بعضها في القناني الزجاجية، وأفاعي الكوبرا، كل واحدة منها في قنينة زجاجية، بل رأيت عقدة للأفاعي تلتف على بعضها قي صندوق زجاجي، بل حتى الأفاعي ذوات الأجراس كانت في حوض زجاجي كبير، لذا خفتُ..بل ومن شدة خوفي لم أتحدث طويلًا مع الرائد فقد سمعته يجيب أحدهم في الهاتف بأنه سيمرّ عليه بعد ساعة ليتجها إلى حيث أعيش حاليا في فندق ,,باب السماء"..وأظن أنه كان يحدثكَ أنت..! لذا أطلقت عليه الرصاص وأرديته قتيلًا وهربت..لكنني أثناء هروبي تعثرت فاصطدمت بالمنضدة التي يضع عليها أحواض وقناني الأفاعي فسقط ثلاثة أحواض منها، كان بينها حوض فيه أفاعي الكوبرا التي لم انتبه إلا وقد لدغتني إحداها..!

- ماذا..؟ قتلت الرائد آدم عبد السميع..؟ ولدغتك أفعى الكوبرا..؟

أحس آدم السيد بما يشبه الشلل، فهذا المجنون جاء لقتله، وفهم مما قاله بأن آدم عبد السميع لن يقرأ رسالته، لكن أين جارته؟ وكيف عرف أنه أرسل لها رسالة هاتفيًا أيضًا.

وفجأة انتبه إلى أن آدم الحديدي أخرج من جهة الظهر مسدسًا عليه ماسورة كاتمة للصوت، ووجهه نحوه وهو يقول بصوت متقطع:

- الآن جاء دورك..عليك أن تلحق بالرائد آدم عبد السميع لتذهبا إلى فندق „باب السماء"..

وبعبثية كبيرة واجه آدم السيد موته. لم يشعر بشيء سوى بالصمت والظلام.

كان آدم الحديدي قد أطلق رصاصة في جبين آدم السيد. وبصعوبة كبيرة قام من مكانه. وتوجه نحو الباب وغادر الشقة. نزل درج المبنى بصعوبة ثم اختفى في العتمة. عند الشارع العام أحس بالضعف الشديد، فأوقف سيارة أجرة وقال للسائق الذي لم يستطع أن يراه من شدة العتمة:

- إلى فندق „باب السماء"

فتح الباب وألقى بنفس على المقاعد الخلفية. وانطلقت السيارة.

❋❋❋

وجدت حواء اللبّان الباب مفتوحًا بشكل موارب، ومع ذلك طرقته طرقًا خفيفًا. كانت مع أختها المُطلَّقة. ولما لم يجبها أحد دخلت. ومن نظرتها الأولى التي ألقتها على آدم السيد صُدمت. وقبل أن تنتبه أختها خرجت وهي تدفع أختها دفعًا. وأغلقت الباب خلفها.

لم يمض من الوقت إلا القليل على رؤية حواء اللبّان لآدم السيد وهو مصاب بطلق ناري في جبينه والدم قد غطى قميصه الأبيض، حتى طُرق الباب طرقًا خفيفًا أيضًا فقد أغلقته الجارة حواء اللبّان حين هربتْ من المشهد.

في تلك الحظات تكرر الطرق، فقام آدم السيد من مكانه وتوجه إلى الباب فاتحًا إياه، فواجهه الرائد آدم عبدالسميع. دعاه للدخول لشرب الشاي، إلا إن الرائد آدم قال له:

- علينا أن نكون هناك في منتصف الليل..! فمن عادات فندق ,,باب السماء" يكون معظم ساكنيه بهذا الوقت في غرفهم..!

فسأله آدم السيد بحيرة:

- هل قابلت آدم الحديدي الذي قتل زوجته قبل سنين واعتقلته أنت، والذي كان قد خرج من السجن قبل فترة..؟

- بلى، لقد جاءني إلى البيت، اغتالني، أطلق عليّ الرصاص وهرب، لكنه تعثر بأحواض الأفاعي التي سقطت وانكسرت، فلدغته إحدى أفاعى الكوبرا..

نظر إليه آدم السيد مستغربًا، وقال:

- وها أنت تحدثني؟

- مثلما تحدثني وأنت ميت..! فقد جاء إلى هنا وقتلك أيضًا..المهم دعنا نذهب الآن إلى فندق ,,باب السماء"..وهناك سنعرف الحقيقة..!

وخرجا. لكن في اللحظة التي فتحا فيها باب الشقة كانت حواء اللبّان قد فتحت شقتها أيضّا، فارتدت للوراء مرعوبةً حين رأته حيًا.

نزل الرجلان إلى الشارع المعتم. وحين وصلا إلى حيث تمثال الشاعر في تلك الساحة التي تتوسط شارع الرشيد كان ظلهما واضحًا على قاعدة التمثال، ثم توجها إلى حيث فندق ,,باب السماء" القريب.

بدأت الكتابة في ٢٠١٨/٩/٢٦ ببرلين

انتهت فجر يوم ٢٠١٩/٩/١٢ في أربيل

فهرس المحتويات